من تراث العلامة الندوي

مقالات إسلامية
في الفكر والدعوة

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

الجزء الثاني

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالات إسلامية

في الفكر والدعوة

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة أبن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - ٣ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

Info@ibn-katheer.Com - www.ibn-katheer.Com

مقالات

في الفكر والدعوة

طبيعة الرِّسالات السَّماوية ومعجزة صناعة الإنسان[1]

إنَّ ما تقتضيه طبيعة الرسالات السَّماوية ودراسة تاريخ حملتها ، هو أن تتحقَّق معجزة صنع الإنسان ، كما لو كانت ولادته من جديد ، ويكون لدعوتهم وصحبتهم من التـأثير وقلب طبـائع الأشياء ما لو ذكر بإزائـه تأثير «حجـر الفلاسفـة» الأسطوريُّ «والكيميـاء» ، دل على الجهـل بالحقـائق التاريخية ، واعتبر إهانةً للنبوَّة والأنبياء.

وكذلك يجب أن تتحقَّق هذه النتيجة الخارقة للعادة ، من غير اعتماد على الأساليب والوسائل التربوية والإعلامية التي تستخدمها طبقة الحكماء والمثقفين ، ومعلمي الأخلاق وخبراء التعليم والقادة السياسيين ، والتي تعتمد عليها المؤسسات التربوية والحكومات الذكيَّة ، مثل عملية تدوين العلوم والفنون الواسعة، وتأليف الكتب البارعة ، وإلقاء الخطب الساحرة، وإنشاء المدارس الكثيرة ، واستخدام الأدب والشعر ، وتجسيد الحقائق والمعاني لغرس الفكرة وتحبيبها وترسيخها، ومنح الجوائز والمناصب والوظائف العالية ، وما إلى ذلك من وسائل مؤثرة ، وأساليب حكيمة.

ثم إنَّ المقارنة بين تربية ذلك النبي وصحبته ـ الذي كان أُمِّيّاً محضاً بعيداً عن جميع ملابسات العلم ، مضافاً إلى ذلك تفرده بمشكلات ومقاومات ، وفقد وسائل ، لا يمنى به غالب المشتغلين بتعليم شعوبهم وتربيتها ـ وبين

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول ، المجلد الثلاثون ، عام ١٩٨٥ م.

تربية المعلمين والقادة العاديين ، تدلُّ دلالةً واضحةً على الفرق الهائل بين جنسي التأثيرين والانقلابين ، وعلى تباين مصدريهما ، فإنَّ ما يتحقَّق من التحوُّل في العقائد والميول ، والسيرة والأخلاق في ظلِّ تعاليم الرسول ، وفي أحضانه ، ينبثق من رعاية الله ، وتأييده الغيبي ، ولا يمكن أن يعبر عنه بكلمة غير «نور النبوة» و«بركات الصحبة» .

إن الذين يسعدون بتربية الرسول ﷺ وصحبته ، إنما تتحلى حياتهم بالصلة الوثيقة بالله ، وبالإخلاص ، والعبودية ، والتواضع ، والإيثار ، وهضم النفس ، وذوق العبادة ، والانصراف عن حكام الدُّنيا والاهتمام بالآخرة ، ومحاسبة النفس محاسبةً دقيقةً أمينةً ، والاستقامة على الدِّين ، وهي الذروة الإيمانيَّة ، والخلقية التي لا سبيل إليها ، ولا مطمع فيها للذين يتلقون التربية على أيدي الحكماء ، والفلاسفة ، وخبراء التعليم ، ومعلمي الأخلاق .

ولقد صوَّر القرآن الكريم هذه التربية النبوية ، والتأثير الثوري الجذري الذي يتمُّ على يد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ففي سورة الجمعة :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٤] .

ويقول عز وجل :

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

وكذلك يقول :

﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح : ٢٦] .

ويقول :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ

فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ٢٩].

لا بدَّ من أن تثمر الدعوة في حياة الرسول نفسه ، وأن تنتج جيلاً جديداً لا يشبه الأجيال القديمة ، ولا يقبل انتكاساً ولا انتكاصاً :

إنَّ ظهور معجزة التأثير والهداية في حياة الرسول ﷺ ، وظهور الثورة في الأخلاق والعقائد ، وبروز نماذج إنسانية عمليّة ـ من أروع ما شاهد التاريخ من نماذج وأجملها ـ يشقُّ الطريق للإسلام ، وتترامى بفضله وتأثيره أممٌ وأقطارٌ في أحضان الإسلام ، ويتكوّن مجتمعٌ كاملٌ حيٌّ يعتبر مجتمعاً مثالياً نموذجياً من كلِّ جهة .

ويجب أن يتحقَّق كلُّ ذلك في حياة الرسول ، وعلى إثر وفاته ، حيث إنَّ الدِّين الذي لا يستطيع أن يقدم أمام العالم عدداً وجيهاً من نماذج عمليةٍ ناجحةٍ بناءةٍ ومجتمعاً مثالياً في أيّام الداعي ، وحامل رسالته الأول ، لا يعتبر ناجحاً ، كما أن الشجرة التي لم تؤت ثمارها اليانعة الحلوة ، ولم تتفتح أزهارها العطرة الجميلة أيام شبابها ، وفي موسم ربيعها (وهو عهد النبوة) شجرة لا تعتبر مثمرةً سليمةً ، وكيف يسوغ لدعاة هذه الدَّعوة ، والدِّين وممثليهما الذين ظهروا بعد أن مضى على عهد النبوة زمنٌ طويلٌ أن يوجِّهوا إلى الجيل المعاصر ، والعالم الحاضر دعوةً إلى الإيمان ، والعمل ، والدخول في السِّلم كافةً ، والتغيُّر الكامل في الحياة وهم عاجزون ـ في ضوء الشيعة وأقاويلهم ـ عن تقديم نتائج حيَّةٍ باهرةٍ للألباب ، مسلمةٍ عند المؤرخين للمجهودات التي بذلت في العهد الأول ، وفي فجر تاريخه ، في سبيل إبراز أمَّةٍ جديدةٍ ، وإنشاء جيلٍ مثاليٍّ يمثِّل التعاليم النبوية أصدق تمثيل ، ويبرهن على تأثيرها ونجاحها .

ميِّزة الرسول عن مؤسسي الحكومات والقادة الماديين حول تأسيس المملكة الوراثية وازدهارها :

كذلك من البديهيات اللازمة أن يكون هذا الداعي الأول ، والمرسل

من الله ، وحامل رسالته متميِّزاً عن مؤسسي الحكومات ، والفاتحين ، والغزاة، والقادة السياسيين ، والزعماء الماديين في طبيعته ، وأذواقه ، وسلوكه ، وعمله ، ومقاصده ، ونتائجه تميزاً واضحاً ، ويكون هنالك تناقض بيِّنٌ بينه وبين هذه الطائفة ، إنَّ محور الجهود التي يبذلها مؤسسو الحكومات وفاتحو البلدان ، وزعماء العالم ، من أصحاب الطموح ومجربي الحظوظ ، وهدفهم الأعلى (أو النتيجة الحتمية الطبيعية على أقل تقدير) إنما هو قيام مملكةٍ خاصَّة ، وتأسيس حكومةٍ وراثيةٍ.

إنها ظاهرةٌ طبعيةٌ ، وحقيقةٌ تاريخيَّةٌ على مرِّ القرون والأجيال يشهد بذلك تاريخ ازدهار الأسر الرومية ، والبيزنطية ، والساسانية ، والكيانية ، وأسرتي «سورج بنسي» و«جندر بنسي»[1] أما إذا لم يتحقَّق قيام دولةٍ قبليةٍ ، أو عالميةٍ لسبب قاسر؛ فأقلُّ درجةٍ لدى هؤلآء المؤسِّسين للحكومات ، والفاتحين والغزاة ، وزعماء السياسة (الذين تمَّ لهم النجاح في التحرُّكات التي قاموا بها) أن يمتلكوا العزَّة ، والثراء الفاحش ، وأسباب التنعُّم والترف الموسعة ، إنَّهم يتقلَّبون في أعطاف النعيم ، ويتأرجحون في أراجيح الذهب والفضة ، وشأنهم في ذلك شأن أسدٍ في الغابة يفترس لنفسه ، ويأكل من بقايا صيده مئات من الوحوش ، إنَّ قصة النعيم والترف الذي تقلَّبت في أعطافه أسر المتربعين على عروش الحكم في رومة ، والدولة الكيانية ، يشبه أساطير خيالية وقصصاً جنِّية ، ولولا أنَّ وراءها شهادات تاريخية لما صدَّقها العقل[2] يمكن تقدير ذلك من تلك الأبهة العظيمة التي وجدت في بلاط كسرى ، وبالتفاصيل المدهشة التي يتحدَّث عنها المؤرخون عن «فرش بهار»[3] وعن الأسر المالكة في الدول الروميَّة والقادسية والهندية ، وعن

---

(١) أسرتان ملكيتان مشهورتان في الهند قبل الإسلام ، حَكمتا زمناً طويلاً.

(٢) راجع كتاب «إيران في عهد الساسانيين» ، للبروفيسور الدنماركي أرثر كرستن سين (Arthur Christensen) الباب التاسع ، وتاريخ إيران لمؤلفه شاهين مكاريوس ص ٩٠.

(٣) هو بساط كان يبسط أيام الخريف وتنعقد عليه مجالس الشرب والغناء استحضاراً لذكريات الربيع.

أساليب الحياة لأتباعهم وبذخهم بذخاً لا يتصوَّر.

بالعكس من ذلك فإنَّ الرسول المبعوث من الله لا يؤسس مملكةً وراثيةً، ولا يقوم بتوفير فرص وإمكانيات التنعم والترف الذي يمتدُّ إلى مدةٍ طويلة لأفراد أسرته، ولا يهتمُّ بالحدب على مصالحهم لكي يتمكَّنوا بفضل ذلك من العيش في رفاهيةٍ، وتفرُّغٍ من الهموم ومتاعب الحياة، بخلاف طبقات الأمَّة الأخرى، بل بالعكس من ذلك يعيش أفراد أسرته ـ في حياته وبعد مماته ـ حياة زهدٍ وتقشُّفٍ، وقناعةٍ وإيثارٍ، وتنازلٍ عن كثيرٍ من أسباب الرفاهية والرخاء، ويعتمدون على مجهوداتهم، وكفاءاتهم الذاتية، دون أن يعيشوا مترفين متنعمين على حساب غيرهم، مثل أسر البراهمة عند الهنادك، «والأكليروس» (Clergy ـ رجال الدين المسيحي) أو كأيِّ جنس مقدس.

الصحيفة السماوية المنزلة على الرسول يجب أن تكون محفوظة صالحة للفهم العام، وفي متناول الجماهير:

إنَّ الشرط اللازم للدين العالمي الخالد أن تكون هذه الصحيفة السماوية التي أنزلت على الرسول والتي تكون أساساً لدينه، ومصدراً لدعوته وتعاليمه، وأكبر وسيلةٍ لربط الخلق مع الخالق، وتوثيق علاقته به، وسبباً قوياً لإثارة الربانية الصادقة في أتباعه، محدِّداً للعقائد، مبيناً لها (وخاصةً لعقيدة التوحيد) إلى يوم الدين، ومحافظاً لها، ومهيمناً عليها، وأن تكون تلك الصحيفة كتاب هدايةٍ للإنسانية جمعاء، قد تولَّى الله تعالى حفظه وصيانة كلِّ حرفٍ ونقطةٍ منه، مع تمكين الناس من فهمه، ويكون قد هيَّأ الله سبحانه وتعالى الجوَّ المناسب، والفرص المواتية لقراءته، وكثرة تلاوته، وحفظه واستحضاره بدرجةٍ لا يوجد لها نظير في الدنيا، ذلك لأنَّه كتاب الله الأخير، وسفينة نجاة للإنسانية، ويجب أن يكون بعيداً عن كلِّ تصرُّفٍ إنسانيٍّ، ومن كلِّ تغييرٍ، وتبديلٍ، وحذفٍ وزيادةٍ، ومن أيِّ شائبةٍ من التحريف؛ إذ أنه لا يمكن بغير ذلك أن توجه دعوة إلى الناس للإيمان بهذا الكتاب، ولا أن يقدم أمام العالم كشهادةٍ، كما لا يمكن أن يستفاد،

أو يفاد منه ، إنَّ تاريخ الكتب التي ظهرت في العصر القديم والجديد (التوراة والإنجيل) والصحف السماوية يدلُّ[1] على ما واجهته هذه الكتب والصحف السماوية من تصرفات أعداء الدين ، وهجمات المهاجمين الظالمين ، وما تعرَّضت له من التحريفات اللفظية والمعنوية التي قام بها زعماء الديانات المغرضون الماديون ، وقد ظلت مجالاً واسعاً للأغراض الخسيسة ، والتغافل البشري ، وما هذا الفرق بين هذه الكتب والصحف السماوية وبين القرآن إلا لأن صيانة هذه الكتب المذكورة ، إنما تولَّاها أتباعها ، وحملتها ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[المائدة: ٤٤] أمّا القرآن فقد تكفل الله نفسه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

يجب أن يكون النبي بذاته مركز الهداية الوحيد ، والشارع المطاع:

الشرط اللازم لهذا الدين أن يكون النبيُّ بذاته مركز الهداية ، ومصدر القيادة ، ومحور العلاقة القلبية ، والانقياد الفكريّ للأمة ، فتعتقد بكونه خاتم الرسل ، ومنير السبل ، ومقتدى الكل ، ولا تسمح لأحد بعده بالمشاركة في النبوة والتشريع المطلق ، ولا تعتقد في أحد آخر العصمة ، وتعتبره مورد الوحي ، إنَّ وحدة هذه الأمة ومركزها واجتماع شملها ، وابتعادها عن الفرقة الاعتقادية والعملية ، وبقاء طاقتها الداخلية ، وقوتها الإيمانية ، يرتبط كلُّ ذلك بعقيدة «ختم النبوة» إلى حدٍّ كبير[2] ، وإنَّ عقيدة المشاركة في النبوة تضادُّ عقيدة «ختم النبوة»[3].

---

(١) وللاطلاع على تفصيل ذلك يرجع إلى كتاب العلاَّمة الندوي (النبوة والأنبياء في ضوء القرآن) فصل «الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ» ص ١٩٨.

(٢) للاطلاع على التفصيل راجع كتاب العلاَّمة الندوي (النبوة والأنبياء في ضوء القرآن) المحاضرة الثامنة ، ختم النبوة ـ ص ٢٢١ ـ ٢٦١.

(٣) عقيدة الإمامة وتعريف الإمام وخصائصه لدى الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، تعارض عقيدة «ختم النبوة» وترادف معنى (المشاركة في النبوة).

أعظم مأثرة نبوية للإصلاح والتربية وقلب الماهية :

من الواقع المحقق أنَّ كلَّ نبوَّةٍ قامت في عهدها بصياغة الإنسان صياغةً جديدةً ، وتربيته تربيةً فاضلةً ، وأعدَّت أفراداً منحوا هذا العالم حياةً من جديدٍ ، وألبسوا الحياة لباس الهدف والمعنى (الحياة التي كانت قد تجرَّدت عن الهدف بقصر نظر الإنسان ، وفكره الزائغ ، وجهله بحقيقة الحياة).

ولكن أعزُّ مأثرةٍ تلمع على جبين الحياة الإنسانية من بين مآثر النبوة ، هي المأثرة الكبرى التي قام بها محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، وقد سجل التاريخ مآثره النبوية في تفصيلٍ لا يوجد له نظير في غيره من الأنبياء ، فإنَّ التوفيق الذي أكرمه الله به في مجال تربية الإنسان وصياغته ، إنَّما تفرد به من بين الأنبياء والمرسلين فضلاً عن المعلمين والمربين ، إنَّ المستوى الذي بدأ منه النبيُّ ﷺ عمله في بناء الإنسانيَّة لم يحتج إلى ذلك المستوى أيُّ نبيٍّ ، أو مصلحٍ ، أو مربٍّ ، فقد كان ذلك آخر مستوى التدلِّي والإسفاف في المعاني الإنسانيَّة الكريمة ، تنتهي فيه حدود الحيوانية ، وتبدأ منه حدود الإنسانية ، وكذلك فإنَّ المستوى العلي الذي بلغ إليه النبيُّ ﷺ في عمل البناء للإنسانية لم يكن للإنسان عهدٌ به في أيِّ عصرٍ ، ولا جيلٍ ، فإذا كان النبيُّ ﷺ قد بدأ عمله من المستوى الأخير السافل للإنسانية ، فإنَّه قد بلغ به إلى أرفع قمَّةٍ للإنسانية وأعلاها .

أجمل صورة في مجموع الصور الإنسانية العالمي :

وكلُّ فردٍ من أفراد الجيل الذي أعدَّه الرسول الكريم كان نموذجاً رائعاً للتربية النبوية ، ومفخرةً وشرفاً للنوع الإنسانيِّ ، لا توجد صورة في المصوَّر الإنسانيِّ العالميِّ الواسع ، بل في الكون كلِّه ، أجمل ، وأروع وأشرف من هذه النماذج الإنسانية والأنماط البشرية ، باستثناء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين .

❊ ❊ ❊

نموذجٌ رائعٌ من الإيمان النَّبويِّ والحنان الأبويِّ(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١].

إنَّ دعاء والد لولده، أو جدٌّ ومؤسس أسرةٍ وسيد عشيرةٍ لذرِّيته وفصيلته شيءٌ طبعي جرت عليه العادة، واقتضته الطبيعة البشرية، فإنَّ حنان الأبوة، والحرص على سعادة الأولاد من غريزة الآباء والأجداد وشيوخ القبائل، وقد سجَّل التاريخ ودواوين الأدب العربيِّ بصفةٍ خاصَّةٍ أدعيةً ووصايا كثيرةً من الآباء للأبناء، ومن الشيوخ المحنَّكين للنشء الجديد والأجيال القادمة، تجلَّت فيها نفسية الشيوخ، وثقافتهم، ونفسية ذلك العصر الذين عاشوا فيه، وثقافته كذلك، وهي مرآةٌ صادقةٌ، وحكايةٌ أمينة مصورةٌ لما كان يعيش في ذلك العصر من الخواطر والأفكار، ولما كان في تلك البيئة من المثل العليا، والغايات المطلوبة.

ولكن دعاء إبراهيم الخليل أسلوب من الدعاء لا نظير له في التاريخ،

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثالث المجلد الخامس والعشرون، عام ١٩٨٠ م.

ولا مثيل له في دواوين الأدب ، كما أنَّ إبراهيم طرازٌ خاصٌّ من البشر ، وأمَّةٌ واحدةٌ ، والدعاء قطعةٌ من النفس ، وصورةٌ للنفسية والعقيدة ، إنَّه دعاءٌ تجلَّى فيه إيمان إبراهيم ، وحنان إبراهيم ، وعلم إبراهيم ، ودعوة إبراهيم ، فمن أراد أن يعرف مكانة إبراهيم ، ويتمثَّل نفسيته؛ فلينظر إلى هذا الدعاء الذي صدر من أعماق النفس ، ومن أعماق القلب ، فدلَّ على النفس ، ودلَّ على القلب ، وكان إبراهيم دائماً يتكلَّم عن عقيدةٍ ، ويعبِّر عن القلب ، ذلك القلب السليم الذي خصَّه الله به ، فكيف في هذا الدُّعاء الذي كان يناجي به ربَّه.

إنَّ أول ما طلبه إبراهيم من ربِّه لأولاده وذرِّيته هو أن يجنِّبه وإياهم من عبادة الأصنام ، وكان ذلك أكبر همٍّ إبراهيم الذي شغل خاطره ، واستولى على مشاعره ، فقد رأى ـ وهو بعيد النظر ، واسع التجربة ، نافذ البصيرة ، سائحٌ في الأرض ـ مصير الأجيال البشرية والأديان السماوية كيف أصبحت فريسة الوثنية ، وعبادة الأصنام ، وكيف ضاعت أمانة التوحيد في غابة العقائد والفلسفات ، وكيف شغل الإنسان بعبادة الأصنام ، والتماثيل ، والتوجه إليها ، والتوصل بها عن عبادة الله وحده ، فلم يوفق لها ، ولم يكرم بها في أجيالٍ كثيرةٍ ، وآجالٍ طويلةٍ ، وكانت النتيجة أن اتَّجهت عاطفة العبادة ، وغريزة الدُّعاء ، والالتجاء ، والتَّضرُّع إلى المخلوقات والمحسوسات ، فهل يناقش إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في ضوء التجارب ، وواقع الحياة في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؟ [إبراهيم: ٣٦]. وهل يشك في صدقه وفراسته؟

ثم إنه يخبر بأنه أسكن ذريته بوادٍ غير ذي زرع بجوار البيت المحرم بعيداً عن مراكز المدنية ، والخصوبة ، والتجارة ، ومن العواصم الكبيرة ، على خلاف عادة الآباء ومؤسسي العشائر ، والقبائل ، وآثر بطن الجزيرة ، وبطحاء مكة ليعلموا: أنَّ المطلوب منهم غير التجارة ، وغير الزراعة ، وغير الثراء والرَّخاء ، المطلوب منهم القيام بدعوة إبراهيم ، والمحافظة على عقيدة إبراهيم ، ولئلا يذهلوا عن عبادة رب هذا البيت الذي بناه

وشيَّده ، والذي أطعمهم من جوعٍ ، وآمنهم من خوف ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وهنالك ثار الحنان الأبويُّ في جوار الإيمان النبويِّ ، وإبراهيم الخليل مثالٌ رائعٌ بين إيمان الأنبياء وحنان الآباء ، فلم ينس الشفاعة لأولاده الذين هم قطعةٌ من نفسه وجسمه ، فلاحظ ـ وهو قوي الملاحظة ـ أنَّ الوادي الذي آثره لأولاده لا زرع فيه ، ولا ضرع ، وليس فيه شيءٌ يستهوي القلوب ، ويجلب الناس ، ويجلب الرزق ، والبضائع ، وهم أمناء الدعوة ، وورثة الدين ، فكيف يقومون بفريضتهم ، وكيف يؤثرون هذا المكان المنعزل بالإقامة والبقاء؟ فقال : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

ولم يشغله هذا الدعاء المخلص والمناجاة الخاشعة عن أن يحمد الله على نعمة الأولاد والذرية التي وهبت على الكبر ، وإنَّما المسكن بالساكن ، والمنزل بالعامر والشيء بالشيء يذكر ، وكان كلُّ ذلك نتيجة الدعاء ، والابتهال ، وهو يرجو إجابة هذا الدعاء ، كما تحقَّق إجابة الدعاء القديم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] وطلب من الله أن يوفقه وذريته لإقامة الصلاة ، وأن يجعله وأعقابه مرتبطين بوجهه الكريم ، وبيته القديم ، ولم ينس حين دعا لذريته أن يدعو لأبيه وللمؤمنين جميعاً ، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ آيةٌ في الوفاء ، وسخيٌّ جوادٌ في الدعاء ، فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

كان العالم في عصر إبراهيم عليه الصلاة والسلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنَّها مؤثرةٌ مستقلةٌ قائمةٌ بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنيةً أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها ، وغلوا ، من عبادة الأصنام ، والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورةً على الوثنيين ، ودعوةً إلى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله

الواسعة المحيطة بكل شيءٍ ، وأنَّه يخلق الأشياء من عدم ، وأنَّه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع عن الأشياء خواصَّها ، وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وكان إبراهيم يؤمن بأن النَّار خاضعةٌ لإرادة الله تعالى ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة ، لا تنفكُّ عنها ، إنَّما هي طبيعة مودعة أمانة فيها ، إذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحوَّلها إلى بردٍ وسلام ، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

واعتقد الناس أنَّه لا حياة إلا بالخصب ، والميرة ، والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لكنّهم ووطنهم أراضي مخصبةً تكثر فيها المياه ، ويتوفَّر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع ، والاعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع ، لا زراعة فيه ، ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرَّخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف إليهم القلوب ، ويجبي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات! ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧] ، ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤] تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلة ، ويبلُّ الحلقوم ، فإذا بماءٍ يفور من الرِّمال ، ويفيض من غير انقطاع فيشربه الناس أثناء إقامتهم ، ويحملونه إلى

بلدهم ، ويترك أهله في بلدٍ قفرٍ لا أنيس فيه ، فإذا به يصبح مكاناً يؤمه الناس من كلِّ صوب ، ويأتون إليه من كلِّ فجٍّ عميقٍ.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادِّية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب ، واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة وإنَّ إرادته فوق كل شيءٍ ، وهكذا كانت سنَّة الله معه ، يُخضِع له الأسباب ، ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

* * *

نموذجان
من دعوة سيِّدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام

موضوع حديثنا اليوم سيدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام ، وهنالك نموذجان من دعوته ، إذا قارن الإنسان بين هذين النموذجين ملكته روعة الحكمة ، وروعة الدَّعوة النبوية ، نموذجٌ حين دعا والده ، ونموذجٌ حين دعا قومه ، وترون تنوُّع الأسلوب ، وليس تنوع الأسلوب فقط ، بل تنوُّع فهم النفسية ، والدخول إلى أغوار النفس الإنسانية ، فإذا تأملتم في الآيات التي وردت في دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام لوالده ، عرفتم كيف يدعو الولد الوالد ، ثم إذا قارنتموه بالأسلوب الذي دعا فيه قومه ، عرفتم أسلوباً آخر يليق بالمقام ، فأنا أقرأ لكم أولاً الآيات التي وردت في دعوته لوالده.

دعوة الولد للوالد:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٥].

إثارة للحنان الأبويِّ:

أولاً تتأملون في قوله: «يا أبتِ!» لهجةٌ فيها الرقَّة ، وفيها البرُّ ، وفيها التواضع ، وهذا يرجع إلى الذوق السليم ، كذلك كان الذين قد تذوقوا القرآن ، وتشربوا روحه ، إذا قرؤوا آيات العذاب كان يرتعد صوتهم ويحمرُّ وجههم ، وإذا قرؤوا آيات الرحمة ترقُّ قلوبهم ، وتلين أصواتهم ، فالولد

إذا خاطب أباه بقوله: «يا أبت!» أثار فيه الحنان الأبويَّ، وكان يمكن لإبراهيم أن يصيح فيقول: يا سيدي! أو يقول: يا شيخ الكهَّان! لأنَّه كان كاهناً، ولكنَّه يقول: «يا أبت!» تعمَّد إبراهيم هذه الكلمة ليصل بها إلى أعماق قلبه، ويثير فيه الحنان، فالولد مهما بلغ الغضب من والده إذ ناداه بقوله: «يا أبت!» يا والدي الكريم! رقَّ وتهيَّأ لسماع كلامه. إنَّ إبراهيم أثار فيه الحنان قبل أن يثير فيه الإيمان، والحنان يسبق الإيمان أحياناً، فقد يكون الوالد حنوناً، ولا يكون مؤمناً، فهذا الحنان هو الذي يستطيع الإنسان أن يعتمد عليه، ولا ينبغي للداعي الحكيم أن يغفل هذا الجانب، وإذا أغفل هذا الجانب؛ فإنه أساء إلى نفسه، وأساء إلى دعوته، وإذا كان غليظاً ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالرَّسول عليه الصلاة والسَّلام رعى هذا الجانب مع عمِّه أبي طالب، فخاطبه في مواضع دقيقةٍ محرجةٍ بقوله: «يا عمِّ!».

فقال حين رأى حيرته في أمر الدَّعوة إلى الإسلام وارتباكه فيها وتخوُّفه من معرَّة قريش: «**يا عمِّ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته**».

وكانت نتيجة هذه الرقَّة مع الصَّرامة، وإثارة العاطفة الإنسانية في أبي طالب ـ مع إيثاره لدين آبائه ـ أن قال له ـ وقد خاطبه بقوله: يابن أخي! كما خاطبه رسول الله ﷺ بقوله: «يا عم!» ـ: «**اذهب يابن أخي! فقل ما أحببت، فو الله ما أسلمك لشيء أبداً!**»(١).

حسن اختيار سيدنا إبراهيم للدَّلائل:

ثم إنَّ سيدنا إبراهيم اختار من الدلائل في إثبات كون هذه الآلهة لا تستحقُّ العبادة، الأشياء المحسوسة الملموسة اليومية، لم يبدأ بالأشياء التي تعتمد على المنطق، وتعتمد على الذكاء النادر، وتعتمد على بحوثٍ علميةٍ، أو نظراتٍ فلسفيةٍ، إنَّما اختار الشيء الذي يفهمه الطفل؛ لأنَّ

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ج ١، ص ٣٦٥، ٣٦٦.

والده، كان في الطفولة العقلية، وإن كان متقدّماً في السنّ، فخاطبه، كما يخاطب الطفل: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] ثم قال: ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣] وهذا من دواعي السرور للوالد العاقل، فينبغي أن يفتخر ويستبشر بتفوُّق ولده في العلم والمعرفة، والعقل والوعي، وما كان فيه شيءٌ من المبالغة، وخرق العادة؛ لأنَّ هذا يقع كثيراً، يتعلَّم الولد ولا يتعلَّم الوالد، ويكون الولد أعلم من والده ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٣ ـ ٤٤]. إنَّ كلَّ آيةٍ من هذه الآيات وراءها معانٍ عميقةٌ وحكمٌ دقيقةٌ، إنَّه لم يذكر الشيطان بصفاتٍ تدقُّ، وبصفاتٍ يلتوي فهمها على هذا الرجل الساذج البسيط، الذي بلغ من غباوته أنه كان ينحت الأصنام، ثم يعبدها. إنَّ أكبر جنايات إبليس، أنَّه كان للرحمن عصياً، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه:

ونقارن هذا الأسلوب الذي دعا به سيدنا إبراهيم قومه، تعرفون الفرق، فيقول القرآن:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٣].

تتأمَّلون في هذه الآيات، وتعرفونها من أولها إلى آخرها، فأولاً تتفكَّرون في حكمة سيدنا إبراهيم في الدعوة، لأنَّه لم يقترح من نفسه أسماءً، أو صفاتٍ لهذه الآلهة، حتى لا يثير هؤلاء فيردُّون عليه، وينكرونها، بل استنطقهم أولاً فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٣]، وهنالك يلجأ إلى الدلائل المنطقية، أو الإشارات الفلسفية، وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ

تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٣] فإنَّ الحياة الإنسانية تدور حول هاتين النقطتين ، يسمع الإنسان إذا دعي ، وينفع ، ويضرُّ إذا استعين ، هذا الخيط الذي يربط فرداً بفرد ، ووجوداً بوجودٍ ، ومؤسسةً بمؤسسةٍ ، اختار هذين الشيئين ، وهما القطبان اللذان تدور حولهما رحى الحياة كلُّها .

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] هذا الذي كان يريد سيدنا إبراهيم أن يقولوه ، فهذا هو جواب العاجز ، جواب المنقطع ، يعني: ما هو الدليل على هذه الأسماء؟ هل لها مسمَّيات؟ وهذه الأصنام المنحوتة ، والأوثان المنصوبة ، والآلهة الخيالية الأسطورية الأخرى ، هل لها فائدةٌ في الحياة؟ وقدرةٌ على العمل ، ومكنةٌ من النفع والضرر ، وسندٌ من العلم؟ .

استفادة ثروة الذكاء والبيان وطاقة الدفاع عن النفس من المخاطب:

وتستمرون في دراسة هذه الآيات ، تنتقلون من معنى إلى معنى ، فتفهمون الفرق بين الأسلوبين ، وفهم سيدنا إبراهيم العميق الدقيق ، وإلى أغوارها العميقة ، كيف استخرج كلَّ ما عندهم من ثروةِ ذكاء ، وثروة بيان ، وثروة دفاع عن النفس ، وآخر سهم في كنانتهم كانوا يستطيعون أن يطلقوه ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]. فسيدنا إبراهيم استنفد كل ما عندهم من قدرة جواب ، فأصبحوا مفلسين ، أصبحوا فقراء ، أصبحوا لا شيء عندهم ، ثم بدأ يوجِّه إليهم الدَّعوة ويدعوهم إلى الله ، وإلى التوحيد ، فقال:

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

المنهج القرآني ، إثبات مفصَّل ونفي مجمل:

هنالك نكتة عجيبة من معجزات القرآن ، وهو ما نبه عليه شيخ الإسلام

ابن تيمية ، فقال: إنَّ فلاسفة اليونان إذا عرفوا واجب الوجود ، أو المبدأ الفياض ـ على حدِّ تعريفهم ـ فإنَّهم يتوسَّعون ، ويدقِّقون في نفي ما لا يليق به عندهم (من الصفات وغيرها) أما إذا تعرضوا للإثبات؛ فإنَّهم يختصرون ، ويجملون ، ففي الفلسفة نفيٌ مفصَّلٌ ، وإثباتٌ مجملٌ ، بالعكس من القرآن ، فهنالك إثباتٌ مفصَّلٌ ونفيٌ مجملٌ ، في وصف الله تعالى ، في أسمائه وصفاته ، وكذلك في الأديان السماوية ، وتعاليم الأنبياء إثباتٌ مفصَّلٌ ، ونفيٌ مجملٌ[1] اقرؤوا القرآن في الإثبات والحديث عن الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

واقرؤوا قوله تعالى في النَّفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك يقول شيخ الإسلام: إن مئات من أساليب النفي لا تقوم مقام إثباتٍ واحد ، وقد صدق ، فإنَّ هذه الحياة التي نعيشها ، والتي عاشتها البشرية الأولى كلها ، إنَّما عاشت على الإثبات ، وما عاشت على النفي نسبةٌ ضيئلةٌ جداً إلى الإثبات.

الانطلاق والتدفُّق في الحديث عن الله تعالى:

فسيدنا إبراهيم قال في جواب قولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] ، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ و٧٣] ، فاكتفى بالنفي المجمل ، ولكنَّه لما جاء إلى ذكر الله تعالى ، والدَّعوة إليه توسَّع ، واستعان بالإثبات المفصل ، فقال:

---

(١) المعنى مأخوذ من «كتاب النبوءات» لشيخ الإسلام ابن تيمية ، والتعبير للعلاَّمة الندوي.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢] خمس خلال، هنالك خصلتان فقط، ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢ و٧٣] لكنَّه لما ذكر الله تعالى، وتحدَّث عنه، كأنه شعر بطربٍ، وجاشت نفسه، فتوسَّع في الحديث عنه تعالى، إنَّ الإنسان إذا ذاق شيئاً لذيذاً فإنه يلوكه، ويمضغه، ويديره في الفم، أما إذا كان الشيء مرّاً ـ ولا بدَّ منه ـ فإنَّه يبتلعه ابتلاعاً، ويتخلَّص منه بسرعةٍ.

فلما ذكر الله تعالى تحرَّكت العاطفة فيه، وجاش فيه الإيمان، فقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢].

مناسبات لطيفة:

هنالك جاشت نفسه مرَّةً أخرى، فثار يدعو الله تعالى مع أنه ليست هذه مناسبة الدُّعاء، فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]. وهنالك خطر أبوه بباله وتذكَّره، فإنَّه كان من القادة إلى هذه الوثنية، والسادن الكاهن المعروف في البلد، فقال: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء: ٨٦]. ثم استحضر القيامة فقال: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩].

واقرؤوا أخيراً: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢].

* * *

حكمة لقمان، وموعظة الإيمان(١)

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ٢٠].

سجَّلت الصحف السماوية، وسجَّل الأدب الدينيُّ مواعظ دينيةٍ كثيرةً، منها هذه الموعظة اللقمانية التي هي من أبلغ هذه المواعظ وأجمعها، وقد تجلَّت فيها حكمة الأنبياء ودعوتهم في أجمل مظاهرها، وأروعها، إذاً لا غرابة إذا ضرب المثل بحكمة لقمان.

وجه هذه الموعظة والد أكرمه الله بالعقل الحصيف، والحكمة البالغة التي لا يؤتاها إلا الأفذاذ الراسخون في العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس، المجلد الخامس والعشرون، عام ١٩٨١ م.

﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] وجهها إلى ولده وفلذة كبده، فجمعت بين شفقة الآباء وهداية الأنبياء، وقد انتقى الوالد الكريم العظيم لولده الحبيب الأثير أصول الحِكَم، وجوامع الكلم، وفضائل الأعمال، ومكارم الأخلاق، فجاءت موعظةً فريدةً يعمل بها العقلاء في كلِّ عصر ومصر، فينالون سعادة الدنيا والآخرة.

بدأ لقمان في وعظ ابنه بالنهي عن الشرك، وقال في إيجازٍ وإعجاز: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولا أبلغ في تصوير الشرك وتهجينه من أن يقال: إنَّه ظلم عظيم، إنَّه وضع العبادة في غير محلِّها، وتفريطٌ في حقِّ الله، وأيُّ تفريطٍ في حقِّ الله وإفراطٍ في حقِّ المخلوق، فهو مجموع جنايات وجرائم تجمعها كلمة «الظلم» ومن أظلم ممن أعطى حقَّ الله عبيده، وترك ملك الملوك، وخضع الذليل المملوك، فكان كتشبث الغريق بالغريق، واستغاثة الرقيق بالرقيق، وحاجة الفقير إلى الفقير، ولجوء المريض إلى المريض.

وقرن الدَّعوة إلى التوحيد بالدَّعوة إلى البرِّ بالأبوين، ومعرة حقوقهما، ولا سيما الأم التي كان جهادها أعظم في حضانته ونشأته ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] وقد حث الله على معرفة فضلهما وشكرهما؛ لأن منتهما أعظم في المخلوق ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ولكن إذا زاحما حقَّ الله، وألحَّا على الشرك؛ فلا طاعة لهما ولا كرامَة؛ إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥] ولكن: لا إهانة، ولا إيذاء ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] فلابأس بالبر والمواساة، وصلة الرَّحم، أما الاتِّباع فلا يجوز إلا لذوي الهداية، والمعرفة، والإنابة إلى الله ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥].

ولما كان الجمع بين البر بالأبوين وبكلٍّ من له حقٌّ وفضلٌ وبين مفارقتهما ومجانبتهما في العقيدة وحقوق الله، فبرُّ بالأبوين من غير إطاعة

في الكفر والإثم ، وثباتٌ على التوحيد ، وعبادة الله من غير هضم لحقوق الوالدين. لما كان ذلك مهمةً عسيرةً دقيقةً لا يطلع على زلاتها إلا العليم الخبير؛ قال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

ثم ذكر في هذه المناسبة اللطيفة أنَّ الله هو الجدير بالعبادة ، واللجوء ، والسؤال ، والدُّعاء ، إذ لا بدَّ لمن يلجأ إليه ، ويعتمد عليه في قضاء الحوائج ، وإسعاف المطالب أن يحيط علمه بالدقيق والجليل ، ويطلع على الضمائر والخواطر. فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

ثم دعا ابنه إلى أمور أساسيةٍ في الدين والأخلاق ، إذا حافظ عليها الإنسان ، وأخذ بها كان عبداً صالحاً ، وعضواً كريماً في الأسرة الإنسانيَّة ، منها: إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر على المصائب ، ومنها: التواضع للناس ، والسداد ، والاقتصاد في السيرة والسلوك ، وكلُّ مجتمع ساد فيه الصلاة التي هي حقُّ الله على العباد ، والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر ، وكان أعضاؤه بعيدين عن التكبُّر ، والاختيال ، والإسراف ، والجفاء؛ كان مجتمعاً مثالياً ، ومجتمعاً فاضلاً كريماً يسعد به العالم ، وتسعد به الحياة.

وختم هذه الموعظة بذكر آلاء الله ، ونعمه السابغة الظاهرة الباطنة التي توجب الشكر ، والعبادة ، والتوحيد ، وتنشط للعمل بهذه الموعظة المخلصة الرقيقة التي ألقاها عبدٌ مخلصٌ حكيمٌ على ولده العزيز ، وعن طريقه على ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

* * *

دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه
نموذج لدعوة غير نبيٍّ(١)

يقول الله تبارك وتعالى حكايةً عن فرعون:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٣٥].

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن، المجلد الخامس والعشرون، عام ١٩٨١ م.

حوار في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفة مداخل النفس :

هذا هو الحوار الذي دار بين فرعون وبين مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . وهو حوارٌ في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفة مداخل النفس ، وهو مثالٌ بليغٌ لحوارٍ يدور بين ملكٍ كبيرٍ وملأ من قومه ، وبين هذا الرجل الذي اهتدى وآمن بالله ، وإني كلما قرأت هذا الحوار في هذه الآيات ملكتني روعة بيانه أمام هذا الحوار خاشعاً ، مقدِّراً ، متذوقاً لهذه الحكمة البليغة ، ولهذا الذوق الرفيع ، ولهذه المعرفة الدقيقة بمكامن النفس ومداخلها ، والعمل بقول الله تعالى ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة : ١٨٩] رجلٌ لا نعرف عنه شيئاً ، ماذا كان مستوى ثقافته ، وأين نشأ ، وتربَّى ، وكيف تلقَّى هذه الدروس ، وكيف وصل إلى هذه الذروة من الحكمة البلاغة ، ولكنه الإيمان الذي يصنع العجائب ، والإيمان الذي يجعل من الأبكم ناطقاً ، ومن الأصمِّ سامعاً ، ومن المشلول ماشياً بل ساعياً ، ومن الأعزل محارباً .

«الاستراتيجية» الحاكمية الملكية :

قال فرعون : ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر : ٢٦] وهذه هي الاستراتيجية الحاكمة الملكيــة التي استخدمها جميع الملوك والقادة السياسيون لاستفزاز النخوة في النفس الإنسانية ، وقد جمع ذلك بين النقطتين ، نقطة تتصل بالعقيدة ، والعقيدة محترمةٌ عند كلِّ ملَّةٍ ، وعند كلِّ جيلٍ ، كانت عقيدةً فاسدةً ، أو عقيدةً صالحةً ، عقيدةً تستند إلى وحي ورسالةٍ أو عقيدة تنبع من قلة العقل ، والسفاهة ، والطيش ، ولكنَّها محترمةٌ في كلِّ ملَّةٍ وفي كلِّ عصرٍ ، واعتاد الناس أن يدافعوا عنها ، ويثوروا لها ، فقال : ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر : ٢٦] .

ثم قال : ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر : ٢٦] فإذا كان أحد في بلاطه وفي ملئه لا يملك قوة العقيدة ، فإنه استعان بشيءٍ آخر ، وهو التخويف من نشر الفوضى ، والقلق ، وارتفاع الأمن ، وانتشار الاضطراب

في المملكة ، وهذا الذي يخافه كلُّ من كان محباً لبلاده أو لوطنه ، فقال: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] وقال موسى ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] هذا كلام موسى ، إنَّه سمع كلمة فرعون التي كانت تتدفَّق بالكبرياء وبالتبجُّح ، وبالصلف ، فقد قال فرعون في مناسبة: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] لما صدرت هذه الكلمة المتكبرة من فم فرعون ، قال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

كلمة رقيقة رفيقة تثير الشرارة الأخيرة من العدل وقوة المقارنة:

هنالك قام رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، قد ثار فيه الإيمان ، وثار فيه الشعور بالكرامة الإنسانية ، والشعور باحترام حسن المرامي والمقاصد ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] هذه كلمة استعطاف ، وهذه كلمةٌ تدعو إلى التأمُّل ، ما ذنب هذا الرجل؟ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] ليس له ذنب إلا أنه يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فإذا قال أحدٌ «ربي فرعون» لا تقتلونه ، وإذا قال فرعون بنفسه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] لا يستحقُّ القتل؟ أين العدل يا جماعة؟ ألا تعقلون؟! رجلٌ ينسب الربوبية إلى من أخرجه من العدم إلى الوجود ، نقله من طورٍ إلى طورٍ ، خلقه وربَّاه ، وأنشأه وغذَّاه ، وأطعمه وسقاه ، وحفظه ، ووقاه ، فإذا عزا هذا الرجل هذه الربوبية المطلقة المحيطة إلى صاحبها ، وإلى مصدرها أنتم تريدون أن تقتلوه ، أمَّا الذي ينسب الربوبية إلى غير محلِّها ، إلى من لا يستحقُّها ، إلى من هو مربوبٌ ألف مرَّةٍ ، مربوبٌ منذ نشأته ، منذ كان روحاً في صلب أبيه وجنيناً في بطن أمه. فكان موضع العناية الكريمة والربوبية الرحيمة ، فما هذا الجور؟ ما هذا الظلم؟ فهذه كلمةٌ رفيقةٌ تثير البقية الباقية ، والشرارة الأخيرة من العدل ، ومن قوة المقارنة التي فطر عليها الإنسان ، المقارنة بين الفاضل والمفضول ، المقارنة بين الخالص والزائف ، المقارنة بين المالك

والمغتصب ، إنَّه أراد أن يحرِّك هذه القوّة الكامنة في نفوس كلِّ هؤلآء الذين كانوا يشهدون هذا المشهد ، وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨].

الاحتجاج بالمشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشود:

ثم دعم كلامه واحتجاجه بقوله: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] هذا احتجاج بالمشهود المعاين؛ لأنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قد جاء بالمعجزات الباهرة ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨] هذه كلها مشاهدات لا يماري فيها الإنسان ، إنه يماري في أشياء منطقية ليس لها وجود إلا في الذهن ، يماري في أشياء عقلية على مستوى عالٍ من العقل ، ولكنه لا يستطيع أن يماري في المشاهد المحسوس ، فقال: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] ثم إنه لجأ إلى طريقةٍ نفسيَّةٍ رقيقةٍ ، يستطيع كلُّ إنسانٍ أن يفهمها ، ويستطيع أن ينصف لها ، ويتخيَّر الطريق الأقوم الأسلم ، وقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها ، فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] قال: يا قوم! لا تورِّطوا أنفسكم في مشكلةٍ لا مخرج منها ، تأمَّلوا في هذا الرجل الذي يدَّعي أنَّه نبيٌّ مرسل من الله ، وأنَّه قد جاء من السماء ، لكم طريقان: إما أن تبطشوا وتنكِّلوا به ، وتنتقموا منه ، وفيه خطر ، إذا كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، وإمَّا إن كان كاذباً ـ أعاذه الله تعالى من ذلك ـ فلا حاجة لكم فيه ، إنَّ كذبه هو كفيل بهلاكه ، وبانطفاء سراجه ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] إن يك كاذباً فلستم مسؤولين عنه.

الاحتجاج بسنة الله التي لا تتغيَّر:

ثم إنَّه استعان بشيءٍ ثالث ، وهو الاحتجاج بسنة الله التي لا تتغيَّر ، ولا تحابي أحداً ، فيقول: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [غافر: ٢٩] إخواني! لا يغرنكم هذا الملك العريض ، وهذا الجاه الكبير ،

وهذه المملكة الواسعة الأطراف، وهذه الوسائل الوفيرة، وهذه الثروة الهائلة ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: ٢٩] لا شك أنَّكم ظاهرون، لا شكَّ أنَّ لكم السلطة النهائية، السلطة العليا، لا شكَّ أنكم أصحاب حول، وطولٍ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، هنالك لفت هذا الداعي الكبير نظرهم إلى سنة الله التي لا تتغير، فيقول: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] إنكم تعتقدون، أنتم الأعلون، ولا شيء أعلم منكم، ولا شيء فوق رؤوسكم، فأنتم المنتهى في كلِّ شيءٍ، المنتهى في القوة المنتهى في السلطة، في الأمر والنهي، ولكن هنالك قوةٌ أخرى، تؤمنون بها كحقيقة، لكنكم تشركون في بعض صفاتها، قال فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] لا حجة في ذلك ما أريكم إلا ما أرى، هذا استسلام في الحقيقة، كان فرعون يحتاج إلى دليلٍ من الصحف السماوية، أو إلى دليل منطقيٍّ مثلاً، ولكنه يقول، وكأنه يعترف بعجزه ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩] هذا ليس بدليل، هذا يقوله كلُّ غاوٍ، وكلُّ جاهل ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] هذا مجرد الدَّعوى، لا بينة معها، ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

الاعتبار بالتاريخ ومصير الأمم البائدة:

وهناك قاطعه المؤمن، وثنَّى على قوله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١]، يظهر أنَّ فرعون وملأه كانوا يعرفون عاقبة هذه الأمم التي كانت بعد عادٍ وثمود ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

التحذير من الآخرة:

ثم يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢] يعني: عليكم أن تعتبروا إذا بقي ملك لا يحول ولا يزول، فكان الواجب أن يبقى ملك عادٍ وثمود، فإذا لم يبق ملك عادٍ وثمود؛ فلا ضمان لملككم، كيف

تعتقدون أنَّ ملككم هو الذي سيبقى ويدوم ، وملك هؤلاء قد انقرض ، وطوي بساطه ، ما هو الفارق بين ملككم وملكهم؟ إذا كان هنالك الفارق الإيماني ، إذا كان هنالك فارقٌ من الأخلاق ، إذا كان هنالك فارقٌ من الرشاد والهداية ، فأنتم لا تتَّصفون به ، ولا تدعونه ، وحياتكم تدلُّ على أنكم تنهجون نهجهم ، وأنكم تسيرون على دربهم ، فإذا انقرض عادٌ وثمود والذين من بعدهم فأنتم كذلك إلى الانقراض ، وستسيرون إلى ما ساروا إليه ، ما هو الخطُّ الفاصل بينكم وبينه؟ .

ثم يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣١] يوم ينادي بعضهم بعضاً وكان هذا قد ألفه ملأ فرعون كلهم ، فكانت عندهم أعياد ، وكانت عندهم مواكب ، وكانت عندهم خرجات يخرجون فيها ، وكانت هنالك غوغاء ، وصخب ، كانوا يعرفون ماذا يقع هنا ، فقال: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣] هذا الذي يشعر فرعون بوقعه في نفسه؛ لأنَّ أكره الشيء إليه هو الانهزام ، كان لا يتصوَّره؛ لأنه كانت له جيوش جرارةٌ كثيفةٌ ، ولم يعرف الهزيمة ، فهذه الكلمة يعرف معناها ، ويعرف وقعها في نفسه ، ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٣].

إثارة نقطةٍ جديدةٍ حكيمة:

ثم إنَّ هذا المؤمن الدَّاعي الحكيم هو أثار نقطةً جديدةً ، نقطةً حكيمةً وهو أشار على علَّة الطبيعة البشرية ، وداء من أدواء المجتمع البشريِّ القديم ، وهو عدم تقدير النعمة في محلِّها ، وفي وقتها ، هذه علَّةٌ قديمةٌ في الطبيعة البشرية ، إنَّ الإنسان يستهين بالمعاصر ويستخفُّ بقيمته ، ويتناساه ما دام هو يعاصره ويعيش معه ، فإنَّه لا يقيم له وزناً ، هذه علَّةٌ من علل الطبيعة البشرية التي حفظها تاريخها ، وأدبها ، وشعرها ، وقصصها ، وحكاياتها ، وأساطيرها ، الاستهانة بالحاضر ، والإجلال للماضي ، التنكر للمعاصر ، والتجهم له ، والإنكار لفضله ، والاعتراف والخضوع للماضي ، كلَّما مضى رجلٌ قالوا: لم يكن مثله ، ولن يكون

مثله ، أما ما دام حيّاً فهو بشر ونحن بشر ، فإذا انتقل من هذا العالم ، وفارق الحياة ، فهنالك مدائح سخية وقصائد رنانة ، وهنالك مبالغاتٌ ، وتهويلٌ ، هي الطبيعة التي حرمت الأجيال البشرية والمجتمعات الإنسانية الانتفاع بأفضل ثمارها ، وأفضل أفرادها في حياتهم ، وقد حذَّرهم من هذا النكد ، وإنكار الفضل ، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] إنَّ يوسف كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، ومن أين يأتي مثل يوسف؟ هذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، الملك العادل الرحيم ، لا أبداً ، ما دام حياً فكل الناس كانوا يعيبونه ، وينسبون إليه الأشياء ، فيقول: إيَّاكم أن تعودوا إلى مثل هذه القصَّة ، فلا تقدِّرون قدر موسى ، حتى إذا أذن الله له بالرَّحيل ، وانتقل من هذا العالم؛ كأنِّي بكم تقولون: إنَّ موسى كان منحةً من الله تبارك وتعالى ، وما بُعث رسولٌ مثله ، ولا يأتي بعده مثله ، وأنا أحذِّركم من هذا ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

سمة فرعون الرئيسية التي حالت بينه وبين الخالق:

تأمَّلوا في كلمة ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] إنَّا لا نصدِّق أنَّه سيأتي نبيٌّ بعد يوسف يكون مثله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٤ ـ ٣٥]. وفي الحقيقة إنَّ مصدر هذا الحرمان والكفران ، ومصدر هذا العناد والمكابرة هو التكبُّر ، يخاطبهم مثل سيدنا موسى في مكانته ، وفي سموِّه ، وفي قوَّة دعوته التي أثَّرت في سحرة فرعون ، فنقلتهم من معسكر فرعون إلى معسكر الدعاة إلى الله ، إلى معسكر الشهداء في سبيل الله ، كأنَّهم نشؤوا في أحضان النبوة مدَّةً طويلة ،

ولكن عهدهم كان قريباً من سيدنا موسى ودعوته ، وكأنَّ سيدنا موسى هو الذي شقَّ صخور قلوبهم ، وأنبت فيهم الإيمان ، فخرجوا من هذا المعسكر الفرعوني ، وهم يقولون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢] وأنا مستعدون لنيل هذه العقوبات كلها.

يخاطبهم ويدعوهم إلى الله ، ولكنَّ فرعون لم يتأثر ، لماذا؟ السمة التي يتَّسم بها فرعون ، وهي السِّمة الرئيسية ، هو التكبُّر ، فيريد القرآن أن يركز عقولنا وتأملاتنا على نقطةٍ هامَّةٍ جدّاً ، وهي التكبُّر ، وهذه الكلمة قد تكررت في هذه الآيات مراراً: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧].

النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ومؤمن من آل فرعون في موعظته:

ثم يقول: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ [غافر: ٣٤ ـ ٣٥] فمفتاح القصَّة ، ومفتاح شخصية فرعون ، ومفتاح هذه القصة هو التكبُّر هو الذي حال بين فرعون وبين الانتفاع بدعوة سيِّدنا موسى ، وكان سيدنا موسى قويَّ الشعور بهذه النقطة ، النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ، ومؤمن من آل فرعون في موعظته ، هي نقطة النعي على التكبُّر ، والتركيز عليها ، كلٌّ يشير إلى هذه النقطة ، هذه النقطة الفارقة التي تحول بين فرعون وملئه ، وبين الانتفاع والاهتداء بالهدي الذي جاء به سيدنا موسى.

الضرب على الوتر الحسَّاس:

وقد جاء في هذا الحوار التنبيه على تفاهة الدنيا، وعدم ثباتها، وبقاء الآخرة ودوامها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٣٩] إنَّ أكبر حجاب كان لفرعون هو الملك العريض الذي كان يتباهى ، ويتبجَّح به ، فيقول: إن هذه الحياة الدنيا متاع ، وإنَّ الآخرة هي دار القرار ، فضرب على الوتر الحسَّاس، ثمَّ ذكر قانون المجازاة العادل؛ الذي لا يحابي أحداً ،

فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

الدعوة إلى معرفة المخلص النافع من الغاشِّ الخادع:

ثمَّ هناك كذلك يثير نقطةً خاصَّةً، وهي عاقبة عدم التمييز بين النافع والضَّارِّ، وبين المخلص النافع والغاشِّ الخادع، فيقول: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٢] ويقول: قارنوا بين الدعوة التي أقوم بها وبين الدعوة التي يقوم بها فرعون، أنا أدعوكم إلى سبيل النَّجاة، أنا أدعوكم إلى الله الرحيم الغفار، ويدعوكم إلى نفسه، وإلى طريق الهلاك والبوار، ثم يقول: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] هنالك نبَّه هذا الداعي الكريم على أنَّ دعوة فرعون هي دعوة طفيليَّةٌ، وكلُّ دعوات الجاهلية هي دعواتٌ طفيليَّةٌ، غير مقصودة، ما أنزل الله بها من سلطان، وهي لا تستند إلى عقلٍ، ولا إلى علمٍ، ولا إلى دعوات الأنبياء، تنبت على سطح الأرض «كالحشائش الشيطانية» التي تنبت في الحقول والمزارع ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] هل عندكم من سلطان، هل عندكم من برهان؟ لا، إنَّما هي التي تريدها أهواؤكم، ومصالحكم فقط.

الخط الذي ينتهي إليه كلُّ داعٍ مخلصٍ:

ثم أخيراً جاء بكلمةٍ فيها الرقَّة، وفيها التفويض إلى الله، وفيها الرحمة، وفيها المجهود الأخير، وهو القول الذي يلجأ إليه كلُّ داعٍ مخلصٍ، لا شيء وراء ذلك، وهو قوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وهذه خير نهايةٍ لموعظةٍ، ولدعوةٍ إذا لم ينتفع بها، فهذا هو الحظ الذي ينتهي إليه الدَّاعي.

هذا حوارٌ فريدٌ في أسلوبه ، وهذا هو الحوار الذي حفظه القرآن وخلَّده في أسلوبه الحكيم ، وبلاغته ، وفي ترتيبه ، وفي الانتقال من نقطةٍ إلى نقطةٍ وفي خير بدايةٍ وفي خير نهاية ، هذا الحوار الذي يجب أن يكون نبراسنا في توجيه الدَّعوات ، وفي القيام بأعبائها ، وفي الإيفاء بحقوقها ، إذا واجهنا قوةً جبارةً.

فهذا مثلٌ أردت أن أضمَّه إلى أمثلة الدَّعوات النبوية التي هي النقطة الأخيرة التي يصل إليها الدَّاعي ، وهذا نموذجٌ من دعوة رجلٍ لم يكن نبياً ، ولم يكن من أخصِّ أشخاص سيدنا موسى ، لا يدلُّ القرآن على هذا ، بل يصفه بقوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر : ٢٨] فنستطيع أن نتعلَّم منه كثيراً ، ونتلقَّى منه دروساً ذات قيمةٍ كبيرةٍ في منهج الدَّعوة.

* * *

نموذجان من دعوة خاتم الرُّسل وحكمته(١)

النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصفا :

نبدأ ونتخيَّر من هذه المواقف الدَّعوية الجليلة الرائعة التي هي كلُّها معجزات ، لسيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ ، موقفه ﷺ ـ هو الموقف الأول كداعٍ ـ على جبل الصفا ، وهو النموذج الأول من دعوته ﷺ ، وأريد أن تستحضرُوا الجوَّ الذي بدأ فيه رسول الله ﷺ دعوته وتعيشوا تلك المشكلة التي كانت تكتنف هذه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وإلى التوحيد ونبذ الشرك والوثنية والحياة الجاهلية التي كانوا يحيونها ، وأرجو أن تنتقلوا بعقولكم وتصوراتكم ـ إن لم تستطيعوا أن تنتقلوا بنفوسكم وبأجسادكم ـ إلى تلك البيئة التي قام فيها رسول الله ﷺ منذراً ، ومبشراً ، ومبلغاً لرسالات ربه.

النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحسِّ وعالم الغيب :

إنَّ الذي كان يريد رسول الله ﷺ أن يقوله لقريش أولاً ، وللعرب ثانياً ، ولأهل عصره ثالثاً ، وللعالمين وللجيل البشري كله رابعاً وأخيراً ، إنَّما كان ذلك يعتمد على شيئين ، على وجود عالمٍ آخر غير هذا العالم المادِّيِّ الحسيِّ ، الذي كانوا فيه عالم لا يشاهد ولا يقع تحت سيطرة الحواس الخمس التي كانوا يملكونها ، ثم كان يعتمد ثانياً على وجود النبوة؛ لأنَّ النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحسِّ الذي نعيشه ، وبين عالم

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها العاشر ، المجلد الثالث والثلاثون ، عام ١٩٨٩ م.

الغيب ، كلُّ جسرٍ ـ يصل بينهما ـ مكسورٌ مهدَّم ، وكلُّ قاربٍ ينقل المسافرين إليه غائبٌ مفقودٌ ، هذا عالم ـ كما قلت لكم ـ ليس للحواسِّ الخمس ، وللعقل الذي يتأسَّس على هذه الحواسِّ الخمس إليه سبيل .

متى يؤدي العقل دوره؟ :

فالعقل إنما يعتمد على الحواسِّ الخمس ، فكلُّ ما تقدِّمه إليه الحواس الخمس ، من محسوساتها ومحصولاتها ، ومن النتائج التي توصَّلت إليه ، يستخرج منها العقل نتائج خطيرة ، هذا هـو شأن العقل ، إنما يقوم بناؤه على ركامٍ تقدِّمـه إليه الحواسُّ الخمس البشريـة ، وحيث تتعطَّل هـذه الحواسُّ ، يتعطَّل العقل ، فوظيفة العقل تنحصر في أنَّه يستخرج من هذه المعلومات التي تقدِّمها الحواسُّ ، ويتوصَّل من هذه المقدمات إلى نتائج كبيرةٍ ، فحيث لا مقدِّمات لا نتائج ، وحيث لا محسوسات لا معقولات ، هذه هي النقطة الحاسمة في تاريخ الفلسفة والعقل الإنساني، التي أغفلها كثيرٌ من الفلاسفة، وكثيرٌ من مدَّعي العقل ، إنَّهم بحثوا العقل كأنه شيءٌ مستقل ، وكأنه يعمل بنفسه ، ويشقُّ طريقه بنفسه ، ولكن ليس ذلك بصحيحٍ ، فالبحوث الأخيرة التي تهيَّأت الآن في نطاق الفلسفة ، أثبتت أنَّ العقل عاجزٌ حيث لا يوجد عمل الحواس ، هنالك يقف العقل حائراً مدهوشاً لا شغل له .

بعدُ أهل العرب عن النبوَّات شكَّل مشكلةً كبرى :

فالمشكلة الرئيسية أنَّ أهل العرب بصفةٍ عامَّةٍ وأهل مكة بصفةٍ خاصَّةٍ ، كانوا بعيدي العهد بالنبوات وبتصوُّرهم لعالم الغيب ، فقد غابت هذه القنطرة التي كانت تصل بين عالم الغيب وبين عالم الحسِّ ، فلما فقدت هذه القنطرة أصبحوا يجهلون عالم الغيب جهلاً كلياً ، لذلك يقول القرآن في أسلوبه المعجز الموجز : ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس : ٦] ويقول : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل : ٦٦] ويقول الله تبارك وتعالى في سورة يونس : ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [يونس : ٣٩] .

المشكلة أنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا «حروف الهجاء» من الدِّين:

فالمشكلة الرئيسية أنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يوجِّه دعوته إلى قوم ليس عندهم مفاهيم وتصوُّراتٍ دينيةٍ بدائيَّةٍ، كأنَّه ما عندهم مفاتيح العلم، خذوا أكبر ذكيٍّ أو عبقريٍّ فوق العادة، وهو لا يعرف حروف الهجاء للغة، أو خذوا أحد كبار الأساتذة في جامعة كامبردج، أو في مختبر من مختبرات أمريكا التي اكتشفت الطاقة الذرية، وهو لا يعرف «العربية» وقولوا له: عندك يوم بكامله، تطالع هذه الصحيفة وتقرؤها لنا في المساء، ولا يجد أحداً يساعده في ذلك ويعلمه حروف الهجاء: ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، إنَّه لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً لأنه ما تعلم حروف الهجاء، وهكذا نسبة المحسوسات إلى المعقولات، المحسوسات أمام المعقولات كحروف الهجاء للغة المشكلة. إنَّ الرسول ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا حروف الهجاء. إنَّ عقولهم الضيِّقة التي نشأت في هذا المحيط المحدود ما كانت تسيغ النبوة، فيجب أن تسيغ النبوة أولاً ثم يتقدَّم الرسول عليه السلام خطوةً أخرى.

الأنبياء يُكوِّنون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود:

عاشت الأمَّة العربية وسكان هذا الوادي بصفةٍ خاصَّةٍ مدَّةً طويلةً بعيدةً عن المفاهيم الدقيقة، والمصطلحات العلمية، والبحوث اللاهوتية، ولكنَّها فاقت وتميَّزت بسلامة فهمها، وسرعة إدراكها، وحبِّها وخضوعها للواقع، وعلى ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز «النبوة» و«النبي» في هذه الحياة، وتبرير حقِّه في الإنذار والإنباء، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان، والإخبار بما لا يراه الإنسان، فكان أبلغ من ألف دليلٍ يستند إليه أئمة الكلام وأئمة اللاهوت، وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول العظيم ﷺ، وجميع الوسائل التي اتَّخذها، واستخدمها في هذه المهمَّة المقدَّسة الدقيقة مطابقةً للطبيعة والبيئة، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون ـ في أداء مهمتهم، وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة، والتكلُّف،

والاستعارة ، والاستيراد ، ويكوِّنون من التافه الموجود ، الشيء العظيم المفقود.

كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب:

ولم يكن ذلك عصر الصَّحافة والإذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه ، فما هو السبيل إلى حشر سكان الوادي إلى مكانٍ مخصوصٍ في زمنٍ مخصوصٍ ، وما هو السبيل إلى السَّيطرة على عقولهم ، ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم ، وملذَّاتهم ، ويخفُّوا إلى مكانه فزعين مسرعين؟ كان الرسول ﷺ عربياً ، يعرف عادات العرب ، وتقاليدهم ، وشعاراتهم ، وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم ، واستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غاية أفضل منها ، اعتاد العرب إذا أحسَّ أحدٌ منهم بخطرٍ ، وبعدوٍّ يريد أن يفاجىء ، ويأخذ القوم على غرتهم ، أو بعدوٍّ كامنٍ قاعدٍ بالمرصاد قد غفل عنه أهل البلاد ، أن يرتقي أحدهم قمَّة جبلٍ ، أو ربوةٍ ، ويصرخ بأعلى صوته: «**يا صباحاه!**» أو «**واصباحاه!**» فيفزع القوم ، ويأخذون عدَّتهم ، ويخرجون على بكرة أبيهم لمواجهة الخطر الدَّاهم والعدو المهاجم.

ما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم ، ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذَّاتهم ، وما مدى تأثيره ، وضرره في حياتهم ، النَّوع الوحيد من الخطر الذي كانوا يعرفونه هو العدوُّ فقط ، يقتل منهم كثيراً ، وينهب أموالهم ، ويستاق إبلهم وماشيتهم ، ويلحق بهم الأضرار.

العدو الذي يعيش في «الداخل» أضر وأفتك من كلِّ عدوٍّ في الخارج:

هانت هذه الأخطار والأضرار ـ على ضخامتها وواقعيتها ـ في عيون الأنبياء والرسل ، إنَّهم عرفوا أنَّ أكبر خطرٍ هو الجهل بصانع هذا الكون ، ومدبِّره ، وصفاته الحقيقية ، وحقوقه ، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك المصر ، وسكان هذا الوادي ، والأخلاق التي اتسم بها هذا المجتمع الجاهلي (يعبدون الأصنام ، ويأكلون الميتة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون الأرحام ويسيئون الجوار ، ويأكل القوي منهم

الضعيف)[1] رأى النبيُّ ﷺ هذا العدوَّ الذي يعيش في نفوسهم ، وفي عقائدهم ، وأخلاقهم (ليس في الخارج) وكان في نظره ﷺ أضرَّ وأفتك من كلِّ عدوٍّ في الخارج ، إنَّ هذا الخطر ـ الذي نبع وانبثق من داخلهم ـ أعظم من كلِّ خطرٍ عرفوه في كل حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربيِّ القبلي ، وإنَّ عداوة نفوسهم أشدُّ وأدقُّ من عداوة كلِّ قبيلةٍ منافسةٍ ، ومن كلِّ جيشٍ محاربٍ ، وإنَّ أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر الذي لا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحبُّ في الأرض الفساد.

أصدق صوت في أصدق مناسبة:

فخرج رسول الله ﷺ وصعد على جبل الصفا ـ وهو أقرب الجبال إليهم ـ ونادى بأعلى صوته: «**يا صباحاه!**» وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة؛ لأنَّ مثل هذه المناسبات لم يكن من العادة أن يكذب الإنسان فيها ـ بخلاف هذه المدنية المزوَّرة ـ وقد سمع أهل مكة صيحةً معروفةً مألوفةً تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم ، سمَّوه بأنفسهم «الصادق الأمين» وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلةٌ طويلةٌ من التجارب والحوادث ، ولم يتأخَّروا في تلبية هذا النداء ، كما جاء في كتب السيرة ، فاجتمع الناس بين رجلٍ يجيء إليه ، وبين رجلٍ يبعث إليه رسوله.

كان العرب عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين:

فقال رسول الله ﷺ حين اجتمعوا: **يا بني عبد المطلب! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟** كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربيُّ ﷺ ووجَّه إليهم هذا السؤال ، أمِّيِّين ، غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة ، وعلم المنطق ، ولم يألفوا التعمُّق والتدقيق ، ولكنهم كما قلت كانوا واقعيين عمليين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم ، وسرعة الإدراك ، واستعرضوا الواقع ،

---

(١) من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة.

واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وضعه الطبيعي ، رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحبَّ الخير ، قد وقف على جبلٍ يرى ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء الجبل والسفح المقابل ، وهذا الذي لا يشترك فيه مخاطبوه ، فعرفوا من غير شكٍّ وتأمُّلٍ طويلٍ: أنَّ له الحق أن يتحدَّث عمَّا في سفح الجبل المقابل من عدوٍّ رائض ، وخطرٍ كامنٍ ، وليس لهم حقٌّ ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذِّبوه وينفوا رؤيته على أساس أنهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرَّق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة ، وحقِّ الشهادة ما لم يعطهم ، وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين ، **فقالوا: نعم ، إنَّك إذا قلت أنَّ وراء الجبل خيلاً تريد أن تغير في الليل ، أو تغير على غرَّة منَّا صدَّقنا.**

الأنبياء يقفون على قمة جبل من النبوة يطلُّون منها على دنيا الحسِّ ، ودنيا الغيب:

وقد نجح رسول الله ﷺ بحكمة النُّبوَّة التي خصَّه الله بها ، وبلاغته العربيَّة التي أكرمه الله بها، وقد صوَّر لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق، ووضعهم الشاذ؛ الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم ، وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزُّعماء عادةً ، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة ، يطلُّون منها على الجانبين ، الجانب الحسِّي بحكم البشرية ، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الإلهية ، وبحكم النبوة التي يكرمهم الله بها ، ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وليس لأذكى إنسانٍ ، وأعظم عالمٍ ، وأكبر عاقلٍ أن يكذِّبهم، وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة، ولا يرى ما يرونه ، مثلٌ بسيطٌ جدّاً: أنا واقف أمام هذا الشباك ، وأنتم وجوهكم إلى هذا الجانب ، وأنا أقول الله أكبر! قد سقط فلان ، أو خرج فلان ، فهل يجوز لكم أن تكذِّبوني ، وأن تنفوا ، وتقولوا لا؟ هذا لا يمكن ، هذا غير معقول ، كلُّكم تعرفون أنكم مدبرون لهذا الجانب ،

ومقبلون إلى ذلك الجانب، وأنا مقبل إلى هذا الجانب ومدبرٌ إلى ذاك الجانب، فأنا لي حقُّ الشهادة، وحقُّ الإخبار بشيء ترونه أنتم، شيءٌ بسيطٌ، ومعقولٌ ويوميٌّ، وليس لأذكى إنسانٍ أن يكذبه، ربما يكون منكم أحد أبصر منِّي، وأعقل منِّي، ولكن رغم هذه الحدَّة في البصر لا يجوز له أن يكذب ما أرى.

كذلك ليس لأذكى إنسانٍ، وأعظم عالمٍ، وأكبر عاقلٍ أن يكذب الأنبياء وينفي مشاهدتهم على أساس: أنَّه لا يشاركهم في هذه المشاهدة، ولا يرى ما يرونه، كما لا يجوز لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته، وأخبر بما وراء الجبل، وتحدَّث عمَّا وراء الأكمة[1].

مكابرة الفلاسفة والحكماء:

فإذا حاجَّهم، وخاصمهم أسيرٌ لحسِّه قالوا محتجِّين مستغربين ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وكان العرب الأمِّيُّون أعقل - في هذه المرحلة البدائية - من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكُّوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطِّلاعهم ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩].

القضية هو الإيمان بوجود عالمٍ لا يرى:

ولما تمَّت هذه المرحلة التي كان لا بدَّ منها، تقدَّم الرسول ﷺ خطوةً ثانيةً، ودخل المرحلة الثانية النهائية، فقال: «**فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[2].

كان لهم أن يقولوا: من أين رأيت هذا العذاب، بأيِّ شيءٍ تنذرنا، ولكنَّه أولاً وقف على قمَّة الجبل، ثم سألهم: هل إذا أخبرتكم بأنَّ هنالك خيلاً تريد أن تغير عليكم هل أنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، هناك قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» لأنَّ النَّبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يرى هذا الجانب الخلفي للجبل وهو عالم الغيب بالنسبة إليهم، ويرى الجانب

---

(١) من تعبيرات العرب «من وراء الأكمة» والأكمة: التل.

(٢) البداية والنهاية؛ لابن كثير ج ٣، ص ٣٨.

الأمامي ، فكان يجمع بين هذين العالمين الغيبي المؤقت المجلّى بالنسبة إليهم ، والعالم الحسّي المشهود الممتد أمامهم ، حتى إذا وقفوا في سفح هذا الجبل لم يروا ذلك العالم الذي يراه الرسول ، فهنالك عالمٌ وراء عالم ، في الحقيقة القضية هي الإيمان بوجود عالمٍ لا يرى ، فإذا تحقّق الإيمان بإمكان وجود عالمٍ مهما كان بسيطاً ، فتح الطريق ، لأنّه إذا ثبت عالمٌ واحدٌ يمكن أن يثبت ألف عالم ، فالشيء الذي يضغط عليه صاحب الحجّةِ هو الإيمان بإمكان وجود حقيقة واحدةٍ غيبية فهو مكلّف بالإيمان بوجود ألف حقيقةٍ.

الخطر الحقيقي الذي تناساه أهل مكة وأهل العصر :

قال الرسول ﷺ : «**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهدِّدهم ، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها ، والعقائد التي يدينون بها ، والأصنام التي يعكفون عليها ، والعادات الظالمة ، والأخلاق الجاهلية التي يتمسَّكون بها ، وبالاختصار: هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها ، لا إيمان ، ولا علم ، ولا عدل ، ولا تقوى ، إنَّ طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع ، والمعيشة الضنك ، والقلق النفسي ، والعذاب الداخلي في هذه الحياة ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] وكما يقول: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

تفرد الأنبياء بمعرفة خواصِّ العقائد والأعمال والأخلاق والعادات :

إنَّ الرسول عليه الصلاة والسّلام ما تعرض لبيان ضرر هذه الحياة والمجتمع الماديّ والاقتصاديّ ، أو الإداري والسياسيّ ، لأنَّ هذا لم يكن من موضوع الرسول ، ولا من موضوعات الرسالات السّماوية ، الهدف الذي يرمي إليه الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، هو العذاب الدائم بعد مدّة الحياة التي يهون ويصغر أمامه كلُّ ألم ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ [الرعد: ٣٤] ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٧] ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ [فصلت: ١٦].

سبيل الأنبياء والمرسلين وسبيل الفاحصين والمكتشفين:

لقد اطَّلع العلماء، والفاحصون على خواصِّ الأدوية، وعرفوا كثيراً من طبائع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات، وكوَّنوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس، وشكروا أصحابها، واعترفوا بفضلهم، وتفرَّد الأنبياء بمعرفة ذات الله، وصفاته، وأحكامه، ومرضاته، وبخواصِّ العقائد، والأعمال، والأخلاق، صحيحها وسقيمها، صالحها وفاسدها، وما تجرُّ وتستتبع من سعادةٍ وشقاءٍ في الدُّنيا، وثوابٍ وعقابٍ، وجنَّةٍ ونارٍ في الآخرة، وخصَّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعد هذه الحياة، وفي ذلك العالم من حشرٍ ونشرٍ، وإنعام وعذابٍ، ونعيم وجحيم: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

جواب الأنبياء الأخير:

لقد وقفوا عليهم السَّلام على جبل النبوة يشرفون منها بقدر ما يريد الله على عالم الغيب والشهادة، ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية، وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد، وما يكمن لها من خطرٍ وضررٍ، ثم ينذرون قومهم شفقةً، وإشفاقاً، وحبّاً، وإخلاصاً، وإذا نازع منازعٌ هذا الحقَّ الطبيعيَّ العقليَّ، وهذه البداهة، وشكَّ، أو شكَّك في مراكزهم، المركز الذي خصَّهم الله به، قالوا في نصيحةٍ، وإخلاصٍ، وتألُّمٍ، وإشفاقٍ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦] وكما قال مؤمنٌ من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤][1].

مثالٌ بليغ للحكمة النبويَّة والبلاغة العقليَّة:

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر، يختلف كلَّ الاختلاف في الطبيعة،

---

(١) انظر: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» للعلاَّمة الندوي ص ١٨ إلى ص٢٦، الطبعة الرابعة، دار القلم، دمشق.

والبيئة ، والدوافع التي دفعت إليه ، ولكنّها قطعةٌ رائعةٌ ومثالٌ بليغٌ للحكمة النبوية ، والبلاغة العقلية ـ ليست البيانية فحسب ـ والقيادة الحكيمة المؤثرة في أغوار النفوس وأعماق القلوب ، وهي جديرةٌ بأن تكون موضع دراسة مؤرخي النبوّات ، والقيادات الرُّوحية ، وعلماء البلاغة ، وأساتذة علم النفس.

إنَّ رسول الله ﷺ لما وزع سبايا ومغانم حنين في الجعرانة على أشراف قريش ، كما تعرفون ، وقرأتم في السيرة: أنَّه أعطى قريشاً ، فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل ، وفلاناً وفلاناً ، وكان نصيب الأنصار فيها قليلاً ، اعتماداً على إيمانهم ، وعلى حبِّهم ، وصلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيِّه ﷺ.

هناك تقاول بعض الشباب ، فقالوا: إنَّ رسول الله ﷺ خصَّ بني قبيلته بأكبر نصيب من العطاء ، والمغانم ، وبلغ هذا رسولَ الله ﷺ فحسب له حساباً ، لأنَّه النبيُّ المربِّي ، وليس النَّبيَّ فقط ، فأمر بجمع الأنصار في حظيرةٍ فاجتمعوا ، وقال: **لا يدخل الحظيرة إلا الأنصار** ، ولما اجتمعوا كلُّهم ؛ قال لهم:

لله ولرسوله المنُّ والفضل:

«ما هذه القالة التي بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم»؟.

فاستحيوا ، وقالوا: لا شيء يا رسول الله! إنما هم بعض الشباب قد وسوس لهم الشيطان ، ثم قال: «**أما أتيتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألَّف بين قلوبكم؟ قالوا: لله ولرسوله المنُّ والفضل**».

إثارة الإيمان واليقين والحبِّ الدفين:

ولم يبتدر رسول الله ﷺ بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم فأثار فيهم الشعور الإنساني وألهمهم المعاني، فقال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ والفضل ، قال: «**والله لو قلتم لصَدَقْتُم ، ولصُدِّقْتُم: أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ،**

وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك؟» أيُّ زعيمٍ ، وأيُّ قائدٍ ، وأيُّ مربٍّ ، وأيُّ صاحب فضلٍ يستطيع أن يشهد على نفسه بهذا ، والله لولا أن هذه الكلمات قد وردت في السيرة النبوية ، وفي حديثٍ صحيح ، أصله في الجامع الصحيح للبخاري ، وقد ذكره الحافظ ابن القيم في «زاد المعاد» بسياقٍ أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردت في الصحاح وفي كتب السيرة ، لما كان لأيِّ مسلمٍ أن ينطق لسانه بهذه الكلمات : «**أما أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك**»!

أوجدتم علي في لعاعةٍ من الدُّنيا؟ :

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم ، وأجرى عيونهم ، وفتح الأغلاق من قلوبهم : «**يا معشر الأنصار! أوجدتم عليَّ في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم!**» انظروا كيف أوجد في نفوسهم الثقة التي كانت كفيلةً بحسم كلِّ ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيء قد ساور نفوسهم ـ وقال : أوجدتم علي في لعاعةٍ من الدنيا (واللعاعة : خضرة ناعمةٌ) تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ثم قال الكلمة المثيرة البليغة؛ التي ما يمكن أن تطلق أو تنطلق من فم إلا وتفجر الأنهار ، وتشقَّ الصخور ، وتأتي بالمعجزات.

الأنصار شعار والناس دثار :

«**أما ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاه والبعير إلى رحالهم وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم ، والله لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلكت الأنصار شعباً وادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار ، والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار!**».

ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبيعي ، هملت عيونهم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسمةً وحظاً.

أروع نموذج في الآداب البشرية والآداب الإنسانية :

والله لو بحثنا ـ ولي مشاركة في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن اللغة

الأرديـة ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانـات ، ما وجدنا موعظةً أبلغ من هذه الموعظة ، وعلماً بالنفس الإنسانية أكثر عمقاً ، وأكثر صدقاً من العلم النَّبوي.

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دونت ، وسجلت في الآداب البشرية ، والمكتبات الإنسانية.

* * *

تزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوة النبوية والبعثة المحمدية(١)

لقد ذكر الله تعالى مقاصد البعثة المحمَّدية الرئيسية الأولى وذكر فوائدها الأساسية الكبرى، في نسقٍ واحدٍ في أربع آياتٍ من القرآن الحكيم، فذكر دعاء خليله إبراهيم ـ وهو جدُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ومؤسس الملَّة الحنيفية، وعلى يده تمَّ بناء البيت ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وذكرها في نسقٍ واحدٍ في معرض المنِّ والتذكير بالنعم، فقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ و١٥٢]، وذكرها بهذا الأسلوب، وهو يذكر عظيم نعمته على الأمَّة التي بعث فيها الرسول، وكبير منّه عليها، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وذكرها مقرونةً مجموعةً كذلك في سورة الجمعة، وذكر العرب الذين سعدوا بهذه البعثة أولاً، وظهرت فيهم آثارها الطيبة المباركة، ثم لحق بهم العجم، وسعد بها العالم، وستبقى على العصور ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ شجرة طيبة،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس، المجلد الواحد والعشرون، عام ١٩٧٧ م.

أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها . وقد جاءت في هذه الآية الكريمة بداية هذه النعمة وامتدادها ، واتساعها ، وانتقالها من بلدٍ إلى بلدٍ ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ ، ومن عصرٍ إلى عصر ، وذكر خلود هذه النعمة وبقاءها؛ لأنَّ فضل الله لا نهاية له ولا تحديد فيه ، فلكلِّ عصرٍ نصيبٌ ، ولكلِّ جيلٍ فيه حظٌّ (عطاء غير منقوص) وبهذه الزيادة والتفصيل أصبحت هذه الآية متممةً للآيات السابقة ، وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] [الجمعة : ٢ ـ ٤] .

فكانت(١) التلاوة ، وكان(٢) تعليم الكتاب ، و(٣) تعليم الحكمة ، و(٤) تزكية النفوس من المقاصد الأولى التي كانت لها البعثة ، وهي أركان هذه الدعوة الأربعة ، والمظاهر الكبرى التي تجلت فيها معجزة هذه النبوة الإصلاحية والتربوية ، وكل ما عداها من تقنينٍ وتشريعٍ ، وأحكامٍ وفروعٍ ، وحكمٍ وجهادٍ ، فهو من توابع هذه المقاصد وذيولها ، ولوازمها ، ومتمماتها .

ومهمَّة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة هذه الدعوة النبوية ، ومقاصد البعثة المحمدية ، وفي القرآن ما يدلُّ على أنَّ الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية هي من أهم مظاهر الحكمة ، فإنَّ القرآن قد أطلق لفظ الحكمة على هذه الأخلاق والآداب في عدَّة مواضع ، وقد ذكر في سورة الإسراء التعاليم الخلقية الأساسية في موضعٍ واحد ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣]

---

(١) روى ابن أبي حاتم بسنده عن سهل بن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ : إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ إلخ ، ورواه الطبراني وابن مردويه مرفوعاً ، كذا في «الدر المنثور» ٦/ ٣١٥ ، ونقل ابن جرير عن مجاهد وزيد قالا : إنما عنى بذلك جميع من دخل في الإسلام من بعد النبي ﷺ كائناً من كان إلى يوم القيامة .

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨] وهي خمس عشرة آية، فيها النهي عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وخفض الجناح لهما، وإيتاء ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل، والنهي عن التبذير، والأمر بالتلطُّف لهم بالقول، والنهي عن الإفراط والتفريط، والنهي عن قتل الأولاد، وعن الزنى، وعن قتل النفس إلا بحقِّها، وعن الإسراف في القصاص، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحقِّ، والأمر بالإيفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن التبختر، والمرح الزائد، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية، التي تلتقي عليها الأديان والأمم، والفطر المستقيمة، والعقول السليمة، من أول العصر إلى آخره، ختمها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان، إلا أنها كانت نهايةً في سورة الإسراء، وكانت بدايةً في سورة لقمان، فقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية، من نهيٍ عن الشرك، ومعرفة الفضل للوالدين، وطاعتهما في المعروف، واتباعِ سبيل من أناب: مراقبة الله في صغيرٍ وكبيرٍ، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المصائب، وعدم احتقار الناس، والخيلاء والكبرياء، والأمر بالاقتصاد في كل شيءٍ، والقصد في المشي، والغض من الصوت، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] افتتح كلَّ ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] فدلَّ على أنَّ كلَّ ما نطق به لقمان، وصدر عنه من التعاليم الخلقية، والوصايا الحكيمة إنما نبعت عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان، وخصَّه بها بين الأقران، ويرجع الفضل فيها إلى هذه الموهبة الربانية، والأخلاق الفاضلة التي فطر عليها، وتخلَّق بها، ووفِّق لها، لذلك قال في صلب هذه الآية بعد ما ذكر إيتاء هذه الحكمة: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وكذلك جاءت كلمة الحكمة في سياق الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة الطيبة ، من إنفاق الأموال في سبيل الله ، ثم عدم اتباعه بالمنِّ والأذى ، والحثِّ على القول بالمعروف والمغفرة ، والتحرُّر من الرياء ، والكفر بالله ، والإشفاق من بطلان الصدقات وحبط الحسنات ، والحرص على ابتغاء رضوان الله ، وإصلاح النفس واستقامتها ، والإنفاق من طيبات الأموال ، وعدم تيمم الخبيث ، والنهي عن الخوف الشديد من الفقر ، والاسترسال إلى الشيطان ، اقرأ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فدلَّ كلُّ ذلك على أنَّ الحكمة في اصطلاح القرآن وتعبيره ، لها صلة عميقة وثيقة بالأخلاق[1] فإذا لم تكن أخلاق؛ لم تكن حكمة ، وإذا لم تكن حكمة؛ لم تكن أخلاق ، وإذا تقرَّر ذلك ، فتعليم الأخلاق الفاضلة ، وتهذيب النفوس وتزكية الأرواح ـ ولا يتمُّ ذلك إلا بتصحيح العقائد ، والتطهُّر من دنس الشرك والجاهلية ، والتحلِّي بالعلم الصحيح ـ يحتلُّ مكاناً كبيراً في مهمة النبوة المقدَّسة ، ويشكل مقصداً كبيراً من مقاصد البعثة الرئيسية ، وقد دخل ذلك في تعليم الحكمة ، وفي التزكية.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ هذا الغرض العظيم الذي كانت له البعثة بكلمة الحصر ، فقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2] وقد كان خير مثال له ، وأفضل أسوة فيه ، فقد قال القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

---

(١) انتبهنا لهذه النكتة بحديث لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي ، كان يتكلم فيه عن معنى الحكمة في القرآن ـ رحمه الله تعالى وأثابه. (العلاّمة الندوي).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (١٧٢٣) بلاغاً عن النبي ﷺ ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، وقد رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٨١) بسندٍ صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

وسئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[1] ولذلك دعا الله إلى اتباعه، واتخاذه أسوةً دائمةً كاملةً، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكانت هذه «الحكمة» و«التزكية» من أعظم ثمرات الصحبة النبوية ومجالسته ﷺ وعشرته، فنشأ في أحضانه جيلٌ تحلَّى بأفضل الأخلاق، وأكرم الصفات، وتجرَّد عن رذائل الأخلاق، ومهلكات العادات، وذمائم الصفات، وغوائل النفوس، وبقايا الجاهلية، ومغالطات الشيطان، وقد شهد القرآن باستقامة قلوبهم، وصلاح نفوسهم، ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨] وشهد لهم رسول الله ﷺ بقوله: «**خير الناس قرني**»[2] وفي روايةٍ: «**خير أمتي قرني**»[3] وشهد لهم أحد رفاقهم بقوله البليغ الوجيز: «**أبرُّ الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلُّهم تكلُّفاً**»[4] وشهد لهم أحد أعدائهم، فقال: «**هم فرسان بالنَّهار، رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه**»[5] وقال الآخر: «**إنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم**»[6].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦/ ٩١) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) رواه البخاري (٢٥٠٩) ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله.
(٣) رواه البخاري (٣٤٥٠) عن عمران بن حصين.
(٤) هو عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل.
(٥) قول أسير رومي في وصف المسلمين أمام هرقل، البداية والنهاية ج ٧، ص ٥٢.
(٦) البداية والنهاية أيضاً.

وزخر تاريخ الإسلام وتاريخ الإنسانية بأخبار مكارم أخلاقهم ، وفضائل أعمالهم ، وحكاياتهم الجميلة في حسن السيرة ، وكرم الأخلاق ، وشدَّة الخوف من الله ، والزهد في الدنيا ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، وإيثار من سواهم على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والشهادة بالحقِّ ولو على أنفسهم ، أو الوالدين والأقربين ، والإنصاف من النفس ، والانتصار للحق ، والغضب لله ولرسوله ، والحبِّ في الله ، والبغض في الله ، والرحمة على الخلق والضعفاء ، وحسن المواساة ، وشدَّة المساواة ، والتزام الحق والعدل في كلِّ أمرٍ ، والتوسُّط والاقتصاد في كلِّ شيءٍ ، إلى غير ذلك من الأخلاق النبيلة ، والصفات الجميلة ، التي يندر اجتماعها في فردٍ واحدٍ ، وفي جيلٍ واحدٍ ، وقد أصبح كلُّ ذلك خبراً متواتراً أذعن له المسلمون وغير المسلمين.

والفضل في كل ذلك يرجع إلى التعليم النبويِّ ، و«التزكية» التي نوَّه بها القرآن ، والتزم ذكرها في مقاصد البعثة وفوائدها ، فلم يكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلا زرع الإسلام ، وغرس النبوَّة ، وصنائع التربية النبوية ، والتزكية المحمَّدية ، ولسان حالهم ينشد:

صنائع فاق صانعها ففاقت وغرسٌ طابَ غارِسُه مطابا
وكنَّا كالسِّهامِ إذا أصابتْ مراميَها فراميها أَصابا[1]

* * *

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني.

حكمة الدعوة وصفة الدعاة

إنَّ من الأمثال السَّائرة في الأدب الأجنبيِّ أنَّ هنالك شيئين لا يخضعان لقانونٍ مرسومٍ ، ولحدودٍ معيَّنةٍ ، وهما: الحبُّ والحرب ، أمَّا الحبُّ؛ فأتركه للأدباء والشعراء يبحثون فيه ، وأمَّا الحرب؛ فلا شأن لي بها ، ولكنِّي أعدل عن هذا المثل الأجنبيِّ الذي لا ينمُّ عن روحٍ إسلاميَّة ، وتفكيرٍ إسلاميٍّ ، أعدل عنه إلى مثلٍ آخر ، وإلى أصلٍ من الأصول ، وهو أنَّ التربية والدَّعوة لا تخضعان لقانونٍ مرسوم ، فإنَّ التربية نظامٌ معيَّنٌ خاصٌّ ، إنني أستهين ـ وأنا أثير هذه النقطة ـ بقيمة المكتبة العظيمة التي ألفت في فنِّ التَّربية ، ولا أستهين بجهود المربين المطَّلعين على التجارب العمليَّة والمناهج التربوية العالمية ، ولكنِّي قلت في مناسبةٍ في حديثٍ كنت أتحدَّث به في إحدى كليات التربية في بلدٍ عربيٍّ كبيرٍ: إنَّني أعتقد: أنَّ المعلم لا يكون معلماً حتى يكون ملهماً ، وكذلك أقول ، ولا أطلق كلمة الإلهام بمعنى المصطلح الشَّرعي ، ولكنَّ التربية هي التي تفتق القريحة ، وتشعل المواهب ، وتلهم المعاني البعيدة إذا سنحت لها مناسبةٌ ، وكذلك الدَّعوة لا يمكن أن تخضع لقانون خشيبٍ مرسوم معيَّنٍ ، وضعه البشر ، أو وضعه رجال الدَّعوة ، إنَّ من يُخضع الدَّعوةَ ، أو الدُّعاة لقانونٍ مرسومٍ أو لقائمةٍ من رؤوس الأقلام ، أو من الغايات ربما يصطدم بتجربةٍ قاسيةٍ.

عندنا حكايةٌ لابأس أن نحكيها أمامكم: إنَّ رجلاً استخدم خادماً ، وكان هذا الخادم ذكيّاً طلب من السيد أن يضع له قائمة الواجبات ، ما هي الواجبات التي أكلَّف بها؟ فوضع له قائمة: تعمل كذا في الوقت الفلاني ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم

وخضر ، وغير ذلك ، وتقوم بخدمةٍ فلانيةٍ ، فأخذ هذه القائمة ، واحتفظ بها ، ومرَّةً ركب هذا السيد جواداً ، ولكنه لسوء الحظ ارتبكت رجله في الركاب ، وأراد أن يتغلَّب على هذه المشكلة فما نجح ، وكان الخادم واقفاً ، فاستعان به ، وقال: أغثني يا فلان! فأخرج الورقة من جيبه ، وفتحها ومدَّها إليه ، وقال: أين في هذه القائمة أنَّ السَّيِّد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإنّي أعينه ، والسيد يعاني مرحلةً فاصلةً بين الموت والحياة يُخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورَّط في مرحلةٍ أخرى ، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة وكان أميناً عليها ، مخلصاً لها ، مرتبطاً بها فأبى ، ورفض أن يعينه لأنَّه غير مكلَّفٍ بهذه الخدمة.

فأخشى أنَّنا إذا قيَّدنا ، وفسَّرنا الدَّعوة بتفكراتٍ عصريَّةٍ ، أو تفكيراتٍ عمليَّةٍ تقوم على التجربة ، وعلى طبيعة العصر ، وعلى طبيعة البيئة ، فإنَّنا نجني على الدَّعوة ، ونجني على المجتمع.

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قد حلَّ هذه المشكلة ، وجاء القرآن المعجز ، الكتاب الخالد ، الكتاب الذي لا تبلى جدَّته فتوسط بين التفريط والإفراط ، وقال: ـ وإنِّي أحمد الله تعالى ـ على أنَّ القارىء اختار هذه الآية في تلاوته وهذه معجزةٌ من المعجزات القرآنية التي لا تعدُّ ، ولا تُحصى ، والمعجزة لا يستحضرها الإنسان إلا إذا عاصرها وعاشها.

ولما وقع حادث وفاة الرسول ﷺ وغُلب المسلمون على أمرهم ، فقد كثير منهم رشده ، وقف سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: من قال: إنَّ محمداً ﷺ قد مات فسأضرب عنقه ، فجاء سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ . . . ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

هنالك ذاق المسلمون ـ وفيهم كبار الصحابة رضي الله عنهم ـ لذَّة هذه الآية ، وشهدوا روعتها ، وإعجازها ، وكأنَّما نزلت الآية السَّاعة ، ونحن إن قرأنا هذه الآية مئات من المرَّات لم نذق هذه اللذة ، ولم نشعر كما شعر الذين قد شهدوا هذا الحادث الفريد في تاريخ الأمم ، وفي تاريخ الديانات.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ .. ﴾ [النَّحل: ١٢٥].

تستشعرون إعجاز القرآن في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل: ١٢٥] وتشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها، فأطلق، وقال: ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما حدَّد وما عيَّن شيئاً معيَّناً خاصًّاً، فمثلاً: تحثُّون على الصَّلاة، تدعون الناس إلى مكارم الأخلاق، تدعون الناس إلى الفضيلة، تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسان، و﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يحوي كلَّ شيء، إنَّه يمتدُّ، ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنَّها آفاق الحاجات الإنسانية، آفاق الحياة الإنسانية، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ ﴾ وهو لا يختصُّ بالخطابة، ولا يختصُّ بالكتابة، ولا يختصُّ بالوعظ والنصيحة إنما قال: ﴿ ٱدۡعُ ﴾ والدَّعوة عامَّةٌ تشمل هذه المعاني كلَّها، وهذه الأساليب كلَّها، ثم قال: ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وأيُّ كلمةٍ أوسع أفقاً، وأوسع إطلاقاً، من قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾؟!

أعترف أمامكم أنَّ الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقد أنَّها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغةٍ أخرى، وكذلك «الموعظة» كلمةٌ مطلقةٌ، و«الحسنة» أيضاً كلمةٌ مطلقةٌ، وهنا جاء القرآن يحلُّ هذه المشكلة، فأطلق، وقيَّد، وأوجز وأعجز، فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ ... [النحل: ١٢٥].

ولكن هناك نماذج من الدَّعوة الحكيمة، نماذج رائعةٌ خالدةٌ على مرِّ العصور، وعلى مرِّ التاريخ، وعلى مدى تاريخ الدَّعوة، جاءت في القرآن، وأختار منها نموذجاً جاء في القرآن، ونموذجاً جاء في السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ.

من هذه النماذج تستطيعون أن تفسِّروا الدَّعوة، وأن تطبقوها، تطبيقاً عملياً، وأن تستلهموا المعاني الدَّقيقة التي انطوى عليها هذا النموذج

الرائع ، فأذكر ـ أولاً ـ قصّة دعوة سيدنا يوسف ـ عليه وعلى آبائه الصلاة والسَّلام ـ التي جاءت مفصّلةً في سورة يوسف ، يقول تبارك وتعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

إخواني! استحضروا ـ أولاً ـ الملابسات التي رافقت هذه الدَّعوة ، والجوَّ الذي اكتنف هذه الدعوة ، لم تكن هذه الدَّعوة إلى الله بالأمر الميسور ، وبالأمر الهيِّن ، إنَّها تنطلق في جوٍّ رهيبٍ مظلمٍ ، قلقٍ ، في بيئة تقف سدّاً منيعاً ، أمام الغاية النبيلة الشريفة التي يتوخَّاها سيِّدنا يوسف عليه السلام ، إنَّه دخل السجن كرجلٍ متَّهم بجنايةٍ شنيعةٍ ، وموقف المتهم دائماً موقفٌ ضعيفٌ ، فهو لا يكون في موقف الدَّاعي الكريم المبجَّل؛ الذي تجلُّه القلوب ، والدَّاعي الوقور المحترم ، وهو وإن كان بريئاً من هذه الجناية كبراءةِ الذِّئب من دمه كما يقول المثل العربيُّ ، ولكن الحادث كان قد وقع ، التُّهمة قد وُجِّهت ، والمحكمة قد حكمت ، وشاع في الناس: أنَّ يوسف قد ارتكب جريمةً شنيعةً ، إنه خان سيِّده في أعزِّ ما عنده ، وفي أكرم ما عنده ، هذا موقفٌ ضعيفٌ ، ولكن سيدنا يوسف لما دخل السجن لفت الأنظار ، وحلَّ في القلوب موقع الحبيب الأثير المفضَّل المكرَّم ، وكان ذلك من التخطيط الحكيم ، وتقدير العزيز العليم.

إنَّ زميلين من زملاء السِّجن وإن لم يكونا زميلين له ، لأنَّه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وأما هما فقد ارتكبا جنايات خلقية ، ولكن على كلِّ حالٍ جمع بينه وبينهما سجنٌ واحدٌ ، ومعتقلٌ واحدٌ ، رأى كلٌّ رؤيا ، وألهمهما الله تعالى كما أنهما عرفا بتجربتهما وفراستهما الإنسانية ـ التي يكون لكلِّ إنسانٍ حظٌّ منها ـ أنَّ الرَّجل الوحيد الذي يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا هو يوسف ، هذا الذي دخل السجن جديداً ، وكانت تلوح على سيماه النجابة ، والنَّسب الرفيع ، وسيما الصَّالحين ، فجاءا إليه ، وحكى كلُّ واحدٍ منهما رؤياه:

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ﴾ [يوسف: ٣٦].

فالنقطة التي أريد أن أنبّهكم عليها، وستكون هذه النقطة مدداً لكم، وتقوم مقام مئة كتاب.

أنَّ هذه الآيات تشتمل على نقطتين ترجعان إلى علم النفس ـ وعلم النفس عاملٌ بشريٌّ ـ أولاً: التأكيد لهما أن يوسف يستطيع أن يفسر النبأ الذي جاءا لأجله وقصداه، وأنه لم يكن هذا القصد خطأً وأنهما ما ضلاَّ السبيل، إنَّهما وصلا إلى غايتهما، وهو الرجل المطلوب الذي يستطيع أن يرشدهما، فإنَّ الأصل النفسيَّ العميق؛ أنَّ صاحب الحاجة يريد أن تُقضى حاجته في أقرب وقت، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ويصف الدواء والطبيب يماطله، يقول: سأراجع الكتب من المصادر الطبية، وسأراجع فلاناً وفلاناً في البلد، ثم أحاول أن أعالجك، والمريض المسكين يتألَّم قلبه، وينقطع أمله، ويرجع خائباً، وربَّما لا يرجع إليه بعد ذلك.

فالشيء الأول أن يثير الإنسان الثِّقة في ذلك الرجل الذي ساقته الحاجة إليه، ويقنعه بأنَّ علاجه عنده، وأن طلبته، وحاجته ستقضى عنده، فقال:

﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ . . ﴾ [يوسف: ٣٧].

يعني: أنَّ حاجتهما ستقضى سريعاً، لأنهما كانا في السجن مرتبطين بقوانين السُّجون، والمعتقلات، فما كان لهما أن يجلسا بجواره ـ طويلاً ـ فأراد أن يطمئنها أنَّ حاجتهما ستقضى سريعاً، فقال: ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا . . ﴾ . . . الآية [يوسف: ٣٧] وهنالك تفسيران للآية:

١ ـ **التفسير الأول**: أنَّ سيدنا يوسف عليه السلام قال: ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾ [يوسف: ٣٧]؛ أي: تأويل هذا الطعام، يعني: حقيقة هذا الطعام، فإنَّه أراد أن يوجد الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته

على التنبؤ بشيء لم يره ، فاستعان به على إيجاد الثِّقة في نفوسهما .

وأنا لا أستسيغ هذا التأويل ، أولاً لأنه إخبار بالغيب ، ثم إنَّ السجون ليس هنالك تنوعٌ كبيرٌ في الأطعمة ، فباستطاعته ـ بكلِّ سهولةٍ ـ أن يخبرهما بنوع الطعام الذي سيحضر ، فأيُّ ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام ، وأيُّ براعةٍ له في الإشعار بنوع الطعام الذي سيحضر ، وجاء في التوراة: أنَّ سيدنا يوسف عليه السلام ، كان مشرفاً على المطعم ، إن صحَّ هذا؛ فإنه لا غرابة لمشرف المطعم في أن يخبر أيَّ نوع من الطعام سيحضر ، فأنا أميل إلى التفسير الثاني الذي ورد في بعض كتب التفسير ، وهو: أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا؛ حتى يطمئنا أنَّهما لا يحتاجان إلى جلوسٍ طويلٍ ، ولا يملاَّن ، ولا يأتي السجَّان ، فيقول: اذهبا إلى مكانكما ، ومن الذي أذن لكما بالحضور هنا ، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧].

وكانت مصر على جانبٍ كبيرٍ من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنيَّة ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام ، وكان وقت الطعام قد حضر ، فلذلك قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ . .﴾ الآية [يوسف: ٣٧].

ثم هنا نكتةٌ حضرت لي الآن ، وهي: أنَّ بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السِّجن صلةً قويةً ، فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق ، وانتعشت قلوبهم بسماع ذكر الطعام ، فالطعام حبيبٌ إلى كلِّ إنسان ، ولكنَّه إلى المسجون أحبُّ ، وألذُّ ، وأشهى ، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما ، وتهيَّأت آذانهما ، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ . . الآية [يوسف: ٣٧] ثم تثور فيه الطبيعة النبوية ، فلا يردُّ الفضل في ذلك إلى ذكائه ، ولا إلى براعته ، بل يردُّ الفضل إلى الله ، ومن هنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلَّما يوجد له نظير ، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧] فكان المدخل الكريم إلى النصيحة التي يريدها ، وانظروا: كيف ينتقل من تفسير الرؤيا قبل أن يفسِّرها إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يسيغه ، ولا يتحمله هؤلاء المسجونون الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا

قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما: بأنه لا يرجع الفضل إلى ذكائي ، وبراعتي ، بل يرجع الفضل إلى الله تعالى ، ومن هنا يدخل من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى الدَّعوة ، تستحضرون حكمته في الدعوة: أنه لم يكن يستطيع أن يقول: صبراً أيُّها الإخوان! أيُّها الزُّملاء الكرام! سأفسر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا منِّي أولاً: أنَّ هناك شيئاً أهمُّ من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعودوه ، وما جاؤوا لأجله ، فقال من غير انفصالٍ طويل ، بل في لحظةٍ واحدةٍ:

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧] استحضروا الجوَّ الذي وقعت فيه هذه الدَّعوة الحكيمة التي لا أعرف مثلها دعوةً إلا دعوة الرسول ﷺ وسأعرض عليكم نموذجاً منها ، ولم أمرَّ بأيِّ نموذجٍ من نماذج الدَّعوة ، وتاريخ الدعاة أدقّ وأعمق منها حيث بدأ الحديث بقوله: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ . . .﴾ إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ كيف انتقل إلى الحديث عن الربِّ وإلى التوحيد ، هل هنالك انتقالٌ أخفُّ ، وأرقُّ ، وألطف ، وأسرع من هذا الانتقال؟ فكأنه يقول: ما كنت لأفسر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسان الضعيف العاجز الذي لم أملك نفسي أمام هذا الأمر ، وأراد الناس أن يزجُّوني في السجن ، فلم أستطع أن أقاومهم ، وكيف يستطيع الإنسان الضعيف العاجز الذي يُساق إلى السِّجن ، فلا يملك شيئاً أن يصل إلى هذه القمَّة الشَّامخة من العلم بنفسه ، بل ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ ، ثم أثار سؤالاً آخر ، وهو لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر. إنَّها رحلةٌ طويلةٌ في طريق الدَّعوة ، لكن سيدنا يوسف بحكمته ، وبروحانيَّته الشفَّافة ، وقلبه المشرق ، وبفكره النقيِّ الربانيِّ استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدُّعاة ، والحكماء ، والفلاسفة في عددٍ من السنين ، استطاع أن يطويها في لحظةٍ واحدةٍ ، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أنَّه الآن في موقفٍ قويٍّ ، في موقفٍ عالٍ ، كأنَّه طلع جبلاً ، أو ربوةً عاليةً ، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ

ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وكان لو قدَّم هذا قبل ذلك الكلام؛ لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما، ولكن هنا استطاع أن يقول، وحقَّ له أن يقول: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] لاحظوا هذا التقديم والتأخير، ولاحظوا هذا الترتيب القرآني، الترتيب الحكيم، وكان لو استمرَّ في الكلام، وكان الكلام ممجوجاً، ولكنَّه شعر بقوَّةٍ في نفسه، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنَّهم تهيؤوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء، لأنَّه دعوةُ الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؟ [يوسف: ٣٩] اشعروا بالنبرة التي تختلف عن النبرة الأولى، كانت النبرة الأولى رقيقةً، لطيفةً، خفيفةً، فجاءت هذه النبرة قويةً، متدفقةً بالحياة، متدفقةً بالثِّقة، وكان ذلك من أقرب الطُرق إلى فهمهم، أمَّا لو استعان بأشياء منطقية، وكلاميَّة لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك.

ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠] إنَّها أسماءٌ من غير مسمَّيات، إنَّها أسماءٌ لا حقيقة لها، أسماء عند اليونان، وأسماء عند البراهمة الوثنيين، وأسماء عند غيرهم من أمثالهم، إنَّ الإعجاز القرآني يكمن في أنَّه أطلق عليه كلمة الأسماء. إنَّ الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ الميثولوجيا يعرف إعجاز هذه الآية: أنَّه ليس هناك إلا أسماء محضة، أين الآلهة؟ أين إله المطر، وإله الحرب؟ وأين إله الحب، وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة؟ التي لا وجود لها إلا في الذهن، وفي القائمة الخيالية، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

ولا تزال هذه الآية معجزةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليست الوثنية إلا أسماء، وقد فضح القرآن الوثنية بقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ [النجم: ٢٣].

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأنَّ الفراغ الذي وُجد في قلوبهم قد ملىء،

وليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ، ويتوسَّع في الحديث عن التوحيد، والطبيب النطاسي يعرف مقدار الوجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنَّها طريقة الداعي المُلهَم ، الدَّاعي المؤيَّد من الله ، إنَّه يشعر أنَّه قد وصل إلى نقطةٍ لا يجوز له أن يتخطَّاها ، ولأجل ذلك فإنَّ من يضع القوانين المحدَّدة للدَّعوة ، أو التربية يجني عليها ، على إطلاقها ، وحريتها ، وحيويَّتها ، ويجني على الدُّعاة ، ولما شعر سيدنا يوسف أنَّه لا تتسع نفوسهم ، ولا تتهيأ لسماع نصيحةٍ أكثر من هذا وقف ، وبدأ يفسر الرؤيا.

وقد تجلَّى في هذه القطعة القرآنية جمال يوسف ، الجمال الحقيقيُّ ، الروحيُّ ، والجمال الفكريُّ ، والجمال النبويُّ في أروع مظاهره.

ولكن من الغريب أنَّ هذه القطعة المعجزة قد تجرَّدت عنها التوراة ، فقد قارنت بين قصَّة يوسف في القرآن ، وقصة يوسف في «Bible» فدهشت عندما رأيت أنَّ هذه القطعة التي هي من أجمل القطع الأدبية فضلاً عن أنَّها من القطع الدينية لم ترد في التوراة ، تجد فيها الأعداد ، والأرقام ، والمساحة ، كان الشيء الفلانيُّ كذا من الأذرع والأشبار ، ولكن تجرَّد العهد القديم «Bible» بطوله ، وعرضه عن هذه القطعة الجميلة ، وتعرَّض للتابوت أن كان كذا من الأمتار ، وأن لباسه كان كذا وكذا ، وأنه تشقق من هنا وهناك ، ولكن هذه القطعة التي تسحر النفوس ، وتُلهم المعاني ـ التي لم تتعرَّض لها التوراة ـ تمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الدَّعوة في القرآن الحكيم.

أيها الإخوان! أقول لكم ـ والوقت ضيِّق ـ إنَّ الأشياء الكفيلة الضَّامنة بنجاح الدَّعوة إنَّما هي عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخِّصها في عاملين أساسيين:

أولهما: أن تملك الفكرة ، وتهيمن على مشاعر الداعي ، وإن تجري منه مجرى الرُّوح والدم ، وأن تمتزج بنفسه ، هنالك يكون الدَّاعي هو

الدَّاعي الموفق ، المُـلهَم ، المُـؤَيَّـد من الله؛ الذي سيكتب لـه النصر ، ولا يكتب له أيُّ إخفاقٍ ، أو فشلٍ .

فالشرط الأول ألا تكون الدَّعوة صناعةً ، أو حرفةً أو فناً ، وألا تكون حذلقةً ومجرد براعةٍ في الخطابة ، بل تكون عقيدةً ، وفكرةً ، وإيماناً يستحوذ على النفس الإنسانيَّة ، ويملأ جوانب النفس ، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلَّى عنها لم يستطع ولم يقدر ، هذا كان شأن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم الردَّة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها والتي غيَّرت مجرى التاريخ .

طلب منِّي أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلاميِّ الأول في كراتشي وأمامي نخبةٌ من قادة الفكر الإسلاميِّ ، ومن قادة العالم الإسلاميِّ ، فاستعنت بهذه الكلمة ، وقلت لهم : ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين ينصرفون من هذا المؤتمر ، قلت لهم : إنَّ الكلمة التي يحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه يوم الردَّة ومنع الزكاة :

«أينقص الدِّين وأنا حيٌّ؟»

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخواني الطلبة! يا أبنائي شباب المسلمين والعرب! أنتم مسؤولون أمام الله ، درستم في هذه الجامعة المباركة ، وأيُّ مكانٍ أقرب إلى مدرسة الرسول ﷺ وإلى صفة المسجد النبوي التي درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا ، ووعوا أحاديث رسول الله ﷺ وتخرَّج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث ، ووعاء من أوعية العلم ، أيُّ جامعةٍ أقرب إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذاً فمن أيِّ جامعةٍ نتوقع أن يخرج منها دعاةٌ تملكهم الدُّعوة .

والله لو استطعت أن أنقش هذه الكلمة على صدر كلِّ واحدٍ منكم لفعلت! يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبةً في كل بيتٍ على لوحةٍ بقلمٍ عريضٍ : **«أينقصُ الدينُ وأنا حيّ؟»**

أما الشيء الثاني : فهو التجرُّد عن المطامع ، والزُّهد في الدنيا ، لا أعني

به زهداً نصرانياً ، ولا زهداً رهبانياً ، ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ. . .﴾ [الحديد: ٢٧].

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكنَّ الدعوة تحتاج إلى شيءٍ من سموٍّ النفس ، وعلوِّ الهمَّة ، والتجرُّد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة ، إنَّ من توجهون إليهم الدَّعوة إذا علموا أنَّكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسَّع الله به عليهم ، فإنَّهم يشكُّون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم: أنَّكم لستم طلاب ملكٍ ، ولا منتجعي جاهٍ ، ومنصبٍ ، ولا روَّاد ثروةٍ ورخاءٍ ، أو مدفوعين من شحٍّ وحرصٍ.

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية: يقال: إنك تريد الملك ، فقال في دهشةٍ ، وقوَّةٍ: أنا أريد الملك؟! والله إنَّ ملك التتار لا يساوي عندي درهماً. وقد كانت دولة التتار أكبر دولةٍ ، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين.

وإنَّ أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك دهلي مالاً طائلاً ، فقال له: لا شأن لي به ، قال: لا بدَّ من أن تقبل شيئاً مما أعطاني الله ، فقال: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧] فإذا كانت الدُّنيا كلُّها قليلةً: فقارة آسيا ـ طبعاً ـ أقلُّ منها ، والهند أقلُّ منها ، ثم دهلي أقلُّ منها ، وأنت لا تملك إلا هذا ، فكيف أرزؤك في هذا الزهيد اليسير.

وأحكي لكم قصةً وقعت في دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة ، والمربِّين في القرن الماضي ، وكان ـ مرَّةً ـ يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق ، فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ، وإبراهيم باشا من تعرفونه في القسوة والعنف ـ ودخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً في رجله ، وكان مادّاً رجله إلى الأمام؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب ، ويلقي الدرس ، فكانت رجله إلى الباب ، فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه

سيقبض رجله ، ولكنَّه لم يفعل ، وخاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دمٌ زكيٌّ ، دم عالم تقيٍّ ، وبقي إبراهيم باشا واقفاً ، ثم رجع ، وأرسل صرَّةً من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال: تقدَّم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، وتقول له: هذه هديةٌ من إبراهيم باشا ، فلمَّا جاء بها الخادم إليه؛ قال كلمته البليغة الحكيمة التي هي أبلغ من ألف قصيدة ، قال: قل لسيدك: **إنَّ الذي يمدُّ رجله لا يمدُّ يده.**

فالإنسان مخيَّرٌ ، إمَّا أن يمدَّ رجله ، وإمَّا أن يمدَّ يده ، فإذا مدَّ رجله لا يسوغ له أن يمدَّ يده ، لأنَّه تناقض.

وقد جبل الناس على حبِّ من زهد فيما عندهم ، والبغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هي الطبيعة البشرية منذ آلاف السنين ، ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس من توجهون إليهم الدعوة؛ فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنَّكم لستم طلاب ملكٍ ، ومالٍ ، وطلاب رئاسةٍ وجاهٍ ، وطلاب مناصب ، ووظائف ، إنَّما أنتم تفعلون ذلك شفقةً عليهم ، ورقَّةً بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه.

أنا تلميذٌ صغيرٌ لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإنَّ هواياتي وإن كانت متعددةً ، ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصَّةً تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيت تجربةً في القرون الأخيرة ـ أعني بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح ، وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السَّرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيتُ قصته في الجزء الرابع من كتابي: «رجال الفكر والدَّعوة» ستقرؤون هذه القصة بالتفصيل.

تقرؤون فيه أنَّه كيف استطاع الرجل الأعزل المجرَّد من كلِّ سلاحٍ ، والمجرَّد من كلِّ ثروةٍ مادِّيَّةٍ ، والمجرد من كلِّ جيشٍ ، أن يحوِّل التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية العثمانية الكبرى في الشرق الأوسط ، وفي البلاد العربية والتركية. إنَّ هذه الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية ـ بعد الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر

منها مساحةً ، وأكثر منها فتوحاً ونجاحاً ، وكان على رأسها الملك القويُّ القاهر الذي اتَّسعت له الفتوحات الواسعة ، وهو جلال الدين أكبر ، وكان هذا الإمبراطور نشأ في قلبه عداءٌ للإسلام وحقدٌ عليه ، لأنَّ من ينحرف عن الإسلام ويثور عليه أقبحُ وأشدُّ من الذي نشأ في الكفر ، كما حكيت لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان «عاصفة يواجهها العالم الإسلاميُّ والعربيُّ» في هذه الجامعة نفسها ، ولأنَّ الذي يخرج من النور إلى الظلام يكون أعمش ، وأقلَّ إبصاراً من الذي نشأ في الظلام ، ثمَّ إنه يصاب بمركب النقص.

فكان الإمبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداءٌ شديدٌ للإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك أنَّه ما كان يستطيع أحدٌ في بلاطه أن يسمِّي ابنه محمداً، لأنَّه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناس التسمية بهذا الاسم، وكان من يذبح بقرةً في عهده يعاقب بالقتل ، وكان قد فتح الخمَّارات، وشجَّع الناس على شرب الخمور ، وأكل لحم الخنزير، وكان قد تأثر بالبرهمية ، والوثنيَّة والهندية ، كان يتَّجه بالمملكة إلى الطابع الهنديِّ البرهميِّ والفلسفة الهندية القديمة[1].

هناك قيض الله تعالى شأنه لمكافحة هذا التيار ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السَّرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) فجلس في ركنٍ من أركان بيته ، وبدأ يفكِّر في شقِّ الطريق لمكافحة هذا التيار ، فجعل يراسل الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثير فيهم النخوة الإسلاميَّة ، والحميَّة الدينية ، ويقول لهم: يا جماعة! أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرَّفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد ﷺ ـ وهو حبيب ربِّ العالمين ـ أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسلمون ، وأراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم ، كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله؟!

---

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلاَّمة الندوي في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» (١/ ٣٧٥) بعنوان: «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها».

صار يثير فيهم كامن الإيمان ، ويحرِّك فيهم العرق الإسلاميَّ الذي لا يخلو منه قلب أيِّ مسلمٍ ، وما زال يثير النخوة الإسلاميَّة ، ويواصل العمل ، وبقي هكذا مدَّةً طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره ، وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجد له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ويرافقه لمدَّة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنَّه من طراز آخر ، وأنَّه عالم ربانيٌّ مخلصٌ ، زاهدٌ في الدُّنيا ، محبٌّ للخير ، فأحبَّه ، وأجلَّه وبدأ يهتمُّ برفع شعائر الإسلام ، وبناء المساجد في المناطق ، والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين .

ولم يزل يجري اتصالاته بالأمراء المسلمين ، وكبار الوزراء حتى كوَّن مجموعةً مؤمنةً ذات حمية دينية ، فقلب التيَّار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجهان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدلُّ على ذلك أنَّه لما صنع له «عرش الطاووس» الذي صرف عليه الملايين ، وتربع عليه نزل بعد هنيهةٍ ، وقال : لقد كان فرعون سفيهاً ، إنَّه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش .

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبَّق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنَّة ، لا تفوته جمعةٌ ولا جماعةٌ ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها .

كل ذلك بجهود رجلٍ واحدٍ فقيرٍ أعزل ، ولكنَّه تملَّكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحوُّل من موقفه ، وقد أثبت للملوك : أنَّه لا يريد

الملك ، وقال لهم: إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبّقوا الأحكام الشرعية ، وتوجهوا بهذه البلاد إلى الإسلام.

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة: أحدهما: تملُّك الفكرة ، وسيطرتها على نفسه ، والثاني: التجرُّد عن المطامع الدنيوية والزهد في المناصب والملك.

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء **أبنائنا أبناء الجامعة الإسلامية** ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

وأعود فأقول لكم: إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة:

«**أينقصُ الدِّين وأنا حيٌّ؟**».

* * *

منهج أفضل في الإصلاح للدُّعاة والعلماء

اختار الله للدعوة الإسلامية في الهند أصحاب قلوبٍ رقيقةٍ؛ لأنَّ الشعب الهندي هو رقيق الشُّعور قويُّ العاطفة ، يفعل فيه الحبُّ والحنان ما لا يفعله المنطق والبرهان ، فاختار الله للدعوة الإسلامية في الهند أصحاب قلوبٍ ليِّنةٍ خفاقةٍ ، وعيونٍ دامعةٍ فياضةٍ ، هؤلآء الذين كانت عيونهم تدمع لكل مفجوعٍ منكوبٍ ، وكانوا يؤوون كلَّ طريدٍ وشريدٍ ، ويلجئون كلَّ مَنْ أقصته الأسرةً ، وطردته القرية .

كان الفرق بين البرهمي وغير البرهمي أكبر من الفرق بين الإنسان والحيوان ، إنَّ الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، (النظام الطبقي والاجتماعي في الهند) كثيرةٌ[1] ، ثم كان غير البراهمة طبقات ، ثم هنالك سيدات مات أزواجهنَّ فكنَّ يحرقن أنفسهنَّ مع أزواجهنَّ ، وكان ذلك من العادات الَّتي تفردت بها الهند .

فكان أولئك الربانيون يلجئونهم في ملاجئهم العلمية والروحية ، يطعمونهم معهم ، ويجلسونهم على مائدةٍ واحدة ، ما كان هنالك من المألوف أن يؤاكل إنسان إنساناً ، ولا يزال هذا في الهند ، إذا سافرتم في القطار ترون صديقين من غير المسلمين يتحدَّثان ، ويتلاطفان ، فإذا حضر الطعام صرف هذا وجهه إلى الغرب ، وهذا وجهه إلى الشرق ، بدأ يأكل هذا وبدأ يأكل ذلك ، كأنه لا لقاء بينهما ، فهؤلآء الدُّعاة والمربُّون كانوا

---

(١) ليراجع للتفصيل كتابا العلاَّمة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» و«السيرة النبوية». طبع دار ابن كثير ، دمشق.

يعاملون أولئك اللاجئين معاملة الأولاد ، وكانوا يجلسونهم على مائدةٍ واحدةٍ ، ويفضِّلونهم على أنفسهم وأولادهم ، وبذلك انتشر الإسلام انتشاراً هائلاً في هذه البلاد التي تشبه قارة.

وكانوا مع هذا الزهد والابتعاد عن قبول الصِّلات الملوكية ، يشرفون على الحكومة ، ويراقبونها من بعد ، كالنار يصطلي بها الإنسان، ويستدفىء بها ، ولا يمسُّها فتحرقه ، وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى.

أنا أُؤمن بأن الدَّاعية المخلص ، لا يكون داعيةً إلا إذا كان ملهماً مؤيداً من الله ، فكانوا يُراقبون الدَّولة ويُراقبون اتجاهاتها وميولها ، ويرون هل المجتمع الإسلامي إلى خيرٍ أم إلى شرٍّ ، وإلى صلاح أم إلى فسادٍ ، وهل هناك اتجاه موافقٌ للإسلام أم معارضٌ للإسلام؟ فإذا كان هناك اتجاه معارضٌ للإسلام جرُّوا الحبل من بعيدٍ وباحتياطٍ ، وأشاروا على الملك بما هو صالح للعباد والبلاد ، وبما فيه تأييدٌ للدِّين ، وتقويةٌ للمسلمين ، وقد تكون لهم يدٌ خفيَّةٌ في اختيار ملكٍ ، أو عزلٍ ونصبٍ.

فإذا سنحت لهم فرصةٌ لكلمة حقٍّ عند سلطان جائر؛ كانوا من أفصح الناس ، وأشجعهم ، أحكي لكم قصَّةً واحدةً:

إنَّ محمد تغلق عُرف في تاريخ الهند بالجبروت والطغيان ـ بل بالجنون والهوس ـ ويسمَّى في تاريخ الهند «السلطان العاقل المجنون» إنَّه كان رجلاً علاَّمة ، وهو أول ملك من ملوك الهند اطلع على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأعجب بها ، إنَّه كان في آخر القرن الثامن ، وكان شديد الإنكار على المنكرات والبدع ، وقد عسكر مرَّةً بقرب عالمٍ ربانيٍّ اسمه الشيخ قطب الدين منور ، وجاء العلماء والشيوخ يسلِّمون عليه ، ولزم الشيخ بيته ، فلم يأته ، وغضب الملك ، وطلبه إلى دهلي عاصمة البلاد ، ولما حضر البلاط ، ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاط واقفين سماطين[1] متخشِّعين مسلّحين ، في هيئةٍ تنخلع منها القلوب ،

(١) أي صفين متقابلين.

وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السنِّ لم يزر بلاط الملك في حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب ، وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوتٍ عالٍ قائلاً: يا ولدي! العظمة لله! ، يقول نور الدين: إني استشعرت فيَّ قوةً غريبةً بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي ، وذابت ، وبدا الجميع عندي كأنَّهم قطيعٌ من ضأنٍ أو معزٍ ، وسأل الملك الشيخ ، وعاتبه قائلاً: «إننا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم وموعظتكم» فأجاب الشيخ: إن هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، إنه يعيش في عزلةٍ ، ويدعو للملك ولجميع المسلمين ، فعليكم أن تعذروني في هذا الأمر ، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه: إنه صافح كثيراً من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً وإشفاقاً ، أمَّا هذا الشيخ فما وجدت في كفه ليناً وضعفاً ، وما رأيت في يده ارتعاشاً ، بل صافحني بقوَّة ، وحرارةٍ زائدةٍ ، واعتزاز نفس.

وقدم إليه الملك مئة ألف «تنكة» (قطعة ذهب) فقال الشيخ: سبحان الله تكفيني أقتان من أرز وسمن بفلسٍ واحدٍ ، ماذا أفعل بهذا المال الكثير؟ ولكن قيل له إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهديَّة ، وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية ، وقسمها بين إخوانه ، وأصحابه ، وذوي الحاجة ، هذه قصَّةٌ من القصص الكثيرة[1].

والآن أتحدَّث إليكم عن دور الإصلاح والتنظيم: لما رسخت الحكومة الإسلامية في الهند ، وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في جميع أنحائها ، تأثَّر المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فانتقلت إليهم عادات الجاهلية ، وانتقلت إليهم بعض العقائد الخرافية ، وتسرَّب إليهم الشرك والبدع وتغلغلت فيهم الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الهندية القديمة وعن طريق هاتين الفلسفتين انتقلت إليهم اتجاهات ونزعات لا يقبلها الإسلام ، فهنالك جاءت مرحلة الإصلاح والتنظيم ، ولما جاءت هذه المرحلة ، قيَّض الله في هذه المرحلة

---

(١) القصة بطولها في كتاب العلاّمة الندوي المؤلف «المسلمون في الهند» طبع دار ابن كثير ، دمشق.

الدقيقة رجالاً غيارى متألمين للإسلام ، وهبوا نفوسهم ، وأرواحهم ، ومواهبهم ، وذكاءهم لقيادة المسلمين في هذه البلاد.

واتَّفق أنَّ أكبر ملكٍ عرفه تاريخ الهند هو الملك المغولي السلطان جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، اتَّجه اتجاهاً معارضاً للإسلام ، ونشأ فيه عداءٌ للإسلام وعنادٌ شديدٌ للدِّين الإسلاميِّ وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسَّلام ، وعطفٌ شديدٌ على البراهمة ، وعقائدهم ، وعاداتهم.

هذه مرحلةٌ أدقُّ من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا كانت بلاد لا تعرف الإسلام فقضيتها قضيةٌ سهلةٌ ، إذا تعرَّفت بالإسلام؛ فقد تعرَّفت بالإسلام الحقيقيِّ والدِّين الخالص ، ولكن إذا ثار الملوك ، والحكام على الإسلام ، وانحرفوا عن الجادة وارتدوا عن الإسلام أو عارضوه فهنا العقدة الكبرى.

إنَّ «أكبر» كان أولاً مغرماً بدراسة الدِّيانات ، كان من سوء حظه أنه كان أمِّياً أو شبه أمِّيٍّ ، لم تسمح حياته الخاصَّة بدراسةٍ وثقافةٍ ـ ولكن مع ذلك عنده غرامٌ بالمقارنة بين الدِّيانات ـ والإنسان إذا كان جاهلاً وليست عنده الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة ، والوصول إلى النتائج الصحيحة؛ فهذه محنةٌ عظيمة ، وهذا الرجل كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين ، جاهل ولكنَّه كان مفرط الذَّكاء ، سريع الانفعال عصبياً ، ومغرماً بالمقارنة بين الدِّيانات ، فجمع علماء أهل السنَّة ، وعلماء الشيعة ، وعلماء الطوائف الإسلامية التي انحرفت عن الإسلام ، وعلماء البراهمة ، والبوذيِّين ، والمجوس ، والمسيحيين ، وكان يثير موضوعاً خلافياً يناظر فيه هؤلاء العلماء ، فكانوا يتناقرون كالديوك ، ويتناطحون كالتيوس ، وكان يتفرَّج على ذلك ويتسلَّى به ، كما كان الملوك في العصر القديم يتفرَّجون على قتال التيوس ، وبعض الطيور ، هذه المناظرات قد غرست في قلبه الشكوك ، وصار ينسلخ عن الإسلام رويداً رويداً ، حتى انسلخ تماماً.

ثم العامل الثاني الذي أثَّر فيه ، وعدل به عن الإسلام ، هو حبُّ العلماء الزائد للدُّنيا ، وتنافسهم في الجاه والمال ، كان في بلاطه علماء يعتبرون

من كبار العلماء في عصره ، ولكنَّهم مع الأسف الشديد ، كانوا متنافسين تنافساً شديداً في الجاه ، وكان كلُّ واحدٍ يريد أن يستأثر بالملك وكان بعضهم ادَّخر مالاً عظيماً ، وكان بعضهم استخرجت من مقبرة أسلافه لبنات من ذهبٍ كان قد خبَّأها ، فلما اطلع هذا الرجل على هذه المناظرات ، واطَّلع على مواضع الضعف في هؤلاء العلماء الكبار؛ الذين كان أحدهم المحدث الأكبر والآخر قاضي القضاة ، والمفتي الأكبر ، رأى أنهم لصوص الدنيا ، وأنهم لا يقلُّون عن عبَّاد الدنيا في حبِّ المال فانسلخ عن الإسلام.

وأقول لكم ـ أيها الإخوان! ـ عن تجربة واختبار: إنَّ الذي يرتدُّ عن الإسلام يكون أكثر عناداً للإسلام ، وأكثر معارضةً للإسلام والمسلمين من الذين ليس لهم عهدٌ بالإسلام ، ومن أتباع كلِّ ديانةٍ ، مسيحيين كانوا أو يهوداً ، وهذا الذي تشهدونه اليوم في بعض البلاد العربية والإسلامية ، التي يحكمها الذين ولدوا في الإسلام ، ونشؤوا في بيتٍ مسلمٍ ، وفي بيئةٍ مسلمةٍ ، ثم كرهوا الإسلام ، وأبغضوه لتأثير أجنبيٍّ ، أو بفعل ثقافةٍ ، أو فلسفة ، فهم دائماً أشدُّ عناداً للإسلام من الهنادك ، والمجوس ، والمسيحيِّين.

ونعود إلى القصة فنقول: إنَّ «أكبر» عادى الإسلام عداءً شديداً ، حتى يُروى عنه أنَّه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه ، وقد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أنَّه ذبح بقرةً فإنه يقتل ، إنه أحلَّ الخنزير ، وأحلَّ الخمر ، ولكنَّه حرم ذبح البقر ، وحرَّم على رجال بلاطه أن يسموا أولادهم محمداً؛ أو أحمد.

هذه فترةٌ دقيقةٌ جدّاً ، تقرِّرُ مصير الهند ، وتقرِّر مصير المسلمين في هذه البلاد التي فتحوها بدمائهم ، هذه البلاد التي هجروا فيها وفي سبيلها أوطانهم ، هذه البلاد التي عاشت فيها أجيال ، ونبغ فيها علماء ، ومؤلفون ، ونهض فيها دعاة ومربُّون هل يتجرَّد المسلمون فيها عن دينهم؟ هل يلفظ فيها الإسلام نفسه الأخير ، هل يكتب عليه الفناء؟

هنالك قام رجلٌ له فضلٌ على كلِّ مسلمٍ في الهند ، هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السَّرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ وكان عالماً كبيراً مشاركاً في علومٍ كثيرةٍ ، وكان إذا أراد أن يكون له مركزٌ كبيرٌ علميٌّ كان يمكن أن يتصدَّر مجلس السلطان أكبر ، وكان هناك مَنْ دونه في العلم ، ومَنْ دونه في الذكاء ، ولكنَّه ملكته فكرةٌ واحدةٌ: حرام على هذه البلاد أن ترتدَّ عن الإسلام وأن يحرم المسلمون فيها حقَّهم أن يعيشوا كراماً ، أحراراً ، شرفاء ، يزاولون شعائرهم الدينية ، ويحافظون على خصائصهم ، وشخصيَّتهم الإسلامية ، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كلِّ لذة ، فوهب نفسه وحياته لها ، ترونه في رسائله (وأصلها بالفارسية وقد نقلت إلى العربية) كيف يبكي دماً ، وكيف يبكي على الإسلام ـ إنَّ رسائله دافقةٌ بالحياة ، الإنسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأنَّ فيها شعلةً إيمانيَّةً ، ولهيباً من إيمانٍ ، وصراحةٍ ، وحزنٍ ، فيقول في إحدى رسائله التي كتبها إلى أحد كبار الدولة: «واويلاه! واحزناه! وامصيبتاه! إنَّ أتباع محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام الذي هو حبيب ربِّ العالمين ، بهذا المكان من الذلِّ والهوان ، والكفار والمشركون والوثنيون يتمتَّعون بالحرِّيَّة ، وهذا في عهد رجلٍ يتسمَّى بالإسلام». إنَّه ينعزل عن مركز الحكم ، يجلس بعيداً ولكنَّه لم يزل متصلاً برجال البلاط والأمراء ، يكتب إليهم الرسائل البليغة التي تسيل عذوبةً ، وتشتعل ناراً في وقتٍ واحدٍ ، والتي تعتبر من أقوى الرسائل الدَّعويَّة والإصلاحيَّة في المكتبة الإسلامية ، إنَّه لم يزل يثير غيرتهم الإيمانية ويلهب فيهم جمرة الإيمان التي كانت مدفونةً تحت الرَّماد فيزيل عنها التراب ، فيقول للواحد منهم: «أنت مسلم والحياة عارضةٌ ، والملك لا يعيش دائماً ، وهذا الحكم لا يدوم ، اتق الله في نفسك ، اتق الله في أمتك ، اتق الله في بلادك» هذا كان دأبه على مرِّ الأيام حتى استطاع أن يجرَّ إليه عدداً كبيراً من الأمراء ، والوزراء ، وكانت سياسة البلاد تمرُّ بمرحلةٍ دقيقةٍ جداً ، لأنه إذا ثار ضدَّ هذا الملك الجبار ، الملك الذي ارتدَّ عن الإسلام ، وقد سمعنا قصة ارتداده وثورته على الإسلام ، فإنَّ معنى ذلك أنَّ هذه البلاد ستذهب إلى الهنادك ، فيستولون عليها لأنَّهم بالمرصاد ، فلم

يوافق على أن يعارض الحكومة بالسيف ، لأن هذه الحكومة إذا ضعفت فمعنى ذلك أنَّ الهنادك يستولون عليها ، وأنهم سيخلفون المسلمين ، فكان من الاحتياط ، ومن الحكمة ، وكان من السياسة ، ألا تضعف شوكة المسلمين المادية والعسكرية ، فاقتصر على الدَّعوة ، واقتصر على الرفق ، وعلى الحكمة.

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه وخليفته نور الدين جهانكير ، وكان أحسن سيرةً ، وأسلم عقيدةً من أبيه الرَّاحل.

طلب السلطان الإمام السَّرهندي إلى مقره ، وأكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيف ما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسةٍ من أصحابه ومريديه ـ كانوا إذ ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه في الطريق ، ونصب له خيمة بجوار قصره وطلبه في البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأت بالآداب ، والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السُّلطان ، فلفت بعض أبناء الدُّنيا ممن لا يخاف الله نظر السلطان إلى أنَّ الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ، ولم يأت بالتَّحية المعتادة للملوك[1] ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال: إنني لم أزل متقيِّداً بالآداب ، والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله ﷺ ولا أعرف غير هذه الآداب ، فغضب السلطان ، وقال: اسجد لي[2] ، فقال الإمام ما سجدت لغير الله قطُّ ، ولن أسجد لغيره أبداً ، فتغيَّظ السلطان ، وزاد غضبه ، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار[3].

---

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعدُّ من التأدُّب بالآداب الملوكية ، وكانت على ثلاثة أصناف ، أولها الكورنش وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطىء رأسه إلى الصدر ، وثانيها التسليم وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس ، وثالثها السجدة كما يسجد في الصلاة.

(٢) حضرات القدس ص ١١٧.

(٣) أيضاً ص ١١٦.

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية في سجن كواليار تنطوي على حكمٍ ومصالح دينيةٍ كثيرةٍ تسبب له الحبَّ والقبول في الناس ، وتزيده زكاء نفسٍ ، وسموَّ روحٍ ، وإشراق باطنٍ ، فشمَّر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجدِّ ، والاجتهاد في الدَّعوة ، والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، ونادى وراء جدران السِّجن بأعلى صوته ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] مما اهتزَّت له أركان القلعة ، وارتجَّت الجدران ، وسمع صداه في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين: أنَّ آلافاً من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته ، وتربيته ، وإرشاده ، ودعوته في الإسلام ، وإنَّ مئات من السجناء والمسلمين تابوا على يديه ، وبايعوه ، وتمتَّعوا بصحبته[١] حتى بلغوا درجات الإحسان.

كان لمرافقته دخلٌ كبيرٌ في نشأة النزعة الدينية الجديدة في الملك جهانكير ، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإسلام فيها[٢] فقد أمر ببناء أول مسجد في القلعة ، وذبح البقرة ، وهو يدلُّ على حدوث التحوُّل والتقدُّم في التدُّين الذي يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مرافقة الإمام السَّرهندي وصحبته.

ولم يزل الشيخ مذكراً للملك ، وناصحاً ، ومشجِّعاً ، يرشده ، ويوجِّهه ، ويراسله ، وقد طلب مرَّةً من أحد أمرائه أن يرشح له عدداً من العلماء يذاكرهم في الأمور الدِّينية ، فلمَّا علم الشيخ بذلك؛ قال: لا ، إنَّ العلماء إذا اجتمعوا؛ فإنهم يتنافسون ، ويتناظرون ، فهذا يفسد الملك ،

---

(١) كتاب Preaching of Islam (الدعوة إلى الإسلام) لمؤلفه البروفيسور آرنلد Arnold ص ٤١٢ الطبعة الثالثة «دائرة معارف الأخلاق والديانات» ص ٧٤٨ ج ٨.

(٢) انظر «نزك جهانكيري» ص ٣٤٠ وراجع للتفصيل الباب السابع منه وليلاحظ أنَّ هذه القلعة كانت قد فتحت على يد قائد هندوكي.

وهذا الذي حدث في العهد السابق ، وأضرَّ بالإسلام ، رجلٌ زاهدٌ في الدُّنيا ، متعمِّقٌ في الدِّين ، راسخٌ في العلم أفضل من أن يُختار عدد من العلماء ، وهم يتصارعون ، ويتناظرون ، ويظهرون براعتهم وحذقهم ، وهذا لا أراه لك رأياً ، وكان كما قال ، ولم يزل نور الدين جهانكير يتدرَّج من صالحٍ إلى أصلح ، ومن حسنٍ إلى أحسن حتى محا كثيراً من آثار أبيه السيئة ، وأزال كثيراً من بدعه ، ومحاربته للإسلام.

وخلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان، وهو الملك المسلم الخاشع لله ، وهو الذي لمَّا تربع على عرش الطاووس الذي أنفق عليه الملايين ، نزل وخرَّ لله ساجداً ، يثبت عبوديته ، وإسلامه ، ويحمد الله على الملك الذي آتاه ، ولم يزل الشيخ والحبل في يده فيقبضه ، ويرخيه ، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه أرخاه ، وإذا رأى من المصلحة أن يجرَّه جرَّه.

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتمِّم لعمله ، والأمين على دعوته الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (١٠٠٧ ـ ١٠٧٩ هـ) وله فضل كبير في تربية السلطان «عالمكير» أورنك زيب بن شاهجهان الذي يعدُّ من أكبر ملوك المسلمين ، ليس في الهند فقط ، بل في تاريخ الإسلام (يعني بعد نور الدين ، وصلاح الدين ، وبعض ملوك المسلمين الصَّالحين) هو الذي دوَّن «الفتاوى الهندية» وجعلها قانوناً للدَّولة ، وهو الذي طبق الأحكام الشرعية بدقَّةٍ وعنايةٍ ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها ، وله عوائد والتزامات لا يقدر عليها كثيرٌ من العلماء والعباد فضلاً عن الملوك والسلاطين ، هذا الرجل قلب تيَّار الحياة ، وأرسخ قواعد الإسلام في هذه البلاد ، وربط مصيرها بالمسلمين وبالعلم والدِّين ، وأزال خطر زوال الإسلام ، وجلاء المسلمين ، كما وقع في أسبانيا قبل قرنين ، وهذه ناحية من نواحي جهاد الشيخ أحمد ، وتجديده الأولى.

وبغضِّ النَّظر عن حياة أورنك زيب الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً ، متورعاً ، متمسِّكاً بالشريعة ، عاملاً بها ، محافظاً على

نوافل الطاعات ، فضلاً عن الفرائض والواجبات ، نكتفي بما يتعلق بالسياسة الشرعية التي في مملكته الواسعة ، وتنظيم الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وبما لَهُ من أثرٍ عميق في المجتمع الإسلاميِّ الهنديِّ والإصلاح الاجتماعي.

يقول المؤرِّخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ:

«أسَّس التقويم المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على أول «فروردي» التي تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع ، وكان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر «فروردي» إلى شهر «اسفنديار»[1] ، وسمَّى الشهور «شهوراً إلهية» ، ولما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان ـ مراعاة للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي ، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز.

ويعلم جميع الناس أنَّ الشهور الهلالية تتغير دائماً ، وتحدث مشاكل ، وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكنَّ هذا السُّلطان المتديِّن لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، وينتهي عن الاحتفال بمهرجان «نوروز» لتشبهها بطريقة عبَّاد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرَّر بداية تاريخ الجلوس الثاني بغرَّة شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، وأبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر»[2].

ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدَّخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريقٍ غير شرعيٍّ ، فيقول:

«أمر السلطان بإلغاء «راهداري» ـ ضريبة الطريق ـ الذي كان يؤخذ على

---

(١) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم.
(٢) المصدر السابق : ٨٣ ـ ٨٤ .

جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها ودخل خراج «بلغاري» الذي يسمَّى «ته بازاري» . . . يزيد على مئات الآلاف ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات ، والخمارات ، والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر ، وغير ذلك مما يبلغ الملايين من الروبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة»[1] .

كانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشَّرعية ، وشعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألَّف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة المهمَّة ونوعية العمل فيها كتباً بعنوان «الحسبة في الإسلام» وكانت هذه المهمَّة الخطيرة مهجورةً معطَّلةً في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

يقول المؤرِّخ :

«عيَّن السُّلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرَّمات ، خاصَّةً عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش ، وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المسيئات ، والمنكرات»[2] .

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ :

«كان السلطان يزداد ـ كلَّ يومٍ ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية ، وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلة لإلغاء دخل «راهداري» و«بانداري» الذي كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كلَّ عام ، وكان يدخل في الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق

---

(١) المصدر السابق : ٩ .

(٢) أيضاً ص ٩٢ ، ذكر مؤلف «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، أنَّ عالمكير نسخ عام ١٠٦٩ هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية .

الحانات والخمارات، ومكامن الريبة والفساد»[1].

ويزيد قائلاً:

«أمر السلطان بإلغاء الرَّقص والغناء، ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته، ورؤية طلعته من نافذةٍ في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة، ويسمَّى «جهروكه درشن» وترك نفسه الجلوس على النافذة، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية».

كان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعادتهم القديمة ـ يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجِّمين، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصَّة حسب ما يقرر المنجِّمون في ضوء علم التنجيم، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة، والعادة المتبعة، وأهمُّ من ذلك: أنَّ الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها، فعيَّن السلطان عالمكير قضاةً شرعيِّين، وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلَّق بالقوانين الشرعية.

«الشعراء والمنجمون الذين كانت لهم مكانة واعتبار في الدولة، (خاصَّة في عهد السلطان شاهجهان) منعوا من ممارسة أعمالهم وعين القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية، وحصل لهم من التمكُّن والاستقلال في شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة على الغبطة والحسد»[2].

أما الناحية الثانية من نواحي التجديد؛ فقد عارض الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي البدع، والعقائد الشركية، والشعائر الجاهلية المجوسية، والفلسفة اليونانية أشدَّ المعارضة، وهو الذي شنَّ الحرب على فكرة وحدة الوجود التي كان لها سحرٌ عجيبٌ على العقول والنفوس، ونفوذٌ

---

(١) المصدر السابق: ٢٧٥ ـ ٢٧٦ باختصارٍ.

(٢) أيضاً، ص ٢٧١٧، وراجع كذلك كتاب (Aurangzeb & His Age) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي «أورنك زيب وعصره» الباب بعنوان A. Reformer.

عميقٌ في العلوم والآداب ، وكوَّن معسكراً كبيراً له قيمته وأهميته إزاء معسكر وحدة الوجود؛ الذي كاد يكون المعسكر الوحيد في الهند وفي البلاد العجمية ، فعارض هذه الفكرة معارضةً شديدةً ، وحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها ، ولا رفق.

وأنا أقرأ لكم طرفاً من إحدى رسائله الخالدة على سبيل المثال:

كتب إليه أحد تلاميذه: أنَّ الشيخ عبد الكبير اليمني يعتقد: أنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات ، ولا يعلم الجزئيات ، وهو من ضمن الأفكار والعقائد التي تسربت في المسلمين عن طريق الفلسفة اليونانية ، فكتب إليه يقول: «يا أخي! إنِّي لا أستطيع أن أصبر على سماع هذه الخرافات وإن عرقي العمري ينبض ، وإنَّ الدم الفاروقي الذي يجري فيه يفور[١] كان قائل هذا عبد الكبير اليمني ، أو الشيخ ابن عربي الطائي ، إنَّ الفتوحات المدنيَّة[٢] أغنتنا عن الفتوحات المكِّيَّة[٣] نحن نريد محمَّد العربي لا الشيخ ابن عربي ، إننا من أتباع النُّصوص[٤] لا الفصوص[٥]. هذا مثالٌ من الأمثلة الكثيرة.

والواقع أنَّ عمله التجديدي الأساسيَّ الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحيَّة التجديديَّة ، ومنبعه الأصيل الذي تتفجَّر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية ، وجهوده الثوريَّة ، وتتحوَّل إلى نهرٍ يجري في العالم الإسلامي كلِّه ، هو ذلك العمل الإصلاحيُّ العظيم الذي تجلَّى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمَّة الإسلامية بخلود الرسالة المحمَّدية وحاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمَّة.

---

(١) لا ينسى أن الشيخ أحمد ينتهي نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) يعني التعليمات النبوية والأحاديث الصحيحة.
(٣) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي.
(٤) يعني نصوص الكتاب والسنة.
(٥) يشير إلى فصوص الحكم للشيخ ابن عربي ، وهو يتضمَّن الشيء الكثير من مثل هذه الأقوال الغريبة.

ويقول هو نفسه في رسالةٍ وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله ، وهو يصوِّر هذا الوضع المكفهر :

«لقد كثرت البدع والمحدثات في هذه الأيام كثرةً فاحشةً ، حتى ليخيَّل للناظر أنَّ بحراً من الظلمات تتلاطم أمواجه ، وأنَّ نور السنَّة في هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يراعاتٍ منتشرةٍ في ظلمة الليل البهيم» .

لقد كان معين الإسلام الصَّافي في الهند ـ التي لم يزل أساس الإسلام فيها ضعيفاً لأسبابٍ وعوامل تاريخيةٍ مختلفةٍ ، وكانت موطن شعوبٍ مشركةٍ ، ودياناتٍ وثنيةٍ ـ تتسرَّب إليه المخلَّفات والرواسب من الديانات السائدة ، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع في الظلمات المتراكمة ، حتى يضلَّ الخرِّيت ، ويحار الدليل .

ولذلك لما بدأ الإمام السَّرهنديُّ رحلته التجديدية ، وكانت أول خطوةٍ خطاها على طريق الأنبياء وعلى نفس المنهج الذي سار عليه الرسل ، هي الخطوة نحو إصلاح العقائد ، وتصحيح الاتجاه ، فقد كان إباؤه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير ، ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه ، وتجديده ، وقد تناول في رسائله التي وجهها إلى مختلف أصحابه ، وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوبٍ واضحٍ مبين ، وعباراتٍ موجزةٍ جامعةٍ رصينةٍ ، وقدَّم دلائل ، وبراهين على وحدانية الله تعالى وأنه هو المستحقُّ للعبادة وحده ، بأسلوب يدلُّ على رسوخه ، وعلوِّ كعبه في هذا العلم ، وقام يدحض الشرك ، ومظاهره ، وتقاليده ، ونهى أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركيَّة ، والعادات الجاهلية ، وتقاليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين؛ إذ أنَّه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلا به ، فضلاً عن نهايته وكماله .

وهنا مقتطفات من رسالةٍ مسهبةٍ كتبها إلى امرأةٍ صالحةٍ بايعته ، وتابت على يده ، وقد تضمَّنت هذه الرسالة الردَّ على عامة ما يبتلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم ، يقول فيها :

«إنَّ تعظيم مظاهر الشرك ، وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الإشراك

بالله عزَّ وجل وأنَّ من يعتقد بصحَّة دينين وصلاحيتهما في وقتٍ واحدٍ فهو مشرك ، وأنَّ من يعمل بأحكام الإسلام ، وأعمال الكفر ، والشرك؛ فهو مشركٌ ، ولا يتمُّ الإسلام إلا بالبراءة من الشِّرك ، ومحادَّته ، ومعاداته ، إنَّ التوحيد هو الاشمئزاز ، والنفور من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشِّرك».

ويقول رحمه الله : «إنَّ الاستعانة بالطواغيت والأصنام في دفع الأمراض ، وشفاء الأسقام - التي راجت في المسلمين ، وعمَّت في دهمائهم - عين الشرك والضلال ، وإنَّ طلبَ قضاء الحاجات من الأحجار المنحوتة جحودٌ صريحٌ بالله تعالى وعين الكفر ، يقول الله تبارك وتعالى مبيناً حال بعض الغواة الضالين :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء : ٦٠].

وإنَّ كثيراً من النساء - لغاية جهلهن وضلالهن - يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ، ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان دفع البليات ، وكشف الكربات ، إنهنَّ لأسيرات في أغلال الشِّرك ، وطقوسه ، وتقاليده.

وتتجلَّى هذه العقائد الشركية وتشاهد هذه الأعمال وتقاليد الجاهلية - بصفةٍ خاصَّةٍ - عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يعرف في أوساط النساء في الهند باسم «سيتله»[1] حيث تقع جميع النساء في الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركيَّة ، وقلما تجد امرأة تتقي دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أي نوع من أنواع الشرك بهذه المناسبة ، اللهمَّ إلا من عصم ربك).

وقد كانت أكبر أغلوطةٍ في هذا الصَّدد ، أغلوطة البدعة الحسنة ، فكان الناس قسموا البدعة قسمين البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا

---

(١) اسم آلهة من الآلهات المفروضة المتخيلة عند وثنيي الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدري ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الآلهة بالنذور والقرابين.

يقولون: إنَّه ليس كل بدعةٍ سيئةً ، فكثيرٌ من البدع حسنةٌ ، استثنيت من إطلاق حديث «كلُّ بدعة ضلالة».

إنَّ ما قام به الإمام السَّرهندي من معارضةٍ شديدةٍ ، واستنكارٍ قويٍّ لهذا التقسيم المحدث للبدعة الحسنة والبدعة السيئة في ثقةٍ وقوَّةٍ ، واعتمادٍ ، وبأسلوبٍ علميٍّ ، واستدلالٍ موضوعيٍّ ، لا يوجد له نظير في كثيرٍ من الأقطار والأدوار في تاريخ الإصلاح الدِّيني.

وهكذا استطاع أن يعيد إلى الإسلام مركزه من جديدٍ في الهند ، ويعيد إلى السنة اعتبارها ، ويعيد في المسلمين الثقة بالمصادر الصَّحيحة وبالكتاب والسنَّة ، وأن يكون للإسلام انتفاضةٌ في الأقطار الإسلاميَّة من شبه القارة الهندية إلى أفغانسان، وتركستان، إلى العراق، وسورية، وتركيا، وينهض جيلٌ جديدٌ من دعاة الإسلام الصَّحيح ، والعقيدة السليمة ، البعيدة من شوائب الفلسفات ، والانحرافات ، وتأثير الدِّيانات ، والحضارات الجاهلية ، ونشأت جبهةٌ قويَّةٌ واعيةٌ لمعارضة البدع والمحدثات ، ودعوةٌ سافرةٌ إلى العمل بالشرعية المطهَّرة ، والسنَّة السنيَّة البيضاء ، وإقبالٌ عامٌّ على الإنابة إلى الله ، وتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتجديد صلة العبودية بالله تعالى في ضوء الكتاب والسنة.

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤].

* * *

الدَّعوةُ إلى الله

حماية المجتمع من الجاهليَّة وصيانة الدِّين من التَّحريف[1]

إني أتحدث في هذا المقال عن بعض السمات البارزة التي يجب أن تتَّسم بها الدعوة والدُّعاة في هذا العصر ، حتى يستطيعوا أن يقوموا بدور الدَّعوة في أتمِّ وجهٍ ويبلِّغوا رسالة الرُّسل عليهم السَّلام ، ويؤثِّروا التأثير المطلوب.

أما الدَّعوة الإسلامية فيجب أن تكون هذه الدَّعوة جامعةً بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي ، وإثارة الشعور الدِّينيِّ ، وبين إكمال الوعي ، وتنميته ، وتربيته ، فإنَّ المتتبِّع لأحوال العالم الإسلاميِّ اليوم وواقع الأقطار الإسلاميَّة ، وحكوماتها ، وشعوبها يعرف أنَّ تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وحبَّها له هو الحاجز السَّميك والسدُّ المنيع لكثير من القيادات التي خضعت للحضارة الغربية ، وقيمها ، ومفاهيمها ، وفلسفاتها ، ونظمها ، وآمنت بها إيماناً كإيمان المتديِّنين بالدِّيانات ، والمؤمنين بالشرائع السماوية ، وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث ، وتطوراته ، وأحداثه ، وكرسالةٍ خالدةٍ عالميَّةٍ ، فإسلام هذه الشعوب والمجتمعات ، وكونها لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تندفع إلا لما يجيء عن طريقهما ، ولما يمسُّ قلبها ، ويخاطب ضميرها ، يعوق كثيراً من هذه القيادات عن نبذ

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الواحد والعشرون ، عام ١٩٧٧ م.

الإسلام نبذاً كلياً ، وإعلان الحرب عليه ، وقد لجأ بعض هذه القيادات في ساعاتٍ عصبيةٍ إلى إثارة هذا الإيمان ، والحماس الديني ، واستخدامهما لكسب المعركة ، أو الانتصار على العدوِّ حين رأت أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وإلى إيمان هذه الشعوب السليمة المؤمنة ، فرفعت هتاف التكبير «الجهاد» و«الشهادة» في سبيل الله ، ومحاربة العدو الكافر المهاجم ، كما فعلت الجزائر في حربها مع الفرنسيين ، وباكستان في حرب ١٩٦٥ م ، وجرَّبت فائدة هذا الإيمان وقوة هذه العاطفة.

فأصبح إيمان هذه الشعوب وتمسُّكها بالإسلام وتحمُّسها له ، هو السُّور القويُّ العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات والحكومات الإسلامية في حظيرة الإسلام ، فإذا تهدَّم هذا السور ـ لا سمح الله بذلك ـ أو تسوَّره دعاة الكفر واللادينية ، أو تيار الردَّة الفكرية والحضارية فالخطر كلُّ الخطر على الإسلام في هذه البلاد ، ولا يمنع هؤلآء القادة المحاربين للإسلام ، والمضمرين له العداء والحقد شيءٌ من أن يخلعوا العذار ، ويطرحوا الحشمة والتكلُّف ، ويجرِّدوا هذه الأقطار والشعوب العريقة في الإسلام من كلِّ ما يمتُّ إلى الإسلام بصلةٍ ، فإن الشيء الوحيد الذي يخافون معرَّته ، ويحسبون له حساباً هو ثورة هذه الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلاميِّ ، فيفقدهم ذلك ما يتمتعون به من كراسي الحكم ، ومركز القيادة ، فإذا زال الحاجز ؛ لم يقف في وجههم شيءٌ.

إذاً فيجب على دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير ، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من ألا تنطفىء.

ولا يصح الاقتصار على تحريك الإيمان، وإثارة العاطفة الدينية في نفوس الشعوب والجماهير، بل يجب أن تضمَّ إليه تنمية الوعي الصَّحيح، وتربيته، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصَّديق والعدوِّ ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، فقد رأينا : أنَّ الشعوب التي يضعف فيها هذا الوعي،

أو تحرمه يتسلَّط عليها ـ رغم تمسُّكها بالإسلام وحبِّها له ـ قائدٌ منافقٌ ، أو زعيمٌ ماكرٌ أو عدوٌّ جبَّار ، فيصفق له الشعب بكلِّ حرارةٍ ، ويسير في ركابه. فيسوقها بالعصا سوق الراعي لقطعانٍ من الغنم ، لا تعقل ، ولا تملك من أمرها شيئاً ، ولا يمنعها تمسُّكها بالإسلام وحبُّها له من أن تكون فريسةً سهلةً ، أو لقمةً سائغةً للقيادات اللادينية ، أو المؤامرات ضدَّ الإسلام.

وقد كان ما يمتاز به المجتمع الإسلاميُّ الأول المثاليُّ الصحابة رضي الله عنهم بفضل التربية النبوية الدقيقة الشاملة بالجمع بين الدِّين المتين الذي لا مغمز فيه ، والإيمان القويِّ الذي لا يعتريه وهنٌ ، وبين الوعي الناضج الكامل ، فكانوا لا يَخدعون ، ولا ينخدعون ، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام ، وينافي العقل ، والذي يضرُّهم ، ويجني عليهم ، أو يوقعهم في خطرٍ ، أو تهلكة ، قد بلغوا سنَّ الرشد ، واستكملوا الحصافة والنُّضج ، فلا يؤخذون على غرَّةٍ، ولا يقعون في شَرَكٍ ينصبه العدو الماكر، يخطئون ، ولكن لا يصرُّون ، ولا تتكرَّر منهم غلطات ، وتورُّطات ، وقد جاء في حديثٍ صحيح : «**لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين**» بخلاف الشعوب الفاقدة الوعي فهي تلدغ مرَّةً بعد مرَّةٍ ، وذلك لأنَّ رسول الله ﷺ أخذهم بتربيةٍ ، وتعاليم أمنوا بها عن الوقوع في الشباك ، وامتنعوا بها عن قبول ما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وآدابه، والفطر السليمة، والعقول المستقيمة ، فكان مجتمعاً نموذجياً مثالياً في كلِّ شيءٍ.

أعرض لكم ـ على سبيل المثال ـ مثالين من هذا العقل الحصيف والوعي الكامل:

الأول: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال مرَّة «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» وهو مثل جاهليٌّ قديمٌ ، وعرفٌ من أعراف العرب الأوَّلين ، تمسَّك به العرب في جاهليتهم ، كما قال العلامة الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في كتابه الجليل فتح الباري ، فكان المتوقع المعقول أن يتلقاه الصحابة ـ وقد نشؤوا في الجاهلية ، وعاشوا في الجزيرة ـ إمَّا بالقبول ، وإمَّا بالسُّكوت.

وقد صدر هذا الكلام من النبيِّ المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] وقد عُرِف حبُّهم لنبيِّهم وفداؤهم له بالنفس والنفيس، وكان حبّاً لا نظير له في تاريخ الدِّيانات والرسالات، وفي تاريخ الحبِّ والطاعة العالمي، وكان تفسيراً للحديث المشهور: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من أهله، وولده، والناس أجمعين» وجاء في بعض الروايات «من نفسه»، ولكن كلُّ ذلك لم يمنعهم عن التساؤل، أو الاستيضاح، فإنَّ ظاهر الكلام كان ينافي ما فهموه من تعليم الإسلام، وما شاهدوه من تربية الرسول وأخلاقه، وما آمنوا به من مبدأ الإنصاف والمساواة وقوله تعالى ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فقالوا: **يا رسول الله! هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟!** هنالك فسَّره رسولُ الله ﷺ تفسيراً يتفق مع تعاليمه السابقة الدائمة، فقال: «**تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه**»(١)، هنالك اقتنع الصحابة رضي الله عنهم، وشفيت صدورهم، فازدادوا إيماناً على إيمان، وهو مثالٌ رائعٌ من أمثلة الوعي الإيمانيِّ العقليِّ الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصَّدر الأول.

والمثال الثاني: أنَّ رسول الله ﷺ أرسل سريةً، وأمر الصحابة بطاعة الأمير، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير، وشك في انقيادهم له، فأمر بالحطب، فجمع، وأمر بالنار، فأشعلت، ثم قال: خوضوها، فامتنع الصحابة رضي الله عنهم عن طاعته في ذلك؛ لأنه «**لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق**» وقالوا: إنَّما فررنا من النار، ولما رجع إلى المدينة شكا إلى رسول الله ﷺ، فصوَّب فعلهم، وقال: «**لو دخلوا فيها لم يزالوا فيها، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**»(٢).

وكانت نتيجة ضعف بعض الشعوب المسلمة القوية في إيمانها، الغنية

---

(١) رواه البخاري (٦٥٥٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٠١) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٠)، وأبو داود (٢٦٢٥) عن علي رضي الله عنه.

في مظاهرها الإيمانية ، ومراكزها الدينية ، وثروتها العلمية ، أنَّها كانت فريسةً سهلةً للهتافات الجاهلية ، والنَّعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبةَ القيادات الدَّاهية ، والمؤامرات الأجنبية ، وذهبت ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني ، والعقل الإيماني كما وقع في باكستان الشرقية في ١٩٧١ م ، المصادفة ١٣٩١ هـ قامت فيها مجزرةٌ إنسانيَّةٌ هائلةٌ ، وما ذلك إلا بسحر دعوات العصبية اللغوية والعصبية الوطنية على هذا الشعب المسلم ، المؤمن الذي كان له تاريخ مجيد في البطولات الإسلامية وخدمة الإسلام والعلم ، ونهض فيه علماء كبار ، ودعاةٌ إلى الله ، وغصَّت بلادها بالمساجد والمدارس ، وكانت عاصفةٌ هوجاء هبَّت ثم ركدت ، ونارٌ حاميةٌ التهبت ثم انطفأت ، ولكنَّها زلزلت أركان الإسلام في هذه المنطقة ، وأضعفت الكيان الإسلاميَّ ، وكانت حجةً لأعداء الإسلام الذين يقولون: إنَّ الإسلام لا يستطيع أن يقاوم العصبيات القومية ، ولا يقتلع جذورها من نفوس أتباعه.

وواجبٌ ثالثٌ مقدَّسٌ من واجبات العاملين في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة هو صيانة الحقائق الدِّينيَّة والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصَّةٍ ، وبيئاتٍ مختلفةٍ ، ولها خلفياتٌ وعوامل ، وتاريخ ، وهي خاضعةٌ دائماً للتطوُّر والتغيير ، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدِّينية ، والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدَّسات ، وعلى الأعراض والكرامات ، بل أكثر منها ، وأشدَّ؛ لأنَّها حصون الإسلام المنيعة ، وحماه ، وشعائره ، وإخضاعها للتصوُّرات الحديثة ، أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءةٌ إليها لا إحسانٌ ، وإضعافٌ لها لا تقويةٌ ، وتعريضٌ للخطر لا حصانةٌ ، ونزول بها إلى المستوى الواطىء المنخفض ، لا رفع لشأنها ، كما يتصوَّر كثيرٌ من الناس. فإذا قلنا: الحجُّ مؤتمر إسلاميٌّ عالميٌّ ، لم ننصف للحجِّ ، ولم ننصف لمن نخاطبه ، ونريد أن نفهمه حقيقة الحج وروحه ، ولما شرع له ، ولم ننصح لكليهما ، وأنَّ روح الحجِّ وسر تشريعه غير ما تعقد له المؤتمرات صباح مساء ، ولو كان الحجُّ مؤتمراً

إسلامياً عالمياً لكان له شأنٌ ونظامٌ غير هذا النظام ، وجوٌّ غير هذا الجوِّ ، ولكان النداء له مقصوراً على طبقاتٍ مثقَّفةٍ واعيةٍ فقط ، وعلى قادة الرأي ، وزعماء المسلمين(١).

كذلك حقيقة العبادة ، وحقيقة الصَّلاة ، وحقيقة الزَّكاة ، والصَّوم. فلا يجوز العبث بهذه المصطلحات ، والتَّجنِّي عليها ، وإخضاعها للفلسفات الجديدة ، وتفسيرها بالشيء الذي لا ثقة به ، ولا قرار له ، وقد استخدمت هذه «الاستراتيجية الدعائية» الباطنية في القرن الخامس الهجري فما بعده ، ففسروا المصطلحات الدينية بما شاؤوا وشاءت أهواؤهم ومصالحهم ، وتفنَّنوا فيه ، وأتوا بالعجب العجاب ، وحقَّقوا به غرضهم من إزالة الثقة بهذه الكلمات المتواترة التي هي أسوار الشريعة الإسلاميَّة ، وحصونها ، وشعائرها ، ونشر الفوضى في المجتمع الإسلاميِّ ، والجماهير المسلمة ، وإذا فقدت هذه الكلمات التي توارثت فهمها الأجيال المسلمة ، وتواتر في المسلمين ، وأصبح فيها مساغٌ لكلِّ داعٍ إلى نحلةٍ جديدةٍ ، ورأيٍ شاذٍّ ، وقولٍ طريفٍ ، فقد أصبحت قلعة الإسلام مفتوحةً لكلِّ مهاجم ، ولكلِّ منافقٍ ، وزالت الثقة بالقرآن ، والحديث ، واللغة العربية ، وجاز لكلِّ قائلٍ أن يقول ما شاء ، ويدعو إلى ما شاء ، وهذه فتنةٌ لا تساويها فتنةٌ وخطرٌ لا يكافئه خطر.

إنَّ مفاهيم هذه الكلمات معينة ـ على اتساعها ، وبلاغتها ، وعمقها ، وكثرة معانيها ـ وإنَّ الأمَّة توارثت هذه المفاهيم المعينة كما توارثت أشكال الصَّلاة ، والصَّوم ، والحجِّ ، ونظمها الظاهرة ، وتناقلتها ، وحافظت عليها من غير أقلِّ انقطاع أو أقصر فترةٍ ، وإنَّه معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] و﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، وهو معنى الحديث

---

(١) راجع معرفة أسرار الحج ومقاصد الشريعة الإسلامية ، في كتاب «الأركان الأربعة للندوي».

المشهور؛ الذي صحَّ معناه: لا تجتمع أمتي على الضَّلالة[1] وقد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية: أنَّ سنةً واحدة من السنن الكثيرة لم ترتفع من هذه الأمة بشكل كلِّيٍّ، وأنَّها لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرةً على الحقِّ.

والكلمات هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيلٍ إلى جيلٍ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ، ومن إنسانٍ إلى إنسانٍ، فإذا وقع الشكُّ في مدلول هذه الكلمات ومصداقها، أو صار التلاعب بها هيناً؛ اضطربت دعائم الدِّين، وتزلزلت أركانه، وهذا يعمُّ التاريخ، والشعر، والأدب، لذلك كانت الفوضى اللغوية (Linguisitc Anarchy) أشدَّ خطراً وأكثر ضرراً من الفوضى السياسية[2] Poitica Anarchy.

وليست قضية الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذي يتصوَّر كثيرٌ من الناس، فإنَّها تؤثر في النفس تأثيراً خاصَّاً، وتثير معاني وأحاسيس ذات الصِّلة بالماضي، وذات الصِّلة بالعقائد والأعراف أحياناً، ولذلك كره رسول الله ﷺ أن يقال «العتمة» مكان العشاء و«يوم العروبة» بدل الجمعة، واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة، ولها أمثلةٌ أخرى في الشريعة الإسلامية.

وكذلك أحذركم أيها الإخوان مما لوحظ من بعض الكتَّاب من الضغط على أنَّ هذه الأركان الدينية وفرائض الإسلام كالصَّلاة، والزكاة، والصِّيام، والحجِّ وسائل لا غايات، إنما شرعت لإقامة الحكم الإسلامي، وتنظيم

---

(١) انظر البحث في هذا الحديث في كتاب العلامة الندوي «النبوة والأنبياء».

(٢) ومن أمثلة هذا التلاعب بالمصطلحات الدينية، أنَّ أستاذاً في إحدى جامعات الهند الكبرى، وهو يدرس اللغة العربية وآدابها، ألقى محاضرة في دورة مؤتمر الدراسات الإسلامية الأخيرة قال فيها: إن المراد بكلمة «الصلاة» حيثما وردت في القرآن مطلقة «الحكومة المحلية» أو «الإقليمية»، والمراد بالصلاة الوسطى «الحكومة المركزية» أو «الخلافة العامة» وكان المقال باللغة العربية، وقد رددت عليه في حينه، وقلت في تعليقي عليه: إنه تلاعب بالقرآن، وبالعقل، وتمهيد لفوضى لغوية فكرية، وفتح الباب للإلحاد على مصراعيه، ونالت هذه الكلمة رضا المستمعين، وتلقوها بالقبول والاستحسان.

المجتمع المسلم، وتقويته، وأحذركم من كل ما يحطُّ من شأن روح العبادة والصِّلة بين العبد وربه، وامتثال الأمر، ومن التوسع في بيان فوائدها الخلقية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية أحياناً، توسعاً يخيل للمخاطب أو القارىء أنها أساليب تربوية، أو عسكرية، أو تنظيمية، قيمتها ما يعود منها على المجتمع من قوَّةٍ ونظامٍ، أو صحةٍ بدنيةٍ، وفوائد طبيَّةٍ، فإنَّ أول أضرار هذا الأسلوب من التفكير، أو التفسير: أنه يفقد هذه العبادات قيمتها، وقوَّتها، وهو امتثال أمر الله، وطلب رضاه بذلك، والإيمان، والاحتساب، والقرب عند الله تعالى، وهي خسارةٌ عظيمةٌ لا تعوَّض بأيِّ فائدةٍ، وفراغٍ لا يملأ بأيِّ شيءٍ في الدُّنيا.

والضرر الثاني أنَّه لو توصَّل أحد المشرعين أو الحكماء المربين إلى أساليب أخرى قد تكون أنفع، أو يخيَّل أنها أنفع لتحقيق هذه الأغراض الاجتماعية، أو التنظيمية، أو الطبيَّة؛ لاستغنى كثيرٌ من الذين آمنوا بهذه الفوائد عن الأركان والعبادات الشرعية، وتمسَّكوا بهذه الأساليب، أو التجارب الجديدة، وبذلك يكون الدِّين دائماً معرضاً للخطر، ولعبةً للعابثين والمحرِّفين.

وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الأركان، والأحكام، والحقائق الدينية، والكشف عن أسرارها، وفوائدها الاجتماعية، وقد أفاض علماء الإسلام قديماً، وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية، وأسرار العبادات، والفرائض، والأحكام الشرعية، وألَّفوا كتباً مستقلَّة، وكتبوا بحوثاً جليلةً، كالغزاليِّ، والخطابيِّ، وعز الدين بن عبد السلام وابن قيِّم الجوزيَّة، وأحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي، ولكن كلُّ ذلك من غير تحريفٍ لحقيقة هذه العبادات، والأحكام والغاية الأولى التي شرعت لها، وهي امتثال الأمر الإلهيِّ، والتقرُّب إليه بذلك، والإيمان، والاحتساب، فيها ومن غير إخضاعٍ لها للفلسفات العجمية، أو الأجنبية في عصرهم، ومن غير خضوعٍ بسحرِها، وبريقها.

وأحذركم ثانياً أيها الشباب! من كل ما يقلِّل من شناعة الوثنية العقائدية، والشرك الجليِّ من عبادة غير الله، والسجود له، وتقديم النذور والقرابين، وإشراكه في صفات الله من قدرةٍ، وعلمٍ، وتصرُّفٍ، وإماتةٍ، وإحياءٍ، وإسعادٍ، وإشقاءٍ، وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للحكومات، والنظم الإنسانية، والتشريعات البشرية، وتحويل حقِّ التشريع للإنسان، وأنَّ ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك، وأنَّ الوثنية الأولى، وعبادة غير الله قد فقدت أهميتها، وإنما كانت لها الأهمية في العصر القديم، العصر البدائيِّ، وأنَّه لا يقبل عليها الآن إلا الرجل الجاهل الذي لا ثقافة له، ففضلاً عن أنَّ هذه الوثنية والشرك الجليَّ لا يزال له شيوعٌ، وانتشارٌ، ودولةٌ، وصولةٌ يجرِّبه كلُّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فإنَّها الغاية الأولى التي بعث لها الأنبياء، وأنزلت لها الكتب السماوية، وقامت لها سوق الجنَّة والنار، وكانت دعوة جميع الأنبياء تنطلق من هذه النقطة، وكانت جهودهم مركزةً على محاربة هذه الجاهلية، والقرآن مملوءٌ بذلك، بحيث لا يقبل تأويلاً[١].

وإنَّ كلَّ ما يقلِّل من أهمية محاربة الشرك الجليِّ وعبادة غير الله سواءٌ أكانوا أشخاصاً، أو أرواحاً، أو ضرايح ومشاهد، والعناية بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات فحسب إحباط لجهود الأنبياء واتجاهٌ بهذا الدِّين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسيِّ، وهو تحريف لا محالة، هذا من غير أن أقلل من قيمة التركيز على أنَّ التشريع لله وحده، وله الحكم والأمر وحده، وأنَّ من يدعو إلى طاعة نفسه الطاعة المطلقة العمياء منافسٌ للربِّ والطاغوت، وأنَّه يجب أن يدعى إلى التشريع الإلهي وإلى إقامة الحكم الإسلامي القائم على منهاج الكتاب والسنة ومنهاج الخلافة الراشدة، وأن لا يدَّخر سعي في ذلك، ولكن من غير أن يكون ذلك على حساب الدَّعوة إلى التوحيد، والدِّين الخالص، ومحاربة الوثنية

(١) اقرأ على سبيل المثال سورة «الأعراف» وسورة «هود» وسورة «الشعراء» والحديث عن كل نبيٍّ ودعوته.

والشرك ، فإنّها لا تزال في الدرجة الأولى وهي أكثر انتشاراً ، وأعظم خطراً في الدنيا والآخرة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٤٨] وقد قال : ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج : ٣٠ ـ ٣١].

أمّا ما يتصل بصفات العاملين في مجال الدَّعوة الإسلاميّة وجنود الدعوة إلى الله ، فإنني أركز في هذا الحديث الموجز على نقطةٍ واحدة ، وهو أنّه يجب أن يكون الدُّعاة يمتازون عن الدَّهماء والجماهير ، ودعاة النظم الجديدة ، والفلسفات الجديدة ، والفلسفات السياسية والاقتصادية بقوَّة إيمانهم وحرارة قلوبهم ، وزهدهم في زخارف الدُّنيا وفضول العيش ونهامةٍ للمادية ، ومرض التكاثر ، فإنَّهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم ، ويحملوهم على إيثار الدِّين على الدُّنيا والآجلة على العاجلة ، وتلبية نداء الضمير والإيمان على نداء المعدة ، والنفس ، والشهوات ، وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت ، أو كادت تنطفىء ، إلا إذا شعر الناس فيهم بشيءٍ لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم ، فإنَّ الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين على الإجلال لشيءٍ لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القويِّ ، والفقير مفطورٌ على احترام الغنيِّ ، والأميُّ مفطورٌ على احترام العالم. حتى اللئيم مفطورٌ على احترام الكريم ، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلُّون في حب المادة ، والجري وراءها ، والتنافس في الوظائف ، والمناصب ، والإكثار من الثراء ، والرَّخاء ، والتوسُّع في المطاعم والمشارب ، وخفض العيش ، ولين الحياة ، فإنَّهم لا يرون لهم فضلاً عليهم ، وحقّاً في الدَّعوة إلى الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والتمرُّد على الشهوات ، والتماسك أمام المغريات ، وقد قيل : «**إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه**» وكذلك القلب الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان ، وأنَّ الموت لا ينشىء الحياة ، وأنَّ البرودة لا تعطي الحرارة ، وأنَّ الرماد الذي لا تكمن فيه جمرةٌ لا يلهب القلوب الخامدة ولا يحيي

النفوس الميتة ، والكشاف لا ينير الطريق إذا كانت قد نفدت شحنته ، فلا بدَّ أن تشحن القلوب بشحنةٍ جديدةٍ ، وإذا كانت بطاريةٌ من غير شحنةٍ كانت أقلَّ غناءً وقيمةً من عصا يحملها الإنسان ، فقيمة البطارية الشحنة ، وقيمة الشحنة النور ، فإذا لم تكن شحنةٌ ، أو كانت شحنةٌ ، ولا نور فالعصا خيرٌ منه .

أسألكم أيها الإخوان أليس هذا العصر هو العصر الذي انتشر فيه العلم ، وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية ، وازدهرت فيه الخطابة والكتابة ، وبلغت حدَّ الشِّعر والسِّحر ، وعمَّت الجامعات في كلِّ مكانٍ ، وتدفق السيل من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر ، ونبغ فيها علماء ، وباحثون ، ووعَّاظ ، ومرشدون. فلماذا فقد العلماء والموجِّهون التأثير في النفوس والقلوب في صدِّ تيار المادِّيَّة ، والاستغلال ، والجشع ، والنَّهامة للمال؟ هذه البلاد العربية ـ بما فيها البلاد المقدَّسة ـ أصبحت مصداقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في إحدى خطبه قبل وفاته «**ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدُّنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم**» .

وأخوف ما نخاف أن تكتسح هذه البلاد الموجة العارمة من التكاثر في الأموال ، واستغلال حاجة الناس وضعفهم ، والانتهازية ، وهي الموجة التي لا تعرف الرَّحمة والهوادة ، ومكارم الأخلاق التي عرف بها العرب في العصر الجاهليِّ ، وربما يعود ذلك خطراً كبيراً على الحجِّ ومركزه ، ويمكن أن يشكل محنةً للوافدين إليه ، فيضطرُّ الدعاة في صدِّ هذه الموجة إلى مكافحةٍ خلقيَّةٍ ، وحملةٍ دعويَّةٍ تربويَّةٍ تنظَّم لإصلاح الحال ، وإيقاظ الضمير ، وإثارة الغيرة الإسلامية ، والشعور النبيل ، وتنطلق من المنابر والصحف ، والإذاعة ووسائل الإعلام ، وتجند لها الطاقات ، والألسن ، والأقلام.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة ، وتسير على نهجها ، أنَّها تجسُّ نبض المجتمع جسَّاً صحيحاً أميناً ،

وتهتدي إلى الداء الحقيقي ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع ، وتضع الأصبع عليها ، وتضرب على الوتر الحسَّاس من غير محاباةٍ ، أو مداهنةٍ ، ولا تكترث بألم هذا المجتمع ، أو ملامه ، كما فعل شعيب في دعوته ، فوجه دعوته ـ بعد الدَّعوة إلى التوحيد ـ إلى إيفاء الكيل ، والوزن بالقسطاس المستقيم ، وشنع على التطفيف؛ إذ كان ذلك عيب المجتمع الذي بعث فيه ، وسمته البارزة ، وكذلك فعل غيره من الأنبياء.

وهذه كانت سنَّة الدُّعاة إلى الله من المخلصين الربَّانيين في تاريخ الإسلام ، فكانوا ينتقدون المجتمع في الصميم ، ويصيبون المحزَّ ، ولذلك كان وقع كلامهم في النفوس عظيماً وعميقاً ، وما كان يسع المجتمع أن يتغافل عنهم ، أو يمرَّ بهم مرّاً سريعاً ، أو يسلي نفسه بأنَّه إنَّما يعنون غيره من المجتمعات التي سبقت أو المجتمعات التي لم تخلق بعد ، وهذا كان شأن الحسن البصريِّ في مواعظه؛ إذ كان دائماً يشير إلى النفاق الذي كان داء المجتمع الإسلاميِّ ، وهو في أوج مجده ورخائه ، ويذمُّ حبَّ الدُّنيا ، وطول الأمل ، وهذا كان شأن الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فيدعو إلى التوحيد الخالص ، وقطع الرَّجاء والخوف من غير الله ، وأنَّه لا يضرُّ ولا ينفع سواه؛ لأنَّ الناس كانوا قد ربطوا مصيرهم بالخلفاء ، والأمراء ، وأصحاب الحول والطول ، والأمر والنهي في العاصمة ، وهذا كان شأن ابن الجوزي في مواعظه السَّاحرة ، ومجالسه المزحومة ، فإنه كان يشنِّع على الحياة اللاهية الماجنة التي كان يحياها كثيرٌ من الناس في بغداد ، وعلى الذنوب والمعاصي التي كانت تقترف جهاراً ، والمنكرات التي شاعت ، فكان مئات وآلاف من الناس يتوبون ، ويقلعون عن الذنوب ، وكان نشيجٌ يعلو ، وقلوبٌ ترقُّ ، وعيونٌ تدمع ، وموجةٌ من الإنابة ، والرقَّة تكتسح الجموع الحاشدة ، لأنَّه كان يمسُّ القلوب ، ويصور الواقع ، ولا يكتفي بالكلام العام ، والوعظ التقليدي[1].

---

(١) اقرأ تفاصيل مجالس ابن الجوزي وتأثيرها في كتاب «صيد الخاطر» و«رحلة ابن جبير».

وهنا أنقل إليكم قطعةً من كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والمؤلف يتحدَّث عن الإمام أحمد بن حنبل وزهده:

«وقد رأينا الزُّهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار، وغيَّر مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلاميِّ أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدِّين، وظلَّ قروناً يؤثر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب إلا وله نزعةٌ في الزُّهد وتغلبٌ على الشَّهوات، وسيطرةٌ على المادَّة ورجالها، ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّ الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة، والاعتداد بالشَّخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة، وبصرعى الشهوات، وأسرى المعدة. ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم، كانوا زهاداً في الحياة، متمرِّدين على الشهوات، وبعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم، ولأنَّ الزهد يثير في النفس كوامن القوة، ويشعل المواهب، ويلهب الرُّوح، وبالعكس: إنَّ الدَّعة والرخاوة تبلِّد الحسَّ، وتنيم النفس، وتميت القلب.

وهناك تعليلاتٌ أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق، ولا أطيل بذكرها، وأقتصر على هذه الملاحظات التاريخية، وألحُّ على أنَّ منصب التجديد والبعث الجديد يتطلَّب لا محالة زهداً، وترفعاً عن المطامع وسفساف الأمور، ويأبى الاندفاع إلى التيارات، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية، والعيشة الباذخة الثرية، إنَّما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وأمر بأن يقول لأزواجه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم، ومن يرشِّح نفسه، ويمنِّيها بهذا المنصب الخطير ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1] [فاطر: ٤٣].

---

(١) انظر: «رجال الفكر والدعوة» الجزء الأول، ترجمة الإمام أحمد بن حنبل ص ١٣٢.

ومن أبرز سمات الدعوة التي يقوم بها الأنبياء وخلفاؤهم : أنَّها تقوم على الإيمان بالآخرة ، والتحذير من عقابها ، والترغيب في نعمائها ، وثوابها ، ويكون مناط العمل فيها الإيمان ، والاحتساب ، والأجر ، والثواب ، لا على الإغراء بالفوائد الدُّنيوية ، والجاه والمنصب والمال ، والملك ، فإنَّه أساسٌ ضعيفٌ منهارٌ ، ولا يتفق مع طبيعة دعوات الأنبياء ، والمساومة فيه سهلةٌ ، وقد يملك أعداؤهم ، وخصومهم ، والقادة السياسيون مثله ، أو أكثر منه ، ومن رضع بلبان هذه المطامع؛ لم يمكن فطامه عنها ، ولا يصحُّ الاعتماد عليه ، وإنَّما يبنون دعوتهم على رضا الله ، وثوابه ، وما أعدَّه الله لعباده المؤمنين وما وعدهم به على لسان أنبيائه ، من نعيمٍ لا يزول ، ولا يحول ، والصحف السَّماوية ـ غير صحف العهد القديم والتوراة[1] ـ مملوءةٌ بالحديث عن الآخرة ، والاهتمام بها ، والبناء عليها وقد جعل الإسلام الإيمان بها عقيدةً أساسيةً ، وشرطاً لصحة الإيمان والنَّجاة ، وقد جاء في القرآن صريحاً ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣].

وهنا أستعير لنفسي من نفسي ما قلته في إحدى المحاضرات التي ألقيتها في هذه الجامعة العزيزة سنة ١٣٨٢ هـ تحت عنوان «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» وأختم به هذا الحديث مؤملاً في أن تكون هذه السمات التي تحدَّث عنها شعار الدَّعوة التي يقوم بها الدعاة المتخرِّجون في هذه الجامعة ، أو القائمون بأعبائها في كلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلاميِّ ، قلت وأنا أتحدَّث عن الفرق بين منهج الدَّعوات النبوية ، وبين الدَّعوات الإصلاحية :

«ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة أو الإشادة بها كضرورةٍ خلقية ، أو كحاجةٍ إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمعٌ فاضلٌ ومدنيةٌ صالحةٌ فضلاً عن المجتمع الإسلاميِّ ، وهذا وإن كان يستحقُّ التقدير والإعجاب ، ولكنَّه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ،

(١) فقد تجردت بعد التحريف ، من ذكر الآخرة ونعمائها والترغيب فيها بطريقة عجيبة.

والفرق بينهما: أنَّ الأول منهج الأنبياء، إيمانٌ، ووجدانٌ، وشعورٌ، وعاطفةٌ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره، وتفكيره، وتصرفاته، والثاني اعترافٌ، وتقديرٌ، وقانونٌ مرسومٌ، وأنَّ الأولين يتكلَّمون عن الآخرة باندفاع، والتذاذٍ ويدعون إليها بحماسةٍ وقوةٍ، والآخرين يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخلقية، والحاجة الاجتماعية، وبدافعٍ من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية!.

* * *

حكمة الدَّعوة ومرونتها ومجاراتها لكلِّ بيئةٍ وعصر[1]

القرآن كتاب هدايةٍ ودعوةٍ قبل أن يكون كتاب أحكامٍ وشريعة :

إنَّ القرآن كتاب هدايةٍ ودعوةٍ قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعةٍ ـ مع إجلالنا وتقديرنا للأحكام والشريعة ـ إنَّ الأحكام والشريعة لا غنى عنهما ، ولكنَّ القضية ، القضيَّة الأولية ، قضية الطابع الغالب ، وقضية العناية التي يدور حولها القرآن ، فأنا أعتقد ـ في ضوء دراستي القاصرة المحدودة ـ أن القرآن هو كتاب هدايةٍ ودعوةٍ ، قبل أن يكون كتاب أحكامٍ وشريعةٍ؛ لأنَّ الهداية هي الأساس للإيمان ، والدَّعوة هي الأساس لنقل هذا الإيمان ، فإذا كان هذا هو الشأن ، فلا شكَّ في أنَّ القرآن هو كتاب هدايةٍ ودعوةٍ قبل أن يكون كتاب شيء آخر .

الدَّعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومةٍ وتتقيَّد بها :

فما هي الأحكام التي يشرحها القرآن الكريم في موضوع الدَّعوة ، وما هي الآداب التي يؤكد عليها القرآن ، ويدعو إليها؟ هل هناك قوانين مرسومة وأحكام مضبوطة للدَّعوة؟ إنَّني أعتقد أنَّ الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومةٍ ، وأحكامٍ مضبوطةٍ؛ لأنَّ الدَّعوة تعتمد على المحيط ، وعلى الظروف والبيئة ، وعلى الجوِّ والملابسات ، فإذا كانت الدعوة تعتمد على الواقع وهو يختلف ، وإذا كانت الدعوة تعتمد على الارتجال، ولا أريد

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس ، المجلد الثالث والثلاثون ، عام ١٩٨٨ م.

الارتجال الكلامي اللساني إنما أريد الارتجال العقلي ، والذي يسميه أهل البلاغة بحضور البديهة، وإذا كانت الدَّعوة تعتمد كذلك على مكامن المرض، ومكامن الضعف في النفس الإنسانية ، وفي المجتمع الإنسانيِّ ، فإنه لا يمكن أن يقال: يجب على الداعي أن يفعل كذا ، ويتكلم بكذا ، ويظهر في المظهر الفلاني ، وإن كان المظهر البلاغي، وبدأنا نشرِّع هذه الأحكام ، ونرسم هذه الخطوط ، وإن كانت خطوطاً عريضةً ، ونقول: تنطلق الدعوة من الخطِّ الفلانيِّ إلى الخطِّ الفلانيِّ ، ولا تتخطَّى هذه الحدود والخطوط ، فقد يتورَّط الداعي فيما تورَّط فيه سيِّدٌ مع خادمه، كما تحكي حكايةٌ لطيفة ، تقول القصة: إنَّ رجلاً استخدم خادماً، وكان هذا الخادم ذكياً قانونياً ، طلب من السيد أن يضع له قائمة الواجبات ، ما هي الواجبات التي أكلف بها ، فوضع له قائمةً: تعمل كذا في الوقت الفلاني ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق، وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم، وخضرٍ، وغير ذلك، وتقوم بالخدمة الفلانية ، فأخذ هذه القائمة ، واحتفظ بها ، ومرَّةً ركب هذا السيد جواداً ، ولكنَّه لسوء الحظ ارتبكت رجله في الركاب ، وأراد أن يتغلب على هذه المشكلة فما نجح ، وكان الخادم واقفاً ، فاستعان به ، وقال: أغثني يا فلان! فأخرج الورقة من جيبه ، وفتحها ومدَّها إليه ، وقال: أين في هذه القائمة: أنَّ السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإني أعينه ، والسيد يعاني مرحلةً فاصلةً بين الموت والحياة يخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورَّط في مشكلة أخرى ، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة ، وكان أميناً عليها ، مرتبطاً بها ، ورفض أن يعينه ، لأنَّه غير مكلف بهذه الخدمة ، لذلك يقول الشاعر العربي ، وقد كان العرب على جانبٍ عظيمٍ من سلامة الفطرة ، ومن الانتفاع بتجارب الحياة:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً ... فأرسلْ حكيماً ولا تُوصِه

الدَّعوة لها مساحةٌ زمانيةٌ ومساحةٌ مكانيةٌ:

أما الدَّعوة فأمرها بعيد ، وساحتها واسعةٌ جداً ، ولها مساحةٌ زمانيةٌ ومساحةٌ مكانيةٌ ، وكلتاهما واسعتان ، أما المساحة الزمانية؛ فهي تمتدُّ من مصدر الدَّعوة - إذا كان نبياً ، وإذا كان مؤسس دعوةٍ كبيرةٍ - إلى ما لا نهاية

له ، كذلك لها مساحةٌ مكانيةٌ واسعةٌ ، فقد يكون الدَّاعي في الشرق وقد يكون في الغرب ، وقد ينتقل الداعي من الشرق إلى الغرب ، فإذا كان قد تمرَّن على طبيعة الشرق؛ فإنه لا يستطيع أن يقوم بمهمته في الغرب.

الإيجاز والإعجاز في آية الدَّعوة سعتها وعمقها:

فكان من إعجاز القرآن أنه لم يتعرض لأحكامٍ تفصيليةٍ في موضوع الدَّعوة وإنَّما وكلها إلى العقل السليم ، وإلى الذوق المستقيم وإلى العقيدة الراسخة والفكرة المتغلغلة في الأحشاء ، ثم حاطها بسياجٍ واسعٍ ، هو السِّياج الوحيد الذي يستطيع أن يحيط بالدَّعوة ، وهو قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. تشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية وأبعاد التقيد الذي جاء فيها ، فأطلق قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ، ما حدَّد ، وما عيَّن شيئاً معيناً خاصّاً. فمثلاً تدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده ، وإلى العقيدة الصحيحة ، وتحثُّون على الصلاة ، تدعون إلى مكارم الأخلاق ، وإلى الفضيلة ، أو تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية ، و﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يحوي كلَّ شيءٍ ، إنه يمتد ويسع الآفاق ، ليست هذه الآفاق فقط ، إنها آفاق الأديان السماوية وآفاق الحاجات البشرية ، والحياة الإنسانية ، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ﴾ وهو لا يختصُّ بالخطابة ، ولا يختصُّ بالكتابة ، ولا يختصُّ بالوعظ ، والنصيحة ، إنما قال: ﴿ٱدْعُ﴾ ، والدَّعوة عامَّةٌ تشمل هذه المعاني كلَّها ، وهذه الأساليب كلَّها ، ثم قال: ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وأيُّ كلمةٍ أوسع أفقاً ، وأعظم إطلاقاً من قوله تعالى: ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ؟!

إنَّ الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغةٍ أخرى ـ وكذلك ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ كلمةٌ مطلقةٌ ، و﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ أيضاً كلمةٌ مطلقةٌ ، وهنا جاء القرآن يحلُّ هذه المشكلة ، فأطلق ، وقيَّد ، وأوجز ، وأعجز ، فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ . . .﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

وقد جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن أكبر داع من الأنبياء قبل الرسول ﷺ ، وهو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣] ثم بعد ذلك يقول: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] فلهذه الآية صلةٌ خاصَّةٌ بدعوة سيدنا إبراهيم ، هنالك خيط يربط بين سيدنا إبراهيم وبين أمر الدَّعوة ، إنَّ ورود هذه الآية في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم يدلُّ على أن سيدنا إبراهيم كان آخذاً بهذا الطريق ، ملتزماً بهذا الأدب ، وكانت دعوته مؤسسةً على الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن.

الأمثلة والنماذج عنصرٌ هامٌّ استخدمه القرآن فيما يتعلق بالدعوة:

ولكن هنا عنصر آخر ، استخدمه القرآن ، واعتمد عليه ، وهو من أهمِّ العناصر ومن أكبرها تأثيراً ، ووقعاً في النفس وإعانةً على أداء هذه المهمَّة ، وذلك العنصر هو الأمثلة العملية ، والنماذج الشَّخصية ، فالقرآن إذا كان قد ترك الأحكام التفصيلية الدقيقة ، والقواعد المضبوطة المعينة للدعوة ، فإنه قد ملأ هذا الفراغ ـ إذا كان فراغاً ـ بنماذج من سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن دعوتهم ، وهي نماذج مؤثرةٌ في القلوب ساحرةٌ للنفوس ، فإنَّ النماذج لها من التأثير ما لا يكون لأيِّ عنصرٍ آخر ، لا للعناصر المنطقية ، ولا للعناصر الكلامية الجدلية ، ولا للعناصر النفسية ، فكل الصحف السَّماوية من أولها إلى آخرها اعتمدت على النماذج العملية ، وهي قطعٌ بديعةٌ تستهوي النفوس ، من سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأكثرها مقتبسةٌ من سير أربعة من كبار الرسل: أولهم: سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وثانيهم: سيدنا يوسف ، وثالثهم: سيدنا موسى ، ومسك الختام هو خاتم الأنبياء والرُّسل محمدٌ رسول الله ﷺ.

نموذج من دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه:

والقرآن لم يغفل نكتةً مهمّةً جداً، وهي أنّه إذا كان قد اقتصر على نماذج نبوية فقط، فكان للإنسان أن يقول ـ في أيِّ زمنٍ من الأزمان ـ أين نحن من هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ هؤلاء هم الذين أكرمهم الله بالرسالة وبالوحي والنبوة، وأيّدهم بروحٍ منه، فكيف نقلّدهم، وكيف نستطيع أن نترسّم خطاهم، فعرض القرآن نموذجاً لإنسان لم يكن نبياً، ولم يكن من كبار أصحاب الرسل، هو مؤمن من آل فرعون، والقرآن اكتفى بقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ [غافر: ٢٨]، يعني أنَّ أحواله وظروفه لم تسمح له بإظهار دينه، ولو كان على ذروة عالية من الإيمان لأعلن إسلامه كما أعلن سيدنا أبو بكر، وكما أعلن سيدنا عمر، وكما أعلن سيدنا أبو ذر، ولكنَّه مؤمن كان لا يزال يكتم إيمانه، وقد مكنته هذه الفرصة ـ وهي عدم ظهور إيمانه وإعلانه الحرب على قومه ـ من ظهوره في مظهر صديقٍ ناصح، وزميلٍ محبٍّ للخير لإخوانه، وهي فرصةٌ يجب أن يستفيد منها الدّاعية الحكيم الذي يكون في هذا الوضع، ويستفيد منها الداعية الذي لا يكون في هذا الوضع، فيتلقى منه دروساً في ترقيق الكلام وتنويعه، والتبصير بالواقع وقصص الماضين وعواقب الأمور، وكلاًّ وعد الله الحسنى.

* * *

الدَّعوة الإسلاميَّة في العَصر الحاضر
جبهاتها الحاسمَة وَمجالاتها الرئيسية[1]

إنَّ موضوع الدَّعوة أيها السادة! موضوعٌ مطروقٌ معالجٌ ، كثرت عنه الأحاديث ، وازدحمت فيه الكتابات والبحوث خصوصاً في الزمن الأخير ، وتكوَّنت فيه مكتبة ذات قامةٍ وقيمةٍ ، فأريد أن أحدِّد بحثي في الحديث عن جبهات الدعوة الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية المقررة لمصير العالم الإسلاميِّ فضلاً عن مسيرة الدَّعوة ، وأركز على النقاط المختارة العلمية (في ضوء دراساتي القاصرة ، وفي ضوء الواقع ، وتجارب الماضي) ، لحماية الأقطار الإسلامية من التحدِّيات والفتن ، وبالله التوفيق.

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشُّعور الدِّينيِّ فيها ، فإنَّ تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمُّسها له هو السُّور القويُّ العالي الذي يُعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادَّة الإسلام ، ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأيِّ غايةٍ نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفةٍ ، وإخلاصٍ.

وذلك مع تحقيق الشروط و الصفات التي تستحقُّ بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلُّب على المشكلات ، والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدِّين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك والعقائد

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع ، المجلد الثاني والثلاثون ، عام ١٩٨٨ م.

الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقَّت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدَّمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح ، وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصَّديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرَّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القوميَّة ، أو العصبيات اللغوية والثقافية ، ولعبة القيادات الدَّاهية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الدِّينيِّ ، والعقل الإيمانيِّ.

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية ، والمفاهيم الإسلاميَّة من التحريف ، ومن إخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنُّب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية ، والنظم الإنسانيَّة ، لأنَّ هذه الحقائق الدينية هي أساسٌ للإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصُّحف السَّماوية.

الحذر من كل ما يقلِّل من قيمة الصِّلة بين الله والعبد ، والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله ، وطلب رضاه: والإيمان ، والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحوُّل يفقد هذه الأمَّة شخصيَّتها ، وقوَّتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجليِّ ، والعادات ، والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم ، والتشريعات ، والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتَّجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي.

٣ ـ تقوية الصِّلة الرُّوحية ، والعقلية ، والعاطفية بالنبيِّ ﷺ والحبُّ

العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كل العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقلِّ ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنَّة ، وتجرُّؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكلِّ ما يحرِّك هذا الحبَّ ، ويغذيه. ولعلَّ البلاد العربية (بفعل أحداثٍ ، ودعواتٍ قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة ، وأحقُّ بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمَّدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرسول.

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية ، والتربوية ، والإعلاميَّة في البلاد والحكومات الإسلاميَّة بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار الذي تعرَّض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنَّه ليس «بطارية» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها.

إنَّ ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كلِّ تصرفاتها وسبب الردَّة الفكرية ، والحضارية ، والتشريعيَّة التي تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمَّس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسع بين القيادات والحكومات والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمَّة والبلاد بفائدة.

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في

العالم الإسلاميّ ، رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتَّفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصَّوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصوُّر هذا الكون تصوراً مادياً ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرَّة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطةٍ خاضعةٍ لقلقٍ وصراع دائمين ، ولا يصلح نظام التربية والتعليم إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتّكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلَّف من الوسائل ، والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه وبرأسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة إلاَّ برجالٍ مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية ، والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلاميَّة بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامي في سماته وخصائصه.

٦ ـ حركة علمية قوية دولية ، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلميَّة وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت للعالم المتمدِّن: أنَّ الفقه الإسلاميَّ وقانونه من أرقى القوانين ، وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ، ولن تفقد صلاحيتها في يومٍ من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وتغنيها عن كلِّ قانونٍ وضعته أيدي الناس.

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وفي مشاعر الأمَّة وأحاسيسها ، وتجريد أمَّةٍ عن حضارتها الخاصَّة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها ، وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيبٌ كبيرٌ للذَّوق الدِّينيِّ الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بدَّ للحكومات الإسلاميَّة والمجتمعات الإسلاميَّة من التخطيط المدني الإسلاميِّ المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ،

والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلاميَّة في عواصمها ، وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ، ومتنزهاتها ، وإلى حدٍّ في مكاتبها ، وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلاميَّة والمثل الإسلاميَّة فحسب ، بل يقوم بدعوةٍ صامتةٍ للإسلام.

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلاميِّ ، حضارةً قويَّةً عصريَّةً ، مؤسَّسةً على الإيمان والأخلاق ، والتقوى ، والرَّحمة ، والعدل في جانب ، وعلى القوة والإنتاج ، والرَّفاهية ، وحبِّ الابتكار في جانبٍ آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمَّتهم ، وبلادهم، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غربٍ ، وشرقٍ ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميلٍ وقرين ، إن كان في حاجةٍ إلى أن يتعلموا منه كثيراً فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلَّمه الغرب منهم أفضل مما يتعلَّمونه هم من الغرب.

٩ ـ إقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلامية التي مثَّلت دوراً رائعاً في تاريخ الدَّعوة والحضارة الإسلامي ـ المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلاميِّ ، أو عملية «تطوير للإسلام» وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، بأنَّها سياسةٌ عقيمةٌ لم تنجح في بلدٍ إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها ، إلى عدوٍّ مشتركٍ ، وإلى ما يقوي البلاد ، والأمة.

وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجوِّ المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادةٍ ، وبركةٍ ، ونصرٍ من الله ، وسعيٍ لتكوين قيادةٍ موحَّدةٍ تقوم على مبدأ الشورى الإسلاميِّ ، والتعاون على البرِّ والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقلِّ ـ بعدم وجود الإمامة العامَّة ، أو الخلافة الإسلاميَّة التي كلف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها.

١٠ - أما بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية ، فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتَّفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ، والخواء الروحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومةً وشعباً ، حتَّى يتهيَّأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه، ويتهيَّأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغيِّ، والقياديِّ في هذه البلاد.

١١ - وأخيراً لا آخراً هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة ، والأوضاع السائدة ، هو وجود حركةٍ إيمانيَّةٍ ، إيجابيَّةٍ قويَّةٍ في العالم الإسلاميِّ ، تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلوِّ الهمة ، وبعد النظر ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملَّكت زمام قيادة البشرية ، وأصبحت تتحكَّم في مصائر الشعوب ، والأقطار الإسلاميَّة وغير الإسلاميَّة - من غير حقٍّ ومبررٍ - وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدَّعوة القوي ، وثقتهم بفضل الإسلام وحاجة البشرية إليه.

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدَّعوة الإسلاميَّة بروح التضحية والبطولة والجلادة والتقشف والقدرة على المغامرات - إن كان لا بدَّ منها - فإنَّ الناس ما زالوا مفطورين على تقدير الإيمان القوي ، والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ ، والاستهانة بالمادَّة واللَّذة ، والعزَّة ، وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال لشيءٍ لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوي ، والفقير مفطورٌ على احترام الغني ، والأميُّ مفطور على احترام العالم ، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، ولأنَّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والمغامرات ، ولأنَّ الواعين والمتتبعين لواقع الأمم والبلاد ، وأصحاب الضمائر الحيَّة قد سئموا ، وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات ، والقيادات الغربية ، والشرقية ، وأصبحوا يمقتونها ، ويكرهونها كرهاً شديداً.

إنَّ وجود هذا الفراغ ـ عدم وجود حركةٍ إيمانيَّةٍ دعويَّةٍ إيجابيَّةٍ قويَّةٍ ، ومجتمعٍ قويٍّ سليمٍ من أدواء العصر الحديث والحضارة المادية الراعنة ، يقوم علَى تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ خطرٌ كبيرٌ على الوجود الإسلامي ، وعلى العقيدة الصحيحة والحياة الإسلاميَّة ، فإنَّ وجود الفراغ في شيءٍ ضروريٍّ ، وفي مصلحةٍ بشريَّةٍ شيءٌ غير طبيعي ، لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يسبب ذلك نشوء حركة منحرفةٍ زائفةٍ ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبيةٍ ، هادمةٍ ، مدمرةٍ ، ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدَّعوات والحركات ، وللتاريخ العام : أنَّه إذا وجدت هذه الحركة المنحرفة ، واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات ، وبالتقشُّف ، ومظاهر الزهد ، وهتافات التحدِّي للطاقات الكبيرة ، ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها بشجاعةٍ وصمودٍ ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلامي التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ ولو كان في ذلك نصيبٌ كبيرٌ من الدِّعاية ، والمظاهرة ، ووسائل الإعلام الجبارة ـ كان له سحرٌ على النفوس ـ خاصَّةً في أوساط المعلِّمين ، وأنصاف المتعلِّمين ، المتألمين من الواقع المرير الذي تورَّطت فيه بعض المجتمعات الإسلامية ـ سحرٌ لا يبطله وعظُ واعظٍ ، أو مقالٌ لكاتبٍ ، أو استدلالٌ منطقيٌّ ، أو بحثٌ علميٌّ ، يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلامي الأول ، وتاريخ الباطنية والفدائيين في القرن السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن الصباح وما كان يجري في مركزه قلعة «الموت» وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والإصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرةً ، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التي استطاعت أن تجنِّد ألوفاً من الشباب في تحقيق مآربها السلبية ، وأهدافها الخطيرة ، يضحُّون بحياتهم في سبيلها متطوِّعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم ، واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الإسلامية ، والحاملين لمجد الإسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقداً بريئاً جريئاً في ضوء النُّصوص القرآنية ، والعقائد الإسلامية ، والدراسات المقارنة الأمينة للفرق المنتحلة للإسلام .

ويعرف قادة المسلمين ومفكروهم: أنَّ السيل لا يمسكه إلا سيلٌ مثله، والتيار لا يدفعه إلا تيارٌ أقوى منه، وواقع العالم الإسلاميِّ - ومعذرةً - اليوم في الجمود، والاستنامة، والإخلاد إلى الراحة، وعدم وجود دعوةٍ إيمانيَّةٍ قويَّةٍ، وروح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة، والأهداف الصالحة، وعدم اكتفائهم العسكريِّ والفكريِّ، نذير خطر دائم، وممهد الطريق للوقوع في شبكة هذه الدَّعوات المنحرفة الزائفة؛ التي يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية طلبتهم، ومنشودهم، وما يرضي طموحهم، ويزيل قلقهم، وإن كان ذلك ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٤٠] ولكنَّها نفسية الإنسان، وتجربة الأمم، والحقيقة الأليمة التي يجب أن ينتبه لها كلُّ معنيٍّ بحاضر الإسلام ومستقبله، وسلامة العقيدة، وصحة التفكير، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه.

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى الذي خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين التي حثَّها على المؤاخاة، وربط بها مصير العالم والإنسانية:

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

* * *

دور الجامعات الإسلامية المطلوب
في تربية العلماء، وتكوين الدُّعاة[1]

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين، وخاتم النبيِّين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

سادتي الأجلاء، وزملائي العاملين في مجال التعليم والتربية، وإخواني المعنيين بحاضر الأمَّة الإسلاميَّة، ومستقبلها، ورسالتها، وشخصيتها!.

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التي لا تسنح إلا بعد آجالٍ طويلة للتحدُّث في موضوعٍ أعتقد أنَّه بالنسبة إلى الأمَّة الإسلاميَّة والعالم الإسلاميِّ، قضيةٌ حاسمةٌ شديدة الحساسية والخطورة، وأُؤمن بإخلاصٍ وفي حماسٍ: أنَّه إذا لم تكن لهذا الالتقاء العلميِّ التعليميِّ الإسلاميِّ العالميِّ الكريم قيمةٌ ونتيجةٌ غير هذا البحث والوصول إلى نتيجةٍ فيه؛ كان التقاءً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً، ويفتتح عهداً سعيداً للأمة الإسلاميَّة بإذن الله تعالى، ويزيد هذا اللقاء قيمةً ومكانةً وجود عددٍ كبيرٍ، أو أكبر عدد متيسر - إذا لم أكن مبالغاً أو متفائلاً أكثر - من أصحاب الاختصاص في التعليم الإسلاميِّ، والأساتذة الكبار والمشرفين على الجامعات الإسلامية وقادتها وموجهيها، ويحقُّ لي لذلك أن أخاطب نفسي بما قاله الشاعر العربيُّ القديم، وأنشد:

---

(١) أعدَّ العلامة الندوي هذا البحث لمؤتمر تكوين الدعاة الّذي عقدته رابطة الجامعة الإسلامية في القاهرة، عام ١٩٨٧ م.

حمامةَ جرعى حومة الجندل اسجعي فأنتِ بمرأى من سعادٍ ومَسْمَعِ

الغاية الأولى والأساسية من التعليم:

أيها السادة! وفقني الله أن أقرأ كثيراً مما يتَّصل بالتعليم والتربية وغايتهما المنشودة ، والفائدة التي يجب أن تجنى منهما ، لكنِّي أكتفي بهذه المناسبة بتقديم شهادةٍ واحدةٍ فيما يتعلق بتعريف العلم ، وتحديد غرضه لخبيرٍ تعليميٍّ بريطانيٍّ معروف (Sir Prrcy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية:

«لقد سلك الناس مسالك مختلفةً في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً: أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعبٍ ، ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة؛ التي يؤمنون بها. إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الرُّوحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الرُّوحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربِّي التلميذ تربيةً تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمدُّ يدها إلى الأمام»(١).

إنَّ هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروعُ ، وأجمعُ ، وأكثرُ تواطئاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التي بذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة.

ما هي غاية التربية؟ وماذا يراد من ورائها؟ ولماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم؟ ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاءٍ وعلى طريقة منظمة؟ ألكي يوجد التعليم فجوة بين الأمَّة وبين ما تعتزُّ به ، وتتبنَّاه من معتقداتٍ وأغراض ، وتراثٍ حضاريٍّ ، وعلميٍّ ، وتصوراتٍ ، سواءٌ كان كلُّ ذلك ممَّا ينبغي الاعتزاز به أم لا ، لكن الشيء الذي تحبُّه ، والمعتقدات التي تعتزُّ بها ، والتصوُّرات ، والقيم ، والمثل ، والعقائد ، والأفكار التي تتغنَّى بها ، والتراث الذي توارثته من آبائها ، وأسلافها من وظيفة التعليم الأولى

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند «التعليم» The Encyclopedia of Baitannica (Education).

أن يربط بين الأمَّة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة ، والنشء الجديد ، ذلك التراث الذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدَّةً طويلةً من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمَّة في سبيله ، وحاربت ، وجاهدت وضحَّت بعزِّها ، وشرفها ، ومجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التي حاربت الأمَّة من أجلها قيماً صالحةً أم لا؟ لكن مسؤولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمِّقه في القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه ، وتتذوَّقه ، ولا يعود نابياً لديها ، أو أجنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها ، ومحبوباً عندها ، ويصير طبيعةً لها.

أمة محمد ﷺ أمة ممتازة في خصائصها ومزاياها ، وصياغتها وعناصر تركيبها:

أرى أنَّ هذا التعريف بالتربية بقلم خبيرٍ بريطانيٍّ تعريفٌ جامعٌ جداً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمَّةٍ عقائدُها وقيمُها ليست من عند نفسها ، بل هي نابعة من الوحي الإلهي ، والكلام الإلهي ، والنبوة والرسالة ، والعلم اليقيني الغيبي الأزلي الذي لا يحول ، ولا يزول، ولا يتغيَّر قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسؤولية ، وتتضخَّم.

فإذا كان هناك تعليمٌ يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعورٍ أو من غير شعورٍ؛ عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ ، عن خطأ أو عن خطة مدبَّرةٍ ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكِّك عراها ، ويمزِّقها ، ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهاتٍ لا تزول ، وصراعاً نفسياً ، ويتجاوز هذا الصِّراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للأمَّة ، ويتحوَّل الصراع إلى حربٍ داميةٍ شعواء بين تلك القيم ، والمفاهيم ، والتصوُّرات ، والمعتقدات ، والأفكار ، والعقائد ، وبين ذلك الجيل المثقَّف بذلك التعليم ، وتلك الثقافة ، فالأمر أدهى وأمرُّ.

أيها السادة! إني لا اؤمن بالإسلام كتراثٍ (Legacy) ولا أرى ذلك تعريفاً لائقاً بالإسلام؛ ولذلك فإني لست معجباً بالكتب التي وضعت

بعنوان: (Legacy of Islam) و(Heritage of Islam) إنّي أرى الإسلام رسالةً للحياة، ولا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب، بل أراه قائداً للزمان، وموجهاً له، لا أراه مرافقاً للزمان في رحلة الحياة، بل أراه مرافقاً للزمان، ومراقباً له، فإذا كان هنالك مثقفٌ بالتعليم العالي يقع فريسة الشك والارتياب في جميع قيمه، وتصوراته، ومعتقداته، أو يعود يراها دمىً يُسلّى بها الصبيان والأطفال، أو أسطورةً يتعلل بها السُّذَّج والجهّال، أو يصبح لا يتحمَّس لها، ولا يقاتل في سبيلها، ولا يدافع عنها، ولا يغامر من أجلها إذا مسَّت الحاجة إلى ذلك، إذا كان ذلك؛ فإنَّ هذا التعليم عدوٌّ لدودٌ لمن يحصِّله، يجب أن يفرَّ منه فرار الإنسان من الأسد، بل أكثر من ذلك.

قضية البلاد الإسلامية أهمُّ وأكبر خطراً:

أيها السادة! وحين أتحدَّث إليكم في هذا الحفل الكريم، وفي رحاب جامع الأزهر الشريف، فإني أخاطب العالم الإسلامي كلَّه، إنَّ الأمر يصبح ذا خطورةٍ، وحساسيةٍ، وتعقيد إذا كان يتعلَّق ببلدٍ إسلاميٍّ، تعيش فيه أمَّةٌ ذات شخصيَّةٍ، وذات خصائص ومميزات، ذات دعوةٍ، ورسالةٍ، ومكلفةٌ بقيام دورٍ فريدٍ في العالم البشريِّ، تنبع معتقداتها، وقيمها، ومثلها، وتصوراتها، وأفكارها، ووجهات نظرها من الوحي الإلهيِّ، فإذا كان التعليم يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل، ويجعله يخلع معتقداته، وتصوراته العريقة بعد ما يتخرَّج في جامعةٍ عصريَّةٍ، ويصبح وكأنه أمةٌ جديدةٌ، أو أمَّة أجنبيةٌ، تبدو نابيةً قلقةً بين الشعب المسلم ويحصل من ذلك كلِّه تعقيدٌ جديدٌ، وتحدث مشكلةٌ جديدةٌ، ويحدث صراعٌ مريرٌ ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقَّف وبين عائلته الإسلامية، وآبائه، وأمهاته، وبين المجتمع الذي هو عضوٌ فيه، وبين تاريخه وتراثه، وقيمه، ومآثر أسلافه، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله إيَّاه، وبين رسالة الإسلام والعمل الإسلاميِّ، وآمال الأمة الإسلاميَّة وأحلامها، إذا كان كلُّ ذلك فإني لا أرى في هذا التعليم خيراً، ولا أراه خدمةً للإنسانية، بل إنَّه خيانةٌ للأمة وجنايةٌ على الإنسانية.

المسؤولية الأوليّـة للجامعات في بلدٍ إسلاميٍّ:

ومعذرةً إليكم فإني لا أشير إلى جامعةٍ بعينها، ولا إلى المسؤولين عن جامعةٍ محدودةٍ، وإنّما أتعرّض لأمرٍ مبدئيٍّ، وأريد أن أقرِّر أنَّ المسؤولية الأولى، والأهم، والأقدم لجامعةٍ تقوم في بلدٍ إسلاميٍّ هي أن تؤكِّد إيمان الأمَّة بالعقائد، والأفكار التي تؤمن بها، والحضارة التي تحتضنها والدَّعوة والرسالة التي تتبناها، والخصائص والمزايا التي تحملها، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجلٍ عاديٍّ أو إيمان رجل الشارع، بل يكون إيمان عالمٍ، إيمان مثقفٍ، إيمان دارسٍ، ويطمئن عقله، كما يطمئن قلبه، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال: «**قلبه مؤمنٌ وعقله كافرٌ**»، مشيراً إلى فيلسوف غربي... وإذا كان الصِّراع لا يجوز بين الفرد والجماعة؛ فإنَّه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية، فإذا كانت هناك جامعةٌ تسبِّب هذا الصراع، أو يسبِّبه منهاجها التعليميُّ، ومنهجها العلميُّ، ونظامها الإداريُّ، وبيئتها العلميَّة، فذلك شؤمٌ لا شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة.

لا بدَّ من اطمئنان القلب والعقل معاً:

إنَّ الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية، أن توجد الإيمان بتلك الأشياء التي أشرت إليها، الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم، والثقافة، والدراسة، وعن الشعور والتفكير، وعن طريق اقتناع العقل، وعن الدراسة المقارنة، وإذا كان هناك رجلٌ إنما يؤمن قلبه، ولا يطمئنُّ عقله، وهو يعلِّل عقله، ويسلِّيه، ويحاول ألا يستيقظ عقله، شأن الأمم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيَّها في عدم يقظة الشعور، وتحاول أن يظلَّ أتباعها سادرين في سباتٍ الغفلة، مسدوداً عليهم منفذ النُّور والهواء، ومن هنا وقع بين «الكنيسة» و«العلم» ذلك الصراع الدمويُّ الذي تقرؤون قصته المؤلمة المفجعة في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between Religion & Science) للعالم الأمريكي المعروف «درابر» (Johan Wiliam Draper) وإنما وقع هذا الصراع لأنَّ الكنيسة

كانت ترى أنَّ الخير كلَّ الخير في تبلُّد الشعور الإنسانيِّ ، بل كانت تعمل فعلاً على تجميده ، وإماتته ، وكانت تؤمن بأنَّ من الخير والسعادة أن يكون الإنسان محدود العلم ، قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، وما دام الحال على هذِا المنوال؛ كان الإيمان بالكتاب المقدَّس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور في المجتمع ، ذلك أن العهد العتيق كان يشتمل على كثيرٍ مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ، ويفنده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة ألا يتيقظ شعور المسيحيِّ ، ولا يتفتَّح وعيه ، ولا يتَّسع أفقه ، ولا يتقدَّم العلم ، فحاولت أن تقف في وجه العلم؛ لأنَّها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، فأنشأت محاكم التفتيش الدِّينيِّ العقائديِّ (Courts of inguistion) وانتشرت في ربوع العالم المسيحي وعواصمه ومراكزه ، ومُنحت الحرية المطلقة في محاكمة أصحاب النظريات العلمية ، والاكتشافات في عالم الطبيعة ، والفلك ، والعلوم الطبيعية ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشية على معتنقيها ، ومعلنيها ، وقد أثبت بعض المؤرخين أنَّ ضحايا هذه المحاكم يربو عددها على عدد المصابين والقتلى في الحرب الكونية الأولى[1] ، وقد جرَّ هذا الحجر العلميُّ والفكريُّ وَفَرْضُ إطارٍ خاصٍّ ودائرةٍ محدودةٍ من الدراسات ، وكتب المطالعة على الشباب والدارسين ضرراً كبيراً على مستقبل الدِّين ، وعقلية الجيل الصاعد ، وأحدث حركة ردِّ فعلٍ عنيفةٍ ضدَّ هذا الاحتكار العلميِّ ، والاستبداد الدِّيني ، والنظر الضيق المتزمِّت.

درسٌ من تجارب الماضي:

وقد أثبت علم التربية ، وعلم النَّفس أنَّ الحجر على الشباب في القراءة والاطلاع ، كالحجر على الأطفال القاصرين الذين لم يبلغوا سنَّ الرشد ، تجربةٌ مخفقةٌ ، وعمليَّةٌ مثيرةٌ فيهم التساؤلات والشكوك ، والنَّهامة بالممنوع المحظور ، وأنَّ هذا الصنف من الدارسين غير جديرٍ بالثقة في مواجهة الأفكار الغريبة ، والتحدِّيات العلمية ، والعقائدية ، إنَّ المنهج

(١) Vohn Davenport for Muhammad and The Quran.

التربويّ المتّزن السليم هو الاطلاع على وجهات النظر ، والمدارس الفكرية المختلفة مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين في العلم والدين ، مع مناقشتها وعرضها على المحكّ العلميّ ، والدِّينيّ ، وتقرير الصحيح ، وتزييف الزائف ، وذلك مما يتّفق عليه خبراء التربية ، وأصحاب التجربة والاختصاص في علم النفس ، وعلم الاجتماع.

يقول ا. وهتنى جريسولد (A. Whitney Griswald) في كتابه مقالات حول التعليم (Essays on Education):

«كانت عاقبة الرقابة والتعذيب: الفشل دائماً في التاريخ ، إنَّ أقوى سلاح وأنفذه لمكافحة الأفكار السيئة ، هو سلاح الأفكار الطيبة ، ولا تنبع الأفكارُ الطيبة إلا من منبع الحكمة ، وليس هناك طريق أضمن لحصول الحكمة إلا طريق التعليم الحرِّ الذي لا عنف فيه».

ويقول ثيودر شرويدر (Theodore Schuoeder) في كتابه «العبودية العقلية» (Intellectual Slavery):

«تساعد الرقابة على الاحتفاظ بمختلف أشكال الظلم ووقايتها ، وتنخدع بهذه الوسائل ، وتحسبها ضماناً لحريتنا وديموقراطيتنا ، لكنَّها تحرمنا الفراسة التي نحتاج إليها في الطريق الطبيعي للنموِّ الاجتماعيِّ ، وعادة يجهل هذا الجهلَ الثوراتُ الأكثر دموية».

واضطرت المسيحية أخيراً أن تضع السلاح أمام مدِّ العلم وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنَّه حاجة الإنسانية ، ومقتضاها الطبيعي ، وعاطفة الإنسان الداخلية ، ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشري ، جعله الله لكي يخضرَّ ، وينمو ، ويورق ، ويثمر ، لا لكي يذوي ، ويذبل ، ويموت ، وهل تموت الحقائق؟ على كلٍّ فإنَّ العلم كسب المعركة ، وذاقت الكنيسة هزيمةً ، وعاراً ، وشناراً منقطع النظير أمام العلم ، وتطلُّع الإنسان إليه ، وطلبه الجامح له.

تلك هي الكارثة المشؤومة التي وقعت في العالم المسيحي ، ولكنَّها تركت آثارها على دنيا البشر كلِّها ، وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد

جعلت الناس يفهمون: أنّه لا يمكن أن يتقدّم العلم، والعقل معاً، وأن يساير الدين العلم، ولا بدَّ هنا بصفتي دارساً للتاريخ أن أعترف ـ مع الأسف ـ أنَّ هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الإسلامية، ولو لبعض الحين، لكنَّه ما لبث أن لقي حتفه، لأنَّه يتنافى مع روح الإسلام، وطبيعته، ولم يدم هذا الصراع المصطنع في العالم الإسلامي، وإنَّما كان قد نشأ عن طريق أوربة المسيحية، ولكنَّه غاب، وانقشع كسحابة صيف، أو بسرعةٍ أكثر منها.

مصير العلم مرتبط بالقلم:

أرى أنَّ من واجبات الجامعات الإسلامية أن تحاول ألَّا تقع فجوةٌ بين العلم والدِّين، كما وقعت بينهما في العالم المسيحيِّ، أو في دنيا الديانات؛ التي لم تكن فيها رابطةٌ بين العلم والعقل، بل إنَّ نشوءها كان مديناً للجهل، فقد تولَّدت، وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل، بل على غفلةٍ من العلم والعقل، ففيها مجال لنشوء الفجوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل، ولكن لا يتصور ذلك في الدِّين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلي:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الدِّين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتَّى في الحلقة الأولى من وحيه، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربَّانية، لم ينس أن يؤكِّد أنَّ مصير العلم مرتبطٌ بالقلم، لم ينسه في خلوةِ غار حراء؛ التي ارتادها نبيٌّ أميٌّ، يتلقَّى الرسالة الإلهية لهداية البشرية، ذلك النبيُّ الذي لا عهد له بالقلم، ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرِّك القلم، ولم يتعلم فنَّ الكتابة والقراءة بتاتاً، شيء لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشريِّ، ولا يمكنه أن يتصوَّر هذا المكان العالي، لا يمكنه أن يتصوَّر أن ينزل وحيٌ على نبيٍّ أميٍّ بين أمَّـةٍ أمِّيَّـةٍ في منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر، فضلاً عن المدارس، والمعاهد، ودور التعليم، والجامعات

في الوقت الذي لأوّل مرّةٍ تمّ فيه اتصال السماء بالأرض بعد عدّة قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «اعبد» ولا بكلمة «صلِّ» أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة ، وإنما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ولا عهد له بها ، لكي يقرِّر ، ويؤكِّد له أن الأمَّة التي يكلَّف بهدايتها ، وتربيتها ، وتعليمها هي أمَّةٌ ليست وَلِعةً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلمة العالم ، مولعةً بنشره ، وتصعيده ، وترقيته ، والعهد الذي تقوم فيه بوظيفة الهداية ، والتبليغ ، والتربية ، والتعلّم ، إنّه ليس عهد الأمية ، والوحشة ، والجهل ، وعهد الظلمة ، والهدم ، والتخريب ، وإنما هو عهد العلم ، والعقل ، والتفكير ، وعهد النظر ، والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حبِّ الإنسانية ، عهد الرقيِّ والتقدُّم.

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ في تاريخ الديانات ، وتاريخ العالم: أنَّ الوحي الأول الذي نزل على النبيِّ الأميِّ بين الأمَّة الأمِّية كانت بدايته بكلمة «اقرأ»: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأميِّ يصله بالله ، ويربطه بالربِّ تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الربِّ ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم ، والتعليم ، والقراءة باسم الربِّ الذي وهب هذه النعمة الغالية ، ومنَّ بها على عباده، وهو الذي خلقه، فلا يتقدَّم تقدماً متَّزناً إلا تحت توجيهه، وهدايته ، إنَّ الآية التي نتحدَّث عنها ، إنَّها ذات ثورةٍ ، وانقلابٍ عظيمٍ في التفكير، والعقلية، والنفسية، قرعت الآذان البشرية في بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بالٍ ، ولم يتصوَّره في حالٍ من الأحوال ، لو سئل الأدباء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والعلماء في العالم البشريِّ عن مفتتح هذا الوحي الذي سينزل على النبي الأميِّ ، لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمَّة التي نزل بينها الوحي ويعرف عقليتها ـ ليقول: إنَّـه سيبتدىء بكلمة «اقرأ». كان لهم أن يتنبؤوا بكل شيءٍ ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أنَّ الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمَّن

الكتابة ، والقلم ، والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم ، والقراءة ، والكتابة ، والورق ، مما دلَّ على أنَّ هذا العالم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات ، والكتب ، والمؤلفات ، والصحف ، وليد التجارب ، وليد الذكاء: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

هذا الدِّين لن يفارق العلم:

مما يجب الانتباه له: أنَّ الوحي الإلهيَّ أكَّد أنَّ طبيعة هذا الدين: أنَّه لن يفارق العلم ، لأنَّ الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين ، لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلمٍ حقيقيٍّ ، ولا يجوز له أن يدَّعي أنَّه ممثلٌ صحيحٌ للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدَّعوة الثورية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] كيف ينبِّه الوحي الإلهي على أن تكون هذه الرِّحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هادٍ كاملٍ ، وليس هو إلا الله العليم الكريم؛ لأنَّ الرِّحلة طويلةٌ شاقَّةٌ ، معقَّدةٌ خطرةٌ ، والطريق وعرةٌ ذات منعطفاتٍ تعترضها بحارٌ ، وأنهارٌ ذات عمقٍ سحيقٍ ، وتتخلَّلها غاباتٌ كثيفةٌ ، فيها سباعٌ مخوفةٌ ، وحيَّاتٌ ، وعقارب سامَّةٌ ، وكلُّ حيوانٍ ضارٍ.

لكنَّه ليس مجرد علمٍ ، ليس عبارةً عن معرفةٍ بالدُّمى واللعب ، وليس عبارةً عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان والإنسان ، والأمَّة والأمَّة ، وليس عبارةً عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارةً عن تحريك اللسان ، ولوك الكلمات ، بل هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فهل رفع من قيمة القلم أحدٌ في التاريخ البشري أكثر من ذلك؟ حيث يذكر بهذه الأهمية ، وبهذا التمهيد الكريم ، في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأول الذي ينزل من السماء ، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالإمكان تواجده في بيتٍ من بيوت مكة ، لا أكاد أدري لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا ، ربما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل ، أو أيِّ رجل تعلَّم

الكتابة في ديار العجم ، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات ، وأعدتم القراءة.

عصارة كلِّ علمٍ وثقافةٍ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ :

ثم دلَّ على حقيقةٍ خالدةٍ ذات انقلابٍ عظيمٍ ، وهي أنَّ العلم لا حدَّ له ، ولا نهاية ، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وليس العلم الحديث (SCIENCE) إلا انعكاساً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وكذلك التكنولوجيا ليس إلا مظهراً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وينزل الإنسان على القمر ، ولا يعني ذلك إلا ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] ويغزو الفضاء ، ويطوي أرجاءه طياً ، ويسخِّر أشعة الشمس ويشقُّ طريقه بين النجوم والكواكب ، ويحلم بالنزول بين السِّماكين ، إنَّ كل ذلك ليس إلا عبارةً عن ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

على كلٍّ الأمَّة التي كان أساسها الأول على القراءة ، وخاطبها الوحي الإلهي الأول بذكر القلم ، إنَّ تلك الأمَّة لن تفارق العلم والمعرفة؛ لأنَّها تلازمه ملازمة الظلِّ ، أو ملازمة الغريم.

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إنشاء كلِّ مدرسةٍ ، أو جامعةٍ ، أو اتخاذ منهج تعليمي لتعليم هذه الأمة ، أن يكون الهدف من كلِّ ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل ، وأن يتأتَّى هذا الترسيخ عن طريق القلب ، والعقل معاً ، ولا يكفي اطمئنان القلب ، أو العقل فقط ، لأنَّه حينئذٍ سيحدث صراعٌ بينهما في الحياة الفردية للإنسان ، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية. . . وعلى ذلك فيتخرَّج جيلٌ يتصارع مع مجتمعه ، ويتصارع مع دينه وعقيدته ، وتضيع كلُّ القوى في إزالة «الأنقاض» فقد رأى بعض قادة الشعوب والبلاد الإسلامية: أنَّه يجب أولاً إزالة الأنقاض ، وركَّزوا كلَّ عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد والحقائق ، واستنفذت هذه العملية كلَّ قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكَّنوا من عرض دعوتهم ، ونشر رسالتهم ، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها.

فإذا كان هناك منهاجٌ تعليميٌّ يعمِّق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحتضنها فهو منهاجٌ موفقٌ ، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي جاء يحمل رسالةً ، ويحتضن دعوةً ، فيجب أن يكون منهاجه التعليميُّ ، والثقافيُّ بحيث يرسِّخ الإيمان في قلب المثقف ، وقلب الدَّارس وقلب الطَّالب الجامعيِّ ، وقلب الفيلسوف ، وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعاً توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العلمية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة .

أيها السادة! إذا استطاعت جامعةٌ أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحقُّ أن تسمى جامعة إسلامية ، وأعتقد أنَّ ذلك خير تعريف لها .

حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف :

وعلى حملة علوم الدين وأصحاب الرُّسوخ والاختصاص فيها من المتخرِّجين في الجامعات الإسلاميَّة والمدارس الدينية ، وعلى الدعاة عهدة صيانة الإسلام عن التحريف ، والمسلمين عن الانحراف ، والحفاظ على الدِّين ، والذبِّ عن حوزته ، ويحتاجون من أجل القيام بذلك إلى الصفات الدقيقة السامية المثالية ، والقوة الرُّوحية الداخلية ، والثقة بخلود الدِّين ، والغيرة عليه ، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام ، والإشراك ، والتوحيد ، والسنة والبدعة ، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[1] ، ومطالعة تاريخ المصلحين المجدِّدين للدِّين في عصورٍ مختلفةٍ[2] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشر دينٍ من الأديان ، ولذلك فإنَّ هذا الواجب وضع على عاتق العلماء ، ونائبي

---

(١) انظر للتفصيل في محاضرة العلامة المؤلف بعنوان «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(٢) ليرجع إلى سلسلة العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الرسول ﷺ ، وخُصَّ به العلماء الربَّانيُّون المتفقهون في الدين الغيارى عليه ، المميِّزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطَّلعون على تاريخ الدِّيانات ، والصُّحف التي تعرضت لتحريفات المحرفين ، وإغراض المغرضين ، وقد جاء في حديثٍ صحيحٍ : «**يحمل هذا العلم من كلِّ خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين**»[1] .

وما كانت لتجري هـذه الكلمات العميقـة المعاني ، والدقيقة الدَّلالات إلا على لسـان نبيٍّ مرسلٍ صادقٍ مصدوق، فلو قرأتم تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء ، والأئمة ، والقائمون بحفظ الدِّين لوجدتم جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إنَّ للكلمات أعماقاً وآفاقاً هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرِّجال ، وتحدُّ بحدود النماذج والأمثال .

ومن واجبات العاملين في مجال الدَّعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية، والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة ، وبيئاتٍ مختلفة ، ولها خلفيات ، وعوامل ، وتاريخ ، وهي خاضعةٌ دائماً للتطور والتغيير ، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية ، والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات ، وعلى الأعراض ، والكرامات، بل أكثر منها، وأشد؛ لأنَّها حصون الإسلام المنيعة ، وحماه ، وشعائره ، وإخضاعها للتصورات الحديثة ، أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءةٌ إليها لا إحسان ، وإضعافٌ لها لا تقويـةٌ ، وتعريضٌ للخطر لا حصانـةٌ ، ونزولٌ بها إلى المستوى الوطني المنخفض ، لا رفعٌ لشأنها كما يتصوَّر كثيرٌ من الناس .

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٤٠) رواه البزار .

العنايـة بتربيـة السِّيـرة:

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة، حتى يكون المتخرِّجون فيها قدوةً للعلماء والدعاة، فضلاً عن أفراد الأمة، وآحاد الناس، فلتوجد الجامعات سيرةً يربأ صاحبها بنفسه عن أين يبيع ضميره «بحفنةٍ من شعير». إنَّ الفلسفات، والنظم المضادَّة للإسلام ترى أنَّ إنسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمةٍ أو بأخرى، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكميةٍ أكثر منها... وسرُّ النجاح الحقيقي لجامعة ما أن تربِّي السيرة، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأيِّ قيمةٍ مهما كانت رفيعةً غاليةً، ولا تستطيع فلسفةٌ هادمةٌ أو دعوةٌ منحرفةٌ، أو حكومةٌ ذات سياسةٍ خاطئةٍ، أو قوَّةٍ مدمِّرةٍ، مهما كانت لبقة ذات دهاء، أن تشتريهم بأيِّ ثمنٍ غالٍ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال، أو بلسان الحال:

«نرى العنقاء أكبر أن تصادا».

«إنَّ حرية القلب هي سيادةٌ، وسلطان، أما العناية الزائدة بالبطن. فهي مدعاةٌ للموت، والخيار بيديك، فإمَّا هذا، وإمَّا ذاك، يا أيها الطائر اللاهوتي! (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم: أنَّ الموت خيرٌ من القوت الذي يقصر جناحك، ويمنعك من التحليق».

من عوامل التأثير في المجتمع وقوة المقاومة للتحدِّيات والمغريات:

ويحلو لي أن أنقل هنا قطعةً من كتابي: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الأول)» بمناسبة الحديث عن زهد الإمام أحمد بن حنبل وتوكُّله على الله وعزوفه الزائد عن أموال الحكومة، وعطاء الخليفة والأمراء:

«وقد رأينا الزهد[1] والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام، فلا نعرف

---

(١) ليس المراد به الزهد الأعجمي أو المسيحي الرهباني، فلا رهبانية في الإسلام، ولا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات، إنما المراد به سمو النفس والنظر، والزهد في زخارف الحياة، وفضولها وكمالياتها والتهافت على حطام الدنيا، والتنافس في الجاه والمنصب.

أحداً ممن قلب التيار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظلَّ قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلا وله نزعةٌ في الزهد ، وتغلبٌ على الشهوات ، وسيطرةٌ على المادة ورجالها ، ولعل السرَّ في ذلك: أنَّ الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهَّاداً في الحياة ، متمرِّدين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأنَّ الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ، ويلهب الروح ، والدَّعة ، والرّخاوةُ تبلِّد الحسَّ ، وتنيم النفس ، وتميت القلب».

روح التضحية والفداء:

والمسؤولية الثالثة للجامعة الإسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمَّة ، ويستعدون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والريِّ ، والتنعُّم ، والتمتُّع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيِّرة ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية ، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم في رفع رأس الأمَّة عالياً وفي إعلاء كلمة الله ، وفي صنع أمَّةٍ ذات رسالةٍ ، وبناء بلد مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب.

فهذان أمران لا بدَّ منهما: الأمر الأول أن توفر الجامعات الإسلامية غذاءً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقتٍ واحدٍ ، حتى يتجها جنباً إلى جنب ، وبتعاونٍ متبادل إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمَّة.

تكوين اختصاصاتٍ وقدراتٍ ممتازةٍ في الدِّراسة والتَّحقيق:

ولا بدَّ أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرِّجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أنَّ قيمة بلدٍ من البلاد ليست في كثرة

جامعاتها ومعاهدها ، إنَّها نظريةٌ باليةٌ قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يعرفون بالرجعية ، وقصر النظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يثبتون تميُّزهم ، واختصاصهم في علمٍ من العلوم ، وفي مجالٍ من مجالات البحث والتحقيق ، ويقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثقافة ، وتثقيف الأمَّة والشعب ، ورفع معنويات أمَّتهم ، وصنعها أمَّةً ذات قلبٍ وضميرٍ أبي ، وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدِّين ، والعلم ، والأمَّة ، والبلد ، ضاربين بالشهرة الكاذبة ، ورقيِّهم الشخصيِّ عرض الحائط ، وذلك هو المقياس الحقيقيُّ الأصيل ، الذي يقاس به البلد والأمة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلدٍ قيمة إلا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدُّم الشخصي ، ويتوفرون على العمل الجاد البنَّـاء ، وعلى العمل العلمي الإيجابيِّ النافع ، وعلى رفع مستوى الأمَّـة عقلياً وفكرياً ، وعلى التوصُّل إلى نظرياتٍ علميةٍ ذات أهمية ، وعلى بحثٍ علمي مضنٍ يتطلَّب الصبر ، والتحمُّل على تعزيز البلاد من جميع النواحي .

إنَّ قيمة الشعوب والأمم ـ فضلاً عن قيمة الجامعات والمؤسسات ـ وسرَّ عظمتها ، وما تستحقُّ به من إجلالٍ وإكبارٍ ، وتقديرٍ واعترافٍ ، وجود أصحاب تفوُّقٍ ، واختصاصٍ ، وشهرةٍ عالمية في علوم وآدابٍ ، ومجالاتٍ علميَّة ، وبحوثٍ ، واكتشافاتٍ جديدةٍ ، وهذه كانت ميزة الأمَّة الإسلاميَّة ، فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية نحواً من ألف سنة على الأقلِّ[١] ، بإقرارٍ من المؤرخين الأوروبيين .

ومن واجبات المتخرِّجين في جامعاتنا النابغين أن يهيِّئوا بديلاً عن كتب

---

(١) إذا اعتبر القرن الثاني الهجري ـ وهو زمن الحكم الأموي الواسع ـ بداية تأثير المسلميـن العلميِّ والفكري في الشعوب والبلاد المتحضِّرة التي كان يحكمها المسلمون ، وسُلِّم استمراره إلى القرن الحادي عشر الهجري ، فقد نشأت الحركة الانتقالية في أوربة (Renaissance) في القرن الرابع عشر المسيحي ، وانتشرت في القرن السابع عشر المسيحي والحادي عشر الهجري وتميزت بازدهار الأدب والفن بانبلاج فجر العلم الحديث في الغرب المسيحي .

المستشرقين وعلماء الغرب في التاريخ الإسلاميِّ ، وفي تاريخ الحضارة الإسلاميَّة ، والفكر الإسلاميِّ ، والعلوم الإسلاميَّة ، كالحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، وتاريخ التشريع الإسلاميِّ؛ التي اعتبرت مرجعاً في هذه المواد ، وقُرِّرت من كثيرٍ من أساتذتها ومن الباحثين في هذه الموضوعات وأصحاب رسائل الدكتوراه ، فبثت السُّموم في عقول كثيرٍ من الدارسين والباحثين الناشئين ، وأنشأت شبهاتٍ حول الإسلام والمصادر الإسلاميَّة وأحدثت في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظنٍّ بماضيه ، كما أنَّ لها سهماً كبيراً في الحثِّ على «إصلاح الدِّيانة ، وإصلاح القانون الإسلامي»[1] وليكن للبلاد الإسلاميَّة والشعوب المسلمة اكتفاءٌ ذاتيٌّ في الثقافة ، والتربية ، كما يجب أن يكون لها استقلالٌ في مجال السياسة ، والاقتصاد.

تلك هي أهدافٌ حقيقيَّةٌ يجب أن نصبو إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أمَّا مجرد التعليم والتثقيف ، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ، ويستخرج الإعجاب.

الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفخ روح الإيمان واليقين في الحياة والمجتمع:

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب ، وفي هذه البلاد المتأزِّمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية منذ مئة عامٍ تقريباً... تفكَّكت عرا عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكريُّ والحضاريُّ الغربيُّ ، وحدث صراعٌ نفسيٌّ وفكريٌّ استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية ، والفكرية ، والعلمية لدى الدُّعاة... إنَّ ذلك الوضع غير طبيعيٍّ يجب أن يزول في أقرب وقتٍ ، لكي تتوجَّه هذه

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى بحث العلامة الندوي بعنوان «المستشرقون ونفوذهم في ميدان التفكير» في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» طبع دار القلم ، الكويت ، والمجمع الإسلامي العلمي ، لكهنؤ (الهند).

القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة ، وإلى إنقاذ البلد ، ودفع عجلته إلى الأمام.

الحقيقة أنَّ الأدب والشعر ، والفنون الجميلة ، والحكمة ، والفلسفة ، والتأليف والتصنيف ليس من وراء كلٍّ ذلك إلا غرضٌ واحدٌ ، وهو أن تتولد في صاحبه حياةٌ جديدةٌ ، وإيمانٌ جديدٌ ، وبالتالي في الأمة التي هو عضوٌ فيها ، والمجتمع الذي هو جزءٌ منه.

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، وهو يخاطب الأديب والشاعر؛ لأنَّه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعاً:

«يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمةٍ للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ولا في صوت مغنٍّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السَّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور ، والخمول ، والذُّويَّ والذبول».

إنَّ الأوضاع التي نمر بها نحتاج فيها إلى أن نأتي بأعجوبةٍ ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقق إلا عن طريق الرسالة الإسلاميَّة؛ لأنَّها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ، ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطم المعايير التقليدية ، ويسخر من كل الموازين التي آمن بها العالم الغربي الجاهليُّ ، يقول الدكتور محمد إقبال:

«أنا لا أعارض التذوُّق بالجمال ، والشعور به ، فذلك أمرٌ طبيعيٌّ ، ولكن أيُّ فائدةٍ للمجتمع من علمٍ لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، وذلك: أنَّ الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات».

دور مصر الإسلاميَّـة القياديّ في العالم الإسلاميِّ:

إنَّ مصر الإسلاميَّة اليوم بفضل ما سجَّل لها التاريخ من دورٍ رائعٍ في إنتاج عددٍ كبير من المؤلفين ، والمحقِّقين ، والمحدِّثين ، والمؤرِّخين ،

والقادة، والمجاهدين، وما قامت به من دورٍ حاسمٍ في الحروب الصَّليبية[1] والغزو التَّتاري[2] ، وما تملكه من وسائل النشر ، والتصدير ، والقيادة في العلم والأدب ، وبفضل وجود الأزهر الشريف تحتاج بصفةٍ خاصَّةٍ إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر ، أو البحر ، لأنَّ عليها تعود مسؤولية بعث الدول العربية كلِّها بعثاً جديداً ، إنَّ عليها أن تنفخ روحاً جديدةً في البلاد العربية الإسلاميَّة ، وتوجد لديها ثقةً جديدةً ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفَّاقاً جديداً ، يتحرَّق على بؤس الإنسانيَّة ، وشقائها ، وشجاعةً جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأةً خلقيةً تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التي تزلُّ أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثر عقولها ، وقد كانت مهد الانتفاضة الإسلاميَّة والدَّعوة القوية إلى الصَّحوة الإسلامية الشاملة حين ساد الجمود والخمود على كثيرٍ من الأقطار العربية ، ولا يزال لها جوهرٌ إسلاميٌّ نقيٌّ يبرز لامعاً صافياً إذا نُفِض الغبار عنه .

* * *

(١) ذلك عن طريق حاكم مصر وقائدها الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وانتصاره في معركة حطين الفاصلة في ١٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، واستعادته لبيت المقدس للمسلمين وبعد نحو تسعين سنة من استيلاء الصليبيين عليه في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وصلح الرملة في سنة ١١٩٢ م .

(٢) إشارة إلى انتصار سلطان مصر المملوكي المظفر سيف الدين قطز ، وقائده ظاهر بيبرس البند قداري في معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وانهزام التتار انهزاماً عديم المثال غيَّر مجرى التاريخ ، وإعادة الثقة إلى المسلمين ، فقد كان من الأمثال السائرة ومن المسلمات التي لا تقبل الجدل (إذا قيل لك إنَّ التتار قد انهزموا فلا تصدق) .

الأضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند ودورها ونجاحها في إصلاح العقيدة ومحاربة الجاهلية والخرافية والدعوة إلى الدين الحنيف الخالص والانتفاضة الإسلامية

دور الجاهلية العقائدية في بعض الأقطار الإسلاميَّة بتأثير مواطنيها الأصليين القدماء ، ومقاومتها من العلماء الراسخين والمصلحين الكبار :

الهند ـ كما يعرف المطَّلع على التاريخ القديم ـ من أعرق بلاد الله في الوثنية ، فهي فيها قديمةٌ وأصيلةٌ ، إذا كانت في كثيرٍ من البلاد جديدةً ودخيلةً، وقد عجنت فلسفتها، وحضارتها ، وآدابها ، وعلم الفلك والعلوم الرياضية والتقويم ، ـ فضلاً عن الديانات ـ بهذه الوثنية ، فهي أرض الآلهة والإلّهات ، وأرض الأساطير والروايات ، وأرض الأعياد والمواسم ، والمهرجانات والمآتم، تذكاراً لحوادث تاريخيةٍ دينيَّةٍ، وأبطالٍ قوميَّةٍ خرافيةٍ، أثَّر كلُّ ذلك في حياة المسلمين وعاداتهم تأثيراً عميقاً ، وغمَّ عليهم الأمر على مدى الأيام ، والتبس الحقُّ بالباطل بتهاون السَّلاطين والحكام، وقلَّة انتشار علم الحديث، وكتب السنة الصحيحة، ورواجها في العهود الأولى ، وشدَّة اختلاط المسلمين بجيرانهم في كل مدينةٍ وقريةٍ ، وحيٍّ وزقاقٍ.

حتى قيَّض الله للصَّدع بالدعوة ، وتمييز الحقِّ من الباطل ، والقشور من

اللباب ، رجالاً من علماء الدين ، والدُّعاة المرشدين ، كان في مقدمتهم الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السَّرهندي ، وخلفاؤه ، وبعده حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي المعروف بالشيخ وليِّ الله الدهلوي ، وأسرته ، ومن تتلمذ عليهما من الفقهاء والمحدِّثين ، والعلماء الراسخين.

وليس الأمر مقصوراً على الهند التي بعدت عن مهد الإسلام ومهبط الوحي ، ودخلها الإسلام عن طريق بلاد العجم ، وقد فقد الشيء الكثير من قوَّته وجدَّته ، بل تبلبلت العقيدة الإسلامية واختلطت بشيءٍ كثيرٍ من البدع والضلالات في العواصم الإسلامية ، وبلاد العرب ، في القرن السابع والثامن الهجريين ، بتأثير الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام جديدةً ، وحملت معها رواسب كثيرةً من دياناتها وعاداتها ، واختلاط المسلمين مع غير المسلمين والعجم ، ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية في مصر ، والشام ، وتأثيرهما ، وانتشار تعليمات بعض المتصوفين الجهلة ، ومن قرأ كتابي شيخ الإسلام ابن تيمية «الردُّ على البكري» و«الرد على الأخنائي» عرف الشيء الكثير من غلوِّ الجهَّال في الأئمة والمشايخ ، والأولياء والصَّالحين ، واعتقاداتهم الفاسدة ، وعاداتهم الجاهلية ، ولا يزال لهذا الغلوِّ والتعظيم بغير ما أمر الله به ، وشرع ما لم يأذن به الله آثارٌ باقيةٌ في بلاد المسلمين والعرب ، تستوجب دعوةً قويةً ، صريحةً ، حكيمةً ، بليغةً.

الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد «العمري السَّرهندي»:

كان الإمام الربَّاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السَّرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) شديد الإنكار على البدع والخرافات التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع ، وتفنيدها ، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة» وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند ، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال ، التي خلَّفها عهد أكبر المظلم ، والمحاولة الجادَّة الحكيمة الناجحة لثورةٍ دينيَّةٍ تجديديةٍ ، وتغييرٍ جذريٍّ عظيم ، كان من نتاجهما

السلطان محيي الدين أونك زيب عالمكير سلطان الهند وصاحب الأمر والنهي فيها ، علميًّا ، وتشريعياً ، وإدارياً .

إنَّه حقق الفرق بين البدعة والسنَّة ، وأقيسة المجتهدين ، واستحسانات المتأخرين ، والتعارف عن القرون المشهود لها بالخير ، وما أحدثه الناس في القرون المتأخرة ، وتعارفوه فيما بينهم ، فردَّ بذلك مسائل استحسنها المتأخرون من فقهاء مذهبه ، ومنها أنه كان يأمر بما يراه معروفاً وينهى عن ضدِّه ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يخاف من ذي سطوةٍ في سلطانه ، فكان ينكر على الأمراء ، ويرشدهم إلى مراشد دينهم ، وينفرهم من صحبة الروافض ، ومن شاكلهم من أعداء الدين ، ويبذل لهم نصحه ، فنفع الله كثيراً منهم بذلك ، وصلحت بصلاحهم الرَّعيَّة ، فسدَّ الله ثلمةَ ظاهرِ الدِّين ، كما رقع به خرق باطنه[(١)].

يدل على مدى غيرته على العقائد الإسلامية ، وحميته الدينية ، ما كتبه إلى عالم معاصر ، حكى في رسالته من كلام الشيخ عبد الكبير اليمني ، ما يخالف العقيدة الإسلامية ، وهو «إنَّ الله يعلم الغيب ويحيط علمه بالكليات دون الجزئيات» قال في الردِّ عليه :

«يا أخي إنَّني لا أستطيع سماع مثل هذه الكلمات ، إنَّ عرقي الفاروقي ينبض ويتحرَّك، كان قائلها عبد الكبير اليمني ، أو محيي الدين بن عربي ، إنَّ إمامنا ورائدنا هو محمَّد العربيُّ ﷺ لا محيي الدين بن عربي ، إنَّ الفتوحات المدنية أغنتنا عن الفتوحات المكِّية ، إنَّ لنا شأناً مع النصوص لا الفصوص»[(٢)].

الإمام ولي الله الدَّهلوي ـ رحمه الله ـ:

وقام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ)

---

(١) راجع للتفصيل «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلامة السيد عبد الحي الحسني و«رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الثالث ، للعلاَّمة الندوي .

(٢) رسالة إلى الشيخ ملا حسن الكشميري رقم/ ١٠ المجلد الأول من رسائل الإمام السرهندي والمراد بالفتوحات المكية كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي المشهور «بالفتوحات المكية» والمراد بالفصوص كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي المسمى بفصوص الحكم .

المشهور بالشيخ ولي الله بعملية التجديد والإصلاح ، وهو أحد حكماء الإسلام ونوابغه وكبار المفكرين الإسلاميِّين ، من طراز الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد لاحظ خمس نقط في حياة الشعب الهندي .

خطته في الإصلاح :

١ ـ إن كثيراً من المسلمين قصروا في فهم التوحيد الإسلاميِّ ، وأحاطت بعقيدتهم غيومٌ من الجهالات والظنون الفاسدة، والعادات الجاهلية ، فلا بدَّ من إبراز هذا «التوحيد» في نقائه ووضوحه، وشرح ما كان عليه أهل الجاهلية من اعتقادٍ في الله حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الإسلام .

٢ ـ يجب أن يكون للشعب اتصالٌ مباشر بالكتاب والسنَّة ، وقد حال العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه ، بعلَّة تعذر فهمه للعامة ، وخوف انحلال سلطتهم الرُّوحية ، وسيادتهم العلمية ، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد، ولم ينشروا كتب الحديث ، فلا بدَّ إذاً من نقل معاني القرآن ، وأحكامه إلى لغة البلاد، والإقبال على كتب السنَّة ، وحديث رسول الله ﷺ.

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفةٌ ضئيلةٌ في العلوم الدِّينيَّة ، وبضاعتهم مزجاةٌ في الحديث خصوصاً ، فلا بدَّ من نشر علم الحديث ، فدرس الصِّحاح والموطأ ، وأقبل على دراسة هذه الكتب حتى أصبحت للهند مكانةٌ مرموقةٌ في العالم الإسلاميِّ في خدمة الحديث بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسته .

٤ ـ لاحظ أنَّ العالم الإسلاميَّ سوف يستقبل عصراً عقلياً ، وثورةً فكريَّةً ، فلا بدَّ من شرح نظام الخلافة في الإسلام ، وأساليب الإسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، فألَّف كتباً لا تزال فريدةً في مكتبة الإسلام العامرة ، (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) .

٥ ـ لاحظ أنَّه لا أمل في نهضة الأسرة الملكية الهندية ، وتجديد شباب الدولة التيمورية ، لأنَّه ـ كما قال ابن خلدون ـ :

«**إذا نزل الهرم بدولةٍ لا يرتفع**» فلا فائدة في بذل القوَّة لإصلاحها ، وتقويتها ، ولا بدَّ من إعداد جماعةٍ تحدث انقلاباً إسلامياً ، وتؤسس دولةً إسلاميَّةً جديدةً على أساسٍ دينيٍّ علميٍّ جديدٍ .

نجاحه في عمله:

قام الشيخ وليُّ الله وأصحابه بمهمَّة هذا التجديد الإسلاميِّ خير قيام، فنشروا العلم الصحيح، وأذاعوا مصادر الدِّين الأولى، وألَّفوا كتباً دسمةً قويةً مبتكرةً، تمهد العقول والنفوس لإحداث انقلابٍ إسلاميٍّ، وإنشاء دولةٍ إسلاميَّةٍ، وخرج تلاميذ ورجالاً يقومون بهذه المهمة وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدَّهلوي (م ١٢٣٩ هـ) فدرَّس وألَّف، وخرَّج وخلَّف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول، نشروا علم الحديث، وشمروا عن ساق الجدِّ في نصر الدين، ومحاربة البدع، والدعوة إلى الكتاب والسنة، وتزكية النفوس، حتَّى نفقت سوق الحديث، وقامت دولة العلم، واستعدت النفوس للنصر المؤزر للدِّين.

لم يقتصر الإمام الدَّهلوي على هذه الخطابات الخاصَّة لهذه الطبقات الخاصَّة بين الناس، بل شدَّد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكيَّة، والبدع والشعائر غير الإسلاميَّة التي تسربت إلى المجتمع المسلم، وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنادك، ومواطنتهم بعدَّة قرون، وعدم الاهتمام بالسنَّة المشرفة والحديث الشريف، وغفلة العلماء وتقصيرهم، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسؤوليتها، وفقدان الحسية الدِّينيَّة، فالتزم بها المسلمون التزاماً شديداً.

شنع الشيخ عبد العزيز الدَّهلوي على تلك المعتقدات الباطلة، والأوهام، والخرافات الجاهلية، وتقليد غير المسلمين واتِّباعهم، وعابهم عليه، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكمية لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالاً، ويرونها هيِّنةً خفيفةً، أو يتغاضون عنها فراراً من الوقوع في المشاكل، ومعارضة الجماهير.

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ورفقته وتأثيرهم في الحياة:

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري، قام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ ـ ١٢٤٦ هـ) الذي تخرج على الشيخ عبد العزيز ـ ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الشيخ وليِّ الله

الدَّهلويُّ ـ فدعا الناس إلى الدين الخالص ، والتوحيد ، واتِّباع السنة ، وحارب الشرك ، والجاهلية ، والبدع محاربةً سافرةً شديدةً وبث في الشعب روحاً دينيَّةً قويَّةً لم تعهد من قرونٍ متطاولةٍ ، ودعا الناس إلى الإيمان ، والإحسان ، والتقوى ، والجهاد في سبيل الله ، وقام بجولاتٍ واسعةٍ في الهند ، تاب في خلالها ألوف من المسلمين ، وأقفرت الحانات ، وغصَّت المساجد ، وكسدت سوق البدع ، والتف حوله المخلصون ، والعلماء الربَّانيُّون ، وخرج للحجِّ عام ١٢٣٦ هـ ومعه أكثر من سبعمئة رجل ، وتشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناس يقصدونه من كل صقع ، ويدخلون في الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى في المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عددٌ كبير من الكفار ، وكان من تأثير مواعظه ودخول الناس في الدِّين وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارة الخمر في كلكتا ـ وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ـ وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمَّارون عن دفع ضرائب الحكومة لكساد السُّوق ، وتعطُّل تجارة الخمر.

وتدل الإحصاءات الدقيقة الأمينة للمنتفعين بهذه الدَّعوة ، والتيار الديني القوي العاصف ، على قوة تأثير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ، واتِّساع نطاق من انتفع به ، وتغيَّرت حياته ، عقائدياً ، وعملياً ، وخلقياً ، فقد تحقَّق أنَّ من بايع وتاب على يده يبلغ عددهم إلى ثلاثة ملايين شخصٍ ، ومن أسلم على يده من الوثنيين وغير المسلمين ، يبلغ عددهم إلى أربعين ألفاً ٤٠,٠٠٠ .

الشيخ إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ:

أما الشيخ إسماعيل الشهيد ، فقال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في «اليانع الجني» :

«إنَّه كان أشدَّهم في دين الله ، وأحفظهم للسنَّة ، يغضب لها ، ويندب إليها ، ويشنع على البدع وأهلها» .

وقال العلامة صديق بن حسن القنوجي (م ١٣٠٧ هـ) في «الحطة بذكر

الصحاح الستة» في ذكر الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي:

إن ابن ابنه المولوي محمد إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ اقتفى أثر جدِّه في قوله، وفعله جميعاً، وتمَّم ما ابتدأه جدُّه، وأدَّى ما كان عليه، وبقي ما كان له، والله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال، وقواطع الأقوال، وصحاح الأحوال، ولم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام، كما يزعم الجهَّال، وقد قال الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وهو رحمه الله تعالى أحيا كثيراً من السنن المماتات، وأمات عظيماً من الأشراك والمحدثات، حتى نال درجة الشهادة العليا، وفاز من بين أقرانه بالقدح المعلَّى، وبلغ منتهى أمله، وأقصى أجله.

أما كتاب «تقوية الإيمان» فإنَّه كتاب أصبح شعاراً وعلماً للدعوة إلى التوحيد، وبيان الحقِّ الصَّريح، وقد نفع الله به خلائق في شبه القارة الهندية لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج، وحصى البطحاء، وقد بلغ عددهم إلى ملايين من غير شك.

وقد صدر هذا الكتاب عن قلبٍ جريحٍ يتقطَّع بمشاهدة ما كان عليه المسلمون في ذلك اليوم من بُعْدٍ من التعاليم الإسلاميَّة، وخضوعٍ للوثنية الهنديَّة، وتمسُّكٍ بالعادات الجاهلية، وقد زاد في تأثيره وقبوله دموعُ عينٍ باكيةٍ على الإسلام، ودم زكيٍّ أريق في سبيل إحياء هذا الدِّين، وإدالته من الجاهلية، وتأسيس حكومةٍ شرعيةٍ تقوم على منهاج الكتاب والسنَّة، ويكون الدِّين كلُّه لله.

وقد قرن ـ رحمه الله ـ الدُّعاء بالدَّعوة، والجهد بالجهاد، والشهادة للحقِّ بالشهادة في الحقِّ، وذلك لباب التوحيد، وغاية الإخلاص، وكمال الصدق، وتمام الوفاء، وصدق الله العظيم:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فكان لكتابه من القبول والتأثير ، والذيوع والانتشار ، ما لا يكون إلا لكتابات كبار المخلصين ، والعلماء العاملين ، والدُّعاة المجددين.

وسرُّ قوة الكتاب صراحته ، وتشخيصه للأدواء ، ومظاهر الشرك ، ومواضع الانزلاق ، وأنَّه يضرب على الوتر الحساس ، ويصيب ضعف الاعتقاد ، وما فتن به المسلمون في العهد الأخير من الغلوِّ ، والتقديس ، والتعظيم ، وتقليد الأمم الوثنية ، والعادات الجاهلية ، في صميمه ، وقد اعتاد الناس ألَّا يفزعوا للمواعظ والخطب التي تلقى على المنابر ، أو البحوث العلمية التي تتناول موضوع التوحيد والشرك بصفةٍ إجماليةٍ عامَّة ، إذا لم تتعرض للأمراض التي يعانونها ، والأخطاء التي يرتكبونها ، والعادات التي لا يمكنهم الفطام عنها ، وللأشخاص والأماكن والشعائر التي يغلون فيها ، فيتجاهلون كلَّ ذلك ، ويتظاهرون بأنَّ الواعظ أو الكاتب لا يعنيهم ، وإنما يعني المشركين القدامى ، وعبَّاد الأوثان في الجاهلية الأولى ، أما إذا تعرَّض هذا الكاتب أو الواعظ لواقع حياتهم ، ووضع يده على عللهم وأسقامهم ، وحدَّد مواضع فتنتهم ، لم يسعهم أن يتغافلوا عنه ، فأعلنوا الحرب عليه ، ونادوا بعدائه ، وهذا شأن الدَّاعي المخلص الذي ملكته الفكرة ، واستحوذ عليه الشعور ، وتذوَّق القرآن ومنهج الأنبياء في دعوتهم تذوقاً حقيقياً ، فإنَّه يقرأ القرآن ، ويرضي ربه ، ويريح ضميره ، ويبرىء ذمَّته[1].

مدرستان للدَّاعين إلى الكتاب والسنَّة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركة نشر الحديث والدَّعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والعادات الجاهلية المحلِّيَّة ، وقام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ، والعلامة محمد إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ ، بالدَّعوة إلى الدِّين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنية ، والرجوع إلى ما كان عليه

---

(١) نقل العلاَّمة هذه السطور كتاباً إلى العربية وسماه : «رسالة التوحيد» وقد اطلع عليه أحد الأساتذة السعوديين الكبار ، فقال : «هذا منجنيق التوحيد» ، طبع في دار وحي القلم بدمشق.

السَّلف الصَّالح ، والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول ، وتحرَّكت الهمم ، وكثر الدعاة إلى الدِّين ، والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنَّة ، والمؤلفون في المقاصد الدِّينية في اللغة الأردية الشعبية في أسلوبٍ سهلٍ واضح .

ونشأت من هذه الحركة التعليمية الدَّعوية مدرستان للحديث والسنَّة ، إحداهما : مدرسة «صادق فور[1] السَّلفيَّة» رائدها العلامة ولايت علي العظيم آبادي من كبار خلفاء السيد الشهيد ، وأحد العلماء الربَّانيِّين في الهند في العهد الأخير .

والثانية : مدرسة العلامة السيد نذير حسين الدَّهلوي (م ١٢٢٠ هـ) .

يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ وقد حضر دروسه ، وأجازه الشيخ في الحديث :

«رزقه الله سبحانه عمراً طويلاً ، ونفع بعلومه خلقاً كثيراً من أهل العرب والعجم ، انتهت إليه رئاسة الحديث في بلاد الهند ، وكان آيةً ظاهرةً ، ونعمةً باهرةً من الله سبحانه في التقوى ، والدِّيانة ، والزُّهد ، والعلم ، والعمل ، والقناعة ، والعفاف ، والتوكُّل ، والاستغناء عن الناس ، والصدق ، وقول الحقِّ ، والخشية من الله سبحانه ، والمحبَّة له ولرسوله ﷺ ، وكان شديد الإنكار على ما خالفه من المذاهب ، مداعباً مزاحاً ، متواضعاً حليماً ، ذا جرأةٍ ونجدةٍ»[2] .

مراكز الدَّعوة والتربية الهادئة المنشئة للدُّعاة والعلماء المصلحين :

هذا وقد نشط دعاة البدع والخرافات ، والمحترفون؛ الذين انتشروا في القرى والمدن يدعون إلى رسوم الجاهلية والمحدثات ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ويصدُّون عن سبيل الله ، ويضلِّلون العلماء الأخيار ، ويكفرونهم .

---

(١) صادق فور حي من أحياء مدينة «بتنا» عاصمة ولاية «بيهار» كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد ـ رحمه الله ـ .

(٢) ليرجع إلى الجزء الثامن من كتاب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» .

خاف علماء الحقِّ على الدِّين وعلى علوم الدِّين ، وخافوا على مستقبل الإسلام في بلاد الهند بعد زوال دولته وحلول دولة الكفار ، ورأوا أنَّهم لا تنجدهم دولة ، ولا تحميهم قوَّة ، ولا يملكون أموالاً ينفقونها ، ولا مناصب ووظائف يجذبون إليها ، وإنَّما هم مستضعفون في الأرض ، فقراء ، ثروتهم العلم ، ورأس مالهم الدِّين ، وزادهم التوكُّل ، وسلاحهم الإخلاص ، فقاموا وقالوا نبني معقلاً للدين تأوي إليه الشريعة الإسلامية ، وتلجأ إليها العلوم الدينية.

معهد ديوبند ومدرسة مظاهر العلوم وخدمتهما للدين:

ولم يـر العلماء أمامهم طريقـاً إلا فتح المدارس العربيـة والمعاهد الدِّينية ، فأنشؤوا هذه المعاقل؛ ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية ، وليكافحوا تيَّار الغرب المدني والثقافي ، ويخرِّجوا منها دُعاة الإسلام ، والوعَّاظ ، والمرشدين ، وعلماء الدين ، ليحفظوا على المسلمين دينهم ، ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم ، فأسَّس الشيخ محمد قاسم النانوتوي (م ١٢٩٧ هـ) «مدرسة ديوبند» سنة ١٢٨٣ هـ ، وأسس الشيخ سعادة علي مدرسة «مظاهر العلوم» في سهارنفور في نفس ذلك العام.

ثمَ تواترت المدارس الدينية في أنحاء الهند ، وقد كان لهذه المدارس فضلٌ كبيرٌ في نشر الدِّين والدَّعوة الإسلاميَّة ، وفي نشر الثقافة في طبقات الشعب ، ومحاربة البدع والخرافات ، وبثِّ الروح الدِّينيَّة في الجماهير ، وقد نجحت هذه المدارس في رسالتها الدِّينيَّة نجاحاً باهراً ، وكان للمتخرِّجين من دار العلوم تأثير كبير في حياة المسلمين الدِّينيَّة في الهند ، وفضلٌ كبيرٌ في محو البدع وإزالة المحدثات ، وإصلاح العقيدة والدَّعوة إلى الدِّين ، واتِّباع السنَّة ، ومناظرة أهل الضلال والردِّ عليهم ، وكانت لبعضهم مواقف محمودةٌ في السياسة والدفاع عن الوطن ، وكلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائر.

ومدرسـة ديوبنـد تلتـزم منهـج الـدرس النظـامي في التعـليم بتعـديـلٍ

يسير، وهو منهج ينتمي إلى العلامة نظام الدين الأنصاري الفرنكي محلي (م ١١٦١ هـ) يلتزم تدريس الفلسفة والمنطق، وأصول الفقه وعلم الكلام، ويُعنى به عنايةً خاصَّةً، هذا مع عنايةٍ زائدةٍ في دار العلوم ديوبند بتدريس الحديث الشريف مع أدبٍ واحترامٍ، ودراسةٍ مقارنةٍ، ومحاكمةٍ استدلاليةٍ، وإثبات المذهب الحنفي، وترجيحه.

وقد ظهرت لدار العلوم ميزةٌ خاصَّةٌ، وهي العناية بتدريس الحديث الشريف بتعمُّقٍ، واهتمامٍ زائدٍ، لذلك لمَّا زار العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلَّة «المنار» الغرَّاء، الصادرة من القاهرة، (وهو تلميذ العلامة الشيخ محمد عبده المصري) دار العلوم ديوبند[1]، وحضر درس العلاَّمة السيد أنور شاه الكشميري شيخ الحديث بدار العلوم، قال: «ما رأيت مثل هذا الأستاذ الجليل قطُّ» ولما زار دار العلوم، واطَّلع على حلقات تدريسها، قال: «لولا أني رأيتها لرجعت من الهند حزيناً».

وقد قال في تقديمه لكتاب «مفتاح كنوز السنَّة»:

«لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر، والشام، والعراق، والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر»[2].

الشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي:

الشيخ الإمام العالم الكبير محمد قاسم الصديقي النانوتوي أحد العلماء الربَّانيّين، وُلد بنانوتا سنة ثمان وأربعين ومئتين وألف (١٢٤٨ هـ)، أخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدَّهلوي، ولازمه مدَّةً، كان أزهد الناس، وأعبدهم، وأكثرهم ذكراً ومراقبةً، ولما ثارت الفتنة العظيمة

---

(١) وقد زار الهند بناءً على دعوةٍ من المشرفين على منظمة ندوة العلماء، ودار العلوم التابعة لها، لحضور حفلتها السنوية الثالثة عشرة سنة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢ م.

(٢) مقدمة مفتاح كنوز السنة.

بالهند سنة ثلاث وسبعين اتهموه بالبغي والخروج على الحكومة الإنجليزية ، فاختفى عن الناس برهةً من الزَّمان ، ثم ظهر واشتهر بتأسيس المدرسة الإسلامية بديوبند ، وكان له فيه حظٌّ كبيرٌ ومكانةٌ مرموقة ، وله مشاهد عظيمة في المباحثة بالنصارى والآرية، فناظر أحبار النصارى وعلماء الهنادك غير مرَّةٍ ، فغلبهم ، وأقام الحجَّة ، وظهر فضله في المناظرة.

له مؤلفاتٌ ذات شأنٍ في علم الكلام وفضل الإسلام ، وإثبات بعض عقائده ، وأحكامه ، وكتبه ، ورسائله تحتوي على بعض نكتٍ بديعةٍ ، وأفكارٍ طريفة ، واستنباطاتٍ لطيفةٍ ، وهو جديرٌ بأن يُعتبر من أركان النهضة التعليمية الدِّينيَّة ، السنية الإصلاحيَّة ، على الطراز القديم[1].

الشيخ رشيد أحمد الكَنكَوهي ـ رحمه الله ـ:

نكتفي هنا بما جاء في كتاب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» الذي يمتاز بتحرِّي الواقع ، وكلمة العدل ، والاتزان في التعريف والترجمة:

«كان الشيخ العلامة رشيد أحمد الكَنكَوهي ـ رحمه الله ـ (م ١٣٢٣ هـ) آيةً باهرةً ، ونعمةً ظاهرةً في التقوى ، واتِّباع السنَّة النَّبويَّة ، والعمل بالعزيمة والاستقامة على الشريعة ، ورفض البدع ومحدثات الأمور ، ومحاربتها بكلِّ طريقٍ ، والحرص على نشر السنَّة ، وإعلاء شعائر الإسلام ، والصَّدع بالحقِّ ، وبيان الحكم الشرعي ، ثم لا يبالي بما يتقاول فيه الناس ، لا يقبل تحريفاً ، ولا يحتمل منكراً ، ولا يعرف المحاباة والمداهنة في الدِّين ، مع ما طبعه الله عليه من التواضع والرفق واللين ، دائراً مع الحقِّ حيثما دار ، يرجع عن قوله إذا تبين له الصَّواب ، انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل ، ورئاسة تربية المريدين ، وتزكية النفوس ، والدُّعاء إلى الله تعالى ، وإحياء السنَّة وإماتة البدع».

---

(١) مقتبساً من كتاب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» باختصار.

الشيخ أشرف علي التهانوي ـ رحمه الله ـ:

ويلحق بهؤلآء الأعلام من المشرفين على مدرسة ديوبند والمنتمين إليها ، المصلح الكبير والمربِّي الجليل الشيخ أشرف علي التهانوي ـ رحمه الله ـ ، ننقل ما جاء في كتاب «الإعلام» الجزء الثامن في ترجمته ، والتعريف به:

«كان مرجعاً في التربية والإرشاد، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق ، تُشَدُّ إليه الرِّحال ، ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد ، وأدانيها ، وانتهت إليه الرئاسة في تربية المريدين ، وإرشاد الطالبين ، والاطِّلاع على غوائل النفوس ، ومداخل الشيطان ، ومعالجة الأدواء الباطنية ، والأسقام النفسية.

قد كان من كبار العلماء الرَّبَّانيِّين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم ، وقد كان نَفْعُ كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل ، واستفاد منها ألوفٌ من المسلمين ، ورفض عددٌ لا يحصيه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية ، والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين ، وفي بيوتهم ، وأفراحهم ، وأحزانهم بسبب الاختلاط الطويل بالكفار ، وأهل البدع والأهواء ، وقد كان له فضلٌ كبيرٌ في تيسير الطريقة وتقريبها ، وتنقيح الغايات من الوسائل ، واللباب من القشور والزوائد ، . . . له مصنفاتٌ كثيرةٌ ممتعةٌ ما بين صغيرٍ وكبيرٍ ، وجزءٍ لطيفٍ ، ومجلَّداتٍ ضخمةٍ ، أحصاها بعض أصحابه ، وبلغت إلى نحو ثمانمئة (٨٠٠) ، توفي إلى رحمة الله تعالى لست عشرة خلون من رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمئة وألف هجرية»(١).

الشيخ حسين أحمد المدني ـ رحمه الله ـ:

الشيخ العالم الصالح المحدِّث حسين أحمد بن حبيب الله الفيض آبادي ، ولد في التاسع عشر من شوال سنة ستٍّ وتسعين ومئتين وألف بقرية

---

(١) مختصراً من كتاب «الإعلام . . »: ج/ ٨.

«بانكَرمئو» من أعمال «أناؤ» وتلقى مبادىء العلوم في «تانده» ثم سافر إلى «ديوبند» ومكث سبع سنين ، وقرأ فاتحة الفراغ ، وأخذ الحديث عن العلاَّمة محمود حسن الديوبندي ، وتفقَّه عليه ، ولازمه مدَّةً طويلةً ، ودخل المدينة ، وأقام هناك على قدم صدقٍ وإخلاصٍ ، وتوكُّلٍ وتقشُّفٍ ، وسافر إلى الهند ، ثم رجع إلى الحجاز سنة ١٣٢٠ هـ ، وتصدَّر للتدريس في مدينة الرسول ﷺ محتسباً متطوعاً ، يدرس الحديث والتفسير ، والفقه ، ومكث ثلاث سنوات (١٩١٧ ـ ١٩٢٠ م) في منفى مالطا مع شيخه الشيخ محمود حسن ـ رحمه الله تعالى ـ صابراً محتسباً .

ولما اعتزل الشيخ العلامة أنور شاه الكشميري ـ رحمه الله ـ شياخة الحديث في ديوبند وانتقل إلى «دابهيل» وقع الاختيار على الشيخ حسين أحمد رئيساً للمعلمين ، وشيخاً للحديث في دار العلوم ، فاستقلَّ بتدريس الحديث ، ورئاسة المدرسة ، فحافظت على شهرتها ومركزها ، وثقة الناس بها ، وشمَّر عن ساق الجدِّ والاجتهاد في تدريس الحديث الشريف ، وفي بثِّ روح النَّخوة والإباء في المسلمين ، وجمع بين التدريس والعمل في المجال السياسي بهمَّةٍ نادرةٍ ، وقوَّة إرادةٍ ، وصرف همته إلى تأييد القضية الوطنية ، وأُلقي القبض عليه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ هـ ، وبقي معتقلاً نحو ثلاث سنوات ، وهو صابرٌ محتسبٌ ، متحمِّلٌ للأذى ، مشتغلٌ بالعبادة والإفادة في السِّجن ، حتى جاء الأمر بالإطلاق ، فعاد إلى ما كان عليه من كفاحٍ وجهادٍ ، وتعليمٍ وإرشادٍ ، وخدمة للبلاد والعباد ، وأعلن التقسيم سنة ١٩٤٧ م ، فانفجرت الحروب الطائفية ، ووقعت المذابح العظيمة في مدن الهند وقراها ، وأصبحت المراكز الدينية والثقافية في الهند في خطرٍ وزوالٍ ، فانقلب الشيخ واعظاً دينياً ، يثير في المسلمين الإيمان والثقة بالله ، والاعتزاز بالدِّين ، فقوَّت مواعظه وجولاته القلوب المنخلعة ، ورسخت الأقدام المتزلزلة ، وبقيت المراكز الثقافية والدينية على حياتها الأولى ، وبدأ المسلمون يزاولون حياتهم ونشاطهم باعتدالٍ وثقةٍ .

واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد ، وعكف على

الدرس والإفادة ، والدَّعوة إلى الله ، وتربية النفوس ، لا يتَّصل بالحكومة ورجالها ، وقد رفض رتبةً فخرية عرضها عليه رئيس الجمهورية ، وبقي يدرِّس الحديث الشريف ، ويتجوَّل في الهند يدعو المسلمين إلى التمسُّك بالدِّين ، واتِّباع الشريعة الغرَّاء ، واقتفاء السنن النبوية ، وإصلاح الحال ، والإكثار من ذكر الله ، حتى وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ ، وكان في آخر عمره غلبت عليه الحميَّة الدِّينية ، والغيرة للشَّرع ، والسنَّة النبوية ، فكان لا يتحمَّل تفريطاً فيها ، يشدِّد الإنكار على من خالف السنة ، أو استخفَّ بشعائر الإسلام(١) .

الشيخ العلامة خليل أحمد السهارنفوري :

الشيخ الكبير خليل أحمد الأنبيتهوي السهارنفوري الشيخ العالم الفقيه ، المحدِّث خليل أحمد بن مجيد علي الأنصار ، أحد العلماء الصَّالحين ، وكبار الفقهاء المحدِّثين .

ولد سنة تسع وستين ومئتين وألف (١٢٦٩ هـ) ، وقرأ العلم على خاله الشيخ يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي ، والشيخ مظهر النانوتوي ، وعلى غيرهم من العلماء في المدرسة العربية بديوبند ، وفي «مظاهر العلوم» بسهارنفور ، ودرس العلوم الأدبية على الشيخ فيض الحسن السهارنفوري في لاهور ، وعين أستاذاً في «مظاهر العلوم» في سنة أربع عشرة وثلاثمئة وألف ، وتولى رئاسة التدريس فيها ، واستقام على ذلك أكثر من ثلاثين سنة ، منصرفاً إليها انصرافاً كلِّيّاً ، وتولَّى نظارتها سنة خمس وعشرين وثلاثمئة وألف ، وصرف همته إليها ، ونالت به المدرسة القبول العظيم ، وطبَّقت شهرتها أرجاء الهند ، وأمَّها الطلبة من الآفاق إلى أن غادرها في سنة أربع وأربعين إلى الحرمين الشريفين ، فلم يرجع إليها .

وكان قد درس الحديث دراسة إتقانٍ وتدبُّرٍ ، وحصلت له الإجازة عن كبار المشايخ والمسندين ، كالشيخ محمد مظهر النانوتوي ، والشيخ

---

(١) ملخصاً من كتاب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» الجزء الثامن .

عبد القيُّوم البرهانوي ، والشيخ أحمد دحلان مفتي الشافعية ، والشيخ عبد الغني بن أبي سعيد المجددي المهاجري ، والسيد أحمد البرزنجي ، وعني بالحديث عنايةً عظيمةً تدريساً وتأليفاً ، ومطالعةً وتحقيقاً ، وكان من أعظم أمانيه أن يشرح سنن أبي داود ، فبدأ في تأليفه سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة وألف ، يساعده في ذلك تلميذه البار الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي ، وانصرف إلى ذلك بكل همَّته وقواه ، وعكف على جمع المواد وتهذيبها وإملائها ، لا لذَّة له ، ولا همَّ في غيره ، وأكبَّ على ذلك إلى أن سافر إلى الحجاز السفر الأخير في سنة أربع وأربعين وثلاثمئة وألف ، ودخل المدينة في منتصف المحرم سنة خمس وأربعين ، وانقطع إلى تكميل الكتاب حتى انتهى منه في شعبان سنة خمس وأربعين ، وتمَّ الكتاب في خمسة مجلدات كبار ، وطبع باسم «بذل المجهود في شرح سنن أبي داود» تُلقِّي بالقبول والتقدير ، وانتفع به مدرِّسو الحديث الشريف وتلاميذ هذا الفن ، وقد صبَّ فيه الشيخ مهجة نفسه ، وعصارة علمه ، وحصيلة دراسته ، وقد أجهد قواه ، وأرهق نفسه في المطالعة والتأليف ، والعبادة والتلاوة ، منقطعاً عمَّا سواه حتى أجاب داعي الله في المدينة المنورة.

نفع الله به خلقاً كثيراً ، وخرَّج على يده جمعاً من العلماء والمشايخ ، ونبغت بتربيته جماعةٌ من أهل التربية والإرشاد ، وأجري على يدهم الخير الكثير في الهند وغيرها ، في نشر العلوم الدينية ، وتصحيح العقائد ، وتربية النفوس ، والدعوة والإصلاح ، من أجلِّهم المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس بن إسماعيل الكاندهلوي الدَّهلوي صاحب الدعوة المشهورة المنتشرة في العالم ، والمحدِّث الجليل الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي السهارنفوري.

وكان رقيق الشعور ، ذكيَّ الحسِّ ، صادعاً بالحقِّ ، صريحاً في الكلام في غير جفاء ، شديد الاتِّباع للسنة ، نفوراً عن البدعة ، كثير الإكرام للضيوف ، عظيم الرفق بأصحابه ، يحبُّ الترتيب والنظام في كلِّ شيءٍ ، والمواظبة على الأوقات ، مشتغلاً بخاصَّة نفسه ، وبما ينفع في الدِّين ،

منتحياً عن السياسة مع الاهتمام بأمور المسلمين ، والحميَّة والغيرة في الدِّين ، حجَّ سبع مرَّات ، آخرها في شوال سنة أربع وأربعين من الهجرة.

كانت وفاته بعد العصر من يوم الأربعاء في السادس عشر من ربيع الآخر ، سنة ستة وأربعين وثلاثمئة وألف في المدينة المنورة ، وشيعت جنازته في جمع عظيم ، ورُئيت رؤىً صالحةً ، ودفن في البقيع لدى مدفن أهل البيت[1].

العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا بن الشيخ يحيى الكاندهلوي :

ومن أنجب تلامذته والمتخرِّجين عليه ، وأشهرهم ، شيخ الحديث العلامة محمد زكريا الكاندهلوي (م ١٤٠٢ هـ) شيخ الحديث بمدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ، وقد عاش عاكفاً على تدريس الحديث الشريف منقطعاً إليه ، مكبَّاً على شرح كتب الحديث ، قائماً بالتحقيق والإيضاح ، مستعرضاً لما قدَّمه الشرَّاح والمحققون مع عصارة دراسته وتحقيقه ، وكان بشخصه مجمعاً علمياً ، دائم الاشتغال ، كثير الإنتاج ، لا لذَّة له ولا رغبة إلا في تدريس الحديث الشريف ، والتأليف فيه ، له من شروح كتب الحديث والسنة «أوجز المسالك في شرح موطأ الإمام مالك» وجزء «العمرات» ، و«الخصال النبوية» في شرح شمائل الترمذي ، و«لامع الدراري في تقريرات البخاري» و«حجة الوداع» و«الأبواب والتراجم للبخاري» تلقيت بالقبول واستفاد بها واستعان بها مدرسو الحديث الشريف ، والعاكفون على تدريسه ، والتأليف فيه.

توفي رحمة الله عليه في المدينة المنورة ودفن في البقيع سنة ١٤٠٢ هـ.

هدف المكفرين والمبتدعين :

وقد ظلَّ «الديوبنديون»[2] من أول يومٍ إلى هذا العصر أكبر هدف

---

(١) ملخصاً من «الإعلام . .» : ج/٨ ، ص/١٤٦ ـ ١٤٨.

(٢) وهي عبارة عن أصحاب العقيدة السنِّيَّة الصَّحيحة في التوحيد ، واتباع السنة ، والاجتناب عن البدع.

للبريلويين[1] ، يلقبونهم بالوهابيَّة ، ويخرجونهم - إن استطاعوا - من الجوامع والمساجد ، ويطاردونهم ويقاطعونهم في القضايا العائلية والمناسبات الدِّينية والاجتماعية .

سِرُّ نجاح هذه المدارس :

وسرّ نجاح هذه المدارس - كديوبند وشقيقاتها - في أداء رسالتها ونشر الدين والعلم ، أنها لم تكن تنال مساعدةً من الحكومة ، وكانت قائمةً على أساس الزُّهد ، والتضحية ، والجهاد ، فأثار ذلك فيها روح المقاومة والجهاد ، وقوة العمل والنشاط ، ثم إنَّ أبناءها المتخرِّجين لم يكن لهم أمل - بطبيعة الحال - في وظائف الحكومة ، والرواتب الضخمة ؛ لأنهم تخرَّجوا من مدارس حُرَّةٍ لا صلة لها بالحكومة ، فألجأ ذلك أكثر المتخرجين إلى الانقطاع إلى الشعب دون الحكومة ، والتجرُّد للدَّعوة والخدمة دون المناصب والرواتب ، وهكذا وُجد دعاة متجرِّدون ، محتسبون متطوِّعون ، يقتنعون بالكفاف ، وينقطعون إلى الدَّعوة والرسالة ، فقاموا بأعمالٍ إصلاحيةٍ لا تقوم بها أكبر دولة .

قيادة حركة النضال ضد الحكم الإنجليزي :

وكان رئيس أساتذة دار العلوم ديوبند الشيخ محمود حسن (الذي اشتهر بعد بلقب «شيخ الهند») من كبار الحاقدين على الحكومة الإنجليزية ، ولا نعرف أحداً بعد السلطان «تيبو» من يبلغ مبلغه في عداء الإنجليز والاهتمام بأمرهم ، وكان من كبار أنصار الدولة العثمانية التي كانت زعيمة العالم الإسلامي ، وحاملة لواء الخلافة ، وكان من أكابر الدُّعاة إلى استقلال الهند ، وتأسيس الحكومة الوطنية الحرَّة ، وكان من الذين ملكتهم هذه القضية ، وتفانى فيها ، وحاول الاتصال بحكومة أفغانستان ، ورجال

---

(١) أتباع الشيخ أحمد رضا خان البريلوي (م ١٣٤٠ هـ) حامل لواء التكفير في شبه القارة الهندية ، وأشهر داعٍ إلى التمسك بالتقاليد البدعية والخرافية المنتشرة في الهند حول الأعراس والضرائح ، والأعياد ، والمواسم ، وإثبات علم الغيب للنبيِّ ﷺ والتصرُّف العام للأولياء والمشايخ ، وهو الذي أذاع لقب «الوهابي» في القارة الهندية .

الدولـة العثمانيـة ، كأنور باشـا وغيره ، وقد أسرتـه[1] حكومـة الشريف حسين سنة ١٩١٦ م في المدينة المنورة ، وسلمته إلى الحكومة الإنجليزية التي نفته وزملاءه وتلاميذه (الشيخ حسين أحمد المدني ، والشيخ عزيز كُل ، والحكيم نصرت حسين ، والأستاذ وحيد أحمد) إلى جزيرة مالطا سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م، مكثوا هنالك إلى سنة ١٣٣٨ هـ ـ ١٩٢٠ م وكان الشيخ عبد الباري الفرنكَي محلي مؤسس جمعية العلماء من كبار المتحمِّسين للقضية الوطنية ، ومن كبار قادة حركة الخلافة.

وبالرَّغم من أن هذه الثورة أو حرب التحرير ـ كما يصحُّ أن تسمَّى ـ كانت شعبيةً عامَّةً يقاتل فيها المسلمون والهنادك جنباً بجنب ، ولم تعرف الهند حماساً وطنياً ووحدةً شعبيةً قبل هذه ، كان للمسلمين السهم الأكبر في القيادة والتوجيه ، وكان منهم العدد الأكبر والأهم من القادة والزعماء ، وقد صرَّح السر وليم بأن جمرات الجهاد التي أشعلها السيد أحمد الشهيد ـ رحمه الله ـ (١٢٤٦ هـ) هي التي ألهبت نار هذه الثورة.

وقد كان من أكبر العلماء والمشايخ الذين قادوا الثورة ، وأشهرهم الشيخ أحمد الله ، والشيخ لياقت علي ، وهما اللذان تزعما الحركة ، وكان الجنرال نجيب خان هو القائد العام ، ونائب الملك[2] ، وكان للحاجِّ إمداد الله التهانوي ـ رحمه الله ـ ، والشيخ محمد قاسم النانوتوي ـ رحمه الله ـ ، والشيخ رشيد أحمد الكَنكَوهي ـ رحمه الله ـ ، والحافظ محمد ضامن الشهيد ـ رحمه الله ـ ، وغيرهم من العلماء والمشايخ سهمٌ فيها ، وخاضوا في بعض المعارك.

---

(١) وأخذ فعلاً رسائل من أنور باشا وجمال باشا في تأييد قضية الهند ، وكفاحها ضدَّ الإنجليز ، وحثّ الرعايا الأتراك على مساعدة الشيخ محمود حسن ، وقد دسَّها أصحاب الشيخ في جوف ألواح صندوق خشبي ، وملأه بقماش الحرير وأرسله إلى الهند حيث وصل إلى أصحابه ، ومن هنا اشتهرت القصة بالرسائل الحريرية ، وذكرها (ROWLATT) في تقريره المشهور.

(٢) كان من جماعة السيد أحمد الشهيد ـ رحمه الله ـ بايع أحد رجال طريقته ، وأخذ منه الشيخ العهد والميثاق لقتال الإنجليز.

ندوة العلماء ومعهدها:

ولما رأى بعض العلماء: أنَّ الهوَّة قد اتَّسعت جدّاً بين التعليم المدني والتعليم الدِّيني، وحدثت بين المتخرجين من المدارس الدينية، والمتخرجين من المدارس المدنية فجوةٌ وجفوةٌ، تتسعان على مرِّ الأيام حتى أصبح أولئك أمةً وهؤلاء أمةً، ولكل أمَّةٍ لغةٌ خاصَّةٌ، وثقافةٌ خاصَّةٌ، ونفسيَّةٌ متميِّزةٌ، لا يفهمها الآخر، بل أصبح التعليم الديني في وادٍ، والعصر الحديث في وادٍ، ولا جسر بينهما، وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الدِّيني ثقافةً أوسع، وأسلوباً للدَّعوة أرقى وأقرب إلى نفسية هذا العصر، واطلاعاً على ما تجدَّد من العلوم والأفكار، والمسائل والحاجات، أنشأ القائمون على ندوة العلماء ـ وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ العالم الرباني السيد محمد علي المونكَيري ـ (م ١٣٤٦ هـ) مدرسة دار العلوم في لكهنؤ سنة ١٣١٦ هـ، ورسالتها الجمع بين القديم الصَّالح والجديد النافع، والتصلُّب في العقيدة والمبادىء، والتوسُّع في الجزئيات والوسائل، وقد خرجت علماء ومؤلفين كانوا مُلتَقَى الثقافتين، وبرزخاً بين الطائفتين.

ومن التزامات ندوة العلماء ومدرستها التابعة لها أنَّها لا تقبل مساعدةً من الحكومة، وتقتصر على مساعداتٍ وتشجيعاتٍ شعبيةٍ، وعلى تضحية أساتذتها والعاملين فيها، واقتناعهم بالكفاف.

الشيخ العلامة السيد سليمان الندوي ـ رحمه الله ـ:

كان في مقدمة المتخرجين من دار العلوم التابعة لندوة العلماء، وفي طليعتهم، وعلى رأسهم، العلامة السيد سليمان الندوي الذي كان من كبار علماء العالم الإسلامي في عهده على الإطلاق، ومن كبار قادة الفكر الإسلاميِّ، ومن النوابغ والأدباء والكتَّاب، ومن قادة حركة التحرير.

وكان راسخاً في العلوم العربية وآدابها، عالي الكعب، دقيق النظر في علوم القرآن وعلم التوحيد والكلام، واسع الاطلاع، غزير المادة في التاريخ، وعلم الاجتماع والمدنيَّة، منشئاً، صاحب أسلوب أدبيٍّ في اللغة الأردية، كاتباً، مترسلاً في اللغة العربية، شارعاً مُقلاً في اللغتين، مع

إحسانٍ وإجادةٍ، حليماً صابراً يقهر النفس، ويتسامح مع الأعداء، والمعارضين ، ضعيف المقاومة في شؤونه الشَّخصية ، يتحمَّل ما يرهقه ، ويشقُّ عليه.

كان من كبار المؤلفين في هذا العصر ، ومن المكثرين من الكتابة والتأليف مع سعة علمٍ ، ودقَّة بحثٍ ، وتنوع مقاصد ، رأسَ مجمع دار المصنفين بأعظم جراه زمناً طويلاً.

له كتب ، قلَّما يوجد لها نظير في لغة من اللغات ، وكتاب «خطبات مدراس» (ترجمتها العربية «الرسالة المحمدية») و«سيرة عائشة» و«حياة مالك» و«أرض القرآن» و«صلات الهند ببلاد العرب» وغيرها من الكتب والرسائل و«الرسالة المحمدية» قلما يوجد لها نظير في القوة والتأثير.

وكان رحمه الله مع نبوغه في العلم ، وبراعته في التأليف ، وأسلوبٍ أدبيٍّ خاصٍّ في الكتابة ، واتساعٍ في الدراسة والمعلومات ، اعترف وأعجب به عدد من نوابغ العصر مثل شاعر الإسلام العلامة الدكتور محمد إقبال وغيره. صاحب صلاحٍ ، ودينٍ ، واستقامةٍ ، وإنابةٍ ، واتباع للشريعة والسنة ، حريصاً على نهضة الإسلام والمسلمين ، داعياً إليها.

كانت وفاته في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة وألف (١٣٧٣ هـ) في كراتشي ، وشيعت جنازته بجمع حافلٍ من العلماء والأعيان ، ودُفن قريباً من ضريح العلامة شبير أحمد العثماني ـ رحمه الله تعالى ـ.

منهج ندوة العلماء:

تقوم فكرة ندوة العلماء ودعوتها في الدين والعقيدة ، على الدِّين الخالص ، النقي من الشوائب ، البعيد عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وعلى العودة في تلقِّيه ، وفهمه ، وتفسيره إلى منابعه الصافية الأولى ، ومصادره الصحيحة الأصيلة ، وفي العمل والسلوك على التمسُّك بلباب الدين ، والعمل بأحكامه ، والتحلِّي بحقيقته وروحه الربَّانية المشرقة الصافية ، وفي تصوُّرها للتاريخ على أن خير

العصور هو العصر الذي ظهر فيه الإسلام ، والجيل المثالي هو الجيل الذي نشأ في أحضان النبوة ، وتخرَّج في مدرسة القرآن والإيمان الأولى.

وأنَّ السعادة كلَّ السعادة في الرجوع إليه ، والاقتداء به ، وفي نظرتها العلمية ، وفلسفتها التعليمية على أنَّ العلم وحدةٌ لا ينقسم إلى قديمٍ وحديثٍ ، وشرقيٍّ وغربيٍّ ، وإن انقسم فإنما ينقسم إلى صوابٍ وخطأ ، ونافع وضارٍّ ، وأصولٍ وفضولٍ ، وغاياتٍ ووسائل ، وفي موقفها من الأخذ والترك ، والانتفاع والاقتباس على التعليم النبوي الحكيم: «الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها» وعلى المبدأ القديم الحكيم «خُذ ما صفا ودع ما كدر» وفي مجال الدفاع عن الإسلام ، ومواجهة تحدِّيات العصر ، على الإرشاد الرَّبانيِّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وفي أسلوب الدَّعوة إلى الله ، وعرض محاسن الإسلام ، وإقناع العقول على الوصية الحكيمة المأثورة: «**كلموا الناس على قدر عقولهم أتريدون أن يكذب الله ورسوله**» وفيما اختلف فيه السَّلف من مذاهب وآراء على التحقيق والتطبيق ، وإحسان الظنِّ بهم ، والتماس العذر لهم ، وترجيح ما هو أوفق بالكتاب والسنَّة ، وأقرب إلى جمع الشَّمل ، وأبعد عن الفرقة والتنافر ، وأقرب إلى مصلحة الإسلام الاجتماعية ، وبالجملة فهي أقرب إلى مدرسة حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦ هـ العلمية والفكرية ، والكلامية والفقهية.

وبذلك فندوة العلماء مدرسةٌ فكريةٌ شاملةٌ أكثر من مركزٍ تعليميٍّ يقتصر على تعليم الكتب ، أو العلوم واللغات.

الاتصال والعناية بالعالم العربي المسلم:

وكان من توفيق الله تعالى ، ونتيجة اتصال المتخرِّجين من دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، الوثيق القريب بالأقطار العربية الإسلاميَّة ، وما يصدر من أقلام كُتّابها وقادتها السياسيين ، والثقافيين ، والأدباء والمثقفين من كتب ورسائل ، تدلُّ على وجود مركّب النقص فيما يتصل بصلاحية الإسلام وتعاليمه لقيادة هذا العصر المتقدِّم في العلوم والفنون ،

والصناعة والإبداع ، وما طرأ على الشعوب والمجتمع من تطوراتٍ وثوراتٍ ، ومقاومة ، وما ظهر في كتاباتهم من كون «العلمانية» هي الملجأ الوحيد ، والطريق السديد لقيادة الشعوب والبلاد ، وكون كثيرٍ من القادة والكتَّاب العرب فريسة «القومية العربية» التي تدعو إلى اللجوء إلى العهد الجاهلي الذي لم يكن فيه فصل بين الأديان ، وبين الكفر والإيمان.

وفَّق الله مجموعةً من المتخرجين منها، والمنتمين إليها إلى الدعوة الإسلاميَّة الصَّريحة الواضحة ، والفكرة الإسلاميَّة الأصيلة الصَّحيحة في العربية ، وصدرت من دار العلوم مجلـةٌ إسلاميَّة ، صريحـةٌ ، قويَّـةٌ ، وهي «البعث الإسلامي»[1] وصحيفة نصف شهرية وهي صحيفة «الرائد»[2] وصدر من قلم مدير ندوة العلماء رسائل وكتبٌ صريحةٌ قويَّةٌ ، نالت إعجاب القراء العرب ، واعترافهم[3] ، نذكر بعضها على سبيل المثال الذي فيه خطابٌ صريحٌ بليغٌ إلى القادة والمثقفين العرب، وهي: «إلى الراية المحمَّدية أيها العرب» «اسمعوها مني صريحةً أيها العرب» و«أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين» و«كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية» و«اسمعي يا مصر!» و«اسمعي يا سورية!» و«اسمعي يا زهرة الصحراء!» و«العرب والإسلام» و«إلى الإسلام من جديد» و«أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟!» و«كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم؟» و«كيف دخل العرب التاريخ» لكاتب هذه السطور ، و«الإسلام الممتحن» و«المنهج الإسلاميُّ السليم» و«تناقضٌ تحار فيه العيون وتطابقٌ يسرُّ به المؤمنون» و«إلى القيادة العالميَّة» للمرحوم الأستاذ محمد الحسني منشىء مجلَّة «البعث الإسلاميِّ».

ومن توفيق الله تعالى للمتخرِّجين من هذه المؤسَّسة والمسؤولين تمَّ وضع منهـجٍ دراسيٍّ للُغـة العربيَّـة ، والأدب العربـيِّ ، يجمـع بين الدِّيـن والأدب ، بغرس العقيدة الإسلاميَّة وتحسينها ، والإعجاب بها في نفوس

---

(١) رئيس تحريها الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي.

(٢) رئيس تحريرها الأستاذ واضح رشيد الندوي.

(٣) وقد بلغ عدد هذه الرسائل الدعوية باللغة العربية إلى أكثر من سبعين (٧٠) رسالة.

الأحداث والناشئة الإسلاميَّة من حيث إنَّها لا تشعر بثقلها ، لذلك قال بعض كبار الأدباء والكتَّاب الإسلاميين: إنَّه «علم الكلام للأطفال»[١] واعترف بإبداع هذا الأسلوب وطرافته بعض كبار أدباء العرب ، ومؤلفيهم ، كالأستاذ سيِّد قطب الشهيد ـ رحمه الله تعالى ـ ، والأستاذ علي الطنطاوي[٢] .

ومنها إنشاء مجمع علميٍّ إسلاميٍّ ينشر كتباً تحارب مُركّب النقص في نفوس المثقفين والمتخرِّجين من الجامعات ، و«التقدُّميين» من الشباب ، وينشىء الثقة بصلاحية الإسلام للقيادة العقائديَّة ، والثقافيَّة ، والفكريَّة لكلِّ زمانٍ ، ويقدِّم نماذج من الدَّعوة الإسلاميَّة والعصامية والعبقرية ، ويُبرهن على أنَّ الإسلام دينٌ خالدٌ ، وعلى أنَّه لم يخل زمانٌ أو مكانٌ من النوابغ الإسلاميِّين والعبقريِّين المصلحين[٣] .

الدَّعوة الدينية العالمية المعروفة بحركة التبليغ :

لقد رأى الشيخ محمد إلياس (م ١٣٦٣ هـ) ما أصاب المسلمين من التحلُّل والإفلاس في الإيمان ، والرُّوح ، والشعور الدِّينيِّ في هذه المدَّة ، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزيَّة ، والحضارة الغربيَّة ، والتعليم المدنيُّ ، وغفلة الدُّعاة ، والاشتغال الزائد بالحياة ، والانهماك بالمادَّة حتى صارت المدارس الشرعيَّة ، والأوساط الدينيَّة ، كجزرٍ في بحرٍ محيطٍ ، وأصبحت تتأثَّر ولا تؤثِّر بضعفها وعزلتها عن الحياة ، فرأى أنَّ التعليم وحده لا يكفي ، والاعتزال لا يفيد ، والانزواء لا يصحُّ ، ولا بدَّ من الاتصال بطبقات الشعب ، ولا بدَّ من التقدُّم إليها من غير انتظار ، لأنَّها لا تشعر بمرضها ، وفقرها في الدِّين ، ويجب أن يُبتدأ بغرس الإيمان في

---

(١) كالأستاذ الأديب الكبير والفيلسوف الشهير الشيخ عبد الماجد الدريابادي .

(٢) كسلسلة «قصص النبيين للأطفال» و«القراءة الراشدة» و«مختارات من أدب العرب» للعلامة الندوي، و«منثورات» و«مختار الشعر العربي» و«الأدب العربي بين عرض ونقد» للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي . وقد صدر من «دار ابن كثير» بدمشق .

(٣) كسلسلة كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» و«روائع إقبال» للعلامة الندوي .

القلوب ومبادىء الإسلام ، ثم الأركان ، والعلم ، والذِّكر ، مع مراعاة الآداب التي تقوِّي هذه الدعوة، وتحفظها من الفتن ، منها إكرام كلِّ مسلم ، ومنها عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الدَّاعي ، وترك ما لا يفيد ، وقد دعا إلى هذا النظام بكلِّ قوَّةٍ ونفوذ ، ودعا إلى الخروج في سبيل هذه الدَّعوة ، وبثِّها في القرى والمدن.

وبدأ دعوته بمنطقة هي أحطُّ المناطق الهندية خُلُقاً ، وأبعدها عن الدِّين، وأعظمها جهالةً وضلالةً ، وهي منطقة «ميوات» في جنوب دهلي عاصمة الهند ، ودعا الناس فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم ، والخروج من أوطانهم لمدَّةٍ محدودةٍ ، قد تكون شهراً ، وقد تكون أكثر من ذلك ، وعرف أنهم لا يتعلَّمون الدِّين ، ولا يتغيَّرون في الأخلاق إلا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذي يعيشون فيه.

وقد قبل دعوته مئاتٌ وألوفٌ من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً ، وقطعوا مسافاتٍ بعيدةً ما بين شرق الهند وغربها ، وشمالها وجنوبها ، ركباناً ومشاةً ، فتغيَّرت أخلاقهم ، وتحسنَّت أحوالهم ، واشتعلت عواطفهم الدِّينيَّة ، وانتشرت الدَّعوة في الهند وباكستان من غير نفقاتٍ باهظةٍ ، ومساعداتٍ ماليَّة ، ونظمٍ إدارية ، بل بطريقةٍ بسيطةٍ تشبه طريقة الدَّعوة في صدر الإسلام ، وتذكِّر بالدُّعاة المخلصين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون في سبيل الدَّعوة والجهاد متاعهم ، وزادهم ، وينفقون على أنفسهم ، ويتحمَّلون المشقة محتسبين متطوعين.

وانتشرت الدعوة ، وتغلغلت في عدَّة قاراتٍ ، وأمكنةٍ بعيدةٍ ، وكانت لها جولاتٌ في آسيا ، وأوربة ، وأمريكا ، وإفريقية ، واستراليا ، تغيَّرت بها حياة القائمين بها ، والمواجهين لها ، وكان فيها إقبالٌ على العناية بالدِّين ، ودراسته والتطوُّع له(١).

---

(١) للعلاَّمة الندوي ملاحظات وتجارب وتوجيهات في موضوع الدَّعوة والقائمين بها ، يُطَّلع عليها في رسالته: «ترشيد الصَّحوة الإسلامية» طبع المجمع العلمي الإسلامي ، ندوة العلماء.

وجماعة التبليغ والدَّعوة معروفةٌ في طول الهند وعرضها ، وفي بنغلاديش، وباكستان ، بأنَّها جماعةٌ وهابيَّةٌ تدعو إلى منابذة التقاليد الشركية ، ومحاربة القبوريين ، وإنَّ أشدَّ الناس عداوة لجماعة التبليغ هم الطائفة البريلوية المبتدعة الخرافية ، التي تنتمي إلى الشيخ أحمد رضا خان ، التي تناصبها العداء وتتَّهمها بالعمالة للحركة الوهابية ، وتحارب كتاب «تقوية الإيمان»(١) للإمام إسماعيل الشهيد ، ولا تدع هذه الجماعة تدخل في مناطقها ومساجدها ، وقد تشعل حرباً ، وتتعدَّى ضرباً لأصحابها ، شأنهم في هذا شأن الجاهليين الذين كانوا يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ولكن يشهد الله بأنَّ كلَّ هذه المحاولات والاتهامات ، والمناوشات لا تزيد الجماعة إلا صبراً ، واستقامةً ، فيجازيهم الله تعالى بقلب الأحوال ، وتغيير النفوس والقلوب ، فكم من مبتدعةٍ عادوا إلى حظيرة السنَّة ، وكم من واقعين في الشِّرك عادوا إلى التوحيد الخالص ، وكم من ضُلَّلٍ اهتدوا إلى الحقِّ ، يشهد بذلك ويراه رأي العين كلُّ من يجول في هذه المناطق والقرى والأحياء ، وإن كان هناك من مآخذ على بعض المنتمين إلى الجماعة ، فذلك يرجع إلى تقصيرهم ، وقلَّة استيعابهم، وفهمهم للأسس، والأهداف ، والمناهج .

يجب التركيز على مقاومة التحدِّيات والأخطار للكيان الإسلامي:

ثمَّة الظروف العصيبة التي يعيشها المسلمون ، والمخاطر المحدقة بهم ، والتحدِّيات التي يواجهونها ، لا تسمح بالانشغال بقضيةٍ من القضايا الفرعية التي درست ، وأفتى بموجبها العلماء لمذهبٍ من المذاهب الفقهية ، ويُعمل بموجبها منذ قرون ، ومحاربة مدرسةٍ فقهيةٍ لأجل قضيةٍ ليست جوهريةً ، ولا تمسُّ العقيدة ومبدأ التوحيد ، وهذا ليس ممَّا يأتي بأيِّ

---

(١) اقترح نقلها إلى العربية وأمر به العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ابن أخ الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ـ رحمه الله تعالى قد طُبع محقَّقاً في دار وحي القلم بدمشق .

خيرٍ للأمَّة ، فالجهود يجب أن تبذل في إصلاح المفاسد الخُلقية ، والعقائد الباطلة ، والبدعات ، والتقاليد الخرافية .

أما المسائل الّتي يعتمد عليها المسلمون المؤمنون بالتَّوحيد ، وهم معروفون باتجاهاتهم المختلفة ، وتمسُّكهم بآداب الشَّريعة ، واحترازهم عن المحرمات حسب المستطاع ، فمحاربتهم لأجل خلافهم الفقهي في مسألةٍ من المسائل الفرعية ، وجعلهم عرضةً للحملات الجائرة ، ليس إلا كما قلت في بحثي «المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف»(١) «**جهادٌ في غير جهاد ونضالٌ من غير عدو**» .

ويعرف من عنده شيء من الخبرة والاطِّلاع على المشاريع والتصميمات عند الأكثرية غير المسلمة في الهند : أنَّ هناك مخططاً دقيقاً وحاسماً لإبادة الشعب المسلم الهندي ، فكرياً ، وثقافياً ، واجتماعياً ، وحضارياً ، ولغوياً في المرحلة الأولى ، ثم إبادة الشعب المسلم دينياً ، وعقائدياً ، وتحويل هذا القطر «الهندي الكبير» الذي حكمه المسلمون نحو ثمانية قرون ، وخدموه ، ورقوه حضارياً ، وثقافياً ، وإدارياً وعقائدياً إلى الأندلس (إسبانيا) الثانية ، فليكن هذا الخطر موضع تأمل وكفاح ، الذي بدت أماراته وطلائعه واضحةً بإنجازاتٍ كثيرةٍ وتحويلاتٍ عديدةٍ في المقرَّرات الدِّراسيَّة ، وإلزام اللغة الهندية ، وإبعاد اللغة الأردية ، وبالتدخُّل في قانون الأحوال الشَّخصية الخاصِّ بالمسلمين ، وبما تنشره الصُّحف والمجلاَّت الإنجليزية والهندية ، وبما يعلنه قادة الحركات الطائفية والإقليمية ، حتى رؤساء الوزارات في بعض المقاطعات من مشاريع ، وقرارات ، وإنجازات ، فلا مبرِّر للتغاضي عن هذه الحقائق الرهيبة ، والانشغال بالفرعيات ، والقضايا الجانبية ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر .

❊ ❊ ❊

---

(١) قد صدر من دار ابن كثير بدمشق .

نحو تكوين إسلامي جديد(١)

إنَّ العالم الإسلاميَّ حائرٌ اليوم بين دينٍ لا يسهل عليه العمل به ، والقيام بمطالبه لعاداتٍ نشأ عليها ، وحكوماتٍ أفسدته ، وتعليمٍ أذابه ، وشهواتٍ لا تتَّفق مع عقيدته ، ورسالته ، وبين جاهليةٍ لا ينشرح لها صدره لإيمانٍ لا يزال له بقيةٌ فيه ، وقوميةٍ عُجنت مع الإسلام ، وحضارةٍ تخمَّرت مع الدِّين .

إنَّ العالم الإسلاميَّ حائرٌ بين شعوبٍ مسلمةٍ بسيطةٍ في عقليتها ودينها ، وحكوماتٍ لم تنشرح صدور رجالها لهذا الدِّين ، ولم تطاوعهم نفوسهم على العمل به ، ولكنَّهم يُصِرُّون على أن يحكموا هذه الشعوب التي تؤمن بهذا الدين ، ولا يرون حياتهم وشرفهم إلا في البقاء في الحكومة ، ولا يرون لهم محلاًّ في الحياة إلا الزعامة والحكومة ، ولا موضعاً في العالم إلا المجتمع الإسلاميَّ الذي ولدوا ونشؤوا فيه ، فالشعوب في تعبٍ منهم ، وهم منها في بلاءٍ وعناء .

إنَّ العالم الإسلاميَّ حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذي يدفعه إلى الإيمان ، والجهاد ، والكتاب الذي يقبل به على الآخرة ، ويبعث في نفسه الثورة على المجتمع الفاسد ، والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية؛ التي تزيِّن له المادِّيَّة ، وتطبعه على الجبن ، والضعف ، والزعامة التي تفرض عليه الاتكال على الغير ، والاعتماد على العدوِّ ، والفرار من الزحف .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها العاشر ، المجلد الثالث والثلاثون ، عام ١٩٨٩ م .

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شبابٍ ثائرٍ ، ودمٍ فائرٍ ، وذهنٍ متوقِّدٍ ، وأزهار تريد أن تتفتَّح ، وبين قيادةٍ شائخةٍ شائبةٍ قد أفلست في العقلية ، والحياة ، وحُرِمت الابتكار ، والإبداع ، والشجاعة ، والمغامرة .

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين مواد خامٍ من أقوى الموادِّ وأفضلها في الإيمان والقوة ، والشجاعة ، وبين موجهين ، وصناعيين لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها ، ولا ماذا يصنعون منها .

هذا هو العالم الإسلاميُّ؛ الذي يواجه العالم اليوم ، فلا يجد غناءه ، ولا يجد فيه غوثاً ومعقلاً عن لصوص العالم المنظمين ، وذئاب الإنسانية التي تحكَّمت ، وعاشت فيها .

ثمَّ هذا العالم العربيُّ . . إنَّه اليوم مع كلِّ أسف أضعف أعضاء جسم العالم الإسلاميِّ ، وقد كان واجباً أن يكون أقواها ، وأصحَّها ، وأن يكون في العالم الإسلامي بمنزلة الرأس أو القلب من البدن ، وقد تضافرت عليه عوامل الإفساد ، والضعف ، فأحدثت فيه عللاً كثيرةً ، وقد ولد فيه ضعفُ الحكم التركي وغفلتُه عن تعليم الشعوب وتربيتها ، وإنفاقُ الأموال في غير موضوعٍ ، وعسفٌ في غير هوادة ، أورث كلَّ هذه البطالة ، وسقوط الهمَّة ، والجهلَ المطبق في كثيرٍ من البلاد العربية ، وجاء الاستعمار الأوروبيُّ فأورث التفسخ في الأخلاق ، والانحلال في الدِّين ، والاندفاع المتهوِّر إلى المادية ، والتهالك على الشهوات ، وقامت الحكومات الشخصية ، فأورثت التملُّق ، وكثرةَ المجاملات ، والنِّفاق ، والخنوع للقوَّة والمادَّة ، ثم جنى عليه قربه من أوربة ، فكان هدفاً لتياراتها المدنية ، ومنتجاتها الصناعية ، وأفكارها المتطرفة ، فأساء إليه موقعه الجغرافي ، وأهمِّيته السياسية والاستراتيجية ، فلجَّ به الغرب ، وطمع فيه الاستعمار ، وطوقته الجنود الأجنبية ، وكان من بقايا الحضارة الشرقية ، والنظام الإقطاعي ، والحكم الشخصي المترف ، والبذخ ، والتفاوت الشديد بين الطبقات في المعيشة ، ثم كان أن خفت في العالم العربي صوت الدعوة الدينية من زمان ، وانقرض الرجال الذين كانوا يكافحون المادية ويكبحون جماحها ،

ويلطفون من حدَّتها بدعوتهم إلى الله ، وإلى الآخرة ، وإلى الزهد والاعتدال في الحياة ، وقمع الشهوات ، ويشعلون جمرة الإيمان ، واستسلم العلماء ورجال الدين إلى تيار الغرب ، وتغيُّرات العصر ، فوضعوا أوزارهم للمدنية الغربية ، وهجم عليه الأدب الشهوانيُّ والصحافة الماجنة ، فحلَّت العقد ، ونفخت في الشهوات ، واجتمع بعض ذلك إلى بعض ، حتَّى أصبح هذا العالم منحلاًّ منهاراً متداعياً ، لا يمسكه الإيمان ، ولا تحفظه القوة المعنوية ، ولا تقف في طريق اندفاعه دعوةٌ قوية.

في مثل هذه الفترات المظلمة ، والسحب المتراكمة كان الله يبعث الأنبياء والمرسلين في الزمن السابق ، ولكن بعد نبوة محمد ﷺ؛ التي لم تكسف شمسها ، ولم يتوار نورها ، وأنَّ دينه لا يزال حيّاً ، وأنَّ الكتاب الذي جاء به لا يزال محفوظاً ، وأنَّ أمته التي أرسلت معه لتبليغ رسالته ، والقيام بدعوته لا تزال على وجه الأرض ، ولا تزال فيها الحياة والروح ، لقد أغنانا الله بفضل دينه المحفوظ ، وكتابه المتلوِّ ، ونبوَّة محمَّدٍ ﷺ الخالدة عن رسالةٍ جديدةٍ ، ورسولٍ جديدٍ.

ولكن لابدَّ من تجديدٍ واسعٍ ، ودعوةٍ صارخةٍ ، وكفاحٍ شديدٍ يغيِّر هذا الوضع الجاهليَّ الذي تورَّط فيه العالم الإسلاميُّ تورطاً قبيحاً ، وأمعن فيه العالم العربيُّ إلى أبعد حد ، وقد وعد الله ، وأخبر رسوله باستمرار هذه الدعوة الإسلامية ، وبقاء التجديد ، ودوام الكفاح في تاريخ الإسلام ضدَّ الجاهلية؛ التي ترفع عقيدتها زمناً بعد زمن ، وحيناً بعد حين ، وقد أصبح خطب العالم الإسلاميِّ ، وفساد أحوال المسلمين وانحرافهم عن جادة الإسلام ، وطغيان بحر المادية أعظم ، وأوسع من أن يتدارك بجهودٍ فرديَّةٍ ، وخطب منبريةٍ ، ودروسٍ دينيَّةٍ ، ومباحث فقهيَّةٍ ، ومسائل جزئيَّةٍ ومحاربة الأفراد والأشخاص ، إنَّ السيل لا يمسكه إلا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه ، فلابدَّ من كفاحٍ عنيفٍ وصراعٍ شديدٍ يغيِّر مجرى الزمن ، ويقلب تيار الحياة من جهةٍ إلى جهةٍ ، ويحدثَ انقلاباً في المجتمع ، والحياة ، وفي الأذواق ، والرغبات ، وفي قيم الأشياء ، وموازينها.

ليس خطب الدَّعوة الدينية ، والتجديد الإسلاميِّ بهيِّنٍ ، فليس رسالتها ومهمتها قلب نظامٍ ، أو تغيير وضعٍ سياسيٍّ بوضع سياسي آخر ، ونظام اقتصاديٍّ بنظامٍ اقتصاديٍّ آخر ، ولا نشر الثقافة والعلم ، ومكافحة الأميةً والجهل ، أو محاربة البطالة والتعطُّل ، أو معالجة عيوبٍ اجتماعيَّةٍ أو خلقيةٍ ، إلى غير ذلك مما يقوم له الدعاة والمصلحون في أوربة ، وفي الشرق ، وإنَّما هي دعوة الإسلام التي تشمل العقيدة ، والأخلاق ، والأعمال ، والعبادة ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتتناول العقل ، والقلب ، والروح ، والجسم ، وتعتمد على تغيُّرٍ عميقٍ في القلب ، والنفسية ، والعقيدة ، والعقلية ، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلمٍ ، أو صحيفةٍ ، أو كتابٍ ، أو منصَّة خطابٍ ، وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة.

هذه الدعوة كانت جديرةً في الحقيقة بالأنبياء ، ومواهبهم ، وقواهم ، ورسالتهم ، وإيمانهم ، وجهادهم ، وثباتهم ، وفقههم ، وحكمتهم ، وإخلاصهم ، ولكنَّها ليست خاصَّةً بالأنبياء ، بل هي دعوة خلفائهم ، وأتباعهم كذلك ، ودعوة كلِّ عصرٍ ومصرٍ . . وحاجة الإنسانية كلِّها ، والعصور كلِّها . . فلابدَّ أن تجدَّد في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ محيط . وتكون على أساس دعوتهم مطابقة لسيرتهم . . . مقتبسة من مشكاتهم ، فلنرجع إلى هذا المصدر ، ولندرسه دراسةً عميقة .

وإذا تتبعنا سيرة الأنبياء عليهم السَّلام في دعوتهم رأينا جوانب كثيرةً تمتاز بها سيرتهم ، وتقوم عليها دعوتهم عن تلك التي تميَّز بها القادة والمصلحون من عامَّة البشر .

١ ـ الالتجاء إلى الله في جميع مراحل الدَّعوة والجهاد . . . بل في جميع مراحل الحياة . . والاطراح على عتبة عبوديته اطراح الفقير الكسير ، والارتماء في أحضان رحمته ارتماء الطفل الصغير في أحضان أمِّه ، والإيمان القوي بأنَّه هو النافع الضارُّ ، والنَّاصر الخاذل ، وأن لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا كاشف لضرِّه ، ولا ممسك لرحمته ،

ولا سهل إلا ما جعله سهلاً ، وهو يجعل الحزن سهلاً ، وينصر الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، والضعيف مع نصره قويٌّ ، والقليل مع رحمته كثيرٌ. هذا الإيمان كان يوحي إليهم بالابتهال في الدُّعاء ، وإطالة الوقوف ببابه ، وشدَّة الالتزام بأعتابه ، والإلحاح في المسألة ، وبذلهم المعاني العجيبة ، والتعبيرات الرقيقة ، ولننظر إلى قول سيد الأنبياء ، وسيد الدُّعاة إلى الله إلى يوم القيامة وهو يمثل خير تمثيل لإيمانه ، وشعوره بفقره ، وضعفه ، وافتقاره إلى رحمة الله: «**اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني! وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، وأنا البائس ، الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل ، المشفق ، المقرُّ بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف ، ودعاء مَنْ خضعت لك رقبتُه ، وفاضت لك عبرته ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً ! وكن لي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين!**» ولنذكر دعاءه ﷺ في الطائف ، وقوله: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلَّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين! إلى من تكلني ، إلى عدوٍّ يتجهَّمني ، أم إلى قريبٍ ملَّكته أمري ، إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي ، غير أنَّ عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدُّنيا والآخرة من أن يحلَّ بي غضبك ، أو ينزل عليَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ، ولا قوة إلا بك**».

ونذكر موقفه في بدر، قال ابن إسحاق: ثمَّ عدَّل رسول الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش ، فدخل ومعه فيه أبو بكر ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربَّه ما وعد من النصر ، ويقول فيما يقوله: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد!**».

هذه كانت عدَّة الأنبياء عليهم السَّلام ، وقوتهم ، ومفتاح دعوتهم ، فقد امتازت دعوتهم بتقديم الدُّعاء والاهتمام به ، والابتهال فيه ، وليس الدُّعاء إلا رمزاً للإنابة إلى الله ، والاعتماد عليه ، والاعتزاز به ، فامتازت دعوتهم وجهادهم في سبيلها بطابعهما الرُّوحي ، والإيماني ، وقد روي أنَّه كان ﷺ

إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وقال تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ولاشكَّ أنَّ جهاد الدعوة أعظم من أن يضطلع به الإنسان بقوَّته الجسدية ، وعدَّته المادية ، وكفايته العقلية ، والعلمية ، ولا يستقلُّ به إلا بالقوة الروحية ، ونصر الله ومعونته ، وإن هذه الصخور العظيمة بل الأطوار الشامخة التي تقف في سبيل الدَّعوة ، وتهجم على رؤوس الدعاة ، وتصطدم بجهودهم لا تذوب إلا بنصر الله الذي يستنزل بالدُّعاء ، والالتجاء إلى الله.

٢ ـ امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجرُّدها من التفكير في المنافع المادية ، والثمرات العاجلة ، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله ، وامتثال أوامره ، وتأدية رسالته ، تجرَّدت عقولهم ، وأفكارهم من العمل للدنيا ، ونيل الجاه ، وكسب القوَّة لأسرتهم ، أو أتباعهم ، والحصول على الحكومة. . وحتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم وأتباعهم ، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها ، والقوَّة التي حصلت لهم في دورها؛ لم تكن إلا جائزةً من الله ، ووسيلةً للوصول إلى أهداف الدِّين ، وتنفيذ أحكامه ، وتغيير المجتمع ، وتوجيه الحياة ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] ولم تكن هذه الحكومة قطُّ غايةً من أهدافهم ، أو حديثاً من أحاديثهم ، أو حلماً من أحلامهم ، إنما كانت نتيجةً طبيعيةً للدَّعوة ، والجهاد ، كالثمرة التي هي نتيجةٌ طبيعيةٌ لنموِّ الشجرة ، وقوة إثمارها ، وقد قال كاتب هذه السطور في رسالته: «بين الهداية والجباية» ما يحسن نقله هنا:

«بعث محمد ﷺ فدعا الناس إلى الإسلام ، فالتفَّ حوله ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥]. وكان هؤلاء الفتيان هدف كلِّ قسوةٍ ، وظلمٍ ، واضطهادٍ ، وبلاءٍ ، وعذابٍ ، وقد قيل لهم من قبل ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ

أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون ۝ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكذبين﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣]. فصمدوا لكل ما وقع لهم، وثبتوا كالجبال، وقالوا: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٢٢]. حتى أذن الله في الهجرة ولم تزل الدعوة تشقُّ طريقها، وتؤتي أكلها، حتى قضى الله أن يحكم رجالها في العالم، ويقيموا القسط، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فقد عرف: أنَّهم إذا تولوا، وسادوا ﴿أقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [الحج: ٤١].

وهكذا جاءت الدَّعوة بالحكومة، كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات هذه الدَّعوة الإسلامية، ولم تكن هذه العزَّة والقوَّة إلا نتيجة ذلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريش، وغيرهم، وذلك الهوان الذي لقوه في مكَّة، وغيرها.

وفرقٌ كبير بين الغاية التي تقصد، والنتيجة التي تظهر، ويظهر هذا الفرق في نفسية العامل والسَّاعي، فالذي يقصد الحكومة يتوانى، ويقعد إذا لم ينلها، أو انقطع أمله فيها، ويشتغل بها عن الدعوة، ويطغى إذا نالها، وخطرٌ على كلِّ جماعة تتكون عقليتها بحب الحكومة، والسعي لها أن تقعد عن الجهاد في سبيل الدَّعوة، أو تنحرف، وتزيغ في قصدها؛ لأنَّ أساليب الوصول إلى الحكومة تخالف أساليب الدَّعوة، فيجب علينا أن ننقي عقولنا، ونفوسنا، ونجرِّدها للدَّعوة، وللدَّعوة فحسب، والخدمة، والتضحية، والإيثار، وإخراج الناس بإذن الله من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان المحرَّفة، والنظم الجائرة، والمذاهب الغاشمة إلى عدل الإسلام وظلِّه، ولا يكون دافعنا إلى العمل والجهاد إلا امتثال أمر الله، والفوز في الآخرة، وما أعدَّ الله لعباده من الأجر والثواب، ثم الشفقة على الخلق، والرحمة بالإنسانية المعذَّبة، والحرص على نجاة الإنسان، فإذا كان ذلك لا يمكن في مرحلةٍ من مراحل الدَّعوة، أو في فترة من

فترات التاريخ - بعد تغلغل مبادىء الدَّعوة في نفوس الدُّعاة، ورسوخ العقيدة فيهم - إلا بالحكومة سعينا لها بمصلحة الدَّعوة، والدين، كما نسعى إلى الماء للوضوء، ونجتهد لهذا السبب بنفس العقلية، وبنفس السيرة، وبنفس العفَّة والنزاهة، والصِّدق، والأمانة، والخشوع، والتجرُّد الذي نجتهد معه لواجبات الدين، وأركانه، والعبادات الأخرى، فلا فرق للمؤمن بين الحكومة، وبين العبادات إذا حصل الإخلاص، وصحَّت النية، فكلٌّ في رضا الله، وكلٌّ في سبيل الله، وكلٌّ عبادة يتقرَّب بها العبد إلى الله.

٣ - ومما امتازت به حياة الأنبياء وسيرتهم النبوية المثابرةُ على الدَّعوة، والصبرُ عليها، فلا يتخطَّون هذه المرحلة التي هي الأساس بسرعةٍ وعجلةٍ، ولا يطفرون منها طفراً إلى مرحلةٍ أخرى، بل يقضون فيها سنين طوالاً، ولا يشتغلون بغيرها، ولا يطمئنُّون إلى أنَّ المجتمع قد عقل دعوتهم، واستساغها، ولا إلى الدعاة أنهم قد بلَّغوا رسالتهم، وأدَّوا مهمَّتهم، ولا إلى النفوس أنَّها قبلت هذه الدعوة، وهضمتها هضماً صحيحاً، وأحلَّتها منها محلاً لائقاً، وأنست النفوس باتِّباع الأحكام، وانقادت لها جماحها، ولانت لها قناتها، لا يطمئنُّون إلى كلِّ هذا حتى يتحققوه، ويختبروه مرَّةً بعد مرَّة، فلا يخدعون أنفسهم، ولا تغرهم بهرجة الكلام، فتكون نتيجة هذه التربية المتينة والدَّعوة الطويلة أنها تؤتي أكلها ناضجةً شهيَّةً، ولا تخدع الدَّعوة نتائجها، فإذا قامت الحكومة قامت على أساسٍ متينٍ من الأخلاق، وعلى أكتاف رجالٍ أقوياء، أقوياء في عقيدتهم، أقوياء في سيرتهم، أقوياء في خلقهم، أقوياء في عبادتهم، أقوياء في سياستهم، لا يندفعون مع التيار، ولا تجرف بهم المدنية، ولا يلعب بعقولهم الغنى بعد الفقر، واليسر بعد العسر، والقوة بعد الضعف، ولا تميل بهم المحسوبيات، والأرحام، والصداقات، ولا تستهويهم المطامع، والمنافع، هذا كان شأن الخلافة الراشدة، وهذه كانت سيرة الخلفاء الراشدين. وهنا أنقل مرَّةً ثانيةً ما قلته في رسالتي

(بين الجباية والهداية)[1] «تأسست دولة الإسلام ، وفتحت فارس ، وبلاد الروم ، والشام ، ونقلت إلى عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى ، وقيصر ، وانصبَّت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين ، وترفها ، وزخارفها مالم يدر قطُّ بخلدهم ، وقد انقضى على إسلامهم ربع قرن ، وهم في شدَّة ، وجهدٍ من العيش ، وفي خشونةِ المطعم ، وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيهم من البرد والحرِّ ، فإذا بهم اليوم يتحكَّمون في أموال الأباطرة ، والأكاسرة ، ولو أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى ، وينام على بساط قيصر؛ لفعل ، لقد كانت هذه والله محنةً عظيمةً تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ، وتعمى العيون ، ولكنهم ما فطنوا أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل إنهم خيِّروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم ، وأمانتهم ، ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدَّعوة النبوية ، وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدَّعوة ، والمؤمنين المخلصين.

كان لهم أن يؤسِّسوا ملكاً عربيّاً عظيماً على أنقاض الدولة الروميَّة ، والفارسية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا الإمبراطوريتين الفارسية والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين ، فإذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترف بموارد الإمبراطوريتين ، ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحدهما.

كان له ولأصحابه كلُّ ذلك بكلِّ سهولةٍ ، ولكنَّهم سمعوا القرآن يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته: «**لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من**

---

(١) يراجع في الجزء الأول ، صفحة (١١٨).

كان قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم» فهتفوا عن آخرهم قائلين:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»

وهكذا حافظوا على روح الدَّعوة الإسلامية، وسيرة الأنبياء والمرسلين، وعاشوا في الحكومة كرجال الدَّعوة وفي الدنيا كرجال الأخرى، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف الذي مال قبلهم بالمدنيات، والحكومات، والشعوب، والأمم، ومال بالمبادىء، والأخلاق، والعلوم، والحكم.

ما زال الناس يعدُّون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقَّاص، ووصولهم إلى الشطِّ الثاني ـ من غير أن يصابوا في نفسٍ، أو مالٍ، أو متاع ـ حادثاً غريباً من أغرب ما وقع في التاريخ، إنَّ الحادث لغريب، ولكنَّ أشدُّ منه غرابة وأدعى للعجب أنَّ المسلمين في عهد الخلافة الراشدة والفتوح الإسلامية الأولى خاضوا في بحر مدنية الروم وفارس وهو هائجٌ مائجٌ، وعبروه، ولم يفقدوا شيئاً من أخلاقهم، ومبادئهم، وعاداتهم، ووصلوا إلى الشطِّ الثاني ولم تبتل ثيابهم، ولم يزل الخلفاء الراشدون، وأمراء الدولة الإسلامية من أصحاب النبيِّ ﷺ محتفظين بروحهم، ونفسيتهم، وزهدهم، وبساطتهم في المعيشة، وتخشُّنهم في أوج الفتوح الإسلامية.

٤ ـ ومن مزايا الأنبياء والدَّعاة إلى الله التجرُّد للدَّعوة، والتفرُّغ لها بالقلب والقالب، والنفس والنفيس، والوقت، والقوة، فمن شأنهم أنَّهم يركزون جهودهم ومواهبهم، ويوفرون أوقاتهم وقواهم لهذه الدَّعوة، ونشرها، والجهاد في سبيلها، ويعطونها كلَّهم ولا يضنُّون عليها بشيءٍ ممَّا عندهم، ولا يحتفظون بشيءٍ، ولا يؤثرون عليهم شيئاً، لا وطناً، ولا أهلاً، ولا عشيرةً، ولا هوىً، ولا مالاً، ثم تثمر جهودهم، وقد لا تثمر في الدُّنيا، وقد تثمر بعد حياتهم، فهذا هو النبيُّ ﷺ يخاطب بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] وإذا كان هذا شأن الدَّعوة بعد ما أعطاها الأنبياء كلَّ

ما عندهم ، فكيف بها إذا أعطيناها بعض ما عندنا ، وكانت الدَّعوة تملك عليهم عقولهم ، ومشاعرهم ، وتملك عليهم تفكيرهم ، وصحّتهم ، فما زال القرآن يسلي النبيَّ ﷺ ويقول له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

٥ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السَّلام ومن كان على طريقهم في الدَّعوة إلى الله: أنَّ هذه الدعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة تسري في حياتهم كما يسري الماء في عروق الشجر ، والكهرباء في الأسلاك ، وتظهر في أخلاقهم ، وعباداتهم ، فترقُّ قلوبهم ، وتخشع نفوسهم ، وتزداد رغبتهم في العبادة ، ويشتدُّ اهتمامهم بها ، وحرصهم عليها ، وإيفاؤهم لحقوقها ، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النَّبيُّ ﷺ حتى تورَّمت قدماه ، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر! قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قام النبيُّ ﷺ بآيةٍ من القرآن ليلةً ، والآية هي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] وانتقلت هذه اللذة بالعبادة والاهتمام بها إلى الصحابة رضي الله عنهم في أشدِّ الأوقات شغلاً ، وأقلقها خاطراً حتى كان أعداؤهم يعرفون ذلك عنهم ، وقد وصفهم رجلٌ من الروم بقوله: «**هم فرسانٌ بالنَّهار ، رهبانٌ بالليل**» ويقول قائل: لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك؛ لما علا من أصواتهم بالقرآن والذِّكر.

٦ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السَّلام ومن كان على قدمهم أنَّهم يأخذون بالعزيمة في الدين ، ولا يأخذون بالرُّخصة؛ إلا بياناً للحكم الشرعيِّ ، وشكراً لنعمة الله ورفعاً للحرج عن الأمة ، ولا يعفون أنفسهم ، ولا يتساهلون في العبادات؛ لأنَّ اتباع الناس للدين ، وعملهم به بمقدار تصلب هؤلاء السَّادة في الدين ، وتمسُّكهم به ، فإذا اهتمَّ هؤلاء بالنوافل اهتمَّ الناس بالفرائض ، وإذا اكتفى القادة بالفرائض استرسل الناس إلى تركها ، والاستهانة بحقِّها ، لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم وقادة هذه الأمة يشمِّرون عن ساق الجدِّ في العبادات ، والمحافظة على الجماعات ، والعمل بالسنن الدقيقة ، والاهتمام بالآداب ، ولا يكتفون بالأدنى ،

ولا يقفون عند الفريضة ، وبذلك استطاعوا أن يورِّثوا الدِّين موفوراً غير منقوص ، وهو أمانة عند هذا الجيل ، فلينظر كيف يورِّثه الأجيال الآتية.

٧ - وما يمتاز به الأنبياء والمرسلون عن الحكماء ، والمؤلفين ، والعلماء المحقِّقين: أنَّهم يُعنون بتربية النفوس والأشخاص الذين يضطلعون بأعباء الدَّعوة بعدهم ، وينفذون تعاليمهم ، ورسالاتهم علماً ، وعملاً ، ومعلومٌ: أنَّ دعوتهم العظمى لا تقوم إلا على أكتاف الأصحاء الأقوياء الحنفاء المخلصين في إيمانهم ، والمخلصين في تفكيرهم ، والمخلصين في نيَّاتهم؛ الذين قد تنقَّت رؤوسهم وصدورهم من ألواث الجاهلية ، والذين هضموا الإسلام هضماً صحيحاً ، وانقطعت كلُّ صلةٍ في حياتهم عن الجاهلية بأوسع معانيها ، وخلقوا في الإسلام خلقاً جديداً.

ونرى ذلك واضحاً في حياة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصَّلاة ، والسَّلام ، فلما كان بنو إسرائيل ، قد نشؤوا في حياة العبودية ، والذلِّ والاضطهاد ، والسُّخرةِ الظالمة ، وماتت رجولتُهم ، وإباؤهم ، ومردوا على الخنوع ، والاستكانة ، والخضوع للقوي الغالب ، وعلى الجبن ، والحرص الشديد على الحياة ، والخوف الشديد من الموت وأسبابه ، حتى قال لهم نبيهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢١ - ٢٢] ولم يشجعهم على التقدم والقتال قولُ موسى عليه السَّلام (كتب الله لكم) مع أنَّه كان ضماناً لانتصارهم ، وأخيراً قالوا بكلِّ صراحةٍ ، ووقاحةٍ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] فظهر أنَّ نشأتهم الأولى تأبى عليهم أن يخوضوا في معركةٍ ، ويدخلوا في امتحانٍ ، ويعرِّضوا أنفسهم للخطر ، وقطع موسى من هذا الجيل الفاسد الرَّجاء وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥] هنالك أمره الله بالاعتزال مع قومه (لا عن قومه) في بيداء سيناء حيث الشظف ، وخشونة الحياة ، وهنالك ينقرض هذا الجيل الفاسد الذي شبَّ على الجبن ،

والضعف ، وشاب عليه ، وينشأ الأولاد والشباب الإسرائيلي ـ الذين لا يزالون في مقتبل العمر ـ على التخشن ، والجلادة ، وتحمل شدائد الحياة ، ومكارهها ، وينشأ جيلٌ جديدٌ يولد في هذه العزلة ، والبداوة على معاني الرجولة ، والفروسية ، وهكذا تتكوَّن أمَّةٌ جديدةٌ تقوم بدعوة النبي ، وتطبيق تعاليمه ، ومبادئه ، وتجاهد في سبيلها.

وفي ذلك معنىً بليغٌ من معاني الهجرة النبوية ، فقد استطاع سيِّد الأنبياء ، وسيِّد الدُّعاة إلى الله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام بانتقاله مع أصحابه من ضيق مكة إلى سعة المدينة وحريتها أن يكمِّل تربية أصحابه ، وأن ينشىء الجيل الإسلاميَّ الجديد؛ الذي لم يلبث أن اضطلع بأعباء الدَّعوة المحمدية ، ومثَّل الإسلام تمثيلاً كاملاً.

كذلك الدَّعوة الإسلامية تفرض إنشاء جيلٍ جديدٍ للإسلام ، جديدٍ في قوة إيمانه؛ جديدٍ في حماسته ، وثقته ، جديدٍ في أخلاقه ، جديدٍ في تفكيره وعقليته ، جديدٍ في كفايته العلمية ، واستعداده العقلي ، وأنَّ النجاح في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاح الدَّعوة ، فكلَّما كان النجاح كبيراً في إيجاد هذا الجيل ، وتكوين هذا الشباب ؛ كان النجاح باهراً في الدَّعوة ، والرسالة ، ومعلوم: أنَّ إنشاء الجيل الجديد ، أو تقويم الجيل المعاصر ؛ الذي لم يفقد صلاحيته ، ونموَّه ـ ليس بالأمر الهيِّن. إنَّها مهمةٌ لتنوء بالعصبة أُولي القوة. إنَّها تحتاج إلى تكريس الجهود ، وتركيز القوى على هذه الغاية ، والتفكير العميق الواسع ، والتعاون الشامل ، والتصميم الحكيم ، إنها تتطلب أساليب التربية الحكيمة العميقة الأثر ، وجهوداً عمليةً في ميدان الدَّعوة والإصلاح ، إنَّها تتطلَّب حركةَ التأليف ، والإنتاج الواسعة ، ومقداراً كبيراً من الابتكار ، إنها تتطلَّب وضع منهاجٍ جديدٍ على أساسٍ جديدٍ للدراسات ومثالاً جديداً من المدارس والكلِّيات ، والجامعات ، ومؤلفات ، ومنشوراتٍ جديدةٍ في شرح الدِّين الإسلاميِّ ، وعرض الفكرة الإسلامية ، وتأليفاتٍ جديدةٍ في السِّيرة النبويَّة ، وتدوينٍ جديدٍ للتاريخ الإسلاميِّ ، وسبكٍ جديدٍ للعلوم الإسلاميَّة ، وتفسيرٍ جديدٍ للعلوم الكونية ، وتلقيحٍ علميٍّ جديدٍ للصحافة ، والأدب ، والروايات ،

والشعر ، إننا أمام أنقاضٍ عقليةٍ ، وركامٍ بشريٍّ ، وخاماتٍ مهملةٍ نبني بها بيتاً جديداً ، ونصنع بها سفينةً جديدةً تمخر عباب الحوادث ، والموانع ، وعلينا أن نبدأ في عملٍ جديدٍ ، وجهادٍ جديدٍ يستغرق وقتاً طويلاً ، ويستنفذ جهوداً عظيمةً ، وذلك وإن كان عملاً شاقاً ، طويلاً ، متعباً ، مملاًّ ، ولكن لابدَّ من إنجاز هذا العمل ، ومن مواجهة هذه الحقيقة ، والتغلب على العقبات التي تعترض سبيلها .

هذه مزايا الدَّعوة النبويَّة ، ومزايا الدَّعوة التي تكون على قدم النبوة ، وواجباتها ، وبذلك تمتاز عن الحركات القومية ، والإصلاحات الاجتماعيَّة ، والثورات السياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، ومن هذه المنابع نستمدُّ القوَّة ، والروح ، ونستحقُّ من الله النصر ، ونجلب الرحمة ، فلنحافظ عليها محافظتنا على الشعائر والعقيدة ، ولنحرص عليها حرصنا على الحياة والقوة .

* * *

مخطَّطٌ عمليٌّ للانتفاضة الإسلاميَّة

النقاط التالية يجب التركيز عليها في الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامي من الجاهلية؛ التي يتطلبها القرن الخامس عشر الهجري في ضوء الواقع ، وتجارب الماضي.

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الدِّيني فيها ، فإنَّ تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمُّسها له ، هو السور القويُّ العالي الذي يُعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات ، وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادَّة الإسلام ، ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأيِّ غايةٍ نبيلةٍ ، وهي من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدرٍ ، وقوة عاطفةٍ ، وإخلاصٍ.

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحقُّ بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات ، والانتصار على العدو ، وإخلاص الدِّين لله ، والابتعاد عن كل أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدَّمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح ، وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرَّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات

القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الدَّاهية ، والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الدِّيني والعقل الإيماني.

٢ - صيانة الحقائق الدِّينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية؛ لأنَّ هذه الحقائق الدِّينية ، هي أساس الإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية.

والحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوَّتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلي ، والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتَّجه بهذا الدين عن منهجه القديم السَّماوي إلى المنهج الجديد السياسي.

٣ - تقوية الصِّلة الروحية والعاطفية بالنبيِّ ﷺ ، والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، وإضعافه على الأقل ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنَّة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه ، ولعل البلاد العربية (بفعل أحداثٍ ، ودعواتٍ قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة ، وأحقُّ بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمَّدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرسول.

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشريِّ من الانهيار والانتحار ، الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس «بطارية» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلّا من ركبها.

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كل تصرفاتها ، وسبب الردَّة الفكرية ، والحضارية ، والتشريعية التي تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلّا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلّا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسع بين القيادات والحكومات ، والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمة والبلاد بفائدة.

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، ويبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد ، أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوُّراً ماديّاً ، والعلومَ وحداتٍ متناثرةً متناقضةً ، والطبيعة حرَّةً قاهرةً ، والتاريخَ حوادثَ غيرَ مرتبطة خاضعةً لقلق وصراع دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استفاد من الطاقات ، وكلف من الوسائل ، والنبوغ ، والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه ، وبرأسه ، وعقله ، وإرادته ، وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة إلا

برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلاميُّ بسماته وخصائصه.

٦ ـ حركةٌ علميةٌ قويةٌ دوليةٌ ، تُعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية ، وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت للعالم المتمدن: أنَّ الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين ، وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساسٍ من المبادىء الخالدة؛ التي لن تبلى ، ولن تفقد صلاحيتها في يومٍ من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكان ، وتغنيها عن كلِّ قانون وضعته أيدي الناس.

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية ، وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصَّة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها ، وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيبٌ كبيرٌ للذوق الديني الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادفٌ لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة ، والطقوس الدينية الضيقة ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بدَّ للحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدني الإسلامي المستقل البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها ، وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ، ومتنزهاتها ، وإلى حدٍّ في مكاتبها ، وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلامية المثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوةٍ صامتةٍ للإسلام.

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ، ونظرياتها ، واكتشافاتها ، وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر وولاة الأمور في العالم الإسلامي حضارةً قوَّيةً عصريةً مؤسسةً على الإيمان والأخلاق والتقوى ، والرحمة والعدل في جانب ، وعلى القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار

في جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم وبلادهم، وما ينفع عملياً، وما ليس عليه طابع غرب وشرق، ويستغنون عن غيره ويعاملون الغرب كزميلٍ وقرينٍ ، إن كان في حاجةٍ إلى أن يتعلموا منه كثيراً ، فهو في حاجة إلى أن يتعلّم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب.

٩ ـ إقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلاميّة التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدَّعوة والحضارة الإسلامية ـ المشغولة بحرب إبادةٍ للعنصر الإسلامي، أو عملية «تطوير للإسلام» وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، وأهواء قادتها الشخصية بأنَّها سياسيةٌ عميقةٌ ، لم تنجح في بلدٍ إسلاميٍّ ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكاناتها إلى عدوٍّ مشتركٍ ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة.

وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجو المناسب المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادةٍ ، وبركةٍ ، ، ونصرٍ من الله ، وسعيٍ لتكوين قيادةٍ موحَّدةٍ تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البرِّ والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الأمانة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلِّف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها.

١٠ ـ أما البلاد غير الإسلامية فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به بأساليب حكيمةٍ تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة فالاهتمام بتمثيل الإسلام والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية ، والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ، والخواء الروحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد حكومةً وشعباً حتى يتهيأ للإسلام أن يثبت جدارته ، وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغي ، والقيادي في هذه البلاد.

❊ ❊ ❊

الأمة الإسلامية ، وحدتها ، ووسطيتها ، وآفاق المستقبل[1] وحدة التربية والتعليم ، وانسجامها مع طبيعة الأمة الإسلامية ، ورسالتها وغايتها هو العامل الأكبر الأقوى لبقاء وحدة الأمة ووسطيتها ، واستمرارها ، وبروزها

الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

أما بعد (أيها السادة!) إنَّ الله سبحانه وتعالى وصف الأمَّة الإسلاميّة عند ظهورها وبعثتها ، واتخذ الوسطية سمةً لها وشعاراً بين الأمم ، واستخدم كلمة البعثة عن قصدٍ وبينة ، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال الرسول ﷺ مخاطباً لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ «**إنما بعثتم ميسِّرين ، ولم تبعثوا معسِّرين**»[2] . وقال ربعيُّ بن عامر رسول المسلمين عند (رستم) قائد قواد المملكة الساسانية الإيرانية: **الله ابتعثنا لنخرج من شاء من**

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الثالث والثلاثون ، عام ١٩٨٨ م.

(٢) رواه البخاري (٢١٧) ، والترمذي (١٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1] .

وكانت اللغة العربية عند نزول القرآن ـ ولا تزال ـ غنيةً بكلمات النعت والوصف ، والمدح والإطراء ، منها ما تضفي على هذه الأمَّة معنى العبقرية والعملاقية ، وتجعلها فوق مستوى الشعوب والأمم ـ إذا لم تجعلها فوق مستوى الإنسانية ـ وتكسوها لباساً فضفاضاً هو أوسع من قامتها ، وأكبر من قيمتها ، وقد حكى القرآن نفسه عن اليهود والنصارى في وصفهم لأنفسهم قولهم ، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] .

ولكنه اقتصر على كلمة الوسطية فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وكلمة (الوسط) في الكلمات ـ في حجمها الصغير ، ووزنها الكبير ـ كهذه الأمة بين الأمم الإنسانية في قيمتها الكبيرة ، وفائدتها الكثيرة ، وقامتها الصغيرة المعتدلة (نسبياً إذا قورنت بالمجموعة البشرية قديماً وحديثاً ، والشعوب السائدة المالكة لأسباب القوة والرخاء والترف في الماضي والحاضر) .

والكلمات اللغوية والمفردات تتعرَّض للمحنة ، كما تتعرَّض الرسالات والمؤسسات والمعاني الشريفة الفاضلة وخلال الجمال والكمال والفضيلة في أزمانٍ مختلفةٍ ، وبيئاتٍ متنوعةٍ ، وذلك لكثرة استعمالها في محلها ، وفي غير محلها ، وانطلاق الألسنة ، والأقلام بها بسهولة ، فيفهمها الإنسان العارف باللغة العربية في نطاق فهمه لهذه اللغة ، وفي مجال تجاربه واختباره لمن وصف بـ (الوسطية) في الرجال ، أو اتَّصف بالاعتدال والاتزان من الأعمال ، أو يرجع إلى معجم عربي معوَّلٍ عليه ، فيعرف معناها في مجال الشرح الذي لا تتخطاه المعاجم مهما توسعت واستفاضت ، فكان ذلك كلُّه حجاباً لفهم المعاني التي احتوت عليها هذه الكلمة العربية القرآنية ، وعجز عن إدراك أعماقها وأبعادها ووزنها الحقيقي في القياسات التي تقاس بها الأمم والمجموعات البشرية ، حتى أمم الأنبياء في زمن بعثتهم وبعدها.

---

(١) البداية والنهاية: ج/ ٧ ، ص ٣٩ ـ ٤١ .

ولا يشعر الإنسان المتذوّق للغة ، المنصف بالطبيعة بسعة هذه الكلمة وشمولها ، وعمق أغوارها ، واتساع أبعادها ، وآفاقها بعض الشعور ، حسب توفيق الله تعالى أولاً ، ثم بذكائه ، وبُعْد نظره ، وسعة صدره ، وقدرة إنصافه ، واعترافه ثانياً إلا إذا كان واسع الاطلاع على تاريخ العصور التي سبقت البعثة المحمدية وظهور الإسلام، ونزول القرآن ، والمجتمعات الجاهلية بشتى أنواعها ، وأقاليمها ، ومناطقها ، وعصورها ، واستعرضها استعراضاً شاملاً دقيقاً في ضوء كتب التاريخ الأمينة ، وشهادات معاصريها الجريئة ، وآثارها الباقية من أدبٍ ، وشعرٍ ، وفلسفةٍ ، وحكاياتٍ ، وأساطير ، ومعابد ، وآثار ، وحفريات ، وبقايا هذه الشعوب في بلاد مختلفة ، وما تدين به وتعمل ، وعرف ـ بعض المعرفة من خلال التاريخ ـ ما كانت تقاسيه هذه المجتمعات الجاهلية من تناقض بين العلم والعمل ، والذَّكاء ، والتبجح ، وشق الشعرة في الفلسفة ، وعلم الفلك ، والعلوم الرياضية ، وبين الأخلاق ، والعشرة ، والتطبيق[1] ، وبين التجرُّد الروحي والارتكاس المادِّي ، وبين المادية الجامحة ، والرهبانية الغالية المتطرفة ، وبين اتخاذ الأسباب أرباباً ، وبين التواكل ، وترك الأسباب بتاتاً ، وبين تقديس الدَّم ، والسلالات ، وتركيزه سياسياً وإدارياً في بيوتاتٍ حاكمةٍ ، وروحيّاً ودينيّاً في بيوتاتٍ كاهنةٍ ، وما كانت تعانيه من اصطراع بين الفرد والجماعة ، والمحكومين والحاكمين ، وبين البذخ والأناقة والترف الذي بلغ إلى حدِّ الخيال والشعر ، وبين ما كانت تعانيه الشعوب من فقرٍ مدقعٍ ، وعجزٍ تقشعرُّ منه الجلود ، وتذرف له العيون ، وما كانت تمتاز به من خلطٍ ، بين الوسائل والغايات، والمحكمات والمتشابهات، والثوابت التي لا تتغيَّر ، والتطورات التي تخضع لاختلاف الزمان والمكان ، زد إلى ذلك عدم بقاء

---

(١) ليرجع إلى مقال العلاّمة الندوي «دور الإسلام الجذري البناء في مجال العلوم الإنسانية» الذي عرض لملتقى الفكر الإسلامي الحادي والعشرين في سطيف الجزائر ، طبع مكتبة الصحوة ـ القاهرة.

الأديان على نقائها وأصالتها، وفقد من يجدد هذه الديانات ويردُّها إلى أصلها وروحها ورسالتها[(١)].

وكذلك الشأن مع العصر الحاضر الذي يقوده الغرب ـ معناه الواسع ـ حضاريّاً وسياسيّاً وفكريّاً ـ فإنَّه يتأرجح ـ وأحياناً كثيرة يصطرع بين شيوعية غير فطرية، ورأسمالية غير خلقية، وبين حضارة راقية، واكتشافات مذهلة، وتسخيرٍ لكثيرٍ من طاقات الكون، وبين أخلاقٍ وحشيةٍ وعقولٍ صبيانية، ونكتفي في ذلك بشهادةٍ واحدةٍ لأحد الكتاب الغربيين في العصر القريب، يقول الأستاذ جود الإنجليزي (Prof. Joad) رئيس قسم الفلسفة في جامعة لندن:

(إنَّ العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها لعقل الأطفال والوحوش)[(٢)] ويحكي عن فيلسوفٍ معاصر، قوله مخاطباً للغربيين:

(إنَّكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور وتسبحوا في الماء كالسمك، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض كإنسان)[(٣)].

لذلك كلِّه وفي ضوء ذلك كلِّه جاءت كلمة (الوسطية) في وصف الأمة الإسلامية نداءً صارخاً مهيباً للعقول، والمشاعر، والأذواق، موقظاً لها من السُّبات، مثيراً للاستغراب والدراسة والتفكير في آنٍ واحد، متحدِّياً للعصبية الدينية، أو السلالية الإقليمية؛ التي دانت بها دياناتٌ كثيرةٌ، ولا تزال.

وفي نفس الوقت تثير هذه الكلمة وما تتبعها كلمة ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] الاعتزاز في حملة رسالة الإسلام واتِّباع هذا

---

(١) ليرجع إلى مقال «ندرة شخصيات التجديد في الديانات الأخرى» في كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي، جـ/١، ص ١٥، ٢١، طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٢) Guide to modern wickedness, p.261

(٣) أيضاً: P.293.

الدين ، والشعور بالكرامة والمسؤولية والتَّبِعة في آنٍ واحدٍ ، فإنَّها تستلزم معنى الوصاية على الأمم ، والإشراف على العالم ، والنهوض بالحسبة الخلقية ، والرقابة المعنوية ، وقيادة الرَّكب الإنساني في كلِّ فترة من فترات التاريخ ، وبقعةٍ من بقاع العالم ، وبالإخلال بذلك ، أو التنازل عنه يحرمون نفوسهم من كونهم أمةً وسطاً ، وجدارتهم لأن يكونوا شهداء على الناس ، وذلك شبه انتحار معنوي جماعي ، وكفران بنعمة الله.

وذلك لا يتحقق ـ في شروطٍ كثيرةٍ لا يتَّسع هذا المقال لشرحها ـ إلا بأن يكون العمل التربويُّ والتعليميُّ في هذه الأمة ـ على اختلاف بلادها وتنوُّع أوضاعها ـ منسجماً متجاوباً مع رسالة هذه الأمة ، وطبيعتها ، والغاية التي بعثت لأجلها ، والسرُّ في صيانة الله لها على كثرة أعدائها سمةُ (الوسطية) والوحدة في هذه الأمة وجدارتها لأن يكون أبناؤها شهداء على الناس ، كافلاً بذلك ضامناً له لا يتخلَّى عن وظيفته ، ولا يتكاسل ـ فضلاً من أن يخون أو يعارض ـ في أداء مهمَّته ، لذلك سيكون حديثي مركزاً على البحث عن الوضع التربويِّ والتعليميِّ في البلاد الإسلامية ومدى وفائه لرسالته ، وتجاوبه للغاية التي بعثت لها هذه الأمة ، ووصفت بالوسطية ، وأكرمت بالشهادة على الناس في كلِّ زمانٍ ومكان ، فإنَّ نظام التربية والتعليم هو العامل الأقوى في بناء الأمَّة ، ونقل خصائصها ، ورسالتها ، وعقيدتها ، وخُلُقها إلى الأجيال الصاعدة ، وهو المِعوَل الهدَّام ـ إذا أسيء استخدامه ، أو استورد من مصدرٍ لا يؤمن بقيمه ومُثُله ـ لكيان هذه الأمة وجوهرها ، والحاجز الأكبر بين ماضيها وحاضرها ، والصائغ المُدمِّر لمستقبلها.

جاء عهد الاحتلال الأجنبيِّ وغزو الغرب الفكريُّ والثقافيُّ ، ووقع الشرق الإسلاميُّ ـ بإرادةٍ أو بغير إرادةٍ ـ في حضانة التربية الغربية ، ونظمها التعليمية ، ومناهجها الفكرية ، وقيمها ومُثُلها العليا ، وتصوُّرها للحياة والإنسان ، ونظرتها إلى العلوم والآداب ، كما يترامى الطفل الصغير في أحضان مربٍّ كبيرٍ ، وقبل نظامه التعليميَّ ، وبالأصحِّ فكرته التعليمية بحذافيرها ، وعلى علاَّتها ؛ التي ولدت ، ونشأت ، واختمرت في بيئةٍ تؤمن بعقائد وأسس ، ومبادىء وقيم ، ومفاهيم ومثل تختلف كلَّ

الاختلاف عن العقائد والأسس والمبادىء والقيم التي يؤمن بها المجتمع الإسلاميُّ ، أو يجب أن يؤمن بهـا ، ويعيش لها ، ويجاهد في سبيلهـا ، بل تقوم على نفيها وهدمها أحياناً ، والتهكُّم بها ، والاستهانة بقيمتها أحياناً أخرى ، فكان مثله كمثل رجلٍ يتناول السمَّ الزعاف ليعيش ، ويشرب الماء الملح الأجاج ليروي غلّتـه ، وحكّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ، ومؤسَّساتهم العلمية الأخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظرات التعليمية ، والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج تنشأ في أحضان المربين الغربيين ، والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ، ومنحوهم كلَّ حريةٍ في تخطيط البرامج التعليمية ، وسياسة التعليم في هذه الأقطار الإسلاميَّـة .

فكانت النتيجة وجود طبقةٍ مضطربةٍ في العقائد والأفكار ، والسيرة والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبةً بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كلِّ ما يدين به مجتمعها ، وأمّتها وبلادها .

وذلك شيءٌ طبعي لا يُستغرَب وجوده ، إنما يستغرب عكسه ، وقد يكون هؤلاء الأخصائيون ، أو المستشارون وتلاميذهم مخلصين في عملهم ، يريدون الخير للأقطار الإسلامية والأجيال المسلمة في هذا التخطيط التربوي ، وفي هذه السياسة التعليمية ، ولكن ذلك لا يمنع من تعرُّض هذه الأقطار والأجيال لهذا الاضطراب الفكريِّ ، أو التناقض المبدئيِّ ، ولكثير منهم العذر في ذلك لقلّة معرفتهم بهذا الدِّين ، وأُسُسه ، ومبادئه ، وطبيعة هذه الشعوب الإسلامية ، وما يتفق مع شخصيتها ورسالتها ، وما يتنافى معهما ، وقد تكون محاولتهم لإنقاذها ـ بإخلاص وحسن نيّـة ـ ذريعةً إلى هلاكها .

وقد أعجبني ما قاله الأستاذ Don Adams عن هؤلاء المُوجِّهين ، أو

المستشارين الأجانب في كتابه[١] (المخطَّط التربوي للمجتمعات المعاصرة) يقول:

«إنَّ أبلغ مثل يضرب للأضرار التي تلحق بالشعوب بخطأ يصدر من المستشارين التعليميين الأجانب ما جاء في حكايةٍ شرقيةٍ ، تُصوِّر موقف هؤلاء الماهرين تصويراً دقيقاً ، زعموا: أنَّ ناحية من النواحي أصيبت بفيضانٍ عظيم، تورَّط فيه قردٌ وسمكة، وكان القرد شاطراً ومحنّكاً، قد جرَّب مثل هذه الفيضانات ، فتسلّق فرع شجرةٍ وأمن خطر هذا الفيضان ، ووقع بصره على السَّمكة تكافح تيّار الفيضان ، وتطفو على سطح البحر، واحتمل القردَ العطفُ على هذه السمكة المسكينة ، ورقَّ لها قلبه ، فنزل من الشجرة وأنقذ السَّمكة بكلِّ إخلاصٍ من هذا الخطر، وجاء بها إلى الساحل وألقاها على الرَّمل، حيث لا تصل إليها الأمواج ، وكانت النتيجة ظاهرةً لا تحتاج إلى تفسير».

وقد اتفق أعظم علماء التربية في العهد الحاضر على: (أنَّ عملية التربية في أمَّةٍ وبلادٍ ليست بضاعة تصدَّر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات أو المواد الخام ، أو الحاجيات ، أو المخترعات؛ التي لا تختصُّ ببلدٍ دون بلد ، إنما هو لباس يُفصَّل على قامة هذه الشعوب ، وملامحها القومية ، وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المُفضَّلة ، وأهدافها التي تعيش لها ، وتموت في سبيلها[٢] ، وأنَّ التربية ليست إلا وسيلةً راقيةً مهذّبةً لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعبٌ أو بلدٌ ، وتغذيتها بالإقناع الفكري القائم على الثِّقة والاعتزاز ، وتسليحها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها ، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة ، ونقلها سليمةً إلى الأجيال القادمة ، وأنَّ أفضل تفسيرٍ لنظام التربية ، هي أنَّها (السعي الحثيثُ المتواصل يقوم به الآباء والمربُّون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها ، والنظرة التي

---

(١) N.Thut and don adams: «Educational Patterns in Contemporary Societies» Megraw hill book co. New york (1964) p. 352.

(٢) مقتبس من محاضرة العلامة الندوي «مهمة التربية والتعليم» المدرجة في كتابه «نحو التربية الإسلامية الحرَّة». انظره في «مقالات وبحوث في التعليم والتربية الإسلامية».

ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربيةً تمكِّنهم من أن يكونوا وَرَثةً صالحين للتراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم ، مع الصلاحية الكافية للتقدُّم ، والتوسُّع في هذه الثروة)[١] .

وقد جاء في تقريرٍ تربويٍّ قدَّمه بعض كبار خبراء التربية في بريطانيا ما خلاصته :

«إنَّ مصلحة الحكومة في أن تطمئنَّ إلى أنَّ المدارس القائمة في حدودها كفيلةٌ بنقل أجزاء الحياة القومية إلى الأجيال القادمة جيلاً بعد جيل. إنَّ الفكرة التي يجب أن تسيطر على سياسة الحكومة التربوية المرسومة وتُسندها ، هي أن ينشأ الأطفال ورثةً للخصائص القومية ، وخلفاء آبائهم بالجدارة»[٢] .

ويقول F.W.Gardford في كتابه (التربية والغاية الاجتماعية) :

«إنَّ أفضل محك لنجاح التربية وإخفاقها هو تقاليد المجتمع والقيم السائدة ، فهي الأسُسُ التي تقوم عليها خصائصها وبقاؤها ، ومما لابدَّ منه ألا تكون بينها وبين التربية فجوةٌ فكريةٌ أو عدم انسجامٍ ، فعلينا أن نلاحظ دائماً أنَّ كلَّ محاولةٍ للتقدُّم تقوم على القيم المقررة التي يؤمن بها هذا الشعب ، فيجب أن تقوم عليها جميع التجارب التي يقوم بها رجال التربية»[٣] .

ونكتفي بشهادة أخرى أكثر تركيزاً ، وأشدَّ صراحةً لأحد علماء التربية ، Vernon Mallinson يقول :

«إنَّ التعليم القومي عبارةٌ عن ميثاقٍ فكريٍّ تتجلَّى فيه غاية المجتمع المشتركة ، ومساعيه المشتركة ، ويمثِّل هذا الميثاق العاطفة القومية ،

---

(١) يرجع إلى دائرة المعارف البريطانية مقالة «التربية» وكتابات أحد أئمة فن التربية في العهد الحاضر جان ديوي (John Dewey) .

(٢) Secondary Education with Special Regerence to Grammar and Technical Schools. H.M.S.O.1931 PP 147.148.

(٣) F.W.Gardeord في كتابه «Education and social purpose» London (1962) pp 46-47.

ويكون مزعجاً من خصائص لابدَّ منها لتحقيق مطامع هـذا المجتمع وأهدافـه»[1].

وبذلك سلم الغرب من هذا التناقض الذي يعيشه الشرق ، سواءً الأقطار الإسلامية منه وغير الإسلامية ، فلا وجود في الغرب لهوَّةٍ عميقةٍ سحيقةٍ فكريةٍ وعقائدية بين الشعب والقيادات ، أو الجماهير والحكومات ، إنَّما هناك طرازٌ واحدٌ ، ونمطٌ واحدٌ للمبادىء ، والقِيَم ، والمُثُل ، والغايات ، وليس هناك صراعٌ فكريٌّ ونفسيٌّ عنيفٌ قاسٍ بين مختلف الطبقات وأفراد المجتمع ، ولذلك أمن الثورات الداخلية ، (والمؤامرات) ضدَّ سلامة الشعب ، ومصالح البلاد.

أما الأقطار الإسلامية ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ فهي مسرحٌ للتناقض العجيب بين الطبقـات الحاكمـة ، أو الزعيمـة ، وبين الجمـاهير في جانبٍ ، وبين الطبقات المثقفة ثقافـةً عاليةً ، والطبقات التي تغلب عليها الأمِّيَّـة ، وبين الطبقات المتدينة المحافظة ، وبين الطبقات المتحرِّرة التقدُّمية في جانبٍ آخر ، وذلك كلُّه نتيجـة نظام التربيـة الغربيِّ المُستورَد من الخارج ، أو المصـوغ في الداخل على فكرة النظام الغربي وخطوطه ، فهو ينشىء جيلاً لا يسيغ العقـائد ، والحقـائق التي يقـوم عليها المجتمع الإسلاميُّ ، أو الأمَّة الإسلاميَّة؛ لأنَّ ما يعطيه هذا النظام ويغرسه في النفوس والعقول يتناقض تناقضاً واضحاً مع العقائد والحقائق التي يؤمن ، أو يجب أن يؤمن بها هذا المجتمع أو الأمَّة ، وإذا أَساغها فإنَّما يسيغها بمعجزةٍ أو بتأثيرٍ خارجيٍّ يُضعِف سلطان هذا النظام ، وذلك شاذ لا يقاس عليه.

وإذا وجدت هذه الطبقة ، أو الجيل الذي نشأ في أحضان هذا النظام ، ورضع بلبانه، بقي في صراعٍ دائمٍ مع عقيدة الشعب، وعقليته ، وعواطفه ، واتجاهاته ، فإذا كان قويَّ النَّفس قويَّ الإرادة ، حاول أن يزيل أنقاض العهد القديم أو الرجعية (كما يقول بعض أفراد هذه الطبقة) ويُخلِّص الأمة والبلاد

---

(١) An Introduction to Study of Comparative Education, London (1957) p.4.

من رُكام الماضي ، وهنالك تقوم معركةٌ تستهلك طاقاتٍ وكفاياتٍ كانت الأمَّة أحوج إليها ، وتقوم حربٌ داخليَّةٌ قد تكون أطول وأعنف من الحروب الخارجية ، وهذه قصَّة بلادٍ ابتُليت بزعاماتٍ دانت بمبادىء وفلسفاتٍ ثوريَّةٍ ، أو قوميَّةٍ ، أو علمانية .

وإذا كان هؤلاء الأفراد ضعيفي النفس ، والشخصية ، والإرادة ، أصيبوا بمركَّب النقص ، وبكُرهٍ شديدٍ للعقائد والأهداف التي يؤمن بها الشعب ، فيحيكون المؤامرات ، ويمالئون الأجانب ، وينتهزون كلَّ فرصةٍ للتخلُّص من ضغط الشعب الديني ، ونفوذ الدُّعاة الذين ينادون بالإسلام ، فتكثر حوادث الخيانة القومية ، وتعيش البلاد في جوٍّ من الاضطراب والإرهاب ، وعدم الثقة ، والشكِّ ، والبلبَلة الفكرية .

ولا سبيل إلى التخلُّص من هذا الوضع غير الطبيعي وغير الضروري إلا قلب هذه الأوضاع التعليمية رأساً على عقبٍ ، وصياغتها صياغةً جذريةً جديدةً ، وهي قضية العالم الإسلامي الكبرى ، وضرورته القصوى ، ونداء الوقت ، وفريضة السَّاعة .

وهنا أختم حديثي باستعارة قطعةٍ من إحدى كتاباتي السابقة ، ومعذرةً للقرَّاء الكرام الذين مرَّت بهم هذه القطعة قديماً :

«وحلُّ هذه المشكلة ـ مهما تعقَّد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة ـ ليس إلا أن يُصاغ هذا النظام التعليمي صوغاً جديداً ، ويلاءم بعقائد الأمة المُسلِمة ومقوِّمات حياتها ، وأهدافها ، وحاجاتها ، ويُخرَج من جميع موادِّه روح المادِّية والتمرُّد على الله ، والثورة على القِيَم الخلقية والروحية ، وعبادة الجسم والمادة ، ويُنفخ فيه روح التقوى ، والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلِّها ، فمن اللغة والآداب ، إلى الفلسفة ، وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة ، لا تسيطر على كلِّ ذلك إلا روحٌ واحدةٌ ، ويُقصَى استيلاء الغرب العقلي ، ويُكفَر بإمامته وسيادته ، وتُجعَل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة ، ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرَّس

علومه بشجاعةٍ وحرِّيةٍ ، وتعتبر كمواد خام (Raw Material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ، ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا».

إنَّ هذا العمل ولو كانت في طريقه عقباتٌ وعراقيل ، ولو تأخرت نتائجه ، ولكنَّه حلٌّ وحيدٌ للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدُّد والتغرُّب؛ التي تتحدَّى الكيان الفكريَّ للإسلام وجهازه الاجتماعيَّ ، وظلَّت تهدِّد حياته ، وبقاءه ، وصدقه ، وتنافي وتتحدَّى في غير حياءٍ وتحفُّظٍ اتِّصاف هذه الأمة بالوسطية ، وكون المسلمين شهداء على الناس ، وكون الرسول الأعظم ﷺ شهيداً عليهم ، نتيجةً لذلك أصبحت عاطفةُ الشعوب المسلمة ، وتضحياتُها ، وجهودُها ، وإخلاصُها ، ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية ، وتحرير البلاد المستعمرة) وسيلةً مستغلَّةً ، وقنطرةً مُوقَّتةً يُستغنَى عنها بعد الوصول ، ويُخشىٰ من بقائها على أصلها وقوَّتها .

وأختم البحث بقطعةٍ لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، يخاطب فيها (المسلم) وهي تلقي الضوء على مركز الأمة الإسلامية في هذا الكون ، ودورها في قيادة العالم ، وإسعاد الإنسانية ، وإنقاذ الأمم ، يقول الشاعر الحكيم الفيلسوف الكبير :

أنت للنَّاموس الأزلي حارسٌ وأمين ، ولإرادة سيِّد هذا الكون يسارٌ ويمين[1] .

لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم ، واشرب كأساً فائضةً من اليقين ، وانهض من حضيض الظنِّ والتخمين ، انتبه من السُّبات العميق الذي طال أمدُه ، واشتدت وطأته .

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرَّةً بالرِّقة والدَّلال ، ومرَّةً بالقيود والأغلال ، وتارةً مثَّلوا

---

(١) يعني : أنه بيد القدرة الإلهية يتصرف حسب إرادتها .

دور (شيرين) وطوراً لعبوا دور (أبرويز)[1] لقد أصبح العالم كلُّه خراباً يباباً بإغارتهم ، وغزوهم.

يا باني الحرم! ويا خليفة إبراهيم عليه السلام! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السُّبات العميق الذي طال أمده ، واشتدَّت وطأته»[2].

وأشكر ملتقى الفكر الإسلامي الجزائري ، ومن له فضل في تنظيمه حكومةً وشعباً على إتاحة الفرصة لي للحديث في موضوع هامٍّ حسَّاسٍ في أوانه ومكانه ، ولله الحمد أولاً وآخراً.

* * *

---

(١) يشير إلى قصةٍ غراميةٍ فارسيةٍ قديمةٍ تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند ، تمثل فيها (شيرين) دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال ، و(أبرويز) دور الملك القاهر الذي عشقها ، واستأثر بها.

(٢) زبور عجم: ص ١١٦ ـ ١١٨ ، باختصار وتوسع.

مركز الأمة الإسلامية ورسالتها[1]

إنَّ الأمَّة الإسلاميَّة هي صاحبة الرسالة الدِّينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هي التي تسيطر على جميع مواقفها ، وتصرفاتها ، مركزها مركز القيادة والتوجيه ، والحسبة على العالم ، والقرآن يعلن بقوةٍ وصراحةٍ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب ، وفي صفِّ التلاميذ والحاشية ، وأن تعيش على هامش الأمم وترضى ـ من القيادة والتوجيه ، والأمر والنهي ، والخلق والإبداع ـ بالتقليد والتطبيق ، والخضوع والإطاعة ، فلا يكون موقفها الصحيح إلا موقف الحرِّ الكريم ، القويِّ الإرادة ، المستقلِّ التفكير ، الذي يأخذ ـ إذا اضطر واحتاج ـ من حوله بإرادةٍ واختيارٍ ما يلائمه ، وما لا يرزؤه في شخصيته ، وتفوقه ، وامتيازه ، وثقته بنفسه ، ومركزه ، وينبذ ما لا يلائمه ، ويضعف شخصيته ومركزه ، ويفقده امتيازه ، ويدمجه في غيره ، ولذلك نهيت هذه الأمة عن التشبه بقومٍ في شعارهم وشاراتهم[2].

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن ، المجلد السابع والثلاثون ، عام ١٩٩٢ م.

(٢) قال العلامة الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (م٧٤٣ هـ) في كتابه: «الكاشف عن حقائق السنن المحمدية ، شرح مشكاة المصابيح» في شرح «من تشبه بقوم فهو منهم» الذي أخرجه أحمد وأبو داود: «هذا عام في الخَلْق ، والخُلُق ، والشعار ، ولما كان الشعار أظهر في التشبه ذكر هذا الباب» قال العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملاّ علي القاري (م ١٠١٤ هـ) في المرقاة «قلت: بل الشعار هو المراد بالتشبه لا غير ، فإنَّ الخلق الصوريَّ لا يتصور فيه التشبه ، والخلق المعنوي لا يقال فيه التشبه بل هو التخلُّق» (ص/ ٤٣١ ـ ج/ ٤).

وهي أمَّةٌ ذات هدفٍ معيَّنٍ في الحياة، ورسالةٍ كاملةٍ في العالم، وحضارتها، وثقافتها، وكفاحها، وإنتاجها، وكلُّ ما يتَّصل بها من حركةٍ ونشاطٍ خاضعٌ لعقيدتها، وغاياتها، ورسالتها، فلا قيمة عندها لفلسفة تقول: «العلم للعلم» و«القوة للقوة» و«الاكتشاف للاكتشاف» وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان، أو على الأكوان، وتسخير الطاقات البشرية، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوَّتها، أو تقرير فتوحها الماديَّة والعلمية، فإنَّ ذلك عندها ضربٌ من العبث، ونوعٌ من الأنانية المتضخمة، والقرآن ينبو عنها ويضبط اتجاهاتها، وطموحها بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

المؤمن القوي العليم الصالح المصلح:

إنَّما يسمح لها الإسلام بالكفاح في سبيل الحياة والطبيعة والعلم ـ وقد يحثُّ عليه ـ لصالح البشرية وللغايات الكريمة إلى حدِّ الضرورة، وقد ضرب الله لها مثلاً في القرآن بالإنسان القويِّ، العليم، الصالح، المصلح؛ الذي يسخِّر القوى الكونية والماديَّة، ويملك أعظم مقدارٍ من الأسباب والوسائل، ويوسِّع فتوحه، ومغامراته، وهو في كلِّ ذلك، وفي أوج قوَّته، وسلطته، وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب مؤمنٌ بربِّه، خاضعٌ له، مؤمنٌ بالآخرة، ساعٍ لها، مقرٌّ بضعفه، رحيم بالإنسانية، وبالأمم الضعيفة، حامٍ للحقِّ، يستخدم كلَّ قوته وجهوده ومواهبه، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية، وتكوين المجتمع الصَّالح، وإعلاء كلمة الله، وإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله، سيرةٌ مثَّلها سليمان بن داود في عصره، ومثَّلها ذو القرنين في عصره، ومثَّلها الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون في عصورهم[١].

---

(١) انظر: تفسير سورة الكهف للعلامة الندوي في مجلة «المسلمون» المجلد السادس، عدد ٤، وفي كتاب «دراسات قرآنية» صدر في سلسلة «من تراث العلامة الندوي» من دار ابن كثير، دمشق.

الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة:

أما موقفها من هذه الحياة، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمثل الأعلى، وسدرة المنتهى في السعادة والتقدُّم، إنما ينظر إليها كمرحلةٍ «عابرةٍ» لا بدَّ من اجتيازها، وكوسيلةٍ للوصول إلى الفوز الأكبر، والحياة الدائمة، والعيشة الرَّاضية، إنَّ القرآن يقرِّر ـ بكلِّ وضوحٍ وقوَّةٍ ـ قصر هذه الحياة الدُّنيا، وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الآخرة، فيقول مثلاً: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [براءة: ٣٨]، ويقول: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ويقول: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقرِّر كذلك ـ في وضوحٍ ـ أنَّها قنطرةٌ إلى الآخرة، وفرصةٌ للعمل، فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ويقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ويقرِّر أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى، فيقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] ويقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠] ويذمُّ ويشنِّع على من يؤثر الدنيا ـ هذه الفانية، العارضة، السقيمة، الناقصة ـ على الآخرة الباقية، الخالدة، الواسعة، الصافية من الأكدار، الخالية من الأخطار، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ ـ ٨].

ويقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦] ويقول: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ

شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢ ـ ٣]، ويقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ويقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠] ويقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] ويقول: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا، ومعرفة قيمتها، وفضلها، والحرص عليها، فيقول: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠١] ويقول على لسان نبي الله موسى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة، ويحدِّده بدقةٍ ومقدرةٍ ليست فوقها دقَّةٌ ومقدرةٌ هو الجملة الحكيمة المأثورة عن رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة**»[1] فالمسلم يجمع بين الانتفاع بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشيء خلق لأجله، وسخِّر له، وبين السعي للآخرة، والكفاح لها كغاية خلق لأجلها، فهو ينظر إلى الدُّنيا، وقواتها، ووسائلها كمطيةٍ ومركب، لا كراكب ومتصرِّف، وكمملوكٍ ورقيقٍ، لا كمالكٍ وسيِّد، ووسيلةٍ لا كغايةٍ، وينظر إلى الآخرة كغايةٍ ينتهي إليها، ووطنٍ يلجأ إليه، فيجمع عليه همَّته، ويرهق له قواه ويحثُّ إليه مطيته، وذلك مثل النبوة الذي مثله الرسول ﷺ؛

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٦٠) برقم (١٠٥٨١).

إذ قال: «**ما لي وللدنيا ، وما أنا والدنيا إنَّما أنا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ، ثم راح ، وتركها**»[1].

وقد تجلَّت هذه النفسية القرآنية ، والنظرة القرآنية إلى الحياة في حياة النبي ﷺ ، وتعاليمه ، وسلوكه ، وكلامه ، وعواطفه ، وأمانيه ، ودعائه وسره ، وعلنه ، وتجلَّت كذلك في حياة الصحابة؛ الذين تربَّوا ، وتكونت سيرتهم ، وعقليتهم في حضانته ، وتحت إشرافه ، ومن كان على نهجهم وعلى غرارهم من التابعين والمؤمنين من هذه الأمَّة ، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم ، ومزاجاً لا ينفكُّ عنهم ، وأصبح من الحقائق التاريخية التي لا يمارى فيها.

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوة ، أو مدرسة النبوة ـ إن صحَّ التعبير ـ مع الفلسفات المادية ، والتفكير المادي الذي يلح على أنَّ هذه الحياة الدنيا هي كلُّ شيء ، وهي المنتهىٰ ، ويبالغ في تمجيدها ، وتقديسها ، والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها ، وتزيينها.

حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية:

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسي الفاجعة للبشرية: أنَّ الحضارة الغربية ترعرعت في عصرٍ قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب ، وغير ذلك ، وفي أمَّةٍ قد ثارت على الذين تزعموا الدِّين ، واستغلُّوه لشهواتهم ، وأنانياتهم ، واشتدَّ غضبها عليهم لسوء سيرتهم ، وهمجيتهم ، ووقوفهم في سبيل التقدُّم وحرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة ، والصناعة ، والاتجاه الماديُّ العنيف مع الاتجاهِ إلى تنظيم الحياة على أسسٍ مادِّيَّةٍ خالصةٍ ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ، ومصرِّف هذا الكون ، وكلُّ ذلك اقتضته سلسلة الأسباب ، وطبائع الأشياء، ووضع أوربة الخاص، فشبَّت هذه الحضارة ، واختمرت ، وهي المسيطرة على القوى والأسباب وقد بلغت الغاية في التقدُّم ،

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٠١) عن ابن عباس رضي الله عنه .

والصناعة ، وعلوم الطبيعة ، حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المساحات والأبعاد ، وتتجاوز الكرة الهوائية ، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية.

سيطرة المادية على قادة التجديد في الشرق الإسلامي:

وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد ، وبالأصحِّ التغريب في الشرق الإسلامي ، وتواضعوا على الافتتان بالتقدُّم المادِّي ، واتخذوا القوة والرفاهية إلٰهاً يقدِّس ، ويعبد ، ويكفر بغيره ، ويُضَحَّى على أنصابه بكلِّ القيم الخلقية ، والروحية ، وما ليست له قيمةٌ مادِّيَّةٌ ، وحسب القارىء أن يقرأ خطب هؤلآء الزعماء القوميين ، والقادة السياسيين ، وما يكتبونه بين آونةٍ وأخرى ، وما يُدْلُون به من تصريحات ، وما يتَّخذونه من إجراءاتٍ رسميةٍ ، وخطواتٍ عملية ، وما يعاملون به الأحزاب التي تفكر غير هذا التفكير ، وتسير غير هذه السيرة ، وتنتقد هذه الاتجاهات ، وحسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة والخطط المستهدفة ، ومجالات النشاط والحركة ، والحماسة في الدوائر الرسمية ، ويراها مقتصرةً على ترفيه البلاد ، وتقويتها مادِّياً ، ورفع مستوى الحياة ، ولمجاراة الشعوب التي لا تعرف غير المادة والمحسوسات حقيقةً ، ولا تعرف غير القوَّة إلهاً ، ولا تعرف غير التقدُّم الماديِّ والرفاهية الدنيوية هدفاً وغرضاً ، ولا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم رابطةٌ قوميَّةٌ ، أو معاهدة سياسية ـ مجموعةً بشريةً ، تستحقُّ الاحترام والاهتمام ، إنَّ هذه هي النفسية التي جرَّت على العالم الشقاء والبلاء في كلِّ زمانٍ ، وهي العقلية الضيقة السقيمة التي حاربتها الأديان ، وجاء يمحوها الإسلام ، وإنَّ احتضان قادة بلد إسلامي لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسةٌ عظيمةٌ في التفكير لا تدلُّ إلا على ضعف الإيمان ، وسوء التربية ، وسقوط الهمَّة ، وقصر النظر ، وشقاء هذه البلاد أولاً ، وشقاء العالم الإنساني ثانياً.

إنَّ الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ، ومركز هذه الأمة في العالم ، ومعرفة رسالتها ، والإيمان بقيمتها ، والضغط على قيمة الآخرة ، وما بعد

هذه الحياة ـ من سعادةٍ ، وشقاءٍ ، وجنَّةٍ ، ونارٍ ـ والتركيز على الجانب الخلقي ، والرُّوحي من الحياة ، هو الخطُّ الفاصل الذي يشكل الحدَّ الفاصل الرسمي بين الحضارتين ، حضارةٍ يوافق عليها الإسلام ، ويتحمَّل مسؤوليتها ، ويباركها ، وتتجلَّى فيها الشخصية ، والأصالة ، والاتِّباع. وحضارة يتبرأ منها الإسلام ، ويخسر فيها المسلمون ، وتتجلَّى فيها العبودية ، والرضوخ ، والاستسلام ، والعبادة التي لا تعرف إلا تقليد الببغاوات ، ومحاكاة القرود.

* * *

دور الأمَّة الإسلاميَّة في إنقاذ البشريَّة وإسعادها[1]

إخواني! إنني تلميذٌ صغيرٌ من تلاميذ مدرسة القرآن العامرة الخالدة ، وإنَّ الله يشرفني ، ويكرمني ، ويمنحني فرصة القراءة ، وبعض التدبُّر في القرآن ، وأشعر بهذا النسب المشترك بيننا وبينكم ، النسب العقلي والإيماني ، وأقول اعتماداً على ذلك: إنَّكم كلكم تقرؤون القرآن ، ومن طبيعة الإنسان أنَّه إذا رأى شيئاً غريباً تملكه الحيرة في بعض الأحيان ، وتملكه الدَّهشة في بعض الأحيان ، ويملكه الروع في بعض الأحيان ، ولكن هذه الدهشة تزول سريعاً أو على فترةٍ ، وهذه الحيرة تزول كذلك ، ولكنِّي أقول لكم بكل صراحة ـ وقد ألقى الله في روعي أن يكون هذا موضوع حديثي اليوم ـ: إنني كلَّما مررت بهذه الآية الكريمة التي هي من آخر آيات سورة الأنفال ، وهي ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. أنا أتساءل ، كرجلٍ واعٍ ، وكرجلٍ يعيش في هذا العالم ، إنني أحار ، ويملكني العجب ، بل تملكني الدهشة والحيرة ، لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أيِّ مكانٍ يقال هذا؟ .

يقال هذا لحفنةٍ[2] بشريَّةٍ ـ إذا قيست إلى العالم المتمدِّن المعمور ، وإلى النفوس البشرية العائشة الموجودة في ذلك الزمان يعني في سِنِيِّ الهجرة الأولى ـ فقد كان المسلمون في تلك الفترة الزمنية قطرةً أمام البحر

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول ، المجلد الثامن والثلاثون ، عام ١٩٩٣ م.

(٢) الحفنة (بفتح الحاء) والحفنة (بضم الحاء): ملء الكفين.

الإنسانيِّ الزاخر ، كانوا حفنةً بشريةً فقط ، كانت حول مدينة يثرب ، (المدينة المنورة العزيزة المحترمة التي نفديها بنفوسنا وأرواحنا ، ولكن اسمها القديم يثرب) بل كانت حول الجزيرة العربية إمبراطوريتان واسعتان ممتدتان إلى أقصى العالم ، قد توزَّعتا العالم ـ كما يقول المؤرخون الأوربيون ـ العالم المتمدن المعمور ، توزعته إمبراطوريتان ، الإمبراطورية البيزنطينيَّة التي خلفت الإمبراطورية الروميَّة، والتي كان مقرُّها قسطنطينية ، والإمبراطورية الساسانية ، الإمبراطورية الإيرانية ، قد استحوذتا ، وسيطرتا على العالم المتمدِّن المعمور ، وكان هذا البحر المدنيُّ الحضاريُّ يموج حول الجزيرة كلِّها ، كانت هنالك حضاراتٌ ، وكانت هنالك فلسفاتٌ ، وكانت هنالك مؤسساتٌ علميَّـةٌ ، وكانت هنالك فتوحٌ مدنيَّـةٌ ، وعقليَّـةٌ وسياسيَّةٌ ، واقتصاديةٌ ، وعمرانيَّـةٌ.

ما نسبة هذه الحفنة البشرية التي كانت قد وُجدت في المدينة المنورة بفضل دخول الإسلام أولاً في المدينة ، وبعد ذلك انتقال عددٍ قليلٍ من مكَّة إليها ، وتعرفون كلُّكم: أنَّ الهجرة ليست بالأمر الهيِّن ، فإنَّ الهجرة هي مغادرة الوطن والأهل ، والانتقال من بيئةٍ إلى بيئةٍ أخرى ، إنها تطلب تضحيـةً كبيرةً ، وهمَّـةً عاليـةً ، إنها تطلب مخاطرةً بالمال ، ومخاطـرةً بالنفس ، ومخاطرةً بالأهل.

وقد كان إحصاء المسلمين في المدينة بأمر رسول الله ﷺ ، فلم يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة (١٥٠٠) رجل ، وقد كان ذلك كما يرى بعض أصحاب السير ، عند الخروج إلى أحد ، وقد كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاثٍ من الهجرة ، فكان ذلك بعد ما مضى على الهجرة ثلاثة أعوام ، وجزم بعض علماء السير ، وشرَّاح الحديث بأنَّ ذلك كان عند حفر الخندق ، وقد كانت غزوة الخندق ـ أو غزوة الأحزاب ـ في شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان أمد الإحصاء أطول من الأول[١].

---

(١) جاء في صحيح البخاري ، عن أبي وائل عن حذيفة ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسمئة (١٥٠٠) (رجل) وقلنا نخاف=

على كلٍّ حالٍ كانوا حفنةً بشريةً مغمورةً في بحرٍ هائجٍ مائجٍ من البشر ، ومن الحضارات ، ومن الثقافات ، ومن الألسن واللغات ، ومن المدنيات والزخارف ، ومن المظاهر الخلابة ، يقال لهذه الحفنة البشرية: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣] يعني: إن لم تتألفوا ، ولم تكونوا وحدةً بشريةً مميزةً ، تقوم على العقيدة الممتازة ، والهدف الواضح إلى إنقاذ البشرية وإسعادها ، وعلى نمطٍ خاصٍّ من الحياة ، والقيم ، والأقدار الخاصَّة ، وعلى التصميم على القيام بالدَّعوة ، وإن لم تتَّخذوا الحياة الإيمانية الخلقية المثلى شعاركم ، ولم تكونوا نموذجاً فريداً للإنسانية ، ولم تصمِّموا على نشر الدعوة الإسلامية إلى أقاصي الأرض ، وعلى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الدَّمار ، والهلاك ، والشقاء إلى السعادة الأبدية ، ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ [الأنفال: ٧٣].

لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أيِّ بيئةٍ ، وفي أي محيطٍ يقال هذا؟ ولكن كما يقال «العبرة بالقيمة ، ليست العبرة بالقامة» فكان هؤلاء المسلمون الذين لا يتجاوز عددهم ألفاً وبضع مئات. هؤلاء كانوا صغيرين في القامة[1] ، لكنهم كانوا كبيرين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، وقد أثبت التاريخ الإنساني المدوَّن ، المحفوظ ، الموثوق به ، والمعتمد عليه: أنَّه دائماً غلبت وانتصرت القيمة على القامة ، وانتصرت القيمة الصغيرة على القامة الكبيرة ، هذا تاريخ الدِّيانات ، هذا تاريخ الحركات الإصلاحية ، هذا تاريخ المدنيات ، هذا تاريخ المغامرات ، المغامرات السياسية ، والمغامرات المدنية ، والمغامرات العلمية ، دائماً غلبت القيمة على القامة.

فالقضية قضية القيمة ليست قضية القامة ، فكان المسلمون في المدينة

= ونحن ألف وخمسمئة؟ ولقد رأيتنا ابتلينا حتى أنَّ الرجل ليصلي وحده وهو خائف» صحيح البخاري: كتاب الجهاد ، باب كتابة الإمام الناس (٢٨٩٥).

(١) المراد بالقامة هنا الكمية والعدد الكبير وثروة من الوسائل والطاقات.

المنورة صغاراً ، وقليلين في القامة ، ولكنَّهم كانوا كبيرين شامخين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة.

فيا إخواني! أقول لكم: إنَّني كلَّما مررت بهذه الآية الكريمة على كثرة مروري ومرور كلِّ مسلم بها عند التلاوة ـ والحمد لله كلكم تقرؤون القرآن ، وقد تقرؤونه أكثر منِّي ـ ولكنِّي أقول لكم بصراحة ، ولا أجاملكم ولا أتملق ، ولا أتظاهر بالعاطفة الإيمانية ، والإجلال القرآني ، أقول لكم بكل إخلاصٍ ، وبكل صراحةٍ: إنني كلَّما مررت بهذه الآية الكريمة؛ دهشت ، وقلت: يا سبحان الله! ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أيها المسلمون المعدودون بالمئات! إن لم تقوموا بالدَّعوة الإيمانيـة ، إن لم تقوموا بدعوة التوحيـد ، إن لم تقوموا بالدعوة إلى العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى ، والخضوع لحكمه ، وإنَّه لا خالق غيره ، ولا ربَّ غيره ، ولا معبود غيره ، ولا حاكم غيره ، ولا قويَّ غيره ، إن لم تقوموا بهذه الدعوة ، تعرفون ماذا ستكون عاقبة الإنسانية؟.

تكون عاقبـة الإنسانية وخيمـةً ، ذميمـةً ، شنيعـةً ، هنا في الدنيا التناحر ، تناحر أفراد البشرية ، يتناحرون ، ويتقاتلون ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويسفكون الدماء ، ويرتعون في الشهوات ، ويعبدون النفس ، ويعبدون الهوى ، ويبتدعون طرائق للظلم ، والإهانة ، والاستبداد والقهر ، هكذا سيكون مصير الإنسانية إن لم تقوموا أنتم بالواجب وبما أسعدكم الله بـه ، وفرضه عليكم ، فأنا أقول لكم: إنَّ هذه المراكز الدَّعوية ، والتربوية مع إجلالي ومعرفتي لقيمتها ولغنائها ولفائدتها ، إنَّها في الحقيقة قطرةٌ في البحر ، ما نسبتها إلى هذا البحر الزاخر المائج الهائج ، الذي يزخر هنا في أوربة ، ومن هنا تمتدُّ أمواج هذا البحر ، وعواصف هذا القطر إلى العالم الخارجي ، ما هي الاشتراكية؟ ما هي الرأسمالية؟ ما هي الشهوانية؟ ما هي عبادة النفس؟ ما هو استعباد الإنسان للإنسان ، كلُّها عواصف هوجـاء ، ورياح مشؤومـة ، رياح تقضي على البقيـة البـاقيـة مـن الشعـور الإنسـانـي ، والمبـادىء الفـاضلـة ، والقيـم الإنسانية ، فهنا بحر موَّاج من المادية ، وهذا البحر من ورائه ومعه ثروةٌ

زاخرةٌ ، ومددٌ كبيرٌ من الرُّقيِّ الثقافيِّ ، وتقدُّمٌ كبيرٌ في مراكز الطبع ، وآلات النشر ، والإذاعة ، هذه أوربة كلُّها غنيةٌ في كل ما يستطيع أن يصلح الإنسان ، ويستطيع أن يفيد الإنسان ، ولكنَّها تحوَّلت ، واتَّجهت لسوء قيادة الموجهين والمربِّين ، وللمعركة الحاسمة والحرب الشعواء التي وقعت بين الكنيسة والدولة ، وبين العلم والدِّين[1] اتجهت إلى الإفساد بدل الإصلاح ، إلى نشر عبادة النفس ، والاندفاع وراء الشهوات اندفاعاً أهوج ، اندفاعاً متحمساً متهوراً ، فأصبحت أوربة تملك زمام العالم ، وترتفع راياتها على الشرق الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وكانت هناك إمبراطوريةٌ سياسيةٌ ، وإمبراطوريةٌ فكريةٌ ، وكان استعماراً سياسياً ، واستعماراً ثقافياً ، واستعماراً فكرياً ، واستعماراً خلقياً ، واستعماراً توجيهياً.

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد مكَّن لهذه الحفنة البشرية التي وُجدت ، وتكوَّنت في المدينة المنورة بفضل تعاليم الإسلام من انتزاع السلطة ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ والسيطرة على النفوس من جماعة إلى جماعةٍ ، ومن أمَّةٍ إلى أمَّةٍ ، لا لمآرب النفس ، ولا للشهوات ، ولا للأغراض الخسيسة الفردية ، أو السيادة العنصرية ، أو القومية ، ولكن لصالح الإنسانية ، مكَّن الله لهذه الحفنة البشرية أن تظهر ، وتتغلَّب ، وتملك زمام القيادة ، زمام القيادة العقائدية ، زمام القيادة الخلقية ، زمام القيادة الفكرية ، زمام القيادة العلمية ، وزمام القيادة السياسة كذلك ، قد مكَّن الله لهذه الحفنة البشرية في القرن الأول في عصر النَّبيِّ ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين حتى فتحوا الإمبراطورية البيزنطينية ، ووصلوا إلى قسطنطينية في عصر محمد الفاتح.

وكذلك امتلكوا الإمبراطورية الفارسية الساسانية . إذا قال إنسان: إنَّ هذه الإمبراطورية ستزول ، رأى الناس إليه عجباً ، ودهشةً ، واستغراباً ، وظنوا بعقله سوءاً ، ما كان يتصوَّر ذلك ، ولكن كلُّ ذلك وقع لإرادة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) يرجع للاطلاع عليه إلى كتاب Drapper المشهور Conflict Between Relegion And Science «الصراع بين الدين والعلم».

فالذي نحتاج إليه ، والذي جرت به سنة الله تبارك وتعالى في تاريخ الدِّيانات ، وفي تاريخ الحركات الإصلاحية حتى في النبوَّات ، هو أن تقوم قلَّةٌ مهما بلغت من ضآلة العَدَد والعُدَد ، تقوم بإخلاصٍ وبعزمٍ ، وبوعيٍ ، وبعقلٍ ، وبحكمةٍ ، وبتعاونٍ ، وبتجريد النية لخدمة الدِّين فقط ، هنالك يُنْزِلُ الله نصره ، وقد جاءت في القرآن الكريم تصريحاتٌ كثيرةٌ بأنَّ الله سبحانه وتعالى ينصر الضعيف على القويِّ ، وينصر القليل على الكثير ، جاءت في هذا المعنى آيات ، فيقول الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧].

ويقول: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالمهمُّ الآن أن تقوم منظمةٌ ، وتقوم جماعةٌ مؤمنةٌ ، جماعةٌ صاحبة دعوة ، صاحبة مبدأ ، صاحبة غاية ، تقوم بإخلاصٍ ، وبإيمانٍ ، وبحماسٍ ، وبتعاونٍ ، وباتِّحادٍ ، وبتجريد النية والقلوب من حبِّ الدُّنيا ، ومن حب الرئاسة ، ومن التنافس في القيادات ، والعظمة ، هنالك ينصر الله سبحانه وتعالى ، وأتجرَّأ ، وأقول لكم ـ وأستغفر الله ربي ، وأعوذ به ـ وأقول: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أيها المسلمون في أوربة! أيها المسلمون في أمريكا! أيها المسلمون في إنجلترا! وأتشجع وأقول: أيها المسلمون في البلاد العربية! التي يُحارَبُ في كثيرٍ من بقاعها الإسلام ، ويُتَخَوَّفُ من الإسلام ما لا يتخوَّف من الشيوعية ، وما لا يتخوَّف من الصهيونية ، وما لا يتخوَّف من المسيحية الصليبية ، وما لا يتخوَّف من فساد المجتمع ، وانهيار المبادىء الخلقية والقيم المعنوية، يتخوَّف من الإسلام أكثر مما يتخوف من أي شيءٍ، أقول لكم أيها الإخوان ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] الآن هنالك حربٌ واحدةٌ تشن الآن ، وتقوم ، وهي الحرب بين الإسلام وبين اللاإسلام ، وبين عبادة الله وبين عبادة النفس ، وبين التعاليم الإسلامية وبين تقديس القيم الغربية ، وإحلالها محلَّ تعاليم الكتب

السماوية ، هذه هي الحرب الوحيدة القائمة الآن ، وهي حربٌ مسعورةٌ مسجورةٌ.

هذه كلمتي التي حضرتني الآن ، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا من قوة الإرادة ، وحسن النية ، والإخلاص والعزم حتى نقوم بنشر الإسلام في هذه القارة التي أفسدت العالم كلَّه زمناً طويلاً ، والتي لا تزال لها سلطةٌ كبيرةٌ في إفساد المسؤولين عن المعارف والتربية والمسؤولين عن الثقافة ، والمسؤولين عن الجامعات والكليات ، فلا يزال لها أثرٌ في ربوعنا الشرقية ، في مناطقنا ، وفي بلادنا الشرقية بما فيها البلاد العربية.

ونختم هذه الكلمة بترجمة أبيات لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الفارسية مقتطفةً من كتابي «روائع إقبال».

يقول محمد إقبال مخاطباً للمسلم :

أيها المسلم! أنت للناموس الأزلي حارس وأمين ، ولسيد هذا الكون يسارٌ ويمين[1] لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم ، وبقاء الأمم ، اشرب كأساً فائضةً من اليقين ، وانهض من حضيض الظنِّ والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

الغياث من الأفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرَّةً بالرِّقَّة والدلال ، ومرَّة بالقيود والأغلال ، تارةً مثَّلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز»[2] لقد أصبح العالم كلُّه خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم.

يا باني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من

---

(١) يعني : أنه آلة بيد القدرة الإلهية ، وجارحةٌ لها.

(٢) يُشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال ، و«أبرويز» دور الملك القاهر الّذي عشقها واستأثر بها.

السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدَّت وطأته[١] .

ونسأل الله أن يوفقكم ، ويوفقنا لنستحقَّ نصر الله رغم قلة عَددنا ، وعُددنا ، ورغم كثرة عدد هؤلاء المنافسين للإسلام ، وأعداء الإنسانية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

(١) زبور عجم ، ص ١١٦ ـ ١١٨ باختصار ، وهي زيادة في البحث عند نقلها وكتابتها مقتبسة «من روائع إقبال» للعلامة النَّدوي .

التشخُّص الدِّينيُّ حاجةٌ أكيدةٌ للأمَّة[1]

أمَّا الأمَّة الإسلاميَّة فلا يكفيها البتَّةَ مجرد بقاء النسل ، والجسم ، واستمراريتهما ، وصيانة الأموال والأرواح ، وحرِّيَّة الانتفاع بالفرص السياسية ، والاقتصادية ، والديمقراطية ، ومنافعها ، بل ولا تكفيها المشاركة والمساهمة في الإدارة والحكومة في بلدٍ ديمقراطي. إنَّ ذلك لا يتَّفق وشأن أمةٍ مثاليةٍ ذات عقيدةٍ ، ودعوةٍ ، ورسالةٍ ، لأنَّها مسؤولةٌ في كلِّ عهدٍ وبلدٍ عن الإبقاء على التشخُّص الدِّينيِّ ، وتمثيل شعائر الإسلام ، والعيش وفق العقائد الدينية ، وحرية العمل بأحكام الشريعة ، وصيانة القوانين العائلية ، وصبغ الحياة بالحضارة الإسلاميَّة ، والمجتمع الإسلاميِّ ، بل الواقع أنَّها مسؤولة عن إبقاء تلك اللغة والثقافة الخاصَّة كذلك التي هي ذريعةٌ للاطلاع على تعاليم دينها ، والارتباط بماضيها ، فإذا فُقدت هذه الضمانة والشروط بالتميز الديني في الأمة ، فلا نستطيع أن نتأكَّد أن الأمَّة الإسلاميَّة تعيش بحرِّيَّةٍ ، وصيانةٍ ، وعزَّةٍ في ذلك البلد ، وتلك البيئة ، ولا نعتبرها عضواً مشاركاً في الحياة الديمقراطية لذلك البلد الديمقراطي.

وبالأخصِّ في بلد يعرف بإذابة الديانات ، والحضارات ، والثقافات

---

(١) هذا المقال مقتطف من كتاب «في مسيرة الحياة» وقد احتوى على صورة واقعية تجتازها الأمة الإسلامية ، ولا سيما في الهند. وبالنظر إلى الحقائق التاريخية والحضارية التي يحويها المقال ويحتاج المسلمون في كل مكان إلى دراستها ورؤية الظروف من خلالها. نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس ، المجلد الثامن والثلاثون ، عام ١٩٩٣ م.

الأخرى في بوتقة الديانة والحضارة وطريقة الحياة التي يتبنَّاها ، ذاك لأنَّه يعيش في انقطاعٍ عن العالم المتمدن الخارجيِّ ، وينحصر في جزءٍ من الأرض منذ آلافٍ من السنين بطبيعته وتقاليده الخاصَّة وصيغته الدينية المألوفة ، ففي مثل هذا البلد نحتاج للإبقاء على شخصيتنا الاجتماعية والمعنوية إلى بذل مجهوداتٍ غير عادية ، وإلى تيقظٍ ، واستعداد مستمرين ، لقد كان شاعر الهند الإسلامي الشهير ألطاف حسين حالي يعبر عن حضارة الهند وطبيعتها بقوله: «أكال الأمم» ويعني بذلك أن كل شعبٍ ، أو قومٍ نزل إلى هذه البلاد انذاب في حضارتها ، وطبيعتها ، ولم يعد يملك خصائصه ، وامتيازاته ، وكان مثالاً لما جاء في المثل «**كلُّ شيءٍ في معدن الملح يتحوَّل إلى ملح**» لذلك فإنَّ كلَّ هذا البلد يحتاج فيه المسلمون إلى تميزهم بالتشخُّص الدِّينيِّ ، وحساسيتهم الحضارية ، والمحاسبة الواقعية ، والاحتساب القومي أكثر من أيِّ بلدٍ آخر.

ثم إنَّ البلد الذي توافر فيه الترتيب المتعصِّب للتاريخ خضوعاً للعوامل التاريخية ، والسياسية ، والانتخابية الخاصَّة ، وتحت مؤامرةٍ أجنبيةٍ ، وحيث بدأ عمل الإبادة الجنسية ، والحضارية ، والمعنوية وفق مشروع مدروسٍ ، وبأسلوب حكمٍ قوميٍّ ، (وقد تحدَّثنا عن تفاصيل ذلك ، حيثُ ذكرنا الأحزاب المتطرفة وإعلانات زعمائها المتطرفين في كتابنا «في مسيرة الحياة») فهنالك تتضاعف هذه المسؤولية أضعافاً مضاعفةً ، وإنَّ غفلةً يسيرةً في أدائها تدين الأمة بالردَّة الحضارية ، والفكرية إذا لم تصبها بالردَّة الدِّينية ، وتحوَّل هذا البلد إلى أندلس ثانيةٍ (لا قدر الله تعالى) ذلك البلد الذي حكم فيه جزءٌ من هذه الأمة إلى قرون ، ولم يعرف هذا البلد الوثني بعقيدة التوحيد ، والمساواة ، واحترام الإنسانية ، والعلوم ، والأفكار ، والآداب الحديثة فحسب ، بل قام بإثرائه بكلِّ ذلك.

ويتفاقم هذا الخطر حينما نرى أفراداً من الأمَّة ـ ولو كان عددهم قليلاً ـ يحتلُّون في الميدان ، ويرفضون بصراحةٍ حاجة الأمة إلى التشخُّص الديني ، ولا يرونه لازماً للأمة ، بل يرونه بالغ الضَّرر بالبلاد والأمة ، ويعبرون عن أيِّ مطالبةٍ لاستكمال جزءٍ للدين ، وبذل المجهود في سبيله بالتفرقة ، بل

يحملون ذلك على سذاجة الأمة والعاطفية الزائدة ، وقلة الفهم لدى قادتها ، حتى إنَّهم يتَّهمون المجهودات الناجحة المثمرة؛ التي بذلت في سبيل صيانة الأحوال الشخصية للمسلمين في هذه البلاد بعمل لغو ، لا طائل تحته ، ويعتبرونه إضاعةً للوقت ، والطاقة ، فهنالك تكون الأمة بحاجةٍ أشدَّ إلى الإصرار على التميز بالتشخُّص الملِّي بجميع شعبه ، واليقظة الكاملة ، والحميَّة الإيمانية الزائدة ، والاستعداد الدائم.

وقد سبق أنني صرحت بهذا الخطر بمناسبة الكلمة التي ألقيتها في الاحتفال المئوي لجامعة دار العلوم ديوبند في مارس عام ١٩٨٠ م أمام حفلٍ عظيم ، حينما لم يكن هذا الخطر قد تمثل للعيون كشأنه اليوم ، وقلت: «**إنني أعلن بكلِّ صراحةٍ ووضوحٍ ، وأريد أن تعلنوا أنتم كذلك ، أننا لن نرضى بالعيش كالبهائم التي لا تبغي إلا العلف ، والصيانة ، إننا نرفض ألف مرة أن نختار حياةً ومكانةً كهذه، إننا سنعيش على وجه هذه الأرض بصلواتنا ، وتكبيراتنا ، بل ولن نرضى أن نتنازل عن حرية العمل بجزء طفيف من النوافل ، وأعمال التطوع أيضاً ، إننا نلتزم بكلِّ سنَّةٍ من سنن رسول الله ﷺ ، ونستنير من سيرته ، ولن نرضى بالتنازل عن أيِّ أثرٍ من آثاره ، ولا أيِّ نقطةٍ من حياته**».

وبالمناسبة يحلو لي أن أنقل هنا مقتطفاً من مقدمةٍ على ترجمة لكتاب «اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام العلامة الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقد قام المجمع الإسلامي العلمي بندوة العلماء بنشر هذه الترجمة ، وكتبت عليها مقدمةً ضافيةً احتوت على بيان التأثيرات العميقة النفسية الواسعة للحضارة والاجتماع ، والشعائر والعادات ، جاء فيها: «إنَّ بعض الحقائق التي اكتشفها العلم الحديث ، ودراسة الأوضاع النفسية الفردية ، والاجتماعية ، وكذلك التجارب التي أجريت بتكرارٍ واستمرارٍ لتأثير الحضارة ، والاجتماع ، والشعائر ، والعادات ، والخصائص ، ولا سيَّما منذ بداية هذا القرن ، إنَّما أزاح اللثام عن وجه الحضارات ، والحياة الاجتماعية ، وأثبت أنَّ قضيتهما ليست عابرةً ، أو طافحةً ، كما كانت تعتبر قبل مدَّةٍ يسيرةٍ ، وليست مثل ما عرضها

المعجبون بالحضارة الغربية ، والدَّاعون إليها ، أو كما صوَّرها حملة لواء الاتحاد القومي في وسط هذا القرن .

لقد أصبح من مسلمات الحقائق : أنَّ العادات ، والاتِّجاهات ، والميول ذات جذورٍ عميقةٍ ، تتأصَّل في القلوب والعقول ، ودورها كبيرٌ ومهمٌّ في تكوين الشعوب والملل ، وفي بناء شخصيتهما . إنَّ الحضارة تكون صورةً ظاهرةً للعواطف ، والنزعات ، وللإعجاب ، والكراهية ، والسلوك الفكري ، ولذلك لا يمكن رؤية خفايا الحضارة ، وعناصرها التكوينية بأيِّ مكبرة .

كيف يتداخل في أساس الحضارة اتجاهاتٌ من الشرك ، والجهل ، والظلم ، والتكبُّر ، والتنعُّم ، وعناصر الغفلة ، وأجزاؤها ، وما هو مدى نسبتها ، وكيف يتكوَّن ذلك جزءاً لا يتجزَّأ منها ، وما هي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والخلقية؟ وما هي الأجواء النفسية والفكرية التي تربَّت فيها الحضارة ، واجتازت فيها بمراحل التقدَّم ، والرقي؟ وما هو الطابع العميق ، واللون الثابت الذي تركته على الحضارة؟ كلُّ ذلك أمرٌ يعجز عن تحليله وتجزئته كبار علماء فلسفة الاجتماع ، ومؤرخو الحضارات ؛ إذ لم يقم إلى الآن معملٌ كيمياويٌّ يبحث في ذلك ، ويتحقَّق فيه عمل التحليل ، والتحقيق بكلِّ نجاح .

إنَّ مجهودات الأخذ والقبول ، والتقليد والاستفادة ؛ التي تتمُّ في مجال الحضارات ، والاجتماعات ، كيف تخلف تأثيراً عميقاً في نفسية الأمَّة ، وكم تزيحها عن مكانتها الأصيلة ، وكيف تتغيَّر بها مقاييس البرِّ والإثم ، والطاعة والمعصية ، والإسلام والجاهلية ، والحياء والوقاحة ، والعدل والظلم ، والقناعة والإسراف؟ ذلك ما لا يمكن أن يقدِّره أحدٌ من كبار الزعماء والمصلحين المدققين ، إنَّما هي ذات الله سبحانه وتعالى العليم الخبير ؛ الذي يتولَّى صيانة هذه الأمَّة بواسطة نصوص الكتاب وأحكامه ، الأمَّة التي تقوم بشخصيتها المتميِّزة في هذا العالم بمسؤولية الدَّعوة والتوجيه .

إنَّ الحيطة البالغة التي يراعيها الإسلام حول التشبه والتقليد ، ووضوح تعاليم الإسلام ، وتبينها ، وإصرار الشريعة الإسلامية عليها لَنتيجةٌ لشمول دين الإسلام؛ الذي ليس مجموعةً لعدد من التقاليد والعقائد ، بل إنَّه منهجٌ كاملٌ للحياة ، وصبغةٌ ثابتةٌ لحياةٍ إسلاميَّةٍ شاملةٍ ، إنَّه يدعو إلى صبغة الله ، ويهتف بها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] ويعتبر كل حضارةٍ واجتماع من الجاهلية التي تنبع من الأهواء ، والمصالح ، والمنافع المادية ، واللذَّة ، والعزة ، أو تقوم على مجرد التجارب والقياس ، بصرف النظر عن الشريعة الإلهية ، والتوجيهات الربَّانيَّة ، والإسلام هو الذي تحمَّل لأوَّل مرَّةٍ مسؤولية الكشف عن حقيقةٍ ثابتة ، وهي أنَّ أي فرد من أفراد البشر لا يستطيع أن يعيش على مجرَّد العقائد ، فمن المعلوم أنَّ الحضارة والاجتماع لا يمنعان عن التأثير في الأخلاق ، والعادات ، والعقائد ، والعبادات ، وكلُّ جهد يبذل لإقامة الحاجز بينهما لا يمتُّ إلى الفطرة بصلةٍ ، وذلك ما حاولته الحضارة الغربية بمناسبة انتفاضتها يوم نادت بأنَّ الدين قضيةٌ من قضايا الإنسان الخاصَّة.

إنَّ حياة الإنسان ليست مجموعةً لواحداتٍ متعددةٍ يضمُّ بعضها إلى بعض كلما شاء ، ويفرِّقها متى أراد ذلك ، ولكنَّها وحدةٌ مستقلةٌ ثابتةٌ ، فلنعبِّر عنها بأيِّ اسم شئنا ، سواءٌ بالإسلام ، أو الدِّين ، أو الطاعة ، وذلك هو تفسير قول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

* * *

انتفاضة الأمَّة الإسلاميَّة
ووجود قيادةٍ مؤمنة(١)

إنَّ هذه الأمَّة الإسلاميَّة العربية ظلَّت تحتمل النكبات ، وتمرُّ بالكوارث التي تقصم الظهر ، وتذيب المهجة ، وتحيِّر العقل ، وتحطِّم الأعصاب ، كانت أولها وأعظمها وفاة نبيها ، وارتداد عامَّة العرب ، وانحصار الإسلام والمسلمين - وجلُّهم بل كلُّهم من العرب - في مدينةٍ صغيرةٍ ، وقريةٍ أو قريتين من الجزيرة يموج حولهم بحرُ الكفر والعداء ، وتكتنفهم إمبراطوريتان عظيمتان قد هاجتا عليهم ، وطمعتا فيهم ، فهو كما يقول عروة بن الزبير : «**كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ وقلَّتهم ، وكثرة عدوِّهم**» .

والثانية : تدفُّق الجيوش الصليبية ، والحكومات الأوربية بأسرها ، وخيلها ورجلها على جزءٍ صغيرٍ من المملكة الإسلاميَّة ، ورميها للمسلمين عن قوسٍ واحدةٍ ، واستيلاؤها على القدس ، والمسجد الأقصى ، وكثيرٍ من المدن العربية الإسلامية ، وتحدِّيها للإسلام ، وتهدُّدها لمركزه ، ومرقد نبيِّه عليه الصلاة والسلام ، فهم في مدِّهم الأوَّل ، كالوتد الحديديِّ يغرز في خشبٍ نيءٍ ناعمٍ ، كما يقول : «استيلي لين بول» .

وثالثتها : زحف التتار الوحوش على العالم الإسلاميِّ ، وتحطيمهم له من أقصاه إلى أقصاه ، فكانوا يسرحون على جثثه ، وأشلائه من غير خوفٍ

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثالث ، المجلد الرابع والأربعون ، عام ١٩٩٩ م .

أو احتشام ، وقد كان العالم الإسلاميُّ مقبرةً واسعةً يهيمن عليها الموت ، ويسود عليها الصَّمت الرهيب ، وقد قطع المتفائلون الأقوياء الرجاء في نهضتهم ، ويذكر هذا الحادث المؤرخون العرب ، فتنهمل عبراتهم ، وتتقطَّع أنفاسهم ، ويفضلون السكوت على الحديث ، والموت على الحياة ، ويذكره المؤرخ ابن الأثير الجزري ، فيقول: لقد بقيت عدَّة سنين معرضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدِّم إليه رجلاً ، وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً! وكانت هذه الكوارث خليقةً بالقضاء على أمةٍ من أعظم الأمم ، ولكنَّ الأمَّة الإسلاميَّة ـ وفي مقدِّمتها وعلى رأسها الشعوب العربية ـ خرجت من تحت الركام ، ومن تحت الأنقاض حيَّةً جديدةً ، قويَّةً نشيطةً ، ونفضت عنها غبار الموت ، وتراب القبر الذي تخيَّله أعداء الإسلام ، واستأنفت السَّيْر في إيمانٍ جديد ، وثقةٍ مستأنفةٍ ، ودمٍ فائر ، وحماسةٍ زائدةٍ ، والتاريخ مستعدٌّ لإعادة نفسه إذا طلب منه ذلك ، واختير له السبيل القويم ، والصراط المستقيم.

إنَّ هذه الكوارث الثلاث التي وقعت في عصورٍ مختلفةٍ ، وانتفاضة الأمَّة الإسلاميَّة بعدها، ونهوض العرب يلتقي على نقطةٍ واحدةٍ ، وهي وجود قيادةٍ مؤمنةٍ ، راسخةِ العقيدة ، قوية الإيمان بوعد الله ونصره ، وبصلاح الإسلام ، وبالقوَّة الكامنة فيه ، شديدة التمسك بتعاليم الإسلام ، وآدابه ، وأخلاقه، مجردةٍ عن كلِّ أنانيةٍ، وعصبيةٍ جاهلية، فكان على رأس الانتفاضة الأولى أبو بكرٍ الصِّديق ورفقته ، وكان على رأس الانتفاضة الثانية صلاحُ الدِّين الأيوبيُّ وأنصارُه ، وكان على رأس الانتفاضة الثالثة علماءُ ربانيُّون ، ووزراء صالحون ، أسلم على أيديهم التتار أفراداً وأمَّةً ، وتحوَّلوا حماةً للإسلام، وحملة لوائه في الشرق والغرب، ويلتقي هؤلاء القادة على أنَّهم كلَّهم كانوا يدعون بدعوة الإسلام ، ويقاتلون بسيف محمَّد عليه الصلاة والسلام ، واستحقُّوا بذلك نصر الله ، وتأييده الخارق للعادة ، وظهرت المعجزة ، فقد قال الله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢]

وقال: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣].

يجب علينا ـ نحن معشر العرب والمسلمين ـ أن نستأنف السير من جديدٍ فنعترف ـ بالشجاعة التي عُرفت بها العرب في التَّاريخ ـ إنَّ الطريق الذي اخترناه لبناء كياننا الجديد، واسترداد مركزنا في العالم الجديد، وفي كسب القوة والوحدة، وفي إنقاذ فلسطين كان طريقاً عقيماً، منحرفاً، يحبط المساعي ويخيب الآمال، إنَّه لا يقترن بنصر الله وتأييده، حين لا عز، ولا كرامة، ولا ظفر، ولا انتصار إلا بنصره وتأييده، ونعترف بشجاعةٍ أنَّ الله ربط مصيرنا بالإسلام، وبمحمَّدٍ النبيِّ الأميِّ، وبتأييد دينه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ونعترف بشجاعة: أنَّ الظلم مرتعه وخيم، وأنَّ الطريق التي تسلكه الحكومات الدكتاتورية الشيوعية مبيدٌ للبلاد، مهلكٌ للحرث والنسل، وأنه لا يتَّفق مع الإسلام، ولا مع الإنسانية، ولا مع الحرية الحقيقية، ولا المساواة، ولا الجمهورية، وأنَّ الطاعة المطلقة العمياء لقائدٍ أو أمير، والخضوع له في خيرٍ وفي شرٍّ، وفي طاعةٍ وفي معصيةٍ؛ وتسليطه على العقل، والنفس تسليط الأصنام والآلهة، وعدم محاسبته في تصرُّفاته يجرُّ النَّار والدَّمار على العباد والبلاد، وأن نعترف بشجاعة بأن الثرثرة، وكثرة الكلام، والدعاوى الفارغة لا تفيد شيئاً، وأن التفريط في الاستعداد، وعدم مقابلة الحديد بالحديد، والغفلة، والأخطاء الصبيانية في ميدان الحرب جريمةٌ لا تغتفر في عالم الأسباب.

ونعترف بشجاعة: أنَّ العرب في حاجةٍ إلى إيمانٍ جديدٍ بالدِّين الخالد القديم، وإلى حبٍّ يملأ جوانح النفس، ويغمر العقل والقلب بعنوان مجدهم، وسرِّ شرفهم، وكرامتهم، ومنبع قوَّتهم وانتصارهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، الذي لا يعزُّ العرب، ولا الأتراك،

ولا الهنود إلا بالإيمان برسالته الخالدة ، وتعاليمه الفاضلة ، وإمامته الدائمة ، وقيادته الرشيدة.

ونعترف بشجاعةٍ: أنَّ المسلمين والعرب لا تفيدهم قوةٌ أجنبيةٌ ، ولا تخدمهم مصالح سياسيَّةٌ للأجانب تتقلب مع الرياح ، وتخضع للمنافع والأرباح ، فليتوكلوا على الله أولاً ، ثم ليعتمدوا على سواعدهم ، وشجاعتهم ، وإيمانهم ، وأخلاقهم ، وصفاتهم ثانياً.

ويجب أن نلتجىء إلى الله أفراداً وأمةً في ضراعةٍ وابتهالٍ ، ونتوب إلى الله توبةً اجتماعية نصوحاً ، ونبرأ إليه من كلِّ حولٍ ، وطولٍ ، ونؤمن بأنَّه لا ملجأ ، ولا منجى منه إلا إليه ، ولا نكون كالذين قال الله فيهم: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] ، ولا كالذين قال فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ، بل نكون كالذين قال فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وللتوبة الاجتماعية المخلصة تأثيرٌ غريبٌ في تغيير المصير ، وقلب الأوضاع ، فقد حكى القرآن عن هود قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] ، وحكى قول نوح: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٣] ، ولنصلح حياتنا وسيرتنا مع الله ، ومع عباده ، وفيما مكَّننا فيه ، ومتَّعنا به ، ولنترك المنازعة مع الله ، ومحادَّة رسوله ، ومعارضة شريعته ، وقانونه ، ولندخل في السِّلم كافة ، فلذلك تأثيرٌ سحريٌّ في الفوز بالسَّعادة ، والعزِّ ، والكرامة ، والنجاة من الحكَّام الظالمين ، والأعداء القاهرين ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ

وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وهذا هو السِّلاح الذي أشار به موسى على قومه في مصر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

ألا إنَّ العالم العربي لم يغب له نجمٌ إلا وطلع له نجمٌ آخر، ولم يتوار بطلٌ إلا وبرز بطل آخر؛ ولم يرض الله بذلِّه وهوانه، ففي ذله ذلُّ المسلمين، وفي هوانه شماتة الأعداء المتربِّصين، فلينفض عنه الغبار، وليستأنف السير، وليعد إلى مركزه ورسالته، وصفاته الأولى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٣].

وصلى الله تعالى على خير خلقه، محمدٍ وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

* * *

الأقطار الإسلامية والعربية
بين الانقياد لشرع الله أو التبعية للغرب[1]

إنَّ التخوُّف من «الانتفاضة الإسلامية» قد بلغ إلى حدٍّ الحساسية الزائدة ، والنظر إلى أشياء دقيقة بالمكبرة و«التوجس»[2] في عدد من الأقطار الإسلاميَّة والعربية ، حتى وصل ذلك إلى الخوف من العمل ببعض التعاليم الإسلاميَّة فردياً ، والظهور بالمظهر الإسلامي ، والتكثير من الاستشهاد بالكتاب والسنَّة ، والإنكار على بعض المنكرات فضلاً عن المطالبة بتطبيق الأحكام الشرعية ، وتمثيل الحياة الإسلامية ، والطراز الإسلامي في بلدٍ إسلاميٍّ يحكمه المسلمون ، والانتقال إلى تقليد الغرب تقليداً أعمى .

وقد بلغ هذا التخوف والعمل بمقتضاه حداً أدَّى إلى إخضاع نظام التربية ، ودور التعليم ، ووسائل النشر والدعاية ، والصحافة ، والإذاعة للرقابة للتخلص من النفوذ الدِّيني ، والغيرة الإسلامية ، والمشاعر الدينية إلى أن كان هنالك مجالٌ مسوغٌ للإشفاق من الردَّة الدينية العقائدية ـ لا سمح الله بذلك ـ فضلاً عن الردَّة الفكرية والثقافية ، التي بدت طلائعها وأماراتها في كثيرٍ من البلاد الإسلامية المحكومة بالاستعمار الأجنبي الإداري والثقافي بحكم طبائع الأشياء ، ونتائج الجهود والمساعي ، وعدم وجود ما يقابل ذلك في القوَّة والتنظيم ، والعزم والتصميم .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس ، المجلد التاسع والثلاثون ، عام ١٩٩٤ م .

(٢) توجَّسَ : تسمّع إلى الصوت الخفي .

ومن نتائج هذا التخوُّف ، والإشفاق ، والحذر الشديد من وجود الشعور الدينيِّ القويِّ في الجماهير ، والاعتزاز بالدِّين ، والطموح إلى أن تسود الحياة الإسلامية ـ بجميع شعبها ومناحيها ـ على البلاد التي تدين بالإسلام من قرونٍ متطاولة ، وفي مجتمعاتٍ ورثت الإسلام كابراً عن كابر ، وجاهدت في سبيله ، وفتحت بلاداً قاصيةً ، ومثَّلت الحضارة الإسلامية الزاهية ، وأنتجت الثقافة الغنيَّة الزاهرة اللَّتين يندر ، أو يعدم نظيرهما في تاريخ الحضارات والثقافات العالمية ، من نتائج ذلك أن ينشأ في هذه الأقطار والبلاد التي كانت فريسة هذا التناقض البعيد الأثر ، العميق الجذور بين الطبقات الحاكمة ، أو القائدة الزعيمة وبين الجماهير والشعوب؛ صراعٌ فكريٌّ وعاطفيٌّ ، وعدم تحمُّسٍ لتحقيق غاياتها ومشاريعها ، فيكون في ذلك تضييع قوىً وطاقاتٍ ، ومواهب وجدارات كانت البلاد في غنىً عنها ، بل كانت في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى تعاونٍ وثيقٍ ، وثقةٍ متبادلةٍ لا غنى عنهما لبلادٍ تريد التقدُّم ، والاكتفاء الذاتيَّ ، والتخلُّص من النفوذ الأجنبي ، فيكون في ذلك جهادٌ في غير جهادٍ ، ونضال في غير عدوٍّ.

ثم تكون النتيجة الحتمية لهذه العملية النقلية غير الطبيعية والعقلية أن تفقد هذه الأقطار الحماس الدِّينيَّ ، والقدرة على المغامرة والمخاطرة بالنَّفس والنفيس في سبيل تنفيذ أوامر الله في خلقه ، وصوغ الحياة ، والمجتمع وفق تعاليمه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1].

وتلك خسارة لا تعوَّض بشيءٍ آخر من الوسائل ، والطاقات ، والتعاليم ، والتقدم في الصناعة ، والعلم ، وبهذه الطاقة والميزة فتح العرب المسلمون ـ ومن تبعهم من الشعوب المسلمة على أيديهم ـ البلاد القاصية ، الغنية ، القوية التي مرَّت على حكمها قرونٌ متطاولةٌ ، وأنشأت حضارةً راقيةً ، واتُّخذت قدوةً ، ومثالاً ، واعتبرت رمز تقدُّمٍ وشرفٍ في

---

(١) كما قال ربعي بن عامر ممثل الجيش الإسلامي في العراق لرستم قائد الجيوش الإيرانية الأكبر ، راجع البداية والنهاية لابن كثير : ج/ ٧ ص ٣٩ ـ ٤٠ .

العالم القديم ، وأنشأت قانوناً انتشر في الآفاق ، وعلوماً ، وآداباً كانت سمةً «للعقلانية» والتقدُّم كالإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الساسانية ، وشبه القارة الهندية الممتازة في العلوم الرياضية ، والطبيَّة ، والفلسفية ، وما كان ذلك إلا لوجود الحماس الديني ، والحنين إلى الشهادة والشوق إلى الجنَّة ، والعمل بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإذا ضاعت هذه الثروة ـ لا قدَّر الله ـ وهذه الميِّزة التي امتاز بها المسلمون الأولون ، ومن كان على شاكلتهم في قرونٍ تلتهم ، وهي الإيمان القويُّ الحيُّ بالله ، المتغلغل في أحشائهم ، والمسيطر على عقولهم ومشاعرهم ، والمستهين في سبيل العمل به بكلِّ خطرٍ وخسارةٍ ، ومجازفةٍ ، ومغامرةٍ ، وحبِّ الرسول ﷺ ، الغالب على كلِّ حبٍّ ، واتخاذه قدوةً وأسوةً ، والحرص على نشر تعاليمه ، وأسوته في العالم ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والاستهانة بزخارف الحياة ، لم يكن لذلك بديلٌ فيما يمتاز به الغرب من علومٍ وصناعاتٍ ، واختراعاتٍ ، واكتشافاتٍ ، حتى في القنبلة الذرية؛ التي هي آلة التَّدمير الكبرى.

نتائج إغفال تنفيذ الشريعة:

وقد يكون من نتائج إغفال تنفيذ الشريعة الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية القديمة الأصيلة ، وفقد الغيرة على التشريع الإسلاميِّ ، وتطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية في تلك البلاد زوال أو ضعف الغيرة الإسلامية في الشعوب الإسلامية القاطنة في بلادٍ عجميةٍ قاصيةٍ ، دخل فيها الإسلام قديماً عن طريق دعاة الإسلام ، ومجاهدي العرب ، وحماسها الديني في سبيل بقاء الحرية في العمل بالشريعة الإسلامية في حياتهم الفردية والعائلية ، كما كان في قضية المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ، حتى نجح في ذلك المسلمون في الهند بفضل جهدهم ، وغيرتهم على الدِّين والشريعة ، رغماً عن إصدار المحكمة العليا

حكماً بإلغاء هذا القانون ، وإيجاب العمل بقانونٍ موحَّدٍ منافٍ لتعاليم الإسلام ، وتشريعه ، وصمود الشعب الهندي ، والصحافة في المطالبة بتوحيد القانون ، وما كان نجاح المسلمين في الدفاع عن قضيتهم إلا بسبب الغيرة على التشريع الإسلامي ، وحماسهم في الدفاع عنه ، هذا فضلاً عن تمتُّعهم بالحرية في العمل بأحكامٍ إسلاميَّةٍ شرعيةٍ عديدةٍ ، كأداء صلاة الجمعة في وقتها ، وفي المساجد ، وفي وقت العمل في الإدارات والمكاتب.

الآثار التدميرية للغزو الفكري أخطر من الغزو العسكري :

وقد فاق هذا التخطيط وتنفيذه في بعض البلاد الإسلامية والعربية ـ وهو صوغ هذه الشعوب الإسلامية والعربية حضارياً ، وثقافياً ، وعاطفياً على شاكلة الغرب وقطع صلتها عن الغيرة الإسلامية ، والعواطف الدِّينية ، والشعائر الإسلامية ، والهتافات الدينية ـ كلَّ تحدٍّ للوجود الإسلاميِّ ، وكلَّ مواجهةٍ ومقاومةٍ للكيان الإسلاميِّ في القديم ، نذكر من هذه التحدِّيات والمحاولات للقضاء على نفوذ هذه الأمَّة وبقائها كأمَّةٍ حرَّةٍ قويَّةٍ ذات نفوذ وإمكانياتٍ في رقاعٍ واسعةٍ من العالم ثلاثة :

الأول : الحملة الصليبية التي كانت تقودها عدَّة دول أوربية قوية ، وقادةٌ محنَّكون ، وكان من أهدافها التسلط على القدس ، وفلسطين أولاً ، ثمَّ التقدم إلى الجزيرة العربية والحرمين الشريفين ، وإفقاد المسلمين منبع دينهم ، ومركز شرفهم ، وكان هذا الهجوم ـ عنفه ، واتساعه ، وتنظيمه ـ يخلو من تخطيط دينيٍّ وحضاريٍّ بديلٍ ، وهدفه القضاء على العقيدة الإسلامية ، والمشاريع الدِّينية ، وقد قيَّض الله لمقاومة هذا الهجوم العنيف الخطر ، قائداً بطلاً مؤمناً ، وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فجمع تحت لوائه ـ لنزاهته ، وإخلاصه ، وبعده عن المنافسات الدَّولية ، والمطامع الشخصية ـ الشعوب الإسلاميَّة والعربيَّة ، وهزم الصليبيين هزيمةً منكرة ، ردَّتهم على أعقابهم ، وقطعت آمالهم ، ومطامحهم.

وكان المثال الثاني : الهجوم التتاري الذي لم يكن له مثيل في العنف ،

والقسوة، والهمجية في تاريخ الإنسانية القريب، فضلاً عن التاريخ الإسلاميِّ المحدود ، وقد تمَّ لهم الفتح ، وإبادة الأقطار الواسعة ذات الحضارة الرَّاقية ، والقوة العسكرية الفائقة ، كتركستان ، وإيران ، والعراق والشام ، وقد اقترن فتحه للبلاد بالخضوع العقلي ، والعاطفي لانتصارهم ، وتفوقهم في الفنون الحربية ، حتى كان المثل السائر: صدِّق كل شيء ولكن إذا قيل لك: إنَّ التتر انهزموا ؛ فلا تصدِّق.

ولكن لم يكن هذا الهجوم مدعماً بحضارةٍ ، أو عقيدةٍ ، أو دعوةٍ ، إنَّما كان هجوماً عسكرياً مدوِّخاً مدمِّراً لم يفكر قادته في حينٍ من الأحيان في أن يقدموا بديلاً للدين الإسلاميِّ ، أو الحضارة الإسلاميَّة ، فكان غير جديرٍ بالبقاء طويلاً ، وغير لائق بملء فراغٍ ، أو إبدال حضارةٍ بحضارةٍ ، ودين بدين ، وقانونٍ بقانون ، فاستطاع ـ بحول الله وتوفيقه ـ العلماءُ الربَّانيُّون والدُّعاة المخلصون ، والوزراء المسلمون نقلهم من لا دينٍ إلى دينٍ ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، وأسلم التتار على بكرة أبيهم ، وأسسوا دولاً إسلاميَّةً قويَّةً واسعةً ، ودافعوا عن الإسلام (إذا احتيج إلى ذلك) وكان منهم علماء ، ومؤلفون ، وصالحون ، وربانيُّون(١).

ويتلو هذين التحدِّيين للإسلام والبلاد الإسلامية الاستعمار الغربيُّ المنبسط في عددٍ محدود من البلاد الإسلامية ، والدول الإسلامية ، إدارةً وحكماً ، وسياسةً ، ونفوذاً ، والمسيطر على عددٍ أكبر ثقافةً ، وتفكيراً ، وقيماً ، ومفاهيم ، وخضوعاً فكرياً ، وقد زال هذا الاستعمار ـ إدارياً وسياسياً ـ من أكثر البلاد الإسلامية ، وكان العدد الأكبر من قادة الحرب ضدَّ الاستعمار الأجنبي الأوربي من علماء الدين ، والمتدينين من زعماء المسلمين ، وكان لذلك الأثر الأعمق في نفس الشعب؛ لاقتران هذه المقاومة بتعاليم الدين ، واستخدام لغة الدين ، والتعاليم الإسلامية لتحرير

---

(١) راجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول، وكتاب البروفيسور أرنلد PREECHING of ISLAM وكتاب (CHANGEZ) لمؤلفه هيرلدليب.

البلاد ، ولكنَّه لا يزال مسيطراً على كثيرٍ من الأقطار الإسلاميَّة فكريّاً ، وثقافيّاً ، وقيماً ، ومفاهيم ، وإصابةً بمركَّب النَّقص.

أما الخطران الأولان: الهجوم الصليبي ، والهجوم التتاري؛ فلم تكن معهما دعوةٌ ، ولا حضارةٌ ، ولا فلسفةٌ ، ولم يقدِّما بديلاً للدِّين الإسلاميِّ ، وحضارته ، ومجتمعه ، وكانا بالطبيعة هجومين عسكريين ، وغارتين إقليميتين محدودتين ، ولم يكونا يملكان ما يملأ فراغ دينٍ وعقيدةٍ ، وحضارةٍ وثقافةٍ ، بخلاف الخطر المعاصر الذي يواجه الأقطار الإسلامية العربية المعاصرة ، ويتحدَّى بقاء تأثير الدِّين الإسلاميِّ في الجيل الجديد ، ودوره في صوغ الحياة ، وتكوين العقليات ، ومواجهة المقاومات ، فلذلك هو أحقُّ أن يُنتبه له ، ويُحسب له حساب ، ويعنى له المعنيون بالإسلام وبقائه بنفوذه ، ومكانته في البلاد الإسلامية والعربية ، وقدرته على القيام بدوره في الاتصال بالله وبالرسول ، وبقاء العقيدة الإسلامية ، والغيرة عليها بل التحمُّس لها ، والحرص على نثرها وشعرها.

بين منهجين:

وقادة الأقطار الإسلامية السياسيُّون ، وحكام البلاد الإداريُّون مخيَّرون بين سياستين ومنهجين للعمل:

الأول: أن يُثبتوا غيرتهم على الإسلام ، وتمسُّكهم به ، ودفاعاً عنه ، وإيثاراً له على دياناتٍ أخرى ، ومناهج أخرى للعقيدة والسلوك ، والقيم ، والأقدار ، والمبادىء ، والحضارات ، ومع الاستعداد للانتفاع بالعلوم العصرية ، والاكتشافات الحديثة ، والتقدُّم العلميِّ ، والصناعيِّ «**والحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ الناس بها**» وتطوير النظام التعليميِّ ، والعسكريِّ ، والصناعيِّ حسب مقتضيات الزمان ، وبمقابلة العلم بالعلم ، والقوة بالقوَّة ، والصناعة بالصناعة.

وبهذا المنهج للقيادة ، والإدارة ، والسياسة ، وبهذا الموقف الهادىء الحكيم ، المؤسس على الإخلاص لله ، وخشيته ، ومجاراة الأمَّة في مشاعرها ، ومراعاة ما تدين به ، وتتفانى في سبيله ، وتغار عليه ،

والاعتراف بالحقيقة والواقع ، وعدم إضاعة القوة والوقت ، في تحصيل ما يثير سخط الأمَّة ، وما يفقد ثقتها ، وما يستنفد القوى والطاقات في غير طائل يحرز هؤلاء القادة والحكام ـ بحسب السنَّة الإلهية ، والوعود القرآنية ، وما تحقَّق ، وثبت بالتواتر في التاريخ الإسلامي القيادي ـ حبّاً ، وإخلاصاً ، وتفادياً ، وتفانياً من الشعب المسلم ، وأهل البلاد المسلمين (الذين يكونون الأكثرية ، ويملكون النفوذ والتأثير) التأييد التامَّ ، والتحمُّس العام في تحقيق مطالبهم ، وتحقيق غاياتهم ، والحرص على بقائهم في مراكز سلطتهم ، ومكانتهم في القيادة والزعامة ، يحرزون إخلاصاً وتحمُّساً لا يجدونهما عن طريق الإرهاب ، أو الترغيب ، والمراقبة والتفتيشات ، والعقوبات والاعتقالات ، وحتَّى عن طريق تأييد الحكومات الأجنبية ، والأساليب الاستراتيجية ، وعن طريق الصحافة والإذاعة ، والنشر والدعاية ، وصدق الله العظيم . ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٢] .

وبذلك تتفادى البلاد الكثير من المؤامرات والمشاغبات ، وبذل القوة والجهد في القضاء على المخالفات والثورات ، وعلى وجود القلق وعدم الارتياح في نفوس العدد الأكبر من أفراد الشعب المسلم ، وعدم وجود التحمُّس في نفوس الأكثرية من الشعب لمقاومة هجوم أجنبيٍّ ، أو غارةٍ خارجيةٍ .

من يحارب الفكرة الإسلامية يقدم أكبر خدمة لأعداء الأمة :

أما إذا كان الواقع ضدَّ ذلك ، وكان بين القادة والحكام وبين أفراد الشعب ـ الذين يشكلون الأكثرية ، وعليهم العمدة في الأمن ، والرفاهية ، والأزمات ، والخطوب ـ خليجٌ عميقٌ واسعٌ من عدم الاتصال بالدِّين ، وحبِّه ، والغيرة عليه ، والحرص على تطبيقه في الحياة ، وتنفيذه في المجتمع والحكومة ، بل كانت هنالك مظاهر وأمارات خفيَّةٌ أحياناً ، وجليةٌ أحياناً أخرى ، في عدم ارتياح هؤلاء القادة والحكام لتعاليم الدِّين الإسلاميِّ الحنيف ، وتخوُّفهم من نفوذه وسيطرته على نفوس الشعب وعقوله ،

وإشفاقهم من تحمُّس الشعب الدِّينيِّ ، وغيرته عليه ، والمناداة به ، والمطالبة في بعض الأحيان بتنفيذ بعض أحكام الشريعة الجليَّة الرئيسية أكثر من إشفاقهم من تهديد عدوٍّ في الخارج ، وتحدٍّ أجنبيٍّ ، وقد يكونون في بعض الأحيان منفذين لإشاراتٍ من دولةٍ أجنبيةٍ كبيرةٍ ، مرددين لصوتها ، محققين لغرضها ، كالتخوف من التمسُّك بالمبادىء ، أو المبدئية والأصولية (FUNDA MENTALISM) الذي يدخل فيه التمسك بتعاليم الإسلام ، والوقوف عند حدوده ، وأوامره ، وتحليل ما أحل ، وتحريم ما حرَّم ، فيكون في ذلك وجود قلق ، وعدم ارتياحٍ ، وصراعٍ فكريٍّ وشعوريٍّ في الشعب ، كانت الشعوب الإسلامية والبلاد الإسلامية في غنى عنه .

وبهذا التباعد بين القيادات والسلطات ، والشعوب والجماهير ، تنشأ فجوةٌ عميقةٌ واسعةٌ بين القادة والحكَّام ، وأهل البلاد المسلمين والغيارى على دينهم ، والمحبِّين لوطنهم ، وعدم تفاهمهم ـ فضلاً عن عدم تعاونهم ـ لا يملأ هذه الفجوة أكبر مجهود ، أو تأييدٌ من حكوماتٍ أجنبيةٍ ، وتفقد بذلك القيادات والسلطات أعظم ثروةٍ ، وأكبر قوةٍ ، هي بذل النفس والنفيس في سبيل الله ، والاستماتة في سبيل تحقيق ما يريده الله ، ورسوله ، ودينه ، والوفاء للأئمة المسلمين ، وقادة البلاد ، والحكَّام المخلصين الصالحين ، وهي قوةٌ أبدت العجائب ، والخوارق في تاريخ الإسلام الطويل الحافل ، وأخضعت البلاد والأقطار ـ التي لا نسبة بينها وبين البلاد الإسلامية في العدد والعُدد ، والقوة العسكرية ـ للإسلام ، أو للدِّين الإسلاميِّ ، أو الحكم الإسلامي ، وهي قوةٌ لا تزال موجودةٌ في نفوس المسلمين ، وفي الأقطار الإسلامية ـ على علاَّتها ، ومِحَنها ، أو مؤامراتٍ حيكت حولها ـ ويمكن الاستفادة منها ، وتسخيرها لغاياتٍ لا تعود على هذه الأقطار الإسلامية ، بل تعود على العالم المتمدن المعمور بخيرٍ لا يعدله خير ، وبسعادة لا تساويها سعادة .

فهل من المعقول أن تبقى الأقطار الإسلامية في صراعٍ فكريٍّ ، وعقائديٍّ ، وقلقٍ شعبيٍّ جماهيريٍّ ، وعدم وجود ثقةٍ وتقديرٍ ، وحبٍّ ، وتفانٍ بين الشعوب وأهل البلاد الذين لا تزال أكثريتهم متمسكةً بالدِّين ، محبةً له ،

غيورةً عليه ، وبين قادتها وحكّامها ، ويكون في هذه البلاد جهاد في غير جهاد ، ونضالٌ في غير عدوٍّ ، أم من الخير ومقتضى الحكمة والعقل الإنسانيِّ ـ فضلاً عن العقل الإيمانيِّ ـ أن يكون هنالك انسجامٌ وتوافقٌ ، وثقةٌ متبادلةٌ ، بل عاطفةٌ من فداءٍ ، والتفاني في تأييد هؤلاء القادة المسلمين الغيارى على الدِّين ، المجاهدين في سبيله ، الحريصين على بقائه ، وازدهاره ، وانتصاره ، طلباً لرضا الله تبارك وتعالى ، وإيثاراً للآخرة على الدُّنيا ، وتقليداً للخلفاء الراشدين ، والحكام الصالحين ، والقادة المخلصين المجاهدين ، ويتفادوا بذلك عن كلِّ ما هم في غنىً عنه من صراعٍ ، وقلقٍ ، وقمعٍ للثورات ، وأمنٍ من تقلُّب الحكومات ، وتحسُّسٍ للمؤامرات ، والمخطَّطات.

وصدق الله العظيم : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥].

* * *

الأخوة الإسلاميَّة فوق العصبيات(١)

لقد كان من أعظم ما أتحف الإسلام به الإنسانية الأخوةُ التي تقوم على أساس العقيدة ، والفضيلة ، والكفاية ، والكفاح ، تجمعها كلمة التقوى ، فكان فتحاً جديداً في تاريخ الإنسانية ، لقد كانت الجامعات والدعوات تقوم في الزمن القديم ، ولا تزال على أساس السلالة والنَّسل ، والوطن واللون ، والحرفة ، والصناعة ، واللغات ، وذلك كلُّ ما عرفه التاريخ ، ولا ظلم أعظم من ذلك.

فقد كانت هذه الجامعات والروابط قوالب من حديدٍ ، لا مرونة فيها ، وكانت جدراناً تحول بين أعضاء الأسر الإنسانية ، لا يتخطاها الإنسان ، ولا يخرقها ، وإن كان عملاقاً في العلم والفضل والذكاء والصلاح ، وكأنما كتب على الأسرة الإنسانية أن تظلَّ موزَّعةً مشتَّتةً متناكرةً؛ لأنَّها تقوم على أسسٍ خارجةٍ من نطاقها ، باقيةٍ معها طول حياتها.

لقد كان هذا التوزيع ، وهذه الجامعات الضيقة الصغيرة أقوى عوامل الهدم ، والتخريب ، والدَّمار ، والشقاء ، والحروب التي لا آخر لها ، وقد كانت كلُّ جامعة من هذه الجامعات قد أحاطت نفسها بهالةٍ من التقديس ، والتمجيد ، والقصص ، والأساطير ، وترى لنفسها فضلاً على غيرها ، يخولها حقَّ الاستعباد ، والاسترقاق ، وحقَّ التدمير ، والتخريب ، تعتبر نفسها من أشرف المخلوقات ، وصاحبتها من أحطِّ الحيوانات ، وتعاملها

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس ، المجلد الرابع والأربعون ، عام ١٩٩٩ م.

معاملة الدَّوابِّ ، والكلاب ، فكانت مذابح هائلةٌ ، وقسوةٌ فظيعةٌ ، وسخرةٌ ظالمةٌ ، ومآسٍ محزنةٌ ، ومهازل مخجلةٌ.

ونشأت عصبيات في داخل العصبيات ، وتلك طبيعة العصبيات التي تقوم على أساس غير المبادىء الصَّالحة ، وانقسمت الجامعات على نفسها ، وتكوَّنت فيها جامعات صغيرة ، ثم تكونت في هذه الجامعات الصغيرة جامعاتٌ صغرى ، قد لا ترى إلا بالمكبرة ، وحجَّتها ، وأساسها حجَّة الجامعات الأمِّ وأساسها ، فسلالةٌ أفضل من سلالة ، والوطن الخاصُّ أفضل من وطنٍ عام ، وأبناء قريةٍ أفضل من أبناء بلدٍ ، وأبناء بلدٍ أحبُّ من أبناء مديريةٍ ، وأبناء مديريةٍ أعزُّ من أبناء ولايةٍ ، وهذا كلُّه ما يسوغه منطق الوطنية ، وتغري به فلسفة تقديس السلالة ، أو تمجيد الوطن ، ولونٌ إذا خفَّ في السواد كان أفضل من لون قاتم ، وأسود حالك ، أو سوادٌ إذا أغرق في الحلكة كان أفضل ، وأدلَّ من سواد يشبه السُّمرة ، وأبناء الجدِّ الخامس أفضل من أبناء الجدِّ الثامن ، والهذليون والناطقون بلغتهم أكرم منْ بني طيىء ، وبنو عبد شمس أفضل من بني عبد الدار ، وبنو مخزوم أحقُّ بالسيادة من بني تميم ، ولكلٍّ حجَّةٌ تعتمد على المآثر والروايات ، وعلى فلسفة فضل الدَّم وأصالة النسب ، وحسن الأرومة ، وطيب الأعراق ، وفصاحة اللهجات ، وهكذا كلُّ حزب على صاحبه ، يعامله معاملة العدوِّ البغيض ، والأجنبيِّ الغريب ، وأصبح من العسير الشاقِّ إزالة هذه الحواجز وجمع هذه الألوية كلِّها تحت لواءٍ واحدٍ ، لواء قبيلةٍ واحدةٍ ، أو شعبٍ واحدٍ فضلاً عن الجامعة الإنسانية التي لم يكن للإنسان القديم أن يحلم بها ، أو يفكر فيها.

وأصبح الإنسان يائساً من مستقبله لا يفكِّر في أفضل مما هو فيه ، فلا يسمح المجتمع الهندي ودستوره الذي وضعه الكهنة ورجال الدين أن ينتقل الإنسان من حرفةٍ إلى حرفةٍ ، أو من طبقةٍ إلى طبقةٍ ، ولا يسمح القانون الإيراني أن ينتقل إنسان في الإمبراطورية الإيرانية من مجتمعٍ إلى مجتمعٍ آخر ، ومن مستوىً إلى مستوىً آخر ، وليست الكفاءات والمواهب والكفاحُ في سبيل عقيدةٍ وفضيلةٍ هي القنطرة التي يصل بها الإنسان إلى السعادة ، بل

هي قنطرة الولادة ، وقنطرة الدَّم ، واللون ، والنسب؛ التي تصل بالإنسان إلى السعادة ، وليست في الحقيقة قناطر وجسوراً يتدرَّج عليها الإنسان إلى الرقيِّ ، والسعادة ، والتفوُّق ، بل هي رافعاتٌ تحمل الإنسان من الحضيض إلى السُّمو في طفرةٍ واحدةٍ ، لا دخل فيها لإرادته ، ولا لسعيه ، فأنشأ ذلك في الإنسان اليأس ، والتشاؤم ، وعطَّل ذلك قواه ، وأخمد همَّته ، وجمَّد قريحته ، وأخمد فيه جذوة الذكاء ، والطموح ، والتنافس الذي يرجع إليه الفضل في اشتعال المواهب والإنتاج في كلِّ فنٍّ من الفنون ، وفي كلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ، فمصيره معلومٌ محتومٌ ، وحوله خطٌّ محدودٌ مرسومٌ ، لا يتجاوزه ، ولا يتخطَّاه مهما أوتي من النبوغ ، ومهما تحلَّى به من الفضائل ، ومهما تخلَّق به من أخلاق وفواضل ، ومهما كافح في سبيل المجد ، فابن طبقةٍ هو ابن طبقةٍ ، وصاحب حرفةٍ هو صاحب حرفةٍ ، والأسود هو الأسود ، والأبيض هو الأبيض ، وجاهل بني ربيعة أكرم من عالم بني تغلب ، وكلبٌ في بني ذؤيب أفضل من الجواد في بني أسد ، فكلُّها حظوظٌ وجدودٌ ، جاءت ، وانحدرت من آباء وجدود .

جاء الإسلام وضرب هذا الأساس الذي قام عليه المجتمع الجاهليُّ الزائف ضربته القاضية الحاسمة المعروفة في التاريخ ، فنقض هذا الأساس ، وأسس مجتمعاً جديداً على أساس الإيمان والعقيدة ، وعلى أساس الصَّلاح والفضيلة ، وعلى أساس الكفاءة والكفاح ، ونادى بوحدة الإنسان ، وبكرامة الإنسان ، وبجدارة الإنسان لكل شيءٍ ، فمرَّةً قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] ، ومرَّةً قال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] ، ونادى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ومرَّةً جهر: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وأعلن أنَّ العمدة والفارق والأساس هو السعي والكفاح ، وقال: ﴿ وَأَن

﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١] ، وأن الفرق في النتائج والجزاء أساسه الفرق في السعي والجدارة ، ومقدار الكفاح ، فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وأنَّ السعادة والحياة الطيبة مضمونةٌ لمن أوفى شروطها ، وأدّى حقوقها من أيِّ جنس أو سلالةٍ كانٍ ، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وصرَّح بأنه ليس الأمر بالأماني والأحلام ، وبمجرد الانتساب إلى أجدادٍ ، وأديان ، إنَّما هو بالعقيدة الصحيحة ، والعمل الصالح ، والاجتناب عن المعاصي ، وأنَّ قانون الجزاء الإلهي عامٌّ شاملٌ لا يميِّز بين جنسٍ وجنس ، وسلالةٍ وسلالة ، وديانةٍ وديانة ، فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

على هذا الأساس العادل المعقول قام أفضل مجتمع عرفه التاريخ ، وهو المجتمع الأول الذي أرسى قواعده الرسول الكريم ﷺ وأنَّ المقياس فيه التقوى ؛ الذي يجمع بين معاني الكفاءة ، والكفاح ، وكان ذلك مقياس الفضل ، والزعامة ، والرئاسة ، والشرف ، وهو آخر مجتمعٍ حكم فيه هذا المقياس ، وقام المجتمع كلُّه على هذا الأساس، وسمع الناسُ للمرَّة الأولى في المجتمع العربي القائم على أساس العربية والفخر بالمضرية والقرشية ، سمعوا سيِّد مضر يقول لفارسي تداولته الأيدي بالاسترقاق والسخرة: «**سلمان منَّا أهل البيت**» وسمعوا أمير المؤمنين الذي يهابه كسرى وقيصر ، يقول لعبدٍ حبشيٍّ أجحف به الضرب ، واشتدَّت به الإهانة: «سيدنا بلال» ويعظم سالماً مولى أبي حذيفة ، ويراه جديراً بالخلافة ، ويقدِّم موالي قريش لسابقتهم في الإسلام ، وحسن بلائهم في الجهاد على سادة قريش ، وغطارفتها ، مثل أبي سفيان ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل.

ولأوَّل مرَّةٍ في التاريخ ماتت في هذا المجتمع ؛ الذي كان يتَّسع ويتضخَّم يوماً فيوماً العصبيات الجاهلية القائمة على أساس النسب والدم ، والعرق واللون ، والوطن واللغة ، وعُدَّ الهتاف بها ، والتناصر على أساسها ، ومحاولة إحيائها رذيلةً ، وإفساداً ، ورجعةً إلى الجاهلية ، ورجعيةً ، فقال القرآن الكريم : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح : ٢٦].

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «**ليس منَّا من دعا إلى عصبيةٍ ، وليس منَّا من قاتل على عصبيةٍ ، وليس منَّا من غضب لعصبيةٍ**» وقال وقد سمع الأنصار يقولون: يا للأنصار! والمهاجرين يقولون: يا للمهاجرين! : «**دعوها فإنَّها منتنة**» ، ثم قال: «**ألا ما بال دعوى أهل الجاهلية! ألا ما بال دعوى أهل الجاهلية!**» وتلك نهاية لا ينتظر من نبي أدَّبه ربُّه ، فأحسن تأديبه أكثر من ذلك ، وجاء في حديثٍ صحيح : «**من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثيِّ جهنم**» قالوا: يا رسول الله! وإن صام وإن صلى؟ قال: «**وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سمَّاهم الله ـ عزّ وجل ـ المسلمين ، المؤمنين ، عباد الله ـ عزّ وجل ـ**».

وهكذا ظلَّ المجتمع الإنسانيُّ قائماً على أساس التقوى ، وعلى أساس المبدأ والعقيدة ، يتحكَّم فيه مقياس الكفاءة والكفاح ، حتى جاء عصر القوميات المشؤوم في أوربة ، وكانت مرحلةً طبيعيةً في حياتها ومجتمعها ، فلما انهارت الكنيسة اللاتينية بأخطائها ، وجناياتها ، وسفاهتها ، وبتأثير الحركة الاحتجاجية التي قام بها «لوثر» ، وبالنهضة العلمية والعقلية التي انبثقت في القرون المظلمة ، أصبحت الأمم الأوربية قطعاناً من البشر لا تربط بينها جامعةٌ دينيةٌ ، أو مركزٌ روحيٌّ ، فقد فقدت النصرانية المتعثِّرة سلطانها على النفوس والرؤوس ، فلجأت أوربة بطبيعة الحال إلى قومياتٍ مختلفةٍ تربط بين أفرادها المشتتين الضائعين ، وكانت بضاعة المفلس ، ومأوى الطريد ، وألهبت بها الشعور السياسي ، والشعور بالواجب ، وقوَّة الدِّفاع عن البلاد ، والحميَّة التي تعتمد عليها ، وتلتجىء إليها في

الأزمات ، وإنها ـ ولا شكَّ ـ حصن الأمانة التي نضب فيها معين العقيدة والروح ، وأفلست في مقومات الحياة ، وانهارت في الأخلاق ، واستعانت أوربة الحائرة المضطربة بهذا السلاح حيناً من الدهر ، فاستعمرت بقوَّتها أقطاراً شرقيةً سلطت أبناء جنسها على رقاب المحكومين ، وكانت هذه القومية مصدر قوّتها ، وسرَّ توحُّدها وانتظامها في سلكٍ واحدٍ.

وبدأت هذه النزعة تعمل عملها في الداخل ، وتبيض وتفرِّخ ، وانقسمت أوربة نفسها في معسكراتٍ قوميَّةٍ مختلفةٍ ، فإنجلترا قوميةٌ ومعسكر ، وألمانيا قوميةٌ ومعسكر ، وفرنسا قوميةٌ ومعسكر ، والمجر قوميةٌ ومعسكر ، والنمسا قوميةٌ ومعسكر ، وهكذا. . .

وجاء اليوم الذي لا مفرَّ منه ، اليوم الذي تحاربت فيه هذه المعسكرات على نفس أساس القوميات ، فكانت حروب قبل الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن حرب مبادىء وعقائد ، إنها كانت حرب قوميات دفعت إليها ، وحملت عليها النعرة القوميَّة ، والطموح القوميُّ ، وتلك طبيعة الفلسفة القومية إذا نضجت واختمرت ، ولا تلام الشجرة على ثمارها الطبيعية ، وجاءت الحرب الأولى بويلاتها.

ولما خرجت أوربة من هذه الحرب الأولى مثخنةً بالجراح منهوكة القوى ، مرهقةً بالديون والتبعات بدأ العقلاء في أوربة يفكِّرون ، ويتحدَّثون على أساسٍ أوسع من القوميات والوطنيات ، وبدأ الحديث منذ ذلك الحين عن الإنسانية والآفاقية ، ولكنَّه حديثٌ خافتٌ محدودٌ ، كأنه مصباح راهبٍ ضعيفٍ يتراءى من بعيدٍ في صحراء مظلمةٍ.

وجاءت الحرب الثانية المدمِّرة ، ولم تكن إلا على أساس ما أثارته القومية المتطرفة من الطموح المسرف ، والمجد الكاذب ، والمخالطات الخدَّاعة ، والدعايات الكاذبة ، واستفزاز الشعور القومي ، ولما وضعت الحرب أوزارها ـ باضطرارٍ من بعض ، واختيارٍ من بعض ـ قويت حركة الكراهة والتذمُّر من القومية ، وأصبح نوابغ الفكر الحديث والمفكِّرون الأحرار ينكرون عليها في صراحةٍ وقوَّةٍ ، ويدعون إلى الجامعة الإنسانية ،

والرابطة العالمية في علمٍ واستدلالٍ ، ويؤلِّفون في ذلك كتباً قيمةً.

وقد تأسس المعسكر الشيوعي على أساس عالمي ، ورفض القوميات ، وتأسَّس على مبدأ وعقيدةٍ وشعار ، واتجهت دعوته إلى جميع الأمم والشعوب والبلاد ، ومن العار علينا نحن المسلمين والعرب أن نتمسَّك بالقومية ، وندعو إليها ، والعالم المتمدِّن بمعسكريه المتنافسين يتجه إلى العالمية والآفاقية.

ولكننا مع الأسف نبدأ دائماً من حيث تنتهي أوربة ، فقد ولى عصر القوميات هناك ، وبدأ في شرقنا الإسلامي ، وكنا دائماً في غنىً عن هذه القوميات والعصبيات بل كنَّا وحدنا حاملي راية الثورة على هذه النزعة؛ التي هي أثرٌ من آثار الاجتماع الإنسانيِّ القاصر الذي لم يبلغ الرشد ، وكان علينا أن نحارب هذه النزعة الممزِّقة لوحدة الإنسان ، المفرِّقة لشمل الأديان.

وكان العود إليها والدعوة إليها عوداً إلى عصر الجهالة والشقاء ، ورجوعاً بالإنسانية والمدنية إلى الوراء ، وكفراً بنعمة الله التي أنعم بها على المسلمين وأغناهم بها عن روابط محدودةٍ ، ضيقةٍ مصطنعةٍ ، مفرقةٍ بين الأمم ، باعثةٍ للأنانيات ، مثيرةٍ للشهوات ، سطحيةٍ ، لا تملك قدسية عقيدةٍ ، ولا قوَّة عاطفةٍ ، ولا تستطيع أن تجمع بين شعوبٍ مختلفةٍ ، أو بلادٍ متفرقةٍ ، وقد ثبت إخفاقها في محاولة الجمع بين شعوب تتكلم بلغةٍ واحدةٍ ، وتدين بدينٍ واحد ، وتجتمع في قضايا كثيرةٍ ، وعدوُّها مشتركٌ.

أما قوة الجامعة الإسلامية ، ومتانة الأخوَّة الإسلامية؛ فلا تحتاج إلى دليلٍ ، والتاريخ كلُّه مليء بمعجزات هذه القوَّة ، وروادها ، قد استطاع صلاح الدين الأيوبي وهو زعيم الجهاد الإسلامي وكردي من أصلٍ أعجمي أن يجمع تحت رايته العرب ، والأكراد ، والمصريين ، والسوريين ، والسودانيين ، وغيرهم من الأجناس والسلالات ، ويثير فيهم روح النخوة الإسلامية ، والحماسة الدِّينية ، واستماتوا في سبيل الشهادة في سبيل الله ، ودفع الصليبيين عن الأراضي المقدسة ، ولم تظهر ثورةٌ ، أو جموحٌ ، أو عصيانٌ ، أو ضجرٌ في جانبٍ من جوانب معسكره العالمي العظيم ، الذي

كان يجمع خليطاً من البشر ، وهيئةً من الأمم ، ولم تكن الرابطة بينهم غير رابطة العقيدة ، والحماسة الدينية ، وحسبنا هذا المثال الرائع الذي لا يزال العالم الإسلامي يغتبط به ، والذي يحدِّث العرب باحتضان هذه الديانة الجديدة ، أو الفلسفة الجديدة يسيء إليهم إساءةً لا نظير لها في التاريخ ، فإنه يحاول أن يقطع صلتهم عن هذا العالم الفسيح الذي يدين بحبهم ، ويؤمن بإمامتهم إرضاءً لأقليةٍ غير مسلمةٍ تعيش في العالم العربي ، وهي تعد بمئات الألوف ، والأقلية المسلمة في الهند وحدها يبلغ عدد أفرادها مئة وخمسين مليوناً ، ويفوق عدد غير المسلمين في العالم العربي بأضعاف أضعاف فضلاً عن عدد المسلمين في باكستان ، وأندونيسيا ، وفي غيرهما من الأقطار ، فإنَّه عددٌ ضخمٌ يربو على خمسمئة مليون ، وتلك مساومةٌ خسارة العرب فيها محققةٌ وواضحةٌ.

والذي يدعو إلى القومية العربية في بلاد العرب يعطي دعاة القومية المتطرفة في الهند ، وتركيا ، وفي غيرهما من البلاد ، ويعطي دعاة الجاهلية في بلادٍ شرقيةٍ كثيرةٍ حجةً يقيمونها على المسلمين الذين لا يزالون متمسكين بالجامعة الإسلامية ، ولا يزالون ينظرون إلى الجزيرة العربية كمركزٍ روحيٍّ ومصدر إلهام ، ويفتُّ في عضد المسلمين ، ويحرج موقفهم مع دعاة القومية في بلادهم ، ويفقد العرب شخصيتهم العالمية الرئيسية التي منحهم الإسلام إياها ، والتي تمتعوا بها مدَّةً طويلةً ، ويجعلهم ينطوون على نفوسهم، ويعيشون في عزلةٍ عن العالم، وعن قضاياهم الكبرى ، ثم ينقسمون على أنفسهم ، ويتوزَّعون في معسكراتٍ صغيرةٍ ، وتنشأ قومياتٌ في ضمن قوميات، ووحداتٌ في بطن وحدات، وتلك طبيعة القومية لا تستطيع أن تسدَّ أبواب القوميات الصغيرة ، بل هي التي تفتحها ، وتمهِّد العقول، وتثير العواطف للاستقلال، واستغلال نفس المبدأ، ونفس الطريق.

* * *

نظرة مؤمن واعٍ إلى المدنيَّات المعاصرة الزَّائفة[1]

سادتي وإخواني! قصَّةٌ يرويها المؤرخون العرب ، نمرُّ بها مرّاً سريعاً عابراً ، تستحقُّ منا لفتةً كريمةً عميقةً ، وبها أفتتح حديثي هذا ، ولها اتصالٌ وثيقٌ بالموضوع ، وهي تدلُّ على وضعية نظرة المؤمن الواعي إلى المدنيَّات المعاصرة الزائفة ، لعلكم أيضاً مررتم بهذه القصَّة فيما قرأتم من كتب تاريخ الفتوح الإسلامية ، في العصر الأول ، ولست أدري هل استوقفتكم هذه القصَّة كما استوقفتني ، وهل استلهمتم منها تلك المعاني الواسعة العميقة ، والنتائج الكبيرة الخطيرة التي استلهمتها ، وقد تلفت قصَّةٌ أو حديثٌ قارئاً من عامَّة القراء ، ولا يلفت ذلك الحديث قراءً آخرين ، وإن كانوا يفوقون القارىء الأول في كثيرٍ من الفضائل العلمية والنبوغ ، وبعد النظر ، والعمق.

قصَّةٌ رواها المؤرخون العرب على عادتهم في بساطةٍ واختصارٍ ، ومن غير تعليقٍ واستنتاجٍ ، يقولون: إنَّ «رستم»[2] قائد قواد الفرس طلب من سيدنا سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين في فارس أن يرسل إليه رجلاً يستوضحه عن أغراض هذا الغزو الذي لم يكن للفرس به عهد ، ولم

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس ، المجلد الواحد والعشرون ، عام ١٩٧٧ م.

(٢) كان قائد الجيوش في إيران ، ووزير الحربية فيها ، وكان من أبطال الفرس المعدودين الّذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والشدة ، وهو الذي سعى في تنصيب الملك يزدجرد الثالث ٦٣٢ م ، وقلد مهمة دفع العرب المسلمين حين قدومهم لفتح فارس ، وقتل سنة ٦٣٥ م ، (محرم ١٤ هـ) في يوم القادسية وكانت قلنسوته بمئة ألف ، وهي علامة من تمَّ شرفه في ذلك العهد ، (ملخصاً من كُتب التاريخ).

يكن للعرب به شأن ، إنَّما عُرف العرب بالانطواء على نفوسهم في باديتهم قروناً طويلةً ، فكانت هذه مفاجأةً لم يكن الفرس يتوقعونها ، والعرب قد عُرفوا بالقناعة ، والتقشُّف في الحياة ، والانعزال عن العالم الخارجيِّ في عامَّة الأحوال ، وعدم الطموح إلى فتح إمبراطوريات جاورتهم ، فلمَّا خرج العرب لأوَّل مرَّةٍ في التاريخ الطويل يغزون فارس والروم ، استلفت ذلك نظر المتأملين ، نظر الذين واجهوا هذا الغزو وجهاً لوجه ، فأرسل سعد ربعي بن عامر[١] ، وكان «رستم» قد بالغ في التزيين ، وبالأصحِّ: التهويل ، قد زين مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابي الحريرية ، وأظهر اليواقيت ، واللآلىء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجٌ ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سريرٍ من ذهبٍ[٢] ، جاء ربعيُّ بن عامرٍ لا يكترث بشيءٍ ، ولا يحتفل بهذه الزينة العظيمة ، التي لم يعهدها ، فجلس بجنب «رستم» كأنَّه جالس بجوار رجلٍ من زملائه ، فقال «رستم»: ما جاء بكم؟ فقال: **«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»**[٣].

أيُّها الإخوة! إنَّني لا أريد أن أتناول هذه الأجزاء الثلاثة التي جاءت في هذه الكلمة البسيطة البليغة كلِّها شرحاً وإيضاحاً. ولكنَّني أتناول شيئاً واحداً ، وهو قول ذلك المؤمن الواعي يخاطب «رستم» وهو في غاية أبَّهته ، وفي زهوه ، وعلى قمَّة مجده ، يقول له: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» إنني لا أستغرب قوله: «لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ولا من قوله: «من جور الأديان إلى عدل الإسلام» فقد كان كلُّ ذلك حقيقةً بديهية للمسلمين الذين غرس رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد في

---

(١) كان من الصحابة كما صرح بها العلامة ابن حجر العسقلاني في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» وكان من أشراف العرب ، راجع «الإصابة في تمييز الصحابة» ج ١ ص ٥٠٣.

(٢) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير ، ج ٧ ، ص ٣٩ طبع بيروت ، ١٩٦٦ م.

(٣) انظر: المصدر السابق: ج١ ، ٣٩.

نفوسهم ، وحبَّب الله إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم ، وكرَّه إليهم الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، ينظرون إلى جميع أنواع الشرك والوثنية وعبادة الإنسان للإنسان ، بعين الازدراء والاحتقار ، وكانوا يعافونها ، وكانت أذواقهم تمجُّها ، وتأباها ، وكان ربعيُّ بن عامر يعرف أنَّ ملوك فارس وأمراءها قد استعبدوا الناس ، وكانوا يعاملونهم معاملة الآلهة للعباد ، لا معاملة السادة للعبيد ، وكان الناس يكفرون[1] لهم ، ويسجدون ، ويرون أنَّهم فوق البشر ، يجري في عروقهم دمٌ إلهيٌّ مقدَّسٌ[2] ، وكانوا يؤمنون بأنَّ الإسلام هو الشريعة العادلة ، وأنَّ غيره من الأديان قد أصبحت جائرةً تستعبد الإنسان للإنسان ، وتسخِّره للأحبار والرُّهبان ، وتقيِّده بأغلالٍ ، وقيودٍ ، وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد قرؤوا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقرؤوا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] ، وقد آمنوا بذلك ، وشاهدوا آثارها في الأمم والديانات التي عرفوها ، كنصارى الروم ، ومجوس فارس ، ويهود المدينة.

ولو قال ربعيُّ بن عامر: «لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» ، لم أستغرب ذلك؛ لأنَّه آمن بالآخرة التي لا آخر لها ، وبالجنَّة التي لا حدَّ لها ولا نهاية ، وقد قرأ في الكتاب الذي قرأه ، وآمن به ، وعاش فيه ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ، ويقول رسول الله ﷺ في غزوة بدر: «**قوموا**

---

(١) كفر الرَّجل للرجل: خضع بأن يضع يده على صدره ، ويطأطىء رأسه ، ويتطامن تعظيماً له.

(٢) راجع للتفصيل كتاب «إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستن سين.

إلى جنة عرضها السموات والأرض»[1] ، وقال: «**موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[2].

ولكنَّني أستغرب قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» ، هنا أتساءل: ما هو الضِّيق الذي كان فيه الفرس؟ وما هي السعة التي كان فيها العرب؟ حتى ساغ لربعيٍّ بن عامر رضي الله عنه ، أن يقول: إنا معشر العرب المسلمين نريد أن نخرجكم أيها الفرس الأشقياء المنكوبون! من ضيق الدنيا إلى سعتها ، هل كان ما كان فيه للعرب يستحقُّ أن يسمَّى السَّعة ، وهل كان ما كان فيه الفرس يستحقُّ أن يسمَّى الضيق؟ ونسأل التاريخ عن ذلك ، وهو شاهدٌ عدلٌ ، وتاريخ العرب وتاريخ الروم والفرس مسجَّلٌ مدوَّنٌ ، لا يتطرَّق إليه الشكُّ قد جاء برواية الرواة العادلين الموثوق بهم ، وتضافرت الروايات والشهادات على ذلك ، فإذا كان العرب يعيشون في بحبوحةٍ من العيش ، لم يكن ذلك مجهولاً أغفله التاريخ ، وإذا كان الفرس يعيشون في ضيقٍ لم يكن ذلك خافياً.

وقد قرَّر التاريخ ، وأجمع المؤرخون على أنَّ الفرس والروم كانوا يعيشون في رغدٍ من العيش ، ويتقلَّبون في أعطاف النعيم ، قد اتسعت لهم الدُّنيا ، ولانت لهم الحياة ، أمَّا العرب: فبالعكس كانوا يعيشون ـ حتى بعد الإسلام ـ في شظفٍ. وكان العهد عهد خلافة عمر ، وكان الناس على الفطرة ـ العربية الإسلامية ـ وكانت المدنية لم تتعقَّد ، ولم تتوسَّع بعد ، وكان عمر ـ وهو خليفة المسلمين ـ يعيش حياةً متقشِّفةً زاهدةً ، ويأخذ الناس بالتقشُّف والتخشُّن في الحياة ، وكانت هذه الحياة التي يحياها العرب في الجزيرة حياة بداوةٍ ، وتخلُّفٍ في نظر الفرس والروم ، وكانوا يتأسَّفون على حالهم ، ويرون أنَّهم في جهدٍ من العيش وضيقٍ من الدُّنيا.

فهنا نتساءل: ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس ، حتى رثى له ذلك المسلم العربيُّ؟ وما كانت السَّعة التي كان فيها العرب ، حتى افتخر بها ذلك

---

(١) رواه مسلم (١٩٠١) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٠٧٨) ، والترمذي (٣٠١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الصحابيُّ؟ هل هو ضرب من ضروب المبالغات الشعرية؟ إنَّ العرب لم يتعوَّدوا ذلك ، إنَّ الإسلام لم يبح لأيِّ واحدٍ من أفراد الأمَّة المسلمة أن يتبجَّح[1] ، ويبالغ هذه المبالغة الشعرية ، إنَّهم كانوا بعيدين كلَّ البعد عن المبالغات والقول الجزاف ، كانوا أصحاب جدٍّ وصدق ، أصحاب صراحةٍ وشجاعةٍ ، فما هو الضيق؟ إنَّه كان إذا دخل هذا المجلس ، بل إذا دخل في حدود المملكة الفارسية العظيمة : كان جديراً كلَّ الجدارة بأن يسيل لعابه ، ويتحلَّب فمه على هذه الزخارف التي كان يتمتَّع بها الفرس ، وعلى هذه الأنواع من الأطعمة والأشربة ، إنَّه لا بدَّ قد شاهد الكثير من نفائس الأشياء ، وغوالي الطُّرف ، ومظاهر الحضارة ، والأناقة ، والترف ، إنَّه واجه هذه المدنية الزاهية الزاهرة؛ التي بلغت قمَّتها ومجدها ، فقد وسعها الفرس بذكائهم واختراعهم ، وبتجاربهم الطويلة الأمد ، وبمغانمهم الكثيرة وفتوحهم الواسعة ، وكانت فيها مدن بقصورها الفاخرة ، ومبانيها العظيمة ، وحدائقها الغناء ، ومتنزَّهاتها السَّاحرة ، وأسواقها الزاخرة ، وطرقها ، ووارداتها العظيمة ، فمن أيِّ نوعٍ كان هؤلاء العرب الذين تمرَّدوا ، وقسوا على هذه المظاهر الفتانة ، المظاهر التي يجنُّ بها الإنسان جنوناً؟ .

إنَّه لا ينقضي عجبي من قوله : «إنَّ الله ابتعثنا (يا أيها الفرس) لنخرجكم من ضيق الدُّنيا إلى سعتها» ، لماذا؟ لأنه كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء ، كما ينظر العاقل إلى دمىً قد كسيت ملابس فاخرةً جميلةً ، إلى تماثيل قد أُحكِمت صناعتها ، وتأنَّق صانعوها في تصوير قسماتها وملامحها ، ولكنَّها على كلِّ حالٍ تماثيل من حجر ، أو جبسٍ ، لا حياة فيها ، ولا حراك بها ، كان ربعيُّ بن عامر ـ وهو أحد أفراد الجيش الإسلاميِّ ـ ينظر إلى «رستم» كطائرٍ مدلَّلٍ في قفص من ذهبٍ ، وكان كسرى يزدجرد ـ الذي لم يره بعد ـ كذلك كعندليبٍ ، وكطاووس ، أو كأي أجمل طائر ، لكنَّه على كلِّ حال طائرٌ محبوسٌ ، هذا الطائر يوضع في قفص ،

---

(١) يتبجَّح : يفخر ويباهي بشيءٍ ما .

والقفص من ذهب ، أسلاكه كلُّها من ذهب ، والإناء الذي يأكل ، ويشرب فيه الطائر ، من ذهبٍ كذلك ، ولكن هل يحسد هذا الطائر أيُّ إنسانٍ عرف قيمة الحياة ، وعرف قيمة الحرِّيَّة والشعور ، وعرف قيمة العقل ، وعرف قيمة العلم؛ هل يحسد هذا الإنسان الذي أكرمه الله بالإنسانية ، يحسد هذا الطائر المدلَّل؛ لأنه في قفص من ذهب ، وهو في بيت من مدرٍ أو وبرٍ ، بل نخطو خطوةً أخرى ، هل تحسد كلباً مدلَّلاً ، كلباً يربيه صاحبه الأوربيُّ ، ويغذيه بأطايب الطعام ، ولذيذ الفاكهة ، ويسقيه اللبن ، ويقلِّده قلادةً ذهبيةً ، وينيمه على فراشٍ وثيرٍ ناعم؟!

إنَّ نظرة ربعيٍّ بن عامر لم تكن تختلف عن نظرتنا إلى طائر مدلَّلٍ في قفصٍ ذهبيٍّ ، أو إلى كلبٍ مدلَّلٍ عند سيِّدٍ أوربيٍّ ، وذلك كلُّه لأنَّه كان كبير الاعتزاز بالعقيدة التي آمن بها ، وبالدَّعوة التي حملها ، وبالشَّخصية التي ملكها ، وبالرسالة التي اضطلع بها ، وبالقرآن الذي درسه ، وشغف به ، وأحبَّه ، إنَّه كان معتزّاً بالمعاني ، وبالقيم ، وبالحقائق التي هي أسمى من تلك الزخارف والمظاهر ، فلم تبهره هذه المدنية ، ولم تسحره مفاتنها ، إنَّه كان يعرف أن «رستم» ولو كان قائد قواد الفرس ، يعبد النار ، ثم إنَّه يعبد نفسه ، كما أنَّه يعبد سيِّده ، ويعبد عاداته.

وليست القضيَّة قضية «رستم» أو قضية قائدٍ من القواد ، أو أمير من أمراء الفرس ، بل هذا هو الشأن مع سيِّدهم جميعاً ، مع الإمبراطور يزدجرد ، إنَّه كان يعرف أنه عبدٌ لعاداته ، أو عبدٌ لعبيده ، لا يستطيع أن يتحرَّك إلا بهم ، ولا يستطيع أن يصول ، ويجول إلا على أكتافهم ، إنه ليس إنساناً حرّاً ، بأي معنى من معاني الكلمة ، بل هو إنسان استعبدته الشهوات ، واستعبدته العادات ، واستعبدته الأعراف ، واستعبدته المظاهر ، واستعبدته النفس الأمارة بالسُّوء ، واستعبدته اللذات الجسدية الخسيسة ، والمطالب الحيوانيَّة الحقيرة.

أنتم تعرفون: أنَّ الإمبراطور «يزدجرد» هو ثاني الإمبراطورين العظيمين اللذين توزعا العالم المتمدِّن المعمور: كسرى إيران ، وقيصر الروم ، وقد

انتهت بي دراستي الحديثة للتاريخ المعاصر للفتح الإسلاميِّ ، إلى أن إمبراطورية الفرس كانت تفوق الإمبراطورية البيزنطينية ، كانت أوسع منها ، وكانت ولايات من الهند تحت حكم الإيرانيين ، منها ولايات موغلة في الهند ، ولكن هذا الإمبراطور العظيم ، قد روى عنه التاريخ أنَّه لما هرب من عاصمته «المدائن» ناجياً بنفسه ، وكان في حالة اللجوء ، والفرار ، حمل معه ألف طاهٍ (طبَّاخ) هل تصدقون ألف طبَّاخ ، وألف مغنٍّ ، وألف قيِّمٍ للصُّقور والنمور ، ثم كان يقول: يا ويل نفسي! إنني لم آخذ معي إلا هذا العدد القليل من الأعوان ، ومن الخدم والحشم ، كان يقول: أنا أستحق الرحمة والرثاء! فهل يعدُّ هذا الرجل رجلاً حرَّاً سعيداً ، صاحب شخصيةٍ ، وصاحب إرادةٍ ، ثم إنَّه لما لجأ إلى عجوزٍ فقيرةٍ ، وقدمت له الطعام وهي ترثي له ، وقد توسمت فيه الملك والشرف ، قال: لا أستطيع أن أستسيغ هذا الطعام حتى يُغنَّى لي[1].

إلى هذه النقطة وصلت عبوديتهم ، ووصل رقهم ، ووصل خضوعهم للعادات القاهرة ، إنَّه لم يكن يستطيع أن يتناول طعاماً وهو في حاجةٍ إلى الطعام ، حتى يغنِّي له المغنون ، أمَّا من غير أغنية ، فهو غير قادر على أن يتناول الطعام.

ونذكر أنَّ «الهرمزان» ـ ملك الأهواز ، وأحد كبار أمراء الفرس ـ لما أسر ، وجاء إلى سيدنا عمر رضي الله عنه في المدينة ، وكان ـ رضي الله عنه ـ نائماً في المسجد متوسداً برنسه ، فاستيقظ بالجلبة ، ودار الحوار بينه وبين عمر ـ رضي الله عنه ـ وشعر «الهرمزان» بالعطش ، فطلب الماء ، فأتي به في قدحٍ غليظٍ ، فقال: لو متُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا ، فأتي به في إناءٍ يرضاه ، فشرب[2].

---

(١) راجع للتفاصيل «إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستن سين ، وكتاب العلامة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الفصل الثاني في الباب الأول ، طبع دار ابن كثير ، دمشق.

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» ج ٤ ، ص ٢١٧ ، و«فتوح البلدان»: ص ٣٧٤.

ونبَّـه أمير المؤمنين أصحابه على ذلك ، وحثَّهم على الحمد لله تبارك وتعالى ، والشكر على نعمة الإسلام ، الإسلام الذي حرَّرهم من هذه العبوديات ، ومن هذه الأصنام التي ينحتها الإنسان بنفسه ، ثم يفرضها على نفسه ، ويقول إبراهيم عليه السلام : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات : ٩٥] وهذه عاداتٌ وأعرافٌ إنَّما نضعها نحن ، ونتَّفق عليها ، إنَّه لا يُعتبر الإنسان شريفاً إلا إذا سكن في كذا من البيوت ، ولبس كذا من اللباس ، وظهر في المظهر الفلانيِّ ، وكان له من الأثاث والرياض كذا وكذا ، وإنَّ الفرس في العصر الذي نتحدث عنه ، كانوا يعيِّرون الرجل الكبير الذي لا تبلغ قيمة قلنسوته مئة ألف ، ومن بلغ نصف الشرف كانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً ، وكانت منطقة كبرائهم تقوَّم بخمسين ألفاً(١) .

وهذه الأعراف والمثل كلُّها من مخترعات الناس التي ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف : ٤٠] أليست هذه المدنية الأوربية مجموعةً من الأعراف المصطنعة ، والقيود المزوَّرة ، والمصطلحات الموضوعة ، والالتزامات التي التزمها الأوربيون ومَنْ قلَّدهم؟ ما هو مصدرها؟ ومن أين جاءت هذه الالتزامات التي التزمناها؟ وقد خضعنا لتأثير هذه الحضارة ، وابتعدنا عن الطبيعة ، والتقشُّف الذي عُرف به العرب ، وحثَّ عليه المربون للأمة الإسلاميَّة ، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢) .

وكان ربعيُّ بن عامر بنظره البعيد ، وبإيمانه القويِّ ، وعلمه العميق ، وإن كان قصير النظر في عين كثيرٍ من الذين يدَّعون العلم والمدنية ، ينظر إلى هذه الالتزامات التي التزمها الفرس كقيودٍ وأغلالٍ ، وأطواقٍ وأصفادٍ ، وهو لا يعرف منها إلا قليلاً ، ولكن الذي عرفه كان كثيراً ، وكان كافياً

---

(١) راجع «تاريخ الطبري» ج ٢٤ ص ٦ ـ ١١ ـ ١٣٤ .

(٢) فقد كتب إلى بعض عمَّاله العرب وهم في بلاد العجم : «إيَّاكم والتنعُّم وزيَّ العجم ، وعليكم بالشمس ، فإنَّها حمام العرب ، وتمعددوا (يعني تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف) واخشوشنوا (أي تخشنوا في المطعم والملبس) . . . إلخ» رواه البغويُّ عن أبي عثمان النَّهدي .

للشهادة ، وبذلك استطاع أن يقول: «الله ابتعثنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها» أيها الفرس! لا تغرنّكم أنفسكم، ولا تخدعنّكم هذه البهرجة ، لا تخدعنّكم هذه المظاهر الجوفاء ، أنتم تعيشون في قفصٍ ، والقفص قفصٌ وإن كان من ذهبٍ ، القفص قفصٌ وإن كان من زجاجٍ ، القفص قفصٌ وإن كان واسعاً سعة المدينة ، ولكنّه قفص ، ما هو السجن ، لماذا يسمى سجناً؟ ألا يكون واسعاً ، ألا تكون فيه الغرف ، الغرف التي قد لا يوجد مثلها في بيوت كثيرٍ من أوساط الناس ، لكنه سجن على كلِّ حال ، وليس منَّا من يريد أن يعيش في السجن، مهما توفرت فيه أسباب الراحة والرفاهية، ومهما اتَّسع وانفسح ، وكانت فيه حدائق وبرك ، ومتاحف ومتنزهات.

إنَّ هذا العربيَّ المسلم الواعي الذي كان بعيداً عن كلِّ ظلٍّ من ظلال ما نسمِّيه اليوم: «مركَّب النقص» ، ومن كلِّ شبحٍ من أشباح الانهزامية ، وفقدان الثقة ، لو عاش إلى هذا العصر ، لنظرَ إلى المدنية الغربية ، والمدنية الباذخة التي يعيشها العرب ، والمسلمون في كثيرٍ من بلادهم ، لنظر إليها بنفس النظرة التي نظر بها إلى المدنية الإيرانيَّة ، والمدنية الرومانيَّة ، ولرثى لأهلها كما رثى للفرس والروم ، وتمنَّى أن يخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، كما تمنى ذلك للفرس والروم.

كان هذا العربيُّ يتنعَّم بالحرِّيَّة التي عرَّفه بها الإسلام ، فنقله من دنيا ضيقةٍ محدودةٍ خانقةٍ؛ دنيا المعدة والمادَّة ، ودنيا الشهوات والأغراض ، ودنيا العبودية والاستعباد ، دنيا الحياة الفانية الزائلة المكدرة بالهموم والأمراض ، والأحزان والآلام ، إلى دنيا واسعةٍ غير محدودةٍ ، إلى دنيا اليقين والإيمان ، إلى دنيا القلب والروح ، والإيثار والمواساة ، والعدل والمساواة ، والعطف والرحمة ، والطيب والصفاء ، والخلود والبقاء ، دنيا لا كدر فيها ولا فساد ، ولا خوف فيها ولا حزن ، إنَّه كان يتمتَّع بهذا النعيم الذي حرمه الفرس والرومان في وقتٍ واحدٍ ، فكان ينظر إلى مدنية الفرس والروم ، وحياتهم كقفصٍ ضيِّق يختنق فيه الإنسان الحرُّ الكريم ، المؤمن الواعي ، كما تختنق السَّمكة إذا أخرجت من الماء ، ووضعت على فراشٍ وثيرٍ ناعمٍ ، أو في علبةٍ ذهبيةٍ مزخرفةٍ.

هذه نظرة أعرابيٍّ مسلمٍ ، فكيف نظرتنا نحن أيها الإخوان المثقفون! أيها المعلمون الكبار! يا أساتذة الجامعات! يا موجهي التربية والتعليم! يا حملة الأقلام! يا سائحون في أوربة ! كيف نظرتنا إلى المدنية المعاصرة الزائفة؟ هل هناك نسبة بين نظرة ذلك الأعرابيِّ الذي لا ثقافة له ، والذي لم يعرف العالم مثلما عرفنا ، ولم يدرس التاريخ مثلما درسنا ، ولم يعرف تجارب الأمم مثلما عرفنا ، ولم يقرأ الفلسفات ، ولم يتعمّق كما تعمَّقنا ، هذه نظرة رجلٍ من العرب ملأه رسول الله ﷺ ، وملأه الإسلام ثقةً واعتزازاً ، وإيماناً وشجاعةً ، واحتقاراً للدُّنيا ، ومعرفةً للحقيقة ، كان يستطيع أن يقول لأكبر قائدٍ في العالم المعاصر «رستم» ، الذي كان اسمه يخلع القلوب ، وكان بعد كسرى ، وفوق كلِّ قائدٍ ، وأمير في فارس ، كان يستطيع أن يقول له وبصوتٍ ملؤه التحكُّم ، والتهكُّم : أنا أرثي لك يا رستم! أنت في الشقاء ، أنت في ضيقٍ من الدُّنيا ، ونحن العرب المسلمين الذين أبدانهم نصف عارية ، والذين أجفان سيوفهم باليةٌ ، وثيابهم مرقَّعةٌ ، ونعالهم مخصوفةٌ ، نحن نعيش في الجنَّة ، وأنت تعيش في جهنم .

ما الذي حمله على هذا القول ، القول الجريء القوي ، الكلمة المدوية المجلجلة؟ إنَّما هو إيمانه وثقته بشخصيته ، وبفضل رسالته ، والتعاليم التي أكرمه الله بها ، فكم منَّا أيُّها الإخوان! قولوا لي بصراحة ، كم منَّا في جامعاتنا ، وفي مكاتبنا ، وفي مكتباتنا ، وكم منَّا في أدبنا ، وفي شعرنا ، وفي صحافتنا، من يستطيع أن يخاطب أوربياً، أو أمريكياً، يعيش على فتات مائدتنا، نحن الذين يغذُّونهم ، فلولا هذا النفط الذي يفيض من جزيرتكم، لما كان لأمريكا ، ولما كان لأوربة هذه الصَّولة ، الأوربيُّ الذي أفلس في إيمانه ، وفي خلقه ، وفي شخصيته ، وهو الآن مصاب بالجذام الخلقي ، وبذلك دخلت حضارته في دور التفسخ والتعفُّن ، وهو لا يعرف لها علاجاً، ولا يملك لها زماماً ، تاجر مرتزقٌ ، مستأثرٌ مستغلٌّ ، تنكَّر للمسيحية قبل مدَّةٍ طويلة، فانقطع آخر خيط كان يربطه بالسماء، وبالنبوات، والأخلاق ، بل بالعكس ننظر إليه نظرة تمجيدٍ وإجلالٍ ، نظرة تقديسٍ وتأليه ، ونحتقر نفوسنا، وحضارتنا، ومثلنا، وديننا أمام حضارته ، ومثله ، ونذوب أمامه

كما يذوب النَّدى أمام الشمس ، والشمع أمام وهج النار ، ذاك العربيُّ المسلم الذي عرف قيمته وقيمة رسالته ، يقول لرستم: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلى سعتها» والله إنَّ هذه الكلمة لو وضعت على الجبال لزالت ، ولو وضعت على البحر لتبخَّر! فكيف بالقلوب؟ كيف بالنفوس؟ كيف بالضمائر؟ هذه النظرة التي كان ينظر بها المؤمن الواعي في عصر الدَّعوة الإسلامية الأول ، إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ، وهذه النظرة التي يجب أن ينظر بها المؤمن الواعي اليوم إلى المدنية المعاصرة الزائفة ، هذا الذي أريد أن أقوله اليوم ، وأتركه أمانةً لكم في هذه المدينة الجميلة الزاهية ، العاصمة التي قفزت من الصحراء كزهرةٍ جميلة ، فوصلت إلى هذه القمة من المدنية ، أريد أن أقوله هنا ، وأرسله إلى أقصى ما أستطيع أن أرسله إليه.

يجب أن ينظر العرب ، يجب أن ينظر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه النظرة الواعية ، بهذه النظرة المؤمنة المملوءة بالاعتزاز ، إلى المدنية الزائفة المعاصرة التي تحيط بنا ، لسنا متطفِّلين ، لسنا أدعياء[1] ، لسنا من الذين لفظتهم الأرض ، ما لنا نسب ، ما لنا أصالة ، ما لنا تراث ، ما لنا حضارة ، ما لنا تاريخ ، ما لنا أجداد ، ولا أمجاد ، لا ، لا ، أيها السادة! إننا أغنياء ، إننا معلِّمون للعالم ، إننا موجهون للأمم ، لكن ما هو الواقع المرير الأليم ، الواقع أنَّنا مسيَّرون لا مخيَّرون ، أننا موجَّهون ـ بفتح الجيم ـ لا موجِّهون ـ بكسر الجيم ـ إننا تلاميذ لا أساتذة ، إننا متطفِّلون ، لسنا أصحاب موائد ، وأصحاب كرم ، لسنا أصحاب شخصية.

وجزى الله المؤرخين العرب المسلمين الذين حفظوا هذه الكلمة الخالدة التي تلقي الأضواء على شخصية العرب الأولين الذين أكرمهم الله تعالى بالرسالة الإسلاميَّة الخالدة ، والتي كانوا معتزِّين بها كلَّ الاعتزاز ، مكتفين بها كلَّ الاكتفاء ، وكانوا يعتبرونها أفضل من كل شيءٍ ، وكانوا يرون أنَّ الشيء الذي لا ينبع من هذا المصدر ، ولا يرجع إلى هذا الأصل ، إنَّه شيء لا قرار له ، وإنَّه شيءٌ لا قيمة له.

---

(١) أدعياء: جمع دعي ، وهو المتهم في نسبه ، والذي يدَّعي غير أبيه ، أو غير قومه.

هكذا يجب أن يكون موقفنا إزاء المدنيات ، إزاء التحدِّيات الجديدة التي تتحدَّانا بها هذه المدنية ، وهذه الفلسفات المعاصرة ، ليكن موقفنا موقف عملاقٍ معتدٍّ بكرامته ، معتزٍّ بشخصيته ورسالته ، مستخدمٍ لعقله ومواهبه ، حرٍّ في رفضه وقبوله ، مقتبس منها ما ينفعه ولا يضرُّه ، ويطابق أهدافه ومثله ، ولا ينافيها ، ويضفي عليها قوةً جديدةً ، ولا يوهن هيكله وينخره ، لا موقف قزم فقد الثقة ، وخسر الإيمان ، وتضاءل ، وانضوى أمام كلِّ شبحٍ من أشباح القوَّة والسلطان ، وأحبَّ الحياة ، وأشفق من الموت ، وبعد عن ميدان المغامرة والطموح ، والأصالة والابتكار ، والإمامة والقيادة ، فهو ينظر إلى المدنية المعاصرة الزائفة كما ينظر طفلٌ واقفٌ في سفح جبلٍ ، إلى قمته ، يتمنَّى لو ارتقى إليها.

وأختم حديثي هذا بمقطوعة شعريةٍ لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، خاطب فيها الشباب المسلم المثقف ، الذي سحرته المدنية الغربية ، فجهل شخصيته ، وجهل أبعادها ، وأعماقها ، ومضمراتها ، ومكنوناتها ، فعشق المادة ، وعاش في خوفٍ من الموت ، يقول:

«عجباً لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، إلى متى تظلُّ غافلاً جاهلاً ، وتجلس ضائعاً عاطلاً ، إنك نورٌ قديمٌ ، فأنر به الليل البهيم ، في كمِّك اليدُ البيضاء ، فاعمل بها عمل الكليم[١] ، تخطَّ حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها ، والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ، ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحيُّ الخالد؟ لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له ، وترصد به ، اعلم يقيناً: أنَّ الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ، ولا يستردُّه ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين»[٢].

* * *

---

(١) يعني بها: موسى الكليم.

(٢) انظر: «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، طبع دار ابن كثير ، بدمشق (والنص هو بتعديل يسير من صاحب المقال في هذا البحث).

ارتباط مسير الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم ، ودورهم في تكوين وحدةٍ ، وتوجيه دعوة[1]

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

إنَّني كلَّما تلوت هذه الآية ، وكلَّما مرَّت بي أثناء قراءة القرآن الكريم ، أثارت فيَّ الدَّهشة ، وحملتني على تفكُّرٍ وتأمُّلٍ جديدٍ ، لمن يقال هذا؟ وأيُّ وضعٍ كان يُسيطر على العالم كلِّه في ذلك الحين؟

كان العالم يعيش عيشةً جاهليَّةً ، عيشةً ظالمةً مظلمةً ، موبقةً مبيدةً ، في هذا الجوِّ القاتم ، وفي هذه الغاشية التي غشيت العالم كله ، يقال لحفنةٍ من البشر[2]: إنها إن لم تتألف ولم تكن وحدة تلتقي على العقيدة ، والاهتمام بالبشرية ، ومصير العالم ، ولم تصمِّم على إنقاذ البشرية من

---

(١) نشر هذا البحث في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثالث ، المجلد الواحد والأربعون ، عام ١٩٩٦ م.

(٢) جاء في صحيح البخاري عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ. قال قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسمئة رجل ، فقلنا نخاف ونحن ألف وخمسمئة فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أنَّ الرجل ليصلي وحده وهو خائف (كتاب الجهاد والسير. باب كتابة الإمام الناس) قال الحافظ ابن حجر: لعله كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها. ثم رأيت في شرح ابن التين الجزم بأن ذلك كان عند حفر الخندق ، وحكى الداودي احتمال أن ذلك وقع لما كانوا بالحديبية [فتح الباري: ٦/٢٠٦] والثابت أن سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر حين كان عدد المسلمين كما سبق ، أو أقلَّ منه.

الانتحار والانهيار، وعبادة النفس والأهواء، والطاقات والثروات، فضلاً عن الأشجار والأحجار، والحيوانات والأنهار (كما كان الشأن في بعض البلاد الواسعة المتمدِّنة كالهند) فالعالم كلُّه على خطرٍ، والإنسانية في الاحتضار.

يقال لهذه الحفنة البشرية: إن لم تتألّفوا ولم تكوِّنوا وحدةً دينيَّةً إيمانيَّةً، دعويَّةً جهاديَّةً، مقابل التجمُّع الكبير، والموالاة التي توجد وتشاهد للكفر والجاهلية، ولم تتضلَّعوا بأعباء الإنقاذ البشريِّ من الجاهلية الوثنية، العقائديَّة؛ والخُلقيَّة، ولم تقبلوا مسؤوليته؛ تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير.

كانت هذه المجموعة الإسلاميَّة الصغيرة التي أعبِّر عنها بالحفنة[١] البشرية، صغيرةً في القامة، كبيرةً في القيمة، والشأن في القيمة لا في القامة. كذلك يجب أن يكون شأن الأمة الإسلامية في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، لأنَّ الاعتبار للروح لا للجسد، وللعقيدة والإيمان، لا للعَدد والعُدد، وللروح السَّارية في الجسد المسيطرة على العمل والاتجاه لا للمظاهر والوسائل.

والعالم البشريُّ الآن، يعاني عللاً، وأسقاماً، وموبقاتٍ، وأخطاراً لا يوجد لها نظيرٌ في كثير من القرون الماضية، والعالم الإسلامي نفسه يعاني أهوالاً ومحناً فريدةً، طريفةً، وأنواعاً لم تخطر ببالٍ، ولم تكن تسنح للخيال، إنَّه يعاني مؤامراتٍ ومعارضاتٍ، وتختلف في الأشكال، ولكنَّها تلتقي على نقطةٍ واحدةٍ، وهي إبادة الأثر الإسلاميِّ، وأثر التعليمات الإسلاميَّة على العالم الإسلامي، وإفقاد الثِّقة بصلاحية الإسلام للبقاء في هذا العهد الراقي المتطور، فضلاً عن صلاحيته لقيادة قطر، فضلاً عن صلاحيته لقيادة البشرية والمدنيَّة.

وقد التقى في هذا المشروع المدمِّر والمخطَّط المبيد ذكاء إسرائيل

---

(١) الحَفنة والحُفنة: ملء الكفين من الشيء.

(وبالأصح شطارة إسرائيل) مع وسائل أمريكا وطاقاتها ، التقى هذان العنصران القويان المبيدان على محو الأثر الإسلاميِّ ، حتى في العالم الإسلامي ، وفي الأقطار الإسلاميَّة العريقة في الإيمان وبالإسلام ، والتضلُّع بالدعوة الإسلامية ، ونشرها في العالم ، وذات الحميَّة الإسلامية ، والغيرة الدِّينية ، والنضال الإسلاميِّ. وذات الثروات الواسعة الغنية في العلوم الإسلاميَّة الدِّينية ، والعلميَّة ، والسنِّية ، والفقهية ، والأدبية ، والتي قامت في بعض الفترات التاريخية بمقاومة الهجمات ، والزحوف المتحدِّية لبقاء الإسلام والمسلمين ، «كالهجوم الصليبيّ الفاتك والزَّحف التتاري المبيد»[١].

وكان ذكاء إسرائيل ، واستعراض أمريكا للواقع (رغم وجود تناقضٍ من أشدِّ التَّناقضات في العقيدة فيما يتَّصل بنبيِّ الله عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ ، مصيبين في اختيار هذا العنصر الوحيد الذي يهدِّد الاستعمار الأجنبيَّ ، والتخطيط الأجنبيَّ المدمِّر ، وقد جاء تقرير المصير للأمم والشعوب في أيدي حكومةٍ عالميَّةٍ ، ذات وسائل تجاريَّة ، ووسائل سياسيَّة ، ووسائل مدمِّرة ، مع أنَّ مستقبل الإنسانية متوقفٌ على بقاء المسلمين ، هم يوجِّهون العالم إلى ما فيه السَّداد ، وإلى ما فيه الرَّشاد ، وإلى ما فيه السَّعادة ، وإلى ما فيه النَّجاة الأخروية ، والسَّلامة الدنيويَّة ، وإلى ما فيه التآلف ، والتعاطف ، والتعاون على البرِّ والتَّقوى.

ثمَّ هناك معركةٌ حاميةٌ أخرى غير طبيعيةٍ ، وغير معقولةٍ ، وهي التي استنزفت جهود القادة والسادة ، وولاة الأمور ، والمفكرين في البلاد الإسلاميَّة ، وهي المعركة الحامية بين الشعوب ، والجماهير ،

---

(١) قامت مصر بدورٍ رائعٍ حاسمٍ في مقاومتهما وبتراجعهما ، والفضل في الأول يرجع إلى صلاح الدين الأيوبي الذي كان حاكماً في مصر عند زحف الصليبيين. وفي الثاني يرجع إلى السلطان ظاهر بيبرس حاكم مصر الذي هزم الجيش التتاري ، واضطرّه إلى التراجع حين كان المثل السائر «إذا قيل لك: إن التتر انهزموا؛ فلا تصدِّق».

والحكومات ، فالحكومات تتَّجه إلى العلمانيَّة، والقوميَّة ، وتنفيذ الحضارة والقيم الغربية ، والثقافة الحرَّة الخاضعة للقيم الغربية ، أو المستوردة من الأقطار الغربية في الأقطار الإسلاميَّة ، والإشفاق ، والحذر من كل ما يتصل بمطالبة تنفيذ الشريعة المحمَّدية ، والفكر الإسلاميِّ ، والحضارة الإسلاميَّة في المجتمع الإسلاميِّ ، والبلد الإسلاميِّ.

ونشأت عند قادة الأقطار الإسلاميَّة حساسيَّةٌ زائدةٌ في هذه القضية. فالحكومات تتَّجه الاتِّجاه الغربيَّ العلمانيَّ ، أو القوميَّ ، والشعوب تتَّجه الاتجاه القديم الإسلاميَّ ، فلا الحكومات نجحت في جرِّ هذه الشعوب والجماهير المسلمة إلى الابتعاد عن جادة الإسلام ، ولا الجماهير نجحت في إقناع هؤلآء الحكَّام والمشرِّعين باستخدام الطاقة الذرِّية الهائلة ، التي هي كامنةٌ في نفوس الجماهير المسلمة ، وهي قوة الإيمان ، والشوق إلى الشهادة ، وطلب الأجر من الله ، والدخول إلى الجنة ، القوة الكامنة التي لا بديل لها ، والتي يرجع إليها فضل البطولات الخارقة للعادة ، المحيِّرة للألباب ، التي أشار الله إليها بقوله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤].

فالمطلوب من القيادات الإسلامية الدَّعوية ، والفكرية ، والثقافية ، مهما صغر حجمها ، ومهما اعترضت لها عوائق ومشكلات ، ومطاردات ومعوِّقات أن تخلِّص بلادها ومجتمعها من هذا النضال القياديِّ الفكريِّ ، والتشريعيِّ والتنفيذيِّ ، والحضاريِّ ، والسياسيِّ؛ الذي هو في غير أوانه ومكانه ، وتجمع الكلمة والعزيمة على مقاومة النفوذ الغربيِّ ومخططاته السلبية المشفقة من النفوذ الإسلاميِّ ، والكارهة له ، وتجمع الكلمة والطاقات الكامنة في نفوس الجماهير المسلمة ، وتوقد الشرارة الإيمانية الكامنة في نفوس المسلمين؛ التي صنعت العجائب ، وجاءت بخوارق في التاريخ الإسلامي ، بل التاريخ البشريِّ الطويل ، ولا تقابلها الطاقة الذريَّة المبيدة السَّلبيَّة ، ولا تنظر في ذلك إلى حجمها ونطاق وسائلها ، وكثرة

العوائق والمؤامرات ، واختلاف الزمان والمكان ، ولتكن الآية التي حلَّينا بها هذا الحديث نصب عينها ، ومثيرة عزمها ، وغيرتها :

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

* * *

مثالان للغيرة الإيمانية
من تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً[1]

سجَّل قلم التاريخ بإعجابٍ وإكبارٍ ـ بعد الحديث عن الفتح المبين الذي حصل في وقعة حطين ـ القصَّة التي تدلُّ على قوة إيمان السُّلطان صلاح الدين ، وغيرته الدِّينيَّة المتأججة ، فلندع المؤرخ الإنجليزي يتحفنا بحكاية هذه القصة؛ التي تشعل مجامر القلوب ، وتشحنها بالإيمان ، واليقين ، وتثير كامن الغيرة في نفوس المسلمين :

«أمر السلطان صلاح الدين فضربت خيمته في ميدان القتال ، واستحضر الأسرى ، فجيء بالملك «كائي» و«ريجي نالد» ، و«جاتيلان» صاحب «جنين» كليهما ، فأجلس السلطان الملك بجانبه ، ولما رآه في أشدِّ حالٍ من العطش قدَّم إليه قدحاً من الماء المثلج فشرب منه الملك ، وناول بعضه «ريجي نالد» «حاكم كرك» فكره السلطان ذلك ، وقال للترجمان: قل للملك: أنت الذي سقيته ، وأما أنا فما سقيته ، وإنا إذا قدَّمنا إلى أحدٍ رغيفاً ، أو ملحاً أمن بذلك ، ولن يفلت هذا الرجل من غضبي ونقمتي ، ثم لم يلبث أن قام إلى «ريجي نالد» الذي كان لم يزل واقفاً على رجليه منذ دخل الخيمة ، فقال له السلطان: ألا إني نذرت قتلك مرتين: مرَّةً حينما كنت أردتَ الزحف على الحرمين الشريفين ، وأخرى حينما هجمتَ على قافلة الحجَّاج ، وغدرتَ بهم ، وها أنا ذا أنتصر لمحمد ﷺ على غدرك ، واستخفافك بالمقدَّسات: قال ذلك وسل سيفه ، وضرب عنق «ريجي نالد»

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس ، المجلد الرابع والثلاثون ، عام ١٩٨٩ م.

بيده وفاءً لنذره[1] وقضى الحرس على ما بقي فيه من رمق ، ولما رأى الملك «كائي» عاقبة صاحبه المريعة ؛ فزع ، واستشعر الخوف ، ولم يشكَّ أنه سيثني به ، فطيَّب السلطان نفسه ، وقال: ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأمّا هذا فإنَّه نقض العهد مرَّةً بعد مرَّةٍ ، فجرى ما جرى»[2].

ويقول ابن شداد:

«واستحضر البرنس «أرناط» وأوقفه على ما قال ، وقال له: ها أنا أنتصر لمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام ، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل»[3].

لقد عرف عن الماجنين المستهترين السكارى في بلادنا ـ شبه القارة الهندية ـ أنَّهم في سكرهم، وثورتهم لا ينسون التأدب مع مقام الرِّسالة، فإذا تناوله أحد الأشقياء بإساءةٍ، أو إهانة؛ قامت قيامتهم، وثارت ثائرتهم، وإلى القارىء الكريم قصةً رواها صحافيٌّ معروفٌ عن شاعرٍ كبيرٍ في شبه القارة الهندية، كان في طليعة شعراء الهوى والشباب، ومن المدمنين للخمر والشراب وهو الشاعر «اختر شيراني» الذي توفي قبل سنوات، يقول الأستاذ شورس الكشميري في صحيفته السيارة Chatan «جتان» الصادرة في لاهور الباكستان:

«اجتمع فريق من الشباب والشعراء في فندق (العرب) في لاهور مرَّة ، وكان في الجماعة شباب شيوعيون في غايةٍ من الذكاء ، وسلاطة اللسان ، وتجاذبوا مع الأستاذ (اختر الشيراني) أطراف الحديث ، وصاروا يتناقشون معه في موضوعاتٍ شتَّى ، وكان الأستاذ الشيراني قد شرب كأسين من الخمر ، وقد فقد رشده ، وملكته نشوة الخمر ، وأخذته رعشةٌ في الجسم ، وكان يتكلَّم كلاماً متقطعاً غير متَّزن ، وكان معروفاً بالإعجاب الشديد بنفسه ، والتيه بها ، وكان لا يعترف بغيره من الشعراء ، ولست أذكر اليوم

---

(١) وأضاف إلى ذلك ابن شداد: «أنه لما غدر بالقافلة ناشدوا الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال: «قولوا لمحمَّدكم يخلِّصكم» فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه؛ نذر: أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه» ص: ١٢٧ .

(٢) «السلطان صلاح الدين» ص: ١٨٨ .

(٣) «النوادر السُّلطانية» ص: ٦٤ .

جيداً الموضوع الذي كان يدور البحث فيه ، ولكنّي أذكر: أنه قال: قد ظهر في المسلمين ثلاثة نوابغ عبقريين ، أولهم: أبو الفضل(١) والثاني: أسد الله خان غالب(٢) والثالث: أبو الكلام آزاد(٣) أما الشعراء المعاصرون فكان لا يعترف لأحدٍ منهم بالمساواة أو المجاراة ، وقد سأله الشباب الشيوعيون عن الشاعر الكبير «فيض أحمد فيض» فأعرض عن الجواب ، وسألوه عن «شبير حسن جوش» الشاعر المعروف ، فقال: ليس بشاعرٍ ، إنّما هو ناظم ، وهكذا كان موقفه من جميع الشعراء المعاصرين ، استخفافٌ ، أو إعراضٌ ، أو تبسُّمٌ ، أو تنكيتٌ ، ولما رأى الشباب أنه لا يعترف بقيمة حركة الأدب التقدمي ؛ لجؤوا إلى موضوعٍ آخر لعلّه يثيره ، أو يحرِّك منه ساكناً ، فقالوا: يا سيدي! ماذا تقول عن النبيِّ الفلانيِّ؟ وكانت عيناه محمرّتين ، وأخذت الخمر فيه كلَّ مأخذ ، وكان لا يملك لسانه ولكنه أفاق ، وقال: ما هذا الهراء؟ لا تتحدَّثوا إلا عن الأدب ، والإنشاء والشعر والشعراء ، فعطف عنان الكلام إلى أفلاطون ، وقال: ما رأيك عن مكالماته؟ وسألوه عن أرسطو ، وسقراط ، وكان نشيطاً للكلام فقال: أمة قد خلت ، حدِّثونا عن شخصياتنا ، وحاضرنا ، إنَّ أولئك الفلاسفة لو كانوا في عصرنا لتتلمذوا علينا ، مالنا ولأولئك حتى ندلي برأينا فيهم؟

وانتهز شابٌّ «شاطرٌ» من هؤلاء الشباب الشيوعيين فرصة نشاطه ومرحه ، فقال: وما رأيك عن سيدنا محمد؟ وكأنَّما نزلت صاعقةٌ ، وهبَّت عاصفةٌ ، فلم يكد الشاب يتمُّ جملته حتى تناول الشاعر السكران كأس الزجاج وضربها على رأسه قائلاً: يا قليل الأدب! أنت توجه هذا السؤال الوقح إلى رجلٍ مذنبٍ معترفٍ بشقائه ، ماذا تريد أن تسمع من فاسق؟ وكان جسمه يرتعد ،

---

(١) من وزراء الإمبراطور «أكبر» وصاحب «أكبر نامه» المأثرة العلمية التي تعتبر من الكتب الخالدة في التاريخ ، والدستور ، وتخطيط البلاد.

(٢) شاعر أردو ، يعتبر من أئمة الشعر الأردوي وصاحب مدرسةٍ خاصَّة ، كان في القرن الثالث عشر الهجري.

(٣) العالم الأديب المعروف ، رئيس المؤتمر الهندي الوطني الأسبق ، ووزير المعارف في الجمهورية الهندية سابقاً.

وانفجر باكياً ، وأجهش بالبكاء ، وأقبل على الشاب الوقح يقول له في عنفٍ ، وغضبٍ : كيف سوَّلت لك نفسك يا خبيث! أن تذكر هذا الاسم النزيه المقدَّس؟ كيف تجاسرت على ذلك يا قليل الأدب؟! يا قليل الحياء! لقد كان لكلامك مجالٌ واسعٌ ، فلماذا دخلت في هذا الحمى المقدس ، تب إلى الله من هذا السؤال الوقح ، إنَّني أعرف خبث باطنكم جيداً ، وعُرف الشر في وجهه وكأنه يريد أن يفتك بالشاب ، ويسطو به .

أما الشاب فقد سُقِطَ في يديه ، وغاب رشده ، ولم يكن يقدِّر أنَّه سيلقى هذه النتيجة الوخيمة ، وأنه يوقظ في الشاعر هذا الليث الثائر ، ويثير فيه هذه الشرارة الكامنة ، شرارة الإيمان ، والحنان ، وشرارة الحمية والغيرة ، فكان لا يعرفه إلا شاعر الهوى والشباب ، وشاعر الغزل والغرام ، وحاول أن يشغله عن هذا الحديث المثير ، وأن يهدىء فيه هذه الثائرة ، ولكنه لم ينجح ، ولم تهدأ ثائرة (أختر) فأمر بإخراجه من المجلس ، ثم قام بنفسه وبات طول الليل باكياً يقول : لقد بلغ هؤلاء الشباب الملحدون هذا الحدَّ من الوقاحة والجراءة ، إنَّهم يريدون أن ينتزعوا منَّا آخر ما نعتزُّ به ، ونعيش عليه من حبٍّ ، وولاء ، وإخلاصٍ ، ووفاءٍ ، إنَّني رجل مذنبٌ لاشكَّ ، أعترف بذنبي ، ولكن هؤلاء يحاولون أن نخلع ربقة الإسلام ، ونخرج من حظيرة الإيمان ، لا والله لا نرضى بذلك!

ولكن ـ وأسفاه! واويلاه! ـ ما أبعد المسافة بين هذا الوفاء العجمي وبين هذه الحمية الهندية ، وبين هذه الغيرة الإيمانية الثائرة المضطرمة التي يمثلها شاعرٌ لم يكن قطُّ من أبناء العرب ، ولم يتكلم مرَّةً بلغة العرب ، لقد نشأ بعيداً عن كلِّ ذلك بعيداً عن البيئة الدينية ، والعلمية ، والأزهر الشريف ، عاش في مجالس الشرب ، ونوادي اللهو ، وأوساط الشعر والأدب ، وعرف بالاستهتار وخلع العذار ، والشعر الخليع كشعر عمر بن أبي ربيعة ، وأبي نواس ، وبشار بن برد .

* * *

دور الشباب المسلم في إسعاد البشرية(١)

بُعث رسولُ الله ﷺ وقد بلغت شقاوة الإنسانية غايةً ما وراءها غايةٌ ، وكانت قضية الإنسانية أعظم من أن يقوم لها أفراد متنعمون لا يتعرَّضون لخطرٍ ، ولا لخسارةٍ ، ولا محنةٍ ، لهم النعيم الحاضر ، والغد المضمون ، إنما تحتاج هذه القضية إلى أناسٍ يضحُّون بإمكانياتهم ، ومستقبلهم في سبيل خدمة الإنسانية ، وأداء رسالتهم المقدَّسة ، ويعرضون نفوسهم ، وأموالهم ، ومعائشهم ، وحظوظهم من الدنيا للخطر والضياع ، وتجاراتهم ، وحرفهم ، ومكاسبهم للتَّلف والكساد ، ويخيبون آمال آبائهم وأصدقائهم فيهم ، حتى يقولوا للواحد منهم كما قال قوم صالح ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢].

إنَّه لا بقاء للإنسانية ، ولا قيام لدعوةٍ كريمةٍ بغير هؤلاء المجاهدين ، وبشقاء هذه الحفنة من البشر في الدنيا ـ كما يعتقد كثيرٌ من معاصريهم ـ تنعم الإنسانية ، وتسعد الأمم ، ويتحوَّل تيَّار العالم ، من الشرِّ إلى الخير ، ومن السعادة أن يشقى أفرادٌ ، وتنعم أممٌ ، وتضيع أموالٌ ، وتكسد تجاراتٌ لبعض الأفراد ، وتنجو نفوسٌ وأرواحٌ لا يحصيها إلا الله من عذاب الله ، ومن نار جهنم.

علم الله عند بعثة الرسول ﷺ: أنَّ الروم ، والفرس ، والأمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع بحكم حياتها المصطنعة المترفة أن تتعرض للخطر ، وتتحمَّل المتاعب ، والمصاعب في سبيل الدَّعوة ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول المجلد السادس والثلاثون ، عام ١٩٩١ م.

والجهاد ، وخدمة الإنسانية البائسة ، ولا تستطيع أن تضحي بشيءٍ من دقائق مدنيتها وتأنقاتها في الملبس والمأكل ، وأن تتنزل عن حظوظها ، ولذاتها ، وزخارفها ، فضلاً عن حاجاتها ، وأنه لا يوجد فيها أفرادٌ يقومون على قهر شهواتهم ، والحدِّ من طموحهم ، والزُّهد في فضول الحياة ومطامع الدنيا ، والقناعة بالكفاف ، فاختار لرسالة الإسلام ، وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام أمةً تضطلع بأعباء الدَّعوة ، والجهاد ، وتقوى على التضحية والإيثار ، تلك هي الأمة العربية القوية السليمة؛ التي لم تبتلعها المدنية ، ولم ينخرها البذخ والترف ، وأولئك أصحاب محمد ﷺ أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلُّهم تكلفاً.

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة ، فأدَّى حقوقها من الجهاد في سبيلها ، وإيثارها على كل ما يقف في وجهها ، والعزوف عن الشهوات ومطامع الدُّنيا ، فكان في ذلك أسوةً وإماماً للعالم كلِّه ، كلَّمه وفد قريش ، وعرض عليه كلَّ ما يغري الشباب ، ويرضي الطامحين ، من رئاسةٍ ، وشرفٍ ، ومالٍ عظيم ، وزواجٍ كريمٍ ، فرفض كلَّ ذلك في صرامةٍ ، وصراحةٍ ، وكلَّمه عمُّه ، وحاول أن يحدَّ من نشاطه في سبيل الدعوة ، فقال: «**يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هـذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته!**» ثم كان أسوةً للناس في عصره ، وبعد عصره بقيامه بأكبر قسطٍ من الجهاد والإيثار ، والزُّهد ، وشظف العيش ، وأقلِّ قسطٍ من العيش ، وأسباب الحياة ، فقد أوصد على نفسه الأبواب ، وسدَّ في وجهه الطرق ، وتعدَّى ذلك إلى أسرته ، وأهل بيته ، والمتَّصلين به ، فكان أكثر الناس اتصالاً به ، وأقربهم إليه ، أقلَّهم حظاً في الحياة ، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والإيثار ، فإذا أراد أن يُحرِّم شيئاً بدأ ذلك بعشيرته وبيتـه ، وإذا سنَّ حقـاً ، أو فتح باباً لمنفعة قدَّم الآخرين ، وربما حرَّمه على عشيرته الأقربين ، أراد أن يحرِّم الربا ، فبدأ بربا عمِّه عباس بن عبد المطلب ، فوضعه كلَّه ، وأراد أن يهدر دماء الجاهلية فبدأ بدم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فأبطله ، وسنَّ الزكاة ، وهي منفعة مالية عظيمة مستمرةٌ إلى يوم القيامة ، فحرَّمها على

عشيرته بني هاشم إلى آخر الأبد ، وكلَّمه عليٌّ بن أبي طالب يوم الفتح أن يجمع لبني هاشم الحجابة مع السقاية فأبى ، وطلب عثمان بن طلحة ، وناوله مفتاح الكعبة ، وقال: هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاءٍ ، وقال: خذوها خالدةً تالدةً فيكم ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، وحمل أزواجه على الزهد ، والقناعة ، وشظف العيش ، وخيَّرهن بين عشرتهن مع الفقر ، وضيق العيش ، ومفارقته مع السَّعة ، والرَّخاء ، وتلا عليهنَّ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] فاخترن الله والرسول ، وتأتيه فاطمة تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى ، وبلغها أنه جاءه رقيق ، فيوصيها بالتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، ويقول لها: إنه خيرٌ لها من خادم.. وهكذا كان شأنه مع أهل بيته ، والمتَّصلين به ، فالأقرب ، ثم الأقرب.

وآمن به رجالٌ من قريش في مكة ، فاضطربت حياتهم الاقتصادية اضطراباً عظيماً ، وكسدت تجاراتهم ، وحُرِم بعضهم رأس ماله الذي جمعه في حياته ، وحُرِم بعضهم أسباب الترف والرخاء ، وأناقة اللباس التي كان فيها مضرب المثل ، وكسدت تجارة بعضهم؛ لاشتغاله بالدعوة وانصراف الزبائن عنه ، وحرم بعضهم نصيبه في ثروة أبيه.

ثم لما هاجر الرسول إلى المدينة ، وتبعه الأنصار؛ تأثرت بذلك بساتينهم ، ومزارعهم ، فلما أرادوا أن يقبلوا عليها بعض الوقت ، ويصلحوها ، لم يسمح لهم بذلك ، وأنذرهم الله به ، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وهكذا كان شأن العرب ، والذين احتضنوا هذه الدعوة منهم ، فقد كان نصيبهم من متاعب الجهاد ، وخسائر النفوس ، والأموال أعظم من نصيب أيِّ أمَّةٍ في العالم ، وقد خاطبهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ

تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [التوبة: ١٢٠] لأن سعادة البشرية إنَّما كانت تتوقف على ما يقدِّمونه من تضحيةٍ وإيثارٍ ، وما يتحمَّلونه من خسائر ونكبات ، فقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] وكان إحجام العرب عن هذه المكرمة وترددهم في ذلك امتداداً لشقاء الإنسانية ، واستمراراً للأوضاع السيئة في العالم ، فقال: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقد وقف العالم في القرن السادس المسيحي على مفترق الطرق ، إمَّا أن يتقدَّم العرب ، ويعرِّضوا نفوسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وكلَّ ما يعزُّ عليهم للخطر ، ويزهدوا في مطامع الدنيا ، ويضحُّوا في سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم فيسعد العالم ، وتستقيم البشرية ، وتقوم سوق الجنة ، وتروج بضاعة الإيمان ، وإما أن يؤثروا شهواتهم ، ومطامعهم ، وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية ، وصلاح العالم ، فيبقى العالم في حمأ الضلالة والشقاء إلى ما شاء الله ، وقد أراد الله بالإنسانية خيراً وتشجع العرب ـ بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان ، والإيثار ، وحبب إليهم الدار الآخرة ، وثوابها ـ فقدَّموا أنفسهم فداءً للإنسانية كلِّها ، وزهدوا في مطامع الدنيا طمعاً في ثواب الله ، وسعادة النوع الإنساني ، وجاهدوا بأموالهم ، وأنفسهم في سبيل الله ، وضحُّوا بكلِّ ما يحرص عليه الناس من مطامع ، وشهواتٍ ، وآمالٍ ، وأحلام؛ وأخلصوا لله العمل والجهاد ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول ، ووقف العالم على مفترق الطرق مرَّةً ثانيةً ، إما أن يتقدَّم العرب ـ وهم أمَّة الرسول وعشيرته ـ إلى الميدان ، ويغامروا بنفوسهم ، وإمكانيَّاتهم ، ويخاطروا بما هم فيه من رخاءٍ وثراءٍ ، ودنيا واسعةٍ ، وفرصٍ متاحةٍ للعيش ، وأسبابٍ ميسورةٍ ،

فينهض العالم من عثاره ، وتتبدل الأرض غير الأرض ، وإما أن يستمروا بما هم فيه من طمعٍ ، وطموحٍ ، وتنافسٍ في الوظائف والمرتبات ، وتفكُّرٍ في كثرة الدخل ، والإيراد ، وزيادة غلة الأملاك ، وربح التجارات والحصول على أسباب التَّرف ، والتنعم ، فيبقى العالم في هذا المستنقع الذي يتردَّى فيه منذ قرون .

إنَّ العالم لا يسعد وخيرة الشباب في العواصم العربية عاكفون على شهواتهم ، تدور حياتهم حول المادَّة والمعدة ، لا يفكّرون في غيرهما ، ولا يترفعون عن الجهاد في سبيلهما ، ولقد كان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحَّوا بمستقبلهم في سبيل المبادىء التي اعتنقوها أكبر منهم نفساً ، وأوسع منهم فكراً ، بل كان الشاعر الجاهلي ، «امرؤ القيس» أعلى منهم همةً ؛ إذ قال :

ولو أنني أسعى لأدنى معيشةٍ   كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنَّما أسعى لمجدٍ مؤثلٍ   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

إنَّ العالم لا يمكن أن يصل إلى السَّعادة إلا على قنطرةٍ من جهادٍ ، ومتاعب يقدِّمها الشباب المسلم ، إنَّ الأرض لفي حاجةٍ إلى سماد ، وسماد أرض البشرية الذي تصلح به وتنبت زرع الإسلام الكريم هي الشهوات والمطامع الفردية التي يضحي بها الشباب العربي في سبيل علوِّ الإسلام ، وبسط الأمن والسلام على العالم ، وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة . إنه لثمن قليلٌ جداً لسلعةٍ غاليةٍ جداً .

العناية بالفروسية والحياة العسكرية :

من الحقائق المؤلمة : أنَّ الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية ، ورزئت في فروسيتها التي كانت معروفةً بها في العالم ، فكانت رزيئةً كبيرةً ، وخسارةً فادحةً ، وكانت سبباً من أسباب ضعفها ، وعجزها في ميدان الجهاد ، فقد اضمحلت الروح العسكرية ، وضعفت الأجسام ، ونشأ الناس على التنعُّم ، وقد حلَّت السيارات محلَّ الجياد ، حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ، وهجر الناس المصارعة ،

والمناضلة، وسباق الخيل، وأنواع الرياضة البدنية، والتدريبات العسكرية، واستبدلوا بها ألعاباً لا تفيدهم شيئاً، فالمهمُّ لرجال التعليم والتربية، وقادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية، وعلى البساطة في المعيشة، وخشونة العيش، والجلادة، وتحمُّل المشاق، والمتاعب، والصبر على المكروه!

وقد كتب المربي الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله العرب وهم في بلاد العجم: «**إياكم والتنعم وزي العجم، وعليكم بالشمس، فإنها حمام العرب، وتمعددوا[١] واخشوشنوا[٢]، واخشوشبوا[٣]، واخلولقوا[٤]، وأعطوا الركب أسنتها، وانزوا نزواً، وارموا الأغراض**»[٥].

وقد قال النبي ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل، فإنَّ أباكم كان رامياً**»[٦] وقال: «**ألا إنَّ القوَّة الرمي، ألا إنَّ القوَّة الرمي**»[٧].

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكلِّ قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة، ويبعث على التخنُّث والعجز، من عاداتٍ وأدبٍ، وصحافةٍ، وتعليمٍ، ويأخذوا على أيدي الصحافة الماجنة، والأدب الخليع الملحد، الذي ينشر في الشباب النفاق، والدَّعارة، والفسوق، وعبادة اللذة والشهوات، ولا يسمحوا لهؤلاء التُّجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا أن يدخلوا في معسكر محمَّدٍ ﷺ الذي بعث ليتمِّمَ مكارم الأخلاق، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها

---

(١) تمعدد الغلام: شبَّ وغلظ، وقيل معناه: تشبهوا بعيش معد بن عدنان، وكان ذا غلظ وتقشف.
(٢) اخشوشن: تخشن في المطعم والملبس.
(٣) اخشوشب: صار صلباً كالخشب في أحواله، وصبره على الجهد.
(٤) تبذلوا في الملابس.
(٥) رواه البغوي عن أبي عثمان النَّهدي.
(٦) رواه البخاري (٢٧٤٣) عن سلمة بن الأكوع.
(٧) رواه مسلم (١٩١٧)، وأبو داود (٢٥١٤) عن عقبة بن عامر.

وأخلاقها ، ويزينوا لها الفسوق والعصيان ، وحبَّ الفحشاء بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأنَّ كلَّ أمَّةٍ أصيب رجالها في رجولتهم وغيرتهم ، ونساؤها في أنوثتهن ، وأمومتهن ، وطغى فيهنَّ التبرج ، ومزاحمة الرجال في كل شيءٍ والزهد في الحياة المنزلية ، وحُبِّب إليهنَّ العقم؛ أفل نجمها ، وكسفت شمسها ، فأصبحت أثراً بعد عين.

هذه كانت عاقبة اليونان ، والرومان ، والفرس ، وإنَّ أوربة لفي طريقها إلى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربي من هذا المصير الهائل.

* * *

رياح الإيمان تهب في القرن الثالث عشر الهجري قصَّة الهجرة والجهاد في الهند[1]

إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالأعاجيب في العقيدة ، والأعمال ، والأخلاق ، ورأى الناس روائع من الشجاعة واليقين ، والعفة والأمانة ، والإيثار وهضم النفس ، وروح التطوُّع والاحتساب ، والتواضع في المظاهر ، وكبر النفس ، وسمو النظر ، ورأوا آياتٍ من العدل والرحمة ، والمحبة والوفاء كادوا ينسونها ، ويقطعون منها الرجاء.

وقد هبَّت هذه الريح المباركة في فتراتٍ تاريخيةٍ ، قصرت أحياناً ، وطالت أحياناً ، وهي معلومةٌ مسجَّلةٌ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، والتجديد الإسلاميِّ.

وقد هبَّت هذه الريح في الهند في فجر القرن الثالث عشر الهجري ، وتجدَّدت ذكريات القرون الأولى يوم قام الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بدعوة التوحيد ، والتجديد ، والجهاد.

ودعا إلى الدين الخالص ، وأشعل في القلوب شعلة الإيمان ، والحماسة الإسلامية ، والجهاد في سبيل الله ، ونظَّم جماعةً كبيرة ، وأحسن تربيتها الدينية ، والحربية ، وهاجر معها من طريق بلوجستان ، وأفغانستان إلى حدود الهند الشمالية ، واتخذها مركزاً لدعوته ، ليتقدَّم منها إلى الهند ، لإجلاء الإنجليز ، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السابع ، المجلد الثامن والثلاثون ، عام ١٩٩٣م.

والسنة، وقد هزم هؤلآء المجاهدون السيخ (Sikhs) (الذين احتلوا بنجاب، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب) في معارك كثيرة.

وأسَّس هؤلآء المجاهدون دولةً شرعية في الحدود الهندية الشمالية الغربية، تشتمل على «بشاور»، وما جاورها من البلدان والقرى، ونفَّذوا الحدود الشرعية، وطبَّقوا النظام الإسلاميَّ الماليَّ، والإداريَّ تطبيقاً دقيقاً، ولكن ثارت عليهم القبائل التي تقطن الحدود لمصادمة هذا النظام لمآربهم الشخصية، وعاداتهم الجاهلية، فقلبوا هذا النظام، ثم اصطدم المجاهدون بجيش السيخ في وادي «بالاكوت» فاستشهد الإمام أحمد وصاحبه الشيخ إسماعيل، وكبار أصحابهما في ٢٤ من ذي القعدة عام ١٢٤٦ هـ (٦ من مايو عام ١٨٣١ م)، ولجأ الفل إلى الجبال، ولم يزل هؤلآء وأصحابهم في الهند قائمين على الحقِّ، باذلين في ذلك النفس والنفيس، والإنجليز يطاردونهم، ويطاردون أملاكهم، وأموالهم، ويحاكمونهم محاكماتٍ طويلةً عريضةً[١]، وهم صابرون محتسبون، لا يضطربون، ولا يتزعزعون، ولا يلينون، ولا يستكينون، حتى كانت ثورة ١٨٥٧ م، التي تزعمها المسلمون، وأسهم فيها المواطنون، وأخفقت لأسبابٍ يطول ذكرها، وقوبل زعماؤها بصفةٍ خاصَّةٍ، والمسلمون بصفةٍ عامَّةٍ بوحشيةٍ نادرة[٢]، واستتبَّ الأمر للإنجليز، ودخلت الهند في الحكومة البريطانية بصورةٍ عامَّة، وبقي هذا الوضع إلى ١٩٤٧ م، حين نالت الهند الاستقلال، وكان التقسيم، وقامت الجمهورية الهندية، وقامت دولة باكستان الإسلامية، وهي تشتمل على أكثر المناطق التي كانت مركز نشاط المجاهدين وكفاحهم، وكانت في مقدِّمة مخطط هذه الحركة الإصلاحية الجهادية، وهدفها الأول.

---

(١) اقرأ كتاب (The Great Wahabi Case) وكتاب (Indian Musalmans) لويليم هنتر (w. w. Hanter).

(٢) اقرأ كتاب العلامة الندوي «المسلمون في الهند» فصل «الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند» طبع دار ابن كثير، دمشق.

وقد شرح الله صدري في سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م) لأن أختار روايات من هـذا التاريخ العجيب ، فأصوغها في العربيـة في أسلوبٍ أدبـيٍّ ، قصصي شائق ، لا يشوبه شيء من المبالغة فضلاً عن الكذب ، تدلُّ على مكانة قائد هذه الحركة العبقريِّ ، وما أوتي من مواهب عظيمة ، وعناصر قوية ، وعلى مدى نجاحه في تربية النفوس وتزكيتها ، وعلى إخلاصه ، وتجرُّده للغاية التي كان يسعى لها ، وتفانيه في دعوته ، وتدلُّ على نفسية هذا الجيل المؤمن المجاهد ، وخلقه ، ومبلغ تأثير الدَّعوة الإسلاميَّة ، والتربية الإيمانية في نفوس تلاميذها ، ونشرت هذه الروايات في مجلة (المسلمون) الغـرَّاء حين كانت تصـدر من القاهرة في سنة ١٩٥٣ م في عـددي ينايـر ، وفبرايـر من هـذه السنـة ، ثم شغلـت عنها لأعمالي الكتابيـة ، والتأليفية ، والدعوية الأخرى ، حتى مضى على ذلك عشرون سنة .

ثم لفت نظـري بعض إخواني[١] الأعزاء إلى قيمـة هذه السلسلـة القصصية، وما لها من تأثيرٍ في نفوس القراء ، واستجابةٍ خفيَّة لقبولها ، وتقليدها ، وإنني إذا لم تساعدني الظروف ، ولم يتسع وقتي لوضع تأليف مستقل في سيرة هذا الإمام الكبير ، وفي تاريخ دعوته وجهاده ، وفي اللغة العربية ، كما فعلت في أردو[٢] ، فلا مانع من أن أكمل هذه السلسلة ، فقد تكـون صـورةً مصغـرةً مـن هـذا التـاريـخ الكبيـر الـذي يشغـل آلافـاً مـن الصفحات[٣] ، ويمتد على مساحة مكانية تتكون من آلاف من الأميال وعلى مساحة زمانية تستغرق قرناً كاملاً[٤] ، ويستطيع القارىء الذكي أن يكوِّن من

---

(١) في مقدمتهم الأستاذ محمد الحسني ، والأستاذ سعيد الأعظمي الندوي محرراً مجلة «البعث الإسلامي» .

(٢) للعلاَّمة الندوي كتاب «سيرة سيد أحمد الشهيد» في جزءين كل جزء في نحو خمسمئة صفحة بالقطع الكبير .

(٣) للكاتب الباكستاني الشهير ، والصحافي الكبير المرحوم غلام رسول مهر كتاب «سيد أحمد الشهيد» في أربعة مجلدات مجموع صفحاتها ١٩٢١ .

(٤) يبتدىء هذا التاريخ في الحقيقة من عام ١٢٢٥ هـ حين بدأ السيد نشاطه ، ويدوم إلى=

هذه الشذرات الملتقطة من هنا وهناك فكرةً متناسقةً جامعةً عن هذا الجهاد الطويل ، وعن هذه المدرسة المنجبة المنتجة ، فيكون في ذلك سدٌّ إلى حدٍّ لهذا الفراغ الواقع في المكتبة الإسلامية ، العربية المعاصرة[1] وريٌّ لكثيرٍ من النفوس المتعطشة إلى معرفة هذا الفصل الرائع من الجهاد الإسلامي ، وتاريخ التجديد الدِّيني في الهند ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وكنت إذا قرأت روايات «الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني» (م٣٥٦ هـ) وأنا في أيام الطلب ، وريعان الشباب ، أُؤخذ بسحر أدبها ، ولغتها العربية الفصحى ، وتعبيرها الجميل ، وتصويرها البارع لخواطر النفس ، وأشكال الحياة ، وكنت أغار على هذه العربية الفصحى؛ التي نزل بها القرآن ، وتكلَّم بها الرسول ﷺ وأصحابه أن تسخَّر للأغراض التافهة ـ إذا لم أقل الخسيسة ـ التي ألف لها هذا الكتاب ، وأن تضيع في الألحان ، والأغاني ، ورنات المثالث والمثاني ، وتصوِّر جوانب الضعف ، ومواضع السقط ، ومكامن الريب في المجتمع الإسلامي الذي عاش في القرون المشهود لها بالخير ، وكنت أتمنَّى أن تستخدم هذه الملكة البيانية ، وهذه الثروة اللغوية الفذة ، وهذا الأسلوب القصصي الخفيف الجميل ، في مقاصد شريفةٍ ، وأغراضٍ نبيلةٍ ، وفي تصوير جانبٍ مشرق من تاريخٍ جميلٍ مشرق.

وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أحاكي هذا الأسلوب في هذه القصص ، التي اخترتها على عجلٍ من تاريخ الإصلاح والتجديد في الهند ، فإن لم يتحقَّق لي نجاح الأصبهاني وغيره ـ وأنَّى يدرك الضَّالع شأو الضَّليع ـ فلا

= سنة ١٣٢٠ هـ العام الذي توفي فيه الشيخ عبد الله بن ولايت علي الصاد قفوري أمير جماعة المجاهدين ، وهي مدة نشاط هذه الجماعة وقيادتها.

(١) يجب أن أنوِّه هنا بفضل صديقي الفاضل الكاتب القدير وأديب العربية الكبير الأستاذ علي الطنطاوي في تأليف أول كتاب يصدر من قلم أحد كتاب العرب وهو كتيب «أحمد بن عرفان الشهيد» في ٤١ صفحة صدر سنة ١٣٨٠ هـ في سلسلة «أعلام التاريخ» من دمشق. (العلامة الندوي).

تفوتني فائدة التقليد لأسلوبٍ ساحرٍ ، ولا تفوتني نية القاصد ، وأجر العامل.

ولهذه الحكايات التاريخيَّة ، والروائع الإيمانيَّة ، والخلقيَّة فائدةٌ لا يستهان بقيمتها وأهميتها ، وهي أنَّه يستطيع القارىء الذكيُّ أن يقيس بها عظمة الشخصية التي هي مصدر كلِّ هذا الفضل ، ومصدر كلِّ انقلاب ، وكلِّ دعوةٍ وجهادٍ ، والتي منها انبثق هذا التاريخ ، وانتشر هذا النور ، وعمَّ هذا البرُّ ، وهي شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، ولم يكن المجدِّدون في كلِّ دور ، والمربُّون في كلِّ جيلٍ ، والمصلحون في كلِّ بلدٍ إلا رشحاً من رشحات هذه التربية والدَّعوة ، وظلاًّ من ظلالها الفيحاء ، فإذا كان هؤلآء المجدِّدون ، وأولئك الدُّعاة والمربُّون ـ وهم تلاميذ هذه المدرسة المحمَّدية ، وأتباع أتباع المتخرجين فيها ـ بهذه المكانة من الإيمان والإخلاص ، وعلى هذه القدرة من التأثير والإنتاج ، فكيف بالرسول ﷺ الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كلِّه ، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأكرمه بالوحي ، والكتاب المعجز الخالد ، وأيَّده بروح القُدُس ، وكيف بالناس الذين نشؤوا في أحضانه ، وتربَّوا بين سمعه وبصره ، وكان وجود هؤلآء المجدِّدين والمربِّين في القرون المتأخرة ، وفي بلادٍ بعيدةٍ عن مهد الإسلام ، ومركز الدَّعوة الإسلامية دليلاً على خلود هذا الدين ، وتدفُّقه بالحيوية والتوليد ، وعلى أنَّ شجرة الإسلام لا تزال تثمر ، وخليَّته لا تزال تعسل ، وهي فائدة ليست ضئيلةَ القيمة ، ولا قليلة الأهمِّيَّة.

ومن خصائص هذه الجماعة التي تلفت النظر ، أنَّها كانت تجمع بين جهاد النفس ، وجهاد العدو ، وبين الحبِّ لله ، والخشية له ، والحبِّ لله والبغض لله ، وبين الزهد والعبادة ، والحميَّة الدِّينيَّة والغيرة الإسلامية ، وبين السيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح في المسجد والبيت في ظلام الليل ، والتكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، صفاتٌ وجوانب خُيِّل لكثيرٍ من المطَّلعين على التاريخ ، المختبرين لحركات الإصلاح : أنَّها متناقضةٌ متضادَّةٌ ، وذلك بفضل التربية الدقيقة التي

أخذ بها قائدها ومربيها ، والوعي الدِّينيّ الصحيح الذي نضج ، ورسخ ، واستوعب الحياة كلها ، وبسبب أنَّها لم تمر بمرحلة التربية الدينية مراً عابراً سريعاً ، ولم تخض المعركة من غير استعداد ، بل أخذت الأمور بنصابها ، وأتت البيوت من أبوابها ، وذلك هو المثل الكامل لجيلٍ مؤمنٍ مجاهد ، والنموذج الرائع للربَّانيَّة الصحيحة المطلوبة في كلِّ عصر[1] .

* * *

---

(١) هذا المقال هو في الواقع مقدمة على كتاب «إذا هبّت ريح الإيمان» الذي جمع فيه العلامة الندوي روائع من تاريخ الهجرة والجهاد في القرن الثالث عشر الهجري في الهند لقائده العظيم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، طُبع في دار ابن كثير بدمشق.

لا سعادة حقيقية إلا بالدِّين أوربة أخفقت في إسعاد الإنسان بعلومها ووسائلها الماديَّة

ادَّعى علماء الغرب أنَّ المجتمع الإنساني المتمدِّن يمكن ، لا بل يجب أن يقوم على غير أساس الإيمان ، وتعاليم الأديان ، والقيم الخلقية ، والرسالات السماوية. إنَّه يستطيع أن يقوم على أساس العلم والتنظيم ، والصناعة والاقتصاد ، والوعي السياسيِّ ، والقومية ، والوطنية ، والاتفاقات ، والتعهُّدات الاجتماعية الدستورية ، وإنَّ المجتمع يسعد ويترفَّه بالوسائل والآلات التي تمنحها علوم الطبيعة والكيمياء ، وتسخير الكون والطبيعة لصالح الإنسان ورغباته وطموحه ، وتذليل العقبات التي كانت نتيجة الجهل للعلوم الكونية والطاقات البشرية ، وإنَّ سرَّ شقاء الإنسان في العصر الماضي صعوبة التعارف ، والتفاهم بين أعضاء الأسرة الإنسانية في أنحاء الأرض ، وفي مختلف القارات والأقاليم .

لقد ألحَّ الغرب على هذا المعنى ، وتحمَّس له تحمُّس المؤمنين الجدد ، وكان هتافه «**لا إله ، ولا دين ، ولا غيب ، ولا إيمان ، ولا روح ، ولا أخلاق ، ولا آخرة**» إنما هو حسٌّ وتجربةٌ ، أو لذةٌ أو منفعةٌ ، أو قوميَّةٌ ووطنيةٌ ، أو غريزةٌ وعاطفةٌ ، أو ديموقراطيةٌ ، أو جمهوريةٌ ، أو اشتراكيَّةٌ وشيوعية ، وبرز في الميدان أئمة هذه الفلسفات ، وأبطال هذه الدَّعوات ، وتلاميذهم ، ومعارضوهم على اختلاف فلسفاتهم ونزعاتهم ، وكثرة مذاهبهم ، وتوزعوا العالم الغربيَّ ، وخضع لهم كلُّ شيءٍ ، وازدهرت

مدارسهم مدَّةً طويلةً ، ولا تزال تسيطر على العقول ، والآداب ، ومراكز السياسة ، ودور الاختبار ، والمجتمع الأوروبي المعاصر قد اقتبس من هؤلاء ، وتأثَّر بمجموعهم في قليلٍ أو كثير ، وآمن بالقدر المشترك بينهم ، وهو «المادية».

منحت أوربة فرصةً لتحقيق هذه المبادىء التي آمنت بها في سخاءٍ وحرِّيَّةٍ لا نظير لها في تاريخ الحضارات ، وهي أطول فرصةٍ مع أعظم مقدارٍ من الآلات ، والوسائل ، والتسهيلات؛ التي تمنح القيادات في التاريخ على يد عمالقة نوابغ عبقريين في العلم والاختبار ، والتنظيم والإدارة ، وليست على وجه الأرض قيادةٌ تعارض هذه القيادة ، أو دولةٌ قويَّةٌ تعرقل سيرها ، وقد وضعت الكنيسة النصرانية أوزارها قديماً أمام طموح أوربة المادي والفكري ، والنهضة العقلية الوثابة؛ التي لا قبل لها بها ، وخضع الشرق الإسلاميُّ لغزواتها السياسية ، والفكرية في القرن التاسع عشر المسيحي ، وخلا لها الجو ، ودان لها العالم بشرقه وغربه ، وشماله وجنوبه.

لقد أمكن أوربة المادية أن تبرز جميع مواهبها ، وأن تمثل «المادية» على المسرح العالمي في جوٍّ مليءٍ بالهتاف ، والتصفيق ، والتأييد ، والتَّصديق ، فإذا كان لمسرحيةٍ في العالم أن تنجح كان ذلك لهذه المسرحية التي يمثلها أبرع رجالٍ في أوفق أحوالٍ.

ولكن ماذا كان؟ أخفقت هذه المسرحية التي كانت حصيلة أذكى عقولٍ بشريَّةٍ ، وأغنى قرائح إنسانيةٍ في أهدافها ومراميها إخفاقاً لم يعرفه التاريخ.

عداءٌ داخليٌّ ، وخارجيٌّ ، صراعٌ بين الأفراد والطبقات ، والشعوب ، غيوم الحرب الكثيفة التي تغشى العالم كلَّه ، وبركان متهيِّءٌ للانفجار لأدنى مناسبة ، ونذر صارخةٌ لنهاية البشر الأليمة ، وفقدان الثورة والهدوء والأمن العاطفي ، وتسلط الذعر والفزع على الأعصاب ، وقلقٌ دائمٌ ، وتفسخٌ خلقيٌّ كبيرٌ يتخطى القياس ، وفراغٌ روحيٌّ هائلٌ لا يملؤه شيءٌ ، وسآمةٌ لا نهاية لها ، ولا علاج ، وتشاؤمٌ ويأسٌ وحيرةٌ.

إنَّ قصة إخفاق الحضارة الغربية قصَّةٌ معادةٌ مكرَّرةٌ ، ولكنَّها قصَّةٌ يجب

أن تروى ، وتتلى ، وتعاد ، وتكرر ، وهي قصَّةٌ تهمُّ الإنسان في كلِّ مكانٍ ، وتتصل به ، وبحياته من أقرب طريق ، ولأن في الشرق مَنْ لا يزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقدسها ، ولا يصدق أنَّ مثلها يخفق ويخيب ، أو أنها قد أفلست في معنوياتها ، وهو يراها تبرهن على وجودها وقوَّتها في الشرق والغرب.

لقد جرب العالم الإسلاميُّ هذه الحضارة ، واكتوى بنارها ، وعاش فيها زمناً طويلاً ، وشاهد إخفاقها ، وتهيؤها للانهيار في كلِّ مكان ، شاهد ذلك في أخلاق الساسة وقسوتهم ، وموت العاطفة الإنسانية في قلوبهم ، وفي أخلاق الشعب ، ورخص قيمة الأعراض في عينه ، وهدر الكرامة الإنسانية ، وضياع القيم الخلقية ، وفشو الجنايات والسفالات في المجتمع ، وعجز قادة الفكر والسياسة عن إيجاد رسالةٍ إنسانيةٍ تنفخ روحاً جديدةً في المجتمع ، وتسوق الأمم نحو هدفٍ واحدٍ ، وتجمع شملها ، وعن ملء الفراغ الرُّوحي ، وعن إعادة الهدوء والسلام ، والثقة بالإنسان ومستقبله ، إلى غير ذلك مما يتَّسم به هذا المجتمع الراقي؛ الذي بلغ أوج الحضارة ، والتنظيم ، والوعي.

يتجلَّى لكلٍّ من يشاهد هذه الآثار أنَّ كلَّ مجتمع لا يقوم على أساس الإيمان إنَّما هو مجتمعٌ يقوم على شفا جرفٍ هارٍ ، لاَ بدَّ له أن ينهار ، وإن طال أمده ، واتَّسع سلطانه ، ولا سبيل إلى «الإيمان» إلاّ دعوة الأنبياء والرسل وسيرتهم ، الذين يملؤون الأمم الواسعة والجماهير الكثيرة بالروح الخلقية ، وقوة الإيمان ، والإنسانية السامية التي ليس فوقها إلا الصفات الإلهية ، ويشعلون قلوب الملايين ـ من غير مدارس ، وجامعات ، ومجامع علمية ، ووسائل للنشر والتأثير ـ إيماناً وحماسةً وزهداً في المطامع والزخارف ، وقوَّة مقاومةٍ للشهوات ، وإيثاراً للآخرة على الآجلة ، وإيثاراً لغيرهم على نفوسهم ، وحبّاً لله ، الذي لا يرونه بعيونهم ، ولا تتناوله حواسُّهم ، والتفاني في رضاه ، وهذه سيرتهم ، وكتب التاريخ تحكي عنهم وعن اتباعهم كلَّ غريبٍ ، وكلَّ معجب ، ولولا التواتر ، ولولا الآثار لسارعت النفوس إلى تكذيبه ، والشكِّ فيه ، وهم الذين أنقذوا البقية الباقية

من الحضارة والمجتمع البشري من رسل الهمجية والفوضى والوحوش مرَّاتٍ عديدةً ، وحفظوا السفينة البشرية من الغرق في آخر لحظةٍ ، وفيها التراث الحضاريُّ وكلُّ ما شاده البشر في آلاف من السنين ، وصانوا القيم الخلقية والمفاهيم الصَّالحة من الضياع والتلف إلى آخر الأبد ، ومدُّوا في أجل السلالة البشرية ، ومنحوها ـ بجهادهم الطويل وإخلاصهم العميق ـ حقَّ البقاء وجدارة الحياة.

ومن المقرر المشاهد؛ الذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الأديان ـ التي أسعفت الإنسانية في أزماتها ومحنها المختلفة ، وفضلها لا ينسى في تاريخ المدنية ـ قد فقدت قوتها وحياتها مع امتداد الزمن وطوارق الحدثان ، وأصبحت فتيلةً قد نفد زيتها ، أو كحبوبٍ عصرت إلى آخر قطرةٍ ، فهي لا تسمن ، ولا تغني من جوع ، وهي ليست من القوة والحياة بمكانٍ تستطيع فيه أن تقاوم هذه المدنية القويَّة ، وإغراءاتها الجارفة ، وليس في الذين لا يزالون يدينون بها ويحملون أسماءها ثقةٌ بهذه الأديان ، وصلاحها لكلِّ زمان ومكان ، وحماسةٌ للدعوة إليها والجهاد في سبيلها ، ولمواجهة المدنية العصرية وتحدِّياتها ، وجلُّهم أو كلُّهم قد وضع أوزاره أمام المادية الغربية ، واعتزل المعترك ، وآمن بأنَّ «المادية» لا مفرَّ منها ، وأنها مصير الإنسانية المحتوم.

الإسلام هو الدين:

إنَّ هنالك ديناً لا يزال في حياته ، وأصالته ، ونقائه ، ولا يزال أهله يعتقدون أنَّهم مأمورون بتبليغ الرسالة ، وإنقاذ المدنية ، والحسبة على الإنسانية ، ومسؤولون أمام الله ، وأمام الخلق عن اتجاهات هذا العالم ، ويمتازون بين أهل الأديان بأربع ميزاتٍ بارزةٍ:

أولها: وجود هذا الكتاب العظيم المتدفق بالحياة ، الكفيل بسعادة البشرية وتوجيهها ، يحمل أعظم علمٍ وأعمقه بين دفتيه ، ويملك أعمق تأثير في القلوب والعقول ، وهو ثروةُ البشرية العظمى ، والمعين الذي لا ينضب ، والمدد الذي لا ينفد ، قد أحدث أعظم ثورةٍ في تاريخ

البشرية ، ويستطيع إذا أطلق له العنان ، وحُكِّم في قيادة الإنسان أن يحدث أعظم ثورةٍ أخرى.

والميزة الثانية: هذه السِّيرة النبويَّة العطرة التي هي أجمل صورةٍ على الإطلاق في مجموع الصور البشرية الغنية ، وأعظم صفحةٍ مشرقةٍ في تاريخ البشر ، تعيد إلى الإنسانية كرامتها ، ومكانتها ، وتعيد الثقة والاعتزاز في نفس الإيمان بأشرفية النوع الإنساني ، الصورة التي لا يملك أمامها الإنسان - إذا لم يفقد حسَّ الجمال وحبَّ الكمال - إلاّ أن يفتخر بأنه من نوعه ، ومن بني جنسه ، ويتمنى أن يتسامى بتقليده للصورة التي يجد فيها كلُّ إنسانٍ قوةً وسكينةً ، وأسوةً ، وقدوةً ، وحياةً ، وتوجيهاً ، وجوانب مشرقة تفتح منافذ جديدةً ، وتثير معاني جديدةً ، وهذه الصورة لا تزال بملامحها وقسماتها الأصيلة لم تطوها يد الزمان.

الميزة الثالثة: وجود الشريعة الإسلامية كما تركها صاحب الرسالة محفوظةً في أصلها وأساسها ، غنيةً في ثروتها الفقهية ، صلبةً مرنةً لا تتنازل عن القديم ، ولا تتجهَّم للجديد ، لا تخجل من ماضيها ، ولا تفر من حاضرها ، تالدةً خالدةً ، صالحةً لكلِّ عصرٍ وبيئةٍ ، تعطي الأسس الحكيمة التي يقوم عليها مجتمعٌ جديدٌ ، وحضارةٌ صالحةٌ.

الميزة الرابعة: وجود العاطفة الدينية القوية في المسلمين على علاَّتهم ، ومواضع الضعف فيهم ، وانقيادهم للدعوة الدينية ، وخضوعهم لها إذا وُجِدَ الدُّعاة المخلصون ، وهذه قوة فقدها وأفلس فيها عامَّة الأمم الغربية ، وهي قوة لا يعرف قيمتها إلاّ من اشتغل بالدَّعوة والتجديد الديني في أمةٍ من الأمم ، ومن رأى إخفاق هؤلاء الدعاة في إعادة الحياة الدينية والروح الدينية في هذه الأمم[1].

* * *

---

(١) انظر كتاب العلامة الندوي «حديث مع الغرب». ص/ ٥٧ - ٦٣.

جوانب الاستفادة والاقتباس من الغرب ومنهجه

ليس المقصود من إبراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الإسلامية وكيان الأمة المسلمة هو تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة ، واقتباس بعض ما توصَّل إليه العلم ، والصناعة ، والاختراع في الغرب من وسائل تسهيلٍ وترفيه ، وإغلاق الباب على مصراعيه ، فإنَّ ذلك لا يقوله عاقلٌ فضلاً عن مطلع على روح الدين وتعاليمه ، والإسلام لم يزل واسع الأفق متفتح القلب والنظر في الاستفادة بكلِّ ما يصلح وينفع ، ولكن مفهوم الحضارة الغربية في هذا المقام هو أوسع من اقتباس الآلات ، والمخترعات ، والتجارب المفيدة في الحياة العامة ، إنها تشمل الأفكار ، والقيم ، والمفاهيم ، والمثل ، وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية ، والتخطيط المدني الشامل ، واقتباس أساليب الحياة؛ التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام ومعاييره في الطهارة ، والنظافة ، والاعتدال ، والوقوف عند الحدود التي رسمتها الشريعة الإسلاميَّة ، ويعسر على المسلم معها التأدب بآداب الشرع ، والعمل بالسنن النبوية الكثيرة ، ويبتعد بها عن الحياة الإسلاميَّة التي عاشها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون لهم بإحسانٍ ابتعاداً كلِّيّاً ، وتضفي على الأمة شخصيةً أجنبيةً ، لا تعرف فيها إلاّ بالأسماء الإسلامية ، أو بالأزياء التي لا تزال بعض الشعوب العربية أو الإسلامية محافظةً عليها ، أو عندما يرتفع صوت الأذان من منائر مساجدها ، أو عندما تدخل في المسجد على قلَّة عدد الداخلين في بعض البلاد ، وكثرتهم في بعضها ، فلا يربطها بالإسلام إلاّ خيطٌ رقيقٌ من عقيدةٍ وتقاليد دينية ، إذا انقطع هذا الخيط ـ لا سمح الله بذلك ـ انقطع كلُّ شيء .

وأعتقد أنَّه من الميسور جدّاً الجمع بين التسهيلات المدنيَّة والاستفادة بالآلات والمخترعات ، وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلاميَّة من جمالٍ ، وبساطةٍ ، وجديَّةٍ ، وعنايةٍ بالطهارة ، والنظافة ، والابتعاد عن الإسراف والتبذير ، والإغراق في المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومات الإسلامية ، والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدني المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، وإذا توافر عندها الذكاء ، والأصالة ، والإيمان بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية التي تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها ، وكان هذا التخطيط أجمل ، وأفضل ، وأكثر جلياً للأنظار واستهواءً للقلوب ، وأبعث على الاحترام والتقدير ، ويؤم هذه المدن عددٌ من السياح بل من قادة الفكر ، ورواد العلم ، وأكبر من العدد الذي يؤمها الآن من المتنزهين ، وربما يكون هذا الطراز الجميل الأصيل من المدنية باعثاً لكثير من الأقطار الغربية على تقليد بعض هذه الجوانب واقتباسها ، وعلى الأقل على التفكير فيها وتقديرها ، كما كان الشأن مع الحضارة الإسلاميَّة الأندلسية التي كان لها تأثيرٌ عميقٌ في الحضارة الغربية ، وفلسفتها ، وآدابها .

ولكن مع الأسف الشديد لم يوفق لذلك قطرٌ واحدٌ من الأقطار الشرقية والعربية والحكومات الإسلامية ، ولم تكن عند أحدها جرأةٌ كافيـةٌ تحملها على مجرد هذه التجربة ، وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الأقطار كلُّها نسخةً ناقصةً من المدنيَّة الغربية ، وصورة شاحبةً لها ، لا تسترعي اهتمام الغربيين ، ولا تحرِّك فيهم مشاعر الإجلال والاحترام ، وإنما يقولون إذا زاروا هذه المدن متفرجين أو مشاهدين : **(بضاعتنا ردَّت إلينا)** .

محنـةُ ذكـاءٍ وقـوة إرادة :

إنَّ التصميم الحضاري محنة ذكاءٍ ، وعصاميةٌ ، وعبقريةٌ ، وقوَّة إرادةٍ ، وفقه دينٍ ، ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديلٌ وتحسينٌ . إنَّ الإسلام قد حدَّ حدود الحلال والحرام ، وحرَّم تخطي هذه الحدود ، وأفسح المجال

بينها للتمتع الكريم النزيه ، في غير إسرافٍ وإجحافٍ ومسٍّ بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرضٍ لخطرِ الوقوع في الإثم والفحشاء والتبذير ، والحياة التي لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام الأقوياء ، وهذه هي الروح التي تسيطر على أحكام اللباس ، والطعام ، والعشرة ، والاجتماع ، والمتعة ، واللذة ، وحثَّ على مراعاة المصالح ، والتجنب من المضارّ والمفاسد ، وإعداد الممكن المستطاع من وسائل القوّة والدِّفاع ، واقتباس الصالح والنافع من العلوم والحكمة ، بشرط ألا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة والقومية ـ الإسلاميَّة ـ وبشرط ألاّ ينشىء ذلك في الأمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً في الثقة ، وروح اندفاع سريعٍ متهوِّرٍ إلى تقليد الآخرين ، والتشبُّع بروحهم ، وإجلال حياتهم ، وتقديسها.

نعومة حرير وصلابة حديد :

إنَّها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة الحرير في مسايرة المقتضيات ، والحاجات ، والحقائق ، غير مفترضة ولا مختلفة ، وغير متخيلة ، ولا مبالغ فيها ، وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق ، إنَّها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر لاقتباس العلوم النافعة ؛ التي نشأت وتكوَّنت في جانبٍ بعيدٍ في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمسُّ جوهر الدين ، ولا تغيِّر وضع الأخلاق.

الاستفادة من الغرب ومجالها :

وأحلِّي هذا الفصل الذي يحدد موقف العالم الإسلامي من حضارة الغرب وثقافته بقطعةٍ جميلةٍ من كتاب : «الطريق إلى مكة» للأستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الاتزان والحضارة الفكرية ، وهي تحدِّد ـ بلباقةٍ فائقةٍ ومقدرةٍ كبيرةٍ ـ الخطَّ العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم الإسلاميُّ في الإفادة من الغرب ، وتبني الوسائل الحديثة ، يقول محمد أسد :

«إنَّ عالم الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر» ، كما

هو اليوم ، وهذا القرب هو صراعٌ ظاهرٌ وخفيٌّ ، ذلك أنَّ أرواح الكثير من المسلمين والمسلمات لتتغضَّن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، إنهم يتركون أنفسهم ، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأنَّ تحسين مقاييس المعيشة يجب ألا يكون سوى واسطةٍ لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية ، وإنهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها التي ترد من العالم الغربي بعد أن صغروا الدِّين إلى مجرَّد صلصلةٍ رخيمةٍ في مكانٍ ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً ولا يكبرون ، ذلك أنَّ كلَّ تقليدٍ ثقافي بخلاف الخلق والإبداع لا بدَّ أن يحقر الأمة ويقلِّل من شأنها.

أنا لا أعني أنَّ المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب ، وبخاصَّةٍ في مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس في الحق «تقليداً» وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد. إنَّ العلم لا غربيٌّ ولا شرقيٌّ ، ذلك أنَّ الاكتشافات العلمية ليست إلاّ حلقاتٍ في سلسلةٍ لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضمُّ الجنس البشري بكامله. إنَّ كلَّ عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه سواء كانوا من بني أمته ، أو من أبناء أمة غيرها ، وعملية البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمرُّ وتستمرُّ من إنسانٍ إلى إنسانٍ ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ ، ومن مدنيةٍ إلى مدنيةٍ بحيث إن ما يحققه عصرٌ معيَّنٌ أو مدنيةٌ معينةٌ من أعمالٍ علميَّةٍ جليلةٍ لا يمكن مطلقاً أن يقال: إنها «تخصُّ» و«تعود إلى» ذلك العصر أو إلى تلك المدنية ، فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمَّةٌ ما ، أمضى عزيمةً وأشدُّ همةً من غيرها بنصيبٍ أكبر في صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون وبصورةٍ شرعيةٍ صحيحةٍ في هذه العملية ، لقد جاء حينٌ كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوربة ، فنقلت إلى أوربة كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا مبادىء «تلك الطريقة العملية» نفسها التي يرتكز عليها العلم الحديث ، والمدنية الحديثة ، ومع ذلك فإنَّ اكتشافات جابر بن حيان الكيماوية لم تجعل من الكيمياء علماً «عربياً» كذلك لا يمكن أن يقال: إن الكيمياء علماً «عربياً» كذلك لا يمكن أن يقال: إن

الجبر وعلم المثلثات هما علمان «إسلاميّان» مع أنَّ الأول منهما بسطه الخوارزمي ، والثاني البتّاني ، وكلاهما كانا مسلمين تماماً ، كلا لا يستطيع أحدٌ ، أن يتكلم عن نظرية الجاذبية «إنجليزية» مع أن صاحبها كان إنجليزياً ، كل هذه الأعمال العلمية العظيمـة هي ملكٌ مشتركٌ بيـن الجنس البشري كلِّه ، وإذاً فإنَّ المسلمين إذا تبنوا ـ كما هو من واجبهم أن يفعلوا ـ الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية؛ فإنهم لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور ، والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ، ولكنَّهم إذا تبنوا ـ وهم ليسوا بحاجةٍ إلى أن يفعلوا ذلك ـ أشكال الحياة الغربية ، والآداب ، والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية ، فإنَّهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أنَّ ما يستطيع الغرب أن يقدِّمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدَّمته لهم ثقافتهم نفسها ، ومما يدلهم عليه دينهم نفسه.

ولو أنَّ المسلمين احتفظوا برباطـة جأشهـم ، وارتضوا الرقيَّ وسيلـةً لا غايـةً في ذاتهـا ، إذاً لما استطـاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنيـة فحسب ، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سرَّ طلاوة الحياة الضائع[1].

الفـراغ الأكبـر والعبقـري المطـلوب :

إنَّ الفراغ الأكبر في العالم الإسلامي هو الحاجة إلى ذلك العبقريِّ العصاميِّ الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعةٍ ، وإيمانٍ ، وذكاءٍ ، ويشقُّ له طريقاً بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، طريقاً يترفَّع فيها عن التقليد والمحاكاة ، وعن التطرُّف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم السطحية ، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوَّة ، وباللباب دون القشور.

العبقريُّ العصاميُّ الذي يشقُّ له ولبلاده وأمته طريقاً مبتكراً ، ويجمع

(١) الطريق إلى مكة ، للأستاذ محمد أسد (ليوبولد) سابقاً ، ص/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦.

فيها بين الإيمان الذي اختصَّ به الأنبياء والرسل ، والدِّين الذي أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد ﷺ ، وبين العلم الذي ليس ملك أمّةٍ ، ولا بلدٍ ، ولا عصرٍ ، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التي هي أعظم قوةٍ ، وأغنى ثروةٍ في خدمة الإنسانية ، وبناء صرح المدنية ، والغايات الرشيدة الصالحة التي لا يوحيها إلاّ الدين السماوي ، والتربية الدينية السليمة ، ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي أنتجتها ، وتوصلت إليها في سيرها العلمي الطويل ، وفي جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه في هذا الإيمان ، وفقره في هذه الدوافع الخيِّرة ، وفي هذه الغايات الصَّالحة ، بل أصبحت تستخدم في شقاء الإنسانية وتقويض أركان المدنية ، ولغاياتٍ تافهةٍ لا قيمة لها.

العبقريُّ العصاميُّ الذي يعامل الحضارة الغربية ـ بعلومها ، ونظرياتها ، واكتشافاتها ، وطاقاتها ـ كمواد خام ، يصوغ منها حضارةً قويّةً عصريةً مؤسَّسةً على الإيمان ، والأخلاق ، والتقوى ، والرحمة ، والعدل في جانب ، وعلى القوى ، والإنتاج ، والرفاهية ، وحب الابتكار في جانبٍ آخر ، ولا يعامل الحضارة الغربية كشيءٍ قد تمَّ تكوينه وتركيبه وختم عليه ، فلا يؤخذ إلاّ برمته ، ولا يقبل إلاّ على علاته ، إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته ، وعقيدته ، ومبادئه ، ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهجٍ خاصٍّ للحياة ، ونظرةٍ خاصَّةٍ إلى الدنيا ، وسلوكٍ خاصٍّ لبني النوع ، وسعيٍ خاصٍّ للآخرة ، وجهادٍ دائم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] جهازاً مؤسساً على الإيمان بنبوة محمَّد ﷺ ، وأنَّه المثل الكامل ، والإمام الدائم ، والقائد المطاع ، والنموذج المتَّبع ، والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساسٍ للتقنين ، والدِّين الوحيد الذي تنال به سعادة الدنيا والآخرة ، ولا يقبل الله سواه.

العبقريُّ العصاميُّ الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده ، وما ينفع عملياً ، وما ليس له طابع غربٍ أو شرقٍ ، إنما هي علومٌ تجريبيةٌ تطبيقيةٌ ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به في القرون

المظلمة ، وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب ، وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجرَّدةً من روح الإلحاد والعداء للدِّين ، ومن النتائج الخاطئة ، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره ، ويستنتج منها نتائج أعظم ، وأوسع ، وأعمق ، وأكثر سعادةً للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون[1] .

* * *

---

(١) انظر: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للعلامة الندوي ، ص/ ٢١٢ - ٢١٦ .

عبودية الغرب الفكرية
أسبابها وعلاجها![1]

إنَّ قادة الدول الإسلامية المستقلة والتي هي في طريق الاستقلال يتفقون في أغلب الأحوال مع فكرة كمال أتاتورك ، أو يتأثرون به على أقلِّ تقدير ، ولا يزال اتجاه الطبقة المثقفة الذكية ذات السلطة والقيادة والأمر والنهي في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ نحو ذلك الطراز من الإصلاح والتطوير الذي يحمل الطابع الكمالي ، ونحو «التجدد» و«التغرب» يجب علينا ألاَّ نفكر أنّه مجرد مصادفة ، أم أنَّه نتيجة شخصية أتاتورك القوية ، أو أنه توجد في أعماقه أسباب ، ودوافع أقوى ، وأمتن ، وأعم ، وأشمل ، فكلُّ من يقوم في العالم الإسلامي لبناء مجتمعه ، وتطويره الجديد يتبع كمال أتاتورك ، ويقتفي آثاره ، وخطاه ، ويعتقد أنَّ سرَّ نهضة البلاد في تقليد الغرب واتِّباعه. إنَّني أعتقد أنَّ لذلك أسباباً أعمق ، وأعمَّ ، وسأحاول أن أستعرض هذه الأسباب والعوامل (Factors) واحداً واحداً باختصار.

إنَّ منهاج التعليم يحمل روحاً وضميراً كما يحملها الوجود الإنساني تماماً ، هذه الروح وهذا الضمير هو عكس تلك العقائد التي يحملها واضعو ذلك المنهاج ونفسيتهم ، وعصارة آرائهم ، ومشاهداتهم عن الحياة ، وأساس مشاهدة الكون ، و«علم الأسماء» ووليد سلوكهم وأخلاقهم ، وهو يمنح هذا المنهاج ، وهذا النظام شخصيةً ، وروحاً ، وضميراً خاصّاً. إنَّ هذه الروح تسري في جهازه الكامل من الأدب ، والفلسفة ، والتاريخ ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الثامن ، عام ١٩٦٣ م.

والفنون الجميلة ، والعلوم العمرانية ، حتى في العلوم الاقتصادية ، والسياسية أيضاً؛ بحيث يتعذَّر تجريد هذه العلوم من هذه الروح والضمير ، ولا يستطيع أن يقوم بهذه العملية الخطيرة الهامة ، ويجرد أجزاءه النافعة الصالحة من أجزائه الضارة الفاسدة ، ويميز بين اللب والقشور ، فيأخذ روحه وجوهره ، ويعمل بـ «**خذ ما صفا ودع ما كدر**» إلا من أوتي قوة اجتهادٍ كبيرة ، وموهبة نقدٍ ، وتمحيص غير عادية. إنَّ هذا العمل لا يتعذر ، ولا يتعسَّر في العلوم الطبعية والتجريبية بمثل ما يتعسر في الفلسفة والآداب والعلوم الاجتماعية ، فإنه عسيرٌ وخطيرٌ جداً في هذا المضمار.

إنَّ أمَّةً تحمل عقائد معينةً محكمةً ، وفلسفة حياة خاصَّة ، وطريقة حياة مستقلة ، وتاريخاً ليس ركاماً (Debris) من الماضي ، بل إنَّه مشعل الطريق للأجيال الجديدة القادمة ، أمةً تعتبر شخصية النبيِّ الكريم وعصره المثل الأعلى لأبنائها ، إنَّ أمة كهذه إذا قبلت نظام تعليم أمَّةٍ أخرى تختلف عنها في الأساس والمبدأ والمثل العليا ، بل تعارضها وتحاربها؛ لأحدث ذلك اصطداماً عنيفاً في كل خطوةٍ ، وفي كلِّ إقدامٍ ، فلا يمكن بناء واحدةٍ من غير تدمير الأخرى ، وتصديق واحدةٍ من غير تكذيب الأخرى ، واحترام واحدةٍ من غير تحقير الأخرى ، وهنالك ينشأ الصراع العقلي أولاً ، والوهن في العقيدة ثانياً ، والانحراف عن الدين وقبول أفكار وأقدار (Views & Values) محل أفكار وأقدار قديمةٍ ثالثاً.

إنَّها عمليةٌ طبعية لا تحول بين الإخلاص ، وحسن النية ، ووخز الضمير ، والآمال والأحلام ، والتدابير الفرعية الظاهرة. إنَّ هذه التدابير تستطيع أن تعرقل سيرها قليلاً ، وتؤخر أمدها بعض الوقت ، ولكنَّها لا تستطيع أن توقفها ، أو تلغيها. إنَّ الشجرة التي تنمو وتورق بنظامها الطبيعي فإنها تؤتي أكلها في وقتها ، الإنسان يستطيع ألا يغرس هذه الشجرة ، وألا يسقيها ، ولا يرعاها ، أو يقطعها إذا كبرت وتضخمت ، ولكنَّه لا يستطيع أن يمنع شجرةً خضراء باسقةً من أن تعبر عن وجودها وشخصيتها ، وتؤتي ثمارها في أوانها.

هذه هي قصة التعليم الغربي ، إنَّه يحمل روحاً وضميراً يختصُّ به . إنَّه انعكاس عقائد المؤلفين ، ورجال التعليم ، ونفسيتهم ، ونتيجة تطور آلاف السنين ، ومجموعة أقدار مقررة ثابتة عند أهل الغرب وتعبير عنها ، إنَّ هذا النوع من النظام التعليمي إذا فرض على دولة إسلاميةٍ ، أو مجتمع إسلامي ؛ أدَّى إلى صراع عقلي ، واضطرابٍ عقائدي ، وارتدادٍ فكري أولاً ، وارتدادٍ دينيٍّ سافرٍ ثانياً إلا من عصم ربك . كتب الأستاذ محمد أسد عن نتائج هذا التعليم في الشرق فأجاد؛ إذ قال :

لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأنَّ الإسلام والمدنية الغربية ـ وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ـ لا يمكن أن يتفقا. فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية ، وعلى مقتضياتها ، خالصةً من شوائب النفوذ المعادي للإسلام؟

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقلٍ نيِّرٍ للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا ، أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنَّهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصَّة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريبٍ في أنَّ العقيدة الدينية آخذةٌ في الاضمحلال بسرعةٍ بين «المتنورين» الذين نشؤوا على أسسٍ غربية[1] .

ثم حلل الأستاذ أجزاء ذلك النظام قائلاً :

«إن تعليم الأدب الأوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، ومثل هذا ـ ولكن إلى حدٍّ أبعد ـ يصدق على التعليل الأوربي للتاريخ العام؛ إذ لا يزال الموقف القديم فيه «رومانيون وبرابرة» يظهر بجلاءٍ ، ثم إنَّ لمثل

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٥ .

هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنَّه يدلُّ على أنَّ الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيءٍ جاء ، أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم ، وهكذا يمكن خلق نوعٍ من التدبير الأدبي لسعي الأوربيين إلى السيطرة ، وإلى القوة المادية»(١) .

وقال : **أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوربية ؛ فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصَّة، وبماضيهم التاريخي الخاص، وبالفرص السانحة لهم في المستقبل. وهكذا يتربون تربيةً منظمةً على احتقار ماضيهم ، ومستقبلهم ، اللهم إلا إذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية**(٢) .

وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي؛ فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما ، إنَّ كلَّ تأخرنا العلمي ، وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ، وإذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصرٌ ثقافي فيجب علينا أن نحترس من الجوِّ الفكري للمدنية الغربية ، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلَّب على مجتمعنا ، وعلى ميولنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية. إنَّ تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلي المصاقب لذلك(٣) .

وقد تنبأ بهذه النتيجة الحتمية بعض المفكرين الغربيين أيضاً الذين روجوا هذا النظام في الدول الآسيوية الشرقية .

كتب الكاتب الإنجليزي الشهير اللورد اميكالي الذي كان رئيساً للجنة تعليمية أنشئت في ١٨٣٥ للبحث في لغة التعليم بأن تحلَّ الإنجليزية محلَّ

---

(١) المصدر السابق : ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) المصدر السابق : ٧٤ .

(٣) المصدر السابق : ٧٦ .

اللغات الشرقية لتعليم أهل الهند ، فقال :

«ينبغي أن ننشىء طائفةً من الناس تتحدث باسمنا ، وتكون همزة وصل بيننا وبين مئات الملايين من رعيتنا. ولتكن هذه الطائفة هندية في الدم واللون ، إنجليزية في الذوق والفكرة ، والألفاظ والشعور»[1].

إنَّ هذا النظام التعليمي الغربي هو في الواقع بمثابة القضاء على جيلٍ كامل (Genoside) إنَّهم هجروا أسلوب الفتك ، والقتل ، والإبادة ، والتحكم على أجساد الجيل ، وأرادوا أن يكونوه تكويناً جديداً ، ويصهروه في بوتقتهم ، وأقاموا لهذا الغرض مراكز ، ومعاقل كثيرةً في مختلف أنحاء البلاد ، وسمَّوها المدارس والكليات ، لقد عبر بهذه الحقيقة التاريخية الشاعر الهندي الكبير أكبر الإله آبادي ، في أسلوبه الساحر الساخر فقال :

لو فطن فرعون إلى هذه الحقيقة لم يشوِّه سمعته ، ولم يذكر بسوء تقتيل الأطفال ، إنَّه مع الأسف لم يفهم قيمة المدرسة.

إنَّه فرق في شعر آخر بين أساليب الحكام الشرقيين والغربيين ، فقال :

«الشرقيون يقطعون رأس العدو ويحطمونه ، والغربيون يغيرون شيمته وصفته».

ثم جاء إقبال بعده بعدة سنوات (وكان ممن حصل على هذا التعليم في عقر داره ، واكتوى بناره) فعبر عن هذه الحقيقة بأسلوب متينٍ رصينٍ :

«لا تأمن هذا العلم الذي تدرسه ، فإنه قد يخنق به روح أمة بأسرها»[2].

التعليم يغير النفسية والروح ، ويحطم جهازاً ويصنع جهازاً جديداً محلَّه. يقول إقبال وهو يعدُّ هذا النظام التعليمي مؤامرةً ضدَّ الدِّين ، والأخلاق ، ويقول :

إنَّ هذا التعليم للكنيسة (يريد به الغرب) ليس إلا مؤامرةً ضدَّ الدين ،

---

(١) تاريخ التعليم لمؤلفه المبحر باسو ص ٨٧.
(٢) أرمغان حجاز ، ص ١٤٤.

والأخلاق[1] . وشاعر الإسلام إقبال من أولئك الأفذاذ السعداء الذين نزلوا في قاع محيط التعليم الغربي ثم ظهروا على سطح الماء ، وما وصلوا إلى الشاطىء بسلامةٍ وأمانٍ فحسب ، بل أتوا معهم بذخيرة كبيرةٍ من اللآلىء الثمينة ، وزادوا إيماناً على إيمانٍ بخلود الإسلام ، ومضمراته الواسعة ، وآفاقه الكبيرة ، ولو أنَّه من العسير أن نجزم عنه القول بأنَّه لم يتأثر مطلقاً بالتعليم الغربي والفلسفة الغربية ، وأنَّ شعوره الديني وفقهه للإسلام يطابق الكتاب والسنة والسلف الصالح تماماً[2] ، ولكن لا يشك أحدٌ أنَّ «نار نمرود» لم تستطع أن تحرق شخصيته وذاتيته ، شأن آلاف من معاصريه ، وأقرانه ، فاستطاع أن ينشد بحق إلى حدٍّ كبير :

كسرت طلسم العلم الحديث ، أخذت بالحبة وتركت شبكتها ، الله يعلم أنّني جلست في ناره من غير تردُّدٍ وإشفاقٍ ، مثل إبراهيم عليه السلام .

إنَّ رأي الزعيم الهندي الإسلامي محمد علي عن التعليم الحديث ونتائجه شهادةٌ هامَّةٌ أيضاً في هذه القضية ، ولها قيمةٌ كبيرةٌ ، إنَّ محمد علي نشأ في أسرةٍ دينيَّةٍ عريقةٍ ، ثم اتصل بمراكز التعليم الغربي في الهند وبدأ دراسته فيها ، يقول في سيرته التي كتبها بقلمه :

«**الحكومة البريطانية كانت تؤمن بالحياد التام في الدين ، وكانت تتحمَّس لها ، إنَّها سحبت المواد الدينية والأخلاقية تماماً من مناهج التعليم ، وطبقت هذه الفكرة فعلاً ، ولم تبق فيها المعلومات التي يستفيد منها الطلبة أثناء دراستهم للكتب المدرسية بالإنجليزية واللغات الشرقية**» .

وكانت في جانب آخر تلك النظرية التعليمية التي هيأتها الحكومة للشبيبة الهندية ، وهي كانت «حديثة» ولكنها ـ مع صلاحيتها للتدمير والتحطيم ـ كانت تلحُّ على أن تنشىء في نفس الطالب شعوراً مبالغاً بالمعرفة

---

(١) ضرب كليم ، ص ٨٥ .

(٢) إن هذه النزعة ظهرت في محاضراته التي ألقاها في مدراس ونشرت باسم «Reconstrution of Islamic Thought» ، فقد يوجد فيها التعبير الفلسفي للحقائق الغيبية والتأويل البالغ في كثيرٍ من المواضع .

والاطلاع ، وأن تقضي على عظمة المثل ، والتقاليد ، والسند ، والحجة أيضاً مع الأوهام الماضية الغارقة في القرون ، لا شكَّ أن هذا التعليم أنشأ في نفوس الشباب رغبةً صادقةً مخلصةً في البحث عن الحقيقة بمرِّ الأيام ، ولكنَّها كانت في هجومها الأول هدامةً بوجهٍ خاصٍّ ، وإنَّها ما أعطت عوضاً عن الأوهام التي قضت عليها ، كانت بنفسها مبنيةً على عقائد لا أساس لها ، وأوهامٍ وخرافاتٍ»[١].

إنَّ الإصرار على أنَّ الدين سلوكٌ فرديٌّ لا علاقة له بالسياسة والدولة ، والنظر إليه كالكنيسة المسيحية ، وفصل الدين عن السياسة ، والرأي بأنَّ الدين عائقٌ في سبيل الرقي ، والاختراع ، والعلم ، واعتبار علماء المسلمين كممثلي الكنيسة المسيحية الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة في القرون الوسطى ، واعتبار المرأة مساوياً للرجل وأهلاً لمرافقته في سائر مجالات الحياة واعتبار الحجاب (بأيِّ شكلٍ كان) ذكرى نظام الحرم الشرقي القديم ، ورمز استبداد الرجال ، واعتبار قانون الإرث والنكاح والطلاق في الإسلام اجتهاد فقهاء المسلمين في القرون الوسطى ، ونتيجةً طبعيةً لهذا المحيط المحدود البدائي الذي كان قائماً في القرن السابع والثامن المسيحي ، والاعتقاد بأنَّ التعديل ، والحذف ، والتغيير في هذه الأحكام ، وقياسها بمقاييس الغرب ومبادئه عملٌ هامٌّ ، وواجب مقدَّسٌ في الوقت الحاضر ، وعدم الاكتراث أو قلة الاهتمام بالربا ، والخمر ، والميسر ، والاختلاط المشين ، والحرية الجنسية ، والنزعة إلى إحياء الحضارات القديمة ، والقوميات العتيقة ، والمناداة بأهمية الحروف اللاتينية ، إنَّ كل هذه الميول والنزعات (وما شاكلها) التي حلَّت محل الحقائق والمقررات عند الجيل المثقف الجديد ، وأصبحت رمز التقدمية والتحرر الفكري هي في الواقع عاقبة ذلك النظام التعليمي ، أو في تعبير الأستاذ محمد أسد ، نتيجة بيئته الفكرية ، والعقلية ، ورصيده التاريخي. إنَّ جميع قادة الدول الإسلامية من تركيا إلى أندونيسيا هم إنتاج ذلك التعليم. أما الذين لم يتح

---

(١) My Life A Fragment.

لهم أن يسافروا إلى بلاد الغرب ويدرسوا في معهد من معاهده الكبرى ، وينشؤوا فيها هم درسوا في بلادهم واستفادوا بهذا النظام (تحت رعاية وكلائه وممثليه) كما أنَّ بعضهم تخرجوا في الكليات الحربية التي يهتمُّ فيها بالطابع الغربي من التعليم والتربية اهتماماً زائداً.

ولذلك فإنَّ الصراع القائم في العالم الإسلامي بين عقليتين ، وفلسفتين ، واتجاهين ، والذي نتج على ظفر الفئة القوية الحاكمة ، المسلحة صراعٌ طبعي ، إنَّه مؤسف ، ومؤلم ، ولكن لا غرابة فيه مطلقاً ، بل لقد كان موضع الاستغراب إذا لم يوجد ذلك الصراع ، وذلك الاتجاه العنيف إلى الغرب ، والميل إلى التجدد.

إنَّ علاج هذا الداء وحلَّ هذه المشكلة (ولو كان شاقاً طويلاً) ليس إلا أن نركب هذا الجهاز التعليمي من جديد ، ونطابقه بعقائد الأمة المسلمة ، وغاياتها ، ومطالبها ، وحاجاتها ، نجردها من التمرد على القيم الخلقية والروحية ، وتعبد المادة والجسم ، ونطعمها بالإيمان بالله ، والسعي للآخرة ، والتقوى ، والإنسانية ، وأن نصوغها ـ من اللغة والآداب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم الاجتماعية إلى العلوم الاقتصادية والسياسية ـ صوغاً جديداً ، وأن نحارب نفوذ الغرب الفكري ، ونكفر بإمامته ونزاهته ، ونجعل علومه وأفكاره هدف النقد الحر ، والتشريح الجريء (Post Mortem) ونبين تلك الأضرار والخسائر الفادحة التي أصابت العالم الإنساني باستيلاء الغرب وسيادته ، وبالجملة ندرس علوم الغرب بحريةٍ وجراءةٍ ، ونعتبرها كمواد خام (Raw Material) ثم نركب منها جهازاً يتفق مع عقيدتنا ، ومجتمعنا ، وقدِّنا. إنَّ هذه العملية مهما أرهقت وطالت هو العلاج الوحيد لمد التجدد والتغرب الذي يهدد العالم الإسلامي ، ويتحدَّى وجوده الديني وجهازه الاجتماعي ، وأصبح سيفاً مصلتاً على رقابه ، ومسألة الموت والحياة لكيانه. إنَّ فقدان هذه العملية الجريئة جعلت جميع تضحيات الشعوب المسلمة وإخلاصها ، وعاطفتها ، وحيويتها ، ونشاطها (الذي يعمل دائماً من وراء ستار في تحرير البلاد وإنشاء الحكومات) وقوداً حقيراً لنار التجدد والتحرر الفكري والتغرب ،

وجعلت الجماهير المسلمة الساذجة ، المخلصة المتحمسة الصامتة قطعاناً من الغنم تحت رحمة هؤلاء القادة ، والزعماء ، يسوقونها إلى أي هدفٍ شاؤوا .

لقد كان سرُّ استقرار الحكومة الإنجليزية في الهند ، وتوطيد أركانها في اهتمامها بطبقة الضباط المدنيين الكبار والحكام ، وتربيتهم تربيةً غربيةً ، وفي نظامهم وعملهم السَّاهر ، فهم الذين صنعوا جهاز هذه الحكومة ، وحكموا هذه البلاد مئة عامٍ باستقرارٍ ونجاحٍ محققين رغبات حكامها الأجانب .

فالطريق إلى تغير اتجاه العالم الإسلامي وتسييره إلى الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية أن نعنى بتعليم هذه الطبقة ، وتربيتها تربيةً إسلاميةً ، فهي الطبقة التي تملك زمام الأمور غداً في بلادنا ، أو أن نغيِّر في هذا النظام السابق الذي يكوِّن هذه الطبقة تغيراً لائقاً .

❊ ❊ ❊

واجب الجالية الإسلاميَّة في البلاد الغربيَّة ودورها البلاغيُّ والنموذجيُّ[1]

إنَّ دور المسلمين في بلادٍ أجنبيةٍ لا يسود فيها الإسلام ، وتسود فيها القيم الغربية ، والمثل الأجنبية ، والغاية الرئيسية التي تسود فيها هي: الوصول إلى منافع ومتع شخصيةٍ ، أو جماعيَّةٍ ، أو سياسيَّةٍ ، أو أبيقورية[2] استمتاعية ، دور المسلِّمين في هذه البلاد ـ خصوصاً إذا كانوا في قلَّةٍ ـ دورٌ دقيقٌ يستدعي إيماناً قويّاً ، وشجاعةً بارزةً ، وحكمةً بالغةً ، وقوَّةَ ثقةٍ بالرِّسالة التي شرَّفهم الله وأكرمهم بها.

وكذلك ينبغي أن يكونوا على مستوى عالٍ غير مصابين بمركب النقص (Inferiority Complex) لأنهم إذا لم يكونوا على مستوى عالٍ ، ينظرون إلى أنفسهم وأمَّتهم نظرة احتقار ، أو نظرة مقلدين مقتطفين من ثمار هذه الحضارة ، فإنَّه لا يكون دورهم دوراً رائعاً خلاَّباً ، لافتاً للنظر مسترعياً للانتباه.

أضرب لكم مثلاً يجسِّم لكم هذه المعاني ، ويمثل دور المسلم الواثق بكرامته ، ورسالته ، المستهين بالمظاهر الخلابة ، المترجم الرائي للمعتمدين على المظاهر ، العائشين عيشة الجاهلية ، أقتبسه من التاريخ

---

(١) نشر هذا البحث القيم للعلامة (قدَّمه حين زار بريطانية إلى الشباب المسلمين المقيمين فيها) في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع ، المجلد الثامن والثلاثون ، عام ١٩٩٣.

(٢) الفلسفة المؤمنة باللذة ، وأنها هي الهدف الرئيسي في الجهود والأعمال والأخلاق ، كانت مدرسة خلقيةً في اليونان.

الإسلاميِّ الأول ، فيه موعظةٌ ، وعبرةٌ وفيه درسٌ لنا .

إنَّ القائد العام للجيوش الفارسية الإيرانية الذي كان يسمى بـ «رستم» الذي كان يعتبر تلو الإمبراطور الإيراني ، ويليه في فخفخته ، وعظمته ، ومكانته الاجتماعية ، ترجَّى من قائد قواد المسلمين ، سيدنا سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ ، أن يرسل إليه رجلاً يستطيع أن يشرح له الغاية التي ساقت العرب البدو العائشين في صحراء العرب ، إلى هذه البلاد المتمدِّنة الراقية في الحضارة ، والقوة العسكرية .

تصوروا رجلاً جالساً على كرسيٍّ عالٍ من الحكم والرئاسة ، كيف ينظر إلى العرب البدو العائشين في الخيام ، أو في بيوت من مدر ، أو وبر ، والذين كان قوتهم إمَّا التمر ، وإما لحم الإبل ، كيف ينظر إلى هؤلآء نظرة احتقار ، وعدم مبالاة ، قال : أرسل إلينا رجلاً منكم ، يشرح الغاية التي جاء لها العرب ، وكان من معجزات الإسلام أنه جعل هؤلآء العرب البدو على مستوىً موحَّدٍ عالٍ من الفكر ، والعقيدة ، والإيمان بالله ، والاعتزاز بالغاية التي جاء بها الإسلام ، فاختار سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ ربعي بن عامر[1] لا يعرفه أحدٌ من علماء التاريخ والسير ، ولم يكن له حديث قبل هذا ، ولا أحكي لكم هذه القصَّة كحكايةٍ طريفةٍ فيها متعةٌ ولذَّةٌ ، أو مادةٌ للافتخار القوميِّ ، أو الجنسيِّ ، إنما أحكي لكم هذه القصة لتقارنوا بين الإيمان القوي الذي دفع إلى هذا الحديث الجريء الحرِّ أمام القائد العام للجيوش الإيرانية ، وموقف المؤمن بسموِّ رسالته ، وحاجة البشرية إليها ، وفقر هذه البلاد وحرمانها منها ، وبين موقفنا هنا في هذه البلاد ، ونظرتنا إلى أنفسنا ، ورسالتنا ، وواجبنا ، وإلى الحضارة الغربية التي تمثلها هذه البلاد ، وتقوم بالدور الرئيسي القياديِّ فيها .

جاء ربعي بن عامر في ثياب صفيقةٍ ، وسيفٍ ، وترسٍ ، وفرس

---

(١) كان من أشراف العرب ، حضر غزوة نهاوند ، ولاَّه الأحنف على طخارستان ، وكانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة (انظر : «الإصابة في تمييز الصحابة» للحافظ ابن حجر العسقلاني ج ١ ، ص ٥٠٣).

قصيرةٍ ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط الذي كان قد بسط حول رستم ، ثم نزل ، وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ، ودرعه ، وبيضته على رأسه ، نبهه بعض الناس ، وقال له: دع سلاحك ، فقال: «**إني لم آتكم ، وإنَّما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا فذاك ، وإلا رجعت**» فقال رستم: ائذنوا له ، فأقبل يتوكَّأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامَّتها.

ودخل على رستم فقال: ما الذي جاء بكم أيها العرب؟! فقال بإيمانٍ متغلغلٍ في الأحشاء ، وثقةٍ بالغةٍ تقوِّي الأعصاب ، وتملكها؛ لأنَّ وراءها كتابٌ سماويٌّ ، ونبوةٌ صادقةٌ ، وعقيدةٌ جازمة ، وهمَّةٌ عاليةٌ، ونظرةٌ هادفةٌ: «**الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**»[1].

سادتي وإخواني! إنني مع إيماني بما قال ربعي بن عامر عن غاية الإسلام ، ورسالته الأساسية ، والبدائية والنهائية ، من إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وما أشار إليه من جور الأديان ، ومع إجلالي وتقديري له ، فإنَّ كلَّ ذلك كان واقعاً ملموساً ، وحقائق راهنة ، ولكني أستغرب قوله: «**من ضيق الدنيا إلى سعتها**» فلو قال: «**من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة**» لما ملكني استغرابٌ ، فإن هذا كان من العقائد التي يؤمن بها كلُّ مسلم ، فضلاً عن هذا المتحدِّث في العصر الإسلاميِّ الأول ، ولكنِّي أستغرب كلَّ الاستغراب من قوله: «**من ضيق الدنيا إلى سعتها**» كأنه يقول لم تخرجنا من جزيرتنا الرَّحمة والرثاء لأنفسنا ، والطَّمع في خيرات هذه البلاد ، إنما أخرجتنا وساقتنا إلى هذه البلاد الرحمة بكم ، أردنا أن ننقذكم من هذا السجن الضيق الصغير المظلم الذي تعيشون فيه ، «كبلبلٍ غريدٍ في قفص يوضع له فيه قوتٌ وماءٌ» لماذا؟ لأنكم عبيد العادات ، عبيد الحاجات ، عبيد الشهوات ، وعبيد الموضات[2] لا تستطيعون أن تمشوا

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) أساليب الحياة ومظاهرها ، (Fashions).

وحدكم ، لا تستطيعون أن تتصرَّفوا في أموركم كما تشاؤون ، تحتاجون إلى خدم ، تحتاجون إلى مساعدين ، تحتاجون إلى حرَّاس ، تحتاجون إلى الطباخين والطهاة.

ويشهد التاريخ: أنَّ «يزدجرد» ملك إيران لما خرج هارباً من عاصمته الإيرانية ، عطش ودخل في بيت رجل وطلب الماء ، فقدَّم له الماء في كأسٍ متواضع عاديٍّ ، فقال: لا أستطيع أن أشرب الماء في هذه الكأس؛ لأنه كان اعتاد أنْ يشرب الماء في كأسٍ من ذهبٍ ، أو فضَّةٍ ، وكان الإيرانيون يعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن(١) وحمام ، وبساتين(٢).

كأنه يريد أن يقول أنتم عبيد عبيدكم لأنكم تحتاجون إليهم أكثر مما يحتاجون إليكم ، فنريد أن نخلصكم من هذا السجن الضيق المظلم ، وما ساقتنا إليكم حاجتنا إنما ساقتنا إليكم حاجتكم ، وما ضقنا ذرعاً بالصحراء التي نعيش فيها فإنها مترامية الأطراف واسعة جداً ، إنما ضقنا ذرعاً بالوضع الذي تعيشون فيه ، الوضع المصطنع غير الفطري وغير الطبيعي الذي تعيشونه.

أما نحن فلسنا عبيداً لشهواتنا ، لسنا عبيداً لوجباتنا(٣) لسنا عبيداً لملابسنا التي نلبسها ، لسنا عبيداً للخدم والحشم ، نحن أحرار نتجوَّل في الصحراء ، ونعيش كما نشاء ، ونأكل ما تيسَّر ، فالله ابتعثنا لنخرج من يشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، أنتم تستهدفون لجور الأديان ، وهي التي تذلُّكم ، وتهينكم ، وتسومكم سوء العذاب.

أيها الإخوان! أريد ألا أطيل عليكم ـ فأنتم مشغولون ، وأمامكم واجباتٌ ومسؤوليات ـ وأقول لكم باختصار: إنَّ موقفكم في هذه البلاد

---

(١) فسقية.

(٢) ملتقط من كتاب «حجة الله البالغة» للشيخ شاه ولي الله الدهلوي (م١١٧٦ هـ).

(٣) الوجبة: الأكلة الواحدة في اليوم ، ج وجبات.

يجب أن يكون موقف الأحرار ، موقفاً مبدئياً دعوياً مثالياً ، يلفت النظر ، ويسترعي الانتباه، ويثير تساؤلات، ومقارنات، ورغبةً في المعرفة، والفحص ، والتحقيق ، أما إذا تنزَّلتم إلى المستوى الغربي والحياة الغربية السائدة مهما فقتم ، وتميَّزتم في هذا التشابه والتقليد ، فإن ذلك لا يثير تأمُّلاً ، وتساؤلاً ، ولا إجلالاً ، واحتراماً ، فضلاً عن تأسٍ وتقليد ، وإجلالٍ وتمجيد ، أما إذا قدَّمتم إليهم مثالاً غير مألوفٍ مثالاً يثير فيهما الدهشة ؛ نظروا إليكم وسألوكم ، ما هو المنبع الذي استقيتم منه هذا النمط من الحياة ، وهذه المثل والقيم السليمة الفاضلة ، ويرغبون في أن تقدِّموا إليهم كتباً تشرح الإسلام ، وتشرح لهم سيرة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشرح لهم الطريق التي انتهت بالمسلمين إلى هذا المستوى العالي ، والمكان السامي ، ينظرون إليكم كأنَّهم ينظرون إلى قمَّة جبل.

فقدموا أيها المسلمون العائشون في هذه البلاد ـ مؤقتاً ، أو تجنستم بالجنسية الغربية ـ نموذجاً طريفاً من الحياة يثير فيهم الطمع في دراسة الإسلام، ومعرفة المسلك الذي وهبهم هذا الطراز من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، فهذا هو الدور الفريد الذي يستطيع المسلمون أن يمثِّلوه في هذه البلاد ، أمَّا إذا كان الأسلوب واحداً وكانت الحياة متشابهةً مطردةً في العالم الغربيِّ ، أو في شبه القارَّة الهندية ، أو في إفريقية ، وفي أيِّ بلدٍ من بلاد الدنيا ، فإنَّ ذلك لا يسترعي الانتباه أبداً ، وإن عاشوا هناك مئة سنةٍ أو أكثر.

وأشكركم على حسن الاستماع ، وأعتذر إليكم إذا كانت في كلمتي هذه صراحةٌ زائدةٌ ، فما دفعني إلى ذلك ، ولا حملني عليه إلا حبُّ الجالية الإسلامية في هذه البلاد ، ومعرفة قيمتها ، وأهمية دورها البلاغيّ ، والنموذجيّ في هذه البلاد ، ومعرفة دور هذه البلاد القياديَّ والتوجيهيَّ الماديَّ في الماضي ، وما تستطيع أن تقوم به من دورٍ قياديٍّ بنَّاءٍ مفيدٍ للإنسانية ، إذا أراد الله بها خيراً ، وشرَّفها بالهداية والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الدَّعوة إلى نبذ الدِّين خداع اليهود ، والمسيحيون أكثرُ تعصباً مما يتظاهرون

إنَّ دولة إسرائيل المزعومة لم تقم إلاّ على أساسٍ خالصٍ للدين. إنَّ في تشبثها بتعاليم التوراة والعضِّ عليها بالنواجذ في كلِّ مجالٍ من مجالات العلم ، والدين ، والسياسة ، والاجتماع ، وفي الحياة الفردية ، واليومية لعبرةً كبيرةً للعالم الإسلامي ، ودليلاً ساطعاً على أنَّ التقدميين ذوو لسانين ، فإنَّهم يتكلمون مع إخوانهم وأتباعهم بغير ما يتكلمون به مع الآخرين ، وهم يركزون جهودهم ودعوتهم على نشر الإلحاد والعلمانية ، والمحاربة للدين في الأقطار الإسلامية الغرَّة التي استقلت حديثاً.

وفيما يلي مقتطفات لأحد الشيوعيين العرب سابقاً ، الذي عاش مع الشيوعيين اليهود جنباً إلى جنب ، وعمل معهم إلى مدَّةٍ طويلةٍ ، إنَّه يقول:

«**في قطب بلادنا تقوم دولةٌ تحمل اسم نبيٍّ من التوراة**» ، ليس لها دستور؛ لأن الأحزاب الدينية تصرُّ على أنَّ التوراة هي الدستور. . . . محرماً فيها العمل يوم السبت ، ولم تر في ذلك أيَّ إخلال باقتصادها ، وارتباطها بالبنوك العالمية التي تتعطل يوم الأحد ، بل يحرصون على أن تكون الجلسة الأسبوعية للكنيست يوم الأحد ـ ومحرَّم فيها على الجيش طبخ الطعام يوم السبت. . . . تقول بائيل دايان في «مذكرات جندي»: «**أكلنا طعامنا مطهواً يوم السبت ٣ يونيو بتصريح خاصٍّ من الحاخام الأكبر**» ، جيش إسرائيل الذي يوشك أن يمتلك القنبلة الذرية يمتنع عن طبخ الطعام يوم السبت ، **وابن غوريون وشازار يسيران ميلاً ونصف ميل على الأقدام في جنازة تشرشل**؛

لأنها صادفت يوم السبت ، ومحرَّمٌ في التوراة ركوب وسائل النقل يوم السبت ، وعمر ابن غوريون ٧٨ سنة ، وعمر شازار ٧٦ سنة في وقت الجنازة ، ولم تجد الصحافة العالمية ولا الرأي العام الإنجليزي في ذلك مدعاةً للسخرية ، لكنَّها تجد في ذلك مدعاةً للإعجاب ، نصف المصلين في مسجد الخليل من العسكريين اليهود، ونفخوا في البوق إيذاناً بانتهاء الصوم، وجميع طائرات شركة «العال» الإسرائيلية وسفن شركة «ذيم» لا تقدِّم لحم الخنزير ، في إسرائيل أحزابٌ دينيةٌ معترفٌ بها ، ولها وزنها ، الزواج المدني غير معترف به لحد أنَّهم رفضوا إعطاء الجنسية لحفيد ابن غوريون؛ لأنَّه من أم غير يهودية ، واللغة العبرية لغةٌ رسمية ، درسوا بها الصواريخ وإفساد الرادار ، وضرب الطائرات على المدرجات ، وألفوا بها أدباً نالوا به جائزة نوبل العالمية ، في نفس الوقت ولأجل أن تقوم إسرائيل صدروا إلينا عملاء يجعلون لبَّ كفاحهم فصل الدين عن الدولة ، ويصابون بالفالج عندما يسمعون بأن الدستور سينصُّ على أنَّ دين الدولة هو الإسلام ، ويسودون الصحائف في أضرار رمضان على الإنتاج ، ونحن أمَّةٌ مستهلكة والحمد لله ، والذين ألغوا شعار الهجوم «الله أكبر» من الجيش ، ولم يعيدوه إلا بعد النكسة بخمسة عشر شهراً ، بينما أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة ، ونصاب بالذين تشغلهم صعوبة اللغة العربية ، ويبحثون عن حروفٍ أخرى لها ، أو عزلها عن مجال العلم بزعم أنَّها لغةٌ متخلفةٌ ، والعبرية التي انقرضت منذ ألفي سنة أصبحت لغة العلم».

ولكي نطلع على شيءٍ من سياسة إسرائيل ، وطريقتها في مجال العلم نقدِّم بعض المعلومات عن مؤلفات وتقارير خبراء التعليم في الشرق الأوسط.

يقول الدكتور رودر مايثوز ، والدكتور متى عقراوي في كتاب «التربية في الشرق العربي» :

«إنَّ أهم ما يسترعي الأنظار في المدارس الإسرائيلية في فلسطين أنَّ لغة

الدراسة في كافة المواد هي العبرية ، فيما عدا اللغات الإنجليزية والفرنسية ، والعربية ، والعناية شديدةٌ في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية ، وجعل التعليم الديني أساس الصهيونية وتقدُّمها».

ويفهم مما يلي هذه العبارة أنَّ جميع أنواع المدارس الإسرائيلية أو اتجاهاتها تبعاً بالأحزاب التي ينتمي إليها آباء التلاميذ ، رغم اختلاف هذه الأحزاب في مثلها العليا التعليمية والدينية والسياسية تلتقي على هذه الفكرة الأساسية ، وتعنى عنايةً خاصة بالتربية الدينية ، ويرى بعضها أنَّ التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي ينبغي أن تستهدي به نظم التعليم ، ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين ، أي يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية.

وجاء في مقال «التعليم العالي في إسرائيل» في مجلة «فلسطين» مقتبساً من الدراسة التي قدمتها دائرة البحوث والدراسات في الهيئة العربية العليا لفلسطين ما يلي:

«**إنَّ سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية ، والولاء ، بالإضافة إلى الدعاية لإسرائيل ، وكسب الأصدقاء**» ، وفي المقال تفاصيل هائلةٌ عن «**العناية باللغة العبرية، وجامعاتها، وميزانيتها، وتمويلها ، وما يبذل لها اليهود من عنايةٍ فائقةٍ ، وأموالٍ طائلةٍ ، وتنظيماتٍ دقيقةٍ**».

ومما يبعث على الاستغراب الشديد بعد الاطلاع على هذه السياسة ذات الوجهين التي اتخذها المثقفون من غير المسلمين في بلادهم وأمتهم نحو الأقطار الإسلامية وشعوبها المسلمة أن نرى عقلاء البلاد وقادتها فريسة الدعاية المنافقة للعلمانية والتجديد في غايةٍ من البساطة والاغترار ، ولعلَّ هؤلاء العقلاء اليهود والمسيحيين والمستشرقين من أصحاب القلم والصحافة لم يكونوا يقدرون أنَّ الزعماء المسلمين ينخدعون بمثل هذه السهولة ويؤمنون بتوجهاتهم في مثل هذه السرعة ، ويصبحون لها دعاةً متحمسين في بلادهم من غير أن يشعروا بهذه الحقائق النيِّرة ، كما أثبتت

التجربة العلمية ذلك، وسوف لا يوجد نظيرٌ في تاريخ العالم الفكري والمدني ، لإفلاس القيادة الفكرية واغترارها مثل الذي قدمته القيادة المسلمة في هذا القرن العشرين[١].

* * *

(١) انظر: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للعلامة الندوي ، ص/ ١٦٥ ـ ١٦٧.

بحثٌ وثائقيٌّ تاريخيٌّ واكتشافٌ علميٌّ مهمٌّ إثبات الوثائق التاريخيَّة العتيقة ، وتصديق الباحثين المسيحيِّين المعاصرين الحديثة لما جاءَ في القرآن من:

تبرئة المسيح عليه السَّلام من الصَّلب والقتل(١)

من الآيات الباهرة ، والدلائل الجليَّة القاهرة على صدق وتحقّق ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء والأمم ، وعرض العقيدة الصحيحة ، والردّ على العقائد الباطلة تبرئة القرآن سيدنا عيسى ابن مريم من الصلب والقتل ، وكونه بريئاً من كل ما يدَّعيه اليهود ، ويعتقده المسيحيون من ذلك .

إنَّ من العقائد اليهودية ، والمسيحية الأساسية ، وكالقطعي البديهيِّ المتفق عليه ، والمتوارث عندهم : أنَّ المسيح ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، إنما صلب ، وفارق الحياة (عقوبةً وانتقاماً عند اليهود ، وكفارةً لأتباعه ، وتخليصاً لهم من العقوبة والمؤاخذة على الأعمال والذنوب عند المسيحيين) وذلك بعد ظهور بولس الراهب Saint Pall المتوفى سنة ٦٥ م

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد التاسع والثلاثون ، عام ١٩٩٤ م .

لأغراضٍ خاضعةٍ لميثالوجية روميَّةٍ ، وسياسة استعمارية[1] ، والقرآن يردّ على ذلك وينفيه نفياً باتّاً ، فيقول الله تعالى :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦ ـ ١٥٨] .

ولا يفهم ذلك إلا في ضوء الخلفيات التاريخية والظروف التي حدثت فيها هذه المحاولة ، وخلاص المسيح ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من هذا المخَطّط الدقيق الرهيب ، الذي وضعه اليهود ، معاداةً لدعوته ، وقضاءً على خطر انتشار ما يدعو إليه من الدِّين السماويِّ الصحيح ، والتعليمات الصَّالحة المصلحة ، والحكاية كما يلي :

عيل صبر اليهود ، وفاضت كأس عدائهم وعنادهم ، فأرادوا التخلُّص من سيدنا عيسى ، فرفعوا قضيته إلى الحاكم الرومي Pilates ، وقالوا : إنه رجلٌ ثائرٌ فوضويٌّ مرق من ديننا ، واستهوى شبابنا ، ففُتنوا به ، وفرَّق أمرنا ، وسفَّه أحلامنا ، وشغل بالنا .

وأضافوا إلى ذلك ـ بدهائهم ومعرفتهم لنفسية الحكومات والحكَّام ، وبما عندهم من حسَاسيةٍ زائدةٍ لما يصبح خطراً على الدولة ـ : وهو خطرٌ على الدولة ، لا يخضع لنظام ، ولا يتقيَّد بقانون ، ولا يعظِّم عظيماً ، ولا يقدِّس قديماً ، وهو رجل ثوريٌّ إذا لم يُكفَّ شرُّه ، فإنَّه يتفاقم ، ولا تُستصغر الشرارة مهما كانت تافهةً .

وكان كلاماً مملوءاً بالمكر والدَّهاء ، مصبوغاً بالصبغة السياسية ، وكانوا يعرفون : أنَّ الجانب الدِّيني لا يُثير الحكام ، ولا يهيجهم ، فقد كان من سياستهم ألا يتدخلوا في الأمور اليهودية الدِّينية ، ولذلك خلطوا الكلام بالسياسة .

---

(١) ليراجع كتاب (Islam or true Christionity) لمؤلفه Eruset de Bunson .

وكان من الصعب أن يتحقَّق الحكام الأجانب المشركون[١] حقيقة الأمر ، ويعرفوا أغراض اليهود ، وسبب عدائهم للمسيح ـ عليه السلام ـ ، وكانوا في شغلٍ شاغل عن ذلك بالأمور الإدارية[٢] ، ولكن اشتدَّ إلحاح اليهود ، وعلت أصواتهم بالمطالبة بحكم الإعدام ، وأمر المسيح ـ عليه السلام ـ وإجباره على حمل الصليب الذي يكون جاهزاً في المحكمة[٣].

زد إلى ذلك : أنَّ ذلك كان يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، وكان اليهود لا يعملون شيئاً ـ ولا يزالون على ذلك ـ يوم السبت ، وكان يوم السبت عندهم يوم عطلةٍ وكفٍّ عن العمل ، فكانوا حريصين كل الحرص على أن يصدر الحكم قبل أن تغرب الشمس يوم الجمعة ، وإلا ستظل المشكلة كما هي ، وتفوت الفرصة.

زد إلى ذلك أنَّ عيداً من أعياد اليهود المهمَّة وهو عيد الفصح Passever كان يلي ذلك اليوم ، ولا مساغ فيه لتحقيق مآربهم[٤].

وقد ضاق الحاكم بالقضية ذرعاً ، وليست له فيها رغبةٌ ، ولا لأُمَّته فيها مصلحةٌ ، بل هنالك مخافةٌ لحدوث ما لا تحمد عاقبته من تفضيل طائفة على طائفة ، والقضاء على من لم تتحقق قضيته ، فامتنع برهة ، ولمَّا اشتدَّ الضجيج (وكان اليهود قد احتشدوا لسماع الحكم ، يتظاهرون بالعداء للمسيح ـ عليه السلام ـ وكونه خطراً دينياً وسياسياً) والشمس قد مالت

---

(١) كانت الحكومة حكومة الروم ، وكانت سورية (الشام) التي فيها مولد المسيح وموطنه ، محكومة للروم غير التابعين لدينٍ من الأديان السماوية ، وقد جاء في إنجيل لوقا : أن قاضي المحكمة الذي كان اسمه Pilates كان شديد التردُّد والحيرة في إصدار حكم الإعدام على سيدنا المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ (إنجيل لوقا ، باب : ٢٢ ، الآيات : ٢١ ـ ٢٥).

(٢) كما هو شأن الحكومات في المستعمرات والبلاد المحكومة بالأجانب.

(٣) إنجيل لوقا ، باب : ٢٢ ، الآيات : ٢١ ـ ٢٥.

(٤) إنجيل متى ، باب : ٢٧ ، الآية : ٣١.

للغروب ، وعلت الأصوات والهتافات ، فأصدر الحاكم الحكم على المسيح ـ عليه السلام ـ بالقتل صلباً[1].

وكان سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ لاغباً هازلاً لمعاناته لعداء اليهود أو مجابهتهم ، وفَرَضَ عليه الحاكمُ حَمْلَ الصليب ـ الذي كان خشباً ثقيلاً ـ وكان من الشرائع الرومية القضائية أن من يصدر عليه حكم الصلب ، يحمل الصَّليب إلى المشنق ، مهما كان بعيداً ، وكان لا يزال موجوداً في المحكمة ، فحمله ، ومشى سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ وتبعه اليهود وأطفالهم يعاكسونه ، ويهزؤون به ، فكان يمشي على بطء ، والحمل ثقيل والحامل هزيل ، وكان بعض التابعين اليهود من السابقين والمعاكسين ، منهم رجل اسمه شمعون ، وكان كرينيّاً ، فكلَّفه الشرطة حمل الصليب ، ليتخلصوا ، ويتخلَّص اليهود من قضية المحكوم عليه بالصَّلب ، ويتمَّ كل ذلك قبل غروب الشمس[2].

ولما وصل ذلك الحشد إلى المشنق ، هنالك اختلط الحابل بالنابل ، وكان من التقاليد المتبعة : أنَّ المصلوب يعرف بحمله الصليب ، فأخذ الموكل بهذه العقوبة وتنفيذ الأمر شمعون الكريني ، ورفعه على الخشبة ، وهو يصرخ ويهتف أنه ليس المحكوم عليه بالصلب والإعدام ، وإنما حمل الصليب ليصل الموكب والمحكوم عليه بالصَّلب في وقت قريبٍ قبل غروب الشمس ، فلم يعره الموكل بهذا الأمر التفاتاً ، وأخذه وصلبه.

وأقبل الحشد ينظر إلى هذا التجمُّع ، والوجوه لأفرادٍ ينتمون إلى جيلٍ واحدٍ وبلدٍ واحدٍ متشابهةٍ ، خصوصاً للأجانب الرسميين ، والدنيا ليلٌ وظلامٌ ، فلم يروا سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ ولم يعرفوا مكانه وصنع الله به ما أراد ، وصدق الله العظيم :

---

(١) متى باب : ٢٧ ، الآية : ٣١.
(٢) راجع إنجيل مرقس : ١٦ ـ ٣١ ، لوقا : ٢٣ ـ ٢٦.

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧][(١)].

* * *

(١) جاء أكثر تفاصيل هذه القصة والحلقات والملابسات والأجواء التي أحاطت بها، مستندة إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية، التي أمكن العثور عليها، في كتاب The Trail of jesus (محاكمة المسيح ـ عليه السلام) لمؤلفه London) GIOVANNIROSADI (Huchi Nson & CO. 1905) ١٩٠٥ م.
وكانت النتيجة المتوقَّعة أن يعترف المؤلف ببطلان عقيدة الصلب والفداء ولكن هنا في الأخير، عملت الرواسب العقائدية والتربوية عملها، فقفزت هذه العقيدة وطغت على الوثائق التاريخية، والبحث العلمي والتاريخي (ص/٣١٨).
وبالعكس جاء في دائرة المعارف البريطانية: «أنَّ شمعون كان هو المصلوب مكان المسيح ـ عليه السلام ـ» (الجزء الثالث من دائرة المعارف البريطانية ص/١٧٦) (الطبعة الرابعة عشرة (١٤) وكذلك جاء في دائرة معارف الأديان والأخلاق، الجزء الرابع: ص/٨٣٣، والحق يعلو ولا يعلى عليه.
وأول من انتبه لأهمية هذا البحث التاريخي وإثبات معجزة القرآن في ضوئه على ما نعلم ـ الباحث الكبير، والأديب الجليل الشيخ عبد الماجد الدريابادي (م١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م) في تفسيره للقرآن بالإنجليزية والأردية، ـ رحمه الله وغفر له ـ.

مقالات

حول قضايا العرب ومعالجتها

إلى القيادة العالمية من جديد أيها العرب[1]

وَضْعُنا الحاضر أنَّنا ندَّعي هذا الدين ، أننا ندَّعي أننا مسلمون ، ونطلب من الله أن يعاملنا كمسلمين ، وأن تتحقق تلك الوعود وتلك النتائج التي قرأنا أمثلتها الرائعة في التاريخ ، ولكننا ننسى أو نتناسى أن هذه النتائج كانت ـ ولا تزال ـ تابعةً للأسباب الطبيعية ، تابعة للمقدمات الصحيحة ، فالماء ماء يروي ، ويشفي ، والطعام غذاء يشبع ، ويغذي ، والدواء دواء ينجع ، ويبرىء إذا كان على حقيقته ، فالماء لا يروي إذا لم يكن ماء ، وكان صورة للماء ، أو سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، والنار إذا كانت صورة مجردة ، مهما كانت هذه الصورة دقيقة وصادقة ، فإننا لا نستطيع أن نستدفىء بها ، وأن نكتسب منها الحرارة ، أو النور ، وهذه طبيعة الأشياء ونظام الكون الذي يتحكم في هذا العالم.

إنَّ كل ذنبنا وخطئنا أننا طلبنا من الصور مالا تعطيه إلا الحقائق ، فكل هزائمنا ، وكل نكباتنا راجعة إلى أننا توقعنا من الصور ، توقعنا من الأسماء ، توقعنا من المظاهر ، توقعنا من الدعاوى ، توقعنا من الكلمات ، تلك النتائج الحيَّة ، الضخمة ، الحقيقية التي كانت ـ ولا تزال ـ منوطة بالحقائق ، إننا برزنا إلى الميدان كمسلمين بالاسم ، كمتظاهرين بالإسلام ، كمتشبعين من غير شبع ، فلما وقع النضال بين الحقيقة والصورة

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الثاني عشر ، عام ١٩٦٧ م.

خذلتنا الصورة في الميدان وافتضحنا أمام الناس ، أمام العالم ، إننا إذا برزنا إلى الميدان كمسلمين حقيقيين ، ولو كنا في قلَّةٍ لتكررت قصة تلك الحوادث التي نقرؤها في التاريخ ، ولتكرَّرت تلك المعجزات التي كاد العالم يقطع الرَّجاء منها.

إنَّ الحقيقة حقيقة منذ آلاف من السنين ، لم تتغيَّر ، ولم تتبدَّل ، إذا كانت حقيقة الأدوية لم تتغير ولم تتبدل ، كما نجرب كل يوم ، إذا كانت حقيقة النار هذه التي تخضع لنا ، والتي نلهبها ، ونطفئها ، إذا كانت حقيقة النار لا تزال منذ آلاف من السنين كما كانت في عهد آبائنا وأجدادنا ، وقبل آبائنا وأجدادنا ، كما يقصُّ علينا التاريخ ، وكما تشهد بذلك الحفريات والآثار ، وإذا كانت حقيقة البحار هي حقيقة البحار ، وإذا كانت حقيقة الغذاء والماء لم تتغير مع الزمن ، فلماذا نعتقد أنَّ الإيمان وحده قد فقد حقيقته ، لقد كان الإيمان يتغلب على هذه الحقائق كلها ، لقد كانت النار تفقد خاصيتها ، وتفقد حقيقتها ، وطبيعتها أمام هذا الإيمان ، إذا كان الإيمان أكثر التهاباً ، وإذا كان أكثر قوةً ، وإذا كان أكثر حقيقةً من هذه النار ، فقد أصبحت برداً وسلاماً على إبراهيم ، ولماذا لا تخضع ولا تنتكس هذه النار التي خلقها الله لمصالح العباد ، التي خلقها ليقضي الناس بها مآربهم ، التافهة أحياناً ، والسطحية أحياناً ، فلماذا لا تخضع هذه النار ، ولا تنهزم أمام الإيمان؛ الذي خلق لمصلحة الإنسانية الكبرى ، لمصلحة الإنسانية الخالدة ، فلتخضع النار أمام هذا الإيمان ، ولتخضع البحار أمام هذا الإيمان ، ولتخضع الجبال أمام هذا الإيمان ، ولتتغير هذه القوانين الطبيعية التي جربها الناس من آلاف من السنين أمام هذا الإيمان الجديد ، الإيمان الفتي ، الإيمان الدافق بالحياة.

تذكرون وقعة المدائن لما بلغ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بجيشه إلى دجلة ، وهي تفيض وترمي بالزبد ، وقف هنيهة ، وقف وقفة تأمل ، ووقفة استعراض ، وقال لسلمان: ماذا ترى ، هل نخوض هذا النهر أو ننتظر السفن؟ فقال سلمان ـ رضي الله عنه ـ: إن هذا الدين لجديد يعني أنَّ الله تعالى اختار هذا الدين ، وقرر أنه سيظهره على الأديان كلها ، وأنه يحيي

به الإنسانية التي ماتت ، فأنا لا أصدق أن هذا الدين سينهزم ، ويتراجع أمام نهر من الأنهار ، ولماذا لا يخضع هذا النهر أمام هذا الدين؟ لماذا يخضع هذا الدين أمام هذا النهر؟ هذه العقلية المؤمنة هي التي كانت تسيطر على نفوس المسلمين ، ثم قال له سلمان: ولكن انظر في الجيش: هل ظهرت فيه ذنوب ، وانتشرت؟ فإذا رأيت أن هذا الجيش بعيد من هذه الذنوب؛ فصدق أنَّ الله سبحانه وتعالى ناصره ، وأنه سيتغلب على هذه الحقيقة الضعيفة ، وكذلك كان ، تقرؤون في التاريخ أن جيش المسلمين قد خاض النهر ، وكان المسلمون يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويمازح بعضهم بعضاً ، كأنما يمشون على البر ، فلما رأهم الفرس قالوا كما نقله الطبري بالنص (ديوان آمدند ، ديوان آمدند) يعني: جاء الجن ، جاء العفاريت.

إنَّ هذا الإيمان هو الإيمان ، وأنه لا يزال يحمل تلك القوة التي تقهر القوى الطبعية ، وتتغلب على فلسفة القلة والكثرة ، والضعف والقوة ، التي آمن بها الضعفاء والمقلدون ، ولكننا قد أفلسنا في هذه القوة ، واعتمدنا على ما يشترك فيه المسلم والكافر ، والمصلح ، والمفسد ، والمطيع ، والعاصي ، وقد يتفوق فيه الكافر على المؤمن ، إن فضل البندقية أيها الإخوان! هو الرَّصاص ، فإذا فقدت البندقية الرصاص كانت أضعف من الخشب ، إن الخشب هو أنفع وأجدى من البندقية الفارغة التي ليست فيها رصاصة؛ لأن الخشب يستعمل بأساليب متنوعة ، وبطرقٍ كثيرة ، ولكن البندقية لا تستعمل إلا بطريقة واحدة.

إنَّ قوتها تتوقف على رصاصتها ، فإذا فقدت الرصاصة فقدت كل شيء ، فالمؤمن إذا فقد الإيمان ، إذا فقد الاعتماد على الله ، إذا تجرد عن الصفات التي أكرمه الله بها ، واختصَّ بها من بين سائر الأمم ، أصبح كسائر الناس ، وأذلَّ وأضعفَ منهم أحياناً ، إن النَّار نار إذا كانت فيها حرارة ، فإذا فقدت هذه الحرارة فليست لها قيمة ، إنَّ الملح ملح إذا كانت فيه ملوحة ، فإذا فقد الملح الملوحة؛ أصبح الحصى وأصبح الخزف أثمن منه ، يغني عن أشياء ، ويفيد في مجالاتٍ كثيرةٍ ، وفي أعمالٍ كثيرة ، ولكن الملح لا ينفع إلا إذا كانت فيه الملوحة.

إنَّ المسلمين كانوا أقوياء بإيمانهم ، أقوياء بهذا الدين الذي كانوا يؤمنون به ، أقوياء بأنهم كانوا يؤمنون بحقائق يكفر بها أو لا يعرفها الآخرون ، فكانوا ينظرون إلى عالم لا شأن لغيرهم به ، وهو الذي أشار إليه تبارك وتعالى بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤] ، فإذا أصبح المسلم لا يرجو من الله شيئاً؛ فإنه قد أصبح في مستوى هؤلاء الماديين ، بل أخفض مستوى من هؤلاء الذين لهم آمال طويلة عريضة في الدنيا.

نحن المسلمون ، نحن العرب أيها الإخوان! برزنا إلى الميدان بهذه الحياة المهلهلة السخيفة ، الناعمة الرقيقة ، المريضة العليلة ، الضعيفة الهزيلة ، الموبوءة الثقيلة؛ التي يشترك فيها غيرنا ، بل يمتازون عنا بأن عندهم من الصرامة والجد ، ومن العزم وقوة الإرادة ، ومن الاستماتة في سبيل المبدأ ، والثبات على العقيدة ، ومن التجرد لمقاصدهم ما لا يوجد عندنا في بعض الأحيان ، فلماذا ننتصر عليهم ـ؟ ولماذا نشكو؟ ولماذا نعتب؟ ولماذا تساور نفوسنا وعقولنا هذه الظنون وهذه الريب التي تساورنا جميعاً؟ بماذا نمتاز عنهم؟ الحق أنَّ أعداءنا متفوقون علينا ـ كما قلت ـ بالصرامة ، والجدِّ ، وبالاستعداد ، وإعداد القوة ، وبالانسجام والاتحاد ، وإنَّ المسلمين كانوا ينتصرون على المنافسين ، على الأمم المعاصرة بإيمانهم ، بأخلاقهم ، بزهادتهم في الدنيا ، باستهانتهم بالزخارف والمظاهر ، بحنينهم إلى الشهادة ، وتطلعهم إلى عالم الغيب ، وبإيثارهم الموت في سبيل الله على الحياة في اللذات والشهوات ، لقد كانت الجيوش تقاتل للأمراء ، كانت تساق إلى ساحة الحرب سوقاً ، وتحشر إلى ميدان القتال حشراً ، وكانت الحروب تفرض عليها فرضاً ، وهي راغمة مكرهة ، تلعن هذه الحكومات المغتصبة الظالمة ، وكانت تقاتل رغم أنفها ، ورغماً عن نفسها ، وكان المسلمون إنما يقاتلون ليكرموا بالشهادة ، ولينالوا ثواب الدنيا والآخرة ، وفرق بين الذي يطلب الحياة ، ويكره الموت ، ويبحث

عن سبيل النجاة ، وبين الذين يبحث عن الموت أينما وجد ، يبحث عنه في مظانه وغير مظانه.

السبيل الوحيد للنصر أيها الإخوان! أن نكون مسلمين حقيقيين ، وأن نحمل تلك الجذوة الإيمانية التي كانت تلهب نفوسنا ، وكانت جديرةً بأن تحرق الدنيا كلها ، إذا عادت هذه الجذوة ، جذوة الإيمان وشعلة الحياة أعاد التاريخ نفسه.

إننا لما أخلصنا للإسلام في الماضي ، ولما اندمجنا في الإسلام ، وتجردنا عن كل شعار من شعائر الجاهلية ، وحملنا مشعل الإسلام في أيدينا ، أصبحنا سادة العالم ، كنَّا نسيطر على أكبر رقعة من رقاع العالم المتمدن المعمور ، وانتشرت عقيدتنا وحضارتنا ، وآدابنا ، وأخلاقنا ، وعلومنا ، ولغتنا ، كما ينتشر ضوء النهار ، وكانت لغتنا تنتشر في العالم بالسرعة التي لم تعرف لأيٍّ لغة ، تنتشر من غير سلطة سياسية ، ومن غير استعمار ، لقد أصبحت هذه اللغة العربية لغة العلم ، لغة الثقافة ، ولغة التأليف ، وتغلغلت في أحشاء العالم الإسلامي ، وكان المسلمون في كل بقاع الأرض يتنافسون في تعلمها ، وفي التضلُّع منها ، كانوا عجماً بالثقافة ، وبالوراثة ، وباللغة ، وبالنشأة ، ولكنهم كانوا يؤثرون هذه اللغة للكتابة ، والتفكير ، والفلسفة ، والعلم ، إنكم تعرفون أولئك النوابغ الذين نهضوا في العالم الإسلامي في القرون المختلفة ، هذا أبو علي الفارسي ، وهذا جار الله الزمخشري ، وهذا مجد الدين الفيروز آبادي ، وهذا السيد المرتضى الزبيدي الهندي ، كلهم كانوا عجماً ، من أجبرهم على تعلم هذه اللغة؟ إنَّ أبا حامد الغزالي كان يؤلف كتابه الأثير الحبيب باللغة العربية ، ويؤثر اللغة العربية للتأليف ، ثم يترجم ، وينقل هذا الكتاب إلى لغة أمه وبلاده ، كما فعل في إحياء العلوم ، «وكيميائي سعادت» مع أنه فارسي من «طوس» وهكذا كان أولئك النوابغ الذين لا يحصيهم إلا الله.

إني لا أذكر لكم العلوم الدينية؛ لأن الدوافع الدينية كانت قوية دائماً ،

ولعلكم تعلمون بأن هناك دافعاً دينياً ، ولكني أضرب لكم مثلاً باللغة العربية وآدابها ، ما الذي فرض هذه اللغة على الأجيال كلها ، التي كانت لا تتصل بهذه اللغة بنسب ، ولا بنشأةٍ ، ولا بسياسةٍ ، ولا بإدارة؟ ولم تزل اللغة العربية هي لغة العلم ، ولغة التأليف في بلادٍ عريقة في العجمة ، في بلاد توارثت لغتها واحتضنتها ، ولا تزال تعتزُّ بها ، وهي لغات غنية خصبة ، فيها ثروة علمية هائلة ، ومع ذلك كله ، لا تزال اللغة العربية هي اللغة الحبيبة المفضَّلة في بلادنا الهند ، وباكستان.

إنني أذكر لكم أيها الإخوان! على سبيل المثال أنني كنت سنة ١٩٦٠ م في «كيرالا» بالمنطقة الجنوبية في الهند ، وهي بلاد عريقة في الحضارة الهندية ، وقد كنت مضطراً في بعض الأحيان للتفاهم مع إخوانٍ مسلمين هنا باللغة العربية ، فما الذي نشر هذه اللغة العربية في هذه البلاد البعيدة؟ وما الذي جعلها تسيطر في بعض الأحيان على اللغات المحلية؟ هي العاطفة الدينية ، هي الروح الدينية ، التي تغلغلت في الأحشاء ، هي رابطتها بالقرآن ، وصلتها بالسنة ، ورابطتها بالإسلام ، إذا انقطعت هذه الرابطة ـ لا سمح الله بذلك ـ كما يريد كثيرٌ من القوميين ، فلا صلة لنا ـ نحن العجم ـ بهذه اللغة ، على غناها وعلى ثروتها ، وعلى جمالها وعبقريتها.

إنَّ الشيء الوحيد الذي يربط هذه الشعوب كلها على اختلاف ألسنتها وثقافاتها ، وأوطانها وبلدانها باللغة العربية هي الرابطة الدينية الروحية ، هي التي تجعل المسلمين في بلاد العجم يغارون على هذه اللغة أكثر مما يغارون على لغتهم؛ التي يتفاهمون بها ، وقد يحرصون على تعلمها أكثر مما يحرصون على تعلم اللغات الغربية.

جربوا أيها القوميون! وجردوا العروبة ، وجردوا اللغة العربية من الرابطة الروحية الدينية ، التي تربط الشعوب والأمم بهذه اللغة ، وبهذه البلاد ، ثم انظروا ماذا تفقدون ، وماذا تجدون؟ ما هي نسبة ربحكم من خسارتكم ، وما هي نسبة إفلاسكم من كسبكم؟ ستعيشون في عزلة عن العالم ، إنَّ هذا العالم الإسلامي الفسيح الذي لا يزال من ورائكم ، والذي

يؤيدكم في جميع قضاياكم ، والذي ينتظر أن تسمحوا له بالخوض في هذه المعركة ، إن هذا العالم تنقطع صلته عنكم ، وتعيشون في عزلة ، خذوا القلم ، وخذوا أكبر صفحة من ورق ، واكتبوا فيها هذه النقطة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام ، ثم مدوا هذه النقطة بفضل اللغة العربية ، وفضل النسب العربي ، وفضل الثقافة العربية ، وفضل الخصائص العربية ، وفضل كل ما تستطيعون أن تفرضوه ، ثم انظروا إلى أين تمتد هذه النقطة؟ الإسلام هو الذي مدَّ هذه النقطة ، وعرَّضها ، وطوَّلها ، ووسَّعها ، إلى أن وصلت إلى أقاصي العالم المتمدن المعروف .

إن هذه الروح الإسلامية لما فقدناها ، وقلنا : إنها عتيقة ، إنها بالية ، إنها «رجعية» ورجعنا إلى هذه القوميات ، فماذا وجدنا عوضاً عمَّا فقدنا؟ ما هو الشيء الوحيد الذي اكتسبناه؟ إنَّ العالم كله بما فيه من سياسة ، وإدارة ، وتجارة ، وتبادل ، وحرب ، وصلح يقوم على الموازنة بين الربح والخسارة ، والإنفاق والاكتساب ، والوارد والصادر .

إن التاجر الصغير يوازن بين الدخل والصرف ، وإذا تعطلت الموازنة؛ تعطَّل نظام المدنية ، وأصبح الأمر فوضى ، فلماذا لا نقارن نحن العرب بين ما ربحناه بالقومية ، والاشتراكية ، والتقدمية ، وبين ما خسرناه بإقصائنا للعنصر الديني ، وتجرَّدْنا عن الروح الدينية ، وشننا الغارة على ما نسميه : «الرجعية» .

لقد كنا نسمع أنَّ «الإنسان العربي المارد العملاق» سيخرج من القمقم ، وسيدهش العالم ، وسيشغل سمع الزمان وبصره ، وبحثنا عن هذا «المارد العملاق» في كل مكان ، فما وجدنا له عيناً ، ولا أثراً ، بل الذي وقع : أنَّ القزم اليهودي ، هذا الإنسان التافه ، الإنسان الأفاك ، هذا الإنسان الذليل ، الذي كان مضرب المثل في الجبن والنذالة ، تسلط على هذا «المارد العملاق» لما فقد العاطفة الدينية ، وفقد تلك الأسلحة (المعنوية) التي كان يتسلَّح بها ، لقد وقع مالم يكن يتوقع في المنام قبل أيام ، لقد لحق بنا العار الذي لا يغسله ماء سبعة أبحر ، والتصق بكل مسلم ، وبكل عربي

في كل بقعة من بقاع الأرض ، ماذا استفدنا من هذه القيادات اللادينية التقدمية ؟ ماذا استفدنا من هذه القومية والاشتراكية؟

إنَّ هذه الحياة كلها قائمة على التجربة ، إذا أصبحنا لا نستفيد من التجارب ، ولا نتلقَّى منها درساً ، ولا نصحِّح بها خطأً ، واعتمدنا على الأخيلة والدعاوى ، فقد تعرضنا لخطر عظيم ، قد يودي بحياتنا ، وفقدنا هذه الثروة الهائلة التي اكتسبناها عبر القرون والأجيال ، التي هي تراث المدنية ، وتراث الإنسانية ، إذا أصبحت الإنسانية لا تعتمد على التجارب؛ إذاً نفقد الثقة بمستقبل الإنسان ، فإذا أصبح الإنسان لا يؤمن بتجاربه ، ولا يزال يسترسل إلى الأوهام ، والخيالات ، ولا يزال يعيش في البرج العاجي ، فلا مستقبل للإنسانية.

إنَّ العلوم الرياضية كما قلت تقوم على التجارب ، إنَّها تقوم على الاستقراء ، وقد نهضت المدنية نهضتها لما اعتمدت على الاستقراء بدل القياس ، فماذا وجدنا لمَّا ثرنا على الإسلام ، أو على الأقل لمَّا تنكرنا للإسلام ، ولمَّا أنكرنا فضل الإسلام في تكوين مجتمعنا ، ولمَّا أبينا أن نلتجىء إلى الإسلام ، إن هذه السنين تكفي للتجربة.

لقد اجتمع في الشعوب العربية الشقيقة العزيزة من الثروات والخيرات ، ومن وسائل الحياة ، ومن وسائل المقاومة ، ومن وسائل النشر والدعاية ، مالم تتهيأ لشعوبٍ كثيرةٍ ، لقد كان كل شيء مهيَّأً لتحقيق النصر ، فماذا كان ينقص هذه الشعوب؟ إنما كان ينقصها الإخلاص للإسلام ، إنما كانت تنقصها الشجاعة التي لا يخلقها إلا الإيمان والعقيدة ، كان كثير من القادة يتحرَّجون ، ويتضايقون بالتصريح بالإسلام ، لقد كان ثقيلاً عليهم أن يقولوا: نحن مسلمون ، ونحن نعتمد على الله ، ونعتمد على الإيمان ، ونعتز بالإسلام ، فماذا كانت النتيجة ، هل ننتظر نتيجة أشنع منها وأبشع ، لقد وصلنا إلى الدرك الأسفل ، إلى دركٍ ما بعده درك ، كيف يجوز لنا بعد الآن أن نتنكر للإسلام ، وأن نلتجىء إلى هذه الأصنام ، التي نحتناها بأيدينا ، ولا نزال ننحتها ونجملها ، ولا نزال ندخل عليها تحسينات

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] لقد عكفنا على هذه الأصنام نعبدها، ورفضنا عبادة الله تبارك وتعالى، واستنكفنا من الانتساب إلى الإسلام وحده، فأين ذلك «المارد العملاق» الذي بُشِّرنا به.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أولئك النحاف، الضعاف، الفقراء، الأميون هؤلاء الذين كانوا لا يقام لهم وزن، كانت تزدريهم الأعين، وثيابهم مرقعة، ونعالهم مخصوفة، وأجفانهم بالية، ماذا صنعوا من الأعاجيب، وكيف اكتسحوا العالم من أقصاه إلى أقصاه، وفتحوا نصف المعمورة في نصف قرن، وكيف أقاموا دولة، وشيدوا حضارة، وأخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

إننا إذا تمردنا على هذه الحقائق، وإذا طمسنا على هذه التجارب، فإننا نسيء إلى كرامة الإنسانية، وننحطّ إلى مستوى أقل من مستوى الحيوانات، إنَّ الحيوانات تعتمد على التجارب، إنَّ الحيوان إذا جرب شيئاً فإنه لا يعود إليه في الغالب، فما لنا نعود إلى ما جربناه مراراً وتكراراً، إنَّ الحيوان إذا آذاه إنسان، أو أهانه؛ يصبح له عدواً، إنه يحمل له حقداً، إنه يبتعد عنه، ولكننا نحن مستعدون أن ننخدع بمن خدعنا، ونلدغ من جحر مرتين، بل مراراً.

إن الذين جروا علينا هذه الكارثة لا يزالون يسيطرون على عقول كثير منا، ولا نزال نخضع لهم بالإجلال والإكبار، لو كانت عندنا بقية من حياء، بقية من غيرة، بقية من إنسانية؛ لحاكمناهم محاكمة المجرمين القاتلين؛ الذين يقتلون الأمم، ويدوسون كرامة البلاد، إنهم جنوا على شخصيتنا، جنوا على شرفنا، جنوا على تاريخنا، وأكبر جناية جنوها علينا على مر التاريخ أنهم جنوا على تاريخنا، لقد كان تاريخ الإسلام رصيدنا نلتجىء إليه، ونستمد منه في كل حين، كان من أقوى الوسائل لإثارة الشعور الإسلامي، ولإلهاب الجذوة الإيمانية في الصدور، لقد كان هذا التاريخ الإسلامي العربي، تاريخ الفتوح الإسلامية؛ ماثلاً في خطاباتنا وفي

كتاباتنا ، كانت العصا التي نتوكأ عليها دائماً كعصا موسى التي كان يتوكأ عليها ، ويهش بها على غنمه ، وكنا نفتخر به ، ونستشهد أمام مواطنينا في بلاد العجم ، فنقول هؤلاء أبطالنا ، هؤلاء قادة الفتح الإسلامي ، هذا خالد بن الوليد ، وذلك سعد بن أبي وقاص ، وهذا عقبة بن نافع ، وهذا طارق بن زياد ، وهذا محمد بن قاسم ، ونقول:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

أولئك الذين خرجوا بحفنةٍ من البشر ، بقلةٍ من العدد؛ فقراء ، لا زاد عندهم ، ولا مدد ، وفتحوا هذا العالم الواسع ، ولكن هذه النكبة أفقدت هذا التاريخ الإسلامي الشيء الكثير من روعته وجلاله ، وأضعفت ثقة المواطنين في كلِّ بلد بهذا التاريخ ، وأصبحوا يشكُّون في صدقه ، ويقولون: (أساطير الأولين) كيف نصدق هذا التاريخ ، وكيف نصدق أن تلك القلَّة غلبت على الكثرة ، وهذا العالم العربي ، وهذه الحكومات العربية كلها زحفت إلى إسرائيل ، ورمت بثقلها عليها ، وتحدَّتها تحدياً لم نسمع مثله في الزمن القديم ، تحدِّياً أصمَّ الآذان ، وخلع القلوب ، ولكن ماذا رأينا؟ رأينا هذه الحفنة البشرية ، هؤلاء الشذاذ الأفاكين ، هذه الشرذمة القليلة؛ التي لفظتها أراضيها وبلادها استولت على هذه الحكومات ، وهنالك تخرس الألسن ، وتنتكس الرقاب ، ويخون الجواب ، إنَّها خسارةٌ لا تعوض ، إنَّها لغزة لا تُفَض.

ما هو المتوقع والمعقول على إثر هذه النكبة أيها الإخوان!؟ أليس أن نحكم على الحوادث حكماً صحيحاً ، وعلى الرجال والشخصيات التي تحملت مسؤوليتها ، ونقرر أنَّ هؤلاء قد خسروا المعركة ، وأنهم ليسوا جديرين بالقيادة ـ بل إنَّهم كانوا سبب النكبة ـ وأنَّ الطريق الذي اختاروه طريق عقيم مسدود ، وأن نتبرأ منهم ، ونحمِّلهم تبعة هذه الهزيمة ، وهذه المأساة ، وألَّا نشعر بميل إليهم ، إنَّ الأمة إذا كان فيها شعور ، إذا كان فيها وعي ، حاسبت هؤلاء القادة حساباً شديداً ، إنني لا أتحدث عن الوعي الإيماني ، الوعي الذي كان يتصف به صحابة الرسول ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، إنهم كانوا لا يخضعون للرجال ، إنهم كانوا دائماً يخضعون

للحقائق ، ويحاسبون الخلفاء والأمراء على تصرفاتهم وأخطائهم ، ويقولون كلمة حق عند سلطان جائر ، ولكنني أتحدث عن الوعي السياسي ، بل الوعي المدني الذي رأينا مظاهره ، وأمثلته الرائعة في الشعوب المادية؛ التي لا تدين بالإسلام ، إن الإنجليز والفرنسيين لا يغتفرون الذي يجني عليهم ، ويلوث كرامتهم ، إنَّ الإنجليز لم يغتفروا المستر (إيدن) رئيس وزراء بريطانيا الأسبق ، لما أخفق في معركة السويس ، وألحق بالإنجليز العار ، ماذا فعل إيدن؟ إنما أخطأ في التقدير ولكن الشعب الإنجليزي لم يسامحه ولم يغتفره ، وقال له: تفضل واترك كرسي الحكم ، واذهب إلى زاوية من التاريخ ، وإلى مؤخر الشعب ، وكذلك توارثت أمم كثيرة بغض الرجال الذين تآمروا عليها وامتهنوا كرامتها ، ولوثوا شرفها ، هذه طبيعة في الإنسان ، وهو سر في رمي الجمرات ، وقد حافظت الشريعة الإلهية على هذه الطبيعية ، فما هذا الرمي عند الجمرات إلا إثارة للبغض والكره التي يجب أن نحملها لعدونا الأكبر ، الذي كان سبب شقائنا ، والذي حاول مراراً أن يمنع إبراهيم من امتثال أمر الله ، والذي لا يزال قائماً لنا بالمرصاد.

إنَّ العرب عُرفوا في التاريخ بالغيرة الشديدة ، عُرفوا بالعزة والإباء ، عُرفوا بالحكم العادل على أئمتهم ، وعلى أمرائهم ، وعلى صالحيهم ، وزهادهم ، لم يهابوا منهم ، ولم يداهنوا ، ولم يمتنعوا عن كلمة الحق هؤلاء العرب ترى عدداً من شبابهم اليوم في بلاد كثيرةٍ ، لا يزالون خاضعين لأولئك القادة الذين ورطوهم في هذه النكبة ، ويصدق عليهم قول شاعرهم القديم:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأنَّ ربَّك لم يخلقْ لخشيته ... سواهمُ من جميعِ الناسِ إنسانا

لقد جربنا أيها الإخوان! أننا لمَّا تجردنا عن الدين ، ولمَّا تنكرنا للإسلام ولمَّا أفلسنا في الروح الدينية؛ فقدنا كل شيء ، إننا لم نعد بشيءٍ ، إننا لم نرجع إلا بخفي حنين ، هذه التجربة تكفينا ، وتغنينا عن كل تجربة جديدة ، فلنعد إلى الإسلام.

لنعد إلى الإسلام بشجاعة ، لنعد إلى الإسلام بصراحة وصدق ، إنَّ الصدق ينجي ، والكذب يهلك ، إنَّ الصدق هو الذي ينفع الأفراد والأمم ، إنَّ النفاق لم يغن عن الأقوام ولا يغني ، إنَّ كلَّ محاولة قامت في دورٍ من أدوار التاريخ لصرف هذه الأمة العربية عن منبعها الأصيل ، عن منبعها الذي كانت تستمدُّ منه الإيمان وتستمدُّ منه القوة ، والشرف ، والوحدة أخفقت ، وباءت بالفشل الذريع ، سواء كانت محاولة مسيلمة الكذاب ، ومحاولة المتنبئين في هذه الجزيرة ، أو كانت محاولة القرامطة في ناحية من نواحي هذه الجزيرة نفسها ، أو كانت محاولة الباطنيين والفلاسفة ، أو كانت محاولة القوميين في العهد الأخير ، بمفهومها العقائدي ، وفلسفتها القائمة بذاتها ، إنَّ كلَّ محاولة قامت لصرف هذه الأمة العربية عن إيمانها ، وعن قائدها الذي قدر الله أن يكون الإمام الخالد ، والنبي الخالد لهذه الأمة ، الذي هو عنوان شرفها ، ورمز قوتها ، وسر انتصارها ، إنَّ كل محاولة بذلت لصرف هذه الأمة عن قائدها ، وإمامها ، وعن دينها وعقيدتها ، وعن رسالتها ، ودعوتها ، وعن منبعها ، ومرجعها ، فشلت ، وستفشل ، لنقرر أنه لا ملجأ من الله ولا منجى إلا إليه ، فإن قصتنا هي قصة أولئك المتخلفين؛ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وقال الله فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] لقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، هذا بما لا شك فيه ، سيروا في الأرض وانظروا كيف أصبحنا أذلاء ، كيف سقطنا في عيون الناس ، وضاقت علينا أنفسنا ، وهذا ما نشعر به ، وتشهد به قلوبنا ، وقد رأينا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، فالطريق مظلم ومسدود ، فلنقرر الحقيقة ، ولنعترف بالواقع ، ولنقل بصراحة وشجاعة: إننا لم نستفد شيئاً من الثورة على الإسلام ، فلنحكم على أنفسنا ، ولنقل: لقد أخطأنا ، وإننا نرجع إلى حظيرة الإسلام ، ونرجع إلى قوة الإسلام التي لا تزال منتظرة لأن تسعفنا ، وتأخذ بيدنا ، وأن ترفعنا من هذا الحضيض الذي تردَّينا فيه .

أيها السادة الكرام! إنني أشعر بأنني قد قسوت بعض القسوة على إخواني

الذين أحبهم ، وأجلُّهم ، والذين قد ربط الله مصيري بمصيرهم ، والذين جعل الله شرفهم شرفي ، وهوانهم هواني ، وقد صرخت بهذه الحقيقة وأرسلتها كلمةً مدوِّيةً في الهند في كل مناسبة ، لقد قلت لهم : إن مصير المسلمين في كلِّ بلد مرتبط بمصير العرب ، فإذا عزَّ العرب؛ عزَّ الإسلام والمسلمون ، وإذا ذلَّ العرب ، ذل الإسلام والمسلمون ، أولئك الذين لا أعدل بهم قوماً ، ولا أعدل بكتابهم كتاباً ، ولا أعدل بلغتهم لغة ، ولا أعدل بحضارتهم حضارةً ، على ذلك أحيا ، وعلى ذلك أموت ، وما حملني على هذه الصراحة ، أو على هذه المرارة ، إلا الاشتراك ، إلا أنني ألتقي معكم في كل شيء ، إلا أني آخذ بنصيبي مما أنتم فيه ، فإلى الراية المحمدية أيها العرب! لا إلى الراية القومية ، ولا إلى أي رايةٍ جاهليةٍ.

لقد أنقذكم الله من هذه الجاهلية ، وأنقذ أمماً وبلاداً بفضلكم أيها العرب ، فلا تعودوا إلى هذه الجاهلية ، لقد كانت لهذه الأمم جاهليتهم ، وحضارتهم وشعاراتهم ، وأنساب تفتخر بها ، وآداب ، وتقاليد تعض عليها بالنواجذ ، ولكنكم حملتم إليها رسالة الإسلام ، فأنقذتموها من هذا المستنقع ، فكيف يجوز أن تعودوا إلى جاهليتكم ، وأنتم أيها الإخوة العرب! يا أهل مكة! يا سدنة البيت الحرام! بَنَيْتُم بيدكم العفيفة ، النظيفة ، الكريمة ، الشريفة هذا البيت ، ليعلو على البيوت كلِّها ، وليعلو على الأصنام ، ويعلو على الهياكل؟ كيف يجوز لكم أن ترجعوا إلى هذه الهياكل الظالمة المظلمة ، الوسخة المتعفنة؟ من هنا ارتفع الصوت الذي دوى في الآفاق ، وحطم الأصنام ، وفك السلاسل والأغلال ، وغير مجرى التاريخ ، وقلب تيار الحوادث ، ومن هنا انبثق ذلك النور الذي انتشر في العالم ، وأنقذ الأمم ، وأحيا الرمم ، وأحيا النفوس البشرية ، فكيف يجوز لكم أن تعودوا إلى هذه الجاهلية البالية؛ التي أصبحت أوربة تعافها ، وأصبحت الأمم الجاهلية التي عكفت عليها قروناً وأحقاباً تتبرأ منها؟ إذا كانت أوروبة قد رفضت هذه القوميات ، وعرفت معرّتها ، وعرفت جنايتها على الإنسانية ، كيف يجوز لكم أن تلتقموها ، أنتم يا كرام الناس! يا أولئك

الذين كانوا يرفدون القبائل! ويتصدقون على الفقراء! العالم كله في ضيافتكم ، وعلى مائدتكم ، فحرام عليكم أن تعيشوا على فتات مائدة غيركم على العظام البالية النخرة.

إن موقف كثير من إخواننا العرب في غير هذه البلاد موقف يحرجنا. موقف يحرج الدعاة في الهند ، وباكستان ، وبلاد العجم ، موقف يحرج أولئك الذين لا يعرفون غير الإسلام ديناً وغير القرآن كتاباً ، وغير الشريعة نظاماً ، وقانوناً ، وغير محمد بن عبد الله إماماً وقائداً ، عطفاً عطفاً! رفقاً رفقاً! رحمة ، أيها العرب! لا تحرجونا عند مواطنينا! لا تحرجونا في بلاد بعيدة عن مهد الإسلام ، إذا لم تحسنوا إلينا! فبالله لا تسيئوا إلينا! إذا لم تزيدوا في قوتنا ، فبالله لا تنقصوا من قوتنا! من حماسنا ، من ثقتنا بالإسلام ، من ثقتنا بنفوسنا المؤمنة ، من ثقتنا بتاريخنا الإسلامي ، من ثقتنا بأنكم أصحاب الفضل في إسلام هذه الأمم ، التي كانت تتسكع في الجهالات ، وكانت ترسف في القيود والأغلال ، وكانت تتورط في الأوحال والمستنقعات ، رفقاً أيها العرب! ارحموا المسلمين ، أولئك الذين يكافحون الشعارات الجاهلية ، ويهتفون بالإسلام ويهتفون بالقرآن ، إن موقفهم دقيق ، أنتم الذين أنشأتم هذه الأجيال المؤمنة وكانت في جاهليتها تعبد البقر ، وتعبد الشجر والحجر ، ولا تزال منها بقية في آسيا وإفريقية ، تنظر إليكم كفقير بائس ، وكجائع عطشان ، وتقول لكم بلسان الحال: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] أفيضوا علينا من مائدة محمد بن عبد الله ﷺ. لا تكونوا أقل اعتزازاً به وافتخاراً من الأعاجم ، أنتم أولى به من أولئك الذين لم يتصلوا به بنسب ، ولم يتصلوا به بلغة ، ولم يتصلوا به بوطن ، ولم يتصلوا به بدم ، ترون الرجل في الهند إذا ذكر اسمه ترنحت أعطافه ، واهتزت مشاعره ، والتهبت جذوته ، وتفتحت قريحته ، فأصبح ليثاً مغواراً ، هؤلاء الأتراك لا يزال لهذا الاسم سحر في نفوسهم ، ليس لكلمة أخرى من أسماء السادة والقادة ، قولوا: محمداً ، وسلوا ما شئتم ، استخدموهم كالعبيد ، استخدمونا نحن الهنود باسم الإسلام ، كيف يأتي الناس يسعون على رؤوسهم ، وعلى عيونهم ،

إلى هذا البيت من كل فج عميق ، ولا تزال تلك القوة الكبرى التي لم يعرف العالم في تاريخه الطويل قوة أكبر منها ، فوالله إن أوربة ترتعد فَرْقاً من هذه القوة ، وإنها نامت النومة العميقة الحلوة بعد هذه النكبة.

إنني أرجوكم أن تسامحوني إذا قسوت لكم بعض الشيء ، فما دفعني إلى ذلك إلا الإخلاص ، إنَّ مثلي ومثلكم كما قال رسول الله ﷺ «**المحيا محياكم ، والممات مماتكم**» فوالله لولا هذه الرابطة الحبيبة ، الرابطة التي أكرمنا الله بها؛ لكان لنا تاريخ غير هذا التاريخ ، وكان لنا وضع غير هذا الوضع.

الإسلام هو الذي يربطنا بكم ، ويربطكم بنا ، هذا الإسلام الذي نريد أن نلتقي عليه ، وأن تتولوا قيادته من جديد ، لقد كان موضوعي: إلى الإسلام من جديد ، لقد بدأت من هذا ، ولكني أختم فأقول: إلى القيادة العالمية من جديد أيها العرب!.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

زعامة العالم العربي(١)

*** أهمية العالم العربي :**

إنَّ العالم العربي له أهميَّة كبيرة في خريطة العالم السياسية ، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أكبر دور في التاريخ الإنساني ، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرىٰ: الذهب الأسود؛ الذي هو دم الجسم الصناعي ، والحربي اليوم ، ولأنَّه صلة بين أوربة وأمريكا ، وبين الشرق الأقصىٰ ، ولأنَّه قلب العالم الإسلامي النابض ، يتَّجه إليه روحياً ، ودينياً ، ويدين بحبِّه وولائه ، ولأنَّه عسىٰ ـ لا قدَّر الله ـ أن يكون ميدان الحرب الثالثة ، لأنَّ فيه الأيدي العاملة ، والعقول المفكرة ، والأجسام المقاتلة ، والأسواق التجارية ، والأراضي الزراعية ، ولأنَّ فيه مصر ذات النيل السعيد بنتاجها ، ومحصولها ، وخصبها ، وثروتها ، ورقيِّها ، ومدنيَّتها ، وفيه سورية ، وفلسطين ، وجاراتها ، باعتدال مناخها ، وجمال إقليمها ، وأهميتها الاستراتيجية ، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها ، ومنابع البترول فيها ، والجزيرة العربية بمركزها الروحي ، وسلطانها الدِّيني ، واجتماع الحجِّ السنوي الذي لا مثيل له في العالم ، وآبار البترول الغزيرة. كلُّ ذلك قد جعل العالم العربي محطَّ أنظار الغربيين ، وملتقىٰ مطامعهم ، وميدان تنافس لقيادتهم ، وكان ردُّ فعله أن نشأ في العالم العربي شعور عميق بالقومية العربية ، وكثر التغني «بالوطن العربي» و«المجد العربي» .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثالث ، المجلد الثاني عشر عام ١٩٦٧ م.

* **محمد رسول الله روح العالم العربي:**

ولكنَّ المسلم ينظر إلىٰ العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوربي ، وبغير العين التي ينظر بها الوطني العربي ، إنَّه ينظر إليه كمهد الإسلام ، ومشرق نوره ، ومعقل الإنسانية ، وموضع القيادة العالمية ، ويعتقد أنَّ سيدنا محمداً العربي هو روح العالم العربي ، وأساسه ، وعنوان مجده ، وأنَّ العالم العربي ـ بما فيه من موارد الثروة والقوة ، وبما فيه من خيرات وحسنات ـ جسمٌ بلا روح ، وخطٌّ بلا وضوح؛ إذ انفصل ـ لا سمح الله بذلك ـ عن سيدنا رسول الله ﷺ ، وقطع صلته عن تعاليمه ودينه ، وأنَّ سيدنا رسول الله ﷺ هو الذي أبرز العالم العربي للوجود ، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوباً مستعبدة ، ومواهب ضائعة ، وبلاداً تتسكع في الجهل والضلالات ، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية والفارسية ، ولا يخطر ذلك منهم على بال ، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم في حال من الأحوال ، وكانت سورية التي تكون جزءاً مهماً من العالم العربي مستعمرةً روميَّةً تعاني الملكية المطلقة ، والحكم الجائر المستبد ، لا تعرف معنىٰ الحرية والعدل ، وكان العراق مطيَّةً لشهوات الدولة الفارسية ، مثقلة بالضرائب المجحفة ، والأتاوات الفادحة ، وكانت مصر قد اتَّخذها الرومان ناقةً حلوباً ركوباً ، يجزُّون صوفها ، ويظلمونها في علفها ، ثم إنها تعاني الاضطهاد الديني مع الاستبداد السياسي ، فما لبث هذا العالم المفكك المنحلُّ ، المظلوم المضطهد ، أن هبَّت عليه نفحةٌ من نفحات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ، أدرك رسول الله هذا العالم وهو ضائع هالك ، وأخذ بيده وهو ساقط متهالك ، فأحياه بإذن الله ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة ، وزكَّاه ، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام ، ورسول الأمن والسَّلام ، ورائد العلم والحكمة ، ومشعل الثقافة والحضارة. كان غوثاً للأمم ، وغيثاً للعالم ، هنالك كانت الشام ، وكان العراق ، وكانت مصر ، وكان العالم العربي الذي نتحدَّث عنه ، فلولا محمد ﷺ ، ولولا رسالته ، ولولا ملته ، لما كانت سورية ، ولا كان

العراق ، ولا كانت مصر ، ولا كان العالم العربي ، بل ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارةً ، وعقلاً ، وديانةً ، وخلقاً ، فمن استغنىٰ عن دين الإسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته ، وولّى وجهه شطر الغرب ، أو أيام العرب الأولى ، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره ، أو أسَّس حياته على العنصرية أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام ، ولم يرض برسول الله قائداً ، ورائداً ، وإماماً ، وقدوة ، فليرد على محمد بن عبد الله ﷺ نعمته ، ويرجع إلى جاهليته الأولىٰ ، حيث الحكم الروماني ، والإيراني ، وحيث الاستعباد ، والاستبداد ، وحيث الظلم ، والاضطهاد ، حيث الجهل ، والضلالة ، وحيث الغفلة ، والبطالة ، وحيث العزلة عن العالم ، والخمول والجمود ، فإنَّ هذا التاريخ المجيد ، وهذه الحضارة الزاهية ، وهذا الأدب الزاخر ، وهذه الدول العربية ، ليست إلا حسنةً من حسنات محمَّدٍ عليه الصلاة والسَّلام.

*** الإيمان هو قوة العالم العربي :**

فالإسلام هو قومية العالم العربي ، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربي ، وإمامه ، وقائده ، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله ، فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه ، ويؤدِّي رسالته ، إنَّ العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية ، أو الشيوعية ، أو عدواً آخر بالمال الذي ترضخه بريطانيا ، أو تتصدق به أمريكا ، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود ، إنما يحارب عدوَّه بالإيمان ، والقوة المعنوية ، وبالروح التي حارب بها الدولة الرومية ، والإمبراطورية الفارسية في ساعةٍ واحدةٍ ، فانتصر عليهما جميعاً. إنَّه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ، ويكره الموت ، وبجسم يميل إلى الدَّعة والراحة ، وعقل يخامره الشك ، وتتنازع فيه الأفكار والأهواء ، أو بيد مضطربة ، وقلبٍ متشكِّكٍ ضعيف الإيمان ، وقوة متخاذلة في الميدان ، فالمهمُّ لأمراء العرب ، وزعمائهم ، وقادة الجامعة العربية أن يغرسوا الإيمان في الشعوب العربية ، وجماهير الأمة ، وأولياء الأمور ، والجيوش العربية ، والفلاحين ، والتجار ، وفي

كلِّ طبقةٍ من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد في سبيل الله ، والتوق إلى الجنة ، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء ، وزخارف الدُّنيا ، ويعلِّمونها كيف يتغلبون على شهوات النفس ، ومألوفات الحياة ، وكيف يتحمَّلون الشدائد في سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بثغرٍ باسم ، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور .

*** تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية :**

بعث رسول الله ﷺ وقد بلغت شقاوة الإنسانية غايةً ما وراءها غاية ، وكانت قضية الإنسانية أعظم من أن يقوم لها أفراد متنعمون ، لا يتعرضون لخطر ، ولا لخسارة ، ولا محنة ، لهم النعيم الحاضر ، والغد المضمون ، إنما تحتاج هذه القضية إلى أناس يضحون بإمكانياتهم ، ومستقبلهم في سبيل خدمة الإنسانية ، وأداء رسالتهم المقدسة ، ويعرضون نفوسهم ، وأموالهم ، ومعائشهم ، وحظوظهم من الدنيا للخطر والضياع ، وتجاراتهم ، وحرفهم ، ومكاسبهم للتَّلف والكساد ، ويخيبون آمال آبائهم وأصدقائهم فيهم ، حتى يقولوا للواحد منهم ، كما قال قوم صالح : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود : ٦٢] .

إنَّه لا بقاء للإنسانية ، ولا قيام لدعوة كريمة بغير هؤلاء المجاهدين ، وبشقاء هذه الحفنة من البشر في الدُّنيا ـ كما يعتقد كثير من معاصريهم ـ تنعم الإنسانية ، وتسعد الأمم ، ويتحوَّل تيار العالم من الشرِّ إلى الخير ، ومن السعادة أن يشقىٰ أفراد ، وتنعم أمم ، وتضيع أموال ، وتكسد تجارات لبعض الأفراد ، وتنمو نفوس وأرواح لا يحصيها إلا الله من عذاب الله ومن نار جهنم .

علم الله عند بعثة الرسول ﷺ أنَّ الروم ، والفرس ، والأمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع ـ بحكم حياتنا المصطنعة المترفة ـ أن تتعرَّض للخطر ، وتتحمَّل المتاعب والمصاعب في سبيل الدعوة والجهاد ، وخدمة الإنسانية البائسة ، ولا تستطيع أن تضحي بشيءٍ من دقائق مدنيتها في الملبس ، والمأكل ، وأن تتنزَّل عن حظوظها ،

ولذاتها ، وزخارفها فضلاً عن حاجاتها ، وأنَّه لا يوجد فيها أفرادٌ يقوون علىٰ قهر شهواتهم ، والحدِّ من طموحهم ، والزهد في فضول الحياة ، ومطامع الدُّنيا ، والقناعة بالكفاف ، فاختار لرسالة الإسلام وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام أمة تضطلع بأعباء الدَّعوة والجهاد ، وتقوىٰ على التضحية والإيثار ، تلك هي الأمَّة العربية القوية السليمة التي لم تبتلعها المدنية ، ولم ينخرها البذخ والترف ، وأولئك أصحاب محمد ﷺ أبرّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً.

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة ، فأدَّىٰ حقوقها: من الجهاد في سبيلها ، وإيثارها على كل ما يقف في وجهها ، والعزوف عن الشهوات ومطامع الدُّنيا ، فكان في ذلك أسوةً ، وإماماً للعالم كله. وَفْدُ قريش عَرَض عليه كل ما يغري الشباب ، ويرضي الطامحين من رئاسةٍ ، وشرفٍ ، ومالٍ عظيمٍ ، وزواجٍ كريمٍ ، فرفض كلَّ ذلك في صرامةٍ وصراحةٍ ، وكلَّمه عمُّه ، وحاول أن يحـدَّ من نشاطه في سبيل الدعوة ، فقال: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتىٰ يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته!» ثم كان أسوةً للناس في عصره ، وبعد عصره ، بقيامه بأكبر قسط من الجهاد والإيثار ، والزهد ، وشظف العيش ، وأقل قسط من العيش وأسباب الحياة ، فقد أوصد على نفسه الأبواب ، وسدَّ في وجهه الطرق ، وتعدَّى ذلك إلى أسرته ، وأهل بيته ، والمتصلين به ، فكان أكثر الناس اتصالاً به وأقربهم إليه أقلهم حظّاً في الحياة ، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والإيثار ، فإذا أراد أن يحرِّم شيئاً بدأ ذلك بعشيرته وبيته ، وإذا سنَّ حقاً ، أو فتح باباً لمنفعةٍ قدَّم الآخرين ، وربما حرَّمه على عشيرته الأقربين. أراد أن يحرِّم الربا ، فبدأ بربا عمِّه العباس بن عبد المطلب ، فوضعه كلَّه ، وأراد أن يهدر دماء الجاهلية فبدأ بدم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فأبطله ، وسنَّ الزكاة ، وهي منفعة مالية عظيمة مستمرة إلىٰ يوم القيامة ، فحرَّمها على عشيرته بني هاشم إلى آخر الأبد ، وكلَّمه علي بن أبي طالب يوم الفتح أن يجمع لبني هاشم الحجابة مع السقاية ، فأبىٰ وطلب عثمان بن طلحة ، وناوله مفتاح الكعبة ،

وقال: هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء ، وقال: خذوها خالدةً تالدةً فيكم، لا ينزعها منكم إلا ظالم. وحمل أزواجه على الزهد ، والقناعة، وشظف العيش ، وخيَّرهنَّ بين عشرته مع الفقر ، وضيق العيش ، ومفارقته مع السَّعة ، والرخاء ، وتلا عليهنَّ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] فاخترن الله والرسول ، وتأتيه فاطمة تشكو إليه ما تلقىٰ في يدها من الرحىٰ ، وبلغها أنه جاءه رقيق ، فيوصيها بالتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، ويقول لها: «إنه خيرٌ لها من خادم. . . » ، وهكذا كان شأنه مع أهل بيته والمتصلين به ، فالأقرب ، ثم الأقرب.

وآمن به رجال من قريش في مكة ، فاضطربت حياتهم الاقتصادية اضطراباً عظيماً ، وكسدت تجاراتهم ، وحرم بعضهم رأس ماله الذي جمعه في حياته ، وحرم بعضهم أسباب التَّرف ، والرَّخاء ، وأناقة اللباس التي كان فيها مضرب المثل ، وكسدت تجارة بعضهم لاشتغاله بالدعوة ، وانصراف الزبائن عنه ، وحرم بعضهم نصيبه في ثروة أبيه.

ثم لمَّا هاجر الرسول إلى المدينة ، وتبعه الأنصار ، تأثرت بذلك بساتينهم ، ومزارعهم ، فلما أرادوا أن يقبلوا عليها بعض الوقت ، ويصلحوها؛ لم يسمح لهم بذلك ، وأنذرهم الله به ، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وهكذا كان شأن العرب والذين احتضنوا هذه الدعوة منهم ، فقد كان نصيبهم من متاعب الجهاد ، وخسائر النفوس والأموال أعظم من نصيب أيِّ أمَّةٍ في العالم ، وقد خاطبهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن

﴿نَفۡسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠] لأنَّ سعادة البشرية إنما كانت تتوقف على ما يقدمونه من تضحيةٍ وإيثارٍ وما يتحمَّلون من خسائر، ونكبات، فقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] وكان إحجام العرب عن هذه المكرمة، وتردُّدهم في ذلك امتداداً لشقاء الإنسانية، واستمراراً للأوضاع السيئة في العالم، فقال: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقد وقف العالم في القرن السادس المسيحي على مفترق الطرق: إمَّا أن يتقدَّم العرب، ويعرِّضوا نفوسهم، وأموالهم، وأولادهم، وكلَّ ما يعزُّ عليهم للخطر، ويزهدوا في مطامع الدنيا، ويضحُّوا في سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم، فيسعد العالم، وتستقيم البشرية، وتقوم سوق الجنة، وتروج بضاعة الإيمان، وإمَّا أن يؤثروا شهواتهم، ومطامعهم، وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم، فيبقىٰ العالم في حمأ الضلالة والشقاء إلى ما شاء الله، وقد أراد الله بالإنسانية خيراً، وتشجع العرب ـ بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان، والإيثار، وحبَّب إليهم الدار الآخرة، وثوابها ـ فقدَّموا أنفسهم فداءً للإنسانية كلِّها، وزهدوا في مطامع الدُّنيا طمعاً في ثواب الله، وسعادة النوع الإنساني، وجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم في سبيل الله، وضحَّوا بكلِّ ما يحرص عليه الناس من مطامع، وشهوات، وآمال، وأحلام، وأخلصوا لله العمل والجهاد، فآتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين.

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بُعث الرسول، ووقف العالم على مفترق الطرق مرَّةً ثانيةً: إمَّا أن يتقدم العرب ـ وهم أمة الرسول وعشيرته ـ إلى الميدان، ويغامروا بنفوسهم، وإمكانياتهم، ومطامحهم، ويخاطروا فيما هم فيه من رخاءٍ، وثراءٍ، ودنيا واسعةٍ، وفرصٍ متاحةٍ للعيش، وأسبابٍ ميسورة، فينهض العالم من عثاره، وتتبدل الأرض غير الأرض، وإمَّا أن يستمرُّوا فيما هم فيه من طمع، وطموحٍ، وتنافسٍ في الوظائف على أسباب

الترف والتنعم ، فيبقىٰ العالم في هذا المستنقع الذي يتردَّىٰ فيه منذ قرون .

إنَّ العالم لا يسعد وخيرة الشباب في العواصم العربية عاكفون على شهواتهم ، تدور حياتهم حول المادة والمعدة ، لا يفكِّرون في غيرهما ، ولا يترفَّعون عن الجهاد في سبيلهما ، ولقد كان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحَّوا بمستقبلهم في سبيل المبادىء التي اعتنقوها أكبر منهم نفساً ، وأوسع منهم فكراً ، بل كان الشاعر الجاهلي «امرؤ القيس» أعلىٰ منهم همَّة ؛ إذ قال :

ولـو أنَّ مـا أسعـىٰ لأدنـىٰ معيشـةٍ كفاني ولم أطلب قليلاً من المال

ولكنَّمـا أسعـىٰ لمجـدٍ مـؤثَّـلٍ وقد يدركُ المجد المؤثل أمثالي

إنَّ العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرةٍ من جهادٍ ، ومتاعب يقدمها الشباب المسلم . إنَّ الأرض لفي حاجة إلى سماد ، وسماد أرض البشرية التي تصلح به ، وتنبت زرع الإسلام الكريم ، هي الشهوات والمطامع الفردية التي يضحِّي بها الشباب العربيُّ في سبيل علوِّ الإسلام ، وبسط الأمن والسَّلام على العالم ، وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة . إنَّه لثمنٌ قليلٌ جدَّاً لسلعةٍ غاليةٍ جدَّاً .

*** العناية بالفروسية والحياة العسكرية :**

من الحقائق المؤلمة أنَّ الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية ، ورزئت في فروسيتها التي كانت معروفةً بها في العالم ، فكانت رزيئةً كبيرةً ، وخسارةً فادحة ، وكانت سبباً من أسباب ضعفها ، وعجزها في ميدان الجهاد ، فقد اضمحلَّت الروح العسكرية ، وضعفت الأجسام ، ونشأ الناس على التنعم ، وقد حلَّت السيارات محل الجياد ، حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ، وهجر الناس المصارعة ، والمناضلة ، وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية ، والتدريبات العسكرية ، واستبدلوا بها ألعاباً لا تفيدهم شيئاً ، فالمهمُّ لرجال التعليم والتربية ـ قادة الشعوب العربية ـ أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية ، والحياة العسكرية ، وعلى البساطة في المعيشة ، وخشونة العيش ،

والجلادة ، وتحمُّل المشاق ، والمتاعب ، والصَّبر على المكروه! .

وقد كتب المربي الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلىٰ بعض عماله العرب ، وهم في بلاد العجم : «إيَّاكم والتنعم ، وزي العجم ، وعليكم بالشَّمس فإنَّها حمام العرب، وتمعددوا[١] ، واخشوشنوا[٢] ، واخشوشبوا[٣] ، واخلولقوا[٤] ، وأعطوا الرَّكب أسنتها، وانزوا نزواً ، وارموا الأغراض»[٥] .

وقد قال النبي ﷺ : «**ارموا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان رامياً**»[٦] ، وقال : «**ألا إنَّ القوَّة الرمي ، ألا إنَّ القوَّة الرمي**»[٧] .

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكلِّ قوَّتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ، ويبعث على التخنُّث والعجز ، من عاداتٍ ، وأدب ، وصحافةٍ ، وتعليم ، ويأخذوا على يد الصحافة الماجنة ، والأدب الخليع الملحد ، الذي ينشر في الشباب النفاق ، والدَّعارة ، والفسوق ، وعبادة اللذة والشهوات ، ولا يسمحوا لهؤلاء التجَّار الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا أن يدخلوا في معسكر محمد ﷺ ؛ الذي بعث ليتمِّم مكارم الأخلاق ، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها ، ويزيِّنوا لها الفسوق والعصيان ، وحبَّ الفحشاء بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأنَّ كلَّ أمَّةٍ أصيب رجالها في رجولتهم وغيرتهم ، ونساؤها في أنوثتهنَّ وأمومتهنَّ؛ وطغىٰ فيهن التبرُّج ، ومزاحمة الرجال في كلِّ شيء ، والزهد في الحياة المنزلية ، وحبِّب إليهن العقم؛ أفل نجمُها ، وكسفت شمسُها ، فأصبحت أثراً بعد عين .

---

(١) تمعدد الغلام : شبَّ وغلظ ، وقيل : معناه : تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف .
(٢) اخشوشن : تخشن في المطعم والملبس .
(٣) اخشوشب : صار صلباً كالخشب في أحواله ، وصبره على الجهد .
(٤) تبذلوا في الملابس .
(٥) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي .
(٦) رواه البخاري (٢٧٤٣) عن سلمة بن الأكوع .
(٧) رواه مسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) عن عقبة بن عامر .

هذه كانت عاقبة اليونان ، والرومان ، والفرس ، وإنَّ أوربة لفي طريقها إلى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربي من هذا المصير الهائل.

*** محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغني والصعلوك:**

وقد اعتاد العرب ـ لأسبابٍ كثيرةٍ وبتأثير الحضارة الغربية ـ حياة الترف والدَّعة ، والاعتداد الزائد بالكماليات ، وفضول الحياة ، والإسراف ، والتبذير ، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة ، والشهوة ، والفخر ، والزينة.

وبجانب هذا التَّرف والنعيم ، وحياة البذخ والتبذير ، جوعٌ ، وعري ، وفقر فاضح ، يرىٰ الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية ، فتدمع العين ، ويحزن القلب ، وينتكس الرأس حياءً وخجلاً ، فبينا هنالك رجل عنده فضول الثياب ، وزائد الطعام والشراب ، لا يعرف كيف يستهلكه؛ إذ ببدوي لا يجد قوت يومه ، وكسوة جسمه ، وبينما أمراء العرب وأغنياؤهم على سيارات تباري الريح ، وتثير النقع؛ إذا بفوج من النساء والأطفال عليهم ثياب سوداء ، قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس ، يعدو لأجل فلس أو قرص ، فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة ، والسيارات الفاخرة ، وبين الأكواخ الحقيرة ، والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة ، وما دامت التُّخمة والجوع يزخران في مدينة واحدة ، فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية ، والثورات ، والاضطراب ، والقلق لا تقفها دعاية ، ولا قوة ، وإذا لم يَسُدِ النظام الإسلامي في بلاده بجماله واعتداله يحلُّ محلَّه نظامٌ جائرٌ بعسفه ، وقهره؛ عقاباً من الله كردِّ فعلٍ عنيفٍ.

*** التخلُّص من أنواع الأثرة:**

لقد أتىٰ علىٰ العالم العربيِّ عهدٌ في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فردٍ واحدٍ ـ وهو شخص الخليفة ، أو الملك ـ أو حول حفنةٍ من الرِّجال ـ هم الوزراء ، وأبناء الملك ـ وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد ، والأمة كلُّها فوجاً من المماليك والعبيد ، ويتحكَّم في أموالهم ،

وأملاكهم ، ونفوسهم ، وأعراضهم ، ولم تكن الأمة التي كان يحكم عليها إلا ظلاًّ لشخصه ، ولم تكن حياتُها إلا امتداداً لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها ، وعلومها ، وآدابها ، وشعرها ، وإنتاجها ، فإذا استعرض أحدٌ تاريخ هذا العهد ، أو أدب تلك الفترة من الزمان ، وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع ، كما تسيطر شجرةٌ باسقةٌ علىٰ الحشائش والشجيرات التي تنبت في ظلِّها ، وتمنعها من الشمس والهواء ، وكذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد ، وتذوب فيه ، وتصبح أمَّةً هزيلةً ، لا شخصية لها ، ولا إرادة ، ولا حريَّة لها ، ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة ، فلأجله يتعب الفلاَّح ، ويشتغل التاجر ، ويجتهد الصانع ، ويؤلف المؤلف ، وينظم الشاعر ، ولأجله تلد الأمهات ، وفي سبيله يموت الرجال ، وتقاتل الجيوش ، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ، ويقذف البحر نفائسه ، وتستخرج كنوز الأرض خيراتها.

وكانت الأمة ـ وهي صاحبة الإنتاج ، وصاحبة الفضل في هذه الرفاهية كلِّها ـ تعيش عيش الصعاليك ، أو الأرقاء المماليك ، وقد تسعد بفتات مائدة الملك ، وبما يفضل عن حاشيته ، فتشكر ، وقد تحرم ذلك أيضاً ، فتصبر ، وقد تموت فيها الإنسانية ، فلا تنكر شيئاً ، بل تتسابق في التزلُّف ، وانتهاز الفرص.

هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً ، وترك رواسب في حياة هذه الأمة ونفوسها ، وفي أدبها وشعرها ، وأخلاقها واجتماعاتها ، وخلَّف آثاراً باقيةً في المكتبة العربية ، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب: «ألف ليلة وليلة» الذي يصوِّر ذلك العهد تصويراً بارعاً ، يوم كان الخليفة في بغداد ، أو الملك في دمشق ، أو القاهرة ، هو كلُّ شيء ، وبطل رواية الحياة ، ومركز الدائرة ، إنَّ هذا العهد الذي يمثله كتاب «ألف ليلة وليلة» بأساطيره ، وقصصه ، وكتاب الأغاني بتاريخه ، وأدبه ، لم يكن عهداً

إسلامياً ، ولا عهداً طبيعياً معقولاً ، فلا يرضاه الإسلام ، ولا يقرُّه العقل ، بل إنَّما جاء الإسلام بهدمه ، والقضاء عليه ، فقد كان هذا هو العهد الذي بُعث فيه محمد ﷺ ، فسمَّاه: الجاهلية ، ونعىٰ عليه ، وأنكر على ملوكه ـ ككسرىٰ وقيصر ـ وعلى أثرتهم ، وترفهم أشد الإنكار.

إنَّ هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أيِّ مكانٍ ، وفي أيِّ زمانٍ ، ولا سبيل إليه إذا كانت الأمة مغلوبةً على أمرها ، أو مصابة في عقلها ، أو فاقدة الوعي والشعور ، أو ميتة النفوس والروح.

إنَّ هذا الوضع لا يقرُّه عقل ، ومن الذي يُسوِّغ أن يتخم فرد ، أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب ، ويموت آلاف جوعاً ومسغبةً ، ومن الذي يُسوِّغ أن يعبث ملك أو أبناء ملك بالمال عبث المجانين ، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ، ومن الكسوة ما يستر جسمهم ، ومن الذي يسوغ أن يكون حظُّ طبقة ـ وهي الكثرة ـ الإنتاج وحده ، والكدح في الحياة ، والعمل المضني؛ الذي لا نهاية له ، وحظُّ طبقة ـ وهي لا تجاوز عدد الأصابع ـ التلهي بثمرات تعب الطبقة الأولىٰ من غير شكرٍ ، وتقديرٍ ، وفي غير عقل ، ووعي ، ومن الذي يُسوِّغ أن يشقىٰ أهل الصناعة ، وأهل الذكاء ، وأهل الاجتهاد ، وأهل المواهب ، وأهل الصلاح ، وينعم رجالٌ لا يحسنون غير التبذير ، ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور ، وشرب الخمور؟ ومن الذي يُسوِّغ أن يُجفىٰ أهل الكفاية ، وأهل النبوغ ، وأهل الأمانة ، ويقصوا كالمنبوذين ، ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساس النفوس ، وسخفاء العقول ، وفاقدي الضمائر ممَّن لا همَّ لهم إلا ابتزاز الأموال ، وإرضاء الشهوات ، ولا يحسنون فناً من فنون الدُّنيا غير التملُّق ، والإطراء ، والمؤامرة ضدَّ الأبرياء ، ولا يتَّصفون بشيء غير فقدان الشعور ، وقلة الحياء.

إنَّه وضع شاذٌّ ، لا ينبغي أن يبقىٰ يوماً فضلاً عن أن يبقىٰ أعواماً.

إنَّه إن سبق في عهد من عهود التاريخ ، وبقي مدَّةً طويلة؛ فقد كان ذلك علىٰ غفلةٍ من الأمة ، أو على الرَّغم منها ، وبسبب ضعف الإسلام وقوة

الجاهلية ، ولكنَّه خليق بأن ينهار ، ويتداعىٰ كلَّما أشرقت شمس الإسلام ، واستيقظ الوعي ، وهبَّت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها .

فالذين لا يزالون يعيشون في عالم «ألف ليلة وليلة» إنَّما يعيشون في عالم الأحلام ، إنَّما يعيشون في بيت أوهن من بيت العنكبوت ، إنَّما يعيشون في بيت مهدَّدٍ بالأخطار ، لا يدرون متىٰ يكبس ، ولا يدرون متىٰ تعمل فيه معاول الهدم ، وإن سلموا من كلِّ هذا ؛ فلا يدرون متىٰ يخرُّ عليها السقف من فوقهم ، فإنَّه بيت قائم على غير أساس متين ، وعلى غير دعائم قوية .

ألا إنَّ عهد ألف ليلة وليلة قد مضىٰ ، فلا يخدعنَّ أقوامٌ أنفسهم ، ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطَّمت ، إنَّ الملوكية مصباح ـ إن جاز هذا التعبير ـ قد نفد زيته ، واحترقت فتيلته ، فهو إلى انطفاءٍ عاجلٍ ، ولو لم تهبَّ عاصفة .

إنَّه لا محلَّ في الإسلام لأي نوعٍ من أنواع الأثرة ، إنَّه لا محلَّ فيه للأثرة الفردية ، أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية ، والأقطار الإسلامية ، ولا محلَّ فيه للأثرة المنظمة التي نراها في أوربة ، وأمريكا ، وفي روسيا ، فهي في أوربة أثرة حزبٍ من الأحزاب ، وفي أمريكا أثرة الرأسماليين ، وفي روسيا قلَّة آمنت بالشيوعية المتطرفة ، وفرضت نفسها على الكثرة ، وهي تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ، ووحشية ربما لا يوجد لها نظير في تاريخ السُّخرة الظالمة[1] .

إنَّ الأثرة بجميع أنواعها ستنتهي ، وإنَّ الإنسانية ستثور عليها ، وتنتقم منها انتقاماً شديداً ، إنَّه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمح ، العادل ، الوسط ، وإنْ طال أجل هذه «الأثرات» وأرخي لها العنان ، وتمادت في غيِّها ، وطغيانها مدَّةً من الزمان .

---

(١) اقرأ في ذلك كتاب: Forced Labour in Russia لمؤلفه: Professor Ernest Tallgren.

إنَّ الأثرة ـ فردية كانت ، أو عائلية ، أو حزبية ، أو طبقية ـ غير طبيعية في حياة الأمَّة ، وإنَّها تتخلَّص منها في أوَّل فرصةٍ ، إنَّه لا محلَّ لها في الإسلام ، ولا محلَّ لها في مجتمعٍ واعٍ بلغ الرشد ، ولا أمل في استمرارها ، فخيرٌ للمسلمين ، وخيرٌ للعربِ ، وخيرٌ لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلِّصوا أنفسهم منها ، ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق ، فيغرقوا معها .

*** إيجاد الوعي في الأمة :**

إنَّ أخوف ما يخاف على أمة ، ويعرِّضها لكلِّ خطرٍ ، ويجعلها فريسةً للمنافقين ، ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة ، وافتتانها بكلِّ دعوةٍ ، واندفاعها إلى كلِّ موجةٍ ، وخضوعها لكلِّ متسلط ، وسكونها على كلِّ فظيعة ، وتحمُّلها لكلِّ ضيمٍ ، وألا تعقل الأمور ، ولا تضعها في مواضعها ، ولا تميِّز بين الصديق والعدو ، وبين الناصح والغاش ، وأن تلدغ من حجر مرَّةً بعد مرَّةٍ ، ولا تنصحها الحوادث ، ولا تروِّعها التجارب ، ولا تنتفع بالكوارث ، ولا تزال تولِّي قيادها من جرَّبت عليه الغشَّ ، والخديعة ، والخيانة ، والأثرة ، والأنانية ، ولا تزال تضع ثقتها فيه ، وتمكِّنه من نفسها ، وأموالها ، وأعراضها ، ومفاتيح ملكها ، وتنسىٰ سريعاً ما لاقت على يده الخسائر والنكبات ، فيجترىء بذلك السياسيون المحترفون ، والقادة الخائنون ، ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ، ويتمادون في غيهم ، ويسترسلون في خياناتهم وعبثهم ثقةً ببلاهة الأمَّة ، وسذاجة الشعب ، وفقدان الوعي .

إنَّ الشعوب الإسلامية والبلاد العربية ـ مع الأسف ـ ضعيفةُ الوعي ، وإذا تحرجنا أن نقول : فاقدة الوعي ، فهي لا تعرف صديقها من عدوِّها ، ولا تزال تعاملهما معاملة سواء ، أو تعامل العدوَّ أحسن مما تعامل الصديق الناصح ، وقد يكون الصديق في تعبٍ وجهادٍ معها طول حياته ، بخلاف العدو ، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة ، ولا تعتبر بالحوادث والتجارب ، وهي ضعيفة الذاكرة ، سريعة النسيان ، تنسىٰ ماضي الزعماء

والقادة ، وتنسىٰ الحوادث القريبة والبعيدة ، وهي ضعيفةٌ في الوعي الديني ، والوعي الاجتماعي ، وأضعف في الوعي السياسي ، وذلك ما جرَّ عليها ويلاً عظيماً ، وشقاءً كبيراً ، وسلط عليها القيادة الزائفة ، وفضحها في كلِّ معركة.

إنَّ الأمم الأوربية ـ برغم إفلاسها في الروح ، والأخلاق ، وبرغم عيوبها الكثيرة التي بحثنا عنها في هذا الكتاب ـ قوية الوعي ، الوعي المدني والسياسي ، وقد بلغت سن الرشد في السياسة ، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها ، وتميِّز بين الناصح والخادع ، وبين المخلص والمنافق ، وبين الكفؤ والعاجز ، فلا تولي قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء ، ثم لا توليهم أمورها إلا على حذر ، فإذا رأت منهم عجزاً ، أو خيانةً ، أو رأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم؛ استغنت عنهم ، وأبدلت بهم رجالاً أقوىٰ منهم ، وأعظم كفاءةً ، وأجدر بالموقف ، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحكم ماضيهم الرائع ، وأعمالهم الجليلة ، وانتصارهم في حرب ، أو نجاحهم في قضية ، وبذلك أمنت السياسيين المحترفين ، والقيادة الضعيفة أو الخائنة ، وخوَّف ذلك الزعماء ورجال الحكم ، وكانوا حذرين ساهرين ، يخافون رقابة الأمة وعقابها ، وبطش الرأي العام.

فمن أعظم ما تخدم به هذه الأمة وتؤمن من المهازل والمآسي التي لا تكاد تنتهي هو إيجاد الوعي في طبقاتها ، ودهمائها ، وتربية الجماهير التربية العقلية ، والمدنية ، والسياسية ، ولا يخفىٰ أنَّ الوعي غير فشو التعليم ، وزوال الأمية ، وإن كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها ، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة : أنَّ الأمَّة التي يعوزها الوعي غير جديرة بالثقة ، ولا تبعث حالتها على الارتياح ، وإن أطرت الزعامة والزعماء ، وقدستهم؛ فإنها ـ ما دامت ضعيفة الوعي ـ عرضةٌ لكلِّ دعاية ، وتهريج ، وسخرية ، كريشةٍ في فلاة تلعب بها الرياح ، ولا تستقرُّ في مكان.

*** استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها :**

وكذلك لا بدَّ للعالم العربي ـ كالعالم الإسلامي ـ من الاستقلال في

تجارته ، وماليّتـه ، وصناعته ، وتعليمه ، لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه ، وتنسجه يده ، وتستغني عن الغرب في جميع شؤون حياتها ، وفي كلِّ ما تحتاج إليه من كسوة وطعام ، وبضائع ، ومصنوعات ، وأسلحة ، وجهاز حربي ، وآلات ، وماكينات ، وأدويةٍ ، فلا تكون كلًّا على الغرب ، وعيالاً عليه في معيشتها ، ومتطفلةً على مائدته.

إنَّ العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الغرب ـ إذا احتاج إلى ذلك ، ودعت إليه الظروف ـ وهو مدين له في ماله ، عيالٌ عليه في لباسه وبضائعه، لا يجد قلماً يوقع به على ميثاق مع الغرب إلا القلم الذي صنع في الغرب ، ولا يجد ما يقاتل به الغرب إلا الرصاص الذي أفرغ من الغرب. إنَّ عاراً على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها ، وأن يجري ماء الحياة في عروقها وشرايينها إلى أجسام غيرها ، وأن يدرِّب جيوشها وكلاءُ الغرب وضباطه ، ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله ، فلا بدَّ للعالم العربي أن يقوم هو نفسه بحاجاته: تنظيم التجارة والمالية ، وحركة التوريد والتصدير والصناعة الوطنية، وتدرب الجيش، وصنع الآلات والماكينات ، وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة في خبرةٍ ومهارةٍ فنيَّـةٍ ، وأمانةٍ ، ونصيحةٍ.

*** تقدم مصر في ميدان التجارة والصناعة والعلم:**

ولا بدَّ هنا من الاعتراف بأنَّ مصر قد أثبتت كفاءتها ، واستعدادها الكبير في ميدان العلم والصناعة ، وتربية الرجال ، ونشر الثقافة ، ونقل العلوم العصرية إلى اللغة العربية ، وبواسطتها إلى الأمة العربية ، وعنايتها بالصناعة الوطنية ، وتنظيم شؤون دولتها ، وماليتها على أساس العلم العصري ، أما فضلها على اللغة العربية وإحياؤها للكتب العربية ، وتقدُّم الصحافة ، والطباعة ، وحركة النشر فيها؛ فمن المآثر والمفاخر التي سيسجلها التاريخ ، ويردِّد صداها المستقبل ، ويدين بفضلها العرب جميعاً.

* رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي :

والعالم العربي بمواهبه ، وخصائصه ، وحسن موقعه الجغرافي ، وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلَّد زعامة العالم الإسلامي ، ويزاحم أوربة بعد الاستعداد الكامل ، وينتصر عليها بإيمانه ، وقوة رسالته ، ونصر من الله ، ويحول العالم من الشرِّ إلى الخير ، ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام.

* إلى قمة القبلة العالمية :

ما أعظم التطور الذي حدث في تاريخ العرب على إثر بعثة محمد ﷺ ، ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج في لغة صريحةٍ بليغةٍ ، وفي أسلوب مبينٍ مشرقٍ[1] وما أعظم النعمة التي أسبغها الله على العرب. نقلهم من جزيرتهم التي يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذي يقودونه بناصيته ، ومن الحياة القبلية المحدودة التي ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التي يشرفون عليها ، ويوجهونها ، وأصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذي فاجأ العرب ، وفاجأ العالم يقولون بكلِّ وضوحٍ وشجاعةٍ لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة ، وأركان دولته : «الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا أولاً إلى سعتها ، ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخراً ، وهل أضيق من الحياة القبلية ، والجنسية ، وأوسع من الحياة الإنسانية الآفاق؟ وهل أضيق من الحياة التي لا يفكِّر فيها إلا في المادة الزائلة ، والحياة الفانية ، ولا يُجاهَد إلا في سبيلها ، من الحياة الإيمانية الروحانية التي لا نهاية لها ، ولا تحديد. !؟

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب ، ومن ضيق الحياة فيها ، ومن ضيق

---

(١) تضم سورة الإسراء وقصة المعراج إعلانات بأن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده.

التفكير في مسائلها، ومصالحها، ومن ضيق التناحر على سيادتها، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل، وملكها الضئيل، وعيشها الذليل إلى عالمٍ جديدٍ من السيادة الروحية، والخلقية، والعلمية، والسياسية، ليس الدانوب الفائض، والنيل السعيد، والفرات العذب، والسند الطويل إلا سواقي حقيرة، وترعاً صغيرة فيه، وليست جبال الألب، والبرانس، وعقاب لبنان، وقمم همالايا إلا تلالاً متواضعةً، وسدوداً صغيرة، وليست البلاد الواسعة كالهند، والصين، وتركستان إلا أحياءً ضيقةً، وحاراتٍ صغيرةً، ونقطاً مغمورة في هذا العالم، وليست هذه الأرض كلُّها إذا نظر إليها من ارتقىٰ إلى قمة هذه السيادة ـ إلا خريطةً صغيرةً ملوّنةً يراها الطائر المحلِّق في السماء، وليست الأمم الكبيرة ـ مع ثقافتها، وحضاراتها، وآدابها ـ إلا أسراً صغيرة في أمَّةٍ كبيرة.

لقد قام العالم الكبير على أساس العقيدة الواحدة، والإيمان العميق، والصلة الروحية القوية، وكان أوسع عالم عرفه التاريخ، وكانت الشعوب التي تكوِّن هذا العالم أقوىٰ أسرة عرفها التاريخ، تنصهر فيها الثقافات المختلفة، والعبقريات المختلفة، فتكوِّن منها ثقافةً واحدةً هي الثقافة الإسلامية، التي لم تزل تظهر في نوابغ الإسلام الذين لا يحصيهم عددٌ، وفي المآثر الإسلامية ـ بين علميةٍ وعمليةٍ ـ التي لا يستقصيها التاريخ.

لقد كانت ـ ولا تزال ـ قيادة هذا العالم بجدارةٍ واستحقاقٍ أشرف قيادة، وأعظمها، وأقواها في تاريخ الزعامة والقيادة، وقد أكرم الله بها العرب لمّا أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية، وتفانوا في سبيلها، فأحبَّهم الناس في العالم حباً لم يُعرف له نظير، وقلَّدوهم في كلِّ شيءٍ تقليداً لم يُعرف له نظير، وخضعت للغتهم اللغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات، فكانت لغتُهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه، وهي اللغة المقدسة الحبيبة؛ التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشؤوا عليها، ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم، وأحبَّ مؤلفاتهم، ويتقنونها كأبنائها، وأحسن، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع

لهم المثقفون في العالم العربي ، ويقرُّ بفضلهم ، وإمامتهم أدباء العرب ، ونقَّادهم.

وكانت حضارتُهم هي الحضارة المثلىٰ التي يتمجَّد الناس ويتظرفون بتقليدها ، ويحثُّ علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرىٰ ، ويطلقون على كلِّ ما يخالفها من الحضارات: اسم «الجاهلية» و«العجمية» وينهون عن اتخاذ شعائرها ، ومظاهرها.

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدَّةً طويلةً والناس لا يفكِّرون في ثورة عليها ، وفي التخلُّص منها ، كما هي عادة المفتوحين ، والأمم المغلوبة على أمرها في كلِّ عهد ، لأنَّ صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفاتح ، أو المحكوم بالحاكم ، أو الرقيق بالسيِّد القاهر ، إنما هي صلة المتدين بالمتدين ، وصلة المؤمن بالمؤمن ، وعلىٰ الأكثر إنَّما هي صلة التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحق ، والإيمان بالدَّعوة ، والتفاني في سبيلها ، فلا محلَّ للثورة ، ولا محلَّ للتذمُّر ، ولا محلَّ لنكران الجميل ، إنما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل ، وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء ، وأن يقولوا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وهكذا كان ، فقد ظلَّت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية ، والداعي إلى دار السلام ، والقائد إلى الجنة ، والمعلم للحضارة ، والأستاذ في الأدب.

هذه هي القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية ، وهي القيادة التي يجب أن يحرص عليها العرب أشدَّ الحرص ، ويعضُّوا عليها بالنواجذ ، ويسعوا إليها بكلِّ ما أوتوا من مواهب ، ويتواصىٰ بها الآباء والأبناء ، ولا يجوز لهم ـ في شريعة العقل والدين والغيرة ـ أن يتخلَّوا عنها في زمنٍ من الأزمان ، ففيها عوضٌ عن كلِّ قيادةٍ مع زيادة ، وليس في غيرها عوضٌ عنها وكفاية ، وهي القيادة التي تشتمل جميع أنواع القيادة والسيادة ، وهي

تسيطر علىٰ القلوب، والأرواح أكثر من سيطرتها على الأجسام ، والأشباح .

إنَّ الطريق إلى هذه القيادة ممهدةٌ ميسورةٌ للعرب ، وهي الطريق التي جربوها في عهدهم الأول «الإخلاص للدعوة الإسلامية ، واحتضانها ، وتبنِّيها ، والتفاني في سبيلها ، وتفضيل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة» .

وبذلك ـ من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوئها ـ تخضع لهم الأمم الإسلامية في أنحاء العالم ، وتتهالك على حبِّهم ، وإجلالهم ، وتقليدهم ، وبذلك تنفتح لهم أبواب جديدة ، وميادين جديدة في مشارق الأرض ومغاربها ، الميادين التي استعصت على غزاة الغرب ومستعمريه ، وثارت عليها ، وتدخل أممٌ جديدةٌ في الإسلام ، وأممٌ فتية في مواهبها ، وقواها ، وذخائرها ، أممٌ تستطيع أن تعارض أوربة في مدنيتها ، وعلومها إذا وجدت إيماناً جديداً ، وديناً جديداً ، وروحاً جديداً ، ورسالةً جديدة .

إلىٰ متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبَّارة التي فتحتم بها العالم القديم في ميادين ضيقة محدودة؟! وإلى متىٰ ينحصر هذا السيل العرم ـ الذي جرف بالأمس المدنيات والحكومات ـ في حدود هذا الوادي الضيق. تصطرع أمواجه ، وتلتهم بعضها بعضاً؟ إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته ، واجتباكم لهدايته ، وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد في تاريخ أمتكم ، وفي تاريخ العالم جميعاً ، وفي مصيركم ومصير العالم جميعاً ، فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد ، وتفانوا في سبيلها ، وجاهدوا فيها ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨].

* * *

الفتح للعرب المسلمين(١)

لا شكَّ أنَّ اليهودية العالمية قد نجحت نجاحاً فوق الحساب في تحقيق مراميها وأهدافها الكثيرة؛ التي ظلَّت آلافاً من السنين تحلم بها ، وفي تطبيق مخططاتها الكثيرة؛ التي كانت تعتبر ضرباً من غرائب الهوس وطرائف الجنون في سهولةٍ ويسرٍ ، لم يكن يتخيَّلهما أحد ، لا العرب ، ولا اليهود أنفسهم.

فقامت دولة «إسرائيل» في قلب المنطقة العربية الإسلامية المقدسة ، وبقيت جاثمة على صدر العرب والمسلمين ، واستطاعت بنفوذ اليهود العالمي ألا تحتفظ بكيانها فحسب ، بل لم يزدها الزمان إلا قوة واستحكاماً ، ثم استطاعت أن تنتصر على أعظم معسكر عربي وأضخمه عدَّةً وعتاداً ، وأن تحطم قوته الجوية ، وأكثر خطراً من ذلك أنها أضعفت قوة إرادة الشعب ، وروح مقاومته في بضع ساعات في الخامس من حزيران ١٩٦٧ م ، واستولت على القدس ، وعلى الضفة الغربية ، وعلى شبه جزيرة سيناء ، وأصبحت قناة السويس ، وكثيرٌ من مدن مصر الساحلية مهددة معرضة للخطر الإسرائيلي ، وتوغَّلت في الأراضي السورية ، واستولت على عدد من المواطن الاستراتيجية المهمَّة ، واستطاعت أن تضرب عدَّة مطارات عربية في جراءة ووقاحة ، وهي الآن تحلم بالاستيلاء

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن ، المجلد الثالث عشر ، عام ١٩٦٩ م.

على هذه المنطقة العربية كلِّها ، وتتهدَّد الأماكن المقدسة في قلب الجزيرة ، ويتحدَّث بعض زعمائها باسترداد ما فقده آباؤهم من حصون ومستعمرات يهودية في الجزيرة العربية ، وجلوا عنها في المدِّ الإسلامي الأول ، بل يمنِّي اليهود أنفسهم بأن يصبحوا يوماً من الأيام السطوة العالمية التي تملي أوامرها ، وتفرض إرادتها على الرؤساء والوزراء ، والقادة ، والزعماء في العالم كله ، وتحقق الحلم البعيد الذي رآه الربيُّون في التلمود ، وحكماء صهيون في بروتوكولاتهم.

فهل يدوم هذا الوضع؟ وهل تحقق الصهيونية ما بقي من أحلامها ومخططاتها؟ وهل يُترك العرب والمسلمون تحت رحمة هؤلاء الطامعين ، وهل يفسح لهم المجال ، ويرخى لهم الحبل ، حتى يستولوا على العالم كله؟ ويحققوا أغراضهم وما يدينون به من فلسفات ، وأفكار ، ونظريات؟ وهل يمنحون القيادة للنوع البشري ، وتتاح لهم الفرصة في توجيهه كما أتيحت لرسالات ، وفلسفات ، أو قوى ، وطاقات ، أو مدنيات ، وحضارات في الزمن السابق؟

إننا لا نستطيع أن نجيب عن ذلك جواباً حاسماً حتى نقف وقفةً قصيرةً أمام هذا الكون الفسيح البديع ، وما عرفنا عن خالقه ، ومبدعه ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وإرادته ، وسننه ، وقوانينه ، وأمام التاريخ البشري ، وما وصلت إلينا من تجاربه ، وحوادثه.

ولا نستطيع أن نحكم في ذلك بشيءٍ حتى نحكم على السلالة البشرية ، ومدى صلاحيتها ، والطبيعة البشرية ، ونصيب الخير والشرِّ فيها ، ونحكم على مستقبل الجيل البشري ، ومصير هذا العالم.

فإذا قرَّرنا أنَّ خالق هذا الكون ـ الحكيم العليم ـ لم يخلق هذا الكون وهذا الكوكب الذي نسكنه إلا للفساد والدمار ، والفوضى والانحلال ، والظلم والقسوة ، والوحشية والهمجية ، والمؤامرات والدسائس ، ولم يهتم به هذا الاهتمام ـ الذي يتجلى في جميع مجالاته من إبداع وإتقان ، وحسن وجمال ، وترتيب وتنسيق ، ويتجلى في إرسال الرسل ، وإنزال

الكتب حيناً بعد حين ، وإلهام المصلحين ، ونصر الصالحين الصادقين ، وإدالة الخير من الشر ، وتغليب الصلاح على الفساد جيلاً بعد جيل - إلا ليسيطر عليه عنصرٌ ينتمي إلى بعض الأنبياء في أقدم العصور ، وتجري في عروقه قطراتٌ من دمهم ، لا ترى بأدقِّ مكبرة بيولوجية ، ولا تحسب بأكبر مهارةٍ رياضية ، ولتهيمن عليه وعلى جميع طاقاته ، وذخائره وثرواته سلالةٌ بشريةٌ واحدةٌ ، هي «شعب الله المختار» والأسرة الإلهية المقدَّسة(١).

وإذا قرّرنا أنَّ هذه السلالة البشرية الكريمة ، هي الخلية البشرية الوحيدة ، التي خصَّها الله بجميع الطاقات ، وبجميع المواهب ، وقد ارتكزت فيها كلُّ صلاحية ، وكلُّ عبقرية ، وكلُّ إبداع ، أمَّا الخلايا البشرية الأخرى ، التي يتكوَّن منها النسل الإنساني الذي يملأ العالم ، فهي حثالةٌ كحثالة الشعير ، وبُرايةٌ كبُراية الأقلام ، مجردةٌ عن كل جدارة وصلاحية ، وقدرةٍ على الإبداع والإنتاج ، وعن جميع المواهب والمنح .

فالعنصر اليهوديُّ له وحده الحقُّ في السيادة والحكم على النوع البشري ، أما سائر الناس ، فيجب أن يساقوا كما تساق قطعان البهائم الحقيرة ، وكلُّ من عدا(٢) هؤلاء الأبناء المدلَّلين ، والسعداء الموهوبين ، فَقِطَعُ شطرنج يلعب بها الدهاة اليهود الأكرمون في قدرةٍ ومهارةٍ ، ويضربون بعضها ببعض ، ويغلِّبون بعضها على بعض ، ويهزمون بعضها أمام بعض ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً.

وإذا قرّرنا أنَّ الطبيعة البشرية ، هي الطبيعة الشريرة ، التي تفضل التدمير على البناء ، والإفساد على الإصلاح ، وهي متشائمةٌ دائماً ، حقودٌ

---

(١) وهو ما يحكيه القرآن من زعمهم وقولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه» (سورة المائدة: ١٨) وأسفار العهد والتلمود مملوءة بهذه المزاعم والصفات والنعوت لا يحتملها هذا المقال الصغير.

(٢) يسميهم اليهود الأميين ، ويعبر عنها اليهود بكلمة جوييم (Goyem) وبكلمة (Gentiles) ويراد بها غير اليهود ، ومعناها عندهم وثنيون وكفرة. راجع معجم أكسفورد (الإنكليزي).

ناقمةٌ على العالم أجمع ، ساخطة على الماضي والحاضر ، ثائرةٌ موتورةٌ تحمل الأحقاد القديمة والجديدة ، وتنظر إلى كلِّ قضية وحادثة بالمنظار الأسود ، ولا ترى إلا الجانب الضعيف فيما صنع الصانعون ، وبنى البناؤون ، وخلف المخلفون ، متذمرةٌ تضيق ذرعاً بكلِّ شيءٍ ، تحتقر غيرها ، وهي في الحقيقة مصابة «بمركب النقص» لا تعرف للسلالة البشرية كرامةً ، ولا للإنسان شرفاً ، ولا تعرف غايةً أسمى من المادة ، وتحقيق الرغبات الخسيسة ، تقسو عند الانتصار ، وتجبن عند الهزيمة ، وتستخدم جميع الوسائل للوصول إلى الغاية ، ولا تتورَّع عن أخسِّ الأعمال ، وأفحش الظلم ، وأحطِّ الأخلاق ، وأوقح نفاق.

وإذا قررنا: أنَّ العامل البنَّاء الوحيد القوي المؤثر في بناء المدنيات ، وصنع التاريخ ، وإسعاد البشرية ، وسياسة الشعوب ، والأمم هو الدَّهاء الخبيث ، والمهارة الإجرامية ، واللباقة الهادمة المدمرة ، والإفساد بين الناس ، والقضاء على الضمائر ، وفكُّ نظام الأسرة ، وإشاعة الرذيلة والانحلال ، وإحداث الأزمات بعد الأزمات ، وأنَّ الوسيلة الأقوى التي سيطرت على مصائر الأمم وأعظم حوادث العالم ، وغيرت مجرى التاريخ؛ هي المؤامرات الخفية ، وأنَّ أكبر قوة يعتمد عليها؛ هي الغدر ، ونكران الجميل ، واللؤم والخسَّة ، وأنَّ الخلق المحبب إلى الله الضامن للغلبة والانتصار ، والعائد على البشرية بالسعادة والهناء؛ هو الكبرياء والأثرة[١].

وإذا قرَّرنا: أنَّ مصير الإنسانية حالكٌ مظلم ، لا أمل في سعادةٍ ، وأمنٍ ، وسلامٍ ، ولا في إخاءٍ ، ووئام ، وأنَّه لا يزال ينتقل من حربٍ إلى حربٍ ، ومن نكبةٍ إلى نكبةٍ ، ومن شؤمٍ إلى شؤمٍ ، ومن ثورةٍ إلى ثورةٍ ، حتى ينتهي إلى جهنم التي سعَّرتها الأغراضُ المتطاحنة ، والأحقاد المتواصلة.

---

(١) ولذلك يصفهم القرآن «بالمغضوب عليهم» وجاء هذا الوصف في سورة الفاتحة التي تتكرر ، وتجب قراءتها في كل صلاة ، ولا يتذوق هذه الكلمة البليغة ، ولا يعرف مدى انطباقها على اليهود إلا من عرف سيرتهم ، والدور الذي لعبوه في تاريخ الإنسانية.

وإذا قرّرنا: أنّه ليس هنالك قضيةُ رسالةٍ وهداية ، وقضية عقائد ومبادىء، وقضية ضمائر وقلوب ، وقضية أخلاق وفضائل ، وقضية دين مختار ، وشريعة مصطفاة ، ومنهج مفضلٍ للحياة ، إنّما هي قضية سلالة ونسب ، ودم وعرق ، وقضية ثارات وترات ، وأحقاد وضغائن ، واسترداد لمجدٍ ضائع ، وأرضٍ مسلوبة ، أو محتلة ، وإشباع لرغبة الطموح ، أو غريزة الاستيلاء ، وطبيعة الجشع .

إذا قررنا ذلك كلّه ، فلا شكّ أنَّ اليهود هم المرشحون ، المهيؤون للسيادة والغلبة ، وأنَّ هذا الوضع سيظلُّ ويدوم ، وأنّه لا يعوق عن توسعهم في الحدود ، والامتلاك والاحتلال ، وعن تحقيق مخططاتهم شيء ، فإنّها هي الصورة الحقيقية التي رأيناها فيما عندنا من أسفار العهد القديم ، وفي صحف التلمود ، وفي بروتوكولات حكماء صهيون ، وفيما وصل إلينا من خطب زعمائهم ، ومحاضر جلساتهم السرِّية ، وفيما تحقَّق من أعمالهم وإجراءاتهم منذ استولوا على القدس ، وعلى المدن الإسلامية العربية .

وهي صورة الحقد ، والاحتقار ، والنقمة ، والسخط على البشرية ، وتقديس العنصر اليهودي ، والدَّم الإسرائيلي إلى حدِّ التأليه ، وتجريد السلالة البشرية الباقية في جميع أدوار التاريخ ، وفي جميع أنحاء العالم عن كلِّ جدارة وصلاحية ، والتصميم على الاستيلاء على العالم كله ، لمصلحة اليهود وحدهم ، والبغضاء المتأصلة في النفوس ، والضراوة بالشرِّ والفساد ، كطبيعة أصيلة ، والعنف والعناد ، كأخلاقٍ قومية ، وعاداتٍ موروثة ، وهي الصورة التي تقترن بتاريخهم اقتران المزاج بالإنسان ، وترافقهم مرافقة الظل ، فالمؤامرة قوامُ تاريخهم ، وعماد حياتهم ، والقطب الذي يدور حوله نشاطُهم ، وذكاؤهم ، وهم الرأس المفكر ، والعقل المدبر ، والأصبع المحركة في كلِّ ثورة ، وفي كلِّ مؤامرة[1] ، وفي

(١) وضع بنيامين دزرائيلي ، واللورد بيكونز فيلد ، ورئيس وزراء بريطانيا العظمى اليهودي ، الملاحظة التالية على لسان «سيدونيا» بطله اليهودي ، وهي تصور اليهودي العالمي التصوير الحقيقي : =

كلِّ مذهب هدَّام ، وفي كلِّ فلسفةٍ مدمرة ، وفي كلِّ قلق يسود ، وفي كلِّ أزمة تحدث ـ اقتصادية كانت أو سياسية ، واجتماعية كانت أو خلقية ـ ولا أبلغ ولا أدلَّ من كلمة نابغتهم الدكتور أوسكار ليفي في وصف شعبه «نحن اليهود ، لسنا إلا سادة العالم ، ومفسديه ، ومحركي الفتن فيه ، وجلاديه».

وليست لليهود ـ ولم تكن في دور من أدوار حياتهم ـ أي رسالة عالمية ، وطبيعة الرسالة العالمية لا تتفق مع تقديس العنصر والدم ، والغلو في تعظيم سلالةٍ واحدة ، واعتقاد كلِّ نزاهة ، وجدارة ، وصلاحية للتقدُّم الروحي ، والسموِّ النفسي ، والقرب من الله تعالى في نسلٍ واحدٍ ، وأرومةٍ واحدة ، وعدم الاقتناع بعقيدة المساواة البشرية ، ووحدة الأصل والجنس في بني آدم ، وتكافئهم في فرص الرقي ، والتقدم ، والطهارة ، والنزاهة ، وبلوغ أعلى درجات الإيمان ، والإحسان ، والرحمة ، والرضوان ، فطبيعة تقديس العنصر والدم ، وحصر النجابة والنبوغ ، والعبقرية والعظمة ، والاختصاص بخالق هذا الكون تعارض كلَّ المعارضة العطف على النسل الإنساني ، والحماسة في نقل أفضل ما عندها من رسالةٍ وسعادةٍ إلى باقي البشر ، وسائر بني آدم ، وإشراكهم فيما عندها من علمٍ ثابت ، وعملٍ صالح ، وأخلاقٍ كريمة ، بل إنَّ هذه الطبيعة تجنح بطبيعة الحال إلى تضييق دائرة الهداية ، والدعوة ، وتحديدها في عنصرٍ واحد ، وفي سلالةٍ واحدة ، لذلك كان من الطبيعي أنَّ الديانة اليهودية لم تكن في زمن من الأزمان دعوةً عامةً للخَلْق ، ولم يكلف اليهود ـ في ضوء من نصوص كتبهم المقدسة ـ

= «ليس في وسعك أن تلاحظ حركة فكرية عظيمة في أوربة لا يكون لليهود فيها إسهامٌ ضخمٌ جداً ، فلقد كان اليسوعيون الأوائل من اليهود ، والدبلوماسية الروسية الغامضة التي تزعج الدول الأوربية الغربية يقوم على تنظيمها وتنفيذها اليهود ، والثورة العظيمة التي يجري إعدادها في ألمانيا الآن ، والتي ستكون بمثابة حركة إصلاح ديني ثانية ، ولعلَّها أعظم من الحركة الأولى والتي لا يعرف عنها إلا القليل الآن في إنكلترا ، تتطور الآن ، وتنمو نمواً كلياً تحت إشراف اليهود» (اليهودي العالمي لـ «هنري فورد» ص ٦٦).

بتبليغ الرسالة إلى الأمم جميعاً[١]، بل وردت نصوص تمنع عن ذلك، وتحصر نشاطهم الدعوي في نطاقهم العنصري المحدود، وكان من الطبيعي والمعقول جداً أن يميزوا دائماً بين بني إسرائيل، وبين الشعوب، والقبائل الأخرى، وأن يضعوا للخير والشرِّ، والبر والإثم مقاييس مختلفة تختلف باختلاف السلالات والشعوب، وألا يتحرَّجوا من أكبر إجرام، أو عدوان مع شعب آخر، وذلك ما أخبر به القرآن عنهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] ومن الطبيعي والمعقول جداً أن تتعرض جميع الشعوب والسلالات التي يحكمها اليهود لكلِّ اضطهادٍ وعسفٍ، وبخسِ نصيبٍ، وتطفيف كيلٍ؛ لأنهم لا ينظرون إليها كأسرةٍ إنسانيةٍ زميلةٍ، أو سلالةٍ بشريَّةٍ شريفة، وإنَّما هي قطيع من الغنم، أو مجموعةٍ من عجماوات، أو جمادات، خلقها الخالق لتكون آلةً صماء في يد أبنائه المدلَّلين[٢].

إذاً فالفطرة السليمة التي أودعها الله في غالب البشر، وما تحدثت الأديان والشرائع، والكتب المنزلة عن عدل الله ورحمته وحكمته وإرادته من صنع هذا الكون ـ الفسيح، البديع، المنظم، المنسق ـ وخلقه للجيل البشري، واستخلافه، وتكريمه، وما أودع في الأشياء من طبائع، وما وضع لنهضة الأمم، وانحطاطها، وقيام الحكومات وسقوطها،

---

(١) تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة Marcus Margaret اليهودية سابقاً في كتابها «الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً» باللغة الإنجليزية: «ليس أنَّ اليهود لا يبلِّغون دينهم إلى غيرهم عملياً، بل إنَّهم لا يرحِّبون بالدخول في ديانتهم، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عدد كبير، كان ذلك مرة في اليمن، في زمن سبق البعثة المحمدية ببضعة قرون، ومرَّة ثانية حين اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التاتارية الأصل التي عاشت مدَّةً قصيرة في روسيا Islam verses Ahl - al - Kitab Past and Present - (22 - 23).

(٢) وهي نفس النظرة التي ينظر بها البراهمة والفاتحون من الآريين في الهند إلى سكان هذه البلاد القدماء، وعليه تأسس نظام الطبقات في الديانة البرهمية وفي المجتمع الهندي، ولا يزال هو النظام المتبع رغم جهود المصلحين الثائرين منهم.

وازدهار الديانات ، وذبولها من سنن وقوانين ، وما تحقق عند جميع الأديان ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة من أنَّه ليس ربَّ سلالة ونسل ، وربَّ أسرة وبيت ، وربَّ بلد وإقليم ، بل هو إله الجميع ، وربُّ العالمين ، وربُّ المشارق والمغارب ، وما ثبت في التاريخ الإنساني من أنَّ الشعوب والأمم إنما تحيى بالرسالات التي تحتضنها ، والغايات التي تدعو إليها ، والفضائل التي تكافح في سبيلها ، وما تحمل من إفادة ونافعية ، وغناء للجميع ، وما نبَّه عليه القرآن الحكيم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

إنَّ كلَّ ذلك يحتِّم: أنَّ اليهود الذين يتَحدَّون هذه الحقائق ، وهذه الطبائع ، وهذه السنن والقوانين ، والغايات الكريمة التي خلق الله لها هذا الكون ، وأوجد لها هذا الجيل البشري ، وما يحبه من الخير والصلاح ، ومن العمران والبقاء ، لا يمتَّعون بفترة طويلة من السيادة ، والسيطرة ، والغلبة ، والقوة ، ولا يمكَّنون من تحقيق جميع آمالهم ، وأحلامهم ، ومشاريعهم ، ومخططاتهم الهادمة المدمرة ، الأنانية السلبية ، ولو أيدتهم ألف حكومات ، وكانت من ورائهم القوى الكبرى كلها في العالم ، ولو توفرت عندهم كلُّ الوسائل الجهنمية التي اكتشفها المكتشفون في هذا العصر ، والتي برع فيها اليهود براعةً ممتازة(١) ، وسينتصر أهل الحق ،

---

(١) أخبرت الأحاديث النبوية التي كادت تبلغ حد التواتر بأنَّ اليهود يبلغون في زمن من الأزمان الذروة في القوة ، والسيطرة في فلسطين ، وينهض فيهم الدَّجال الأكبر الذي يتزعَّم هذه القوة ، ويتصرَّف في الأشياء ، وأنهم سيجتمعون في مكانٍ واحدٍ ، ثم يتسلط عليهم المسلمون ، ويضعون فيهم السيف ، ويعاديهم كل شيءٍ حتى ينمَّ عنهم الحجر ، وبقي علماء السنة أكثر من ثلاثة عشر قرناً يتدارسون هذه الأحاديث في كتب الفتن والملاحم ، وأبواب أشراط الساعة في كتب الحديث ، هي من أبعد الأشياء عن الخيال في عالم الأسباب والواقع ، فاليهود ـ إلى هذه المدة ـ أذلاء مشتتون في الآفاق ، حتى بدأت هذه النبوة تتحقق في منتصف هذا القرن المسيحي الحاضر ، فنشأ وطن اليهود ، وقامت إسرائيل ـ وحدث ما حدث ـ وستتحقق أواخر هذه النبوة كما تحققت أوائلها ، وهي من المعجزات النبوية التي تجلَّت بعضها ، وتبينت كالصبح ، وسيتجلى الباقي ، ولله الأمر من قبل ، ومن بعد.

وحملة الرسالة العالمية الخالدة ، التي تعطف على الإنسانية كلِّها ، وتساوي بين الشعوب والأمم ، وتنتصر للحق أينما كان ، وتحارب الظلم أينما وجد ، يعيشون للإنسانية وبالإنسانية ، ولا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً.

وقد كان للدَّهاء ، والمكر ، والخديعة ، والذكاء الذي لا يقوم على احترام الإنسانية ، ولا يقف عند الحدود العقلية ، والخلقية ، والذي يتَّجه دائماً إلى الأنانية والسلبية انتصاراتٌ بهرت العقول والألباب ، وغشت على العيون والأبصار ، وشكَّكت في التاريخ البشري ، وكادت تفقد الثقة بقوة الحق وحسن العاقبة للصادقين المتقين ، وكانت لهذه القوة التخريبية الماكرة جولاتٌ وصولاتٌ في التاريخ حتى تحركت الجبال الراسيات ، واضطربت رجال الفلسفات وعلماء الديانات ، وقد صوَّر القرآن بإعجاز هذه الساعات الدقيقة العصيبة ، وما ينتاب العقول والقلوب في ذلك الوقت من حيرةٍ واضطرابٍ ، وشكٍّ وارتيابٍ ، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠] وقوله: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١١].

وقد عالج القرآن هذه النفسية الإنسانية التي تخضع دائماً للغلبة والقوة مهما كانت عارضةً مؤقتة ، ومهما كانت سخيفةً هازلةً ، فقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] ، وقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

وعالج كذلك النفسية الضعيفة التي تستسلم دائماً لدهاءٍ دقيق ، ومكرٍ محكم ، أو مؤامرةٍ ناجحة ، فذكر مراراً وتكراراً ، أنَّ مصيره إلى الانهيار والافتضاح ، والخيبة والإخفاق ، وأنَّه كنسج العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقرَّر أنَّ الخير لا ينتج من الشرِّ ، وما كان أساسه ضعيفاً متداعياً للسقوط ، ولم يكن

له أصل ثابت ولا جذور عميقة ـ في الأرض الكريمة أو الفطرة السليمة ـ يكون البناء الذي يقوم عليه مستعداً للانهيار في كلِّ لحظة ، فقال : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة : ١٠٩] ، وقال : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم : ٢٦] ، وقال على لسان نبي الله موسى مخاطباً لجماعة السَّحرة : ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس : ٨١] ، وقال يتحدث عن المكر والدهاء في مختلف الأزمنة والأمكنة كقانون عام خالد : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر : ٤٣].

وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر : ١٠] ، وأعلن حقيقةً عالميةً لا تختلف باختلاف الزمان والمكان والشعوب والأوطان ، ومظاهر الفوز والخسران ، والسعادة والحرمان ، فقال غير مبالٍ بما يعتقده البشر من نجاح الحكام والملوك ، والطامحين المغامرين في عصرهم : ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩] ، وقال : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١].

بالعكس من ذلك العرب رغم جميع العلل ، ومواضع الضعف ، والطوارىء التي تحدَّثنا عنها في مقالاتنا ، ومحاضراتنا السابقة في صراحةٍ ليست فوقها صراحة ما زالوا ، ولا يزالون أصحاب دعوةٍ إنسانيةٍ عامَّةٍ ورسالةٍ عالميةٍ آفاقية والدِّين الإسلامي الذي أكرمهم الله بالسبق فيه ، والدعوة إليه ، حقٌّ مشاع ، وثروةٌ مشتركةٌ لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد والأوطان ليس فيه احتكار مثل احتكار بني لاوي من اليهود ، أو البراهمة من الهنود ، لا يتميَّز فيها شعب عن شعب ، ولا نسلٌ عن نسلٍ ، ليس الاعتماد فيها على العرق والدم ، بل الاعتماد فيها على الحرص والشوق ، وحسن التلقي وزيادة التقدير ، والتفوق في الجهاد والاجتهاد ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ : أنه قال : «**لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء**

فارس»[1] وقد دان العرب في جميع عصورهم لكل من برز في العلوم الدينية، وتفوّق فيها، وأقروا لهم بالإمامة والزعامة فيها، وخلعوا عليهم من النعوت والألقاب ما لم يخلعوها على كثيرٍ ممن برع في هذه العلوم من العرب، فلقبوا الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري، صاحب الجامع الصحيح (م ٢٥٦ هـ) بأمير المؤمنين في الحديث، وقالوا عن كتابه: إنَّه أصحُّ كتاب بعد كتاب الله، ولقبوا الإمام أبا المعالي عبد الملك الجويني النيسابوري (م ٤٧٨ هـ) بإمام الحرمين، ولقبوا الإمام أبا حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (م ٥٠٥ هـ) بحجَّة الإسلام، وقد كان الموالي وأبناء العجم هم زعماء العلم ومراجع المسلمين في جميع عواصم المملكة الإسلامية الواسعة في آخر القرن الأول الهجري، قد انتهت إليهم رئاسة العلم والفتيا، والفقه والحديث، وهي قصةٌ معروفة في جميع كتب الطبقات، والسير، والتراجم، وتاريخ الحضارة الإسلامية، واطَّرد ذلك في العصور الإسلامية الذهبية التي ساد فيها العرب حتى قال نابغة العرب العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي (م ٨٠٨ هـ): «من الغريب الواقع أنَّ حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، مع أنَّ الملة عربيةٌ، وصاحب شريعتها عربيٌّ... فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، والفارسي من بعده، والزَّجاج من بعدهما: وكلُّهم عجم في أنسابهم، وكذا حملة الحديث، وعلماء أصول الفقه، وحملة علم الكلام، وأكثر المفسرين»[2].

والعرب ـ بفطرتهم التي فطرهم الله عليها ـ من أقرب الأمم والشعوب إلى قبول مبدأ المساواة الإنسانية، واحترام النوع البشري، وأنشطها في تطبيق هذا المبدأ، والعمل به، قد حملوه معهم في فتوحهم الواسعة، وزحفهم المبارك، الذي فتح للعالم آفاقاً جديدةً في العلم والمدنية،

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٩٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون: المطبعة البهية المصرية ص ٤٠١.

والفضيلة والتقوى ، حتى أحبَّتهم الشعوب المفتوحة وقد عُرفت في التجربة وبداهة العقل ببغض الفاتحين ، وغلا بعض الغلاة الوثنيين من مشركي السند والملتان في شبه القارة الهندية في القرن الأول الإسلامي ، فصنعت لمحمد بن القاسم الثقفي الفاتح العربي تماثيل ، أضافتها إلى تماثيلها القديمة حباً وإجلالاً ، وكانت المعاملة الرقيقة الغريبة التي عامل بها الخليفة ، عمر بن عبد العزيز أهل سمرقند المفتوحين سبباً لحبِّ الفاتحين ، وانتشار الإسلام بسرعةٍ غريبةٍ في هذه البلاد[1] بخلاف البلاد التي فتحها غير العرب قاطبةً في الإسلام ، واعتنقت الحضارة الإسلامية ، وتكلَّمت باللغة العربية ، وفضَّلت الفاتحين الأجانب ، وما حملوه معهم من أخلاق وعادات ، وشرائع وقوانين ، ولغات ولهجات على ما توارثتها من أحقابٍ طويلة ، وأجيالٍ متواصلة ، وتكوَّن منها هذا العالم العربي الذي نتحدث عنه ، ولا تزال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي قالها لأحد قادته الكبار ، يتردد صداها في الآذان ، والقلوب ، وفي صفحات التاريخ : «من متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» ؟! .

وقد كانوا في جاهليتهم وفي إسلامهم من أبعد الأمم بحكم الفطرة ، والنشأة ، والمثل العليا التي كانوا يدينون بها عن طبيعة المؤامرات ، والتكتم والسرية ، والدسيسة والنفاق ، فكانوا أعداءً جهاراً علانيةً ، وكانوا أصدقاء جهاراً وعلانيةً ، وكانوا إذا حاربوا حاربوا في الميدان ، وإذا صالحوا صالحوا عن إعلان ، دلَّ على ذلك شعرهم ، وأدبهم ، ووصاياهم ، وحكمهم ، وأمثالهم ، وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، ولم

---

(١) جاء في فتوح البلدان للبلاذري : ص ٤٢٨ .
«قال أبو عبيدة وغيره : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا إليه : أن قتيبة دخل مدينتهم ، وأسكنها المسلمين على غدرٍ ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقرُّوا المسلمين ، فأقاموا بين أظهرهم ، وكان ذلك بعد ما مضى على فتح سمرقند سبع سنوات .

يكن النفاق من طبيعتهم الأصيلة ، ولذلك يكاد المفسرون يتفقون على أنه لا نفاق في مكة ، لأنها بيئة عربيةٌ خالصة ، لا تشوبها شوائب اليهودية والعناصر الدخيلة ، وعلى أنَّ جميع الآيات التي جاء فيها ذكر النفاق والمنافقين مدنيَّةٌ[1] وقد استدلَّ لذلك بعض المفسرين والأصوليين بقوله تعالى في سورة البراءة: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [التوبة: ١٠١] ، فلا خطر على العالم ، وعلى الرقعة التي يحكمها العرب ، وعلى الشعوب والأمم التي يقودونها ، وعلى المدنيات والمؤسسات التي يوجهونها ، وعلى السياسة التي يلعبون فيها الدور الحاسم ، من مؤامرة سريَّةٍ ، ومن دسائس خفيَّةٍ ، ومن النفاق في الأخلاق ، ومن الإفساد بين الطوائف والطبقات ، ومن خلق المشاكل ، والأزمات لمصلحةٍ قوميَّةٍ ، وأنانيةٍ فرديةٍ ، أو جماعية ، إنما هي قيادةٌ واضحةٌ حاسمةٌ ، وسياسةٌ ظاهرها وباطنها سواء ، وحكمٌ يعدل مع القريب ، والبعيد ، والشرقي ، والغربي ، والعجمي ، والعربي.

أما هذه القومية المتطرفة ، والعصبية الجاهلية ، التي ابتليت بها بعض الجماعات العربية ، وتزعمتها بعض القيادات في العهد الأخير لأسباب ليس هذا محلُّ شرحها ، فهي طارئةٌ دخيلةٌ ، لا تنسجم مع الطبيعة العربية الإسلامية الأصيلة ، وهي تثور عليها في أول فرصةٍ ، وتعود إلى أصالتها القديمة ، وإلى إيمانها الذي امتزج بلحمها ودمها ، وتغلغل في أحشائها ، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] وبقول الرسول الأعظم ﷺ: « . . **الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربيٍّ على أعجمي إلا بالتقوى**»[2].

وإذا كان الإسلام رسالة الله الأخيرة الخالدة؛ التي تكفَّل الله ببقائها وخلودها ، وإذا كان القرآن هو الكتاب السماوي الأخير الخالد الذي ضمن

---

(١) سبق لصاحب هذا المقال مقال في هذا الموضوع نشرته صحيفة «الفتح» الغراء لصاحبها محب الدين الخطيب سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ م.
(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الله ببقائه وحفظه ، ولا بقاء للإسلام ولا للمسلمين (كأمّة ذات عقيدة ، وشخصية ، وقانون ، وشريعة ، ودعوة ، ورسالة) بغيره ، وكل ذلك مكفولٌ مضمونٌ ، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] كان بقاء العرب مضموناً مكفولاً كذلك ، فلا بقاء للقرآن بغير اللغة العربية ، ولا بقاء للغة العربية بغير أهلها فإنَّ كلَّ ذلك لا يقوم في الفضاء ، وليس من المعقول ولا من اللائق بحكمة الله تعالى أن يبقى هذا الكتاب الخالد العالمي لغزاً لا يفهمه أحد ، أو مختوماً لا يستطيع أحد أن يفضَّ هذا الختم ويستفيد به ، أو يبقى أثراً تاريخياً في المتاحف والمستودعات ، قد اندرست لغته كما اندرست الهيروغليفية ، أو الفينيقية ، أو الحيرية ، وتعالى الله عن أن يسمي ذلك حفظاً وصيانة ، وفضلاً وكرامةً ، ويمنَّ بها على هذه الأمة وعلى الإنسانية التي لا تزال تستمدُّ منه القوة والحيوية ، وتسير في ضوئه في كل عصر وجيل ، وليس من الحكمة أن يعيش العرب مستعبدين ، أذلاء صاغرين ، ويفقدون كلَّ حولٍ وطول ، وكلَّ وسيلةٍ لتوجيه البشرية وقيادة الإنسانية ، وتصبح هذه المنطقة التي أشرقت منها شمس الإسلام ، وانطلقت منها موجة المدِّ الإسلامي في الآفاق ، وارتبط بها تاريخ الديانات ، وفيها هذا البيت العتيق الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً ، ومراح الأرواح ، ومهوى الأفئدة ، ومدينة الرسول التي هي مهبط الوحي ، وظئر الإسلام ، ومصنع التاريخ ، فلا بقاء للإسلام والمسلمين ـ ولو قامت لهم ألف دولة ، وارتفع لهم ألف علم ـ ولا شرف لهم ولا كرامة ، ولا هدوء لهم ، ولا راحة؛ إذا ذلَّ العرب ، وفقدوا هذه المنطقة التي فيها مقدساتهم ، وهي معقل الإسلام ، ومصدره ومأرزه ، ولذلك جاء في بعض كلمات مأثورة: «إذا ذلَّ العرب ذلَّ الإسلام».

ولذلك كانت هذه الأوضاع غير الطبيعية غير صالحة للبقاء والاستمرار ، تعارضها الفطرة البشرية والعقل المستقيم ، والمنطق السليم ، وطبائع الأشياء ، والحقائق الراهنة ، والظروف المحيطة ، والنصوص الدينية ، والوعود الإلهية ، والتاريخ والجغرافية ، والسياسة

الحكيمة التي لم تفقد رشدها، ولم تجنَّ جنونها[1]، وإذا بقيت مدَّةً قصيرة، فهي مدَّةٌ طويلة بالنسبة إلى حكم الوضع، وطبيعة الأشياء، وبداهة العقل.

وبعد: فإن انتصار الصهيونية في هذه الفترة التي يمرُّ بها العالم العربي والإسلامي الآن، وتحقيق بعض أهدافها، ومخططاتها في الاستيلاء على هذه المنطقة العربية الإسلامية؛ لم يكن انتصار رسالةٍ على رسالةٍ، ولا انتصار أمَّة على أمَّةٍ، ولا انتصار دينٍ على دين، ولا انتصار حقٍّ على باطل، فإنَّ اليهود ليست لهم أيُّ رسالةٍ في هذا العصر، ولم تكن هنالك معركة بين اليهود والأمة الإسلامية، أو الشعوب العربية، فإنه لم يسمح لهذه الأمة، ولا لهذه الشعوب أن تخوض في هذه المعركة، وتبرز جدارتها وكرامتها، ولم يسمح للإسلام بالخوض في حرب حزيران ١٩٦٧ م بل عزل عن الميدان، وأقصي عن ساحة الحرب بتصميمٍ، وإرادةٍ. إنَّ جلَّ ما هنالك: أنَّه انتصار أقدر قيادة على أخيب قيادة، وقد كان من سعادة اليهود أن تهيأت لهم قيادة بعد آلاف من السنين، غسلت عنهم العار الذي رافقهم عبر القرون، وفي رحلتهم الطويلة، وصنعت لهم تاريخاً جديداً، وكان من نكبة المسلمين والعرب أن ابتلوا لأسبابٍ شرحناها في الفصول الأولى من كتابنا: «ما قبل النكبة وما بعدها» بقيادة جنت عليهم، وعلى تاريخهم الجناية الكبيرة، وورطتهم في مأزق لا متقدم فيه ولا متأخر.

ولكن قضية القيادة وأخطائها وجناياتها مهما طالت، فهي قضية سهلة يمكن أن تعالج، أما قضية الرسالات، وقضية جدارة الأمم وصلاحيتها للبقاء، واستحقاقها للنصر، فقضية عسيرةٌ معقدةٌ، فلا يسهل إبدال رسالةٍ برسالة، ولا يسهل نفخ روحٍ في جثةٍ هامدة، والأمة العربية الإسلامية لا تحتاج إلى رسالةٍ جديدة، ولا إلى دينٍ جديد، ولا إلى بعثٍ وإحياء،

---

(١) أما السياسة الخرقاء العمياء التي تتبعها أمريكا، وروسيا إزاء العرب، فهي سياسة تقليدية خالية من كلِّ ذكاءٍ وابتكار، وجراءةٍ خلقية، أو حياء وإنسانية، خاضعة للنفوذ اليهودي، ومؤسسة على «السكرتارية» الغبية، والأوراق، والملفات القديمة، غير مبنية على الحقائق، ومثل هذه السياسة والاتجاهات لا تنشأ إلا عندما يصيب الحكومات الهرم والشيخوخة، ويدقُّ أبوابها الزوال القريب.

فإنها هي الأمة الزاخرة بالحيوية والقوة، المستعدة للانقضاض في كلّ وقت، أما القيادات؛ فهي كأمواج نهر دافق جار، تأتي وتذهب، وتغدو وتروح، وترفع رأسها، وتثبت وجودها، وقد تغرق بعض السفن، وتحطم بعض القوارب، ولكنها تغيب في وجود النهر الخالد الكبير، وتتوارى في هذا الخضم المائج، والنهر ذلك النهر، لا يفقد اسمه، ولا وجوده، ولا شخصيته.

وقد شهد التاريخ الإسلامي أمواجاً من هذا النوع، ارتفعت حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم نامت في مهد هذا البحر اللجي، وفي أعماقه، فقامت حكومات، وطويت حكومات، وجاءت قيادات، وذهبت قيادات، والإسلام هو الإسلام، والأمَّة هي الأمَّة، والرسالة هي الرسالة، والكتاب هو الكتاب، والإيمان هو الإيمان.

وهكذا النكبات والكوارث، وحوادث التراجع والانتكاس تجارب طبيعية تمرُّ بها الأمم الحيَّة النامية، الدافقة بالحياة، ومحن تمحص بها، وتصهر لتبلغ النضج والاكتمال، وتتعود اليسر والعسر، والسراء والضراء، ولا تبطر عند الفتح، ولا تيأس عند الهزيمة: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] كالجسم الحي النامي، الذي لا يعتمد على حيويته وقوة مقاومته، حتى يمرَّ بمراحل مختلفة من الصحة والمرض، والقوة والضعف، واختلاف الأجواء والمناخات، وتنوُّع الفصول والطقوس، فيحتمل كلَّ ذلك، ويتمرن عليه، والعودة إلى الصحَّة مضمونة للجسم السليم القوي، والانتصار مكفول لصاحب الرسالة الفاضلة، المفيدة للبشرية، والصفات الكريمة العائدة بالخير على الجميع، وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤١].

ثلاثة دروس من الحوادث الأخيرة[1]

إخواني! إنَّ ممَّا أكرم الله به الإنسان من المواهب والطاقات هو انتفاعه بالتجارب التي تمرُّ في حياته ، هذه الثروة الكريمة التي أكرم الله بها الإنسان هي التي شقَّت الطريق إلى الإمام ، في مجال المدنية ، وفي مجال العلم ، وفي مجال الصناعة والاقتصاد ، وفي مجال التوقِّي والاحتياط ، وسلامة الروح ، والشرف ، والأعراض ، إنَّ الإنسان يتلقَّى دروساً من الحوادث العادية التي تمرُّ به ، أو يمرُّ بها كلَّ يوم ، وكلَّما كان الإنسان أكثر انتفاعاً بهذه الحوادث ، وأصدق استنتاجاً ، وأكثر تلقياً للدروس التي تنطوي في هذه الحوادث ، كان أقدر على أداء رسالته ، وعلى المحافظة على كل ما يعزُّ عليه من عقيدةٍ ، أو دينٍ ، أو شرفٍ ، أو سلامةٍ ، أو كرامةٍ ، إنَّ الطفل إذا مدَّ يده إلى النار مرَّةً وقد بدأ يعقل ، وقطع مرحلة من مراحل الحياة ، فاحترقت أصبعه؛ فإنَّه يتلقَّى من ذلك درساً خالداً ، يفهم أنه إذا مدَّ يده مرَّةً ثانيةً إلى النار؛ فإنها تحترق ، وأنَّه يتعرَّض لخطرٍ عظيم ، فهذا هو علم الاستقراء ، وهو الانتقال من الجزئيات إلى كلية تشمل هذه الجزئيات كلِّها ، وهذا العلم هو الذي عاد بخيرٍ كثيرٍ على المدنية ، وعلى التقدُّم في العلوم ، والصناعات ، وتعلمون جميعاً وأنتم دارسون للتاريخ العلمي : أنَّ الشوط الذي قطعته أوربة في مجال المدنية ، إنَّما كان بفضل الاستقراء بدل القياس.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها العاشر ، المجلد الثالث عشر ، عام ١٩٦٩ م.

ثم إنَّ المؤمن هو المثل الكامل للإنسانية ، وأنَّ المفروض أن يكون في ذروةٍ من العقل السليم ، وأن يكون أكثر اتعاظاً بالحوادث التي يجرِّبها ، ويطَّلع عليها ، ويقاسيها ، وأن يكون أسرع تلقياً للنتيجة الصحيحة ، ألا يعرض نفسه للتلف والهلاك مرَّةً بعد مرَّةٍ ، لذلك جاء في الحديث الصحيح: «لا يلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين». لقد كان المتوقع من كلِّ إنسانٍ مستقيم الفطرة ، سليم العقل ألا يلدغ من جحر مرتين أو أكثر من مرتين ، ولكن المتوقع في الدرجة الأولى من المؤمن الذي هو المثل الكامل للإنسانية ، والذي تتجلى فيه الإنسانية بأروع مظاهرها ، وبأسمى معانيها ، وأفضل محاسنها ، لذلك قال النبي ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

ولما كان المنافق يحمل النفسية المضادة لنفسية المؤمن كان أقل انتفاعاً بالحوادث ، وبهذه الدروس القاسية ، فإنه يعود للخطأ مرَّةً بعد مرة ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] وقال: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]. فطبيعة المنافق الطبيعة المضادة للطبيعة الإيمانية الواعية ، السليمة ، المستقيمة ، البريئة؛ التي تتعظ بالحوادث وتفرض على صاحبها ألا يعود إلى الخطر ، أو ألا يلدغ من جُحرٍ مرتين ، ولكن المنافقين هم ضدُّ الفطرة السليمة ، لذلك ذكر الله تعالى عنهم: أنَّهم لا يتعظون بهذه القوارع ، وبهذه النكبات ، وبهذه الهزات العنيفة ، وبهذه الحوادث الأليمة ، وبهذه الأخطاء الفاحشة؛ التي يتجرَّعون مرارتها حيناً بعد حين ويؤدون قيمتها باهظةً غاليةً في حياتهم. إنَّ خسارة الفرد بالثورة على هذه الفطرة السليمة ، وعدم اتعاظه بهذه التجارب هي خسارة فرد ، فإذا كان الفرد صاحب مكانة مرموقة كانت خسارته بمقدار ما يتمتَّع به من زملائه وأسرته من مكانٍ ومن ثقةٍ ، وخسارة الشعوب والأمم ـ أيها الإخوان! ـ بمقدار الشعوب والأمم.

هذه الحوادث الأخيرة التي لا تحتاج إلى تعليق ، أو شرح وإيضاح ،

كلُّنا يعرفها ، وكلنا يتجرَّع مرارتها ، وإني معكم بصفتي مسلماً أشارككم في آلامكم ، وجميع ما تقاسونه.

هذه الحوادث الأخيرة إن كانت لها قيمة فقيمتها أن نتَّعظ بها ، وأن نتوصَّل بها إلى نتائج صالحةٍ ثابتةٍ لا غبار عليها ، إنَّ هذه الحوادث التي أدينا قيمتها باهظةً من شرفنا ، وكرامتنا ، وأراضينا ، والتي كانت أكبر نكبة نكب بها المسلمون في التاريخ ، هذه الحوادث إن كان لها فضل ، وإن كان فيها جانب مشرق فإنَّ هذا الجانب المشرق هو انتفاعنا بما فيها من عظةٍ ، ومن ذكرى ومن دروسٍ نافعةٍ ، إنِّي لا أريد أن أسترسل في تفصيل أسبابها ، وأن أرسل الكلام في هذا الموضوع ، فإنه موضوع مطروقٌ متداول ، إنَّه موضوع كاد يُمَلُّ.

إنَّ أول نتيجة يجب أن نتوصل إليها هي أنَّ القيادات اللادينية قد أخفقت الإخفاق الذريع الشائن ، هذه هي نتيجة هذه الحوادث ، وهذا هو الدرس الأول الذي ينبغي أن نتلقاه ، إنَّ هذه الحوادث قد برهنت برهاناً ساطعاً لا يدع مجالاً للشك على أنَّ القيادات اللادينية التي تسلطت على الشعوب العربية المسلمة قد أخفقت في تجربتها ، وإن كنت لا أراها تجربة ، إنها كانت عن تصميمٍ ، عن عزمٍ وإرادة ، عن تفكيرٍ ، وعن مؤامرات ، إنها لم تخفق في حل قضية فلسطين فحسب ، بل قد أخفقت في المحافظة على سلامة شعوبها ، وعلى كيان هذه البلاد التي تسيطر عليها وحدودها.

كان لقائل أن يقول: اسمحوا لهذه القيادات التي تتأسس على التفكير التقدمي الذي يلائم هذا العصر المتطور المتمدن ، الذي لا يؤمن بالغيب ، الذي لا يعتمد على ما لا يراه ، واسمحوا لهذه القيادات ـ بالمعنى الأوسع ـ أن تمثل دورها في مجال السياسة ، في مجال حل القضايا ، في قيادة هذه الأمم ، وقد كان ذلك ، فقد سمح الله بأن تبرز هذه القيادات في الميدان ، وأراد الله لحكمة يعلمها ـ وهو العليم الحكيم ـ أن تنثر كنانتها بأفضل سهام وأحدِّ سهامٍ ، وأقوى سهامٍ صنعت في أقوى المصانع ، لقد أراد الله أنَّ تتسلح هذه القيادات بأفضل الوسائل التي يحلم بها البشر ، ويتحدث عنها

التاريخ ، وأن تتسلح بالوسائل التي تسلحت بها أيُّ قوةٍ على وجه الأرض ، إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يمسك عنها ، ولم تضن قدرته الإلهية بشيءٍ مما كان يتمناه هؤلآء القادة من أحدث سلاح ، ومن أحدث طاقات ، ومن أحدث الأساليب وأقواها في توجيه الرأي العام ، في توجيه المعارف ، والصحافة ، وتوجيه المنظمات ، وفي توجيه الأفكار والفلسفات ، لقد أراد الله بحكمته ـ التي لا يعرفها غيره ، ولا يعرف عمقها ـ أن تتمكن هذه الطاقات التي كانت ترشح نفسها لقيادة هذه الشعوب بأفضل ما حدث في هذا العصر.

فأراد الله أن تعمل هذه القيادات عملها من غير مقاومة ومنافسة في القيادة ، ويخلي لها الميدان ، ويطلق لها العنان ، لا يعوق سيرها شيء ، لقد فعل الله ذلك ، فتسلحت هذه الطاقات بأفضل ما عند القيادات العصرية من أسلحة ، وأنظمة ، ووسائل ، وكفاءة ، وذكاء ، وعبقريات ، ولكن أخفقت هذه القيادات الإخفاق الذريع؛ الذي لا يوجد له نظير في تاريخ الإسلام والمسلمين ، إذا تورعت عن أن أقول في التاريخ الإنساني.

إن قادة اليوم الذين تزعموا هذه القضايا ، قضايا الشعوب العربية ، وقضية فلسطين ، إنهم أخيب قادة في تاريخ البشر ، هذه قيادات تبرز في الميدان ، وتنثر كنانتها من غير توقف ، ومن غير تردد ، ومن غير حظر يفرض عليهم ، ومن غير رقابة تسيطر عليهم ، وقد أخلي الميدان لهم ، وانفسح لهم المجال ، فماذا كانت النتيجة؟ إنها كانت أفضل فرصة ذهبية ، لقد سنحت لهم فرصة لا تتيسر في كل زمن لقيادة من قيادات الأمم ، لقد سنحت لهم هذه الفرصة الغالية المؤاتية ، لقد أخلي لهم الميدان ، وقد انسحب كل من كانوا يخافونه ، فماذا كانت النتيجة.. لقد ألصقت بالشعوب العربية عار الأبد الذي لا يغسله ماء سبعة أبحر ، هذا عارٌ لصق بنا جميعاً نحن المسلمين والعرب بصفةٍ خاصة ، لا أريد أن أسمي لكم القيادات قيادةً قيادةً ، فأنت أعلم بذلك.. هذا هو الدرس الأول ، الدرس الأساسي الذي يجب أن نتلقاه من هذه الحوادث الأخيرة.

لقد كان من لطف الله بهذه الأمَّة العربية أن يسمح لهؤلآء الذين يتجهون اتجاهاً معارضاً للإسلام أن يطبقوا مشاريعهم ، ويحققوا أغراضهم. إنَّ هذه الأمة العربية يريد الله أن تسير دائماً مرتبطةً برسالة الإسلام ، لذلك جاء على المسرح العربي بطريقة خاصة هؤلآء القادة الذين ثاروا على الطبيعة العربية الإسلامية ، وأقصوا الإسلام والمسلمين عن الميدان ، لقد كان في كلِّ مرحلة من مراحل هذه الرحلة الطويلة أن تتدخل قدرته في حريتهم ، وفي تطبيقهم لمشاريعهم ، ولكن الله تعالى أطلق لهم العنان ، وتركهم يعملون ما يشاؤون حتى يتجلَّى للأمة العربية: أنَّ هذه القيادات لا تستطيع أن تسعد الأمة العربية ، وأنها عقيمة غير منتجة ، غير موفقة ، وذلك هو مصير كلِّ من عارض الرسالة المحمدية ، وأراد أن يزاحم القيادة النبوية ، هذا مصير كل متنبيء ، وهذا مصير كلِّ ثائر على نبوة محمد ﷺ ، وقيادته الخالدة العالمية ، إنني لا أعتقد أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] مخصوص بهذا الجلف العربي(١) الذي كان منافساً للنبي ﷺ ، ومنابذاً له ، وأنَّ كلمة الأبتر ينحصر معناها في العقم النسبي ، أو العقم النسلي ، إنَّها أعمُّ من ذلك ، وأوسع معاني وآفاقاً من هذا التفكير المحدود ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]: كلُّ من عاداك يا محمد عليك الصلاة والسلام! وكلُّ من يريد أن ينافسك في قيادتك لهذه الأمة العربية ، وللإنسانية ، وكلُّ من أراد أن يقطع صلة هذه الأمة عن هذه القيادة ، ويريد أن يسيطر عليها ، ويتملكها ، ويريد أن يقصي العنصر النبوي ، العنصر الروحي ، المشرق المبارك الميمون من تفكير هذه الأمة ومسيرها ، إنَّ مصيره العقم ، إنَّ مصيره الخيبة والإخفاق ، إنَّ مصيره انقطاع الأثر ، وخمود الذكر ، هذا هو مصير مسيلمة الكذاب ، وهذا مصير الأسود العنسي ، وطليحة الأسدي ، وسجاح ، وهذا مصير أبي طاهر الجنابي ، وعبيد بن ميمون القدَّاح ، وحسن بن الصباح ، وبهاء الله إيراني ، وهذا مصير غلام أحمد القادياني ، وهذا مصير الزعماء المتطرفين المبغضين

(١) سمَّاه بعض أصحاب السير العاص بن وائل السهمي.

للإسلام والمسلمين في كلِّ دور من أدوار التاريخ ، إنَّ كل من يريد أن يتغلب على هذه الأمة ، ويقصيها عن القيادة المحمدية الخالدة ، إنَّ مصيره مصير الشانىء الأبتر الذي أنبأ به القرآن ، وخلَّده التاريخ ، فليست هذه الآية محدودة المعاني ، كما ذكرها المفسرون ـ جزاهم الله خيراً ـ ولكن مع تقديري لما كتبوه أريد أن أزيد عليه : إنَّ هذا مصيرُ كلِّ شانىء لمحمد ﷺ ، ولكلِّ مزاحم له في الزعامة التي كتبت له .

لا يسمح التاريخ الصادق ، ولا تسمح الفكرة البشرية السليمة ، ولا يسمح العقل الواعي الذي يستنتج من الحوادث النتائج الصحيحة أن نمنح هؤلآء القادة حقَّ إعادة التجربة ، إنَّ التجرية المخفقة في حياة الفرد خطر جداً ولكن تجربة قيادة الأمة في مصير الأمة أشدُّ خطراً من تجارب الحياة الفردية التي يجرِّبها الأفراد في حياة الأفراد في نطاقٍ محدود .

الدرس الثاني : أمَّا الدرس الثاني فهو أنَّ هؤلآء القادة هم الذين يعبدون نفوسهم ، هم الذين يعبدون كراسي الحكم ، هؤلآء الذين يستهينون بكلِّ شيءٍ في سبيل الوصول إلى أغراضهم ، وشهواتهم ، في سبيل تحقيق خطتهم ، والمحافظة عليها ، هؤلآء الذين لا يخافون الله في خلقه ، ولا يخافون الله في الأديان ولا يخافون الله في حرية الأفراد . إنَّ هذا الطراز من القادة الذين لا يرجون اليوم الآخر ، ولا يؤمنون بمصلحةٍ فوق مصلحتهم ، ولا يؤمنون بمبدأ غير مبادئهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات : ٩٥] الذين ينحتون ثم يعبدون ، هذه المثل العليا ، هذه القيم والمفاهيم ، هذه النظم والفلسفات لا يؤمنون بغيرها ، هؤلآء عقوبة من الله لهذه الشعوب ، هؤلآء هم الذين صورهم القرآن التصوير الدقيق ، التصوير الذي لا تصوير فوقه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦] أيُّ تصويرٍ أبلغ ، أيُّ تصويرٍ أصدق ، وأدقُّ من هذا التصوير ، أليس هذا هو التصوير الذي ينطبق على هؤلآء القادة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة : ٢٠٤]؟

اقرؤوا ما يقوله هؤلاء القادة وما يكتبه وكلاؤهم وأنصارهم في موضوع الإنسانية ، والحرية ، والديموقراطية ، والاشتراكية ، وحقوق الإنسان ، وفي العدالة الاجتماعية من الكلام الرنّان البليغ ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] استمعوا إلى أيِّ إذاعة في هذه العواصم العربية ، الكلام المعسول الحلو ، الذي يطرب الأسماع ، ويهزُّ الأفئدة ، وإذا رأيتموهم في صورهم التي تنشر في الصحف تعجبكم أجسامهم ، تتعجبون: أهؤلاء العماليق الذين يملؤون العيون وجاهةً وشخصيةً انهزموا أمام اليهود؟! استمعوا إلى هؤلاء البلغاء الذين استخدموا أفضل أساليب اللغة العربية وأقواها لنشر الدعاية لهم ، وإخفاق الباطل وإبطال الحق ، ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] وإذا أردتم تصديق القرآن وتفسيره الناطق العملي؛ الذي لا تفسير فوقه فانظروا إلى هذه الحوادث الأخيرة في الصحف ، وما تركت من أثرٍ في نفوسهم ، وكيف خلعت قلوبهم ، واقرؤوا قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] الحقيقة مصورة مجسدة في هذه الآية القرآنية المعجزة الخالدة ، ألم يحسبوا كلَّ صيحة عليهم ، هذا هو الدرس الثاني نتلقاه من هذه الحوادث الأخيرة ، إنَّ الإنسان قد تعودَّ المقارنة بين الربح والخسارة ، وكلُّ إنسانٍ فقد هذه الصلاحية ، صلاحية المقارنة بين الربح والخسارة؛ فإنه يعرض نفسه لخطرٍ أكبر ، وإنَّه عدوُّ نفسه. إنَّ القرآن يقول: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] انظروا إلى هلاك الحرث والنسل في هذه الدول التي تنادي بالمبادىء الدَّجالة ، والفلسفات الحديثة ، وانظروا إلى هلاك الحرث والنسل في هذه البلاد التي يسيطر عليها هؤلاء القادة الذين لا يخافون الله ، ولا يتقونه ، إنَّهم قد جردوا بلادهم كما تتجرد الشجرة أيام الخريف من الزهور والرياحين ، تتجرَّد من الأوراق ، تتجرد من صلاحية النمو والازدهار ، تجرَّدت هذه البلاد ، وأصبحت قاعاً صفصفاً ، تجرَّدت من جميع النعم الدينية والدنيوية ، تجرَّدت من العلماء الكبار ، تجرَّدت من النوابغ الذين كانوا مفخرة بلادهم ، تجرَّدت من الحرية ، تجرَّدت من الثقة ، هذه الثقة أفضل ثروة

يملكها الإنسان ، هذه الثقة التي لم يزل يتمتع بها الإنسان في كل عصر ، كان الحكام في قديم الزمان لا يجرِّدون الإنسان من هذه الثقة ، ولكن هذه الجمهوريات ، هذه القيادات التقدمية قد جرَّدت الشعوب الإسلامية العربية التي هي من أبناء البلاد ، جردتها من كل نوعٍ من الثقة ، وأصبحت هذه الشعوب فاقدة الثقة بصلاحيتها ، لا تثق بعقلها ، لا تثق بعملها ، لا تثق بمستقبلها. التلميذ إذا فقد الثقة يسقط في الامتحان مهما ملك من الكفاءة العلمية ، والمصارع إذا فقد الثقة بنفسه لا يستطيع أن يصارع ، الجندي إذا فقد السيف لابأس وإذا فقد البندقية لابأس ، وإذا فقد الرصاص لابأس ، ولكنه إذا فقد الثقة بنفسه ، إذا فقد الثقة بمبدئه الذي يقاتل له ، إذا فقد الثقة بمستقبل دينه الذي يناضل دونه ، إذا فقد الثقة بشرف أمته ، إذا فقد الثقة بأنه صاحب الرسالة ، وأنه صاحب الوصاية على العالم؛ فقد فقد كل شيءٍ.

إنها أكبر رزيئة رزئت بها هذه الشعوب ـ أيها الإخوان! ـ وهي ليست رزيئة الوسائل الاقتصادية ، وإن كانت هي رزيئة ، ولكنها يمكن أن تتدارك ، ولكن الرزيئة التي لا رزيئة فوقها ، وإنَّ الخسارة التي لا عوض عنها خسارة الشعوب في ثقتها بنفسها ، وفي ثقتها بدينها ، وفي ثقتها بمستقبل حياتها ، وفي ثقتها بتاريخها.

إنَّ الحوادث ليس لها أهمية كبيرة في تاريخ الأمم والشعوب ، الشعوب كالأنهار الفياضة ، ترمي بالزبد ، ترمي فيها الأحجار ، وترمي فيها الأخشاب ، وإنها تفيض ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧] ليس الشأن في الهزائم والنكبات ، ولكن الشأن في ثقة الأمة بنفسها ، واعتدادها بنفسها ، في سلامة ضميرها ، في وعيها لما يقع بين يديها ، وخلفها ، وعن يمينها ، وشمالها ، إنَّ الأمة إذا فقدت هذا الوعي ، وإذا أصبحت لا تميز بين الصديق والعدو ، وإذا أصبحت لا تفرق بين هزيمةٍ ، وفتحٍ ، وانكسارٍ ، وانتصارٍ ، وإذا أصبحت لا تبغض العدو الخائن ، ولا تحبُّ الصديق الناصح؛ فإنها تعادي نفسها ، وتحارب ذاتها ، وإنَّها في سبيل الانتشار ، فهؤلآء قد جرَّدونا من هذه الصلاحية من هذه الطاقة الكبرى التي كانت كامنةً في نفوسنا ، وبفضلها تحمَّلنا هذه النكبات

التي لو نكبت بها أيُّ أمَّةٍ؛ لطويت في سجل الماضي ، ولأصبحت أثراً بعد عين ، ولكنَّ هذه الأمة التي استطاعت أن تتحمل النكبات كلَّها بفضل الإيمان العميق ، بفضل الوعي ، بفضل الثقة التي كانت تملكها في كلِّ دورٍ من أدوار التاريخ ، إنَّ الجيش المنهزم إذا لم يتجرد عن الثقة ، إذا لم يحرم الإيمان ، إذا لم يتجرَّد عن الدوافع القوية الشريفة؛ التي يخلقها الإيمان؛ التي تخلقها النبوة؛ التي تخلقها التربية الإيمانية العمقية؛ فإنَّ هذا الجيش سينتصر. . أما قرأتم قصة غزوة حمراء الأسد؟ لما رجع المسلمون من أحد وهم مثخنون بالجراح ، لم ينفضوا عنهم غبار ميدان الحرب بعدُ ، وفي هذه الساعة العصيبة يأمرهم الرسول بملاحقة قريش ، وهي في أوج زهوِّها ، ونشوتها بالانتصار ، لو كان أيُّ جيش في العالم بهذه الجراح التي قد عمَّت أجسامهم ، والتي قد كسرت خواطرهم؛ لما استطاع أن يعيد الكرة ، ولكنهم عادوا ليقاوموا قريشاً مرَّةً ثانية ، وإن لم يتحقق ذلك ، فقد رجعت قريش على أعقابها.

إنَّ الشعوب الأوربية الآن تريد أن تجرِّد الشعوب الإسلامية من هذه الجمرات الإيمانية ، من هذه الكوانين التي ظلَّت تلتهب ، وتشتعل. إنَّها قد وضعت أصبعها على موضع الخطر ، إنها أصمت رميتها ، وأصابتنا في المقتل ، ليس مقتلنا في هذا اللباس الذي نلبسه ، ونخلعه ، ليس مقتلنا في الطعام الذي نصيبه ، ونأكله ، ليس مقتلنا هذا الحلقوم ، لا! مقتلنا في القلوب ، مقتلنا في الأرواح ، فإذا أصاب العدو في مقتلنا فإنه قد أصاب ، إنه قد نجح ، إنَّ هؤلآء القادة يريدون أن يجردوا الشعوب الإسلامية من الإيمان ، من الثقة ، من التقوى ، من التمسك بالفضيلة ، من قوة إنكار المنكر ، والأمر بالمعروف ، من الاستقامة الخلقية ، اسمعوا إلى هذه البرامج التي تذاع في هذه الشعوب ، ما رسالة هذه الإذاعات؟ ما رسالة هذه المقالات الماجنة التي تنشر؟ ما غرض هذا التشكيك في التاريخ الإسلامي؟ التشكيك في نزاهة هؤلآء الفاتحين؛ الذين ما عرف التاريخ الإنساني أفضل منهم ، وأكثر نزاهةً منهم.

الدرس الثالث: إنَّ الدرس الثالث ـ أيها الإخوان ـ هو أننا علمنا من هذه

الحوادث: أنَّ هنالك خطأً في حياتنا، وأننا يجب علينا في أول فرصةٍ أن نبحث عن هذا الخطأ، إنَّه ما دام هناك خطأ، وما دام هناك منفذ ينفذ منه الماء، فلا بقاء للسفينة، إنَّ مثل هذه الشعوب والقيادات كمثل جماعة ركبت سفينة وكان في هذه السفينة ثقب يدخل منه الماء، فتشاغلوا بحماية هذه السفينة من قرصان البحر عن سدِّ هذا الثقب، فما مصير هذه السفينة، هذه السفينة الشقية بأهلها؟ إنَّ مصير هذه السفينة أنَّها تغرق في أوَّل ساعة، ولكن الواقع: أنَّ هذا الثقب الذي كان يفور منه الماء قد أهملوه، وتشاغلوا بحديث القراصنة الخياليين الذين كانوا قد سمعوا عنهم شيئاً كثيراً.

إنَّ في حياتنا مواضع ضعف ـ أيها الإخوان! ـ فلماذا لا نرجع إلى حياتنا، ونصلحها إذا فسدت ساعتنا، فأصبحت غير مضبوطةً، فلا نلبث أن نقدِّمها إلى ساعاتي حاذق ليصلحها، وتكون مضبوطة مستقيمة، إنَّ سيارتنا إذا تعطلت في الطريق ـ وما قيمة سيارة واحدة؟ ـ فإنَّنا لا نستريح حتى نصلحها، وما هي الخسارة التي نتحملها بتعطل هذه السيارة، نترك هذه السيارة، ونأخذ سيارة أخرى، هنالك زملاؤنا، هنالك خط، هنالك المشي على الأقدام، فإذا لم نستطع أن نصلح هذه السيارة بأنفسنا نقدمها إلى مصنع، إذا كنا نعرف لساعاتنا التي نشتريها اليوم ونتركها غداً، التي تتحطم وتضيع، وهذه السيارات التي لا تشتغل إلا سنتين أو ثلاث سنوات، ولكن هذه السيارات إذا تعطلت تشغلنا ولا تتركنا حتى تصلح، أفحياتنا أقل قيمة وفضلاً من ساعة عادية تفيض بها الأسواق، وعن سيارة عادية تزخر بها المصانع والشركات؟!.

فهل يجوز لنا ـ أيها الإخوان! ـ أن نترك حياتنا في خطر، وفيها ثقوبٌ كثيرةٌ، وفيها منافذ كثيرةٌ يدخل منها الماء، وتغرق هذه السفينة التي ركبناها، هل يجوز لنا هذا؟

ادرسوا التاريخ، تاريخ الحكومات، تاريخ المجتمعات الإنسانية، تقوم هذه المجتمعات وتنهض هذه الأسر فتؤسس دولاً قويةً، ويغلب عليها الجدُّ، والصرامة، والفروسية، والتقشف في الحياة، ثم يسري الوهن،

ويدبُّ الفساد في عروق هذه الأسر ، فتسترسل في الشهوات ، تسترسل في الأهواء ، تسترسل في كثرة أدوات التسلية ، والترفيه ، موسيقا ، غناء ، راقصات ، صور ، مما يرضي الغريزة الجنسية ، هذا تاريخ جميع الشعوب التي مثلت في تاريخ الحكم والسيادة دوراً رائعاً ، هذا الحكم ينطبق على جميع البشر ، بداية تاريخها اللعب بالسيف ، والسنان ، ونهايته الطنبور ، وآلات الغناء ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال في شعر له. هذه قصة كل حكومة ، فإذا دبَّ الفساد في هذه الشعوب والمجتمعات ، وفي هذا الشعب الحاكم ، وانغمس في الملذات ، في الغناء ، وفضَّل الهزل على الجدِّ ، والتسلية على الرجولة ، والترفيه على البطولة ، والعصامية والثبات في الميدان ، وانغمس في الملذات انغماساً زائداً ، فماذا كان مصير هذا الشعب الحاكم القوي الذكي ، اقرؤوا كتب التاريخ المعاصرة للدولة العباسية ، وغارة التتار ، تباهوا في البنيان ، توسعوا في المطاعم والمشارب ، اشتغلوا باللهو واللعب ، اشتغلوا بما لا ينفع ، وضيعوا الصلواتِ ، واستغرقوا في المعازف ، والقينات ، وأخلدوا إلى الراحة والترف ، وقلَّلوا الجيش ، ماذا كانت عاقبة ذلك؟ جاء التتار كالجراد المنتشر من أقصى الشرق ، من قراقورم ، فماذا فعلوا في بغداد ؟ هذه قصةٌ نعرفها جميعاً.

وهذه قصة الدولة المغولية التي حكمت أربعة قرون تقريباً حكماً لا يوجد له نظير في تاريخ الهند ، حكمت الهند من أقصاها إلى أقصاها . . وأخضعت جميع العناصر القوية للحكم المغولي المسلم لما أصاب هذه الدولة الهرم ، فأصبح الملوك والأمراء لا فرصة لهم من المسليات وأدوات الترفيه ، والاشتغال بالغناء والترف ، جاء نادر شاه الذي أسس دولة فتية في إيران ، وهجم على الهند بجيشه الصغير؛ الذي لا يجد مدداً ولا تمويناً ، وكان محاطاً بجميع العناصر ، والجيوش ، والقوات الهندية ، والوطنية ، ولكنه كان شديداً ، وكان متقشفاً ، وبالعكس من ذلك: فقد كان محمد شاه الإمبراطور المغولي الذي يسميه أهل الهند بالرجل الرقيق اللين ، فطلع محمد شاه لما بلغه زحف نادر شاه على بعض سطوحه ، وأنشد بيتاً معناه:

«إن شؤم أعمالنا وانغماسنا في الملذات والشهوات جاء بنادر. إنَّ شؤم أعمالنا قد ظهر في الشكل النادر يعني في الشكل البديع».

إخواني! يجب علينا أن نتلمس هذا الخطأ، نبحث عنه في حياتنا، هذه الحياة الرخية الناعمة، هذه الحياة الواهية المترفة، هذه الحياة الملتهية التي تعتمد في أكثر ما تعتمد على الترفيه والتسلية، هذه الحياة لا تستطيع أن تقاوم أيَّ خطر، أيَّ قسوة، أي شيءٍ جديد، ليس في إمكان هذه الحياة، ولم يكن في إمكانها في كلِّ فترة من فترات التاريخ أن تقاوم أيَّ غارةٍ من الخارج، وأن تتحمل أيَّ شدة، وأن تؤدي رسالتها، وأن تحافظ على سلامة أصحابها، وعلى شرفهم، إنَّه أكبر خطر، إنَّ انحدارنا إلى هذا المنحدر الخلقي بخطى سريعة، وبسيرٍ متواصلٍ مستمرٍ لا ينقطع، ولا يتوقف، إنَّه أكبر خطر علينا، نعم إنَّ انتصار العرب الأولين على الرومان والفرس إنما كان بفضل الإيمان، أنا أؤمن بهذا قبل كل أحد، ولكنني أقول لكم: إنَّ من جملة أسباب الانتصار التقشف في الحياة، «اخشوشنوا، واخلولقوا، وانزوا على الخيل نزواً» هذه وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه المربي الأكبر لهذه الأمة بعد نبيها ﷺ، أين هذا التقشف في حياتنا؟!!

أنتم أيها العرب علَّمتم الشعوب الشرقية التقشُّف في الحياة، كانت حياتكم المثل الكامل في الزهادة، في التقشُّف، في تحمل الشدائد، في الفروسية، الفروسية العربية كانت مضرب المثل، أين الخيل؟! إننا نأتي من الهند فنبقى توَّاقين إلى رؤية الخيل الجياد العتاق، التي نقرأ عنها الشيء الكثير في ديوان الحماسة، نقرأ عنها الشيء الكثير في شعر العرب وأيامهم، وفي الحديث النبوي، والسيرة النبوية، إننا لا نستطيع أن نمشي في الشمس، إننا لا نستطيع أن نمشي مسافة قصيرة على الأقدام، إننا لا نستطيع أن نتحمل أيَّ جد، هذا سماحة المفتي أمين الحسيني بين ظهرانيكم[1]، اسألوه عن شباب اليهود، إنَّ المفروض على الشباب

---

(١) كان أحد الذين حضروا حفل ثانوية طيبة.

الجامعي أن يقطع مسافة كذا وكذا في كلِّ إجازة سنوية عندهم ، المشي على الأقدام ، المشي في الشمس ، هؤلاء اليهود الذين كانوا مثلاً في الرقة ، والنعومة في التاريخ القديم ، الآن انعكست الآية ، إنَّ هذه الملاهي من طبيعتها التخاذل والخذلان ، من طبيعتها الإخلاد إلى الراحة ، من طبيعتها الانهزام ، هذه طبيعة الملاهي ، فيجب علينا أن نتلمس الأسباب التي ذكرها القرآن ، وأخبر بها النبيُّ ﷺ ، وعضَّ عليها بالنواجذ القادة المسلمون ، هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إنني لا أخاف كثرة العدد وقلته ، إنني أخاف من الذنوب ، ويقول عمر بن عبد العزيز في عهدٍ كتبه إلى قواده: «إنما نعادي عدونا ، ونُنْصَر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد ، فإننا لا ننصر عليهم بحقنا ، لا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا لعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم».

عوامل النصر:

هذا هو الفقه القرآني ، وهذا هو الفقه الإسلامي الذي يجب أن نأخذ به ، ونستأنف حياتنا من جديد ، ونتلمس فيها هذه الأدواء الكامنة ، وهذه العيوب الدفينة في هذه الحياة ، ونرجع إلى من يعالجها بالطبِّ القرآني ، بالطبِّ النبويِّ ، نبتعد عن الملاهي ، ونأخذ بالتقشف ، إنني أمرُّ في طرقات المدينة ، هذه الطرقات التي كانت دائماً تدوي بتلاوة القرآن دويّاً كدوي النحل ، هذه مدينة النبيِّ ﷺ التي كانت قدوةً للعالم الإسلامي كلِّه ، وازدانت بالتقوى ، والتقشف في الحياة ، إنَّه لا ذنب على أحد ، الذنب علينا أيها الإخوان ، نحن ننحدر بأقدامنا إلى الهوة السحيقة التي لا قرار لها ، وكلُّ أمةٍ بدأت تنحدر إلى هذه الهوة فإنها لا يساعدها أحد ، إنَّ المعوَّل على القلوب ، وعلى الضمائر ، وعلى السواعد القوية ، والمعوَّل على الروح الواعية ، هذه ثروة الأمم ، الإيمان ، الثقة بالله ، ثم الثقة بالنفس ، ثم حياة التقشف ، ثم الفضيلة والتقوى ، ثم الزهد في حطام الدنيا.

إن العرب الأولين الذين فتحوا العالم كانوا يقضون ليلهم ونهارهم في جدٍّ وصرامة ، كانوا يبقون على متون الخيل ساعاتٍ طوالاً ، يتبلغون بُلغةً من العيش ، بكسرة من الخبز ، هم بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، أين الرهبان؟! أين الفرسان؟! يا ليتنا كنا فرساناً بالنهار إذا لم نكن رهباناً بالليل ، إنَّ المتوقع منا أن نجمع بين الفروسية والعبادة ، ولكن لا رهبان ، ولا فرسان ، ثم نرجو من الله أن يعاملنا بما عامل به أولئك الذين جمعوا بين عبادة الليل وفروسية الخيل ، وبين القنوت الطويل ، وبين الخشوع ، وبين الدموع المنحدرة على الخدود ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] إذا كانوا على متون الخيل كانوا أبطالاً ، وإذا كانوا في المحراب كانوا خاشعين أمام ربهم ، كأنهم لا شأن لهم بالفروسية ، ولا شأن لهم بالجلادة .

إنني قد أطلت عليكم ، ولكن المكروب الذي يشعر بألمٍ نفسي لا يشعر بلذة إلا في الحديث مع إخوانه ، فدعوني أنفس عن كربتي ، ودعوني أضع أمامكم قلبي الجريح ، أين أنتم أيها العرب! يا أساتذتنا! يا مرشدينا! يا أئمة المسلمين! يا أهل مدينة الرسول ﷺ! هذا مهد الإسلام ، هنا نشأ الإسلام ، وترعرع؛ وهنا وقف على أقدامه ، ومن هنا سعى ، ومن هنا انطلقت موجته ، أنتم لنا القدوة الدائمة ، إننا لا نترككم ، إننا نحاسبكم محاسبة التلاميذ للأساتذة ، نعم قد يحاسب التلاميذ الأساتذة ، وفيه مفخرة للأساتذة ، إذا نبغ تلميذ يستطيع أن يحاسب الأستاذ ، هذا شرف للأستاذ ، إننا تلاميذكم الدائمون ، كتبت لنا التلمذة ، ولكم الأستاذية .

اسمحوا لنا أن نقول لكم كتلاميذ ، واسمعوا منا كأساتذة: أنتم القدوة الدائمة للمسلمين ، منكم نستمد هذه القوة التي استطعنا بها مقاومة هذه الإغراءات التي لو ابتليت بها أي أمَّةٍ من أمم الأرض بدون هذا الإيمان لما استطاعت أن تقاوم هذه الهزَّات العنيفة ، فنحن تلاميذ والحمد لله تلاميذ نجباء ، وأنتم دائماً الأساتذة البارعون يخرجون التلاميذ النجباء الأمناء؛

الذين يحاسبون نفوسهم ، ويحاسبون قادتهم ، وأساتذتهم .

لقد أطلت عليكم كثيراً ـ أيها الإخوان! ـ وإنَّ في النفس لبقية ، وخير أن تبقى هذه البقية ، ولكن أقول لكم : يجب علينا أن نتلقى الدروس ولو كانت قاسية ، نتلقى الدروس الحكيمة من هذه الحوادث الأخيرة التي أدينا قيمتها هذه القيمة الباهظة من إيماننا ، وشرفنا ، وكرامتنا وكرامة التاريخ الإسلامي ، إنَّ هنالك عوضاً واحداً عن هذه الخسارة الفادحة التي فوجئنا بها في هذا الزمن الأخير ، وهو أن نتلقى هذه الدروس ، وأن نعتقد أنَّ هذه القيادات قد أخفقت الإخفاق الذي لا إخفاق بعده ، وأنَّ هؤلآء الأنانيين لم يخدموا الأمة ، ولم يخدموا بلادهم ، ولم تجد منهم البلاد إلا شقاءً ، وبلاءً ، وعذاباً ، ونكالاً .

فلننظر أخيراً إلى حياتنا ، ولنصلح هذا الخطأ ، هذه هي الكلمة الأخيرة ـ أيها الإخوان! ـ وأرجو أن تسامحوني إذا كنت قاسياً أكثر من الضرورة ، إنما دفعني إلى ذلك الحبُّ والإخلاص ، والمشاركة في جميع ما تقاسون في هذه الأرض ، فأرجو أن لا تحملوها إلا محملاً طيباً ، فإنَّ في صلاحكم صلاح الأمة ، وفي شقائكم شقاء الأمة كلها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

التربية والأخلاق التي مهَّدت للتخاذل في فلسطين[1]

لم يزدد المسلمون إلا ضعفاً ، ولم تزدد أخلاقهم على مرِّ الأيام إلا انحطاطاً وتدهوراً ، ولا أحوالهم وشؤونهم إلا فساداً ، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمَّةً جوفاء ، لا روح فيها ، ولا دم ، وكانوا كصرح عظيمٍ من خشب منخورٍ قائم ، لا يزال يؤوي الناس ، ويهول من بعيد ، أو كدوحةٍ قد تآكلت جذورها ، ونخر جذعها العظيم ، ولم تنقلع بعد ، وأصبحت بلادهم مالاً سائباً لا مانع له ، وأصبحت دولهم فريسةً لكل مفترس ، وطعمةً لكلِّ آكل ، وحقَّ قول النبي ﷺ: «**تُوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** ، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: **بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ، ولكنَّكم غثاءٌ كغثاء السيل ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن**؟ قال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: **حبُّ الدنيا ، وكراهة الموت**»[2].

واستمرَّ المسلمون بهذا الحال وزيادة ، حتى أغارت عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الأمم الأوربية النصرانية الجاهلية ، المتحضرة الوحشية ، الكاسية العارية[3] فسلموها مفاتيح ملكهم ، واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن ، المجلد الرابع عشر عام ١٩٧٠ م.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٧٨) عن ثوبان رضي الله عنه .

(٣) المطلع على تاريخ حضارة هذه الأمم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي منزلةً أن وجد فيهم أفرادٌ خانوا أمتهم؛ وشروا بلادهم للأجنبي بثمنٍ بخس دراهم معدودة ، وتطوعوا في جنود العدو ، يفتحون بلادهم للأجنبي على حسابهم.

ولكنَّ هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيراً وأعمق أثراً ، وأبعد مدىً من الهجوم الشرقي (المغولي والتتاري) ، فكاد يخمد كلَّ جمرةٍ في قلوبهم لم تخمدها العواطف طيلة هذه القرون ، وبقيت كامنةً في الرماد تخبو مرَّةً ، وتلتهب أخرى.

فتش عقلاؤهم عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين ، وقلوبهم ، فوجدوا: أنَّ أكبر منبعٍ للقوة والحياة هو (الإيمان) ، وشهدوا ما فعل الإيمان قديماً ، وما أظهرَ من معجزات ، وخوارق ، وما هو خليق بأن يفعل ، فعادوا وسلَّطوا على المسلمين عدوَّين ، هما أفتك بهم ، وأضرُّ بهم من المغول ، والتتار ، ومن الوباء الفاتك.. الأول: هو الشكُّ ، وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه ، والثاني: ما نعبر عنه بالذلِّ النفسيِّ ، وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذلِّ والهوان في داخل أنفسهم ، وفي أعماق قلوبهم ، ويزدرون بكلِّ ما يتَّصل بهم من دينٍ ، وتهذيبٍ ، وأخلاقٍ ، ويستحيون من أنفسهم ، ويؤمنون بفضل الأوربيين في كل شيءٍ ، ويعتقدون فيهم كلَّ خير ، ولا يكادون يعترفون بنقصهم ، وعيبهم في ناحيةٍ من نواحي الحياة ، ولا يصدِّقون بانهزامهم وفشلهم في ساعة من ساعات الدَّهر ، وإذا تمكن هذا الذلُّ من نفوس أمة؛ فقد ماتت ، وإن كنت تراها تغدو ، وتروح ، وتأكل ، وتعيش.

وابتلي المسلمون في هذه المرة ـ بتأثير الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية ـ بعبادة المادَّة ، وحبِّ الدنيا والجري وراء النفع العاجل ، وتقديم المصالح الشخصية ، والمنافع المادِّية على المبادىء والأخلاق ، شأن الأمم الأوربية الجاهلية ، فكانت هذه الأخلاق ، وهذه النفسية والتربية مانعاً من الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، ومن تحمُّل المشاقِّ ،

وتجرع المرائر ، ومكابدة الأهوال والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح ، والعقيدة السامية .

كانت نتيجة هذا كلِّه أن ظهر جيلٌ في المسلمين ، متنوِّر الذِّهن ، ولكنَّه مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين ، قليل الصبر والجدِّ ، ضعيف الإرادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ، ويبيع أمَّته وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجاهٍ وعزَّةٍ وهميَّة ، ضعيف الثقة بنفسه وأمته؛ عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلى غيره .

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ [المنافقون : ٤] .

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن ، والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم ، والتكفف لديهم ، والالتجاء في مواقع الخطر إليهم ، وأطفؤوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ، والحمية للدين ، وأبدلوها بالوطنية العليلة ، والجنسية الناعمة ، وأبدلوا جنونها الذي بعث الحكمة من مرقدها؛ وأطلق العقل من إساره ، والذي تمكَّن مما لم يتمكن منه العقل والعلم في آلافٍ من السنين ، أبدلوا هذا الجنون الحكيم بعقل ناقصٍ عليلٍ لا يعرف إلا الموانع ، والعراقيل .

وقد ظهر هذه التحوُّل العظيم في العقيدة ، والنفسية ، والإفلاس في الروح والإيمان في شرِّ مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحةً للعالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري ، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع أمام الزحف التتاري فضيحةً للعالم الإسلامي في القرن السابع ، فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية ، وتدافع عن وطن عربيٍّ إسلاميٍّ مقدَّسٍ ، عن القبلة الأولى ، وعن المسجد الثالث الذي تشدُّ إليه الرِّحال ، وعن جزيرة العرب ، والأقطار العربية التي أصبحت مهددةً بالخطر الصهيوني ، فكانت حرب فلسطين دفاعاً عن حياةٍ وشرف ، وعن دينٍ وعقيدة ، وكان العالم العربي بأسره إزاء دويلةٍ صغيرةٍ لم تستقرَّ بعد .

واتَّجهت الأنظار إلى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركةً مثل معركة اليرموك ، أو وقعة مثل وقعة حطين ، ولماذا لا ينتظرونها والأمَّة هي الأمة ، والعقيدة هي العقيدة مع زيادةٍ فائقةٍ في العددِ ، والعدد ، فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم؟ ولماذا لا يقضون على عدوِّهم ، وهو حفنة من المشرَّدين؟

ولكنهم نسوا ما فعلت الأيام ، وما فعلت التربية ، وما فعلت الدُّول ، والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالأمة العربية في هذا العصر!

لقد تقدَّم العرب إلى معركة اليرموك حقاً ، ولكن بغير الإيمان الذي تقدم به أسلافهم إلى هذه المعركة في العصر الأول.

لقد تقدموا إلى وقعةٍ كانت وقعةً حاسمةً كحطين ـ لو ظفر العرب فيها ـ ولكنَّهم تقدموا بغير الروح التي تقدَّم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد.

تقدَّموا بقلوب خاوية تكره الموت ، وتحبُّ الحياة ، وأهواءٍ متشتتة ، وكلمةٍ متفرقة ويريدون أن يربحوا النصر ، ولا يخسروا شيئاً ، وأن يحافظوا على شرفهم ، ولا يخاطروا بشيءٍ. كلٌّ يعتقد أنَّ غيره هو المسؤول عن الحرب ، وعن الغلبة والهزيمة ، ثم هم يقاتلون وحبلهم في يد غيرهم ، إذا أرخى قليلاً تقدَّموا ، وإذا جرَّه تأخروا ، وإذا قال: حاربوا؛ حاربوا ، وإذا قيل: اصطلحوا؛ اصطلحوا. وما هكذا يكتسب الظفر ، ويقهر العدو!

أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتمل ما هكذا تورد يا سعدُ الإبل

وبقي العالم متطلعاً إلى ما قرأه في تاريخ الجهاد الإسلامي من روائع الإيمان ، وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة ، والبسالة ، والبطولة ، والاستقبال للموت ، والتمنِّي للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الإطاعة والإيثار؛ فلم ير من ذلك شيئاً إلا لمعاتٍ ، وإشراقات للإيمان كانت تظهر من بعض المتطوِّعين في حرب فلسطين والإخوة المجاهدين ، تجنَّدوا ، وتطوَّعوا للحرب بدافع الإيمان ، والدفاع عن الإسلام ، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم إلى ميدان الحرب ،

فشرفوا الدين ، وأرعبوا القلوب ، وأعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على أنَّ الإيمان لا يزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وأنَّ عنده من القوة والنفوذ والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ما ليس عند الدول الكبيرة المنظمة.

لقد ثبت مما ذكرناه في هذا المقال ، ومما سردناه من الأمثلة والأخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ـ وما حرب فلسطين منا ببعيدة ـ أنَّ المدَّ والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمدِّ والجزر في الإيمان ، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وأنَّ منبع قوة هذه الأمة في باطنها ، وهو القلب والروح ، فإذا عمر القلب بالإيمان بالله ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتزكَّت الروح بتعاليم الدين ، والأخلاق الإسلامية ، وجاش الصدر بالحميَّة الدينية جيشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدَّتهم من القوة المادية ، وأعدُّوا للعدو ما استطاعوا ، وأدركوا ما عليه العالم من جور ، وظلم ، ومن جهالةٍ وسفاهة ، وضلالٍ في الدين والدنيا ، وعلموا أنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام ، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] فأشفقوا عليه ، ورأوا كأنَّ العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم ، فسعوا به يطفئون النار التي عمت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذَّاتهم ، وتكدَّر عيشهم ، وطار نومُهم ، وجنَّ جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوَّةً خارقةً للعادة لا يغلبها العالم ، ولو سعى بأسره ، وجميع شعوبه ، وجنوده ، ودوله ، يصيرون قضاء الله الغالب ، وقدره المحتوم وكلمته العليا ، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]. ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] [آل عمران: ١٣٩].

* * *

(١) مقتبس من رسالة العلامة الندوي: «المد والجزر في تاريخ الإسلام» طبع القاهرة ١٩٥١ م.

المأساة الأخيرة في العالم العربي دراستها من الناحية الدينية، والخلقية، والمبدئية، والدعوية ، وتحليل أسبابها وانعكاساتها[1]

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده.

وبعد فقد كانت أعمال حركة «رسالة الإنسانية» بوسائل وإمكانيات محدودة تجري بنشاطٍ ، وتتوسَّع آفاقها إلى نهاية شهر يوليو ١٩٩٠ م ، وقد كان مؤتمر دلهي التاريخي المنعقد في ١٧/ مارس ١٩٩٠ م ، واجتماع لكهنؤ الناجح الذي انعقد في ٢/ يوليو ١٩٩٠ م خير مثال للقبول والشعبية التي كانت تنالها هذه الحركة ، وتأثيرها على النفوس ، ومما يدلُّ على هذه الشعبية المتصاعدة الخطابات التي انهالت على مكتب الحركة ، والطلبات التي تلقاها المسؤولون بعقد هذه الاجتماعات في المدن الهندية الأخرى ، وكانت هذه الرسائل تشفُّ عن حرص المواطنين على تصعيد هذه الحركة ، وتعميمها ، وعن رغبتهم الملحة في حضور مثل هذه الاجتماعات ، وكان مما يبعث على التفاؤل الكبير ، أنَّ هذه الحركة بدأت تنال تأييد المثقفين ، وأصحاب الأذهان الخالية من العصبية الطائفية من السياسيين ، وأصحاب الضمائر الحرَّة من المواطنين من غير المسلمين ، وتسترعي استجابتهم لدعوتها استجابةً حارَّةً ، فأخذت هذه الدائرة تتوسَّع ، ولمع بريق الأمل على أفق الهند بأنَّ الضمير الوطني سينتصر نهائياً ، وأنَّه يمكن معالجة هذا

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة البعث الإسلامي في عددها الثامن ، المجلد الخامس والثلاثون ، عام ١٩٩٠ م.

الوضع غير الطبيعي الذي يهدِّد سلامة البلاد في شكل الاضطرابات الطائفية ، وسفك دماء الأبرياء ، وأنَّ القوى الفعالة الواعية ستدرك الخطورة ، وتتصدَّى لها ، وتبذل مجهوداً مركزاً موحداً لتغيير هذا الوضع .

بجانب هذه التطلُّعات برز هناك عامل استبشارٍ آخر ، لا يقلُّ عن انتصارٍ ـ بالنسبة للمِّلة الإسلامية في الهند ، حالها ومستقبلها ـ وهو أنَّ المسلمين في هذه البلاد بدؤوا مرَّةً أخرى يشعرون بضرورة العودة إلى تمثيل دورهم كدعاة الحق ، وحماة الإنسانية ، ومعلمي الأخلاق ، وبدؤوا يفكرون من هذه الزاوية ، فكان هذا الشعور معقد الأمل بأنَّ المسلمين سيستعيدون في هذه البلاد مرَّةً أخرى دورهم القيادي بجدارةٍ ، واستحقاق ، وأنَّهم سيكسبون ثقة المواطنين كمجدفين لسفينة البلاد ، وكمنقذين لها من الشقاء والدَّمار ، ويعتقد الناس أن جبهة خدمة الإنسان والإخلاص في حبِّ الوطن كانت قد أصبحت مكشوفة غير محروسة منذ زمنٍ بعيد ، وأنَّ المسلمين الذين يؤمنون بأنَّ الله «ربُّ العالمين» وأن محمداً رسول الله «رحمةٌ للعالمين» هم أجدر وأحقُّ بأن يتولوا هذه الزعامة ، وكان يتوقع أنَّ هذه الحركة الإنسانية ، والمجهود الإنساني سيؤدي إلى إزالة سوء التفاهم ، وعدم الثقة ، والكراهية بين المسلمين وغيرهم من الطبقات ، ويكشف زيف الدعايات والأباطيل الشائعة عنهم ، والتي ألقى ظلالها الكثيفة التاريخ المزور ، والمصالح السياسية ، وبالتالي تنجو البلاد من الخطر المحدق عليها نابعاً من الاضطرابات الطائفية ، وإراقة الدماء ، والأعمال والأفعال التي تثير غضب الله وسخطه ، وتجلب عقابه .

كذلك كان مما يبشر بخير ، ويبعث على التفاؤل الكثير : أنَّ العالم العربيَّ الذي كان الداعي الأول إلى الإسلام ، والذي يشمل المقامات المقدسة المباركة ، وهو الحارس الأمين لها ، وهو المختبر الأول لاحترام الإنسانية والعدل والمساواة ، وهو مهد الدَّعوة إلى الأمن والسلام ، يعيش منذ مدَّة بأمنٍ ، وسلامٍ وثقةٍ متبادلة ، ورفاهية ورخاء ، واحترامٍ للإنسانية ، وهو في موقف لتوجيه الدعوة إلى العدل والإنصاف ، واحترام الإنسان ، والتعايش السلمي إلى العالم الخارجي ، وأن يقدِّم له من واقع الحياة مافيه

نموذج وقدوة ، وهو يحمل كفاءة لأن يحتل المنصَّة العالمية لتوجيه هذه الدعوة ، ويتولَّى مرَّةً أخرى منصب الإمامة ، والقيادة الإنسانية.

كان هذا هو الوضع السائد إلى آخر يوليو ١٩٩٠ م ، فكانت الآمال معقودة ، وكان العاملون في مجال الدَّعوة والإرشاد متفائلين ، رافعي الرأس ، وكان في عيونهم بريق الأمل ، فإذا بالعالم يهتز في ٢/ أغسطس ١٩٩٠ م بحادثة مروِّعة لم تنكس رؤوس الدعاة إلى العدل والاحترام الإنساني فحسب ، بل نكست رأس الملَّة الإسلامية بكاملها ، «داخل الهند وخارجها» وغضَّت بصرها ، وتندَّى لها جبينها ، وإنِّي كدارسٍ متواضع للتاريخ الإسلاميِّ ومؤلفٍ فيه ، لا أذكر أن المسلمين من حيث الملة أصيبوا بمثل هذه الصدمة العنيفة التي أدَّت إلى خجل وذلّةٍ ، ومهانةٍ منذ قرون عديدة ، وتزيد هذه المأساة شدَّةً ووطأةً ، أنها وقعت في منطقة عربية مجاورة للمنطقة التي كان منها الإشعاع الأول لاحترام الإنسان ، والعدل ، والإحسان ، وجزاء الإحسان بالإحسان ، والكرامة ، ونجدة المظلوم والضعيف ، وتطور هذا الإشعاع إلى حركة عالميةٍ ، ودعوة طبقت الآفاق ، أعني بذلك: الغزو العراقي المفاجىء للكويت؛ الذي أذاعته محطات العالم ، ووسائل الإعلام العالمية كصاعقةٍ.

إنَّ خطورة هذا الحادث المؤلم ، وضخامته وتأثيره السيىء على الضمير الإسلاميِّ والإنساني ترجع إلى أسباب عديدة منها:

إنَّ غزو بلدٍ عظيم كالعراق لبلد صغيرٍ كالكويت بعد أن حقَّق ذلك البلد انتصاراً على بلدٍ عظيم واسع الأطراف كإيران يقدِّم مثالاً سيئاً لا يتطابق مع التعاليم الإسلامية الخلقية ، والتقاليد الإسلامية فحسب ، بل إنَّه يتنافى مع الضمير الإنساني ، ومبادىء الأخلاق العامة ، ويعتبر إجراءً مذموماً ، ومرادفاً للقرصنة ، وممَّا يزيد الأمر خطورة: أنَّ كلا البلدين المعتدي منهما والمعتدى عليه بلدٌ مسلم وعربيٌّ ، ثم إنَّه اعتداءٌ لبلدٍ على بلدٍ كانت له منةٌ وفضل عليه في العهد القريب في وقت المحنة والبلاء ، وكان قد أجزل العطاء عليه ، ولم تكن له جريمةٌ يستحقُّ بها هذا العقاب.

تعاقبت بعد غزو العراق للكويت واستيلائه عليها الأعمال والتصرفات الشنيعة والمخزية التي لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ الغزاة والفاتحين الجبابرة المستبدين في تاريخ الحروب ، والفتوح المماثلة ، وقد أشار القرآن الكريم إليها بلسان ملكة سبأ ، فأصبحت خالدةً إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤].

ثم إنَّ القائد العراقي الرئيس صدام حسين قام بنسخ كلِّ ما سجله من بطولات ، وانتصارات ، وتضحيات خلال حربه مع إيران على شروط إيران من طرفٍ واحدٍ ، وطرح بذلك جانب الحائط ما خاضه من معارك ضارية معها لرفض هذه الشروط ، وما ضحَّى به شعبه من نفوس غاليةٍ تبلغ مئات الألوف ، وما تسبب منها من خسائر جسيمة ، وكان ذلك بمثابة إساءةٍ إلى تلك الأرواح الغالية ، وذهبت دماء خيرة الشباب ومعاناتهم سدىً ، واستحقَّ أن يسأل : بأيِّ ذنب قتلت[1] .

إننا كنا نقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] فكنا نعتقد ـ وتلك حقيقة ـ : أنَّ الله تبارك وتعالى وصف في هذه الآية عاقبة الأعمال في الآخرة ، وأنَّه ذكر مصير بعض النفوس التي لم تصدر منها الأعمال الصالحة لنيل رضا الله ، وإنما كانت لغرض من أغراض الدنيا فحبطت أعمالها ، وبهذه التجربة مع الرئيس العراقي في صدد التضحيات التي بذلت في الحرب مع إيران ، علمنا مصداقية هذه الآية على الحياة الدنيا كذلك ، وإنَّ صاحب العمل نفسه يعامل أحياناً بالنسبة لأعماله هذه المعاملة ، ويلجأ إلى موقف مضاد ، أو معكوسٍ تحبط به أعماله الجليلة ، فتصبح منجزاته هباءً منثوراً.

---

(١) وقد تساءل وزير خارجية بريطانية : ماذا كانت جريمة هؤلاء القتلى الذين قتلوا في الحرب ، أليس ذلك ظلماً ، وإساءة إليهم؟!

٤ ـ كان الرئيس صدام يعقد به الأمل في بعض الأوساط المتفائلة لعل الله تبارك وتعالى يوفقه ليمثل دوراً قيادياً يعيد إلى المسلمين والعرب عزّتهم، وكرامتهم، وإنه يجمع قدراته، وكفاءاته، ويقوم بتعبئة ما تتوفر لديه من إمكانيات ليشكل جبهةً ضدَّ إسرائيل، أو يوفقه الله تعالى للاجتهاد من أجل توحيد الصفوف، وترصيفها لمواجهة إسرائيل، فيتم على يديه تحرير فلسطين واسترداد القدس.

ولكن خابت هذه الآمال، والتطلُّعات، ولم تلبث هذه الأماني إلا وقد انقلب هذا البطل المغوار على إخوته، وأشقائه، وفتح جبهةً جديدة داخل البلاد العربية، فزحزح كل ما يعقد به المسلمون من أمل وثقة، بل بتعبير أصحَّ، حطَّم جميع هذه الآمال المعقودة به، وخابت به الظنون.

إنَّ غزو العراق للكويت، وعدم إصغائه إلى نداء القادة العرب والمسلمين، وعدم إنصاته لنصيحتهم، وتماديه في موقفه، وتغاضيه عن جميع المخاطر التي تترتَّب من مثل هذا الموقف الطائش، قد أثارت شبهاتٍ ومخاوف أن يسوقه طمعه أو طموحه ـ لا قدَّر الله ـ إلى التعرَّض للجزيرة العربية، وعلى أخصِّها المملكة العربية السعودية؛ التي تتولَّى خدمة الحرمين الشريفين، وحفظها، وصيانتها والاحتفاظ بقداستها، والتي أنجزت تلك الخدمة التاريخية التي لا يوجد لها نظير في تاريخ القرون الماضية في تأمين الأمن، والسَّلامة للأماكن المقدسة، ورعاية ضيوف الرحمن، وحسن وفادتهم، وتوفير وسائل الراحة والأمان، وخاصَّة توفير مياه الشرب، والمواصلات، فلا يطمع في المساس بها، فتقع هذه المنطقة المحروسة عرضةً لمطامعه وهوسه للقيادة والحكم، الذي لا يستبعد من أي قائدٍ كان في نشوة الانتصار العسكري، أو كانت وراءه قوةٌ عسكريةٌ قاهرة، وقد أشار شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال في شعرٍ له إلى هذه الحقيقة التي يصدُّقها غزو العراق للكويت، يقول:

«هذه رسالة التاريخ الخالدة: أنَّ نشوة القوة تنذر بخطرٍ جسيم».

كانت هذه المخاوف والشبهات التي لا تعتبر من المستحيل في تاريخ

القوى الطامحة ، هي التي حملت حكومة المملكة العربية السعودية على الاستعانة بالولايات المتحدة ، وبريطانيا لتهيئة الوقاية العسكرية ، وكم تمنى المسلمون في العالم ، وخاصة المسلمين في القارة الهندية ـ الذين تجرَّعوا مرارة السلطة الأوربية ـ لوكانت إحدى الدول الإسلامية قادرةً على الدفاع بنفسها عن جزيرة العرب ، والحرمين الشريفين بمساعدة المملكة العربية السعودية عسكرياً في هذه الفرصة الغالية ، وتعتبر الدفاع عن هذه الأماكن المقدسة ، أكثر شرفاً وسعادة واعتزازاً من الدفاع عن بلدها ، وتعدُّه وسيلةً للقربى عند الله ونيل رضاه.

٦ ـ ولو قيل في تبرير غزو العراق للكويت ، وطمعه في البلد العربي الآخر: إن هذه البلدان العربية ، والإمارات الخليجية كانت تستدعي مثل هذه الإجراءات التأديبية منذ زمان. وإنَّه كان نتيجة لحياة الترف ، والبذخ فيها ، وإنَّ القرآن الكريم قد أشار إلى نتائجها السيئة ، وأنذر منها ، فإني أقول باعتذار ، وأرى نفسي مضطراً إليه: إنه لم يتجرأ أحدٌ في الشطر الأخير من القرن الميلادي الجاري (١٩٤٠ ـ ١٩٩٠ م) ليس في بلاد العجم بل في العالم العربي كله في نقد الأحوال السائدة في هذه المناطق ، كما وفق الله تعالى لذلك هذا العبد الضعيف ، وقد صرح ذلك في كتاباته ، وكلماته التي ألقاها في مناسبات عديدة ، ويرى ذلك من واجبه الديني[(١)].

أقول: إنَّ علاج هذه الأوضاع لم يكن طريقه الصحيح أن يغزو بلد كبير بلداً صغيراً غزواً مباغتاً ، ويستولي عليه بلا هدف معيَّنٍ للدَّعوة والإصلاح وتصحيح الأمور ، وإنَّما كان علاجها الدَّعوة الإسلامية ، والحركة الهادفة للإصلاح ، والمجهود المخلص والجدِّي لإحياء الدين ، والجهد لإنشاء

(١) لتصديق هذا البيان يراجع كتاب: «العرب والإسلام» ، «إلى الإسلام من جديد» ، «المسلمون وقضية فلسطين» ، «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟» ، «اسمعوها مني صريحة أيها العرب» ، «اسمعي يا مصر!» ، «اسمعي يا سورية!» ، «اسمعي يا زهرة الصحراء!» «الكويت» والكلمة الأخيرة التي ألقاها العلامة الندوي في جدة: «حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل».

نظام إسلاميٍّ صحيح في البلاد ، ومنهج إسلامي للحياة ، وإنشاء نظام صالح للتعليم والتربية (يقوم بصياغة ذهن الشباب والنشء الجديد) وإيجاد مجتمع إسلامي مثاليٍّ وبيئةٍ إسلاميَّةٍ صالحة تجذب القلوب ، وتؤلِّف النفوس ، وتكون قدوةً للآخرين ، ومثالاً لهم يقتدى به.

ولكن مع الأسف الشديد إنَّ البلد الغازي ، العراق ـ كما تدلُّ عليه معلوماتي ودراستي ـ لا يتَّصف بأيِّ وصفٍ من هذه الأوصاف ، أو أيِّ سمةٍ من هذه السمات ، فلا مبرر له شرعياً ، ولا خلقياً لاقتحام مثل هذه المجازفة ، لقد أقلق هذا الحادث ذهني وفكري ، وأقضَّ مضجعي إلى حدٍّ لا أذكر أني تأثرت مثله قبل حدوث هذه الفاجعة في حياتي ، لأني ـ ذلك فضل الله وتقدير العزيز العليم ـ منذ أن تطوَّرت في القدرة على الكتابة ، والخطاب والدراسة ، كرَّست ما كنت أملكه من قدرةٍ محدودةٍ للتعبير ، وما توفَّر لي من وقت ، على قضايا العالم العربي ، وكانت الأمة العربية والدول العربية مجال عملي ، وشغلي الشاغل ، وموضوع دراستي ، وخطابي ، وكانت معظم مؤلفاتي وكتاباتي باللغة العربية أصالةً ، ثم نقلت هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى ، وأستعير هنا ما قاله شاعر الإسلام محمد إقبال تحدثاً بالنِّعمة ، وتعبيراً عن حقيقة الحال ، «إن كان مزماري عجمياً ، فإنَّ ألحانه عربيةٌ ، ونغمي عربيٌّ».

ولصلتي بهذه المنطقة قلبياً وفكرياً كان من الطبيعي تألمي بهذه الحادثة المفجعة، وما يترتب عنها من أخطار، وتهديدات للدول العربية المجاورة ، وخاصة أرض الجزيرة العربية المحبوبة إلى النفس ، والأماكن المقدسة ، والحرمين الشريفين ، فقد عشت فيها قلبياً وذهنياً في الحقيقة والأحلام.

إنَّ ما يتعلق بالجزيرة العربية ، والحجاز المقدس ، والحرمين الشريفين ـ زادهما الله شرفاً وحرمة ـ وما يتعلَّق بمستقبلها ، وحرمتها ، وكرامتها ، وقداستها ، ووقايتها من المكروه بطرقٍ غيبيةٍ حقيقةٌ من حقائق التاريخ ، فإنها مهبط الوحي ، ومطلع الدين الأخير الخالد ، والملجأ الأخير له ، ويشهد القرآن ، ويشهد التاريخ أنَّها بقيت مصونةً ومأمونةً منذ حادثة الفيل ، وغزو جيش أبرهة ، وحتى بعد زوال الخلافة العثمانية التي كان سلطانها

وخليفتها يعدُّ ذلك من شرفه وسعادته أن يصف نفسه بخادم الحرمين الشريفين ، وبعد استيلاء الدول الأوربية الاستعمارية لمعظم البلدان العربية والإسلامية بقيت على كرامتها وحرمتها ، وظلَّت هذه الأماكن في عيون المسلمين أغلى وأثمن وأكرم من أوطانهم ، ولا يزال يرنُّ في أذني ما قاله العلامة محمد إقبال :

«فليتحد المسلمون في العالم لحماية الحرم من ساحل النيل إلى سفوح كاشغر» .

إنِّي واثقٌ برحمة الله تعالى التي أحاطت دائماً بهذا الدين الأخير ، والدِّين المقبول عند الله ، وهو الإسلام ، ويشهد به التاريخ ، إنَّ هذه السحب المتراكمة ستنقشع ، وستزول المخاوف ، والشبهات ، وسيطلع من خلال هذه السُّحب الكثيفة ، والظلام الحالك ضوءٌ جديدٌ ، ينير الطريق ، ويبعث على الطمأنينة ، والسكينة ، ويعيد الشرف والعزة والكرامة ، والدعوة إلى الحق وإنقاذ الإنسانية ، وسيقول ممثل هذه الإنسانية التائهة البائسة للدعاة الأولين إلى الإسلام والحاملين للقرآن ، وحرَّاس الحرم :

لقد دمَّرت القوى الطاغية الإفرنجية هذا العالم ، فانهض يا عامر الحرم ، وابدأ بتعمير عالمٍ جديد .

ولكن هذا الهدف لا يتحقَّق ، وهذا الحلم لا يتحوَّل إلى حقيقة إلا بإحداث انقلابٍ في الحياة ، والسيرة والسلوك ، والأخلاق ، ليس في العالم العربيِّ وحده ، بل في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وفي المجتمعات الإسلاميَّـة . إنَّه يتحقَّق بصياغة الحياة صياغةً إسلامية ، وسبكها في بوتقة التعاليم الإسلاميَّة السَّمحة . إنَّه يطلب إعادة الإيمان بصدق الإسلام ، وكونه منهجاً أبدياً للحياة والدعوة إليه ، واتباعه في الحياة ، وإيجاد حماسٍ وعاطفة له في القلوب ، إنَّه يحتاج إلى اتّباع حياةٍ وعد الله تعالى بالنصر عليها ، والرحمة ، والفضل ، وتجنب ما يسخط الله من أعمالٍ ، وعاداتٍ ، وسلوكٍ ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

* * *

تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا![1]

سادتي وإخواني!

إنني أذكِّركم حادثاً من حوادث التاريخ الذي هو الفصل الحاسم ، الذي افتتح به تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، بل افتتح به تاريخٌ جديدٌ للإنسانية ، وهو الساعة الدقيقة التي وقف فيها رسول الله ﷺ على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته يا صباحاه! وكانت هذه الكلمة معروفةً عند العرب ، إذا كانت هنالك إغارةُ سريَّةٍ ، إغارةٌ من جيش كامنٍ بالمرصاد ، وانتبه لها أحد أبناء البلد ، إنه يرتقي جبلاً من الجبال ، أو هضبةً من الهضاب ، وينادي بأعلى صوته يا صباحاه! فيفهم الناس: أنَّ هنالك خطراً على المجتمع ، خطراً على البلد ، فيهرعون إليه ، ويتركون ما هم فيه من أشغال ، ومن تجارات ، ومن صناعات ، ويقبلون إلى هذا الداعي يستفسرونه عن هذا الخطر الكامن ، فلمَّا ارتقى رسول الله ﷺ جبل الصفا ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه! وكان هذا الصوت الحنون أليفاً ، وكان مصدر أكبر ثقةٍ يتمتَّع بها إنسان ، لم يكن صوتاً عادياً يصدر من شفتي رجلٍ عاديٍّ ، إنَّما هو صادر من شفتي رسول الله ﷺ الذي لقبوه قبل النبوة بالصَّادق الأمين ، فلما سمعوا هذا الصادق الأمين ، يرفع هذا الصوت ، وكان عهدهم بهذا الصوت أنه لا يكون فيه مبالغةٌ أو مجازفةٌ ، وأنه لا يكون فيه مجرد إعلان ، وإزعاج وإنذار ، فعرفوا أنَّ هنالك خطراً كبيراً ، فخفَّ الناس إليه سراعاً ، واجتمع أهل الوادي في سفح الجبل ، ورفعوا رؤوسهم ، وفتحوا عيونهم ، وشخصوا بأبصارهم إلى رسول الله ﷺ ، إلى محمد بن عبد الله القرشيِّ

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السابع ، المجلد الثالث عشر ، عام ١٩٦٩ م.

الهاشميِّ ، ماذا سيقول لهم؟ فقال رسول الله ﷺ: **يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟** وكان العرب على أمِّيَّتهم ، وبالأصحِّ على جهلهم بصناعة العلم ، قد رزقهم الله الذوق السليم ، والنظر الصائب ، فاستعرضوا الجوَّ ، استعرضوا الواقع الذي كانوا فيه ، فرأوا أنَّ رجلاً قد ارتقى الجبل ، ويرى ما وراء الجبل ، وأمام الجبل ، فله الحق كلَّ الحقِّ في أن يخبر بأيِّ شيءٍ ، لا يراه الذين وقفوا في سفح الجبل ، ولا يتجاوز بصرهم وراء الجبل ، إنما كانوا يحتاجون إلى عقلٍ سليم ، فهذا العقل السليم هداهم ، وقد أرشدهم إلى أن إنذار هذا الرجل الذي قام على قمة الجبل في محلِّه ، وله الحقُّ في أن يخبرهم بشيءٍ لا يرونه بالأبصار ، فصدَّقوه ، **وقالوا: ما جربنا عليك كذباً ، وما وجدناك إلا صادقاً أميناً** ، فلما قالوا ذلك ، **قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد»** .

ماذا قال الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام لهم؟ إنما قال لهم: إنَّ هذه الحياة التي تعيشونها يا أهل الوادي! هي أكبر خطرٍ ، وجنايةٍ عليكم ، عدوٌّ كامنٌ تحسبون له كلَّ حساب ، إنني إذا أخبرتكم: أنَّ وراء الجبل كتيبةً تريد أن تنتهز أوَّل فرصةٍ للهجوم ، وتغير عليكم على غرَّةٍ ، فأنتم تحسبون له ألف حساب ، وأنتم تسرعون إلى بيوتكم لتحملوا السِّلاح ، وتأخذوا أهبتكم ، ولتستعدُّوا لمقاومته ، ولكن مالي إذا قلت لكم: إنَّ هذه الحياة التي تعيشونها ، وإنَّ العقائد التي تدينون بها ، وإنَّ منهج الحياة الذي آثرتموه ، وإنَّ هذا الطراز من المدنيَّة ، وهذا الطراز من الأخلاق ، إنَّ هذه المثل العليا التي آمنتم بها ، وإنَّ هذه الأصنام التي قد خضعتم لها ، وعكفتم عليها عبادةً ، وتسبيحاً ، وتعظيماً ، وتقديساً ، إنَّ هذه الحياة هي أكبر خطرٍ عليكم ، هي أكبر تحدٍّ لما أنتم فيه من لهوٍ ولعبٍ ، ومن جهلٍ وسفاهةٍ من هذا الجيش الكامن؛ لأنَّ هذه الحياة هي مصدر كلِّ خطر ، إنَّ قريشاً بعقولهم القاصرة ، وبتجاربهم المحدودة ، وبعقلهم الضيق ، كانوا لا يصدِّقون بوجود خطر إلا في جيشٍ مغيرٍ ، إلا في جيشٍ واقفٍ بالمرصاد ، إلا في غاراتٍ قبلية قد جرَّبوها ، وكان علمهم محدوداً في هذا

النطاق ، فنبَّههم رسول الله ﷺ: أنَّ نفس الحياة التي يعيشونها ، هي الخطر الحقيقيُّ ، وهي مصدر كلِّ بلاءٍ ، ومصدر كلِّ شقاءٍ ، ومصدر كلِّ قلقٍ ، ومصدر كلِّ إخفاقٍ ، هو المصدر الواسع الذي كان بقاؤه وحده كافياً ليكونوا على حذر ، وليكونوا على يقينٍ ، وإيمانٍ بالخطر ، هذا الوتر الحسَّاس الذي ضرب عليه رسول الله ﷺ ، فما دام هذا الخطر فيهم ، فلا حاجة إلى خطرٍ خارجيٍّ.

ولم تزل هذه نقطة ضعفٍ في الفطرة البشرية ، إنَّها تؤمن بالأخطار من الخارج دائماً ، إنَّها تؤمن بالأعداء الأجانب ، إنَّها تحسب لهم كلَّ حسابٍ ، ولكنَّها تغفل عن مصادر الخطر العميقة الأصيلة ، الكامنة الدفينة في نفوس الشعب ، وفي قلوب الشعب ، وفي الحياة الاجتماعية ، والأخلاق العامَّة ، فنبَّه رسول الله ﷺ ، وقال لهم بلغةٍ بليغةٍ كان يفهمها عقلاء قريش وفضلاؤهم ، وكانوا أهل اللغة: يجب عليكم أن تنتبهوا لهذا الخطر الدَّاهم ، لهذا الخطر الدائم ، لهذا الخطر الكامن الدَّفين في نفوسكم ، لهذا الخطر الذي لا يُرى بالأبصار ، فأنتم في خطرٍ ، وعلى شفا جرفٍ هارٍ ، ما دمتم في جاهليتكم ووثنيتكم ، وما دمتم تؤثرون المصلحة الفردية على المصلحة الاجتماعية ، وتؤثرون العاجلة على الآجلة ، وتؤثرون القويَّ على الضعيف ، وتنتصرون له ، وما دمتم تعبدون المادَّة ، وما دمتم تعبدون القوَّة ، وما دمتم تقدِّسون الأصنام ، الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ، كانت من الحجارة ، أو كانت من صنع الرِّجال ، أو كانت من تفكير العقول ، أو كانت من وحي الدِّراسة ، أو كانت من وحي الأطياف ، أو الخيالات ، ما دام لكم هذا الوضع ، فإنَّه مصدر كلِّ خطرٍ ، وإنَّ مثلكم كمثل ركابِ سفينة يركبونها ، وفي هذه السفينة ثقبٌ واسعٌ يدخل منه الماء بقوَّةٍ ، وسرعةٍ ، ولكنَّهم لا يعتنون بهذا الثقب ويتخيَّلون أعداءً خارجيِّين ، وقد قرؤوا في حكايات «سندباد البحري» وفي رحلات «جلفر» عن قرصان البحر الذين حدَّث عنهم الرَّحالون في الشرق والغرب ، فهؤلآء يحسبون لهم كلَّ حساب ، ولكنهم لا يعتنون بهذا الثقب الواسع في جوف السفينة الذي يفور منه الماء ، ويدخل منه بقوَّةٍ ، وسرعةٍ.

هذا مثال لمجتمعنا الحاضر أيها الإخوان! لم يكن هذا المثل الحكيم الذي ضربه رسول الله ﷺ ، واتخذ له طريقةً حكيمة لم يسبق إليها ، لم يكن مثلاً محدوداً خاصّاً بالمجتمع القرشي؛ المجتمع المكيِّ ، القاصر المحدود؛ الذي نقرأ عنه في التاريخ ، إنَّما هو مثلٌ حكيمٌ في حلِّ عصرٍ ، ومثلٌ منطبقٌ علينا كلَّ الانطباق ، مثلٌ دافقٌ بالحياة ، إنَّه تصويرٌ دقيقٌ لمجتمعنا ، إننا نخاف الأوباء ، ونخاف الأمراض ، ونخاف «المكروب» ونحسب له حساباً دقيقاً ، ونبعد ونؤمن بالخيال ، حتى إذا قال أحد: إنَّ هنالك حادث موت بالكوليرا ، فإنَّ كلَّ البلد ينتشر فيه الذعر ، ويستولي عليه الخوف ، ويعتقد كلُّ واحدٍ أنَّه أول فريسةٍ لهذا الوباء ، ولكن هذه الأمراض الخلقيَّة ، هذه الأخلاق التي يبغضها الله ورسوله ، عبادة المادَّة ، وعبادة الشَّهوات ، وعبادة القوة أينما كانت ، والانجراف مع الهوى ، والانسياق مع الرغبات ، والانغماس في الملاهي والملذَّات ، والنَّهم بالغناء والطرب ، ووسائل التسلية والترفيه ، والطاعة العمياء المطلقة للقيادات والشعارات ، والزَّعامات والهتافات ، والتعامي عن الحقائق ، وعدم الاعتبار بالتجارب المتكرِّرة ، والاسترسال في الأحلام ، والاسترسال في الأماني ، والتقديس للبشر إلى غير نهاية ، واعتقاد العصمة فيهم عن الخطأ والضَّلال وتقديس الأبطال ، وتقديس الزعماء ، وتقديس القادة السياسيين وغير السياسيين ، هذا وضعٌ أكثر خطراً ، وأكبر جنايةً ، وأكبر تحدِّياً لوضعنا الحاضر ، ولمجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه من ألف عدوٍّ ، ومن ألف جيشٍ ، وهذا هو المثل الحكيم الذي ضربه رسول الله ﷺ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ونحن نعيش في مثل هذا الوضع ، إنَّنا نتعامى عن الحقائق الراهنة ونأبى أن نعتبر بالتجارب ، إنَّه وضعٌ خطرٌ جدّاً.

إنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] وهنا موضع الإعجاز ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] لماذا لم ينتفعوا بهذه التجارب ، ولماذا لم يتلقوا درساً من تلك الحوادث والكوارث التي دهمتهم؟ لأنَّ الشيطان قد وضع لهم فلسفةً جديدةً ، واخترع لهم أسماء

جديدةً ، وفتح لهم باباً واسعاً في التأويل ، فضاعت العبرة ، وضاعت الذِّكرى ، وخدَّروا نفوسهم وعقولهم بأسبابٍ وعللٍ تكوينيةٍ وطبيعيةٍ ، وبرَّروا حياتهم الأولى ، ودافعوا عن أخلاقهم وعاداتهم ، إنَّها معجزةٌ خالدةٌ من المعجزات القرآنية.

وأعاد التاريخ نفسه ، وأعادت الطبيعة البشرية المادِّيَّة منهجها، فأُصبنا بالكارثة الكبرى في الخامس من حزيران (١٩٦٧ م) وكان سبباً لمنهجٍ طويلٍ آثرناه في حياتنا الاجتماعية ، وانحرافٍ بعيدٍ عن جادَّة الدِّين والفطرة السليمة. وكانت نتيجة عوامل كثيرةٍ كانت تشتغل من زمنٍ بعيد ، فوقف قادتنا بين الشعوب العربية ، وبين الاعتبار والانتفاع بهذه النكبة ، فوضعوا لنا فلسفاتٍ جديدةً ، واخترعوا لنا أسماء جديدة ، فقالوا: إنَّما هي نكسةٌ لا نكبةٌ ، وإنما هو انتصار لا اندحار ، وإنما هو فتح مبين لم يسمع بمثله ، وإنَّ كل ما فوجئنا به نتيجة الرجعية الباقية في الشعوب العربية ، وصدق الله العظيم: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

هذه حالةٌ خطرة أيها الإخوان! إنَّ التجارب الإنسانية ثروةٌ ثمينةٌ يعتزُّ بها الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، لو أبطلنا هذه التجارب ، ولو أبطلنا حكم العقل ، وحكم الحواسِّ البشرية ، لو أبطلنا حكم الآذان والعيون ، وقلنا نبصر وننكر ، ونسمع وننكر ، ونتلقَّى دروساً على دروسٍ ، ثمَّ نرفضها ، هذه حالةٌ خطرةٌ جداً ، هذا نذيرٌ من النذر ، معنى ذلك: أنَّا فقدنا الصلاحية ، إنَّ الأمَّة العربية الآن تجتاز مرحلةً دقيقةً حاسمةً تاريخها ، وهي مرحلةٌ ، لا أقول مرحلة هزيمة ، ولا أقول مرحلة نكبة ، إنني لا أخاف عليكم هذه النكبة ، فالأمم ذات الدعوة ، الأمم ذات الرسالة ، الأمم ذات التاريخ ، الأمم ذات الضمير الحيِّ ، ذات القلوب النيِّرة ، ذات القلوب الحيَّة ، ذات القلوب الدافقة بالحياة تمرُّ بهذه المراحل ، وأنتم مررتم بمراحل كثيرةٍ ، زحف إلينا الزحف الصليبي ، زحف إلينا الزحف التتاريُّ ، الذي كاد يأتي على آخر رمقٍ للمسلمين ، ولكن لم يكن هنالك موضع يأسٍ ، وتشاؤم؛ لأنَّ ضمير المسلم كان حياً؛ ولأنَّ عقل المؤمن كان واعياً؛ لأنه كان عنده تمييز بين الخير والشرِّ ، كان يميِّز بين عدوٍّ وصديقٍ ، وبين

نافعٍ وضارٍّ ، وكان المسلم جريئاً ، كان صريحاً ، وكان شجاعاً .

إنني لا أخاف عليكم مثل هذه النكبات ، ولكنّي أخاف عليكم هذا الضمير الذي قد توقَّف عمله ، ما عملُ الضمير؟ عملُ الضمير الاحتساب ، عمل الضمير المناقشة ، ولو كانت غلطةً من أبٍ كريمٍ ، أو سيِّدٍ عظيمٍ ، إذا مات هذا الضمير ، أو توقف عن العمل ، إذا توقف عن الانتفاع ، إذا توقف عن الاعتراف بالحقائق ، هنالك الخطر الأكبر ، هنالك تموت الإنسانيَّة ، يموت إنسانٌ واحدٌ ، ويولد ألف إنسان ، هذه سنَّة الله ، هذه الطبيعة البشرية ، ولكن إذا مات الضمير ، إذا مات الضمير الجماعيُّ ، إذا مات ضمير الأمَّة ، هنالك الموت الرهيب ، هنالك النكبة التي لا نكبة بعدها ، وإذا انقطع هذا الحساب ، وإذا أصبح مكان: أخطأت ، أصبت ، ومكان: أسأت ، أحسنت ، إنَّكم تعرفون أنَّ كلَّ أمَّةٍ تمرُّ بهذه المراحل ، إنَّها تنتقل من هزيمةٍ إلى انتصار ، ومن انتصارٍ إلى هزيمةٍ ، ومن هزيمةٍ إلى هزيمةٍ أخرى ، لا ثقة بأمَّةٍ ، ولا بصلاحيتها للحياة ، إلا إذا مرَّت بهذه المراحل كلِّها ، لذلك قدَّر الله تبارك وتعالى للرسول ولأصحابه بعض الانتكاسات ، فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] إنها تربيةٌ ربانيَّةٌ ، لا فضل للأمم والشعوب ، ولكن المعوَّل على العقائد والرسالات ، ليس المعوَّل على هذه الأجسام ، المعوَّل على القلوب ، المعوَّل على الضمائر ، إذا كان شعبٌ لا يستطيع أن يقول لقائده: أخطأت ، هذا شعب يستعبده كلُّ طاغيةٍ ، ويسخِّره كلُّ جاهلٍ سفيه ، هذا الشعب فريسةٌ لكلِّ طغيانٍ ، فريسةٌ لكل استعمار .

لماذا كان الاستعمار بغيضاً أيها السادة! لأنَّه استعمر قلوبنا ، واستعمر نفوسنا ، واستعمر أرواحنا ، واستعمر عقولنا ، فهل الاستعمار بغيض إذا جاء من أجنبي ، وهل الاستعمار حبيب إذا جاء من وطني؟ لقد أعطاكم الله الميزان لتقيموا القسط في الناس ، لتكونوا شهداء على الناس: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ

﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] أمر الله تعالى بالعدل مع الأعداء، والإخوان، والآباء، فأنتم إذا فقدتم الميزان، إذا كان شيءٌ ينسب إلى أجنبيٍّ فهو بغيض، فهو قبيح، أما إذا كان ممنَّ يتَّصل بنا بالنسب، من يتَّصل بنا بالقومية، ثم يتسلَّط علينا هذا التسلُّط الراعن، فنحن نخضع له كلَّ الخضوع، ونعطل له العقول والضمائر، هذا والله هو الخطر الحقيقي، إنَّ هذه الأمة قد ربط بها مصير الأمم، فكيف تكون هذه الأمة شهيدةً على الأمم جميعاً، وكيف تكون رقيبةً للأمم جميعاً، وكيف تكون محاسبةً للأمم جميعاً؛ إذا لم تنصف قادتها، لم تنصف زعماءها، ولا تميِّز بين الحقِّ والباطل، ولا تميِّز بين الناصح والغاش، وإنَّما تستسلم هذا الاستسلام الفظيع، وتذعن هذا الإذعان الشائن، وتستكين هذه الاستكانة الذليلة، وتفقد هذا الضمير الذي منح الدُّنيا هذه المدنية المشرقة، منح الدنيا هذه العلوم المزدهرة، منح الدنيا هذا التاريخ المجيد، لقد كانت الدنيا على وشك الانهيار ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] هذا الضمير يتوقَّف عن العمل، هذا والله خطر! ليس خطراً للعرب وحدهم، وليس خطراً للمسلمين وحدهم، بل هو خطر للإنسانية كلِّها، فإنَّه موضع أمانة الله، إنَّه موضع سرِّ الله، قد أودع سرَّه في هذا الضمير المسلم، وجعل كلَّ مسلمٍ وصيَّاً على العالم، وميزان عدل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ميزاناً يحكم بدقَّةٍ، ويحكم بأمانة، ويحكم بصراحة، لا يفضِّل إنساناً على إنسان، ولا يفضِّل فرداً على فردٍ، إنَّه حكمٌ دقيقٌ عادلٌ، فإذا فقد هذا الميزان عمله، إذا فقد الملح ملوحته؛ فمن أين يملح الطعام يا إخواني! ليست المصيبة أنَّ الطعام غير مالح، المصيبة أنَّ الملح فقد ملوحته، إنَّ المصيبة: أنَّ الميزان قد توقف عن العمل، وما عاد محايداً، إنَّه قد أصبح صديقاً لبعضٍ، وعدوَّاً لبعضٍ.

إنني لا أخاف النكبات، إنَّ الجمرة الإيمانية لا تزال كامنةً في نفوس المسلمين، وفي نفوس العرب، وأنا أُؤمن كلَّ الإيمان، بأنَّ هذه الجمرة

مستعدةٌ للالتهاب ، إذا وجدت من يلهبها ، وينفض عنها الغبار ، غبار المدنيَّة الزائفة ، غبار الاسترسال في الأحلام ، والأوهام ، غبار حبِّ الذَّات ، غبار كراهية الموت ، غبار الإشفاق من الخطر ، إذا امتدَّت يدٌ كريمةٌ أمينةٌ ، مؤمنةٌ بالله ورسوله ، ونفضت الغبار عن هذه الجمرة الإيمانية؛ فإنَّ هذه الجمرة مستعدةٌ للالتهاب والإلهاب ، إنَّها مستعدةٌ للاشتعال والإشعال ، فإنني لا أخاف من هذه الجهة ، ولكني أخاف من عدم تلقي الدروس من الحوادث.

إننا نقرأ في تاريخ الرُّومان: أنَّهم كانوا يؤمنون بالآلهة ، إله الحرب ، إله البر ، إله البحر ، ولكنهم كانوا يغضبون في بعض الأحيان على هذه الآلهة «الخيالية» ويثورون عليها ، إذا خانهم النَّصر ، ولم تتحقَّق آمالهم ، وقد حدثنا التاريخ: أنَّه لما غرق أسطول للإمبراطور أغسطس Augustus استشاط غضباً ، وحطَّم تمثال نيبتون Neptone إله البحر؛ لأنَّ هذه هي الطبيعة الإنسانية ، أما نحن المسلمين ، فمؤمنون موحدون ، مؤمنون بالله تعالى ، لا يجوز لنا أن نؤمن بقيادةٍ إيماناً كاملاً مطلقاً ، كإيماننا بالله ، وكإيماننا بالرسول ، يجب علينا أن نحاسب القادة والزعماء ، يجب علينا أن نحاسب نفوسنا ، وأن نحاسب أوضاعنا الاجتماعية ، وأوضاعنا الخلقية ، وأوضاعنا السياسيَّة ، أما الطاعة العمياء لفردٍ ، أو جماعةٍ ، تقودنا إلى متاهةٍ لا رجعة منها ، ولا هدي فيها ، وتدفعنا إلى هوَّةٍ لا قرار لها ، وعدم محاسبتها ، أو مراجعتها في شيءٍ ، فهي الطاعة التي قال الله عنها: ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٩] إنَّ الله تعالى أمرنا بالكفر بالطواغيت التي تتسلط على البشر في كلِّ مكانٍ وزمانٍ ، وهنالك أنواع من الطواغيت ، ولكن هذه الطواغيت إذا تسلَّطت علينا ، فلا يجوز لنا كمسلمين أن نقدسها ، وأن نعتقد فيها العصمة ، بل طلب الله منا أن نتبرأ منها ، ونكفر بها ، قال إبراهيم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال رسول الله ﷺ مرّة: «**انصر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً**» فعجب الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّهم تربَّوا تربيةً دقيقة، إنَّهم عرفوا: أنَّ الرسول ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ولكنَّهم كانوا يستعملون عقولهم فيما يقوله، ويراجعونه فيما لا يفهمونه، فقالوا: ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً يا رسول الله؟! ففسَّر لهم رسول الله ﷺ كلمته، فقال: إنَّ نصر الظالم أن تكفَّه عن الظلم، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون أنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وإليكم ما يدلُّ على ذلك: بعث رسول الله ﷺ سريةً، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيءٍ، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني، قالوا: بلى! قال: فاجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنَّها! قال: فقال لهم شاب منهم: إنَّما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها؛ فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف**»[(١)].

إنَّني أريد أن أقول لكم مرّة ثانية: هذه الحياة التي نعيشها في البلاد العربية، هذه الحياة اللاهية المترفة؛ هذه الحياة المتعامية عن الحقائق، الحياة التي تستند دائماً إلى الملاهي، وتوافه الأمور، هذه الحياة التي قد غلب فيها الهزل على الجدِّ، اسمحوا لي أن أقول بصراحةٍ: هذه الحياة التي قد غلب فيها حبُّ المادة ـ إذا قلت لكم على حبِّ الله ورسوله، وعلى حبِّ المال في سبيله، فإنِّي لا أكون مبالغاً مجازفاً في القول ـ هذه الحياة التي إذا رآها إنسانٌ من بعيدٍ، إذا زار إنسانٌ بلداً عربيّاً، ورأى هذه المهازل، ورأى هذه الملاهي، ورأى هذه الأغاني في حالة الطوارىء، على إثر نكبةٍ نكبت بها هذه الأمة استغرب جدّاً، واتَّهم سمعه وبصره، هل الذي يراه حقيقة أم خيال؟ إننا نعيش في حالة الطوارىء، كان الأحرى بالبلاد العربية، والعواصم العربية أن تكون كلُّها في حالة الطوارىء ليلاً ونهاراً، كلُّه جدٌّ،

---

(١) رواه البخاري (٦٧٢٦) ومسلم (١٨٤٠) وغيرهما عن علي رضي الله عنه.

كلُّه لبابٌ، كله تقشُّف، كلُّه استعداد، كلُّه حذرٌ وإشفاقٌ، لولا هذه العقيدة الكريمة التي نلتقي عليها، ولولا أنَّ مصيرنا مرتبطٌ بمصيركم، وبمقدار ذلِّكم نذلُّ، وبمقدار شرفكم نتشرَّف، وأننا نحاسب بما يقع هنا لما كان لي حقٌّ في محاسبتكم، الأمم والشعوب تعيش بالمحاسبة، لولا هذا الحساب الدقيق، لولا هذا النقاش المخلص، لولا هذه الغيرة في الشعوب الأوربية، لضاعت، وطويت في سجلِّ التاريخ من زمان، ولكنَّها عاشت، ولا تزال تعيش بفضل هذا الحساب، إنها لا تسمح لأيِّ قائدٍ أن يقدَّس دائماً، أن يمجَّد دائماً، أن يتولَّى الحكم دائماً مهما أخطأ وأساء، وجنى على أمته وبلاده.

هكذا كان المسلمون، وهكذا كانت قادتهم وأمراؤهم، وهكذا كانت جيوشهم وعساكرهم، وأحكي لكم قصةً من تاريخ الفتح الإسلامي في الهند، ولمؤسس الحكم الإسلامي في هذا القطر: لما زحف شهاب الدين محمد بن سام الغوري على الهند، قاتله «بتهورا» ملك أجمير قتالاً شديداً، وانهزمت عساكر المسلمين هزيمةً منكرةً، ورجعت إلى لاهور، واعتصمت بها، وعاتب السلطان الأمراء الغورية وأمراء خراسان، الذين لم يثبتوا في المعركة عتاباً شديداً، وعلق في عنق كلِّ واحدٍ منهم عليق شعير، وقال: أنتم دواب، ما أنتم أمراء! وسار إلى غزنة ـ عاصمة ملكه ـ يعدُّ العدَّة للكرَّة ـ بعد الفرَّة ـ وظلَّ لا يهنأ له طعام، ولا شرابٌ، ولا يحلو له نومٌ ولا راحةٌ، ثم ركب في جيشٍ عظيم، ولم يستشر في ذلك أحداً، ولما سأله أحد الأمراء عن قصده، تنفَّس الصعداء، وقال: إنني لم أنم على فراشي منذ لقيت الهزيمة من أمراء الهند، ثم حسر قباءه، وقال: ترى أنني لم أغير ثيابي منذ ذلك اليوم، وقال: إنني لم أر وجه هؤلاء الأمراء الذين خذلوني في الميدان، وأسلموني إلى العدو، وقال يخاطب جيشه: إنَّه يتحتَّم علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نغسل هذا العار الذي لحق بالإسلام والمسلمين، وأن ننفض عنا غبار الهزيمة التي لقيناها في العام الماضي، فوضعوا أكفهم على السيوف، وأطرقوا رؤوسهم سمعاً وطاعة، ثم توجَّه إلى الهند، وبعث برسالة إلى بتهورا يدعوه إلى الإسلام والطاعة، وأخذته

العزَّة بالإثم ، فرفضه في كبرٍ وغضبٍ ، وحمل السلطان عليه حملةً شديدةً ، وانتصر انتصاراً باهراً ، وتأسست الحكومة الإسلامية في الهند ، التي دامت ـ في أشكال مختلفة ـ أكثر من سبعة قرون ، وكان ذلك في سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٣ م)(١).

إذا كانت عجوز تستطيع أن تحاسب عمر بن الخطاب(٢) ، فلماذا لا يجوز لأيِّ مسلمٍ ، ولأيِّ كاتبٍ ومؤرِّخٍ ، ولأيِّ متألمٍ بهذه الأوضاع أن يحاسب القادة والزعماء ، وكان كلُّ مسلمٍ يستطيع أنْ يحاسب عمر بن الخطاب ، فقال مرَّةً وهو على منبر الرسول: اسمعوا وأطيعوا ، فقال أحد الصحابة: «لا نسمع ولا نطيع» ، قال: لماذا؟ قالوا: لأنَّ عليك بردتين من الغنيمة ، وعلى كلِّ واحدٍ منا بردةً واحدةً ، فلماذا هذا الفرق بيننا وبينك؟ فقال: هل هنا عبد الله بن عمر ، فقام وقال: إنه كانت له بردةٌ واحدةٌ ، فأعطيته بردتي ، فقال الأول: إذاً نسمع ونطيع. وهكذا عاشت هذه الأمة ، وقاومت جميع النكبات ، والكوارث التي مرَّت في تاريخها ، لأنَّها كانت أمةً واعيةً ، تقول الحقَّ ، وتحكم بالعدل ، وتحاسب وتناقش ، وهكذا تستطيع هذه الأمَّة أن تعيش في المستقبل.

أيها الإخوان! إنني أشكركم من أعماق نفسي ، وأطلب منكم عدم

---

(١) مقتبس من كتاب «تاريخ هندوستان» للمؤرخ الهندي: ذكاء الله ، الجزء الأول ص ٣٥٧ ، ومن كتاب «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» للمرحوم السيد عبد الحي الحسني ج ١ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٦.

(٢) قال الحافظ أبو يعلى: ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه منبر رسول الله ﷺ ، ثم قال: أيها الناس ، ما إكثاركم في صداق النساء ، وقد كان رسول الله ﷺ ، وأصحابه والصداقات فيما بينهم أربعمئة درهم ، فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله وكرامةً لم تسبقوهم إليها ، فلا أعرفنَّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم ، قال: ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش ، فقالت: يا أمير المؤمنين! أنهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا . . . ﴾ الآية ، قال: فقال: اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر.

المؤاخذة إذا صدرت منّي كلمةٌ أساءت إلى أحدٍ من الإخوان ، أو جرحت شعوره ، فوالله لم يكن دافعها والحامل عليها إلا الإخلاص ، وبذل النصيحة ، والشعور بالمسؤولية المشتركة ، وأنا معكم ، كما قال الشاعر العربيُّ :

وهل أنـا إلاَّ مِنْ غزيَّـةَ إنْ غَـوَتْ غَـوَيْـتُ وإنْ تـرشُـدْ غـزيَّـةُ أرشُـدِ

* * *

مستقبل الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة بعد حرب الخليج دروسٌ وعبرٌ يجب أن يُنتفع بها ، وفجواتٌ وثغرات يجب أن تُسَدَّ(١)

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام على مَنْ لا نبيَّ بعده!

حضرات السادة!

إنَّ هذا المؤتمر الذي موضوعه «مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج» قد جاء في أوانه ومكانه.

أمَّا الأوان فإنَّ هذه الحرب التي كانت نزوةً طائشةً ، أو نوبةً عصبيَّةً قياديَّةً حربيَّةً ، كثرت أمثلتها ونماذجها في تاريخ القيادات الفردية ، والمطامح القيادية ، والتهورات الهجومية ، لا أكدِّر خاطركم ، ولا أعكِّر صفو هذا المجلس الموقر الذي يضمُّ نخبةً من كبار العلماء ، وقادة الفكر ، ورجال السياسة ، والإدارة في الأقطار العربية والإسلامية ، بالتصريح بأسماء المسؤولين عنها وتعيين زمانهم ومكانهم ، ولا يخلو ـ مع الأسف والاعتذار ـ عن هؤلاء المغامرين ـ وبالأصحِّ المقامرين ـ تاريخ الإسلام المشرق الطويل؛ الذي كان يتوقع أن يخلو عن مثل هذه الأمثال والنماذج

---

(١) انعقد في مصر في أبريل ٢٥ ـ ٢٧ من ١٩٩١ م مؤتمر حول أحداث الخليج والدروس المستفادة منها ، ووجهت الدعوة من وزارة الأوقاف ورئاسة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في جمهورية مصر إلى العلامة الندوي للإسهام فيه ، والإفادة بدراساته وآرائه وتوجيهاته ، فانتهز العلامة هذه الفرصة فكتب هذا المقال ، الَّذي نشر في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس ، المجلد السادس والثلاثون ، عام ١٩٩١ م.

غير اللائقة برسالة الإسلام ، وتعاليمه ، وأهدافه ، ومستواه الرفيع ، ولكنَّ الطبيعة البشرية تعمل عملها ـ إذا جردت عن تربيةٍ عميقةٍ قويَّةٍ ، أو حسبةٍ جماعيةٍ دينيةٍ ، أو ضميرٍ مؤمنٍ بخالق هذا الكون الذي هو «ربُّ العالمين» و«أرحم الراحمين» وباليوم الآخر الذي يحاسَبُ فيه كلُّ إنسان ـ مهما سمت درجته ، وتوسَّعت دائرة نفوذه وتصرُّفه ـ على أعماله وتصرفاته.

والآن وقد انقشع هذا الضباب ، وانتهت هذه المرحلة التي لم تكن جديرةً بالبقاء وقتاً طويلاً ، لا دينيّاً ، ولا مبدئيّاً ، ولا عقليّاً وواقعيّاً ، وعاد الأمر إلى نصابه ، والحقُّ إلى أصحابه ، ولكنها ـ والأسف يملأ جوانحي ، ويكاد يفتِّت كبدي ، كعامل في مجال الدعوة الإسلامية وحركة «رسالة الإنسانية» لا سيما في منطقةٍ شديدة الحساسية ، دقيقة الوضع ، كشبه القارة الهندية؛ التي كثرت ، وتكثر فيها الاضطرابات الطائفية ، والمذابح البشرية ، قد أساءت إلى سمعة الإسلام ـ الدين الأكبر والأشهر الذي يدعو إلى احترام الإنسانية ، وصيانة النفوس والكرامات ، ويؤمن بأنَّ الله هو ربُّ العالمين ، ونبيّه ـ محمداً عليه أفضل الصلاة والسَّلام ـ هو رحمةٌ للعالمين ـ إساءةً لم يسبق لها مثيل منذ أمدٍ بعيد ، أقول هذا بصفتي دارساً ومؤلفاً في التاريخ ، وعاملاً في مجال حركة «رسالة الإنسانية» في الهند ، التي حققت شيئاً كبيراً من النجاح ، وتمتَّعت باحترام كبار المثقفين ، وقادة الرأي في الأكثرية غير المسلمة واعترافهم ، وامتازت ندواتها التي عقدتها قيادة هذه الحركة مع التعاون مع عددٍ من كبار المثقفين والرجال المحترمين من الهنادك بنجاحٍ باهرٍ ، وإقبالٍ كبيرٍ من الشخصيات البارزة في مختلف الطبقات ، وقد أحرج موقف العراق الاعتدائي والهجومي الذي هو شبيهٌ بالقرصنة ، واتَّسم بالتغاضي عن المشاركة في الدِّين ، والاعتداء الآثم على الأنفس والأعراض ، فضلاً عن الأملاك ، ونكران الجميل ، والهبوط إلى حضيض السفالة والمهانة ، فانتكست رؤوس المسلمين في شبه القارة الهندية ، وتندَّى جبينهم حياءً ، وكاد يعتقل لسانهم في توجيه هذه الدَّعوة إلى إخوانهم المواطنين ، فإنهم إذا أشاروا إلى حرب الخليج وموقف القيادة العراقية من الكويت ، البلد الإسلامي السلمي ، والأكراد المسلمين الذين

أنجبوا في فترةٍ من فترات التاريخ البطل الناصر لدين الله السلطان صلاح الدين الأيوبي ـ عليه رحمة الله ـ وقالوا: عليكم بالعناية بمركزكم الدِّيني، وشعبكم النموذجي، وتوجيه دعوة احترام الإنسانية إليه أولاً؛ لم يكن لنا جواب.

أقول أيها السادة: إنَّ هذا الضباب وإن كان قد انقشع، وإنَّ هذه المرحلة المشؤومة وإن كانت قد انتهت، ولكنَّها تسترعي انتباه المفكرين والمعنيين بحاضر هذه الأمة ومستقبلها إلى حقائق قد تجلَّت في هذه الآونة، وفي ضوء هذه الكارثة بوضوحٍ لم تتجلَّ به في الماضي القريب، ودلَّت بل وضعت أصبع كلِّ مسلمٍ واعٍ، معنيٍّ بشأن هذه الأمَّة، منتفع بالتجارب على فجوات، بل ثغرات (GAPS) في صفوف هذه الأمة ـ وأكبر خطورة من ذلك ـ على ثغراتٍ في تفكير كثيرٍ من طبقات هذه الأمَّة، بل في دهمائها، وخاصةً في شبابها، والجيل الناشىء، وفي الصحافة ووسائل الإعلام، وكثيرٍ من المنظمات الإسلامية، فلا بدَّ من استعراضها ـ خصوصاً في هذا المؤتمر الموقر ـ بجراءةٍ خلقيةٍ، وصراحةٍ بيانية، واحتسابٍ محايدٍ جريء للنفس والإخوان في الدِّين ثمَّ الوطن، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقبل أن أتحدَّث عن هذه الحقائق غير السَّارة، والفجوات غير المشرِّفة في حياة الأمَّة الإسلاميَّة المعاصرة ـ بما فيها الشعوب العربية المسلمة ـ ألقي بعض الأضواء على أنَّ هذا المؤتمر الموقر كما جاء في أوانه، قد جاء في مكانه، فإنَّ الله قد قدر لمصر واختارها لتقوم بالدور القياديِّ الحاسم، وعملية الإسعاف والإنقاذ للشرف الإسلامي والمقدسات الإسلاميَّة في ساعةٍ عصيبةٍ دقيقةٍ حين ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٧] وذلك مرَّتين على الأقلِّ، وإلى السادة المؤتمرين إشارة إليهما.

المرحلة الأولى: حين هجمت أوربة النصرانية الصليبية بملوكها، وقادتها العسكريين، ومقاتليها المتحمِّسين، ـ في تصميمٍ لا يوجد له نظير

في الماضي ولا في الحاضر ـ وكانت تستهدف الجزيرة العربية ، والحرمين الشريفين بالاستيلاء ومحو أثر الإسلام منها ، وإهانة ما يفديه المسلمون بنفوسهم ودمائهم ، وكراماتهم ، وأكتفي في بيان هذا الهجوم وما نشأ منه من الخطر على العالم العربي الإسلاميِّ بشهادةٍ واحدةٍ لصاحب اختصاص في هذا الموضوع من المؤلفين الغربيين ، وهو ستينلي لين بول (Stanley Lane Poole) صاحب كتاب صلاح الدين ، يقول في كتابه :

«توغَّل الجيش الصليبي في البلاد ، كما يشق أحدٌ خشباً منخوراً بالياً ، وخيِّل للناس ولو لبرهةٍ من الزمان ، أن الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحة الإسلام ، ويكسرونها تكسيراً» .

هنالك قضى الله ـ وهو الرحيم الغلاَّب ـ بأن يكون شرف استعادة القدس الشريف ، والقبلة الأولى التي دامت عليها سيطرة الصليبيين تسعين (٩٠) سنة ، للإسلام والمسلمين ، للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وذلك في رجب عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

وقد كان صلاح الدين قائد الملك العادل نور الدين الزنكي ، وحاكم مصر من قبله ، فاقترن اسم مصر بهذا الفتح العظيم ، والمأثرة الكبرى ، ورجع الفضل في هذه المأثرة إلى قيادة مصر التي تركزت في شخصية صلاح الدين ، ولا بدَّ أنَّه استطاع ذلك ـ بحول الله ـ عن طريق الجيش المصري الباسل المسلم ، يقول لين بول :

«إنَّ سيطرة قائد نور الدين ـ سلطان الشام ـ (صلاح الدين) على النيل ، قد جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأةٍ شديدةٍ من ذلك ، ولم يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيش لنفس القوَّة ، وبفضل استيلائهم على مرفأ دمياط والإسكندرية أخذوا أسطولاً بحريَّاً ، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوربة»[1] .

وقد كان السلطان صلاح الدين بنفسه يعترف بأن لمصر نصيباً في هذه

---

(١) انظر : «السلطان صلاح الدين» ص ٨٩ .

المأثرة ، فقال مرة : «إنَّ الله لما أعطاني مصر ، حسبت أنه قدَّر لي فلسطين أيضاً»[1].

والمرحلة الثانية: هي هجوم التتر الوحوش على العالم الإسلاميِّ في القرن السابع الهجري ، وكانت محنةً هزَّت العالم الإسلامي هزاً عنيفاً ، وتركت المسلمين مشدوهين ، واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلاميِّ من أقصاه إلى أقصاه ، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل «إذا قيل لك : إن التتر انهزموا ؛ فلا تصدق»[2].

وفي هذه المرحلة الدقيقة التي كادت تفوق ، أو فاقت حقيقة مرحلة الزَّحف الصليبي ، أحجم الملوك والحكومات والقيادات الإسلامية عن مقاومة التتار ، واعتبروا استيلاءهم قضاءً مبرماً ، وعقوبةً من الله ، هنالك قامت مصر مرَّةً ثانية بإحراز قصب السبق في مقاومة التتار ، واستطاع حاكمها الملك المظفر سيف الدين قطز وجيشه المصري العربي المسلم أن يبطل هذا القياس والقضية المسلَّمة ، يقول المؤرخون :

كانت التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التي لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصر الملك المظفر سيف الدين قطز قد تفرّس أنَّ التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ، ويشنَّ عليهم الهجوم في نفس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية والتتار في عين جالوت يوم ٢٥/ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزم التتار شرَّ هزيمةٍ ، بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبتهم الجنود المصرية ، فقتلوهم ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ، يقول العلامة السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» :

«فهُزم التتار شرَّ هزيمةٍ ، وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٨٦ .
(٢) ليرجع للتفصيل إلى «الكامل» لابن الأثير .

مقتلةٌ عظيمةٌ ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم[1] .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس ، بعد انهزامهم في عين جالوت مرَّاتٍ عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام ، وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر: «إذا قيل لك: إنَّ التتر انهزموا؛ فلا تصدق».

وفي ضوء هذين المثالين الرائعين اللَّذين يحقُّ لمصر أن تفتخر بهما ، وتحمد الله على توفيقه ونصره ، واختياره لها للقيام بالواجب المقدس الخطير ، يتحتَّم على مصر الإسلامية أن تقوم بأداء فريضة اليوم وتحقيق مطالبه ، وأن تستخرج سهماً ـ بنَّاءً إيجابيّاً قياديّاً ـ من كنانتها ، وقد سميت قديماً بكنانة الإسلام ، وكنانة الإسلام لا تنفد سهامها ، ولا تخطىء مراميها ، والسَّهم المطلوب في هذه السَّاعة الدَّقيقة هو الانتباه للحقائق التي تجلَّت بعد الغزو العراقيِّ للكويت ، وتصرُّفات الرئيس صدام حسين الطائشة الرَّاعنة ، وما كان لها من ردِّ الفعل في الشعوب العربيَّة والإسلاميَّة ، وما كشفت عن فجواتٍ ، وثغراتٍ في تفكير الأمَّة ، ومنظماتها ، وصحافتها ، وإعلامها.

والآن آن لي أن أتحدَّث عن الحقائق ، والفجوات ، والثَّغرات التي كشفت عنها الأزمة الخليجية الأخيرة ، وأن أشير إلى طريق علاجها ، وملء هذه الفجوات والثغرات في صفوف الأمَّة ، وتفكيرها ، وصحافتها ، وإعلامها ، وبتعبير أوسع وأوضح: في حياة الأمة ، وتأمين هذه الأمة من عواقبها السيئة ، ونتائجها الوخيمة؛ التي تحدَّث عنها القرآن والسنة وشهد بها التاريخ الإنسانيُ العام.

وإلى المستمعين الكرام بعض النقاط الهامة:

أريد أن أتحدَّث إلى بعض فجواتٍ وثغراتٍ شديدة الخطر ، بعيدة الأثر في حاضر الأمَّة ومستقبلها ، وألفت نظر قادة الفكر والمتملِّكين لزمام

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٥.

التوجيه ، والتربية ، والصحافة والإعلام ، والعاملين في مجال الدَّعوة و«الصَّحوة الإسلاميَّة» إلى معالجتها ، والعناية بها.

١ ـ التهيؤ الدائم والقوي للانخداع بهتافاتٍ ـ حماسيةٍ بصفةٍ خاصة ـ ودعاوى خلابةٍ ، ووعودٍ برَّاقة من غير نظرٍ إلى عقيدة أصحابها ، واستعراض ماضيهم ، والأحزاب والمخططات السياسية والفكرية التي يرتبطون بها ارتباطاً وثيقاً ، خصوصاً إذا اقترنت هذه الهتافات ، أو الإعلانات بتحدٍّ ، أو تهديدٍ لطاقةٍ من الطاقات الكبيرة ، وتظاهر أصحابها بالجراءة والصمود ، أحدثت في الدهماء ـ خصوصاً الشباب ـ انفعالاً شديداً شبه اهتياجٍ عاطفيٍّ لا سبيل إلى كبحه (Hysteria) لا يفيد فيه النقد الدينيُّ والعلميُّ ، واستعراض الواقع والحقائق الأمين المحايد ، وأنتجت ثورةً بمثابة زوبعةٍ في فنجانٍ أو غليٍ كغلي المرجل ، وقد يؤدي ذلك إلى استهانةٍ بالدين ، وعقائده وشعائره ـ فضلاً عن إهانة ممثليها وأصحاب الاختصاص فيها ـ ولا أبلغ في وصف هذه الفئة وتصويرها من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ الذي اكتوى بهذه النار ، وواجه هذا الوضع أكثر من كثيرٍ من أئمة الإسلام وقادته؛ إذ قال في وصف أهل العراق: «أتباع كلِّ ناعقٍ».

فلا بدَّ من إيجاد الوعي الدينيِّ ، والمدنيِّ في الشعوب الإسلامية ، حتى في الطبقات المتدينة المثقفة ، وقوة التمييز بين الصَّالح والطَّالح ، والدعوة إلى فهم القضايا المعاصرة ، والحركات والتيارات العاملة النشيطة ، والمنابع التي تستقي منها فكرها وعقيدتها ، وتستمدُّ منها نشاطها وحماسها ، وفي بعض الأحيان إمكانياتها المادِّية والسياسية.

ولا بدَّ من الدَّعوة إلى فهم القضايا المعاصرة ، والحركات ، والتيارات العاملة النشيطة ، وموقفها من الإسلام ، وأثرها في الحياة ، وخطرها على مستقبل هذا الدين ، والجيل الإسلامي ، والاطلاع على أهداف القيادات؛ التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات ، وتتسلم زمام توجيه المجتمع وفق عقائدها ، وقيمها ، ومثلها ، وسبك الحياة سبكاً جديداً ، فإنَّ

التغاضي عن هذه القوات ، والطاقات ، والحركات ، والقيادات ، وانطواء الجماعات الإسلامية على نفسها معتمدةً على تمسكها بالدين ، والدعوة إليه ، والاشتغال بالفرائض والواجبات الدينية ، وحياة الطهر والعفاف ، والعبادات والطاعات ، يحول بعد مدَّة من الزمن بينها وبين حرية العمل بالدِّين وتطبيق أحكام الشريعة ، ويضيق الخناق حولها ، حتى ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٨].

وبقاء هذا التهيؤ للانخداع بالهتافات والدَّعاوى ، والمظاهرات ، والتمثيلات خطرٌ كبيرٌ دائمٌ على هذه الأمَّة ، وارتباطها بعقيدتها ، ورسالتها ، ودورها في توجيه الإنسانية ، والوصاية عليها ، بل على بقائها على الشريعة السماوية والدين الذي ختم به الأديان والرسالات ، وكذلك يحبط مساعي المصلحين ، والمجدِّدين ، والمجاهدين ، والشهداء المخلصين المتفانين من العصر الأول إلى هذا العصر ، ويفتح المجال في هذه الأمَّة وفي بلادها العريقة في الإسلام لقبول مبدأ المجتمع الغربي المسيحي:

«إنَّ الدين قضيةٌ شخصيةٌ ، وقضيةٌ بين الفرد والخالق ، لا شأن له بالحياة ، والتشريع ، والسياسة».

٢ ـ ومن قبيل الإنصاف ، والتحليل النَّفسي لأصحاب هذا الاندفاع المتهور إلى الهتافات ، والمظاهرات المتحدية التمثيلية ـ وإن لم يكن ذلك مبرراً لوجود هذا الاندفاع إلى حدِّ التقديس ـ أنَّ من أسبابه عدم وجود قيادةٍ قويةٍ جريئةٍ إن لم أقل: بطولية؛ قلت: جهاديةٍ نضاليةٍ ، معتدةٍ بعقيدتها ومركزها القياديِّ في العالم ، مستغنيةٍ إلى حدٍّ ممكن عن الاعتماد على الطاقات الغربية ، أو الشرقية الكبرى ، التي لم تزل تمثِّل دور إحباط الجهود الإسلامية ، والحركات الدِّينية القوية الواسعة الآفاق ، وحرمان هذه البلاد من شخصياتٍ قياديَّةٍ عملاقةٍ يسيطر عليهم التفكير الديني ، وتطبيق الشريعة في بلادها ، والعمل لمجد الإسلام ، وإنهاض المسلمين بمؤامراتٍ داخليةٍ

وخارجية أفقدت هذه البلاد خيرة قادتها وزعمائها في العصر القريب ، والناس ما زالوا مفطورين على إجلال العزَّة ، وروح المخاطرة ـ والمغامرة أحياناً ـ لأنَّ الإجلال لشيءٍ لا يجده الإنسان عنده شيءٌ طبيعيٌّ ، ولأن تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والمغامرات ، وقد سئم أصحاب الضمائر الحيَّة ، وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الرَّخوة ، الضعيفة ، المستسلمة.

ومن الحقائق: أنَّ عدداً كبيراً من المسلمين ـ خصوصاً الشباب ـ مطَّلعٌ على هذه المؤامرات ، ممتعضٌ من أصحابها ، حانقٌ عليهم.

فلا بدَّ إذاً من الاهتمام بوجود قيادةٍ قويَّةٍ ، جريئةٍ ، مؤمنةٍ ، عاقلةٍ ، مكتفيةٍ بما أنعم الله به على بلادها من ثرواتٍ وطاقات ، معنية بالزيادة فيها ، وبالتكنولوجية ، والصناعات والقوى الحربية ، مستغنيةٍ عن هذه الطاقات الأجنبية ـ إلى حدٍّ ممكن ـ في الاعتماد والاستيراد ، تستطيع باعتمادها على القوَّة الإيمانية ، وإخلاص شعوبها ، وتفانيها في سبيل العقيدة والدِّفاع عن الإسلام أن تحتجَّ ضدَّ عدوانٍ ، أو مؤامرةٍ ضدَّ مصلحةٍ إسلاميَّةٍ ، أو قيادةٍ صالحةٍ ، أو محاولة نفوذٍ ، أو تدخُّلٍ في قضايا هذه البلاد.

٣ ـ العناية بوجود حركةٍ إيمانيةٍ ، دعويةٍ ، إيجابيةٍ ، قويَّةٍ في البلاد ـ ومعرفة فضلها وقدرها حقَّ قدرها إن كانت موجودةً ، بدلاً من التخوف منها ، ومحاولة القضاء عليها ـ تقترن هذه الحركة بصفات الرجولة والطُّموح ، وعلوِّ الهمَّة ، وبعد النظر ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة؛ التي تملَّكت زمام قيادة البشرية ، وأصبحت تتحكَّم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية ، وغير الإسلامية ، من غير حقٍّ ومبررٍ.

ومن المعلوم الثابت: أنَّ الشعوب الإسلامية ـ على علاَّتها وبعض مواضع الضعف فيها التي تحدثنا عن بعضها ـ لا تزال تمتاز بين شعوب العالم ـ بما فيها الشعوب الغربية والشرقية ـ بالإيمان بالله واليوم الآخر ، والاستهانة بالحياة واللذات في سبيل الجهاد في سبيل الله ، والحنين إلى الشهادة ، والشوق إلى الجنة ، ونيل رضا الله ، وتصديق ما وعد الله عليه

من الأجر والثواب ، وبذل النفس والنفيس فيه ؛ إذا قدِّر لها الداعي المخلص القوي ، المثير فيها الحماس الإسلاميَّ ، والمشعل لشعلة الإيمان ، كما شوهد حتى في الماضي القريب بفضل القادة المخلصين الربانيين(١) وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الميزة التي يمتاز بها المسلمون عن غيرهم من الشجعان والأبطال الماديِّين من الشعوب ، والديانات التي انقطعت صلتها عن الرسالة السماوية ، والمنابع الإيمانية بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

وهذه ثروةٌ لا تعدلها ثروةٌ ، وطاقةٌ لا تساويها طاقةٌ ، فمن الجناية على هذه البلاد والشعوب الإسلامية ـ بل على القيادات والحكومات التي تحكم هذه البلاد والشعوب ـ الإشفاق منها ، واعتبارها الخطر الأكبر لمستقبل هذه القيادات والحكومات ، والمنافس الخطير في مجال الحكم والإدارة إلى أن يؤدي ذلك إلى تجنيد الطاقات ، وتركيز القوى والوسائل ـ بما فيها الصحافة ووسائل الإعلام ، ونظام التربية ـ على القضاء عليها والتخلص من أثرها ونفوذها ، فيكون جهاداً في غير جهاد ، وحرباً على أعزِّ أبناء هذه الأمة ، والبلاد ، وأنفعهم عند الحاجة إذا جدَّ الجدُّ.

ومعلومٌ: أنَّ هذه الشعوب الإسلامية تتميز كذلك بالإخلاص إذا وجدت محلَّه ، وناداها أحدٌ باسم الله ، وباسم الإسلام ، فتلبي هذا النداء بحماسٍ وتفانٍ قلَّما يوجد نظيره في هذا الزمان ، فمن الجناية على نفس القيادات ، والحكومات التعامي عن الحقائق ، وعدم الانتفاع بهذه الثروة والطاقة ، وبذل كلِّ طاقةٍ ، وذكاءٍ ، ووسائل في القضاء عليها ، والتخلُّص منها.

٤ ـ الإسلام هو قومية العالم العربي ، ومحمَّد ﷺ هو روح العالم العربي ، وإمامه ، وقائده ، والإيمان هو قوَّة العالم العربي ؛ التي حارب

---

(١) كالإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بالاكوت (١٢٤٦ هـ) والسيد أحمد الشريف السنوسي في طرابلس (م ١٣٥١ هـ) والأمير عبد القادر الجزائري (١٣٠١ هـ) وغيرهم.

بها العالم البشريَّ كلَّه ، فانتصر عليه ، وهو قوَّته وسلاحه اليوم ، كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه .

والعالم العربي ـ كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ: «لا وجود ولا اعتبار له بالحدود والثغور ، إنما وجوده واعتباره بالانتماء إلى محمَّد العربيِّ ﷺ ، وهو الذي أبرزه إلى الوجود ككائن متميِّز ، وحقيقةٍ ثابتةٍ» فلا بدَّ من تسليم هذه الحقيقة ، واحتضانها ، والتحمُّس لها ، بدل القوميات ، والوطنيات ، وهي الرابطة الوحيدة التي تربط الأقطار والشعوب العربية بالعالم الإسلامي وأقطاره الغربية والشرقية ، وتجعلها تحدب عليها ، وتتقرَّب إلى الله بحبِّها ، والدِّفاع عنها ، والاستماتة في سبيلها ، وهي الحقيقة الوحيدة التي تمنحها مكانةً مرموقةً ، وقيمةً مشرفة ، وحساباً خاصَّاً عند الشعوب والأقطار الغربية غير الإسلاميَّة .

٥ ـ الابتعاد ـ بحد الإمكان ـ من حياة الترف والدَّعة ، والاعتداد الزائد بالكماليات ، وفضول الحياة ، والإسراف والتبذير ، والاستهانة بمال الله في سبيل اللَّذة والشهوة ، والفخر ، والزينة ، والابتعاد إلى حدٍّ ممكنٍ من كلّ ما لا يرضاه الله ورسوله من أعمالٍ وأخلاقٍ ، ويحول بينه وبين نصر الله وتأييده ، وقد تماسك العرب الأولون ـ المسلمون ـ واحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية العربيَّة ، والبساطة والاقتصاد ، وحياة التقشف والفروسية ، مقابل الحضارتين الرُّومية والفارسية اللَّتين بلغتا الغاية في التأنُّق والتوسُّع ، والحياة المصطنعة ، وإن كان لا بدَّ فيستعان بـ «تمدين» هذه المدنية ، وإخضاعها للمبادىء والغايات التي أكرم الله بها هذه الأمَّة عن طريق الإسلام ، وإخضاع هذه الحضارة وما لا بدَّ منه في مسايرة العصر للشخصية الإسلامية .

وقد دلَّ التاريخ بوضوحٍ على أنَّ كلَّ أمَّةٍ ، أو جيلٍ أصيب بالتَّرف والبطر ، والبذخ الزائد ، والتمرغ في النعيم ، وفشت فيها عادات جاهلية ، وظهرت منكرات خلقية أصبحت فريسةً لهجوم وحشيٍّ ، وغزوٍ أجنبي ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

كان ذلك شأن المجتمع الإسلامي ـ بصفةٍ عامَّة ـ في القرن السابع الهجري عند غارة التتر الوحشية التي كانت كإبادةٍ جماعَّةٍ نسليَّةٍ ، ودينيَّةٍ ، ونكتفي هنا بشهادةٍ لمؤرخ كبير[١] يصف المجتمع المسلم العائش في بغداد قبل الغزو التتاري ، وهي صورة لا تختلف عنها صور العواصم الأخرى ، والمدن الإسلامية الراقية في ذلك القرن:

«مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شطٍّ بغداد في ظلٍّ ثخينٍ ، وماءٍ معينٍ ، وفاكهةٍ وشراب ، واجتماع أحبابٍ وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ، ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً»[٢].

وهي حكاية عن المجتمعات والشعوب الإسلامية والحكومات الواسعة الراقية في تاريخ المسلمين الطويل ، وقد لقيت نفس النتيجة ، على تفاوت في العنف والشدة ، والطول والسعة حسب قامات هذه المجتمعات والحكومات وقيمتها[٣].

٦ ـ تأليف جمعية شعوب وحكومات عربية إسلامية تحلُّ محل جمعية الأمم المتحدة (United Nations) للإشراف على متطلبات الأقطار والحكومات الإسلامية ـ وفي مقدِّمتها وعلى رأسها الأقطار العربية الإسلامية ـ السياسية الدولية ، والدفاعية ، وتقوية معنوياتها ، وحريتها ، وشرفها ، وتتولَّى الدفاع عن بلدٍ صغير يهاجمه بلدٌ كبير ، يستعان بها ، ويرجع إليها في ذلك ، بدل جمعية الأمم المتحدة ، أو طاقة من الطاقات الكبرى ، وتملك من الحول والطول ونفاذ الكلمة والاحترام المتبادل ما يمكنها من ردِّ الغارة والعدوان على بلدٍ إسلاميٍّ ، وتحسب لها الطاقات الكبرى حساباً ، وترهبها القوى العدوانية ، والقيادات المستبدة الأنانية .

ويكون في مقدمة واجبات هذه الجمعية ، الدفاع عن الحرمين الشريفين

---

(١) هو المفتي قطب الدين النهر والي المكي ، في كتابه «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» .
(٢) انظر : «الإعلام» ص ١٨٠ .
(٣) راجع للتفصيل تاريخ الحكومة المغولية في الهند والخوارزمية في تركستان وإيران .

والحجاز ، بصفةٍ خاصَّةٍ ، والجزيرة العربية بصفة عامَّةٍ؛ إذ هي معقل الإسلام ، ورأس مال الدَّعوة الإسلامية ، ويرتبط بها شرف المسلمين أينما كانوا ، ومتى كانوا ، يقول الله تعالى : ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة : ٩٧] فدلَّ ذلك على أن نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام ، كما أنَّ نظام العقائد والأعمال والأخلاق مرتبطٌ بالدَّعوة التي أسس لها هذا البيت ، فيجب أن يكون المسلمون في كلِّ بقعةٍ من بقاع العالم أصحاب غيرةٍ شديدةٍ ، وحساسيةٍ زائدةٍ في شأن مركز الإسلام ، ومهبط الوحي ، ومطلع الصبح الصادق الجديد للإنسانية ، ويكون المسلمون من ضفاف النيل إلى أرض كاشغر ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ جيشاً حارساً للحرم ، ورجلاً واحداً في الدفاع عنه ، والاستماتة في سبيله .

وأخيراً لا آخراً كلمة لولاة الأمور ، والمسؤولين عن الأقطار والحكومات الإسلامية والعربية :

إنَّ أنفع شيءٍ وأجداه أيها السادة! في ضوء القرآن ، والسنة ، وتاريخ الدّعوات ، والقيادات ، والتطورات ، والانقلابات هو : الصدقُ مع الله ، والإنابةُ إليه ، وتغيير ما يمكن تغييره في حياة الفرد والمجتمع ، وتطبيق ما يمكن تطبيقه في حياتهما من الإصلاحات ، وإزالة المنكرات ، وما يبعد من رحمة الله ، ويحول دون نصرته من تناقضاتٍ أو تساهلاتٍ في الإطار الفرديِّ ، والاجتماعيِّ ، والإداريِّ ، والسياسيِّ ، والقرآنُ شاهد على ذلك ، وفي السنَّة الصحيحة ، والأسوة النبوية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، والملوك الصالحين نماذجُ من ذلك ، لا نحتاج إلى تفصيل وتعيين أسماء وحوادث ، وهو أكبر مؤثرٍ وجالبٍ لرحمة الله تعالى ، ومفتِّرٍ لمصير الأمم والمجتمعات عند الأزمات ، لا يعادله شيءٌ آخر من الأسباب العاديَّة ، والطاقات العسكريَّة ، وحماية الحكومات الكبيرة ، ومؤازرتها .

* * *

مقالات متنوعة

في الأركان الأربعة

(الصلاة الزكاة الصوم الحج)

وفي التوحيد، والعقيدة، والتصوُّف

الصلاة، دورها العظيم
في تكوين مجتمع مثاليٍّ أفضل(١)

تأثير الصلاة في الأخلاق والميول:

للصلاة تأثيرٌ في صرف النفس عن الأخلاق الرذيلة، والفحشاء والمنكر، والتمتع بالمتعة الرخيصة، ليس لشيءٍ آخر بعد كلمة التوحيد، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وذلك لأنها تصرف صاحبها من جهةٍ إلى جهةٍ، ومن ذوقٍ إلى ذوقٍ، ومن طلبٍ إلى طلبٍ، ومن تفكيرٍ إلى تفكيرٍ، ومن سفاسف الأمور إلى معاليها، وتحبب إليه الإيمان، وتزينه في قلبه؛ وتكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، هذا، إذا كانت الصلاة حقيقيةً تتدفق بالحياة، وتفيض بالحرارة والقوة، ولذلك لما فوجىء قوم شعيب بالدعوة إلى التوحيد، والفضيلة والتقوى، والإنكار على ما كانوا فيه من ظلمٍ وبخسٍ وتطفيفٍ؛ أقبلوا على حياة شعيب يلتمسون فيها مصدر هذا الانقلاب وهذا الاختلاف، فقد ولد ونشأ فيهم كابن قبيلة وابن بلد، والذي يردون إليه طبيعة هذا الخصام والنزاع، فلم يجدوا في حياته شيئاً أوضح من الصلاة التي كانوا يشاهدونها، ويتعجبون لحسنها وطولها، فقالوا: ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس، المجلد الثاني عشر، عام ١٩٩٨ م.

التشريعات الحكيمة لتفخيم شأن الصلاة ، وخلق الجو المناسب لها :

وقد هيأ الله بتشريعه الحكيم لها جواً من الإجلال والتعظيم ، ومن الخشوع والرقة ، ومن الجدِّ والرزانة ، ومن الوقار والسكينة ، ومن التعاون والاجتماع ما لا يوجد له نظير لعبادةٍ أو نسكٍ في دين آخرٍ ، وفي ملَّةٍ أخرىٰ .

الأذان نداء للصلاة ، ودعوة الإسلام :

فشرع للدَّعوة إلى الصلاة والجمع عليها نداءً ، لم تتجل فيه مقاصد الصلاة ومعانيها فحسب ، بل تجلَّت فيها كذلك مقاصد الإسلام وشعار التوحيد ، وروح الدين بوضوحٍ ، وبلاغةٍ ، وإيجازٍ ، وجمالٍ ، ونغمةٍ ، أصبح بها هذا النداء الذي يرفع به المؤذن صوته من مكان عالٍ خمس مراتٍ في كلِّ يومٍ دعوة مركزة إلى الإسلام ، وتعريفاً بمقاصده وتعليماته ، قد يؤثر في نفوس كثيرٍ من غير المسلمين ، فشرح الله صدورهم للإسلام ، وليس لهذا النداء ـ الذي يجمع بين الجمال والبساطة ـ نظير في أساليب الدَّعوة ، والإعلام بالعبادات ، والديانات الأخرى ، إنَّه هو النداء الديني الوحيد الذي ابتعد عن كل مظهرٍ خارجي وعن استعانةٍ بالآلات ، والإغراءات ، وجاء فيه لباب الدين ، وخلاصته . إنَّه يضم الإعلان بعظمة الله وكبريائه ، وأنه أكبر من كل كبير ، ويضمُّ الشهادتين : شهادة «**أن لا إله إلا الله**» وشهادة «**أن محمداً رسول الله**» ، ثم الدعوة إلى الصلاة وحضورها في جماعة في المسجد . ثم الإخبار بأنَّها وسيلة الفلاح في الدنيا والآخرة ، وأن لا فلاح بدونها ، فأصبح بذلك كله كلمةً جامعةً . ودعوةً كاملةً ونداءً بليغاً ، يخاطب القلب والعقل ، ويلفت المسلم وغير المسلم ، وينشط الكسلان ، وينبه الغافل . يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي :

«واقتضت الحكمة الإلهية ألا يكون الأذان صرف إعلام وتنبيهٍ ، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والنبيه تنويهاً بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب

أن يكون مركباً من ذكر الله ، ومن الشهادتين ، والدعوة إلى الصلاة ؛ ليكون مصرحاً بما أريد به»[1] .

التطهر وما يورثه من اهتمام :

وشرع للصلاة التطهر والوضوء ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة : ٦] .

وذلك لأن التطهر والوضوء ـ وخصوصاً إذا كان بإيمان واحتساب ـ يورث الاهتمام ، ويوقظ النفس ، ويهيئها لاستقبال الصلاة وما فيها من نورٍ وسكينة .

وقد سنَّ رسول الله ﷺ كتكميل فوائد الوضوء والطهارة ، والاستعداد للصلاة التي هي مناجاةٌ مع الله السواك ، وحثَّ عليه حثاً شديداً حتى قال : «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[2] .

المساجد : فضلها ، ومركزها في حياة المسلمين :

ثم بنيت لها المساجد التي لا يوجد لها نظير في معابد الأمم والملل في السذاجة والبساطة ، والنظافة والسكينة ، وفي الجو الخاشع الروحاني الذي يسودها ، وفي شعائر التوحيد التي تتجلّى فيها : ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور : ٣٦ ـ ٣٧] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ١٨]

---

(١) حجة الله البالغة ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) رواه البخاري (٨٤٧) و(٦٨٣١) ، ومسلم (٢٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وكانت هذه المساجد ـ ويجب أن تظل هكذا ـ مركز حياة المسلمين وتعلمهم ودراستهم، ومصدر الإصلاح والتوجيه، تعالج فيها قضايا المسلمين الاجتماعية والدينية، ويتلقون فيها أحكاماً في حياتهم ومهماتهم، فكان رسول الله ﷺ إذا حَدَثَ حَدَثٌ، أو نزل بالمسلمين أمر، وكانوا في حاجةٍ إلى توجيهٍ جديدٍ، أو تعليم مزيد أمر أن ينادى في الناس: «**الصلاة جامعة**»[1] وظلَّت المساجد هكذا. فكانت القطب الذي كانت تدور حوله رحى الحياة، وتنفجر منها عيون العلم والهداية، وينبثق منها نور الإصلاح والإرشاد، وتنطلق منها موجة الكفاح والجهاد، ولا تزال منها بقية يحسد عليها المسيحيون والوثنيون المسلمين في بلادهم، وينظرون إليها تارةً بعين التلهف والحسرة، وطوراً بعين الإشفاق والوجل، ولا بدَّ لنشأة المسلمين الجديدة أن تعود هذه المساجد والجوامع إلى مركزها الأول في حياة المسلمين وقيادتهم.

الآداب المشروعة لتقوية الجو الإيماني الروحاني:

وشرع من الآداب والتوجيهات النبوية الحكيمة ما كان كفيلاً بالخشوع والسكينة، والإقبال على الله تعالى، فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إذا كان أحدكم في الصلاة، فإنه يناجي ربه، فلا يبزقنَّ بين يديه، ولا عن يمينه، ولا عن شماله وتحت قدمه**»[2].

وأمر المصلي بطاعة الإمام وتقليده، واتباعه، وكان في ذلك تجريد عن الفوضى والافتئات، وعن اتباع الهوى، والانسياق مع الرغبات، فلا تقدُّم عن الإمام، ولا تخلف عنه، ولا يسمح له بالبقاء في هيئةٍ واحدةٍ، مهما وجد فيها لذَّةً، ومهما حدثته نفسه بالبقاء فيها، والزيادة منها، فروح

---

(١) انظر باب العلامات بين يدي الساعة، و«أبواب صلاة الخسوف» في الصحاح.
(٢) رواه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٥١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الصلاة إنَّما هو طاعة الله ، وامتثال ما أمر به ومحاكاة الرسول وتقليده في عبادته : «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1] واتباع الإمام في حركاته وسكناته ، وفي انتقالاته وتقلباته : «**إنما جعل الإمام ليؤتم به**»[2] .

والمساجد تتجلَّى فيها عظمة الله ، فلا عظمة لمخلوقٍ ، ولا اختصاص لعظيمٍ أو كبير ، وهو مكان مشاع يتساوى فيه الحر والعبد ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، فهو «**كمنى**» «**مناخ من سبق**»[3] ، والإسلام لا يعرف تلك الامتيازات التي لم تكن إلا من بدع الملوك والأمراء بعد عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ولا تقدم ولا امتياز في المساجد إلا على أساس العلم ، والحظ من القرآن والفقه والتقوى ، وقد قال رسول الله ﷺ : «**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ثلاثاً**»[4] .

الجماعة ، أهميتها وفضلها :

وشرعت الصلاة المفروضة بالجماعة ، وهي طبيعة الصلاة المشروعة في الإسلام ، ووضعها الصحيح ، ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٣] ولذلك داوم عليها الرسول ﷺ وأصحابه مداومةً شديدةً وقد جاء كأنها جزءٌ من الصلاة ، ولم يتركها حتى في مرضه الذي مات فيه ، وقد جاء في صحيح البخاري ، **عن عائشة رضي الله عنها : «ثقل النبي ﷺ فقال : أصلى الناس؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله! قال : ضعوا لي ماءً في المخضب ، ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس؟ قلنا : لا هم ينتظرونك ، قال : ضعوا لي ماءً في المخضب ، ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، قال : ضعوا لي ماءً في المخضب ، فاغتسل . ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه . ثم أفاق فقال : أصلى**

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥) عن أبي قلابة .
(٢) رواه البخاري (٣٧١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو داود (٢٠١٩) ، والترمذي (٨٨١) وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) رواه البزّار في المسند (٩/ ٢٧٤) برقم (٣٨٢٣) عن عبد الله بن عامر عن أبيه .

الناس؟ قلنا: لا ، ثم ينتظروك. والناس عكوف في المسجد ينتظرونه ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس. . . إلى آخره»[1].

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أشدِّ الناس التزاماً لهذه الجماعة، يقول عبد الله بن مسعود: «**ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادىٰ بين الرجلين حتى يُقام في الصف**»[2] وفي روايةٍ عنه «**رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد علم نفاقه ، أو مريض**»[3] وقد كان رسول الله ﷺ شديد الإنكار على من كان يتغيب عن الجماعة ، ولا يشهد الصلاة مع المسلمين ، وقد جاء في الصحاح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أنَّ رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلاة فقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها ، فآمر بهم ، فيحرقون عليهم بحزم الحطب**».

بعض حكم الجماعة ، ومصالحها وبعض آدابها:

وفي الجماعة حكمٌ دقيقةٌ ومصالح عظيمةٌ للمسلمين. منها: ما هي اجتماعية وخلقية ، كالوحدة والاجتماع ، والتعاون والتعارف ، وقد بحث عنها علماء الإسلام ، وحملة الأقلام ، وأفاضوا فيها . ومنها ما هي أدقُّ ، ولم يفطن لها كثيرٌ من الباحثين ، والكتاب العصريين[4].

ومنها: أنَّ لاجتماع المسلمين راغبين في الله ، راجين راهبين ، مسلمين وجوههم إليه خاصيةً عجيبةً في نزول البركات ، وتدلي الرحمة ، وهذا هو السرُّ في دعاء الاستسقاء وجماعته ، وفي جمع الحج[5].

ومنها: «التشجيع على العبادة والمحافظة على الصلوات ، والتنافس في

---

(١) رواه البخاري (٦٥٥) ، ومسلم (٤١٨ عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه مسلم (٦٥٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه مسلم (٦٥٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) البحث الدقيق العميق في «أسرار الجماعة ومصالحها» وشرح ما ورد فيها من الأحاديث والأخبار في الجزء الثاني من كتاب (حجة الله البالغة) ص ١٩ ـ ٣١.

(٥) مقتبس من كتاب (حجة الله البالغة) بتعديل يسير .

إحسانها ، وإتقانها ، والإكثار منها ، وإصلاح ما قد يطرأ عليها من فساد ، أو من خللٍ للانفراد أو الجهل ، وتعلم ما فات من أحكامها وآدابها ، وأذكارها وقراءتها ، والتأسي بالعلماء الفقهاء ، والعباد المخلصين .
ومنها: أنَّ إخلاص بعض المخلصين ، وإخباته وخشوعه يؤثر في الجماعة كلها ، ويوقظ النفوس الخامدة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وقد يكون سبباً في قبول عبادة الجميع ، والغض عما فيها من ضعفٍ ، أو خلل ، أو تقصير ، وذلك شيءٌ لا يخالف المعقول أو المنقول ، فأهل الإخلاص والخشوع قومٌ لا يشقى بهم جليسهم.

وقد كان رسول الله ﷺ شديد الاهتمام بتسوية الصفوف ، شديد الإنكار على الإخلال بها ، والتفريق فيها إذ لا تتحقق فوائد الجماعة ولا تكتمل إلا بالمحافظة عليها ، وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص ، ولأن الصلاة والجماعة تربيةٌ للحياة كلها ، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئاً من عمل الدنيا والآخرة. وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**سووا صفوفكم ، فإنَّ تسوية الصفوف من إقامة الصلاة**»(١) وعن النعمان بن بشير ، قال: «**كان رسول الله ليسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح. حتى رأى أنا قد عقلنا عنه ثم خرج يوماً ، فقام حتى كاد أن يكبر ، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف ، فقال: «عباد الله! لتسونَّ صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم**»(٢).

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٩٠) ، وابن ماجه (٩٩٣) عن أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٨٥) ، ومسلم (٤٣٦) عن النعمان بن بشير .

مواساةٌ طوعيةٌ شاملةٌ أم مساواةٌ إجباريةٌ محدودةٌ[1]؟

*** مواساة طوعية شاملة للحياة ، عمل بها وحثَّ عليها الرسول ﷺ وقام عليها المجتمع الإسلاميُّ المثاليُّ!**

أم

*** مساواةٌ إجباريةٌ محدودةٌ في المال يدعو إليها الشيوعيون والاشتراكيون؟**

كانت الزكاة المشروعة في الإسلام هي الحدَّ الأدنى للبرِّ والمواساة في أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضةٌ لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، وهذا الذي تطالب به الشريعة الإسلامية بكلِّ جدٍّ وصرامةٍ ، وتعتبره شرطاً للإسلام ، وشعاراً للمسلم ، وركناً من أركان الدين الأساسية ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] والذي ينكرها ويمتنع عن أدائها ـ عمداً وإصراراً ـ يعتبر أنه خلع ربقة الإسلام ، وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيها وأفقهها لدينه أبو بكر الصديق ، ووافقه الصحابة رضي الله عنهم ، فكان إجماعاً منهم .

ولكن الرسول ﷺ ـ في حياته الخاصَّة وفي ذوقه واتجاهه وفي تحريضه وترغيبه ، وفي وصاياه ، وتوجيهاته لخاصة أصحابه ، ولمن أراد أن يأتسي به ، وسمت همّته ـ لم يقف عند هذا الحد ، ولم يعتبره المثل الأعلى في

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن ، المجلد العاشر ، عام ١٩٦٦ م.

البرِّ والمواساة ، وأداء الحقوق ، وقد عبَّر عن ذلك في أسلوبه النبوي الموجز المعجز الذي تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء ، بقوله: «**إنَّ في المال حقاً سوى الزكاة**» ، فقد روى الترمذيُّ بسنده عن فاطمة بنت قيس ، سئل أو سألت رسول الله ﷺ عن الزكاة ، فقال: **إنَّ في المال حقاً سوى الزكاة** ، ثم تلا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٧٧] وتمام الآية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد دلَّت سيرته فيما آتاه الله من مال ، وسيرته في أهل بيته الذين كان أعظم هذه الأمة براً بهم، وحدباً عليهم، كما قال: «**خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي**»[١] ، وسيرته في أقرب الناس وأحبهم إليه على نظرته النبوية الخاصة التي كان ينظر بها إلى هذه الأموال ، بل إلى هذه الحياة كلِّها، بل إلى هذا الكون كلِّه، نظرةً تقصر عن تصويرها والتعبير عنها المعاجم والثروة اللغوية ـ على سعتها وضخامتها ـ وتسيء إلى جلالها وسموِّها ، ونزاهتها ورقتها المصطلحات الاقتصادية الجافة ، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته ، ويتخلق بأخلاقه ، ويستحضر اليوم الآخر ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] ويحن إليه أكثر من حنين السمك إلى الماء وأعظم من حنين الطائر إلى وكره ، فينطلق لسانه قائلاً: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»[٢] ويرى أنَّ هذا المال كزبد البحر أو غثاء السيل ، أو حصى البطحاء ، لا يقيم له قيمةً ولا وزنـاً ، ويرى الخلق عيـال الله ، ويرى نفسه كولي اليتيم ، ويفضل

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه البخاري (٢٨٠١) عن أنس رضي الله عنه .

لغيره الخصب والرخاء ، والسعادة والهناء ، ولنفسه وعياله ، وأهل بيته الفاقة والجوع ، والتقشف وخشونة العيش ، يقول: «**أشبع يوماً وأجوع يوماً**»[(١)] ويقول: «**اللهم ارزق آل محمد قوتاً**»[(٢)] ويبلغ أزواجه رسالة الله ، وقد صادفت هواه ، ورغبته ، وذوقه ، واتجاهه ، فطاب بها نفساً ، وقرَّ بها عيناً ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] فلم يكن منهنَّ إلا أن آثرن الحياة مع الرسول ﷺ ، ولم يؤثرن الحياة مع آبائهن ، وإخوانهن ، الذين توسع عيشهم ، ولانت حياتهم.

وكيف كانت الحياة مع رسول الله ﷺ التي آثرنها وفضلنها؟ استمع إلى عائشة الصديقة ، تتحدَّث عنها في صدقها الموروث ، وتجربتها الواسعة؛ وخبرتها التي لا خبرة فوقها «**ولا ينبئك مثل خبير**».

«**ما شبع آل محمد يومين من خبز البر ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا إلا التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد إلا كسرة خبزٍ من شعيرٍ على رف لي**»[(٣)]. ويدخل عليه عمر يوماً فيراه على حصيرٍ قد أثَّر في جنبه ، ويرفع رأسه في البيت فلا يجد إلا إهاباً[(٤)] معلقاً ، وقبضةً من شعير ، وحصيراً تكاد تبلى ، فيبكي عمر ، فيقول له رسول الله ﷺ: **ما يبكيك يا بن الخطاب؟!** فيقول عمر: يا نبي الله! وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثَّر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذلك كسرى وقيصر في الثمار ، والأنهار ، وأنت نبي الله وصفوته . فيقول عليه السلام: «**أفي شكٍّ أنت**

---

(١) روى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت: لا يارب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرَّعت إليك ، وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». جامع الترمذي : (٢٣٤٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٠٨٦) ، ومسلم (٢٩٧٣) عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) الإهاب: كيس من جلد.

يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدُّنيا»[١] .

وكان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التي لا حاجة دونها ، ولا زهد فوقها ، والفاضل من أموال الصدقة التي يأخذها للتوزيع على فقراء المسلمين ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها ، فشغلني وجع النبي ﷺ ، ثم سألني عنها : **ما فعلت الستة أو السبعة؟** قلت : لا والله لقد كان شغلني وجعك ، فدعا بها ، ثم وضعها في كفه ، فقال : «**ما ظن نبي الله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده**»[٢] ، وكان لا يتأخر في وضع هذه الأموال في مواضعها ، وإيصالها إلى غايتها ، ولا يرجىء ذلك إلى وقتٍ آخر ، وقد روي عن عقبة بن الحارث قال : صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ، ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال : «**ذكرت شيئاً من تبرٍ عندنا ، فكرهت أن يحبسني ، فأمرت بقسمته**»[٣] وفي روايةٍ قال : «**كنت خلفت في البيت تبراً من الصدقة ، فكرهت أن أبيته**» .

وقد أوصى أصحابه وأمته بمثل هذه الأخلاق ، وبمثل هذه السيرة ، وبمثل هذه النظرة إلى المال وصايا مرققة مرغبةً ، يتخيل من يقرؤها في كتب الحديث أن ليس لأحدٍ حقٌّ في فضل ماله ، وزائد أسبابه ، ويتحرَّج بعد ما يقرؤها ، ويطلع عليها من التنعم بما بسط الله له في الرزق ، والتمتع بما وسع الله له في الدنيا ، ويضيق بميسور العيش وفضول الحياة ، وأطايب الطعام ، وأنواع الثياب ذرعاً ، وما هو إلا حثٌّ وتحريضٌ ، وترغيبٌ وتحضيض ، وأسوةُ الرسول التي يقول الله عنها : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري (٢٣٣٦) ، ومسلم (١٤٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٨١٣) عن عقبة بن عامر .

(٣) رواه أحمد في المسند (٦/ ١٠٤) عن أبي أمامة .

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد صحَّ عنه أنه قال:

«ومن كان له فضل ظهرٍ، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زادٍ؛ فليعد به على من لا زاد له»[١]. وقال: **«من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع»**[٢]. وقال: **«ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه، وهو يعلم»**[٣]. وقد روي أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، وقال له: اكسني يا رسول الله! فأعرض عنه، فعاد الرجل يقول: اكسني يا رسول الله! فقال له: **«أمالك جار له فضل ثوبين؟»** قال: بلى! غير واحد، قال: **«فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة»**[٤].

ورفع قيمة الإنسان، وقيمة مواساته، وقضاء حاجته، إلى أن بلغ ذلك مبلغاً لا يتصور فوقه، وأصبح من يقصِّر في ذلك كمن قصر في جنب الله، فقد جاء في حديثٍ قدسي: **«إنَّ الله عز وجل يقول يوم القيامة، يا بن آدم مرضت فلم تعدني! فيقول ابن آدم: يا رب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما إنك لو عدته لوجدتني عنده، يا بن آدم! استطعمتكَ فلم تطعمني! فيقول: يا رب كيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أنَّ عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه؟ أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا بن آدم! استسقيتك فلم تسقني! فيقول: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»**[٥] وقد كان غاية ذلك أن قال ـ ولا منزلة فوقه في العدل والفضل،

---

(١) رواه مسلم (١٧٢٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٧)، عن المعتمر.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٦/ ١٦٤) برقم (٣٠٣٥٩) عن ابن عباس.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٧٠) برقم (٧١٨٥) عن أنس.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمواساة والإنصاف ـ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»[1].

وقد أثرت أسوة الرسول ﷺ في حياة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وفي أذواقهم، واتجاهاتهم، وسيرتهم في أهلهم وفي أموالهم التأثير المطلوب المتوقع، وسرت هذه الروح في عروقهم، وعقولهم وأخلاقهم، حتى أصبحت حياتهم صورةً ـ بقدر الإمكان ـ لحياة الرسول ﷺ، وكان أشبه الناس به بطبيعة الحال، أقربهم إليه وألصقهم به، فتجلَّت في حياة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة، وقد روى التاريخ من أخبار زهدهم، وبرِّهم، ومواساتهم، وتورعهم في ذات أنفسهم وأهلهم، وإيثارهم لشظف العيش، وقلة الأسباب، والتقشُّف ما لا يزال ذروة في تاريخ الأخلاق والديانات، لا يصل إليها السابقون في الأمم.

فمن ذلك ما رواه المؤرخون أنَّ امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين اشتهت حلوى، واستفضلت من نفقتها من عدَّة أيامٍ ما تشتريه به، فلما علم ذلك ردَّ الدريهمات إلى بيت المال، وأسقط من نفقته كلَّ يومٍ ما فضل منها لثمن الحلوى، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان، وليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم، وتتوسَّع به في المطاعم.

وزهد عمر في حياته وتقشفه مضرب المثل في التاريخ، ويكفي أن تقرأ خبر رحلته بصفته خليفةً وأميراً للمؤمنين إلى الجابية فكان على جملٍ أورق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة، ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب، وطاؤه كساءٌ أنبجاني ذو صوفٍ، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة، أو شملة محشوةٌ ليفاً، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميصٌ من كرابيس قد رسم، وتخرق جنبه[2].

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٤) عن أنس.

(٢) البداية والنهاية:ج ٧، ص ٥٩، ٦٠.

وأما عثمان وهو أكثر إخوانه مالاً ، وأوسعهم أسباباً ، فقد روى شرحبيل بن مسلم : أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل في بيته فيأكل الخبز والزيت . وأمَّا علي بن أبي طالب؛ فهو من زهَّاد الصحابة المعدودين المعروفين ، يصفه صاحبه ضرار بن ضمرة ، فيقول :

«يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته؛ كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه»(١) .

وكان تأثير هذه الأسوة في الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها ، وطول عشرتهم له ، فكانت لعائشة أمِّ المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ اليد الطولى في ذلك ، وقد روى المؤرخون **«أنها تصدَّقت مرَّةً بمئة ألف درهم ، وليس عليها إلا ثوب خلق ، وكانت صائمة ، فقالت لها خادمتها : لو أبقيت شيئاً لتفطري عليه! فأجابتها : لو ذكرتني لفعلت ، وتصدقت بمئة ألفٍ وهي جائعة فنسيت نفسها ، وذكرت الناس!»**(٢) .

وسرت هذه الأخلاق وهذه الروح في المجتمع الإسلامي الأول ، فكان ذلك دأب الصحابة ، وديدنهم ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما ، **«لقد أتى علينا زمانٌ ـ أو قال : حين ـ وما أحدٌ أحقُّ** بديناره ودرهمه من أخيه **المسلم»**(٣) .

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة في المواساة تكاد تبلغ إلى حدِّ المساواة ، وحسن الجوار يبلغ إلى آخر نقطة في الإيثار ، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه ، قال : **«أهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ،**

---

(١) صفوة الصفوة:لابن الجوزي .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١١١) عن ابن عمر .

فقال: فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداولته سبعة»[1].

وانتقل هذا الشعور الدقيق، والحسُّ المرهف، والغرام بالمواساة، وانتقل في الأجيال الإسلامية اللاحقة، وكان للتابعين بإحسان القدح المعلى في ذلك بطبيعة الحال، يقول سيد التابعين الحسن البصري: «**لقد عهدت المسلمين وإنَّ الرجل منهم يصبح فيقول: «يا أهليه! يا أهليه! يتيمكم، يتيمكم، يا أهليه! يا أهليه! مساكينكم، مساكينكم، يا أهليه! يا أهليه! جاركم، جاركم**»[2]. وكان لبني هاشم وسادة أهل البيت قدم صدق في هذا المضمار، وقد روى التاريخ عن جود الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر، ورقة عاطفتهما الشيء الكثير، وكان لعلي بن حسين بن علي رضي الله عنه وعن آبائه التقدم والرئاسة في هذه المآثر والمكرمات، قال محمد بن إسحاق: «**كان ناسٌ بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون؟ ومن يعطيهم؟ فلما مات علي بن الحسين؛ فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين**»[3].

وتوارثت الأجيال الإسلامية الفاضلة هذه السيرة، وهذا الذوق الرفيع، وهذا الحسَّ المرهف، وهذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم وأموالهم، ومثَّلها الراسخون في العلم والدين، والربانيون والمربون أجمل تمثيل وأروعه في كل عصر، وفي كلِّ بلد، وزخرت بأمثالها وروائعها كتب التاريخ والتراجم، وما فاتها وأفلت من استقصاء مؤلفيها البارعين فذكر في غير مظانه أغرب وأروع مما حوته كتب التاريخ، وكان شعار الربانيين والشيوخ المربين ومبدؤهم ألا يبيت عندهم درهم ولا دينار، وأن يؤثروا

---

(١) إحياء علوم الدين: للغزالي ج ٢، ص ١٧٤.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٩) عن الحسن.

(٣) أكثر هذه الأمثال والحكايات ملتقطة من كتاب «اشتراكية الإسلام»، للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي.

على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يكون ما يكرمهم الله به من أموال وهدايا وطرف وخيرات تأتيهم من الملوك والأمراء ، والأغنياء والأثرياء وقفاً على فقراء البلد وذوي الحاجات الذين لا سبيل لهم إليها ، فكان مبدؤهم وسيرتهم أن «**تؤخذ من أغنيائهم وتردَّ على فقرائهم**» فكانت سفرتهم من أوسع الموائد وأغناها لجميع طبقات الناس ، كما كان قلبهم من أوسع القلوب ، وأسخاها لجميع الناس ، وقد أثر عن سيدي عبد القادر الجيلي ، الذي يعبر فيه عن جميع إخوانه ، ومن كان على شاكلته: أنَّه قال: «**كفي مثقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءني ألف دينار لم تبت عندي**»[١]. وقال: «**أود لو كانت الدنيا بيدي أطعمتها الجائع**»[٢].

وكان لأبعد ثغور الإسلام ولأقصى أطراف العالم الإسلامي من هذه السيرة ، ومن هذا الضرب من الناس؛ ومن هذا الطراز للإنسانية نصيبٌ غير منقوص؛ وتراجم هؤلاء المخلصين الربانيين والدعاة المربين حافلةٌ بنوادر الحكايات ، وروائع الأخبار في الزهد والإيثار؛ والمواساة ، والمساواة ، والأريحية ، والنهامة ببذل الأموال؛ وحسبنا أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التي تكاد تكون مطردةً في حياة هذه الطبقة؛ وسيرها متشابهة؛ وأخلاقها متشاكلة ، كتشابه الأوراق في الشجرة ، فكلهم من غرس تعاليم النبوة ، وفروع شجرة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

منها: أنَّ الشيخ نظام الدين الدَّهلوي من رجال القرن الثامن الهجري يقول خادمه: إنَّه كان يترك الطعام المنوع الفاخر عنده للتسحُّر ، فكان يجتزىء بلقيمات ، ويقول: **أجده في بعض الأيام لم يتناول منه شيئاً وكنت أراه لا يفطر إلا بما يقيم الصلب ، فقلت له يوماً: نفسي فداك! كيف يحافظ سيدي على حياته وصحته مع هذا التقليل من الغذاء؟ ففاضت عينه على ذلك ، وغلبه البكاء ، وقال: يا فلان! كم من فقيرٍ بائسٍ ، وكم من مسافرٍ**

---

(١) قلائد الجواهر: ص ١٠.
(٢) أيضاً.

بات في المساجد والطرقات على الطوى لم يجدوا لقمةً يتقوون بها ، فكيف أسيغ هذا الطعام والناس يبيتون جياعاً ، ويصبحون جياعاً»[١] فلما دنت وفاته طلب أصحابه ، وقال لهم: إذا ادَّخر إقبال «خادمه» شيئاً من الحبوب والطعام ، فاشهدوا أني بريء من ذلك ، وأنَّه هو المسؤول أمام ربه ، فقال إقبال: إنني لم أترك شيئاً ، وقد تصدقت بكل ما وجدته إلا حبوباً يأكلها المقيمون في هذه الزاوية بضعة أيام ، فقال: ادعوا لي الناس ، فلما حضروا فقال: دونكم الحبوب وما تجدون في هذه الزاوية من الرزق والطعام فنهبوه نهباً ، وأمرهم بأن يكنس ذلك المكان ، ويجعلوه قاعاً صفصفاً.

والنموذج الثاني ما رواه مؤرِّخٌ هندي عن الشيخ السيد محمد سعيد الأنبالوي ، وهو من رجال القرن الثاني عشر ، فيقول: «زاره مرة روشن الدولة ، وكان أميراً من أمراء السلطان «فرخ سير» (ملك الهند المغولي) وقدم ستين ألف روبية[٢] لبناء زاويته ، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكان ويستريح ، فانصرف روشن الدولة ، فأرسل الشيخ إلى الفقراء ، وأرسل هذا المال إلى الأيامى والمساكين ، وأهل الحاجة في ضواحي البلد وفي المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس ، فلما أتى روشن الدولة قال له: «لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله». ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير ، والأمير روشن الدولة ، والأمير عبد الله خان ، وأمر بثلاثمئة ألف روبية[٣] فوزعها كلَّها في القرى المجاورة والأشراف الساكنين فيها»[٤].

وقد يقول القارىء: إنَّ هذه سيرة طبقة زهدت في الدنيا ، ورفضت أسبابها ، وعاشت في عزلةٍ عن الدنيا وعن الناس ، فهل هناك أمثلة لهذه

---

(١) سير الأولياء.

(٢) تساوي أربعة آلاف جنيه إسترليني ، وإن قدرت قدرتها الشرائية ذلك اليوم تصبح أضعافاً مضاعفة.

(٣) تساوي ١٤٠٠٠ جنيهاً إسترلينياً.

(٤) «نظام التعليم والتربية في أردو» المجلد الثاني ، للعلامة مناظر أحسن الكيلاني.

الزهادة ، والبر ، والمواساة ، والاستغناء ، والإيثار في طبقاتٍ أخرى من هذه الأمة؟ ويجيبهم التاريخ الأمين فيقول: نعم! وفي كلِّ طبقةٍ من طبقات هذه الأمة ، وفي كلِّ جيلٍ من أجيالها ، وفي كلِّ بيئةٍ من بيئات دنيا الإسلام من ائتسى بالرّسول ﷺ ، وأتى بغرائب في هذه الأخلاق ، وفي سيرته ، في ماله ، وفي عياله ، وجيرانه ، وأهل بلده ، وأبناء جنسه ، ولكن التاريخ لم يسجل إلا مآثر من لفت نظره ، وفرض عليه ذكره ، وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته من الملوك والأمراء والصلحاء والعلماء ، ونقتصر هنا على طبقتين فحسب، وهما طبقة العلماء الأعلام، وطبقة الملوك والحكام.

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف ، ويعتقدون أنَّ الجانب العلمي يطغى على الجانب العاطفي ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمري:

«كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب ، والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ويدعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ عنه شيئاً إلا ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليذهبه» وقد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثيابٍ ، ويقدِّمها إلى السائل إذا لم يجد شيئاً آخر ، يقول الحافظ ابن فضل الله:

«كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه ، فيصل به الفقراء». **ويقول أحد الرواة: «وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه»**[1].

ونختار من طبقة الملوك والحكام السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي حكم أكبر دولةٍ إسلاميةٍ في عصره يشهد عنه صديقه ورفيقه ابن شداد ، فيقول: **«إنه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحدٌ صوري ، ما علمت وزنه».**

---

(١) الكواكب الدرية.

ولما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب ، لم توجد في خزانته ما يكفنونه وينفقون على تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوبٍ فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه ، قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلٍّ عرفه»[1].

وليست هذه قصة جيلٍ واحدٍ ، ولا قصَّة مدرسةٍ واحدةٍ من المدارس الفكرية والروحية الكثيرة ، فلم يزل هذا شعار العلماء الربانيين والشيوخ الكاملين ، ولم يزل مبدؤهم : «لكل يوم رزقه وقوته» فلم يكونوا يدَّخرون شيئاً ، ولا يشحُّون بشيءٍ خشية الإقتار ، وعلى ذلك أدركنا شيوخنا وأساتذتنا ، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شيء يحتاج إليه عباد الله ، أو يبيت عندهم درهم أو دينار وهم في غنى عنهما ، وكان ذلك في غير رهبانيةٍ أو تحريمٍ لما أحلَّ الله ، وكذلك في غير تشريع لما لم يشرعه الله ، ولا في تشديدٍ فيما لم يشدد الله فيه ، ولا إجبارٍ وإرهاقٍ ، لكنه خوفٌ من المحاسبة ، ورأفةٌ بالخلق ، وتأسٍّ بأسوة الرسول وسيرته في الإنفاق والإيثار ، وتطوعٌ وتبرعٌ ، وترغيبٌ صامتٌ بالأمثال العملية ، والنماذج الحية ، فكان لها التأثير العميق في النفوس والقلوب يحمل التلاميذ والمحبين على التقليد ، والاتباع.

فكان المجتمع الإسلامي ـ على علاَّته وعلى أدوائه الكثيرة التي لم يزل المصلحون يحاربونها ـ أفضل المجتمعات البشرية في عاطفة البر والمواساة التي تغلغلت بفضل التعاليم الإسلامية في أحشائه ، وأكثرها تحرراً من عبادة المال والمعدة ، يكثر فيها الأفراد الذين يثورون على سلطان المادة ويخضعونها لسلطان الدين والمثل الخلقية الإسلامية ، فكان التنافس التجاري ، والأثرة الفردية أو الطبقية أضعف فيه[2] منه في المجتمعات التي

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، لابن شداد ، ص ٣٥١.

(٢) يقول العلامة الندوي : «حدثني بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في=

لا تؤمن بحياة غير هذه الحياة ، ولا تعرف غاية غير غاية الثراء والرخاء ، وتسوقها المثل الاقتصادية سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ، ولا هوادة ، فكانت هذه سمة المجتمع الإسلامي ، رغم أنه بلغ منتهى الضعف في العصر الأخير ، وكان أكثر استعداداً وقابلية للتقدم في مضمار العدالة الاجتماعية ، وتحقيق المثل الإنسانية العليا من كل مجتمع بشريٍّ ، لخضوعه للمبادىء الإسلامية في قليلٍ أو كثيرٍ ، ولوجود الرباط الإيماني الذي يربط أفراده ، ويجمع أشتاته.

ثم جاء أقوامٌ فقدوا الثقة بالإنسان والإنسانية ، ففضلوا المساواة الإجبارية المحدودة في المال على المواساة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا أو تناسوا: أنَّ المال ليس هو حاجة الإنسان الوحيدة ، وأنَّ المساواة فيه ، أو الشركة لا تسدُّ كلَّ فراغٍ في نفسه وفي مشاعره وأحاسيسه وفي حياته ،

= الحجاز ، أنَّ تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانبٍ عظيم من المواساة لزملائهم ، والنظر في مصالحهم ، والإخلاص والإيثار لهم ، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار ، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه ، وما حدَّده من الربح والوارد ، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم ، قال له في لطف وهدوء: «دونك هذا الدكان الذي هو بجواري! تجد عنده ما تجده عندي وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم فهو أحق بأن تشتري منه».

ويتحدَّث الأستاذ محمد أسد النمساوي عن مدينة إسلامية عربية كبيرة (هي دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلي:

«وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها: أنَّ أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة ، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد ، حتى إنَّ صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه ، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت ، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور؟ فيتقدم التاجر المجاور دائماً ـ التاجر المزاحم ـ ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة ـ لا بضاعته هو بل بضاعة جارة الغائب ـ ويترك له الثمن على مقعده ، أين؟ في أوربة يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟» (الطريق إلى مكة ، ص ١٦٧ باختصار).

ولا تُضَمِّد كلَّ جرحٍ من جروحه ، إنَّ حاجته إلى مواساةٍ شاملةٍ للحياة كلِّها أشدُّ من حاجته إلى مساواةٍ في المال كله ، وفي المرافق كلِّها ، وفي الموارد بأسرها ، وقد تفعل كلمةٌ رقيقةٌ ، أو دمعةٌ بريئةٌ يثيرها الشعور بالألم ما لا تفعله الأموال الطائلة ، والعطايا السخية ، وهو في حاجة إلى مساعدة إخوانه ، وإعانتهم في بعض الأحيان ، وإلى مشاركتهم في آلامه ومتاعبه في أحيان أخرى ، وإلى رقة شعورهم ودقة إحساسهم حيناً ، وإلى لين عريكتهم ، ودماثة خلقهم ، وبشرهم ، وحسن لقائهم حيناً آخر ، ولذلك كان التوجيه النبوي أشمل لأنواع البر والمواساة ، وأصدق تعبيراً عن الأحاسيس الإنسانية ، فقال النبي ﷺ وهو يذكر طرق البر وأنواع الصدقة: **«تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته ، فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكلِّ خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»**[1] . وفي حديثٍ آخر **«قال: يعين ذا الحاجة الملهوف! قال**: أرأيت إن لم يستطع؟ **قال: يأمر بالمعروف أو الخير ، قال**: أرأيت إن لم يفعل؟ **قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة»**[2] . وفي حديثٍ آخر **«قال: تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق ، قلت**: يا رسول الله ﷺ! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ **قال: تكفُّ شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك»**[3] . وفي حديث آخر **«وتبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»**[4] .

وكانت نتيجة هذا الاختيار غير الموفق وإيثار المساواة أو الاشتراكية التي

---

(١) رواه ابن خزيمة في الصحيح (٢/ ٢١٩) برقم (٤٧٢) وغيره عن أبي هريرة .
(٢) رواه البخاري (١٣٧٦) ، ومسلم (١٠٠٨) عن أبي موسى الأشعري .
(٣) رواه مسلم (٨٤) عن أبي ذرٍّ .
(٤) رواه الترمذي (١٩٥٦) وقال : هذا حديث حسن غريب .

تفرضها الحكومة على المواساة التي تنبع من أعماق القلوب وتتدفق في نواحي الحياة وفي عروق المجتمع أن قام مجتمعٌ في هذه البلاد «الشيوعية والاشتراكية» لا يعرف أهله لذة المواساة لبني الجنس والعطف على الإنسانية ، والرقة للضعفاء والفقراء ، والإخلاص والنصيحة للشركاء والزملاء ، ويصبحون كلهم تجاراً متنافسين ، وأعداءً متباغضين لا يثق أحدٌ بأحدٍ ، ولا يتنازل أحدٌ لأحدٍ ، بعضهم يتجسَّس على بعض ، ويلفق عليه الأخبار ، ويزوِّر عليه القضايا ، ويشمت بمصابه ، ويحزن بسعادته ، ويتحوَّل البلد كله إلى ميدان حربٍ ، أو بناء محكمةٍ .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد الناس الشعور بالمسؤولية والنهوض بالتبعات؛ الذي فيه سر الشرف الإنساني ، وتخلَّوا عن كلِّ عهدةٍ ومسؤولية ، وأصبحوا هملاً وسوائم ، لا همَّ لها إلا العلف والرتع ، والشبع المفرط وانتقلت كلُّ مسؤولية وكلُّ تبعة إلى الحكومات ، وإلى الجهاز الإداري وإلى القوانين والعقوبات ، وأصبح المجتمع غلاماً قاصراً لا تمييز عنده ولا عقل ، فالحكومة هي التي تأخذ وتعطي ، وتهيىء لكلِّ فردٍ حاجته ، وتتكفل بذلك ، فلا معنى للعطف والمواساة ، ولا معنى للسخاء والإيثار ولا حاجة إلى شيءٍ من ذلك ، فكلُّ شيء مكفولٌ مضمونٌ ، والناس كالآلات الصماء .

لقد تجلَّت فوائد المواساة الطوعية ونتائجها الباهرة ، وما جرَّت على أهلها من الراحة والهدوء ، والسعادة الداخلية ، والثقة المتبادلة ، والحب المشترك ، والسلام الشامل ، ولذة الروح ورضا الضمير ، والاعتزاز بالإنسانية ، والتفاؤل في الحياة ، وشعور كلِّ فردٍ بمسؤوليته وواجبه ، لقد تجلَّى كلُّ ذلك في المجتمع الإسلامي المثالي الأول في أروع مظاهره ، وأجمل مناظره ، وأعمق معانيه ، ويتجلَّى في كلِّ مجتمعٍ يأخذ بمبدأ المساواة الطوعية الشاملة مقابل المساواة الإجبارية المحدودة ، أو الاشتراكية الضيقة الجامدة ، فأعضاء المجتمع متحابون متناصحون ، شهداء بالخير ، يزكِّي بعضهم بعضاً ، وكلُّ جيلٍ يشهد للجيل الذي سبقه بالفضل والسبق ، ويدعو له بالقبول والمغفرة ، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ذلك هو المجتمع الذي كان كل عضو من أعضائه مرآةً لأخيه يقيسه على نفسه، فينفي عنه كلَّ تهمةٍ ويبرئه من كل نقيصة، فقد قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] المجتمع الذي ضرب النبي ﷺ له مثلاً بليغاً، فقال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[(١)] المجتمع الذي كل عضو فيه حارسٌ كريمٌ، وناصحٌ أمين لصاحبه، فقد جاء في الحديث: «**المسلم أخو المسلم، لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كلُّ المسلم على المسلم حرام، عرضه، وماله، ودمه**»[(٢)].

حين أصبحت الحياة في بلادٍ كثيرةٍ شقاءً وجحيماً ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وكلما جاء «دكتاتور» لعن السابق ورماه بالغدر والخيانة، وكل من تسلم زمام القيادة، انتقم من أعدائه ومنافسيه انتقاماً شديداً، واضطهد، وحاكم، وسفك الدماء، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فمن أبى إلا الطريق الشاقة الطويلة، والتجربة المرهقة العقيمة، قيل له ولأمثاله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٦١].

* * *

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة.

الصيام جمع بين «السلب» و«الإيجاب»

إنَّ صوم رمضان لهيئته الاجتماعية وشيوعه في المجتمع الإسلاميِّ عرضةٌ لأن يتغلب عليه التقليد ، واتباع العادة ، وألا يصومه كثيرٌ من الناس إلا مسايرةً للمجتمع والبيئة ، وتفادياً من الطعن والملام ، وأن يشار إليهم بالبنان ، ولا يرافقه الإيمان والقصد ، والتفكير في عظم شأنه وموقعه من الله ، وأجره وثوابه ، أو يصومه بعض الناس لغاياتٍ مادِّيةٍ ، أو مقاصد صحيَّةٍ واقتصاديةٍ ، فكان من حكمة النبوة الباهرة ، وفقه الرسالة العميق أن اشترط النبي ﷺ للصوم المقبول عند الله الإيمان والاحتساب ، فقال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1] ، وقد يتساءل الرجل الذي لم يعرف دخائل النفس الإنسانية ، والأنماط البشرية المختلفة: إنَّ رمضان لا يصومه إلا المسلمون ، ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الإيمان والاحتساب ، فلماذا قيده لسان النبوة بصفة الإيمان والاحتساب ، فهو من قبيل تحصيل الحاصل؟ ولكن الذي توسعت دراسته للحياة ، وتعمَّقت معرفته للدوافع النفسية ، والعوامل الخلقية والاجتماعية وقف خاشعاً أمام هذه الحكمة ، والعلم الدقيق العميق ، وشهد بأنه ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

وقد جاء تفسير الإيمان والاحتساب في حديثٍ آخر: بأن يكون الإنسان راجياً للثواب ، مصدقاً لما وعد الله على هذا العمل بالمغفرة والرضا ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز ، ما من عاملٍ يعمل بخصلة منها رجاء**

---

(١) رواه البخاري (٣٨) ، ومسلم (٧٦٠) عن أبي هريرة .

ثوابها ، وتصديق موعودها ؛ إلا أدخله الله بها الجنة»[1] .

ثم إنَّ التشريع الإسلاميَّ لم يكتف بصورة الصوم ، بل اعتنى بحقيقته وروحه كذلك ، فلم يحرم الأكل والشرب ، والصلات الجنسية في الصوم فحسب، بل حرَّم كل ما ينافي مقاصد الصوم وغاياته ، وكل ما يضيع حكمته وفوائده الروحية والخلقية، فأحاط الصوم بسياجٍ من التقوى، والأدب، وعفة اللسان والنفس ، فقال النبي ﷺ: «**إذا كانَ يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، وإن سابَّه أحدٌ ، أو قاتله ، فليقل: إني صائم»**[2] . وقال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**[3] ، وذكر أنَّ الصوم الذي يخلو من روح التقوى والعفاف صورةٌ مجردة من الحقيقة ، وجسمٌ بلا روح ، فقال: «**كم من صائمٍ ليس له من صيامه إلا الظمأ ، وكم من قائمٍ ليس له من قيامه إلا السهر»**[4] ، وعن أبي عبيدة رفعه ، قال: «**الصوم جنَّةٌ ما لم يخرقها»**[5] .

وليس الصوم الإسلاميُّ مجموعةً من أمورٍ سلبيةٍ فقط، فلا أكل، ولا شرب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال ، بل هو مجموع أمورٍ إيجابيةٍ كذلك ، فهو زمن العبادة ، والتلاوة ، والذكر ، والتسبيح ، والبرِّ والمواساة ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**من تقرب فيه بخصلةٍ من الخير؛ كان كمن أدَّى فريضةً فيما سواه ، ومن أدى فريضةً فيه؛ كان كمن أدى سبعين فريضةً فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة»**[6] . وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال: «**من فطَّر صائماً؛ كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيءٌ»**[7] .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٨٨) ، وأبو داود (١٦٨٣) عن عبد الله بن عمر .

(٢) رواه البخاري (١٨٠٥) عن أبي هريرة .

(٣) رواه البخاري (١٨٠٤) عن ابي هريرة .

(٤) رواه الدارمي في السنن (٢/ ٣٩٠) برقم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة .

(٥) رواه النسائي (٢٢٣٣) عن أبي عبيدة .

(٦) رواه ابن خزيمة في الصحيح (٣/ ١٩١) برقم (١٨٨٧) عن سلمان .

(٧) رواه الترمذي (٨٠٧) عن زيد بن خالد الجهني ، وقال : حديث حسن .

وألهم الله الأمة المحافظة على صلاة التراويح ، التي ثبت أصلها عن النبيِّ ﷺ ، وقد تركها بعد ثلاثة أيام ، لئلا تفرض على أمته فرضاً ، فتشق عليها ، فقد روى ابن شهاب ، قال : أخبرني عروة : أنَّ عائشة رضي الله عنها أخبرته : «**أنَّ رسول الله ﷺ ، خرج ليلةً من جوف الليل فصلَّى في المسجد ، وصلَّى رجالٌ بصلاته ، فأصبح الناس ، فتحدَّثوا ، فاجتمع أكثر منهم فصلَّى ، فصلُّوا معه ، فأصبح الناس فتحدَّثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله ﷺ فصلَّى ، فصلُّوا بصلاته فلما كانت الليلة الرابعة ، عجز المسجد عن أهله ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ، فتشهد ، ثم قال : أما بعد ، فإنَّه لم يخف عليَّ مكانكم . ولكني خشيت أن تفرض عليكم ، فتعجزوا عنها ، فتوفي رسول الله ﷺ ، والأمر على ذلك**»(١) .

وقد قام بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وعضَّت عليها الأمة بالنواجذ في أعصارها وأمصارها ، حتى أصبحت شعاراً لأهل السنة ، والصَّالحين من الأمة ، وكان للتراويح فضلٌ كبيرٌ في شيوع حفظ القرآن في الأمة(٢) ، ومحافظتها عليه ، وبقائه في الصدور ، وفضلٌ كبير في توفيق العامة والجماهير لقيام الليل والعبادة .

وبذلك كله أصبح شهر رمضان (مهرجاناً) للعبادة ، وموسماً للتلاوة ، وربيع الأبرار والمتقين ، وعيد العباد والصالحين ، تتجلَّى فيه عناية هذه

---

(١) رواه البخاري (٨٨٢) ، ومسلم (٧٦١) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) وقد أكرم الله بعض الأقطار الإسلامية البعيدة عن مهد الإسلام «كالهند وباكستان» بالعناية الزائدة بهذه الصلاة ، وختم القرآن فيها ، يهتمُّ بها العامة والخاصة ، ويحرصون عليها كل الحرص . فما من مسجدٍ صغيرٍ خاملٍ في كلِّ حيٍّ من الأحياء ، إلا وتقام فيه صلاة التراويح ، وتختم فيها على الأقل ختمة ، أما المساجد الكبيرة ، والأحياء الدينية ، فتختم فيها عدَّة ختمات ، ولا شك أنَّ هذه السنة قد أفادت انتشار حفظ القرآن في الشعب ، فكثر عدد الحفاظ كثرةً تستدعي العجب ، وحملت على الاحتفاظ بحفظ القرآن ، ومدارسته طول السنة ، حتى كان حفاظٌ فحولٌ ، برعوا وفاقوا في حفظه وإلقائه .

الأمة بإقامة أحكام دينها ، وغرامها بالعبادة[1] وإخباتها إلى الله ، ورقة القلوب ، والتنافس في البر والمواساة في أروع مظاهرهِ ، لا تبلغه ، ولا تبلغ عشر معشاره أمةٌ من الأمم ، أو طائفةٌ من طوائف بني آدم ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤].

تفريط المسلمين في مقاصد الصوم ، وجناية العادات على العبادات :

ولكنَّ المسلمين قد جنوا في كثيرٍ من الأحيان على أنفسهم ، وعلى مقاصد الصوم وفوائده بالعادات التي يبتدعونها ، وبجهلهم ، وإسرافهم في الإفطار والطعام ، الإسراف الذي يفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية والتربوية ، وقد لاحظ ذلك بدقَّةٍ حجة الإسلام الغزالي ، وتحدَّث عنها ببلاغةٍ ، يقول رحمه الله :

«الأدب الخامس ، ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار ، بحيث يمتلىء جوفه ، فما من وعاءٍ أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلالٍ ، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله ، وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام ، حتى استمرَّت العادات ، بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان ، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدَّة أشهر ، ومعلوم أنَّ مقصود الصوم الخواء ،

---

(١) إنَّ مما توارثته الأجيال الإسلامية في مختلف عصورها ، هو الإكثار من العبادة ، وأنواع البرِّ ، والتقرب إلى الله في رمضان ، والإكثار من التلاوة ، وتدارس القرآن وختمه ، والتنافس فيه ، والجهاد إلى حدٍّ لا يكاد يصدقه من لم يعرف قوة إرادة أهل الإيمان والصدق ، وما تصنع الروحانية القوية من عجائب وخوارق ، وعلى ذلك أدركنا العلماء الربانيين ، والدعاة المخلصين من بلادنا ، وشاهدنا حالهم ، فإنَّ بعضهم يختم كلَّ يوم ختمة ، ولا تكتحل عينه بنوم في الليل ، هذا مع تقليلٍ زائدٍ من الطعام ، فيغتنمون كلَّ لحظةٍ من اللحظات في هذا الشهر المبارك ، وكلَّ نفسٍ من الأنفاس ، فلا ينفقونه إلا فيما يقرِّبهم إلى الله ، ويزيد في قيمة رمضان ، ووزنه في الميزان ، وإذا رآهم الإنسان ، عرف قيمة رمضان وكرامته ، وعرف قيمة الحياة ، وصدق ما روي في كتب التاريخ والتراجم عن عبادة السلف ، والمتقدمين ، وعلوِّ همتهم ، وقوة إرادتهم.

وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، وإذا فرغت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء ، حتى هاجت شهوتها ، وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، وأشبعت ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدةً لو تركت على عادتها ، فروح الصوم وسرُّه تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل ، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كلَّ ليلةٍ لو لم يصم ، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً ؛ فلم ينتفع بصومه.

بل من الآداب ألا يكثر النوم بالنهار ، حتى يحسَّ بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى ، فيصفو عند ذلك قلبه ، وليستديم كلَّ ليلةٍ قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده ، وأوراده ، فعسى الشيطان ألا يحوم على قلبه ، فينظر إلى ملكوت السماء»[1].

الصيانة من التحريف والغلو :

كان رمضان مظنةً للغلو ، والتعمُّق في الدين ، فقد يفهم كثيرٌ من الناس أنَّ موضوعه وغايته قهر النفس ، وترويضها على ترك الشهوات والرغبات ، وإجهادها إلى أقصى حدٍّ ممكن ، فكلما أمعن الإنسان في إجهادها وقهرها ، وكلما طالت الفترة في الأكل والشرب والتمتُّع ، وطالت مدَّة الجوع والظمأ ، وكلما أظهر الصبر والاحتمال؛ كان أقرب إلى الله ، وأحبَّ إليه ، وأبعد عن المترفهين المترفين ، والمتنعمين المتمتعين ، وأدخل في غمار المتقين الصابرين.

وهذا الفهم الخاطىء السطحي ، هو الذي زين لكثير من المتدينين والمتقشفين في الأمم السابقة والديانات القديمة الغلو في العبادات عامةً ، وفي الصوم خاصَّةً ، فأطالوا مدَّة الإمساك عن الطعام والشراب ، وأخَّروا الفطور ، وعجَّلوا السحور ، أو تحرَّجوا عن التسحُّر مطلقاً ، ورأوه عجزاً في الدين ، وضعفاً في الصائمين ، أو وصلوا الصوم بالصوم والليل

---

(١) إحياء علوم الدين ج١،(٢٣١).

بالنهار ، وقلَّدهم في ذلك غلاة المسلمين ، والطوائف المبتدعة المتشددة ، فكان كلُّ ذلك تحريفاً في الدين ، وجهاداً في غير جهاد ، ورهبانيةً ابتدعوها ، ووباءً واسعاً لفسادٍ شاملٍ ، وتحدِّياً لقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٨٧] وقوله ﷺ: «**إنَّ الدين يسر ، ولن يشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا**»[(١)].

لذلك كلِّه سدَّت الشريعة الإلهية الأخيرة الخالدة هذا الباب ، فحثَّت على السُّحور أولاً ، ورغَّب فيه رسول الله ﷺ ، واستحبَّه ، وجعله سنةً للمسلمين ، فقد روى أنس بن مالك عنه ﷺ: «**تسحَّروا فإنَّ في السحور بركةً**»[(٢)] ، وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ ، قال: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحر**»[(٣)] وحذَّر عن تأخير الفطر ، وجعل التأخير فيه آيةً للفساد ، والوقوع في الفتن ، وشعاراً لغلاة أهل الكتاب ، فعن سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**»[(٤)] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه ، قال: «**لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر ، لأنَّ اليهود والنصارى يؤخِّرون**»[(٥)].

وكذلك كان من سنته وسنة أصحابة تأخير السحور. فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، قال: «**تسحَّرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة ، قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آية**»[(٦)] ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: **كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال ، وابن أم مكتوم** ، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بلالاً يؤذن بليلٍ ، فكلوا ، واشربوا حتى يؤذن ابن أمِّ مكتوم ، قال:**

---

(١) رواه البخاري (٣٩) عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري (١٨٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) عن أنس .

(٣) رواه مسلم (١٠٩٦) ، وأبو داود (٢٣٤٣) عن عمرو بن العاص .

(٤) رواه البخاري (١٨٥٦) ، ومسلم (١٠٩٨) عن سهل بن سعد .

(٥) رواه أبو داود (٢٣٥٣) عن أبي هريرة .

(٦) رواه البخاري (١٨٢١) ، والترمذي (٧٠٣) عن أنس .

ولم يكن بينهما ، إلا أن ينزل هذا ، ويرقى هذا»[1] .

وقد بسط شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي الكلام في هذا الموضوع ، فذكر عناية الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية ، بهذا الجانب الإصلاحي في علمٍ جمٍّ ، وفقهٍ دقيقٍ ، فقال :

«إنَّ من المقاصد المهمة في باب الصوم سدُّ ذرائع التعمق ، وردُّ ما أحدثه فيه المتعمقون ، فإنَّ هذه الطاعة كانت شائعةً في اليهود والنصارى ومتحنثي العرب ، ولما رأوا أنَّ أصل الصوم هو قهر النفس تعمَّقوا ، وابتدعوا أشياء فيها زيادة القهر ، وفي ذلك تحريف دين الله .

وهو إما بزيادة الكم ، أو الكيف ، فمن الكم قوله ﷺ : «لا يتقدمنَّ أحدكم رمضان بصوم يومٍ أو يومين ، إلا أن يكون رجلٌ كان يصوم يوماً ، فليصم ذلك اليوم» ونهيه عن صوم يوم الفطر ويوم الشك ، وذلك لأنَّه ليس بين هذه وبين رمضان فصلٌ ، فلعلَّه إن أخذ ذلك المتعمقون سنة ، فيدركه منهم الطبقة الأخرى ، وهلمَّ جرا يكون تحريفاً ، وأصل التعمق أن يؤخذ موضع الاحتياط لازماً ، ومنه يوم الشك .

ومن الكيف : النهي عن الوصال ، والترغيب في السحور ، والأمر بتأخيره وتقديم الفطر ، فكلُّ ذلك تشدُّدٌ وتعمُّقٌ من صنع الجاهلية»[2] .

والصوم كلُّه خضوعٌ للأمر الإلهي ، فلا أكل ولا شرب ، ولا متعة بما حظر على الصائم بعد تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر إلى غروب الشمس ، مهما جمحت النفس ، وطغت شهوة الطعام والشراب ، ولا إمساك عن الطعام والشراب وما حظر في النهار ، بعد غروب الشمس ، مهما جمحت طبيعة الزهد والنسك ، فليس الحكم للنفس والشهوة والعادة ، إنما الحكم لله ، ولا تجلُّد مع الله ، ولا مصارعة مع الدين ، وكلما كان الصائم متجرداً عن هواه ، منقاداً للحكم ، مستسلماً لقضاء الله

(١) رواه مسلم (١٠٩١) عن ابن عمر .

(٢) حجة الله البالغة : ج ٢ ، ص ٣٩ .

تعالى وشريعته؛ كان أصدق في العبودية ، وأبعد عن الأنانية . وقد أحسن العارف الكبير ، والمصلح العظيم الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي في الإشارة إلى هذه النكتة؛ إذ قال في إحدى رسائله :

«يتجلَّى في تأخير التسحُّر ، وتعجيل الإفطار ، عجز الصائم وحاجته ، وهو ملائم للعبودية محقِّقٌ لغرضها»[1] .

* * *

(١) الرسالة الخامسة والأربعون «مجموع الرسائل» .

تشريع الصوم وأسراره كما ذكرها القرآن (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥] هي آيات من سورة البقرة تدور حول فريضة الصيام، هذه هي الآيات الأولى التي عرف المسلمون بها وجوب الصيام في رمضان، والصوم شاقٌّ على النفس، لأنه حرمان من الطعام والشراب والشهوات في مدَّةٍ محدودة، فما كان أجدرهم بأن يستثقلوا هذا التشريع، وأن يستثقلوا هذه الآيات التي تنزل به!

إنَّ كل من يأتي بمسؤولية ومتاعب، وكل من يحول بين المرء وبين شهواته بغيضٌ ثقيلٌ، ولكنه ليس كذلك، فلماذا؟.

ليست هذه الآيات ـ التي تضمنت وجوب الصيام ـ تشريعاً جافاً مجرَّداً كالقوانين والمراسيم العادية التي لا تعتمد إلا على الرابطة السياسية والاجتماعية التي تقوم بين الفرد والحكومة، إنَّ هذه الآيات ـ بالعكس من ذلك ـ تخاطب الإيمان، والعقيدة، والعقل، والضمير، والقلب، والعاطفة

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول المجلد الخامس والعشرون، عام ١٩٨٠ م.

في وقتٍ واحدٍ ، وتثير كلَّ ذلك وتغذي كل ذلك ، وهكذا تهيىء الجو لقبول هذا التشريع ، وإساغته بل للترحيب به ، واستقباله بنشاطٍ وحماسٍ ، إنَّها آية في الإعجاز ، آيةٌ في فقه الدَّعوة ، آيةٌ في علم النفس ، آيةٌ في التشريع الحكيم ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢].

خاطب الله المكلفين بهذا التشريع بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهكذا هيأ المخاطبين لقبول كل ما يكلفون به ، ويطلب منهم ، مهما كان شاقاً وعسيراً؛ لأنَّ صفة الإيمان هي تقتضي ذلك وتوجبه . فمن آمن بالله كإلهٍ وربٍّ وسيِّدٍ مطاعٍ وصاحب الأمر والنهي ، وخضع له بقلبه وقالبه ، واستسلم له وأحبَّه من أعماق نفسه كان جديراً بإجابة كلِّ ما يصدر عنه من أمر ، وكل ما يوجه إليه من سؤال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور : ٥١] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال : ٢٤] والشريعة كلها ـ بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام ـ حياةٌ للنفوس .

ثم ذكر الله أنَّه كتب عليهم الصيام ، ولكنه لم يكتب عليهم لأول مرَّةٍ في تاريخ الأديان ، وليس هو بدعاً في التشريع ، فقد كتبه على من سبقهم من أهل الكتاب ، وأهل الشرائع والأديان ، وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس ويهوِّن خطبه عليها ، فالإنسان إذا عرف أنَّه لم يكلف بشيءٍ جديدٍ ، وإنما هو شيء سبق وتقدَّم، وقامت به الطوائف والأمم؛ هان عليه الأمر، وتشجع عليه ، ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط ، ولا مشقةً ليس وراءها قصد، إنَّه رياضةٌ وتربيةٌ وإصلاحٌ وتزكيةٌ ، ومدرسةٌ خلقيةٌ ، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً ، زمامه بيده ، يملك نفسه وشهواته ، و لاتملكه ، لقد استطاع الإضراب عن المباحات والطيبات ، فقوي على ترك الممنوعات والمحرمات ، ويترك الماء الزلال والحلال ، والطعام الزكي الهنيء لأمر ربه كيف يقرب الحرام والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش؟ لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

ثم قال: لا تهولنكم عـدَّة الشهـر ، وتثقلـنَّ عليكم ، فإنما هي ﴿أَيَّامًا

مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ تصام تباعاً ، وتنقضي سراعاً ، وما نسبة هذا الشهر ـ الذي لا يصام إلا نهاره ـ إلى العام الكامل الذي ينقضي في لذَّةٍ مباحةٍ ، ومتعةٍ وراحةٍ ، ثم إنه يُستثنى من هذا التكليف مريضٌ ، ومسافرٌ ، ومن يعجز عن الصوم ، أو يخاف عليه منه.

ثم ذكر فضل الشهر الذي شرع صومه ، إنه شهر نزل فيه القرآن الذي كان بعثاً جديداً للجيل الإنساني ومبدأ حياةٍ جديدةٍ للنوع البشري ، فخليق بالمسلم أن يستمدَّ من هذا الشهر المبارك وبصيامه وقيامه حياةً جديدةً وإيماناً جديداً ، وقوةً جديدةً.

هذا هو الصوم الإسلاميُّ ، أو الشحن الروحانيُّ الذي هو زاخرٌ بالحياة ، والمنافع والبركات بعيدٌ عن الإرهاق والإجهاد والمشقات التي لا تطيقها النفوس ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

خصائص التشريع في الصوم وفضله وأحكامه:

وهكذا جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمل تشريع وأوفاه بالمقصود ، وأضمنه بالفائدة ، وقد تجلَّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير ، الذي خلق الإنسان ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤].

فخصَّ شهراً كاملاً ـ وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ـ بصيام أيامٍ متتابعاتٍ متواليات ، يصام نهارها ، ويفطر ليلها ، وهو العرف عند العرب في الصوم ، وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرَّحيم الدَّهلوي:

«**ويضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس ، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم ، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء ، والشهر برؤية الهلال إلى رؤية الهلال ، لأنه هو شهر العرب ، وليس حسابهم على الشهور الشمسية**»[١].

---

(١) حجة الله البالغة:ج ٢ ، ص ٣٧.

لماذا خصَّ رمضان بالصوم؟

وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر ، مرتبطاً به. فذلك قران السعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع ، وذلك لأنَّ رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق ، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم ، وكان أحق شهور الله ـ بما خصَّه الله من يمنٍ ، وسعادةٍ ، وبركةٍ ، ورحمةٍ ، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلةٍ خفيَّةٍ روحيَّةٍ ـ بأن يصام نهاره ، ويقام ليله[١] .

وبين الصوم والقرآن صلةٌ متينةٌ عميقةٌ ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من القرآن في رمضان ، يقول ابن عباس رضي الله عنه : «**كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كلِّ ليلةٍ من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة**»[٢] .

يقول العارف بالله ، العالم الرَّباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (م ١٠٣٤ هـ) في بعض رسائله :

«**إنَّ لهذا الشهر مناسبةً تامةً بالقرآن ، وبهذه المناسبة ، كان نزوله فيه ، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات ، وكلُّ خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام قطرةٌ من هذا البحر ، وإنَّ جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله. وتشتت البال فيه سبب للتشتت في بقية الأيام ، وفي طول العام ، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ، ورضي عنه ، وويل لمن سخط عليه ، فمنع من البركات ، وحرم من الخيرات**»[٣] .

---

(١) يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي : «إذا وجب تعيين ذلك الشهر ، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن ، وارتسخت فيه الملة المصطفوية وهو مظنَّة ليلة القدر» (حجة الله البالغة:ج ٢ ، ص ٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦) ، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عباس .

(٣) رسائل الإمام الرَّباني : الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، ج ١ ، ص ٨.

ويقول في رسالةٍ أخرى:

«إذا وفق الإنسان للخيرات ، والأعمال الصالحة في هذا الشهر؛ حالفه التوفيق في طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر في توزع بالٍ ، وتشتت حالٍ ، مضى العام كله في تشتتٍ وتشويشٍ»[1].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال: «**إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين**». والأحاديث في الباب كثيرةٌ.

موسم عالمي ، ومهرجان عامٌّ للعبادات والخيرات:

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً للعبادة ، والذكر ، والتلاوة ، والورع ، والزهادة، يلتقي على صعيده المسلم الشرقيُّ مع المسلم الغربيِّ ، والجاهل مع العالم ، والفقير مع الغني ، والمقصر مع المجاهد ، ففي كلِّ بلدٍ رمضان؛ وفي كلِّ قريةٍ وباديةٍ رمضان ، وفي كل قصرٍ وكوخٍ رمضان ، فلا افتئات في الرأي ، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم ، فكلُّ ذي عينين يستشعر جلاله وجماله أينما حلَّ ورحل في العالم الإسلامي المترامي الأطراف، تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامي كله ، فيحجم المفطر المتهاون بالصوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين ، فلا يأكل إلا متوارياً أو خجلاً ، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة ، أو الماجنين، أو كان من المرضى والمسافرين، الذين أذن الله لهم في الإفطار، فهو صومٌ اجتماعي عالمي ، له جوٌّ خاصٌّ ، يسهل فيه الصوم ، وترقُّ فيه القلوب ، وتخشع فيه النفوس ، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات ، والبرِّ والمواساة.

الجو العالمي ، وماله من تأثيرٍ في النفوس والمجتمع:

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، بنظره الدقيق العميق ، فقال وهو يشرح حديث: «**إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة. . .**» إلخ.

---

(١) رسالة (٤٥) أيضاً.

«الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً ؛ نفع عن غوائل الرسوم ، وإذا التزمته أمة من الأمم ؛ سلسلت شياطينها ، وفتحت أبواب جنانها ، وغلقت أبواب النيران عنها»[1] .

ويقول في موضع آخر :

«أيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيءٍ واحدٍ ، في زمانٍ واحد ، يرى بعضهم بعضاً معونةٌ لهم على الفعل ، ميسرٌ عليهم ومشجعٌ إياهم» .

«وأيضاً فإنَّ اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم ، وأدنى أن ينعكس أنوار كُمَّلهم على من دونهم ، وتحيط دعوتهم من وراءهم»[2] .

الفضائل وما لها من تأثرٍ وقوةٍ:

إنَّ الحياة في صراعٍ دائم بين الشهوات الحبيبة إلى النفس ، والمنافع المقررة عند العقل ، وليست الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه المعركة ، كما يعتقد بعض الناس ، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشرية ، وإنكارٌ للواقع .

إنَّ القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة ، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط هي الإيمان بالنفع ، ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفلاح في يوم شاتٍ ، شديد البرد ، فيحرم عليه الدفء ، ويبكر به إلى الحقل ، وفي يومٍ صائفٍ شديد الحرِّ يهون عليه وهج الشمس ، ولفح السموم ، ويفصل بين التاجر وأهله ، ويتوجه به إلى متجره ، ذلك الإيمان ، هو الذي يزين للجندي الموت في ساحة القتال ، وفراق الأحبة والعيال ، فلا يعدل به راحةً ، ولا ثروةً ولا نعيماً. إنَّ كل ذلك إيمانٌ بالمنافع ، وحرصٌ على الخير ، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة.

---

(١) حجة الله البالغة ؛ ج ١ ، ص ٥٩ .
(٢) حجة الله البالغة:ج ٢ ، ص ٣٧ .

وهنالك إيمانٌ أعظم سلطاناً على النفوس ، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثال ، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل ، ونزل به الوحي ، ونطقت بها الصحف ، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه وجزائه في الدنيا والآخرة .

لقد علم الجميع أنَّ الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيدٌ للصحة ، وخيرٌ للمرء أن يصوم مراراً في كلِّ عام ، وقد أسرف الناس في الأكل والشرب ، وأتخموا بأنواع من الطعام والشراب ، فأصيبوا بأمراضٍ جسديةٍ وخلقيةٍ ، كلُّ ذلك معروفٌ ومشاهدٌ ، وآمن الناس بفوائد الصوم الطِّبية ، وآمنوا بأنه ضرورة صحية ، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الاقتصادية .

ولكن إذا سأل سائل : ما عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طبية ، ومصالح اقتصادية؟ وما عدد الأيام التي صاموها طمعاً في الاعتدال في الصحة أو الاقتصاد في المعيشة؟ كان الجواب المقر : إنَّه عددٌ ضئيلٌ جداً ، ضئيلٌ حتى في الشتاء مع أنَّ الصوم فيه سهلٌ هيِّنٌ ، ورغم أنَّ الصوم الطبيَّ ، أو الاقتصادي أسهل بكثير من الصَّوم الشرعي .

ثم ننظر في عدد الصائمين الذين يصومون لأنهم يعتقدون أنَّ الصوم فريضةٌ دينيةٌ ، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه ، وتكفَّل بجزائه ، فنرى أنَّ هذا العدد ـ مهما طغت المادية وضعف الدافع الديني ـ عددٌ ضخمٌ لا يقل عن ملايين ، وإنَّ هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحرُّ الشديد في الأقاليم الحارَّة من أن يصوموا في النهار ، ويقوموا في الليل؛ لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء عند أهل الإيمان أقوى من الإيمان بالمنافع الطبية التي أخبر بها الأطباء ، ومن الإيمان بالمنافع الاقتصادية التي لهج بها الاقتصاديون .

ذلك لأن المؤمنين سمعوا في الصوم ما هوَّن عليهم متاعب الصوم ، وشجعهم على احتمال الحرِّ ، والجوع ، والعطش ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال :

«**كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف ،**

قال الله تعالى: «إلا الصوم فإنَّه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحةٌ عند فطوره، وفرحةٌ عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[1] وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: **«في الجنة بابٌ يدعى الرَّيان يدعى له الصائمون، فمن كان من الصائمين دخله، ومن دخله لم يظمأ أبداً»**[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»**[3].

* * *

(١) رواه البخاري (٧٠٥٤) وغيره عن أبي هريرة.
(٢) رواه النسائي (٢٢٣٧) عن سهل بن سعد.
(٣) رواه البخاري (٢٤٨٨) عن أبي هريرة.

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض؟

لقد كان المسلم في حاجة إلى غذاءٍ للقلب ، وإلى زادٍ للعاطفة ، وإلى أن يقضي شوقه ، ويروي غلَّته مرَّةً بعد مرَّةٍ ، وعلى فترةٍ بعد فترةٍ ، وكان في حاجة إلى أن تطفح كأسه ، فما قيمة كأس تمتلىء ولا تطفح؟ وكان في حاجةٍ إلى أن تفيض هذه الكأس ، فما قيمة كأسٍ تطفح ولا تفيض؟

تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيمانه :

وقد تفطَّن حجة الإسلام الغزالي بذكائه النادر ، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة ، وعرف أنَّ الشوق غريزةٌ في الإنسان الحيِّ السليم ، وحاجةٌ من حاجاته ، فيبحث له عما يقضي به حاجته ، ويروي غلَّته ، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله ، والحجُّ وما فيه من مناسك ، خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٦ ـ ٢٩].

يقول الغزالي :

«فالشوق إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أنَّ المحبَّ مشتاقٌ إلى كلِّ ما له إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضافٌ

إلى الله عزَّ وجلَّ ، فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل»[1] .

ويردفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، فيشير إلى نفس النكتة ، ويجعلها حكمة الحج الأساسية ، فيقول :

«وربما يشتاق الإنسان إلى ربِّه أشدَّ شوق ، فيحتاج إلى شيءٍ يقضي به شوقه ، فلا يجده إلا الحج»[2] .

لقد كان للمسلم أن يقضي هذا الشوق ، وأن يبرز هذا الحنان ، وأن تفيض كأسه في الصلوات التي يصليها كلَّ يومٍ ، فيسلي بها قلبه ، ويطفىء بها غلَّته ، ويهدىء بها ثائرته ، ويخفف بها حرارة شوقه ، ووهج نفسه ، ولكنَّها قطراتٌ محدودةٌ تتكوَّن خشوعاً ، أو تسقط دموعاً ، إنها قطراتٌ قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنانٍ وولوعٍ ، وهي قطراتٌ قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ، ولا تغني من جوع .

طفرةٌ أو قفزةٌ واسعةٌ من سجن ضيق إلى عالمٍ فسيح :

وكان للمسلم أن يروي ظمأ روحه ، ويقضي حاجة حنانه ، ويكسر سورة نفسه ، ويثور على «وثنية» عاداته ومألوفه ، وأن يغذي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان ، ولكنَّها ساعاتٌ محدوداتٌ كذلك ، محفوفةٌ بما يخفف أثرها ، ويضعف سلطانها من أكلة متخمة ، وريٍّ مسرفٍ ، وراحةٍ منعمةٍ ، ومجتمعٍ ثائرٍ ، ومدنيَّةٍ قد أحاطت بالصائم ، كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرةٍ صغيرة ، فكان المسلم ـ بكلِّ ذلك ـ في حاجة إلى طفرةٍ ، أو قفزةٍ واسعةٍ يفكُّ بها أغلاله وسلاسله ، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم ، العتيق الخلق ، وينتقل من عالمٍ كلُّه قديمٌ مألوفٌ ، ومقيدٌ محدودٌ ، ومخطوطٌ مرسومٌ ، ومصنوعٌ معمول إلى عالم كلُّه جديدٌ وطريفٌ ، وحرٌّ منطلقٌ ، وثائرٌ ماردٌ ، كلُّه حبٌّ وغرامٌ ، وشوقٌ وهيام ، قد

---

(١) إحياء علوم الدين ـ ج ١ ، ص ٢٤ .
(٢) حجة الله البالغة ـ ج ١ ، ص ٥٩ .

تحرَّر من كلِّ رقٍّ ، وثار على كلِّ وثنٍ ، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن ، وآمن بوحدة الإلهية ، وبوحدة المنعم والوهَّاب ، وبوحدة الإنسانية ، وبوحدة العقيدة ، وبوحدة المطلوب ، وهتف الناس جميعاً بصوتٍ واحدٍ: «**لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك**».

لقد كان المسلم في حاجة ـ بعد هذه الصلوات ، التي يصليها كلَّ يوم ، وبعد شهر رمضان ، الذي يصومه كلَّ عامٍ ، وبعد الزكاة ، التي يقوم بها إذا تمَّ النصاب وحال الحول ـ إلى أن يشهد موسماً هو ربيع الحبِّ والحنان ، وملتقى المحبين والمخلصين ، ومشهد العشاق والهائمين.

تحد لعبَّاد العقل والمادة، ودعوة إلى الإيمان بالغيب، واتباع الأمر المجرَّد:

وكان المسلم في حاجة إلى أن يثور على عقله الرزين الوقور ، المقلد المطبق ، وما لذة حياة لا ثورة فيها ، ولا تمرُّد؟ وكان في حاجة إلى أن يتخطَّى الدائرة المرسومة من عاداتٍ ومألوفاتٍ ، وقوانين وضعية ، وحضارةٍ مصطنعةٍ ، ومجتمعٍ قاسٍ ، ويفكَّ قيوده وأغلاله ، وينتزع الزمام من يد عقله ، الذي استبدَّ به زماناً طويلاً ، ويعطيه لقلبه وعاطفته ، فيتحكمان فيه ماشاءا ، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون ، ويذهب في الحبِّ كلَّ مذهبٍ ، كما فعل العشاق المتيمون ، فلا حرية لمن ملكه المجتمع ، وسيطرت عليه الحضارة ، وتسلَّطت عليه آلهة التقاليد ، ولا توحيد لمن أسرته العادات ، والمألوفات ، والشهوات ، ولا يعتبر مطيعاً منقاداً ، مسلماً مستسلماً من اعتمد دائماً على عقله ، لا ينشط لعمل ، ولا يسرع لامتثال أمر ، حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق ، ويعرف فوائده المادية المحسوسة. والحج بوضعه الدَّقيق الغامض ، المنافي لمألوف المعروف لعباد العقل والمادة ، وأسارى النظم والترتيبات دعوة إلى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد ، وعزل العقل عن وظيفته لمدَّةٍ محدودةٍ ، وفي مكانٍ محدودٍ ، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة ، والمنطق والفلسفة في كلِّ حينٍ وأوان ، وفي كلِّ زمانٍ ومكان.

وقد أبدع حجة الإسلام الغزالي كلَّ الإبداع في بيان روح الحجِّ وحقيقته، ـ وهي الإيمان بالغيب، والامتثال المطلق ـ وصوَّر بقلمه البليغ، وريشته البارعة صورة الحجِّ الرائعة، وبلغ إلى لب الدِّين وجوهره، وروح الإسلام وحقيقته في شرح هذا الركن العظيم، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتاب في القديم والحديث، يقول رحمه الله:

«ووضعه (أي: البيت) على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فجٍّ عميقٍ، ومن كل أوبٍ سحيقٍ شُعْثاً غُبْراً متواضعين لرب البيت، ومستكينين له، خضوعاً لجلاله، واستكانةً لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت، أو يكتنفه بلد، ليكون ذلك أبلغ في رقِّهم وعبوديتهم، وأتمَّ في إذعانهم وانقيادهم.

ولذلك وظَّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردُّد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرقِّ، والعبودية، فإنَّ الزكاة إرفاق، ووجهه مفهوم، وللعقل إليه ميل، والصوم كسر للشهوة، التي هي آلة عدو الله، وتفرغ للعبادة بالكفِّ عن الشواغل. والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعالٍ هي هيئة التواضع، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل، فأما ترددات السعي، ورمي الجمار، وأمثال هذه الأعمال؛ فلا حظَّ للنفوس، ولا أنس للطبع فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون في الإقدام عليها باعثٌ إلا الأمر المجرد، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنَّه أمرٌ واجبُ الاتباع فقط.

وفيه عزل للعقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كلَّ ما أدرك العقل معناه؛ مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر، وباعثاً معه على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرقِّ والانقياد، ولذلك قال ﷺ في الحجِّ على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً، تعبداً ورقاً» ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم

على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعباد؛ كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق ، وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبُّدات ، وهذا القدر كافٍ في تفهم أصل الحجِّ إن شاء الله تعالى»[1] .

ويقول في الرمي ، ويذكر أنَّ العمدة فيه الانقياد ، والأمر المجرد:

«فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الامتثال ، من غير حظٍّ للعقل والنفس فيه. ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع؛ ليدخل على حجِّه شبهةً ، أو يفتنه بمعصيةٍ ، فأمر الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له ، وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك أنَّ الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا ، فليس يعرض لي الشيطان؛ فاعلم أنَّ هذا الخاطر من الشيطان ، وأنَّه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان.

واعلم أنَّك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة ، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره؛ إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى؛ تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظٍّ للنفس والعقل فيه»[2] .

ويقول في الذبح:

«فاعلم أنَّه تقرُّبٌ إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدي ، وارج أن يعتق الله بكل جزءٍ منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدي أكبر ، وأجزاؤه أوفر؛ كان فداؤك من النار أعمَّ»[3] .

---

(١) إحياء علوم الدين ـ المجلد الأول ـ ص ٢٤٠ .

(٢) إحياء علوم الدين ج ١ ـ ص ٢٤٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ـ ج ١ ـ ص ٢٤٣ .

«الحاج» طوع إشارة ، ورهين أمر :

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله كله تمرينٌ وتمثيلٌ للإطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد ، وسعيٌ وراء الأمـر ، وتلبيةٌ وإجابةٌ للطلب ، فالحاجُّ يتقلَّب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة : يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ، ويخيم ويقلع ، إنما هو طوع إشارةٍ ورهين أمـر ، ليست له إرادةٌ ، ولا حكمٌ ، وليس له اختيارٌ ولا حرية ، ينزل بمنى فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات ، من غير أن يقف بالمزدلفة ، ويقف بعرفات ، ويظل سحابة النهار مشتغلاً بالدعاء والعبادة ، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب ، ليستجمَّ ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة ، ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه ، ليس عبداً لصلاته وعادته ، فلا يصليها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء ، وتطيب له الإقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى منى .

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء ، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيَّمين ، نزولٌ وارتحالٌ ، ومكثٌ وانتقالٌ ، وعقدٌ وحلٌّ ، ونقضٌ وإبرامٌ ، ووصلٌ وهجرٌ ، ولا خضوع لعادةٍ ، ولا إجابة لشهوةٍ ، ولا اندفاع للهوى .

فضل المكان والزمان وموسم الحبِّ والحنان :

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكانٍ قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين ، وأشدُّ الناس حباً لله ، وأحبُّهم إلى الله في عصره ، وأسرته الصغيرة الطيبة المباركة بأكبر دورٍ في الحبِّ والولاء ، والإخلاص والوفاء ، والإيثار والفداء ، وقاموا بأروع روايةٍ وأجملها في تاريخ الحبِّ السامي ، والولاء الطاهر ، والإخلاص المعجز ، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون ، والموحدون المخلصون ، والمحبون المتفانون في كلِّ عصرٍ ، فنسكوا مناسكهم ، وشهدوا مشاهدهم ، واحتذوا حذوهم ،

وترسموا خطاهم ، وحكوا هذه الرواية ، وأعادوها ، فطافوا حول البيت ، وسعوا بين الصفا والمروة ، ووقفوا بعرفات ، وباتوا في المزدلفة ، ورموا الجمرات ، ونسكوا في منى.

وكان في المكان والزمان ، وفصول الرواية التي يعيدونها ، والأعمال التي يقلدونها ، ونسائم الحبِّ التي ينشقونها ، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذي يعيشون فيه ، وطبقات الأمة؛ التي يتصلون بها ، ويعاشرونها ، وفي هذا الالتقاء الديني الرُّوحيِّ؛ الذي لا نظير له على وجه الأرض ، وفي هذا الضجيج من الدُّعاء ، والذكر ، والتلبية ، والاستغفار ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة ، ويحرِّك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخامدة ، ويشعل شرارة الحبِّ والطموح التي انطفأت ، أو كادت تنطفىء ، ويجلب رحمة الله.

وقد أشار العلماء العارفون إلى ما في اجتماع المسلمين العظيم ، واجتماع هممهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريكٍ لرحمة الله تعالى ، ومن تحريكٍ للقلوب القاسية ، وإثارةٍ للأشواق.

يقول حجة الإسلام الغزالي:

«فإذا اجتمعت هممهم، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم ، وامتدَّت إليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمَّةٍ واحدةٍ على طلب الرحمة ، فلا تظن أنه يخيِّب أملهم ، ويضيع سعيهم ، ويدَّخر عنهم رحمةً تغمرهم»[1].

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي:

«اعلم أنَّ حقيقة الحجِّ اجتماعُ جماعةٍ عظيمةٍ من الصَّالحين في زمانٍ يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصدِّيقين ، والشهداء والصالحين ، ومكانٍ فيه آياتٌ بينات ، قد قصده جماعاتٌ من أئمة الدين ، معظِّمين لشعائر الله ،

---

(١) إحياء علوم الدين ـ ج ١ ، ص ٢٤٣.

متضرعين راغبين ، وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فإنَّ الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفيـة لا يتخلَّف عنها نـزول الرحمـة والمغفـرة ، وهو قوله ﷺ: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ، ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة» (الحديث).

* * *

قصة إبراهيم، وتمثيلها في الحجِّ[1]

من أوضح ملامح الحج، والمسيطرة على جميع أعماله ومناسكه هو الحبُّ، والهيام، والتفاني، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب والعاطفة، وتقليد العشاق والمحبين، وإمامهم وزعيمهم إبراهيم الخليل، فحيناً طواف الحبِّ والهيام حول البيت الحرام، وحيناً تقبيل الحجر الأسود والاستلام، وحيناً سعي بين غايتين، وتقليد ومحاكاة للأم الحنون، حتى في تؤدتها ووقارها، وفي جريها وهرولتها، ثم قصدٌ (لمنى) في يوم معيَّنٍ هو يوم التروية، ثم قصدٌ إلى (عرفات) ووقوفٌ بساحتها وعرصاتها، ودعاءٌ وابتهالٌ، ثم بيتوتةٌ في المزدلفة، وعودةٌ إلى (منى) وحلقٌ ونحرٌ، اقتداءً بسنة إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

وأوضح ملامح هذا الحبِّ والتقليد رمي الجمرات، الذي ليس إلا تمثيلاً لما صدر عن الخليل، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريبٌ في انتقال عدوى الحب، واتصال بالمركز الكهربائي؛ الذي يجري منه التيار، ووسيلة إلى جلب رحمة الله، وشمول عنايته، وليس لمن ذاق حلاوة الحبِّ منظر ألذُّ من هذا المنظر، الذي يجتمع فيه المحبُّون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من السنين، ولكن الله أفاض عليها الخلود، وطلب من جميع المحبين المخلصين إعادتها، وتمثيلها، إخزاءً للشيطان، وتقويةً للإيمان، واقتداءً بخليل الرحمن.

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس، المجلد السادس عشر، عام ١٩٧٢ م.

قصة إبراهيم في القرآن ، وصلتها بالبلد الأمين :

ولد إبراهيم في بيت سادنٍ من أعظم سدنة البلد ، ينحت الأصنام ويبيعها ، ويقوم على الهيكل الكبير ، ويتصل به عن طريق العقيدة ، وعن طريق الحرفة ، وما أعظم المشكلة ، وما أعقد العقدة ، إذا التقت العقيدة بالحرفة ، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية ، ولا شيء في هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان ، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية ، ولكنه قلبٌ سليم هيىء للنبوة ، وأعدَّ لتكوين العالم الجديد ، ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] إنه يبدأ ثورته بمرحلةٍ ربما لا تصل إليها ، ولا تتناولها أعظم ثورةٍ ، إنها مرحلة الحياة المنزلية ، ومرحلة البيت الذي ولد فيه الإنسان ، وفرض عليه أن يعيش فيه ، ويقع كل ما يحكيه القرآن وأسلوبه المعجز المبين من تحطيم إبراهيم للأصنام ، وغضب عبادها وحيرتهم وعيّهم ، وانتقامهم من الفتى الثائر ، واشتعال النار وتحولها برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومناظرته البليغة أمام الملك الجبار»[(١)] .

وتنتهي هذه الثورة إلى أن يضيق عليه البلد ، ويغضب عليه المجتمع ، وتطارده الحكومة ، فلا يحفل بكلِّ ذلك ، ولا يحسب له حساباً ، كأنه شيءٌ كان منه على ميعاد ، وكأنه نتيجةٌ طبيعيةٌ ، قد توقعها ، فيخرج من بلده قرير العين ، رضيَّ النفس؛ إذ نجا برأس ماله ، وهو الإيمان ، فيهيم في أرض الله ، وهو فريدٌ لا يعرف له ثانياً ، والبلاد كلُّها نسخةٌ واحدةٌ من الوثنية والخرافة ، وعبادة الأوثان والشهوات ، حتى يهبط مصر ، فيكون هدف الامتحان والامتهان ، ينجو بصاحبته التي يطمع فيها الملك ، فيفلتان من يده ، ويأويان إلى أرض الشام ، فيغرس فيها الغرس الكريم ، ويلقي فيها عصا التسيار ، ويقوم فيها بدعوته إلى رفض الأوثان ، وإلى عبادة الله وحده .

---

(١) اقرأ الآيات من ٥١ إلى ٧٠ من سورة الأنبياء .

وتطيب له الإقامة في الشام حيث يتوفر الخصب ، ويتسع الرزق ويتجلَّى جمال الطبيعة ، فلا يلبث أن يؤمر بالتوجه إلى أرضٍ تقابل الشام في الخصب والماء ، وإبراهيم لا يعرف لنفسه حقاً ، ولا يرتبط بأرضٍ أو وطن ، إنما هو طوع إشارة ، ورهن أمر ، يعتبر العالم بلده ، والسلالة البشرية أسرته ، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته «هاجر» ومولودها الصغير الرضيع .

وهنا في وادٍ ضيِّقٍ ، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانبٍ وقسا فيه الجو ، وفقد الماء ، وغاب الأنيس ، وأوحش المكان يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة ، والمولود الصغير توكلاً على الله ، وامتثالاً لأمره ، واستسلاماً لقضائه ، فلا جزع ، ولا فزع ، ولا إشفاق ، ولا حذر ، ولا سآمة ، ولا ضجر ، ولا خور في العزيمة ، ولا ريبة في الوعد ، تمردٌ على التجارب ، ومعاكسةٌ للطبيعة ، وانقطاعٌ عن الأسباب ، وإيمانٌ بالغيب ، وثقةٌ بالله حين تسوء الظنون ، وتزلُّ الأقدام .

ويعرض المحذور والأمر الواقع ، فيغلب على الطفل العطش ، ويشتدُّ بالأمِّ الظمأ ، ولا مطمع هناك في ثمادٍ[1] تروي غلتهما ، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الأمومة والحنان ، والإشفاق على المولود الصغير ، فتخرج باحثةً عن الماء ، أو عن سيارةٍ تحمل الماء ، وتعدو مضطربةً ، والهةً بين جبلين ، يغلب عليها الحنين والإشفاق على الولد ، فترجع لتطمئن إلى وجوده وحياته ، يغلب عليها الخوف على الحياة فتغدو مسرعةً تبحث عن ماءٍ ، أو عن أثر إنسانٍ ، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة ؛ وسكينةٍ يوحيها الإيمان والثقة ، وتعرف ـ وهي زوج نبيٍّ وأم نبيٍّ ـ أنَّ البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله ، فهي مضطربةٌ في غير يأس ، ومؤمنةٌ في غير تعطُّلٍ وتواكلٍ ، منظرٌ لم تشهد السماء مثله ، وجاشت الرحمة الإلهية ، وتفجَّر الماء بطريق معجزٍ ، فكان ماءً خالداً مباركاً لا ينضب ، ولا يغيض ،

---

(١) الثمد : الماء القليل يتجمع في الشتاء ، وينضب في الصيف ، أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر ، جمعه : ثماد .

قد وسع الخلق ، ووسع الأجيال ، وكان ماءً لكلِّ عصر ، ولكلِّ أمة ، فيه غذاءٌ وشفاءٌ ، وفيه بركةٌ وأجر .

وخلَّد الله هذه الحركة الاضطرارية؛ التي ظهرت من امرأةٍ مؤمنة مخلصةٍ ، فجعلها حركةً اختيارية ، يكلَّف بها أعظم العقلاء ، وأعظم الفلاسفة والنبغاء ، وأعظم الملوك والعظماء في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتمُّ نسكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كلِّ مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحسِّ والعقيدة ، إنه يستعين بالعقل ، ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنَّه ينقاد أحياناً للعاطفة؛ التي هي أعمق من العقل ، إنَّه يعيش في عالمٍ قد حفَّ بالشهوات ، وملىء بالزخارف والمظاهر ، لكنَّه يمرُّ بينها ، كالساعي بين الصفا والمروة ، لا يعرج على شيءٍ ، ولا يتقيَّد بشيءٍ ، إنما غايته وهمُّه ما يستقبله ، يعتبر حياته أشواطاً محدودةً ، يقطعها إطاعةً لربه؛ واقتداءً بسلفه ، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حركة قيمتها وروحها ورسالتها «الحبُّ» و«الانقياد» .

ويكبر الولد ، ويبلغ السنَّ التي تقوى فيها عاطفة الأبوة ، فيرافق والده ، ويسعى معه ، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الإنسانية ، وطبع على الحب والحنان بميلٍ شديدٍ إلى ولده ، وفلذة كبده ، وهنا المشكلة ، فإنَّ قلبه هو القلب السليم الذي خصَّ بالمحبة الإلهية ، إنه ليس كقلب كلِّ إنسان ، إنَّه قلب «خليل الرحمن» والمحبة لا تعرف شريكاً ، ولا تحتمل عديلاً ، فكيف وهي المحبة الإلهية ، وهنا يتلقى إبراهيم إشارةً بذبح الولد الحبيب ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وتتكرر الإشارة ، فعرف أنَّه أمر يراد ، وأنه جد ، فيختبر ولده ، لأنه شيءٌ لا يتمُّ إلا بموافقته ، وجلادته ، فيجد عنده غاية البر ، وغاية النجابة ، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلهي ، وهو نبي ابن نبي ، وجد نبي ، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وهنا يقع ما لا يصدقه العقل ، فيخرج الوالد مع ولده النجيب الحبيب ، ذلك ليذبح ولده ، وهذا يطيع ربه ووالده ، وكلاهما مطيعٌ للربِّ ، مستسلم لأمره ، وعرض لهما الشيطان ـ ذلك الذي تكفل بالضلال ، ومنع الإنسان من السعادة ـ فحاول صرفهما عن التنفيذ ، وزيَّن لهما العصيان ، ورغبهما في الحياة ، فاستعصيا عليه ، وأبيا إلا أن ينفذا أمر الله ، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة ، ويفزع له الإنس والجن ، فينتصب الولد للذبح ، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح ، ووقع ما أراده الله ، فلم يكن المقصود ذبح إسماعيل ، إنما كان المقصود ذبح الحبِّ الذي ينازع الحبَّ الإلهي ، ويقاسمه ، وقد ذبح بوضع السكين على الحلقوم ، إنَّما ولد إسماعيل ليعيش ، ويزدهر ، وينسل ، ويولد في ذريته آخر الأنبياء ، وسيدهم ، فكيف يذبح ، وكيف يموت ، قبل أن يتحقق ما أراده الله؟! وفدى الله إسماعيل بكبشٍ من الجنة يذبح مكانه ، وجعلها سنةً باقية في عقبه وأتباعه ، يذبحون أيام النحر ، ويجدِّدون ذكرى هذا الذبح العظيم ، ويضحون في سبيل الله ما يشترونه بحرِّ أموالهم :

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات : ١٠٣ ـ ١٠٩].

وخلَّد الله تمثيل قصة الشيطان مع إبراهيم ، وجعل رجمه بالحصى في الأمكنة التي اعترض فيها لإبراهيم ينهاه ويصرفه عملاً يتكرر كلَّ عام ، وقصةً تمثل في أفضل الأيام إثارةً لبغض الشيطان ، وإظهاراً للتمرد عليه والعصيان ، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذةٍ ، وحياةٍ وعاطفةٍ؛ إذا صحَّ فيه الإيمان ، واستقام فيه الفهم ، وكمل الانقياد للأوامر ، ويعرف أنَّه في صراع دائمٍ مع قوى الشر ، ومعركةٍ مع إبليس وجنوده ، وأنَّه ليس له نصيب منه إلا الرجم والهوان .

ويدور الزمان دورته ، وإسماعيل الصغير شابٌ قويٌّ ، أكرمه الله بالنبوة والسيادة ، وقد أثمرت دعوة إبراهيم ، وتوسعت وانتشرت ، وكان لا بدَّ لها

من مركزٍ تأوي إليه ، وتعتمد عليه ، وكثرت القصور للملوك ، والمعابد للطاغوت يطاع فيها الهوى ، ويعبد فيها الشيطان ، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته ، ويطهر لقاصديه وعابديه ، فيؤمر إبراهيم بعد ما قام الدين على قدمه وساقه ، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيفية لبناء بيت الله تعالى ، يكون مثابةً للناس وأمناً ومعبداً لله وحده ، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره ، العميق الرفيع في عظمته ، فينقلان الحجارة ، ويرفعان البناء ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٨] .

وقام البيت على أساسٍ من إيمانٍ وإخلاصٍ ليس لهما نظير في الدنيا ، وتقبّله الله بقبولٍ حسنٍ ، وقضى ببقائه ، وكساه الجمال والجلال ، وعطف إليه القلوب والنفوس ، وجعله مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب ، يودُّ الناس لو يسعون إليه على رؤوسهم ، ويصلون إليه ببذل مهجهم ونفوسهم ، مع تجرده عن كل ما يستهوي القلوب ، ويستلفت الأنظار ، ووقوعه في بلدٍ بعيدٍ عن جمال الطبيعة وبهرج المدنية ، ولما كان ذلك نودي إبراهيم : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٧ ـ ٢٩] .

* * *

التشريعات الحكيمة في الحجِّ وتأثيرها في النفس والحياة[1]

وقد هيأ الوحي الإلهي والتشريع السَّماوي للحجِّ جواً يثير الجد والقصد، وينبه النفس والفكر ، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانية والقدسية ، فإنَّه كان في أكثر الأحيان رحلةً طويلةً ، وانتقالاً من بلدٍ إلى بلدٍ ، يمرُّ فيه الحاجُّ ببقاعٍ مختلفة ، وأجواءٍ متنوعة ، وملاذٍ وملاهٍ ، وشواغل وصوارف ، قد تقصر فيها المدة ، وقد تطول ، ويدخل في بلدٍ جديدٍ ، ويختلط بأقوامٍ وطبقاتٍ كثيرةٍ ، ويخرج النساء مع الرجال ، وفيهم الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً ، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته ، وكلُّ ذلك خليق بأن يفقد الحج روعته ومهابته وقدسه ، وروح العبادة والجهاد فيه ، وتصبح هذه الرحلة كأيِّ رحلةٍ عادية طبعية ، أو الإقامة في مكة ، والتنقل في مواضع المناسك كأيِّ إقامةٍ في أي بلدٍ.

لذلك أضفى التشريع على الحجِّ لوناً لا يزول ، لوناً من الجدية والقدس ، وأحاطه بأسوار وخنادق عديدةٍ جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ، وله في ذلك تشريعاتٌ دقيقةٌ حكيمةٌ ، كانت كفيلةً بأن يبقى الحجُّ عبادةً عميقة الأثر في النفس والحياة ، وركناً من أركان الإصلاح والتربية ، ووسيلةً قويةً للتقرُّب إلى الله.

منها: أنَّه جُعِل ركناً من أركان الإسلام الأربعة ، وفريضةً على من

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثالث ، المجلد السادس والعشرون ، عام ١٩٨١ م.

استوفى شروطها، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقد روى الترمذيُّ عن عليٍّ رضي الله عنه رفعه: «من ملك راحلةً وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحجَّ، فلا عليه أن يموت يهوديّاً أو نصرانياً، وذلك أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]». وقال النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجِّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**»(١).

وقد نوَّه لسان النبوة بفضل الحجِّ ومكانته عند الله، وأكثر من بيان فضائله؛ لأنها هي التي تثير في النفس الشوق والرغبة، وتبعث الإيمان والاحتساب، فلا قيمة لعملٍ أو عبادةٍ حتى تقترن بهما، ويكونان هما الباعثين على إتيانها، فقد روى الستة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «**الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنَّة**». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حجَّ لله فلم يرفث، ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه**»(٢) وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجَّةٍ مبرورةٍ ثوابٌ إلا الجنة، وما من مؤمنٍ يظلُّ يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه**»(٣)، وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة**»(٤)، وسئل النبي ﷺ: «**أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حجٌّ مبرورٌ**»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) عن ابن عمر.
(٢) رواه البخاري (١٤٤٩) عن أبي هريرة.
(٣) رواه الترمذي (٨١٠)، والنسائي (٢٦٣١) عن عبد الله.
(٤) رواه مسلم (١٣٤٨) عن عائشة.
(٥) رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣) عن أبي هريرة.

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة «المواقيت» التي تنبه في الحاجِّ شعوراً جديداً، ويقظةً فكريةً روحيةً، فيعرف أنَّه دنا من الحضرة الملوكية، ودخل في حدودها المحمية المقدسة، فلولا المواقيت لاقتحم الحجاج الحضرة المقدسة، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك، وعتبة السلاطين، فيقابلون باستنكارٍ وجفاء، وطردٍ وإهانة، وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي بيان حكمة المواقيت، وسرِّ تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفةٍ، فقال:

«الأصل في المواقيت: أنَّه لما كان الإتيان إلى مكة شعثاً تفلاً تاركاً لغلواء نفسه مطلوباً، وكان في تكليف الإنسان أن يحرم من بلده حرجٌ ظاهرٌ، فإنَّ منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر؛ وجب أن يخصَّ أمكنةً معلومةً حول مكة يحرمون منها، ولا يؤخرون الإحرام بعدها، ولا بدَّ أن تكون تلك المواضع ظاهرةً مشهورةً، ولا تخفى على أحدٍ، وعليها مرور أهل الآفاق، فاستقرأ ذلك، وحكم بهذه المواضع، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت، لأنَّها مهبط الوحي، ومأرز الإيمان، ودار الهجرة، وأول قرية آمنت بالله ورسوله، فأهلها أحق بأن يبالغوا في إعلاء كلمة الله، وأن يُخَصُّوا بزيادة طاعة الله، وأيضاً فهي أقرب الأقطار التي آمنت في زمان رسول الله ﷺ، وأخلصت إيمانها بخلاف جؤاثى، والطائف، واليمامة، وغيرها، فلا حرج عليها»[1].

ومنها: «الإحرام» الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول، وينبه إلى أنه مقبلٌ على أمرٍ عظيم، وأنه قاصدٌ للحضرة الملوكية، وإلى أنَّه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعاراتٍ زائفةٍ، وأبهةٍ مصطنعةٍ، فيصير هذا الإحرام كالتحريمة للصلاة، تنقله من جوٍّ إلى جوٍّ، ومن حريَّةٍ وانطلاقٍ إلى تقيُّدٍ وارتباطٍ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي رحمة الله عليه:

---

(١) حجة الله البالغة، ج ٢، ص ٤٤.

«**اعلم أنَّ الإحرام في الحجِّ والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة ، فيه تصوير الإخلاص ، والتعظيم ، وضبط عزيمة الحجِّ بفعلٍ ظاهرٍ ، وفيه جعل النفس متذللةً خاشعةً لله بترك الملاذ والعادات المألوفة ، وأنواع التجمُّل ، وفيه تحقيق معاناة التعب ، والتشعُّث ، والتغبُّر لله**»[1] .

وكذلك شُرِعَ للخروج من الإحرام والتحرُّر من قيوده وأحكامه طريقةٌ ظاهرةٌ تنبه في النفس الشعور ، ولا يصعب إتيانها ، فلا يخرج الحاجُّ من إحرامه فلتةً أو مفاجأةً ، ويتمتَّع بالمباحات إلا بعملٍ ظاهرٍ ، وقصدٍ وإرادةٍ ، كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم وهو الحلق ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

«**السرُّ في الحلق أنَّه تعيينُ طريقٍ للخروج من الإحرام بفعلٍ لا ينافي الوقار ، فلو تركهم وأنفسهم ، لذهب كلٌّ مذهباً ، وأيضاً : ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبُّر بالوجه الأتم ، ومثله كمثل السلام من الصلاة**»[2] .

ومنها «التلبية» التي حثَّ الشرع على الإكثار منها ، واستحسن النبيُّ ﷺ رفع الصوت بها ، وتكثيرها ، وقد سئل : أي الحجِّ أفضل؟ قال : «**العجُّ والثجُّ**»[3] ، وفي التلبية تأثيرٌ غريبٌ في تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج ، وشحنها بالإيمان والحنان ، والاطراح على عتبة الرحمن ، وبها يسري التيار الإيماني الروحي في جسم الحاجِّ ومشاعره وأعصابه ، كما يسري التيار الكهربائي في الأسلاك ، ويعدُّ الحاجُّ للاستفادة من هذا الركن العظيم ، الذي قد يكون قد هجم عليه من غير استعدادٍ ، أو من غير تفقُّهٍ ووعي ، فإذا قال : «**لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك**» ، تمثَّل له الحجُّ ، ومقاصده العظيمة ، وروحه ، وثارت فيه الأشواق ، وفاضت كأس الحبِّ والحنان ، والتهبت شعلة التوحيد في عروقه ودمه ، واتَّصل بإبراهيم الخليل الموحد

---

(١) حجة الله البالغة : ـ ج ٢ ، ص ٤٤ .
(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٤٥ .
(٣) رواه الترمذي (٢٩٩٨) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) عن ابن عمر رضي الله عنه .

الحنيف ، واتَّصل بمحمَّدٍ ﷺ والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً ، واندمج في حزبهم .

وقد جمع الله للحجِّ حرمتين ، حرمة الزمان والمكان ؛ ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن العظيم ، وجلاله وروعته ، والشعور بالمسؤولية ، وليكون الحجُّ في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته مرهف الحسِّ ، حاضر الفكر ، لا يذهل لحظةً عن الجوِّ الرُّوحاني الذي يحيط به .

فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] وقال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢١٧] وقد روى مسلمٌ عن النبي ﷺ : «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض . منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ـ ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» . وأما حرمة المكان ، فقد جاء في القرآن : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٩١] وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : «لا هجرة ، ولكن جهادٌ ونيّةٌ ، وإذا استنفرتم فانفروا» . وقال يوم الفتح ـ فتح مكة ـ : «إنَّ هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل فيه القتال لأحدٍ قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه» وقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : «إلا الإذخر» .

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشدَّ ، وقد استدلَّ بعض العلماء على أنَّ إرادة المعصية فيه معصية ، بخلاف غيره من البقاع ، بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] قال ابن

كثير ، وهذا من خصوصية الحرم : أنه يعاقب الناوي فيه الشرَّ إذا كان عازماً عليه ، وإن لم يوقعه .

وقد ضمَّ إلى ذلك كله حرمة الإحرام ، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصَّةً ، منها : حرمة الصيد في حالة الإحرام ، فقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : ٩٥] وقال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة : ٩٦][1] .

يقول شيخ الإسلام الدِّهلوي رحمة الله عليه :

«وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل ، وترك الزينة ، والتشعث ، وتنويهاً لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومؤاخذة نفسه أن لا تسترسل في هواها ، وإنما الصيد تلهٍّ ، وتوسع»[2] .

ولما كان الحجُّ سفراً طويلاً في غالب الأحيان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] ، وانتقالاً من حالٍ إلى حالٍ ، ويكثر فيه الاختلاط ، وتطول الزمالة ، وتتنوع المعاملات ؛ كان ذلك مثاراً لكثيرٍ من المحظورات والمغريات والمناقشات ، وكثيراً ما تثور النفس ، ويضيق الصدر ، وينفد الصبر ، فيلجأ الحاجُّ إلى ما يتحاشى عنه في الوطن والإقامة ، والأحوال العادية ، ويتورَّط في بعض المعاصي والأخلاق القبيحة ، وما ينافي روح الحجِّ ومقاصده ، فجاء النهي عن ذلك بصفةٍ خاصَّةٍ في الحج ؛ لأنَّ الحجَّ مظنةٌ قويةٌ له ، فقال تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ

---

(١) اقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منهما ، وما في ذلك من خلاف ، وتفصيل في كتب التفسير وأحكام القرآن .

(٢) حجة الله البالغة:ج ٢ ، ص ٤٤ .

﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1][2] [البقرة: ١٩٧].

وقد أسبغت هذه التشريعات ، وهذه الأحكام التي تتصل بالقلب والجوارح ، والقصد والعمل ، والزمان والمكان على الحج لباساً من القدس والطهر ، والتورُّع والتقشف ، والمراقبة لله تعالى ، والحسبة للنفس ، والجهاد ، لا يشاركه فيه ما يماثله ، أو يدخل في موضوعه في الديانات الأخرى وطوائف الأمم ، وكانت لها آثارٌ عميقةٌ في النفس والأخلاق والحياة ، يتحقق معها قول النبي ﷺ: «**من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه**»[3].

* * *

(١) هي شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، علقه البخاري بصيغة الجزم ، ورواه ابن جرير موصولاً ، وهو مروي عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، (راجع تفسير ابن كثير).

(٢) اقرأ تفسير الكلمات وأمثلتها في كتب التفسير والأحكام.

(٣) رواه البخاري (١٤٤٩) عن أبي هريرة .

العالم في العصر الإبراهيمي والحجُّ تخليد لعقيدة التوحيد(١)

كان العالم في عصر إبراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرةٌ مستقلةٌ قائمةٌ بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنيةً أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها وغلوا من عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورةً على الوثنيين ، ودعوةً إلى التوحيد النقيِّ الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكلِّ شيءٍ وأنَّه يخلق الأشياء من عدم ، وأنَّه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع عن الأشياء خواصَّها ، وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ، ويسخِّرها لما يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وكان إبراهيم يؤمن بأنَّ النار خاضعةٌ لإرادة الله تعالى ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة ، لا تنفك عنها ، إنما هي طبيعة مودعة أمانةً فيها ، وإذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحوَّلها إلى بردٍ وسلام ، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان؛ ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

واعتقد الناس أنَّـه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الرابع المجلد الثلاثون ، عام ١٩٨٥ م.

يرتادون لأسرهم وأبنائهم ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبةً تكثر فيها المياه ، ويتوفَّر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع ، والاعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكوَّنة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع ، لا زراعة فيه ، ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرَّخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف إليهم القلوب ، ويجبي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطّاً للخيرات والثمرات: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤] تركهم في أرضٍ لا أثر فيها لما يروي الغلَّة ، ويبل الحلقوم ، فإذا بماءٍ يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء ، ويحملونه إلى بلدهم. ويترك أهله في بلدٍ قفرٍ لا أنيس فيها ، فإذا به يصبح مكاناً يؤمُّه الناس من كلِّ صوبٍ ، ويأتون إليه من كلِّ فجٍّ عميقٍ.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادِّية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وأنَّ إرادته فوق كلِّ شيءٍ ، وهكذا كانت سنَّة الله معه ، يُخضِع له الأسباب ، ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

الحج تخليدٌ لخصائص إبراهيم ومآثره ، وتجديدٌ لدعوته وتعاليمه:

والحجُّ ومناسكه وما يحيط به من ذكريات ، وحوادث ، وما يتلبس به الحاجُّ من التجرُّد عن المظاهر ، وما يأتي به من عملٍ ونسكٍ ـ من إحرام ، ووقوفٍ ، وإفاضةٍ ، ورجمٍ ، وسعيٍ ، وطوافٍ ـ تخليدٌ لما اختُصَّ به

إبراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الأسباب ، والتوكُّل على الله والتفاني في سبيله ، وإيثار لطاعته ومرضاته ، وتمرد على العادات والأعراف ، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة ، وتجديد لذلك الإيمان القوي ، والحبِّ العميق ، والتضحية الفائقة ، والإيثار الرفيع ، والحجُّ ضامنٌ لبقاء هذه المعاني السامية كلِّها ، وهذه القيم الربَّانية كلِّها ، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التي هي فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة ، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج إبراهيم ، ويتشبَّعوا بروحه ، ويقوموا بدعوته في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ مكانٍ ، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨].

عنوان جديد وخطٌّ فاصلٌ في كتاب الإنسانية:

إنَّ إبراهيم ودعوته وجهاده عنوانٌ جديدٌ نيِّر مشرقٌ في كتاب الإنسانية وامتدادها ، ينفصل به التاريخ عن التاريخ ، وتتوزَّع به الإنسانية بين المعسكرين يخلدان مع الزمن، ويبتدىء به عهد ، وينتهي به عهد ، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة والكلمة الباقية، وجعل في ذريته النبوة والولاية، والوصاية الدينية على العالم للأبد ، وكتب لأسرته ومن دخل داره الجهاد للحق ، والوقوف في وجه الباطل إلى آخر الأبد ، والدعوة إلى الله ، وتجديف سفينة البشرية في عواصف هوجاء ، وأمواج عاتية ، والمحافظة على هذا السراج من أن ينطفىء ، وهو العامل البناء الوحيد الذي استعمله الله في إسعاد البشرية ، وعصمها من تخريب العالم ، وتدمير الإنسانية ، وسوقها إلى الجحيم.

عماد الإنسانية ، وقيام للناس:

والحجُّ وشهود الموسم ، والتقاء أبناء ملَّة إبراهيم في مكَّة كلَّ عام هو كافٍ لبقاء هذه الصلة بين إبراهيم وأتباعه ، وأبنائه الروحيين ، وتجديد هذه المعاني والعقائد والأهداف التي فيها بقاء لهذه الملة والإنسانية كلِّها ،

لذلك قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

مركز دائم للهداية والإرشاد والإصلاح والجهاد:

وجاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمَّدية الخالدة، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد، والإشعاع الرُوحيِّ، والغذاء العاطفيِّ، تقام حوله المناسك، وتغذَّى به العاطفة، وتشعل به مجامر القلوب، وتشحن به «بطاريتها» الفارغة، ويتلقَّى منه الرسالة الدينية، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كلَّ عامٍ، ويؤدي خراجه من الطاعة، وضريبته من الحبِّ والانقياد، ويثبت تمسُّكه بهذا الحبل المتين، ولجوئه إلى هذا الركن الركين، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء، والزعماء والعظماء، والملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، في ولهٍ وهيام، وفقهٍ وحكمةٍ، يُثبتون أنهم مجتمعون على تفرُّقٍ، متوحدون على تعدُّدٍ، متركِّزون على انتشارٍ، أغنياء على الفقر، أقوياء على الضعف، ينتشرون في العالم، ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم، وينتسبون إلى أممٍ وسلالاتٍ، ويختلفون في الحضارات والثقافات، ويلتقون على نقطةٍ واحدة وحول نقطةٍ واحدة، وحياتهم كلُّها طوافٌ وسعيٌ، ونسكٌ وعبادةٌ، وإيمانٌ وعقيدةٌ، ومقاماتهم كلُّها منى وعرفات، وأسفارٌ ووقفاتٌ، وإنما هم في رحلةٍ دائمةٍ، وتقدُّمٍ مستمرٍّ، وتعارفٍ متكرِّرٍ، حتى يقضوا نحبهم، ويلقوا ربهم.

إلى مدينة الرسول ﷺ ومسجده العظيم:

وكان من الطبيعي بعد ذلك كلِّه، أن يحنَّ المسلم، لا سيما الوافد من مكانٍ بعيدٍ، إذا قضى حجَّه، وأدَّى مناسكه إلى مهجر خاتم المرسلين، ومثواه الأخير، ومأرز الإسلام، إلى المسجد الذي انبثق منه النور، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم، وقوة الإسلام في العالم، إلى المدينة، التي آوى إليها الإسلام، وتمثلت فيها فصول التاريخ الإسلاميِّ الأول، وابتلَّ ترابها بدموع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ودمائهم،

فيصلي في المسجد الذي تعادل ركعةٌ فيه ألف ركعةٍ في غيره[1] ، ويقف في مواقف وقف فيها الشهداء والصديقون ، والسابقون الأولون ، فيستمدُّ منها الصدق والإيمان ، والحبَّ والحنان ، والبطولة والشهادة في سبيل الإسلام ، ويصلِّي ويسلم على هذا النبي الذي خرج بدعوته وجهاده من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وذاق لأوَّل مرَّةٍ حلاوة الإيمان ، وقيمة الإنسان.

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها ، وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل:

والحجُّ عرضةٌ سنويةٌ للملَّة ، يرجع إليها الفضل في نقائها وأصالتها ، وفي بقاء هذا الدين بعيداً عن التحريف والغموض والالتباس ، وفي بقاء هذه الأمة بعيدةً عن الانقطاع عن الأصل ، والمصدر والأساس ، محفوظةً من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أممٌ كثيرةٌ فريستها في الزمن الماضي ، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة تبقى هذه الأمَّة العظيمة الخالدة محتفظةً بطبيعتها الإبراهيمية الولوع الحنون ، العطوف الرؤوف ، الثائرة القوية الحنيفية السمحة ، وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها القلب الحي القويُّ الفيَّاض؛ الذي يوزع الدَّم إلى عروق الجسم وشرايينه ، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها في صعيدٍ واحدٍ ، فينفي بذلك علماؤها وزعماؤها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردُّونها إلى الأصل الإبراهيمي الحنيفي ، وإلى الشرعة المحمدية (الصافية) وإلى الدِّين الخالص ، وبها تستطيع هذه الأمة أن تحافظ على وحدتها الدينية والعقلية والثقافية ، وتعتصم عن أن تؤثر فيها الإقليمية والمحلية تأثيراً يفقدها الوحدة الحنيفية الإبراهيمية ، والصبغة الإسلامية المحمَّدية ، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة ، والأمم الدِّينية العديدة.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاةٍ فيما سواه: إلا المسجد الحرام» رواه البخاري (١١٣١) .

لقد قدَّر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئاتٍ مختلفةٍ ، وفي أقاليم عديدةٍ ، وتجتاز أدواراً كثيرةً جداً ، مختلفةً جداً ، من حرارةٍ ، وقوَّةٍ ، وجمودٍ ، وخمودٍ ، وعنفٍ ، وقسوةٍ ، ومصارعةٍ ، ومقاومةٍ ، وإغراءات مادِّيَّةٍ وسياسيةٍ ، وتقدُّمٍ في الحضارة والمدنية ، وتوسُّعٍ في المال والمادة ، وضيقٍ وضنكٍ ، وبذخٍ وترفٍ ، وعسرٍ ويسرٍ ، وشدَّةٍ ورخاءٍ ، وتسلُّط عدوٍّ قاهرٍ وملكٍ جائرٍ ، وكانت الأمة في حاجةٍ دائمةٍ إلى إشعال جذوة الإيمان ، وإثارة عاطفة الحبِّ والحنان ، وإعادة الوفاء والولاء في سائر الأجزاء والأعضاء ، فجعل الحج ربيعاً تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كلَّ عام ، وتؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها ، وتكتسي فيه هذه الشجرة العالمية لباساً جديداً قشيباً ، غضاً طرياً .

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، بما أكرمه الله من فقهٍ دقيقٍ ، وفهمٍ عميقٍ لأسرار التشريع ومقاصد الإسلام ، فأشار إلى هذه النكتة في كتابه «حجة الله البالغة» فقال :

«وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضةٍ بعد كلِّ مدَّةٍ ليتميز الناصح من الغاش ، والمنقاد من المتمرد ، ليرتفع الصيت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملَّة تحتاج إلى حجٍّ ؛ ليتميز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كلٌّ واحدٍ ما ليس عنده ؛ إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي»(١) .

وقال : **«وإذا جعل الحجُّ رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملَّة والتحضيض على الأخذ بها»**(٢) .

وقال : **«ومنها تحقيق معنى العرضة ، فإنَّ لكلِّ دولةٍ أو ملَّةٍ اجتماعاً**

---

(١) حجة الله البالغة : ج ١ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .
(٢) أيضاً : ج ١ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

يتوارده الأقاصي والأداني ، ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويستفيدوا أحكام الملة ، ويعظموا شعائرها.

والحج عرضة المسلمين ، وظهور شوكتهم ، واجتماع جنودهم ، وتنويه ملّتهم ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[(١)] [البقرة: ١٢٥].

مركز الإشعاع العالمي الخالد:

وقضى الله ألا يخلو «الحجُّ» في أشدِّ أيام هذه الأمة وأحلكها من الربانيين المخلصين ، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشدين ، ومن الداعين المبتهلين ، ومن الخاشعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين؛ الذين يملؤون الجو روحانيةً وخشوعاً ، فترق القلوب القاسية ، وتخشع النفوس العاصية ، وتفيض العيون الجامدة ، وتلتهب المجامر الخامدة ، وتنزل رحمة الله ، وتغشى السكينة ، ويخزى الشيطان ، لذلك جاء في الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا بما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام**»[(٢)] ويتكهرب الجو ، فيشحن المسلمون ـ الذين جاؤوا من كلِّ صوب بعيدٍ وفجٍّ عميقٍ ـ (بطارية) قلوبهم الفارغة ، ويأخذون زاداً من إيمانٍ وحبٍّ وحماسةٍ ، وعلمٍ وفقهٍ ، يعيشون عليه في حياتهم الباقية ، ويقاومون به كلَّ ما يواجهونه من إغراءٍ وتسويلٍ ، وتخويفٍ وتزيينٍ ، ويشركون في هذا الزاد إخوانهم المسلمين الذين قعد بهم الفقر أو الضعف ، أو المرض أو العدو ، وهكذا يجري هذا التيار الكهربائي الإيماني في جسم هذه الأمة المنتشرة في الآفاق ، فيتعلم الجاهل ، ويقوى الضعيف ، ويتحمَّس الخامد ، وتكتسب الأمة بذلك قوَّةً جديدةً على تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جديد.

---

(١) المصدر السابق: ص٤٢.

(٢) رواه مالك في الموطأ (٩٨٢) مرسلاً.

مظهر الجامعة الإنسانية الإسلامية:

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرةٍ، وهو إظهار لشعار هذه القومية، فتتجرَّد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية التي تميز بعضها عن بعض ويتعصب لها أقوام؛ وتظهر كلُّها في مظهرٍ واحدٍ يسمَّى (الإحرام) في لغة الدين والفقه، وفي مصطلح الحجِّ والعمرة، حاسرة رؤوسها ما بين رئيسٍ ومرؤوسٍ، وصغيرٍ وكبيرٍ، وغنيٍّ وفقيرٍ، وتهتف كلُّها في لغةٍ واحدة، ونغمةٍ واحدةٍ: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»، وهكذا تتجلى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف، وهما من أوضح ما تجلَّت فيه قومية، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب، ويسعى إليها العرب والعجم، ويلتقي عليها القاصي والداني، فكلُّهم يطوفون حول بيتٍ واحدٍ، ويسعون بين غايتين مشتركتين (الصفا والمروة)، وكلهم يقصدون (منى)، وكلُّهم يؤمون (عرفات) ويقفون في موقفٍ واحد، وكلهم يبيتون في مبيت واحد، ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨] ويفيضون إفاضةً واحدةً، ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٩] وكلهم يقفون أياماً في (منى) تجمع بينهم أشغالٌ واحدةٌ من نحرٍ، وحلقٍ، ورميٍ.

ليشهدوا منافع لهم:

وشُرِعَ الحجُّ لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير، ونجهل منها الكثير، وربما كان ما نجهله ونتمتَّع به أكثر مما نعرفه، ممَّا نوه به حكماء الإسلام، وأشادوا به في مؤلفاتهم، فقد قال الله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٨]، فأطلق المنافع، ونكَّرها،

وأبهمها ، ودلَّ هذا التعبير البليغ على كثرتها ، وتنوعها ، وتجدُّدها في كلِّ زمانٍ ، وإنَّها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء ، والاستقصاء(١).

يجب أن يمثل البلد الأمين الحياة الإسلامية ، والمجتمع الإسلاميَّ المثاليَّ في كلِّ زمان:

ولما كان الحجُّ عرضةً سنويةً للملَّة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيدٍ واحدٍ من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جوٍّ دينيٍّ ربانيٍّ ، وفي محيطٍ روحيٍّ إيمانيٍّ ، يستمدُّون منه قوةً جديدةً وروحاً جديدةً ، ويصحِّحون ما وقع في عقيدتهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعتراهم من زيغٍ ، أو وهنٍ بتأثير الحضارات والفلسفات العجمية الأجنبية ، وتقليد الشعوب والأمم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، ويستطيعون أن يردُّوا كلَّ شيءٍ إلى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة ، وجب بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح الإسلام وحكمة الحجِّ أن يظلَّ البلد الأمين الذي يقع فيه الحجُّ ، ويدور حوله أميناً للحياة الإسلامية ، الصافية الأصيلة (يصوِّر الحياة الإسلامية) بجميع جوانبها ، ومزاياها ، ومظاهرها ،

---

(١) إنَّ الحج لا شكَّ موسمٌ يشهده المسلمون من آفاق الأرض ونواحي العالم الإسلامي ، ليشهدوا منافع لهم ، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد والفكر الحصيف ، ويتعرَّف بعضهم ببعض ، ويجتمعوا على كلمةٍ واحدةٍ ومصلحةٍ راجحةٍ راشدةٍ.
ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة. كما اعتاد الكتاب المصريون أن ينوهوا بها ، وليس الحج مؤتمراً سياسياً فحسب ، كما يصوره كثير من حملة الأقلام ، ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر ، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع الحج ، لكان في الحجِّ استقرار ، وساده جوٌّ من الهدوء يساعد على ذلك ، ولكنه اضطراب وانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ ، ومن نسكٍ إلى نسكٍ ، ولكانت دعوةً مقصورةً على العلماء والزعماء ، والأذكياء والنبهاء ، وعلى الخاصة من المسلمين ، إنها لا شك ثمرةٌ من ثمرات الحج ، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة ، وقد فرضت على المسلمين ، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج؛ فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً». ولكان له وضع غير هذا الوضع ، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي.

حتى يلمسها ويتذوقها كلُّ واردٍ إليه مهما قصرت إقامته وقلّت معرفته؛ لأنَّ الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج إلى آخر الزمان، ومثابةً للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كلِّ سنة، يَفِدون إليه، وهم مؤمنون بحقٍّ بأنّهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر، ومولد الدِّين، وعاصمة الإسلام الرُّوحية، وكلُّ ما يشاهد ويسمع في جوانبه هو حجَّةٌ للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الإسلام، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين «وما وراء عبادان قرية».

وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلب عليها بمنطقٍ أو دليلٍ، أو خطابةٍ أو بلاغةٍ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدينٍ أو حضارةٍ، وهو العرف الذي جرى في مجال اللغة والآداب، والحضارة والفقه، فكانت لغة قريش، ثم لغة البادية العربية، هي الحجَّة في اللغة العربية، ومناهج كلامها ولهجاتها، وكان عمل أهل المدينة حجَّةً في مذهبٍ كبيرٍ من المذاهب الفقهية الإسلاميَّة[١]، وظلَّ عمل أهل قرطبة حجَّةً عند كثيرٍ من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي، وكانت مجمع العلماء والقضاة، واحتجَّ الناس قديماً وحديثاً بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاريِّ، وتنافس الناس في تقليدها، ورأوا فيها المثل الكامل، والقدوة في الحضارة والأناقة والظرف، ودعاة الإسلام زعماء الإصلاح يلقون صعوبةً ومحنةً، إذا احتجَّ الحجَّاج بما قد يشاهدونه، ويسمعونه في مركز الإسلام، ومهبط الوحي ممَّا لا يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، أو آدابها، ويصعب إزالتهم عن ذلك»[٢].

يجب أن يبقى «البلد الأمين» محتفظاً بطرازٍ خاصٍّ، والحجُّ بروح الجهاد والتقشف:

وجانبٌ أدقُّ من هذا، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين ـ على مرِّ العصور

---

(١) كالمذهب المالكي.

(٢) مقتبس من حديث ألقاه العلامة الندوي في المؤتمر الإسلامي الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، عام ١٣٨٤ هـ.

والأجيال ، ورغم تطورات المدنية ومرافق الحياة في العالم - محافظاً على شيءٍ من البساطة والطبيعة ، وعلى شيءٍ من التقشُّف ، ويتذكر فيه الوافدون من أنحاء العالم الجوَّ الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم ، أو قريب من شعورهم ، ويشعرون بانتقالٍ من عالمٍ إلى عالم ، ومن جوٍّ إلى جوٍّ ، ومن حياةٍ إلى حياة ، فإنَّ هذا الشعور يحدث في النفوس تخلياً عن الماضي ، واستعداداً لتلقي شيءٍ جديدٍ ، وفرحةٍ روحيةٍ لا يشعرون بها في مكانهم ، أما إذا بقي البيت وحده ، والحرم وحده على قِدَمهما ، وتغيَّر كلُّ شيءٍ حولهما ، وأصبح البلد الأمين وما جاوره من البقاع قطعةً من أوربة أو أمريكا ، وحلَّت المدنية الغربية بخيراتها وشرورها ، وبأصولها وفضولها ، وأصبح الحاجُّ الذي وصفه لسان الشرع «بالشعث التفل» يتقلَّب في أعطاف المدنية والنعومة ، وينتقل من راحةٍ إلى راحةٍ ، ومن تنعُّمٍ إلى تنعُّمٍ ، ومن حديثٍ إلى أحدث؛ فإنَّه لا يشعر بشيءٍ جديدٍ قويٍّ يُحدِث في مشاعره انقلاباً ، ويشحنه شحناً روحياً .

ولذلك اعتبر الحجُّ صنو الجهاد، وقد روى البخاريُّ عن عائشة مرفوعاً: «**أحسنُ الجهاد وأجمله حجٌّ مبرور**»(١) وعنها قالت: «**قلت يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال: لكن أفضل الجهاد حجٌّ مبرورٌ**»(٢) ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: «**شدوا الرحال في الحجِّ ، فإنَّه أحد الجهادين**»(٣). وإذا تطورت مكة تطوراً جذرياً ، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها ، وتوفرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التي لا توجد إلا في العواصم الغربية الكبرى ، شعر الحجَّاج بشيءٍ من الفراغ الروحيِّ ، وبشيءٍ من الجفاف ، وبانحطاطٍ ملموسٍ في فوائد الحجِّ ، وآثاره في النفس والحياة .

* * *

(١) رواه البخاري (١٧٦٢) عن عائشة .
(٢) رواه البخاري (١٤٤٨) عن عائشة .
(٣) رواه البخاري (١٥١٦) موقوفاً .

إبراهيم عليه السلام وبيت الله الحرام(١)

حديثنا اليوم حديثٌ عن عصرٍ قد مضى عليه بضعة آلافٍ من السنين ، عصرٍ عريقٍ في القدم ولكن لم يخلِّف عصرٌ من العصور الماضية من الآثار الباقية الخالدة على وجه البساطة ، وفي أعماق النفوس ، وأغوار القلوب ، وجذور العقيدة ، وصفحات الحضارة مثل ما خلَّف هذا العصر ، إنَّه عصرٌ كثرت فيه الدول والحكومات ، وازدهرت فيه المدنيات والحضارات ، وقامت فيه القصور الشامخة ، والأبنية الباذخة ، فلكلِّ أمَّةٍ دولةٌ ، ولكلِّ دولةٍ عاصمةٌ ، ولكلِّ ملكٍ «بلاطٌ» ولكلِّ أميرٍ قصرٌ ، ولكلِّ إلهٍ وآلهةٍ معبدٌ ، ولكلِّ كوكب «هيكل» ، عصرٍ قد قامت فيه دولة الآلهة والكواكب ، ونفقت فيه سوق الكهانة والسدانة ، ولكنه عصرٌ قد تجرد عن شيءٍ واحدٍ ، تجرَّد عن رجلٍ مؤمنٍ شجاعٍ يقول بملء فيه ، وبأعلى صوته: «**ألا لله الدين الخالص**» وتجرَّد عن مركزٍ روحي لا يعبد فيـه إلا الله ، ولا يُدعى منـه إلا إلى الله ، مركزٍ يجتمع حوله المؤمنون الموحدون في أنحاء العالم ، وتتفجر منه عين الإيمان والتوحيد ، فيفيض في سهول الأرض وحزونها ، وفي أغوارها وأنجادها.

لقد وجد هذا الرجل المفقود في شخص إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢١] رجلٌ أكرمه الله برسالته ، واصطفاه بخلته

---

(١) هذا الحديث كتبه العلامة الندوي على طلب من القسم العربي للإذاعة الهندية منذ عقود من السنين ، ثم نُشر في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الرابع ، المجلد الواحد والثلاثون ، عام ١٤٠٦ هـ.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ثم أمره أن يبني له بيتاً يظل مركزاً روحياً للإيمان، والتوحيد، وعبادة الله وحده، والدعوة إلى الله، ومثابةً للناس وأمناً.

ولكن أين يقوم هذا البيت؟ إنَّ الحواضر والعواصم التي تزدهر فيها المدنية، ويكثر فيها الخصب، وتنفق فيها التجارات، ويجذب إليها جمال الطبيعة، وزينة الصناعة كثيرةٌ، ولكن اقتضت حكمة الله أن يقوم هذا البيت في وادٍ غير ذي زرعٍ، لا طبيعة فيه، ولا صناعة، فلا يشدُّ الرحال إليه إلا المؤمنون الموحدون، ولا يقصده من أنحاء العالم إلا المخلصون المتجردون، ووقعت الخيرة على مكَّة التي لا ماء فيها، ولا كلأ، ولا زرع فيها، ولا ضرع، وادٍ ضيِّقٌ بين جبالٍ سود جرداء، لا طبيعة تغري، ولا صناعة تستهوي، ولا تجارة تشوق ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

لقد أتمَّ إبراهيم عمله في صدقٍ، وإخلاصٍ، وحماسةٍ، وإيمانٍ، وشاركه في ذلك ولده المؤمن المخلص نبيُّ الله إسماعيل بن إبراهيم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

لقد قام هذا البيت كما أراد الله، واجتمع حوله كلُّ ما يزهد الناس في السكنى حوله، وقصده من أنحاء بعيدةٍ، ومن أقاصي البلدان، فلا تجارة، ولا صناعة، ولا عذوبة ماءٍ، ولا رقَّة هواءٍ، ولا حسن مظهرٍ، ولا جمال منظرٍ، ولكنَّ الله قد قضى أن يكون هذا البيت هو البيت الوحيد الذي يبقى على طول الزمان، ويُقصد على بعد المكان، لا يضارعه في ذلك قصر ملكيٌّ، ولا معبدٌ دينيٌّ، يسعى إليه الناس بشقِّ الأنفس، وعلى الأقدام والأرؤس، وتأتيه الوفود كلَّ عام من أقصى المعمورة ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ

بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٩].

لقد أصبح هذا البيت الكريم شعاراً لله تعالى، وحرمةً من حرماته، ورمزاً للتوحيد والعبادة، فمن عظَّمه؛ فقد عظم حرمات الله، ومن أهانه؛ فقد أهان شعائر الله، وإنَّ أعظم رسالةٍ بهذا البيت هي رسالة التوحيد الذي قام على أساسه، فليحافظ على ذلك، وليتفهمه كلُّ من قصده، وطاف حوله، ونسك، وذبح ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣٢].

لقد أحبَّ الله النسك وإراقة الدماء في الذبح في هذه الأيام؛ لأنه عبادةٌ وشعارٌ من شعائر التوحيد ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦] ولكنَّه يقرِّر أنَّ روح هذا النسك والذبائح والأضاحي هو إرادة وجه الله، وامتثال أمره، وتوحيده، ليست هذه الدماء المهراقة واللحوم المبضعة ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

* * *

حجَّة الوداع
آيةٌ بينةٌ ومعجزةٌ خالدة

ممَّا أكرم الله به الأمة الإسلامية من بين أمم العالم ، وخصَّ به الإسلام من بين الأديان هذا الحجُّ الذي لم يعرف في تاريخ الديانات والنظم والشعوب والأمم نسك يضاهيه في التأثير والإصلاح ، وربط القلوب بالله ، وإثارة الحنان ، والأشواق ، وتسليتها ، وتحقيقها بالطريق الأمثل ، وتجديد الصلة بأصل الملة ومؤسسها ، وشحن النفوس بالقوة والإيمان الجديد ، وإشعال مجامر القلوب بالحبِّ والحنان ، والتمرد على الأوضاع والعادات ، والتحرر من ربقة الأعراف ، والدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، والتجرُّد من كل مظاهر الشرك والوثنية ، والسموِّ على الحواجز المكانية ، والفوارق الإنسانية ، وفي تحقيق مقاصد التعليم والتربية ، والتبليغ والدعوة ، وفي عصمة هذا الدين عن التحريف ، وفي وقاية هذه الأمة عن الانحراف العام؛ وعن وقوعها فريسةً لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وفي المحافظة على أصلٍ واحدٍ ونبع واحدٍ ، وفي توطين النفوس على المشاق والمكاره ، وأن تبقى هذه الأمة طوع إشارةٍ ، ورهينة أمرٍ ، لا تتشبث بعادةٍ ، ولا تعبد مألوفاً[1] ، ولا أبلغ من قوله تعالى : ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج : ٢٨].

---

(١) ليرجع في معرفة مقاصد الحج وأسراره إلى كتاب «حجة الله البالغة» لحكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدّهلوي ـ رحمه الله ـ.

وقد كانت حجة رسول الله ﷺ وهو خاتم النبيين من الآيات البينات ، والمعجزات الخالدات ، فقد كانت فريدة من بين سير الأنبياء ، وعباداتهم ، ومناسكهم فضلاً عن سائر الناس ، وقد كانت فريدةً من نواحٍ كثيرةٍ ، كانت فريدة من الناحية التعليمية والبلاغية ، فريدةً من الناحية الإصلاحية والتربوية ، فريدة من الناحية الباطنية والروحية ، فريدةً في مدى اهتمام الناس الذين أكرمهم الله بالسير في ركابه ، وحضور الموسم معه بتتبع آثاره ، وحفظ أخباره ، ومراقبة حركاته وسكناته ، وتسجيل غدواته وروحاته ، وفي مدى اعتناء طبقات الأمة من السلف إلى الخلف بكل ما صدر عنه ﷺ في هذا السفر من قولٍ ، أو عملٍ ، أو عادةٍ ، أو عبادةٍ ، أو نفيٍ ، أو إثباتٍ ، أو تقريرٍ ، أو إنكارٍ ، فقهاً واستنباطاً للأحكام ، واستخراجاً للجزئيات ، وتفريعاً للفروع ، وعلت في ذلك هممهم ، ودقّت فيه أفهامهم ، ورقّ فيه شعورهم ، حتى عصروا في ذلك أذهانهم ، وعقولهم ، وبلغوا في الدقة والتفصيل غايةً ما وراءها غاية ، ولم يكن الفضل في ذلك وحده للعلم ، ولا للعقل وحده ، وقد جربنا نشاط العلم والعقل ، ومدى وفائهما لموضوعهما في تدوين رحلات العلماء وتاريخ الزعماء ، فقد فاتهم الشيء الكثير الذي ليست له قيمة علمية ، أو أهميةٌ تاريخيَّةٌ ، بل كان في ذلك نصيبٌ كبيرٌ للحبِّ الذي لا يغفل ، ولا يلهو ، ولا يملُّ ولا يني ، ولا يتخلَّى عن شعرةٍ من الشعرات ، ولا يتنازل عن ذرةٍ من الذرات ، بل يتمسَّك بها كأنها أفضل بضاعةٍ ورأس مال ، بل كأنها حشاشة نفسٍ ، وحبَّة قلبٍ.

وقد رافق الحبُّ العقل في هذه الرحلة الطويلة المباركة منذ أعلن رسول الله ﷺ الحجَّ ، وأقبل إليه المسلمون من كلِّ صوبٍ ، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على سراجٍ منير؛ فلم يفترقا ، حتى عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد راقبا سيره ، ووقوفه ، وأقواله ، وأفعاله؛ فحفظا للأمة والأجيال القادمة سجلاً دقيقاً ، وكتاباً ناطقاً ، بل صورةً مشرقةً لهذه المرحلة الكريمة ، يرى فيها المسلم مسير رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة ، فمنى ، فعرفات ، ورجوعه ﷺ إلى مكة ، ثم قفوله للمدينة ، يراه

يطوف ، ويسعى ، ويسمعه يفتي ، ويُعَلِّم ، ويخطب ، ويتكلم ، ويشهد معه المشاهد كلَّها ، كأنه رأي عين ، وحديث أمس ، فيعوض ذلك عن تخلفه عن هذا الركب الميمون ، وعن إدراكه لهذه السعادة العظمى ، ويمثل له الغائب ، ويعيد إليه الماضي ، فيتعزى بذلك ، ويحمد الله ، ويعترف لأولئك العشاق المتيمين ، والرواة الأمناء المدققين بالفضل والإحسان ، ويدين لهم بالشكر والامتنان ، فما صنعت أمة بنبيِّها مثل هذه الأمة ، ولا حرصت على تخليد آثاره ، ورواية أخباره ، ونقل دقائقه وجلائله مثل ما حرصت هذه الأمة ، ولا اعتنى علماء دين بدراسة عبادةٍ من عبادات أنبيائهم ، مثل ما اعتنى علماء هذه الأمة بهذه الحجة ، ولا تعمَّقوا مثل تعمقهم في ذلك .

وقد دلَّت كلُّ القرائن على أنَّ هذه الحجَّة كانت مقصودةً من الله بهذا التفصيل ، ولم تكن فلتةً من الفلتات ، بل جاءت في وقتها المناسب ، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدراً . . . . وكانت في تأخيرها إلى هذا الوقت حكمةٌ بالغةٌ، ومصلحة راجحةٌ، فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب، وكثر المسلمون، وقوي الإيمان ، وشبَّ الحب ، واستعدت النفوس للتعلم والاستفادة وهفت القلوب ، ورنت العيون إلى المشاهدة والمراقبة ، ودنت ساعة الفراق ، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة ، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة ليحج البيت ، ويلقى المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ، ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ، ويمحو آثار الجاهلية ، ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه .

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبةٍ ، وألف درسٍ ، وكانت مدرسةً متنقلةً ، ومسجداً سياراً ، وثكنةً جوالةً ، يتعلم فيها الجاهل ، وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابةٌ واحدة تغشاهم في الحلِّ والترحال ، هي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبِّه ، وعطفه ، وتربيته ، وإشرافه .

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي ، وقوة حبهم ، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفداة أن سجلوا كلَّ دقيقةٍ من

دقائق هذه الرحلة ، وكلَّ حادثٍ من حوادثها الصغيرة ، لا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء ، والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء ، وذلك شأن المحب الوامق ، والعاشق الصادق ، الذي يرى كلَّ شيءٍ لمحبوبه حسناً ، فيتلذَّذ بذكره ، ويسترسل في حديثه ، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا يحصيها؛ ولا دقيقةً نادرةً إلا يستقصيها .

يتطيب رسول الله عند إحرامه فيذكرون من باشر هذا التطيب ، ويذكرون نوع هذا الطيب، فيقولون: «ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة[1] وطيبٍ فيه مسك، حتى يرى وبيص المسك في مفارقه ولحيته ﷺ. وشَعَر رسول الله ﷺ هديه ، فيذكرون تفصيله ، وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن ، أو الأيسر ، وكيف سلت عنها الدم. ويذكرون احتجامه ، والاحتجام فعل طبي طبعي لا صلة له بمناسك الحجِّ ، فيحددون مكانه من الجسم ، وموضعه من الطريق ، فيقولون: «واحتجم بملل؛ وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة» ويقولون: واحتجم على رأسه بلحى جمل (وهو موضع في طريق مكة). وتهدى له قطعة لحم ، وهي حادثة عادية ، تتكرر ، ولا تسترعي الاهتمام في عامة الأحوال ، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل ، فيقول الراوي: «حتى إذا كانوا بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشي». ويحددون المنازل بين المدينة ومكة ، ويعدون أيامه في السفر ، وذلك في زمان لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولكنَّ الحبَّ يهم ويخترع ، فيقول الراوي: ثم نهض إلى أن نزل بذي طوى ، فبات بها ليلة الأحد لأربعٍ خلون من ذي الحجة ، وصلَّى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهضَ إلى مكة . ولم تَفُتْهُم شاردةٌ ولا نادرةٌ في هذ الرحلة التي كثرت فيها الشواغل ، وتعدَّدت فيها المنازل ، واشتدَّ فيها الزحام ، فلم يَفُتْهُم أن يقيدوا خروج حية في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، فيقول الراوي ، وهو يذكر ليلة منى: ـ «وخرجت حية وأرادوا قتلها فدخلت في جحرها». ويذكرون كلَّ من كان

---

(١) وقد أفاض الشراح في وصف الذريرة وأنواعها ، وهي نوع من الطيب.

رديف[1] رسول الله في هذه الرحلة؛ ويذكرون اسم الحلاق، وكيف قسم شعره، ومن خصَّهم بالشقِّ الأيمن؛ ومن خصَّهم بالشقِّ الأيسر، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلا الحبَّ العميق.

ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القادة، وتاريخ المشاهير، وقد أخلَّت أمم كثيرة بحياة أنبيائها وسيرهم وأخبارهم، ومراحل حياتهم، وضيعوا منها الشيء الكثير الذي لا تكمل حياتهم، ولا يتمُّ تاريخهم إلا به، ولم يحافظوا إلا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم، فجل ما نعرف من حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هو أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرته وأخباره؛ وهنالك أصحاب رسالات وديانات في بلاد متمدنة عريقةٍ في العلم لم تبق إلا أسماؤهم، ونتفٌ من أخبارهم، لا تشفي العليل، ولا تروي الغليل، ولا تقود الأجيال، ولا تنير السبيل.

وقد كان الحج بطبيعته، ووضعه الخاص؛ الذي يمتاز به عن سائر الأركان، وانتقاله من طورٍ إلى طورٍ، ومن فعل إلى فعل، ومن نسكٍ إلى نسكٍ، ومن مكانٍ إلى مكانٍ، وما يتعلق به من الأحكام والآداب والجزئيات، وتنوع أحوال الناس فيه من أوسع أبواب الفقه، وأكثرها أحكاماً، ومسائل وأدقها، ولذلك عني به العلماء قديماً وحديثاً، انفرد بعلمه والإفتاء فيه علماء مختصون من التابعين، وأتباع التابعين، ومن جاء بعدهم، وكان يشار إليهم بالبنان، وقد يعينهم الخلفاء ومن بيدهم الحلُّ والعقد؛ فيعلن: «لا يُفْتِ في الموسم إلا فلانٌ وفلان» وجرت سنة الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العبَّاس بتعيين أمير الحج، وإرساله للحج[2].

أكثر علماء الإسلام وفقهاء الأمصار والمؤلفون الكبار البحث فيه،

---

(١) وقد استوعب صاحب نسيم الرياض أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفاً، وزاد ابن مندة على هذا العدد.

(٢) راجع البداية والنهاية، لابن كثير وغيره من كتب التاريخ.

وتوسعوا فيه توسعاً لم يعرف لغيره من أبواب الفقه ، ومنهم من أفرد له تأليفاً ، وألَّف كتاباً خاصاً في المناسك ، وإذا أفردت هذه الكتب التي ألفت في المناسك وأحكام الحج في عصورٍ مختلفة ، وفي بلادٍ مختلفة ، وفي لغاتٍ مختلفةٍ؛ كونت مكتبةً كبيرةً ، ومن المؤلفين من اختص بمذهبه ، ومنهم من ذكر المذاهب الأخرى ، واستعرض دلائلها ، وبحث بحثاً مقارناً ، ومنهم من أفرد كتاباً بحجَّة الوداع .

وكلُّ ذلك يدلُّ على مكانة الحجِّ في الإسلام ، ومدى عناية الأمة به ، وقد كانت هذه الفريضة التي تفرض مرَّةً في العمر ، وما ورد فيها من الفضائل ، وما وعد الله عليها وأخبر به رسوله من الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، والمغفرة من الذنوب: (**من حج ، فلم يرفث ، ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه**) وما يستتبع هذا السفر عادةً من الاهتمام الزائد ، وتحمُّل المشاق ، وركوب البحار حيناً ، وقطع البراري والقفار حيناً آخر ، وتجشم الأخطار ، والتعرض للمخاوف ، وفراق الأهل والوطن ، وقبول التزامات الإحرام ومحظوراته ، والابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال ، كان كلُّ ذلك كافلاً بأن تتوافر الدواعي ، وتشحذ العزائم ، وتتوجه الهمم إلى معرفة فقهه وآدابه وسننه ، وبذل أقصى الطاقة في إحسانه وإكماله ، وأن تقتفى فيه آثار النبي ﷺ وتتبع سننه ، ويقتدى بهديه بقدر الإمكان وإلى ما يبلغه جهد الإنسان ، فكان كلُّ ذلك باعثاً على العناية بحجة النبي ﷺ التي كانت ولا تزال الحجَّة المثالية لكلِّ مسلم في كل عصر ومصر إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها .

* * *

حجَّة الوداع وقيمتها البلاغية والتربوية[1]

حجة الوداع وأوانها :

ولما تمَّ ما أراده الله من تطهير نفوس الأمة من شوائب الوثنية ، وعادات الجاهلية ، وإنارتها بنور الإيمان ، وإشعال مجامرها بالحبِّ والحنان ، وتمَّ ما أراده الله من تطهير بيته من الرجس والأوثان ، وتاقت نفوس المسلمين الذين بَعُدَ عَهْدُهم عن حجِّ البيت ، وطفحت كأس الحب والحنان ، حتى فاضت ودنت ساعة الفراق ، وألجأت الضرورة إلى وداع الأمة آذن الله لنبيه في الحجِّ ، ولم يكن قد حجَّ النبي ﷺ في الإسلام .

قيمتها البلاغية والتربوية :

فخرج من المدينة ليحج البيت ، ويلقى المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ، ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ، ويمحو آثار الجاهلية ، ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه ، وكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ومسجداً سياراً ، وثكنةً جوالة ، يتعلم فيها الجاهل ، وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحل والترحال ، وهي سحابة صحبة النبي ـ ﷺ ـ وحبه ، وعطفه ، وتربيته ، وإشرافه .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الرابع ، المجلد الثالث والعشرون ، عام ١٩٧٨ م .

تسجيل دقائق حجة النبيِّ :

وقد سجل الرواة العادلون من الصحابة كلَّ دقيقةٍ من دقائق هذه الرحلة ، وكلَّ حادث من حوادثها الصغيرة تسجيلاً لا يوجد له نظير في رحلات الملوك والعظماء ، والعلماء والنبغاء[1] .

سياق حجته ﷺ إجمالياً :

ونحن نلخص[2] هذه الحجة التي سميت بـ«حجَّة الوداع» و«حجَّة البلاغ» و«حجَّة التمام» وكانت كلَّ ذلك أو أكثر ، وحجَّ معه أكثر من مئة ألف إنسان[3] .

كيف حجَّ النبي ﷺ :

عزم رسول الله - ﷺ - على الحجِّ ، وأعلم الناس أنَّه حاج ، فتجهَّزوا للخروج معه .

وسمع بذلك مَنْ حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون ، فكانوا من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله مدَّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمسٍ بقين من ذي القعدة يوم السبت بعد أن صلى الظهر بها أربعاً ، وخطبهم قبل ذلك خطبةً علمهم فيها الإحرام ، وواجباته ، وسننه .

ثم سار وهو يلبي ، ويقول : «**لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك**» والناس معه يزيدون وينقصون ، وهو يقرهم ، ولا ينكر عليهم ، ولزم تلبيته ، ثم سار حتى نزل بـ«العرج» وكانت زاملته وزاملة أبي بكرٍ واحدةً .

---

(١) اقرأ كتاب «حجة الوداع وجزء عمرات النبي ﷺ» للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وتقديمه بقلم العلاَّمة الندوي (طبع بيروت) .

(٢) اعتمدنا في هذا التلخيص على كتاب «زاد المعاد» النفيس ، للعلامة ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ ، وقد استوعب الموضوع روايةً وتاريخاً وفقهاً . العلاَّمة الندوي .

(٣) روي عددهم من مئة وأربعة عشر ألفاً إلى مئة وثلاثين ألفاً .

ثم مضى حتى أتى «الأبواء» فوادي «عسفان» فـ «سرف» ، ثم نهض إلى أن نزل بـ «ذي طوى» فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكة ، فدخلها نهاراً من أعلاها ، ثم سار حتى دخل المسجد ، وذلك ضحىً ، فما نظر إلى البيت إلا قال: «**اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً**» ويرفع يديه ، ويكبِّر ، ويقول: **اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، حيِّنا ربنا بالسَّلام**.

ولما دخل المسجد عمد إلى البيت ، فلما حاذى الحجر الأسود ، استلمه ، ولم يزاحم عليه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ، ورمل في طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول.

وكان يسرع في مشيه ، ويقارب بين خطاه ، واضطبع بردائه ، فجعله على أحد كتفيه ، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه ، وكلما حاذى الحجر الأسود ؛ أشار إليه ، واستلمه بمحجنه ، فلما فرغ من طوافه ، جاء إلى خلف المقام ، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] فصلى ركعتين ، فلما فرغ من صلاته ، أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله ، فلمَّا قرب منه قرأ: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به ، ثم رقي عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبَّره ، وقال: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده**.

وأقام بمكة أربعة أيام ، يوم الأحد ، والإثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، فلما كان يوم الخميس ضحىً ، توجه بمن معه من المسلمين إلى منى نزل بها ، وصلى بها الظهر والعصر ، وبات بها ، وكان ليلة الجمعة ، فلما طلعت الشمس ، سار منها إلى عرفة ، ووجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس ، أمر بناقته القصواء ، فرحلت ، ثم سار ، حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة ، فخطب الناس وهو على

راحلته ، خطبةً عظيمةً قرّر فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرّر فيها تحريم المحرمات؛ التي اتفقت الملل على تحريمها ، وهي: الدماء ، والأموال ، والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع ربا الجاهلية كلَّه ، وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيراً ، وذكر الحقَّ الذي لهنَّ وعليهنَّ ، وأن الواجب لهن الرزق ، والكسوة بالمعروف.

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لن يضلُّوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبر أنهم مسؤولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون ، وبماذا يشهدون ، قالوا: نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فرفع أصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات ، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم ، فلما أتمَّ الخطبة ، أمر بلالاً فأذَّن ثم أقام الصلاة ، فصلَّى الظهر ركعتين ، ثم أقام فصلَّى العصر ركعتين أيضاً. وكان يوم الجمعة.

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف ، فوقف وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء ، والتضرُّع ، والابتهال إلى غروب الشمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيها: «**اللهم! إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقرُّ المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم! لا تجعلني بدعائك ربِّ شقياً ، وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! وخير المعطين!**».

وهنالك أنزلت عليه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فلما غربت الشمس ، أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، وأفاض بالسكينة ، ضمَّ إليه زمام ناقته ، حتى أن رأسها ليصيب طرف رحله ، وهو يقول: «**أيها الناس عليكم بالسكينة!**»

وكان يلبي في مسيره ذلك ، لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذن بالأذان فأذن ، ثم أقام ، فصلى المغرب قبل حطِّ الرحال وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثم صلَّى العشاء ، ثم نام حتى أصبح.

فلما طلع الفجر صلاَّها في أول الوقت ، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدعاء والتضرُّع ، والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جداً ، وذلك قبل طلوع الشمس ، ثم سار من مزدلفة ، مردفاً للفضل بن عباس ، وهو يلبي في مسيره ، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ، فلما أتى بطن محسر ، حرَّك ناقته ، وأسرع السير ، فإنَّ هنالك أصاب أصحابَ الفيل العذابُ ، حتى أتى منى ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس ، وقطع التلبية.

ثم رجع إلى منى ، فخطب الناس خطبةً بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وقال في خطبته تلك:

«اعبدوا ربكم ، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم» ، وودَّع الناس حينئذٍ فقالوا: «حجَّة الوداع».

ثم انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنيّ عمره ، ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المئة ، فلما أكمل ﷺ نحره استدعى بالحلاق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين من يليه ، ثم أفاض إلى مكة راكباً ، وطاف طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، ثم أتى زمزم ، فشرب وهو قائم ، ثم رجع إلى منى من يومه ذلك ، فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم الجمرة الثالثة ، وهي جمرة العقبة ، وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر ، وقد

تقدَّمت ، والخطبة الثانية في ثاني يوم النحر.

وتأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة ، ثم نهض إلى مكة ، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، وأمر الناس بالرحيل ، وتوجه إلى المدينة(١).

ولما وصل إلى غدير خم(٢) ، خطب ﷺ وذكر فيها فضل علي ـ رضي الله عنه ـ وقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم! وال من والاه وعاد من عاداه**»(٣).

فلما أتى «ذا الحليفة» بات بها ، فلما رأى المدينة ، كبَّر ثلاث مرات ، وقال: **لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيءٍ قدير ، آيبون تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده. ثم دخلها نهاراً**(٤).

خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع:

ونذكر هنا نص الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ يوم عرفة ، ونصَّ الخطبة التي خطبها في أوسط أيام التشريق ، للموعظة البليغة ، والفوائد الكثيرة التي تشتمل عليها هاتان الخطبتان العظيمتان.

فقال في خطبة عرفة:

«**إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي**

---

(١) ملخصاً من «زاد المعاد» ومقتبساً منه ج ١ ، ص ١٨٠ ـ ٢٤٩ ، بحذف المباحث التي توسع فيها المؤلف وأفاض ، ومواضع الخلاف بين الفقهاء والمحدثين.

(٢) غدير بين مكة والمدينة ، بينه وبين الجحفة ميلان.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦. نقلاً عن الإمام أحمد والنسائي ، وسبب ذلك: أنَّ بعض الناس كانوا قد اشتكوا عليّاً ، وعتبوا عليه ، وتكلَّم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً ، وتضييقاً وبخلاً ، والصواب كان مع علي في ذلك (ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤١٤).

(٤) زاد المعاد:ج ١ ، ص ٢٤٩.

موضوعٌ ، ودماء الجاهلية موضوعةٌ ، وإنَّ أول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوعٌ ، وأول رباً أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنَّه موضوعٌ كلُّه ، فاتقوا الله في النساء ، فإنَّكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهنَّ وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت ، وأدَّيت ، ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكبها إلى الناس: اللهم اشهد ثلاث مرات»[(١)] .

وهذا نصُّ الخطبة التي خطبها ـ ﷺ ـ في أوسط أيام التشريق:

«يا أيها الناس! هل تدرون في أيِّ شهرٍ أنتم ، وفي أيِّ يومٍ أنتم ، وفي أيِّ بلدٍ أنتم؟ فقالوا: في يومٍ حرام ، وبلدٍ حرامٍ ، وشهرٍ حرام ، قال: فإنَّ دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرامٌ ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، وفي بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ، ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا ، ألا لا تظلموا ، ألا لا تظلموا! ألا لا تظلموا إنَّه لا يحلُّ مال امرىءٍ مسلمٍ إلا بطيب نفسٍ منه ، ألا وإنَّ كلَّ دم ومالٍ ومأثرةٍ كانت في الجاهلية تحتَ قدمي هذه إلى يوم القيامة! وإنَّ أول دمٍ يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، ألا وإنَّ كلَّ ربا في الجاهلية موضوعٌ ، وإنَّ الله عز وجل قضى أنَّ أول رباً يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون ، ألا وإنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض! ثم قرأ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] ألا

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨) ، وابن حبان في الصحيح (٩/ ٢٥٣) برقم (٣٩٤٤) عن جابر.

لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا إنَّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ، ولكنه في التحريش بينكم! واتقوا الله في النساء ، فإنهنَّ عندكم عوانٌ لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنَّ لهن عليكم حقاً ، ولكم عليهن حقاً ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لأحدٍ تكرهونه ، فإن خفتم نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وبسط يديه ، وقال: ألا هل بلغت! ألا هل بلغت! ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب ، فإنه ربَّ مبلَّغ أسعدُ من سامع[١] .

* * *

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٧٢) عن أبي حرَّة الرقاشي عن عمِّه .

العَقيـدة الإسلاميـة السُّنِّـيَّـة[1]

مصادر تلقي العقيدة الصحيحة والعمدة فيها:

إنَّ أجلَّ علمٍ أخذ عن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه معرفة الله تعالى، وعلم ذاته وصفاته وأفعاله، وذلك علم يختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ إذ هو علم ليست له وسائل وآلات، ومعلومات أولية، وتجارب عند البشر، ولا يتناوله القياس، ولا يفيد فيه الذكاء والفطنة؛ لفقدان أساس القياس، وتعالى الله عن الأشباه والنظائر، وسموه، وتقدسه، وتنزهه عن التشبه والتمثل، ولبعده عن كل ما عرفه البشر، وألفه، وجربه في عالم الحس والمادة؛ لأنه ليس حلبةً تجري فيها جياد العقول، وتتسابق فيها عتاق العلم والتجربة.

وكان أجلَّ علمٍ تتوقَّف عليه سعادة البشر؛ إذ هو الأساس للعقائد، والأعمال، والأخلاق، والمدنية، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه، ويفكُّ لغزة الكون، ويكشف عن سرِّ الحياة، وبه يعيِّن الإنسان مركزه في هذا العالم، وينظم علاقاته واتصالاته ببني جنسه، ويضع منهاج حياته، ويحدِّد غاياته في ثقةٍ وبصيرةٍ، ووضوحٍ ويقين.

لذلك عظم الاعتناء به في كلِّ أمَّةٍ وجيلٍ، وفي كلِّ عصرٍ وطبقةٍ وحرص

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السابع، المجلد السابع والعشرون، عام ١٩٨٣ م، والمقال في الحقيقة كلمة كتبها العلاَّمة الندوي كمقدمة لكتاب «شرح العقيدة الحسنة» للشيخ محمد أويس الندوي، ولكنها كلمة علمية أكثر من كلمة تقديم تقليدية.

عليه ، وأولع به كلُّ جاد مخلص ، ناصحٍ لنفسه ، مشفقٍ على حياته ومصيره ، لأن جهله ـ أو تجاهله ـ يؤدي إلى الشقاء الذي ليس بعده شقاء ، ووقوع في الهاوية التي ليس لها قرار.

وكان الناس في ذلك فريقين: فريق اعتمد في ذلك على الأنبياء والرسل وعلومهم صلى الله عليهم؛ الذين أكرمهم الله بالنبوة وخصَّهم بمعرفته وتكليمه ورسالاته ، وجعلهم واسطةً بين الحقِّ والخلق في معرفةِ ذاته ، وصفاته ، وطرق مرضاته ، وأفردهم باليقين الذي ليس فوقه يقين ، ونور ليس بعده نور ، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال قائلهم وقد نازعه قومٌ في ذات الله وصفاته في غير علمٍ يملكونه ، أو نورٍ يحملونه: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠] ثم أضافوا إلى ذلك التأمل في الكون والتفكر في خلق السموات والأرض ، والنظر في آيات الله ، وتدبر كتابه الحكيم ، والعمل الصالح والتقوى ، وتزكية النفس ، وتهذيب الخلق ، وتصفية القلب على منهاج الأنبياء عليهم السلام ، واستعمال عقولهم ومواهبهم ، والنظر في العلوم الكونية والعقلية ـ بحريةٍ واستقلال فكرٍ ـ فرأوا أنَّ بعضها يصدِّق بعضاً ، فازدادوا يقيناً إلى يقين ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وفريق اعتمد في ذلك على ذكائه ، وعلمه ، وتجاربه ، ومواهبه ، وأطلق عنان العقل ، وأركض جواد القياس ، وتناول ذات الله وصفاته بالدراسة والبحث والتحليل والتجزئة ، كمادةٍ كيمياويةٍ ، أو قوّةٍ طبيعيةٍ ، أو طاقةٍ نباتية ، وقالوا: هو كذا وليس كذا ، وكان قولهم: ليس كذا أكثر من قولهم: هو كذا ، والنفي دائماً ـ إذا فقد اليقين وعدم النور ـ أسهل من الإثبات والتقرير ، وجاءت نتائج بحثهم وتقريرهم أكثرها سلوب ، والمدنية لا تقوم على السلوب ، وليس ذلك شأن الأنبياء الذين يشاهدون ، ويسمعون ، ويردُّون عن علمٍ وتجربةٍ شخصيةٍ ، فجاءت فلسفتهم الإلهية ـ كما سموها ـ آراءً متضاربةً ، وتخميناتٍ ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يقم عليها دليلٌ أو برهان ، ولم تؤيدها تجربةٌ أو وجدان.

وكان في مقدمة هذا الفريق وعلى رأسه اليونان الذين عُرِفوا من قديم الزمان بالذكاء المفرط ، والقريحة الوقادة ، والفلسفة العميقة ، والشعر البليغ ، والفن الرفيع ، ولم يكن هذا ـ علم الإلهيات ـ مجال شيءٍ من ذلك ، ولا يتَّصل به بنسب قريبٍ أو بعيدٍ ، فجاهدوا في غير جهادٍ ، ومشوا بين شوكٍ وقتادٍ ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور : ٤٠] ليس معهم نورٌ يهديهم ، أو دليلٌ يرشدهم ، أو تجربةٌ سابقةٌ تأخذ بيدهم ، أو مقدماتٌ ومعلوماتٌ أوليةٌ يتوصلون بها إلى المجهول .

وكان ضغثاً على إبالة : أنَّهم كانوا أصحاب وثنيةٍ عتيقةٍ ، عميقةٍ عريقةٍ ، وأصحاب أساطير وخرافات تغلغلت في فلسفتهم وشعرهم ، وأدبهم ودياناتهم ، لهم فلسفةٌ وثنية خاصَّةٌ عن الأفلاك والعقول ، توارثوها جيلاً بعد جيل ، فجاءت فلسفتهم الإلهية مزيجاً من الفلسفة والوثنية ، جامعةً بين العلم والديانة ـ الديانة التي آمنوا بها ، وقلَّدوها ـ ووضعوا لآرائهم وتحكماتهم أسماء هائلة مرعبة ، وكسوها لباس الفلسفة والفن ، القشيب المزخرف .

وقد قلَّدهم عامة النظار والباحثين من الأمم ـ غير الهند التي عرفت بفلسفاتها والوثنية الخاصة ـ وخضعوا لها تقليداً وإيماناً بالغيب ، لبراعتهم في الحساب والهندسة ، وبعض العلوم الطبيعية ، وهذا داء البشر القديم ، إذا خضعوا لأحدٍ في شيءٍ خضعوا له في جميع الأشياء ، كما قرره حجَّة الإسلام الغزالي في مقدمة «تهافت الفلاسفة» والعلامة ابن خلدون في مقدمته العظيمة ، وأخذوا بحوثهم وآراءهم كنتائج مقررة ثابتة ، وحقائق علمية ، لا يتطرق إليها الشكُّ ، ولا ينازعها إلا جاهلٌ أو متعصب .

ولا يستغرب ذلك عن الأمم التي أفلست في ثروتها الدينية من القديم ، وضيعت الهدى والنور ، ولكنَّه غريب من علماء المسلمين الذين أكرمهم الله بالرسالة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والكتاب الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] فخضع كثيرٌ منهم لهذه الفلسفة ، وبدؤوا يبحثون فيها كعلمٍ قائمٍ على المسلَّمات

والحقائق والتجارب ، وسلموا كثيراً من متخيلاتهم ومفروضاتهم ، وأخضع كثيرٌ منهم ـ حباً للإسلام تارةً وضعفاً منهم أخرى ـ الآيات القرآنية ، أو أولوها تأويلاً شديداً ، وفسَّروها تفسيراً يطابق ما ثبت ، وتقرر في الفلسفة اليونانية الإلهية.

وكان أكثر ما دُهُوا به ، وأُتوا من قبله هو «اللوازم الفاسدة» التي يجب أن ينزه عنها «واجب الوجود» ففروا من إثبات كثيرٍ من الأسماء والصفات والأفعال؛ لأنها يلزم منها ما يختص بالحدث ، وما يثبت به الجسم ، وما يتنزه عنه «القديم» كلُّ ذلك قياساً على الإنسان ، وعلى تجاربهم المحدودة؛ إذ لا يتصور ولم يجرب بوجود هذه الصفات إلا بهذه اللوازم ، وفاتهم أنها صفاتٌ إلهيةٌ يمكن وجودها بغير هذه اللوازم ، وهكذا مال فريقٌ منهم إلى نفي الصفات ، وكان أحسنهم حالاً من تأولها ، أو فسَّرها تفسيراً كاد يؤدي إلى التعطيل ، وفاتت ، أو كادت تفوت حكمة الصفات.

ومشى الكثير على هذا الدرب على اختلاف نزعتهم ومشاريعهم وتكوَّن علم الكلام ، وتضخم ، وكان المسلم في حاجةٍ إلى من يؤسس عقيدته وتفكيره على ما ثبت من الكتاب والسنة ، وآمن به السلف ، ويجعله الأساس ، وينظر في الفلسفة وغير الفلسفة كعلمٍ يناقش ، ويبحث فيه ، وينكر بعضه ، ويؤخذ بعضه ، ويستعرضه استعراضاً علمياً حراً ، لا تقليد فيه ولا استسلام ، ولا يأخذ من مفروضات الفلاسفة اليونانيين ومقلديهم ومستلزماتهم إلا ما قام عليه الدليل ورجح في ميزان العلم ، ولا ينظر إلى أرسطاطاليس وأضرابه كآلهةٍ أو أنبياء معصومين عن الخطأ ، وكان المسلمون في حاجةٍ إلى نوابغ مستقلين في التفكير ، مجتهدين متمسكين ، ثائرين مؤمنين ، هدامين بنائين ، يجمعون بين العلم الواسع العميق للكتاب والسنة والنظر الدقيق والعلم الغزير للمناهج الكلامية والمذاهب الفلسفية ، يواجهون الفلسفة وآراء الفلاسفة القدماء وجهاً لوجه ، يؤمنون بالقرآن كما أنزل ، ويؤمنون بالله كما وصف نفسه ، من غير تحريفٍ ولا تأويلٍ ، ويفسرون ذلك كله تفسيراً يقرَّه العقل والمنطق ، ويؤيده العلم والبرهان.

كان من هؤلاء الثائرين المؤمنين ، الثائرين على الفلسفة ومفروضاتها وتهويلاتها ، والمؤمنين بكتاب الله ، ووصف الله نفسه ظاهراً وباطناً علماءُ ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[(١)] ، لم يخل منهم عصر ، وكان منهم ومن أشهرهم شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحراني الدمشقي في القرن الثامن ، فقد جمع ـ كما شهد به أعلام هذه الأمة ، ونطقت به كتبه ـ بين الإيمان القوي بكل ما جاء به الرسول ، ونطق به الكتاب ، والاقتناع بعقيدة السلف الصالح ، والاطلاع الواسع ـ الذي لا يرام فوقه ـ على ما دوِّن في صحائف هذه الأمَّة في الماضي، والعلم الدقيق العميق بفلسفة اليونان ومنطقهم ، والمذاهب التي نشأت في الإسلام بتأثير الفلسفة اليونانية في قليلٍ أو كثير، والنقد القويِّ الحرِّ الجريء لمناهجها وبحوثها، وقد رزق تلميذاً وخليفة مشى على إثره، وشرح ما أبهمه ، وجمع ما نشره ، وأكمل ما بدأه ، وهو العلامة ابن قيم الجوزية (م ٧٩١ هـ).

وكان من خير من يلحق بهما ويذكر معهما شيخ الإسلام حكيم الأمة الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدِّهلوي (م ١١٧٦ هـ) صاحب «حجة الله البالغة» فقد جمع بين العقيدة السنية السلفية ، والفهم الدقيق للقرآن ، والخبرة الواسعة بالحديث ، والعلم بأسرار الشريعة ، وبين الدراسة العميقة الواسعة للفلسفة اليونانية ، وعلوم الحكمة ، والتصوف ، علماً وعملاً ، ووصل إلى درجة الاجتهاد ، وهو الذي نشر علم الحديث ، وروَّج بضاعته في الهند ، ودافع عن الإمام ابن تيمية والمحدثين ، وألف الكتب البديعة في مقاصد الإسلام والشريعة منقطعة النظير في مكتبة الإسلام العامرة الواسعة[(٢)].

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤) ، ولفظ الحديث: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

(٢) اقرأ ترجمته الضافية في الجزء السادس لـ«الإعلام بمن في الهند من الأعلام» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، طبع دائرة المعارف في حيدر آباد (الهند).

وكان هؤلاء ـ ومن كان على شاكلتهم ـ أجدر الناس بشرح العقيدة الإسلامية وعرضها ؛ إذ كانوا وسطاً بين الجامدين القشوريين ، والجاحدين المؤولين؛ الذين يصرفون الكلم عن مواضعه، يجمعون بين المعقول والمنقول والشريعة والحكمة ، مطلعين على المناهج الكلامية ، متمسكين بالكتاب والسنة وعقيدة السلف ، وكانت كتبهم ومؤلفاتهم أجدر بالتدريس والاعتناء والشرح والإيضاح من كثيرٍ من الكتب التي يعنى بها في مدارسنا وجامعاتنا .

وكان كتابه «العقيدة الحسنة» متناً وجيزاً محكماً يجمع بين الدقة والسهولة وقد اشتملت على اللب واللباب ، والمهم من العقيدة وعلم التوحيد الذي لا يسع المتعلم جهله ، فلذلك اعتمدنا عليه مع التلخيص في عرض العقيدة الإسلامية السلفية مع استعانةٍ قليلةٍ ، وزيادةٍ يسيرةٍ من كتب السلف المعتمدة كعقيدة الطحاوي ، وكتب في شرح العقائد لكبار علماء السُّنَّة .

العقائد الإسلامية الأساسية :

إنَّ للعالم صانعاً قديماً لم يزل ولا يزال ، واجباً وجوده ، ممتنعاً عدمه ، وهو الكبير المتعال ، متصفاً بجميع صفات الكمال ، منزهاً عن جميع سمات النقص والزوال ، وهو خالقٌ لجميع المخلوقات ، عالمٌ لجميع المعلومات ، قادرٌ على جميع الممكنات ، مريدٌ لجميع الكائنات ، حيٌّ سميعٌ ، بصيرٌ ، لا شبه له ، ولا ضدَّ له ، ولا ندَّ له ، ولا مثل ، ولا ظهير له ، ولا شريك له في وجوب الوجود ، ولا في استحقاق العبادة ، ولا في الخلق والتدبير ، لا يستحقُّ العبادة (أي: أقصى غاية التعظيم) إلا هو ، ولا يشفي مريضاً ، ولا يرزق رزقاً ، ولا يكشف ضراً إلا هو ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، لا يحلُّ في غيره، ولا يتَّحد بغيره، ليس في ذاته ولا في صفاته حدوث[1] ، ليس بجوهر[2] ، ولا عرض[3] ، ولا جسم ، ولا في حيز ، وهو فوق العرش ، مرئي

(١) إنما الحدوث في تعلق الصفات بمتعلقاتها.

(٢) هو القائم بنفسه ، أو الشاغل للحيز.

(٣) العرض: ما يحتاج إلى المحلِّ المقوم له.

للمؤمنين يوم القيامة ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، غني لا يحتاج إلى شيءٍ ، ولا حاكم عليه ، لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون ، لا يجب عليه شيء بإيجاب غيره ، موصوفٌ بالحكمة ، لا قبيح منه ، ولا حاكم سواه.

والقدر خيره وشره من الله ، قد شمل علمه الأزليُّ الذاتيُّ كلما وُجِد أو سيوجد من الحوادث ، وهو الذي يوجب الحوادث قبل وجودها(١).

ولله تعالى ملائكة عِلْوِيُّون ، مقربون ، وملائكة هم موكلون على كتابة الأعمال ، وحفظ العبد عن المهالك ، والدَّعوة إلى الخير ، ويلمون بالعبد لمة الخير ، ومن خلق الله تعالى الشياطين ، لهم لمة شرٍّ بابن آدم ، ومن خلقه الجنُّ.

والقرآن كلام الله ، ولا يجوز الإلحاد في أسماء الله وصفاته ، وهو أن يوصف بما لا يصحُّ وصفه به ، أو أن تُتأوَّل أوصافه على ما لا يليق به ، فيتوقف الإطلاق على الشرع.

والمعاد الجسماني حقٌّ ثابت ، والمجازاة والمحاسبة حقٌّ ، والصراط ثابتٌ بالكتاب والسنة ، والميزان حقٌّ ، والجنَّة حقٌّ ، والنار حقٌّ ، وهما مخلوقتان اليوم ، والأرواح مخلوقةٌ لا تفنىٰ ، وهي غير قديمة.

ولا يخلد المسلم صاحب الكبيرة في النار ، والشفاعة حقٌّ لمن أذن له الرحمن ، وشفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمته حقٌّ ، وهو مشفَّعٌ ، وعذاب القبر للفاسق وتنعيمه للمؤمن حقٌّ ، وسؤال المنكر والنكير حقٌّ.

وبعثه الرسل إلى الخلق حقٌّ ، وتكليف الله عباده بالأمر والنهي على ألسنة الرسل حقٌّ ، وهم متميزون بأمورٍ لا توجد في غيرهم على سبيل الاجتماع ، تدلُّ على كونهم أنبياء ، منها خرق العوائد لهم ، وهي

---

(١) صحَّ من حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه». (رواه الترمذي : ٢١٤٤) عن جابر بن عبد الله .

المعجزات ، ومنها سلامة فطرتهم ، وكمال أخلاقهم ، وغير ذلك ، والأنبياء معصومون من الكفر ، وتعمُّد الكبائر ، والإصرار عليها .

ومحمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، ودعوته عامةٌ لجميع الإنس والجنِّ ، وهو أفضل الأنبياء بهذه الخاصة ، وبخواص أخرى نحو هذه ، وقد أسرى به في اليقظة إلى بيت المقدس ، ومنه إلى ما شاء الله .

وكرامات الأولياء ، وهم المؤمنون العارفون بالله تعالى وصفاته المحسنون في إيمانهم حقٌّ ، يكرم الله بها من يشاء ، ويختصُّ برحمته من يشاء ، ولا يسقط التكليف عن أحدٍ مهما بلغ من الولاية ، والمجاهدة ، والجهاد ، ولا يزال مكلفاً بالفرائض ، ولا يحلُّ له شيءٌ من المحرمات والمعاصي مادام صحيح الحواس واعياً ، والنبوة أفضل من الولاية إطلاقاً ، ولا يبلغ أحد من الأولياء ـ وإن كان أعظمهم ـ درجة صحابي وإن لم يكن من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، وفضل الصحابة على الأولياء بكثرة الثواب وعظم القبول ، لا بكثرة العمل(١) .

والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ خيار المؤمنين ، وخير الخلائق بعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ونشهد بالجنة والخير للعشرة المبشرة ، ونوقر أهل البيت ، وأزواج الرسول أمهات المؤمنين ، ونحبُّهم ، ونعترف بعظم محلِّهم في الإسلام ، وكذلك أهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، وأهل السنة يرون عدالة الصحابة ، ولا يعتقدون عصمتهم ، ويمسكون عما شجر بينهم .

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه إمام حقٍّ بعد رسول الله ﷺ ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، رضي الله عنهم ، ثم تمت الخلافة على منهاج النبوة ، وبعدها ملك عضوض ، وأبو بكر وعمر أفضل أمَّة محمد ﷺ(٢) ،

---

(١) في الحديث الصحيح : «لا تسبوا أصحابي ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ، ولا نصيفه» (رواه البخاري : ٣٤٧٠ ، ومسلم : ٢٥٤٠ عن أبي هريرة).

(٢) يقول الشيخ في شرح هذا المعنى : إننا لا نعني الأفضلية من جميع الوجوه حتى تعمَّ النسب والشجاعة والقوة والعلم وأمثالها ، بل هي بمعنى عظم نفعهما في الإسلام .

ونكف ألسنتنا عن ذكر الصحابـة إلا بخير ، وهم أئمتنا وقادتنـا في الدين ، وسبُّهم حرام وتعظيمهم واجب.

ولا نكفر أحداً من أهل القبلة[١] ، إلا بما فيه نفي الصانع القادر المختار ، أو عبادة غير الله ، أو إنكار المعاد والنبيِّ ، وسائر ضروريات الدين ، واستحلال المعصية كفر (إذ صحَّ ثبوتها معصية). والاستهزاء بالشريعة والاستهانة بها كفر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبٌ بشرط ألا يؤدِّي إلى الفتنة ، وأن يظن قبوله[٢].

ونؤمن بجميع الرسل والأنبياء ، والكتب المنزلة عليهم ، لا نفرق بين أحدٍ من رسله ، والإيمان هو الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان ، ونؤمن بعذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد ، ونؤمن بأشراط الساعة ، كما جاءت في الحديث ، ونرى الجُمُعَة[٣] حقاً وثواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً.

* * *

---

(١) أهل القبلة في اصطلاح المتكلمين : من يصدق بضروريات الدين؛ أي : الأمور التي علم ثبوتها في الشرع واشتهر ، فمن أنكر شيئاً من الضروريات كحدوث العالم ، وحشر الأجساد ، وعلم الله سبحانه بالجزئيات ، وفرضية الصلاة ، والصوم ، لم يكن من أهل القبلة ، ولو كان مجاهداً في الطاعات ، وكذلك من باشر شيئاً من إمارات التكذيب ، كسجودٍ للصنم ، والإهانة لأمرٍ شرعيٍّ ، والاستهزاء به ، فليس من أهل القبلة.

(٢) تلخيصاً من العقيدة الحسنة لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ، مع زياداتٍ يسيرةٍ مقتبسةٍ من كتب العقائد وعلم التوحيد لغيره من كبار علماء السنة.

(٣) أي الاجتماع.

حقية التوحيد والدين الخالص
وحقيقة الشرك

قوام العبودية تصحيح العقيدة والإيمان ، ومن تطرق إلى عقيدته خللٌ وتعرَّض إيمانه لفسادٍ؛ لم تقبل منه عبادة ، ولم يصحَّ له عمل ، ومن صحت عقيدته واستقام إيمانه؛ كان القليل من عمله كثيراً ، وهنا وجب على كلِّ إنسانٍ ألا يدَّخر وسعاً في تصحيح إيمانه ، وأن يكون الحصول عليه ، والاستيثاق منه غاية عمله ، ونهاية سؤله ، لا يعدل به شيئاً ، ولا يتأخر فيه دقيقة[1] .

لقد تبين من دراسة القرآن المخلصة العميقة: أنَّ الكفار الذين كانوا في عصر النبي ﷺ لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله ، ويرونهم مع الله بمنزلةٍ سواء ، بل كانوا يقرون بأنَّهم مخلوقون وعبيد ، ولم يكونوا يعتقدون أبداً: أنَّ آلهتهم لا يقلون عن الله قدرةً وقوةً ، وهم واللهُ في كفةٍ واحدةٍ ، فما كان كفرهم وشركهم إلا نداؤهم لآلهتهم ، والنذور التي كانوا ينذرون لها ، والقرابين التي كانوا يقربونها بأسمائهم ، واتخاذهم لهم شفعاء ، ووكلاء ، فمن عامل أحداً بما عامل به الكفار آلهتهم وإن كان يقرُّ بأنه مخلوقٌ وعبد؛ كان هو وأبو جهل في الشرك بمنزلةٍ سواء .

يقول شيخ الإسلام الشيخ ولي الله الدَّهلوي:

«واعلم أنَّ للتوحيد أربع مراتب ، إحداها: حصر وجوب الوجود فيه تعالى ، فلا يكون غيره واجباً. والثانية: حصر خلق العرش والسموات

---

(١) رسالة التوحيد ، للعلامة محمد إسماعيل الشهيد، تعريب العلامة الندوي، ص٤٥ ، طبع دار وحي القلم بدمشق .

والأرض ، وسائر الجواهر فيه تعالى[(١)] .

وهاتان المرتبتان لم تبحث الكتب الإلهية عنهما ، ولم يخالف فيهما مشركو العرب ، ولا اليهود ولا النصارى ، بل القرآن العظيم ناصٌّ[(٢)] على أنَّهما من المقدمات المسلمة عندهم. والثالثة: حصر تدبير السموات والأرض وما بينهما فيه تعالى. والرابعة: أنَّه لا يستحقُّ غيره العبادة[(٣)] ، وهما متشابكتان متلازمتان لربطٍ طبيعيٍ بينهما . . . وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم ، وردَّ على الكافرين شبهتهم رداً مشبعاً»[(٤)] .

فظهر: أنَّ الشرك لا يتوقف على أن يعدل الإنسان أحداً بالله ، ويساوي بينهما ، فلا فرق ، بل إنَّ حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلالٍ ، وأعمالٍ ، خصَّها الله بذاته العلية وجعلها شعاراً للعبودية لأحدٍ من الناس ، كالسجود لأحدٍ ، والذَّبح باسمه ، والنذر له ، والاستغاثة به في الشدَّة ، واعتقاد أنَّه حاضرٌ ناظرٌ في كلِّ مكانٍ ، وإثبات قدرة التصرف له ، وكلُّ ذلك يثبت به الشرك ، ويصبح الإنسان به مشركاً ، وإن كان يعتقد أنَّ هذا الإنسان ، أو الملك ، أو الجِنِّيَّ الذي يسجد له ، أو يذبح أو ينذر له ، أو يستغيث به أقلُّ من الله شأناً ، وأصغر منه مكاناً ، وأنَّ الله هو الخالق ، وهذا عبده ، وخلقه ، لا فرق في ذلك بين الأنبياء والأولياء ، والجنِّ والشياطين ، والعفاريت ، والجنيات ، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركاً ، لذلك وصف الله اليهود والنصارى؛ الذين غلوا في أحبارهم ، ورهبانهم مثل ما غلا المشركون في آلهتهم بما وصف به عبَّاد الأوثان والمشركين ، وغضب على هؤلاء الغلاة المنحرفين ، كما غضب على غلاة المشركين ، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ

---

(١) وهو ما يعبر عنه بتوحيد الربوبية.

(٢) قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

(٣) وهو ما يعبر عنه بتوحيد الألوهية.

(٤) حجة الله البالغة ، ج ١ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ باختصار.

مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

مظاهر الشرك وأعماله والعادات الجاهلية:

ولا بدَّ بعد هذا الكلام الأصولي العام من أن نشير إلى مواضع الداء والبلاء في الجهال، ومن خضع للمؤثرات الأجنبية، والعادات الجاهلية، ونشأ في بيئاتٍ بعيدةٍ عن التعليم الإسلامي الصحيح، والعلم بالكتاب والسنة، والدَّعوة إلى الدين الخالص، ونضع الأصبع على مواضع الداء، والوتر الحساس في الجسم السقيم.

إنَّ العلم المحيط الشامل والتصرف المطلق بالإرادة والقدرة الكاملة من خصائص الله تعالى وأعمال العبادة، وشعائرها، كالسجود والركوع، والصوم وقصد البيت من أنحاء بعيدةٍ، والمعاملة به كالمعاملة بالبيت الحرام، وسوق الهدي إليه، ونذر النذور هناك من أعمال الشرك ومظاهره.

وعلامات التعظيم الدَّال على العبودية والاستكانة خاصَّةٌ بالله تعالى؛ وعلم الغيب خاصٌّ بالله تعالى ووراء طور البشر. والعلم بمكنونات الضمائر وهواجس الخواطر ليس بميسورٍ دائماً لأحدٍ. ولا يقاس الله سبحانه وتعالى على ملوك الدنيا في قبول الشفاعات، وإرضاء أهل الوجاهة والنفوذ. والله يرجع إليه في كلِّ صغير وكبير، فإنَّه ليس كملوك الدنيا في تدبير المملكة، والاستعانة بالحاشية. والسجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى. والمناسك، ومظاهر التعظيم الأقصى، وشعائر الحبِّ والتفاني خاصَّةٌ بالبيت والحرم. وتخصيص الحيوانات للصالحين، والتقرب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم حرامٌ. وغاية التعظيم في تذللٍ وخشوعٍ من حقِّ الله تعالى. والذبح تقرباً وتعظيماً من حق الله تعالى. واعتقاد التأثير في الأنواء والكواكب في العالم إشراكٌ بالله. والاعتماد على العرافة والكهانة والمخبرين بالمغيبات كفرٌ وجبتٌ. وينبغي الحثُّ على إظهار شعار التوحيد في الأسماء، والحذر من الكلام الموهم. والحلف بغير الله إشراكٌ بالله. ولا يجوز النذر لغير الله، والذَّبح في مكانٍ كان فيه وثنٌ، أو عيدٌ من أعياد

الجاهلية . وينبغي العدول عن الإفراط والتفريط في تعظيم النبي ﷺ ، وعن تقليد النصارى في إطرائهم لنبيهم ، وغلوِّهم فيه ، وعن تعظيم صور الصالحين[1] .

هدف النبوة الأساسي وأهم مقاصد البعثة : القضاء على الجاهلية الوثنية العالمية :

إنَّ الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ بيئةٍ هو تصحيح العقيدة في الله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدَّعوة إلى إخلاص الدين ، وإفراد العبادة لله وحده ، وأنَّه النافع الضَّار المستحقُّ للعبادة ، والدعاء ، والالتجاء ، والنسك وحده . وكانت حملتهم مركزةً موجهةً إلى الوثنية القائمة في عصورهم ، الممثلة بصورةٍ واضحةٍ في عبادة الأوثان ، والأصنام ، والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات؛ الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أنَّ الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله .

وإنَّ من خصائص الشريعة المنزلة من الله عز وجل أن تكون سمحةً سهلةً ، صالحةً للعمل والتطبيق في كلِّ عصرٍ ومصر؛ لأنَّ من شرع هذا الدين هو الذي خلق الناس ، فهو الذي يعرف ضروراتهم وحاجاتهم ، وطبائعهم وطاقاتهم ، ومواضع ضعفهم وعجزهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

ولأجل ذلك لوحظت مراعاة هذه الأمور كلِّها في التشريع الإلهي، ولكن إذا اتخذ الإنسان نفسه شارعاً؛ فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة، وكلما تختلط البدع والمحدثات بالدين ، وتجري تعديلاتٌ وإضافاتٌ بشريةٌ فيه ؛ يزداد الدين عسراً ، وضيقاً ، وتعقداً ، حتى يضطَّر الناس إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم ، ويحرموا هذه النعمة المتحققة في رفع الحرج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] ، ويمكن أن تلاحظ أمثلة ما نقول في تلك الفهارس الطويلة للطقوس والعبادات، والفرائض والسنن المحدثة؛ التي عملت فيها البدع عملها بكلِّ حريةٍ وانطلاقٍ .

---

(١) ملتقط من «رسالة التوحيد» للعلامة محمد إسماعيل الشهيد .

ومن خصائص الدين والشريعة الإسلامية الانسجام التام ، والوحدة العالمية ، فلا يتغيران ، ولا يتفرقان في عصرٍ وزمانٍ ، فلو سافر مسلمٌ من بقعةٍ في العالم الإسلامي إلى بقعةٍ أخرى؛ لا يلقى أيَّ صعوبةٍ وحرجٍ في العلم بالدين ، وتطبيق الشريعة ، ولا يحتاج إلى منهجٍ مخصَّصٍ ، أو دليلٍ محلي ، أما البدع فلا توافق فيها ولا انسجام ، فهي تصهر في بوتقةٍ محليةٍ في كلِّ مكان ، وتضرب في دار الضرب لمدينةٍ ما من المدن أو بلدٍ من البلدان ، وتكون نتاج العوامل التاريخية المحلية الخاصة ، والمصالح الشخصية ، والأغراض الفردية الخاصة ، فتختص بدع كلِّ بلدٍ من البلدان بهذا البلد نفسه ، بل بدع كلِّ ولايةٍ ، وكلِّ مدينةٍ وخرافاتها ، بل بدع كلِّ حيٍّ من الأحياء ، وكلِّ بيتٍ من البيوت ، وأباطيلها وخرافاتها تختص بها نفسها ، ينتج من كلِّ ذلك دين متعارض يصطدم بعضه ببعضٍ في كلِّ قريةٍ وبلدٍ ، وكلِّ حي ومنزل .

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التي نعلم بعضها ، ولا نحيط بها؛ نهى الرسول ﷺ عن اقتراف البدع ، وأمرهم باجتناب كلِّ المحدثات في الدين ، والحفاظ على السنة ، والتمسُّك بها ، ويقول عليه الصلاة والسلام :

«من أحدث في أمرنا هذا ، ما ليس منه؛ فهو ردٌّ»[1] . **«إياكم ومحدثات الأمور ، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعة ، وكل بدعةٍ ضلالة»**[2] .

وتنبأ بهذه النبوة الحكيمة : **«ما أحدث قومٌ بدعةً إلا رفع بها مثلها من السنة»**[3] .

جهاد ورثة النبي ﷺ وحملة الشريعة ضدَّ البدع والمحدثات :

وقد عارض الصحابة رضي الله عنهم وأئمة الدين ، وفقهاء المسلمين ، وجميع المجددين والمصلحين ، والعلماء الربانيين في عصورهم محدثات

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٠) ، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤) برقم (٣٢٩) ، وابن ماجه (٤٢) ، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦) عن العرباض بن سارية .

(٣) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٠٥) من حديث عبد الملك بن مروان .

زمانهم ، والبدع الناشئة فيه معارضةً عنيفةً قويةً ، وبذلوا جهد طاقتهم في الحيلولة دون رواج هذه البدع والمحدثات ، وتأثيرها في المجتمعات الإسلامية ، والأوساط الدينية ، وقد صور القرآن الكريم ما يوجد في هذه البدع المحدثات ـ في كلِّ عصر ـ من جاذبية مغناطيسية ، وما يرتبط بها من أغراض أبناء الدنيا ، والمحترفين بالدين ، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية ، ومنافعها الذاتية في أسلوبه المعجز الحكيم ، فقال :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

ولقي هؤلاء الدعاة والمصلحون ، والمجددون في سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد ما لقوا ، ولكنهم لم يبالوا بما أوذوا به في سبيل الله ، واعتقدوا أنَّ عملهم هذا جهاد الساعة ، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء ، والدين الخالص من التحريف والتزوير ، وقد لقَّب هؤلاء المعارضين للبدع والمحدثات ، والحاملين لراية السنة ، والشريعة المطهرة مخالفوهم من العامة ، أو الخاصة ؛ الذين لا يمتازون عن العامة بألقاب تشبه الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة ، والمارقة(١) وأعداء الدين ، فلم يعيروها أيَّ اهتمام ، وقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم ، واللسان ، وإثبات الحق ، وإبطال الباطل على كثيرٍ من البدع ومحدثات الأمور ، التي لا نجد لها الآن ذكراً إلا في بعض كتب التاريخ ، وما بقي منها لم يزل يكافحها العلماء الربانيون ، ولا يزالون يحاربونها ، ويقضون عليها ، وصدق الله العظيم :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

* * *

---

(١) مثل الجامدين ، والمحافظين ، والقشوريين ، والحرفيين ، وغيرها في عصرنا هذا .

الدعوة إلى التوحيد الخالص
ومحاربة الشرك ومظاهره
في رسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي[1]

لما بدأ الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي رحلته التجديدية كانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء وعلى نفس المنهج الذي سار عليه الرسل هي الخطوة نحو إصلاح العقائد ، وتصحيح الاتجاه ، فقد كان إباؤه عن سجدة التحية أمام السلطان «جهانكير» ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول في رسائله التي وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوبٍ واضحٍ مبينٍ ، وعباراتٍ موجزةٍ جامعةٍ رصينةٍ ، وقدَّم دلائل وبراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وأنه هو المستحقُّ للعبادة وحده بأسلوبٍ يدلُّ على رسوخه ، وعلوِّ كعبه في هذا العلم ، وقام يدحض الشرك ومظاهره وتقاليده ، ونهى أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركية ، والعادات الجاهلية ، وتقليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين؛ إذ أنه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلا به ، فضلاً عن نهايته وكماله.

وهنا مقتطفات من رسالةٍ مسهبةٍ كتبها إلى امرأة صالحةٍ بايعته ، وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الردَّ على عامةِ ما يبتلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم ، يقول فيها:

«إنَّ تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الإشراك بالله

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس ، المجلد الواحد والثلاثون ، عام ١٩٨٦ م.

ـ عز وجلَّ ـ وأنَّ من يعتقد بصحة دينين وصلاحيتهما في وقتٍ واحدٍ فهو مشرك ، وأن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك ، ولا يتمُّ الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ، ومحادَّته ، ومعاداته . إنَّ التوحيد هو الاشمئزاز والنفور من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشرك» .

ويقول رحمه الله : «إنَّ الاستعانة بالطواغيت والأصنام في دفع الأمراض ، وشفاء الأسقام ـ التي راجت في المسلمين ، وعمَّت في دهمائهم ـ عين الشرك والضلال . وإنَّ طلب قضاء الحاجات من الأحجار المنحوتة جحودٌ صريحٌ بالله ـ تعالى ـ وعين الكفر ، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ مبيناً حال بعض الغواة الضالين :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء : ٦٠] .

وإن كثيراً من النساء ـ لغاية جهلهن وضلالهن ـ يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ، ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان دفع البليات ، وكشف الكربات ، إنهنَّ لأسيرات في أغلال الشرك ، وطقوسه ، وتقاليده .

وتتجلَّىٰ هذه العقائد الشركية ، وتشاهد هذه الأعمال وتقاليد الجاهلية ـ بصفة خاصة ـ عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يعرف في أوساط النساء في الهند باسم «سيتله»(١) حيث تقع جميع النساء في الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأةً تتقي دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أيِّ نوعٍ من أنواع الشرك بهذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك» .

وقد كان أكبر أغلوطةٍ في هذا الصدد أغلوطة البدعة الحسنة ، فكان الناس قسموا البدعة قسمين : البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا

---

(١) اسم إله من الإلهات المفروضة المتخيلة عند وثنيي الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدري ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الآلهة بالنذور والقرابين .

يقولون: إنَّـه ليس كل بدعةٍ سيئةٍ ، فكثير من البدع حسنـة ، استثنيـت من إطلاق حديث «كلُّ بدعةٍ ضلالة».

إنَّ ما قام به الإمام السَّرهندي من معارضةٍ شديدةٍ ، واستنكارٍ قويٍّ لهذا التقسيم المحدث للبدعة الحسنة والبدعة السيئة في ثقةٍ ، وقوةٍ ، واعتمادٍ ، وبأسلوبٍ علميٍّ ، واستدلال موضوعيٍّ ، لا يوجد له نظير في كثير من الأقطار والأدوار في تاريخ الإصلاح الدينيِّ.

وهكذا استطاع أن يعيد إلى الإسلام مركزه من جديدٍ في الهند ، ويعيد إلى السنة اعتبارها ، ويعيد في المسلمين الثقة بالمصادر الصحيحة ، وبالكتاب ، والسنة ، وأن يكون للإسلام انتفاضةٌ في الأقطار الإسلامية من شبه القارة الهندية إلى أفغانستان ، وتركستان ، إلى العراق ، وسورية ، وتركيا ، وينهض جيلٌ جديد من دعاة الإسلام الصحيح ، والعقيدة السليمة البعيدة من شوائب الفلسفات ، والانحرافات ، وتأثير الديانات ، والحضـارات الجـاهليـة ، ونشـأت جبهـةٌ قـويـةٌ واعيـةٌ لمعـارضـة البـدع والمحدثات ، ودعوةٌ سافرة إلى العمل بالشريعة المطهرة والسنة السنية البيضاء ، وإقبالٌ عامٌّ على الإنابة إلى الله وتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتجديد صلة العبودية بالله تعالى في ضوء الكتاب والسنة.

الواقع أنَّ عمله التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومنبعه الأصيل الذي تتفجَّر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية وجهوده الثورية ، وتتحول إلى نهرٍ يجري في العالم الإسلامي كله ، هو ذلك العمل الإصلاحي العظيم الذي تجلى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية بخلود الرسالة المحمدية ، وحاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمَّة.

ويقول هو نفسه ذلك في رسالةٍ وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله وهو يصور هذا الوضع المكفهر.

* * *

الصُّوفيَّة في الهند وتأثيرهم في المجتمع[1]

«مقال تاريخي يبحث عن تأثير الدعاة إلى الله ، والمربِّين الرُّوحيين (الذين يسمَّون غالباً بالصُّوفية) في الأخلاق والسلوك ، وفضلهم في محاربة الفساد في البلاد ، وتكوين المجتمع الإسلاميِّ الهنديِّ الصَّالح الذي استطاع أن يعيش سبعة قرون في وسط الوثنية البرهمية والملوكية المستبدة ، بصرف النظر عن أساليبهم وتقاليدهم ، ومن غير موافقةٍ عليها ، والشيوخ الذين جاءت أسماؤهم في هذا المقال تحقق في التاريخ التزامهم للعقيدة الإسلاميَّة الصحيحة ، وحرصهم على اتباع السنَّة ، وغيرتهم على الدِّين».

إنَّ طرق التصوُّف الأساسية المشهورة ظهرت خارج الهند ، ولكنَّها نالت أكبر قسطٍ من القبول ، والانتشار ، والازدهار في هذه البلاد بسبب أوضاعها الخاصَّة وطبيعتها ، ثم نبعت من هذه الطرق والسلاسل فروعٌ هنديةُ الأصل ، واتَّخذت شكل طرقٍ مستقلَّةٍ بذاتها ، وبرز فيها أئمةٌ مجتهدون أنشؤوا طرقاً مختلفةً وأسَّسوها.

وبجانب تلك الطرق الصُّوفية المشهورة ، (مثل الطريقة القادرية ، والجشتية ، والنقشبندية ، والسهروردية؛ التي ترعرعت في الهند ، وازدهرت ، ونفقت سوقها) طرق وسلاسل أخرى وليدة هذه البلاد فحسب ، وهي تنتمي إلى شخصيات نبغت في الهند ، ودفنت في أرضها ، مثل الطريقة الفردوسية ، والمدارية ، والقلندرية ، والشطارية ،

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس ، المجلد السادس ، عام ١٩٦١ م.

والمجددية ، وهي سلاسل نشأت في الهند ، و«صدرت» بعد ذلك إلى بلاد أخرى ، وقد أصبحت هذه البلاد (الهند) حاملة لواء التصوُّف ، وإصلاح الباطن منذ بداية القرن الحادي عشر ، وزعيمها إذ ذاك الشيخ أحمد السَّرهندي ، ونجله ، وخليفته العظيم محمد معصوم ؛ اللَّذان أفاد منهما العالم مدَّةً طويلةً من الزمن ، وكان خلفاء الشيخ محمد معصوم منتشرين في أقطار أخرى كأفغانستان ، وإيران ، وتركستان ، وكان الناس يشدُّون الرحال إلى زاوية الشيخ غلام علي الدَّهلوي (وهو من شيوخ الطريقة المجددية في القرن الثالث عشر) من بلاد بعيدةٍ مثل العراق ، والشام ، ومصر ، والصِّين ، والحبشة ، وبخارى ، وسمرقند ، وانتشرت هذه الطريقة بواسطة خليفته الشيخ خالد الشهرزوري في العراق ، وتركستان ، والشام ، وتركيا ، ولا تزال باقيةً فيها .

وفي أوائل القرن الرابع عشر اشتهر الحاج إمداد الله المهاجر المكي بلقب «شيخ العرب ، والعجم» وأفاد منه كثيرٌ من أهل الحجاز ، والحجَّاج الوافدين إليه .

وما زال هذا النبراس ـ نبراس الإصلاح الباطني ـ مضيئاً في العالم الإسلامي بفضل الهند ، ولا تزال طريقة «الحب الإلهي» مستمرةً باقيةً فيها ، وهي المرجع العالمي لهذا الفن من أجل بعض رجالاته وأعلامه .

صلة الجمهور بالصُّوفية والتصوف ، وإقبالهم عليه :

إنَّ العهد الإسلاميَّ في الهند بدأ بهؤلاء الصُّوفية ، وخاصَّةً الشيخ معين الدين الأجميري؛ الذي أسَّس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قويةٍ بجهاده ، وإخلاصه ، وأقبل عليهم الناس من جميع الطبقات ، والفئات ، يتنافسون في حبِّهم ، وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله ، والدعاة إليه بإخلاصٍ ، وصدقٍ ، وأمانةٍ ، ونزاهةٍ ، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكةٌ من المراكز الرُّوحيَّة حتى لم يبق بلدٌ أو قريةٌ ذات شأن إلا وفيها مركزٌ روحيٌّ ، أو عدَّة مراكز .

إنَّ الصلة القلبية والروحية وموجة الحبِّ والإجلال التي كانت تغمر

الناس نحو هؤلاء الشيوخ والصوفية تتجلّى بالأحداث التالية التي نسردها في هذا المكان من غير أن نراعي فيها الترتيب التاريخي.

كان السيد آدم البنوري دفين البقيع (م ١٠٥٣ هـ) يأكل على مائدته كلَّ يوم ألف رجل، ويمشي في ركابه ألوف من الرجال، ومئات من العلماء، ولمّا دخل السيد في لاهور عام ١٠٥٣ هـ كان في معيَّته عشرة آلاف من الأشراف، والمشائخ، وغيرهم حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفةً، فأرسل إليه بمبلغٍ من المال، ثم قال له: «قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز» فعرف إيعاز الملك، وسافر إلى الحرمين، حيث مات.

وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩ هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السَّرهندي قد بايعه وتاب على يده تسعمئة ألف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله، وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال[1].

وكتب سيد أحمد خان مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكره في كتابه «آثار الصناديد» يذكر الشيخ غلام علي الدهلوي، فقال:

«لا يقلُّ عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمئة رجل، تقوم الزاوية بنفقاتهم، وهكذا كان الإقبال على المصلح الكبير السيد أحمد الشهيد إقبالاً منقطع النظير، إنَّه لم يمرَّ ببلدةٍ إلا وتاب عليه وبايعه عدد كبير من الناس، حتى إنَّ المرضى في مستشفى بنارس أرسلوا إليه يقولون: «إنا رهائن الفراش، وأحلاس الدار، فلا نستطيع أن نحضر، فلو رأى السيد أن يتفضَّل مرَّةً حتى نتوب على يديه لفعل» وذهب السيد، وبايعهم، وأقام في كلكته شهرين، ويقدَّر: أنَّ الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقلُّ عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمرُّ البيعة إلى نصف الليل ـ وكان من شدَّة الزحام لا يتمكَّن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان يمدُّ سبعةً، أو ثمانية من

---

(١) «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» ج ٥. للشيخ عبد الحي الحسني.

العمائم والناس يمسكونها ، ويتوبون ، ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كلَّ يومٍ سبع عشرة ، أو ثماني عشرة مرة.

إنَّ هؤلاء الصُّوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد ، والإخلاص ، واتباع السنَّة ، والتوبة عن المعاصي ، وطاعة الله ورسوله ، ويحذرون من الفحشاء ، والمنكر ، والأخلاق السيئة ، والظلم ، والقسوة ، ويرغبونهم في التحلِّي بالأخلاق الحسنة ، والتخلِّي عن الرذائل (مثل الكبر ، والحسد ، والبغضاء ، والظلم ، وحبِّ الجاه) وتزكية النفس ، وإصلاحها ، ويعلِّمونهم ذكر الله ، والنصح لعباده ، والقناعة ، والإيثار ، وعلاوةً على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصَّة بين الشيخ ومريده أنَّهم كانوا يعظمون الناس دائماً ، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحبِّ لله سبحانه ، والحنين إلى رضاه ، ورغبةً شديدة لإصلاح النفس ، وتغيير الحال ، فإلى أيِّ مدىً كان تأثير أخلاقهم، وإخلاصهم ، وتعليمهم ، وتربيتهم ، ومجالسهم في المجتمع والحياة؟

نقدِّم هنا بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي.

كتب مؤرخ الهند الشهير القاضي ضياء الدين البرني يذكر عهد السلطان علاء الدين ، يقول: «كان شيخ الإسلام نظام الدين ، وشيخ الإسلام علاء الدين ، وشيخ الإسلام ركن الدين من أعلام التربية الروحية والإصلاح في عهد السلطان علاء الدين ، تنوَّر بهم العالم ، وبايعهم خلقٌ كثيرٌ لا يحصون ، وتاب على أيديهم الفسقة ، والفجرة ، وواظبوا على الصلاة ، وعضوا عليها بالنواجذ طول حياتهم ، ونشأ فيهم حبُّ الدِّين وإجلاله ، وصحَّت توبتهم ، والتزموا العبادات كلَّها ، وتضاءل حبُّ الدنيا في قلوبهم ، وذلك بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة ، وعزوفهم عن الشهوات ، وترك المألوفات ، وانتشر الصدق في الناس ببركة عبادتهم ، وسلوكهم في الحياة ، ونشأ فيهم ـ بتأثير مكارم أخلاقهم ومجاهداتهم ـ رغبةٌ في إصلاح أخلاقهم وتغييرها.

وكتب يقول:

«إنَّ السنوات الأخيرة من عهد علاء الدين تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر ، والغرام ، والفسق ، والفجور ، والميسر ، والفحشاء بجميع أنواعها ، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً ، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس ، وظلَّ الناس يستحيون من التعامل بالربا ، والادِّخار ، والاكتناز علناً ، وندرت في السوق حوادث الكذب ، والتطفيف ، والغش»[1].

وكان لهؤلاء المشائخ عنايةٌ كبيرةٌ بالأخلاق ، والسُّلوك ، والمعاملات ، وتأدية الحقوق ، وقضاء الديون ، وكانوا يوصون من يدخل في بيعتهم بالعناية البالغة بهذه الأمور ، وقد أوصى الشيخ نظام الدين شيخه فريد الدين كنج شكر ألا يدَّخر وسعاً في إرضاء الخصوم ، وأصحاب الحقوق ، وكان عليه ٢٠ جيتل (فلس) لشخصٍ ، كما استعار كتاباً من شخصٍ آخر ، فضاع ذلك الكتاب ، فلما زار دهلي وذهب إلى الشخص الأول قال: «يبدو أنك قادم من عند المسلمين» ولما زار الشخص الثاني قال: «إنَّ هذه الأخلاق ليست إلا نتيجةَ ذلك المكان الذي كنت فيه».

إنَّ تربية هؤلاء الصوفية والمشائخ ومجالسهم كانت تنشىء في الإنسان رغبةً في إفادة الناس ، وحرصاً على خدمتهم ، ومساعدتهم ، كان السيد أحمد الشهيد أثناء سفره للحج مع ركبٍ كبيرٍ ولم يضيع فرصةً لخدمة الناس في هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، إنَّ هذه الرحلة كانت عن طريق نهر «كنج» بالسفن ، وحدث أن وجدوا على ضفة مرزايور سفينةً مشحونةً بالقطن ، وكان صاحب القطن ينتظر الحمالين ليحملوا ذلك القطن إلى مخازنه ، فأمر السيد أصحابه بنقل تلك الحزمات ، فهجم على السفينة مئات من الناس ، وفي دقائق وثوان أفرغوا السفينة وحملوا القطن إلى مكانه ، فأعجب الناس بذلك ، وتهامسوا فيما بينهم قائلين: لم نر كاليوم! إنَّ هؤلاء ليست لهم معرفة ، ولا صلة بصاحب القطن ، ولم يطلبوا الأجر ، وقاموا بهذا العمل

---

(١) فوائد الفؤاد:ص ١٤ .

لوجه الله ، إنَّهم من أولياء الله من غير شك»[1].

إنَّ الحديث عن هؤلاء الصُّوفية والمشائخ بأدوارهم التاريخية، والترتيب التاريخيِّ لا محلَّ له هاهنا ، وهو يحتاج إلى مجلَّدٍ ضخم ، فإنَّ سهم هؤلاء المصلحين ومعلمي الأخلاق في تكوين مجتمعٍ صالحٍ واعٍ في الهند (وهي قوة هذه البلاد المعنوية الكبرى ، ومصدر الولاة الصَّالحين والحكام العادلين في كل عهد ، وهو الذي منح الهند أفراداً أذكياء وأكفاء في ظروفٍ دقيقةٍ حرجةٍ جدّاً) سهمٌ أساسيٌّ أكثر من سهم أيِّ واحدٍ من أبناء هذه البلاد وبناتها.

وبصرف النظر عن القرون الوسطى التي تبعثرت مادَّتها الواسعة في تراجم المشائخ نكتفي هنا بذكر مصلحٍ كبيرٍ في القرن الثالث عشر وهو السيد أحمد الشهيد ، وتأثيره الدِّينيّ والاجتماعيّ كمثالٍ لهذا التأثير ، والنفوذ في المجتمع والحياة ، فقد ذكر المؤرِّخون: أنَّه لما أقام مع أصحابه في كلكته ـ في طريقه إلى مكة المعظمة ـ واشتغل هو وبعض أصحابه من العلماء كالمصلح الكبير الشيخ إسماعيل الشهيد بالوعظ والتذكير ، وتقاطر الناس على السيد للبيعة ، والتوبة عن المعاصي ، وكان تأثير هذه المواعظ ، ودخول الناس في الدين ، وانقيادهم للشرع أن تعطَّلت تجارة الخمر في كلكته ـ وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ـ وكسدت سوقها ، وأقفرت الخانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعلِّلين بكساد السوق ، وتعطُّل تجارة الخمر»[2].

إنَّها كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين ، والدُّعاة ، والصُّوفية ، والمشائخ ، وروحانيتهم أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عددٌ هائل من الناس ، وتابوا عن المعاصي ، والمنكرات ، واتباع الهوى ، لم يكن بوسعِ حكومةٍ أو مؤسَّسةٍ ، أو قانون أن يؤثر في هذه المجموعة البشرية الضَّخمة ، ويحيطها بسياجٍ من الأخلاق والمبادىء الشريفة لزمنٍ طويل.

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد.

(٢) مقتبس من «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للعلامة الندوي.

كلمة حق عند سلطان جائر:

وكان من مآثر هؤلاء المصلحين الرُّوحيين الكبرى: أنَّهم قاوموا أحياناً كثيرةً اتجاهات بعض الملوك الخطرة، وأنقذوا الدولة والمجتمع من بعض الأخطار الهائلة المحدقة بها، والتَّدمير الذي كان يواجهه ويهدِّده، وذلك بإبداء آرائهم بصراحةٍ، وانتقاد التيارات الفاسدة، وانحراف «البلاط» عن جادة الحقِّ والصَّواب. إنَّ تربيتهم، وأمثلتهم العمليَّة الحيَّة ألهبت في الناس جذوة الجراءة، والشجاعة، والنشاط، والطموح، وتاريخ الهند الإسلاميُّ زاخرٌ بهذه الأمثلة، إنَّ هؤلاء المشائخ غامروا مراراً بحياتهم، وشرفهم، وآثروا الموت على الحياة، وعملوا بمبدأ «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائر»، كلما دعت إليه الحاجة، واقتضته الظروف.

ونقدِّم في هذا المكان مثالين من عهد «الملك الجبار» محمد تغلق، يدلان على شجاعتهم، وصرامتهم، واستهانتهم بمظاهر الأبهة والغطرسة، واحتقارهم للقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

«ولما مرَّ السلطان محمد تغلق بزاوية الشيخ قطب الدين منور، كان شيخاً كبيراً في الطريقة الجشتية، يعيش في عزلة عن الناس، لم يحضر عند السلطان لتحيته، فطلبه السلطان في دهلي، ولما حضر البلاط ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاط واقفين سماطين، متخشعين، مسلحين في هيئة تنخلع منها القلوب، وكان معه ولده نور الدين، وكان حديث السن لم يزر «بلاط» الملك في حياته، ففزع لهذا المنظر الغريب، وامتلأ رعباً، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عالٍ قائلاً: يا ولدي! العظمة لله! يقول نور الدين: إنِّي استشعرت في نفسي قوةً غريبةً بعد هذا النداء، وزالت الهيبة من نفسي، وذابت، وبدا الجميع عندي كأنَّهم قطيعٌ من ضأنٍ، أو معزٍ، وسأل الملك الشيخ وعاتبه قائلاً: «إننا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم وموعظتكم» فأجاب الشيخ: إنَّ هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك، إنه يعيش في عزلة، ويدعو للملك، ولجميع المسلمين، فعليكم أن تعذروا في هذا الأمر. وبعد انصرافه قال

الملك لوزرائه: إنه صافح كثيراً من الشيوخ والعلماء، فكانت أيديهم ترتعش خوفاً وإشفاقاً، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه ليناً، وضعفاً، وما رأيت في يده ارتعاشاً بل صافحني بقوةٍ وحرارةٍ زائدةٍ واعتزاز نفس.

وقدَّم إليه الملك مئة ألف «تنكة» «قطعة ذهب» فقال الشيخ: سبحان الله! تكفيني أقتان من أرزٍ وسمنٍ بفلسٍ واحد، ماذا أفعل بهذه الآلاف من الروبيات، ولكن قيل له: إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية، وينقم منه، فقبل الشيخ ألفي روبية، وقسمها بين إخوانه، وأصحابه، وذوي الحاجة[1].

والمثال الثاني للشيخ فخر الدين الرازي: وكان الشيخ يتحرَّز من مقابلة الملوك، وكان يقول: إنني أرى رأسي مفصولاً عن جسمي واقعاً على بلاط الملك، وكان يعني: أنه سيقول كلمة حق يؤاخذه عليها الملك، ويأمر بضرب عنقه، فطلبه الملك يوماً، وقال له: عظني! فقال الشيخ: اكظم الغيظ، واملك غضبك وسورة النفس، فقال الملك: أي غضب وسورة نفسٍ تعني؟ قال: سورة السباع، فاحمرَّ وجه الملك من فورة الغضب، ولم يقل شيئاً. ودعا بالسفرة الملوكية، ودعاه الملك لتناول الغداء، وكان يضع بعض اللقمات في فيه، وتناول الشيخ هذا الطعام بكراهةٍ، وودَّعه الملك بعد فراغه[2].

إنَّ هؤلاء المشائخ: «الصوفية» ضربوا أمثلةً رائعةً في الشجاعة، والصراحة، والصَّدع بالحقِّ، كما أنَّ الملوك الذين لم يغفروا للعلماء «جريمة» قول الحق سلكوا بالصوفية ـ في أغلب الأحوال ـ مسلكاً رفيقاً، وسمحوا لهم بأداء واجبهم الديني، ومزاولة نشاطهم الإسلامي، وقد قام المشائخ بهذا الواجب في العهد الأخير، وحافظوا على كرامتهم وغيرتهم وإبائهم، حضر الملك المغولي «شاه عالم» مرّة في مجلس الصوفي الكبير والشاعر الشهير الشيخ «ميردرد» وكان برجله وجع فمدَّها قليلاً، فلم يتحمَّل

---

(١) سِير الأولياء.

(٢) سير الأولياء.

الشيخ ذلك ، وقال : إنَّ هذا الأمر ينافي آداب المجلس ، وكرامته! فاعتذر الملك ، وطلب العفو ، فقال له الشيخ : إذا كانت بكم علَّة ، فلم يكن هنالك داعٍ لحضور هذا المجلس[1] .

الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الجاه :

إنَّ الصُّوفيَّة والمشائخ لم يقبلوا مناصب الحكم ، وهدايا الملوك ، والأمراء ، من أراضٍ ، وإقطاعاتٍ ، وصلاتٍ ، وجراياتٍ ، وامتنعوا عنها دائماً ، ونصبوا مناراً عالياً للقناعة ، والزهد ، والتوكل ، والمحافظة على عزَّة النفس ، وكرامتها ، عاشت بفضله في المجتمع الهندي الفتوة ، والهمَّة ، والطُّموح ، والثبات على جادَّة الحقِّ ، وحافظوا بذلك على كرامة الإنسانية ، وصانوا عرضها في هذه السوق السوداء التي تباع فيها النفوس والأرواح بيع السلع ، وقد تباع بالمناداة ، و«المزاد العلني» .

لقد كان شعارهم وهتافهم دائماً ، وفي جميع الأحوال ، ما قال قائل منهم في شعرٍ فارسي :

«لا أحب أن أبيع خرقتي المتواضعة ، وثيابي البالية برايات الملوك وأعلام السَّلاطين ، ولا أرضى بأن أهجر «فقري» حرصاً على مملكة سليمان ، إنَّ هذا الكنز الذي اكتشفته في قلبي بفضل المجاهدة لا أريد أن أبادله برخاء الملوك وراحتهم ، وتنعُّمهم» .

إن تاريخ التصوُّف في الهند حافلٌ بأمثلةٍ رائعة من الزهد والقناعة ، والاعتزاز بالنفس ، والكرامة ، والطموح ، والقناعة ، والإيثار ، لا تخلو من هذه الأمثلة طريقةٌ صوفيَّةٌ في هذه البلاد ، ونقدم هنا عدة أمثلة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وهو عهد رسخت فيه أقدام المادية في الهند .

كان الشيخ شمس الدين حبيب الله المعروف بميرزا جانجانان الدَّهلوي

---

(١) كَل رعنا ، ص ١٧١ للعلاَّمة عبد الحيّ الحسني .

من شيوخ الطريقة النقشبندية المجددية (م ١١٩٥ هـ) قال له ملك الهند مرَّةً: إنَّ الله أعطاني مملكةً واسعةً، فأرجو أن تقبلوا منها شيئاً. فقال الشيخ: إنَّ الله تعالى قد وصف الدنيا بالخسَّة والهوان، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] أما مملكتكم فهي ولايةٌ صغيرة في إقليم من أقاليم هذه الدنيا، فلا أريد أن أرزأكم في هذا الجزء الصغير. وقدَّم إليه مرَّةً الأمير آصف جاه وزير المملكة المغولية في الهند ألف روبية، فلم يقبل، فقال الأمير: خذوها، وقسِّموها على أهل الحاجة، فقال: إني لا أحسن هذا العمل، فتولَّوا توزيعه بنفسكم، فسينفد في الطريق، فإن بقي منه شيء، فسينفد بعد ذلك.

أراد مير خان أمير ولاية «تولك» أن يفرض راتباً سنوياً لزاوية الشيخ غلام علي الدهلوي، فكتب إليه الشيخ بيتاً معناه:

«نحن لا نهين الفقر والقناعة، ولا نخدش كرامتها، قل لميرخان: إنَّ الرزق مقدَّرٌ من عند الله تعالى».

زار حاكم كبير للحكومة الإنجليزية الشيخ فضل الرحمن الكنج مرادآبادي (م ١٣١٣ هـ) وقال ـ وقد أثرت فيه كلمات الشيخ وموعظته البليغة ـ: إذا قبلتم عيَّنا لكم مرتباً من الحكومة. فقال الشيخ: ما أصنع بمالكم، إنني أملك من فضل الله سريراً، وإبريقين من الفخار، وجرتين للماء، ويأتي بعض أصحابنا بالذُّرة، فيصنع منها الخبز، وتطبخ زوجتي شيئاً من الخضراوات نأكل بها ذلك الخبز، وفي ذلك كفاية.

يروي الأستاذ محبُّ الله: أنَّ الأمير كلب علي خان حاكم ولاية رامبور أبدى رغبته في أن يشرِّفه الشيخ، فسأله الأستاذ المذكور عما يقدِّم إليه إذا حضر، قال: أهدي إليه مئة ألف روبية، فذهب الأستاذ إلى مرادآباد، وقال للشيخ: إنَّ الأمير مشتاق لرؤيتكم ويقدِّم إليكم مئة ألف روبية إذا زرتموه، والشيخ يتحدَّث كأنه لم يسمع شيئاً مهماً، ثم قال: يا هذا احث التراب على المئة ألف، اسمع قولي، وأنشد بيتاً معناه:

حينما نشاهد كرمه وفضله على هذا القلب نجد القلب أعلى وأغلى من «جام جم»[1].

نشر العلم:

العلم كان أكبر همِّ هؤلاء المشائخ وبغيتهم ، إنَّهم حدبوا عليه وخدموه ، وكان أكثرهم صاحب ذوق أدبي وعلمي رفيع ، وكانت عقيدتهم: أنَّه لا يمكن معرفة الله سبحانه بدون العلم ، وأنَّ الصُّوفيَّ الجاهل ألعوبة الشيطان ، ولذلك تراهم لم يستخلفوا للدعوة إلى الله النجباء ذوي الكفاءة والاستعداد إلا بعد التحصيل العلمي.

انظر قصَّة الشيخ سراج الدين الأردهي في «فوائد الفؤاد» ، و«سير الأولياء» والحقيقة: أنَّ الفضل في الحركة التعليمية والنهضة العلمية يرجع إلى تشجيع هؤلاء الصُّوفيَّة ، والمشائخ إمَّا مباشرةً ، وإمَّا بواسطة ، وكان القاضي عبد المقتدر الكندي ، والشيخ أحمد التهانيسري اللَّذان انتهت إليهما رئاسة التدريس في الهند من رجال الشيخ نصير الدين «جراغ دهلي» والمدرس المشهور في القرن الحادي عشر الشيخ لطف الله الكوروي الذي نفقت به سوق الدرس والتدريس إلى القرن الثالث عشر كان شيخاً في الطريقة الجشتية.

نحن نرى المدرسة والزاوية جنباً إلى جنب في أكثر الأدوار ، فالزاوية الرشيدية في جونيور ، ومدرسة الشيخ محمد في لكهنؤ ، ومدرسة الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم في دهلي ، وزاوية الشيخ رشيد أحمد في كنكوه أمثلة رائعة للجمع بين التثقيف العلمي والتربية الروحية والخلقية.

الكفالة والمواساة:

ومن مآثر هؤلاء المشائخ وزواياهم أنَّها كانت مأوى يأوي إليه آلافٌ من الناس ، ويجدون فيه طعامهم ، وشرابهم ، ومرافق حياتهم . إنَّ هذه

---

(١) كأس ملك إيران القديم «جم» الذي يضرب به المثل في الغلاء والطرافة ويحكى أنه كان يتراءى فيه العالم.

المائدة الملوكية الفاخرة كانت مائدةً عامَّةً يردها الصَّديق والعدوُّ ، والقريب والبعيد ، والغني والفقير ، وكانت مائدة الشيخ نظام الدين مشهورةً يضرب بها المثل في السَّعة ، وكثرة أنواع الطعام ، واللذة.

وكان يحضر زاوية الشيخ سيف الدين السرهندي ألف وأربعمئة رجل ، ويتناولون الطعام على مائدته صباح مساء كلٌّ حسب رغبته واقتراحه[١].

أما الشيخ محمد سعيد الأنبالوي ، وهو من رجال القرن الثاني عشر فيكتب عنه مترجموه ، فيقولون:

«لم يكن عدد المشتغلين في زاويته أقل من خمسمئة نسمة في الزمن الأول ، وهكذا نقل عن الوافدين إليه ، والزائرين له».

«زاره مرَّة روشن الدولة ، وكان أميراً من أمراء السلطان فرخ سير ، وقدَّم ستين ألف روبية لبناء زاويته ، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكانٍ ويستريح ، فانصرف روشن الدولة ، وأرسل الشاه بهيك إلى الفقراء وأرسل هذا المال إلى الأيامى والمساكين وأهل الحاجة في «أنباله» و«تهانيسر» و«سرهند» و«باني بت» حتى لم يبق منه فلس ، فلما أتى روشن الدولة قال له: «لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله». ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير ، والأمير روشن الدولة ، والأمير عبد الله خان ، وأمر بثلاثمئة ألف روبية فوزعها كلَّها في القرى المجاورة ، والأشراف الساكنين فيها[٢].

وصدق الأستاذ مناظر أحسن الكيلاني ؛ إذ قال:

«إنَّ هذه الزوايا وحدها كانت نقطة اتصال بين الأغنياء والفقراء ، وكان منزل هؤلاء الصوفية والمشائخ بلاطاً يدفع له السلطان الخراج ، فقد كان يحضر ولي العهد خضر خان عند الشيخ نظام الدين ، ويستفيد منه ، وهكذا

---

(١) «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» للعلاَّمة عبد الحي الحسني.
(٢) نظام التعليم والتربية في الأردوية ، المجلد الثاني للأستاذ مناظر أحسن الكيلاني.

السلطان علاء الدين الذي كان يأتيه الخراج من الهند كلها كان مضطراً إلى أن يقدم الخراج إلى مكان آخر.

إنَّ هذه الوحدة والانسجام بين الغني والفقير أعني: طبقة الصُّوفية والمشائخ التي كان يحضرها، ويستفيد منها الأغنياء والفقراء على السَّواء كانت تقضي حاجات الطبقة الفقيرة، والحقيقة أنَّه لم يخل دورٌ من أدوار التاريخ الهندي، ولا بلد من بلاد الهند إلا وقد عمل فيه الصوفية والمشائخ بالحديث النبوي المشهور «تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم»، فكان ذلك رحمة بالفقراء والمساكين، وذوي الحاجة[1].

ملاجىء الإنسانية:

إن تعليم هؤلاء الصوفية ومجالسهم الرُّوحية أنشأت في الناس حبَّ الإنسان على اختلاف الديانات، والثقافات، والسُّلالات، وخدمته، وإيصال النفع إليه، ومشاركته في الهموم والآلام.

كان شعارهم وعملهم بهذا الحديث النبوي: «الخلق عيال الله فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله» كانت قلوبهم فائضةً بالرحمة والمواساة للإنسانية كلِّها حدَّث الشيخ نظام الدين عن نفسه مرَّةً، فقال: يأتيني رجلٌ ويحكي لي قصته وفي نفسي من الهمِّ والألم والتوجُّع لحاله ما لا يجده هو نفسه.

وقال مرَّةً: لا شيء أغلى وأحبُّ يوم القيامة من المواساة، وجبر القلوب المنكسرة، وإدخال السرور على أصحابها.

كانت نتيجة ذلك أنّ مجروحي الفؤاد كانوا يجدون بلسماً لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأ لهم، إنَّ حجر عطفهم، وحبِّهم كان مفتوحاً لكلِّ من هجره المجتمع، أو الأسرة، أو تنكر له الحظ، وأدبرت عنه السعادة، إنَّ هؤلاء الذين لم يقبلهم أبناء أسرتهم، أو طردهم أولادهم بعض الأحيان كانوا يقدمون إلى هؤلاء الصوفية والمشائخ، ويعيشون في أحضانهم، وفي كنفهم، ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت،

---

(١) نفس المصدر: ص ٢٢٠.

وأنس الأحبة ، ويزور هذه الزوايا كلُّ رجلٍ مهما كان نسبه أو دينه ، فيجد فيها الإسعاف والرفد ، وخلاصاً من هموم القلب وأحزانه ، وينال فيها الغذاء والدواء ، والحب ، والعطف ، والتقدير ، والإكرام.

لما أرسل الشيخ نظام الدين شيخه إلى دهلي قال له:

«ستكون كدوحةٍ وارفةِ الظلال ، ويستريح خلق الله في ظلِّها»[1] ، والتاريخ يشهد بأنه قد استراح في ظله الوارف الوافدون من دهلي ومن أنحاء بعيدةٍ مدَّة سبعين سنة كوامل.

لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصُّوفية أشجارٌ كثيرةٌ وارفة الظلال في مئاتٍ من بلاد الهند استراحت في ظلها القوافل التائهة ، والمسافرون المتعبون ، ورجعوا بنشاطٍ جديدٍ ، وحياةٍ جديدةٍ.

* * *

---

(١) سير الأولياء.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الأماكن والبقاع والبلدان

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(٢) سورة البقرة		
﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾	٤٣	٤١٥
﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾	٤٥	١٦٦
﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾	٦١	٤٣٣
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾	١٢٥	٤٧٧ ، ٤٩٣
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾	١٢٧	٤٦٣ ، ٤٨٣
﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾	١٢٨	٤٦٣
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا﴾	١٢٩	٥٠
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	٢١١
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	١٨١ ، ١٨٣
﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا . . . وَلَا تَكْفُرُونِ﴾	١٥١ ـ ١٥٢	٥٠
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ﴾	١٥٥	٢٥٨ ، ٣٢٦
﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾	١٥٨	٤٩٣
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ﴾	١٧٧	٤١٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ . . . تَعْلَمُونَ﴾	١٨٣ ـ ١٨٤	٤٤٢
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾	١٨٥	٤٤٢
﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾	١٨٩	٢٩
﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾	١٩٥	٢٥٧ ، ٣٢٥
﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ﴾	١٩٧	٤٦٩
﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾	١٩٨	٤٧٨
﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾	١٩٩	٤٧٨
﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا . . . النَّارِ﴾	٢٠٠ ـ ٢٠١	١٩٥
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ﴾	٢٠٤	٣٦١

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ٢٠٥ ..... ٣٦١، ٣٦٢، ٤٣٣

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾ ٢٠٦ .... ٣٦١

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِي ٱلسِّلْمِ﴾ ٢٠٨ .... ٢١١

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ ٢١٧ .... ٤٦٨

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ ٢٤٩ .... ٢٠٤

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ٢٦١ .... ٥٣

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ ٢٦٥ .... ٢٦٥

﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ٢٦٨ .... ٥٣

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ٢٦٩ .... ٥٣

(٣) سورة آل عمران

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ ٣١ .... ٥٤

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ ٧٥ .... ٣٤٦

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾ ٧٩ .... ١٤٠

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ ٩٧ .... ٤٦٥

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ﴾ ١٠٣ .... ٣٩٠

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ١١٠ .... ١٨٠، ١٩٢

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ... لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ١٣٧ ـ ١٣٨ .... ٣٥٥

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ ١٣٩ .... ٢١٦، ٣٥٥، ٣٧٥

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ... ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ١٤٠ ـ ١٤١ ...... ٢١٦، ٣٥٥

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ... تَنظُرُونَ﴾ ١٤٢ ـ ١٤٣ .... ٢١٦

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ﴾ ١٤٤ .... ٥٧

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ﴾ ١٤٨ .... ٢٥٨

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟﴾ ١٥٩ .... ٢٠

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ ١٦٤ .... ٥٠

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ ١٩٦ .... ٣٤٨

(٤) سورة النساء

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ ١ .... ٢٢٨

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ١٥٧ .... ٣٠٢

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ٤٨ .... ٩٦

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ ٦٠ .... ٨٥، ٥١٥

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ٧٧ .... ٦٦، ٥٢٦

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟﴾ ٩١ .... ٣٥٧

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ ﴾ ١٠٤ .... ٢١٩ ، ٢٤٩ ، ٣٠٨ ، ٤٠٥

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ ﴾ ١٢٣ .... ٢٢٩

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ١٢٥ .... ٤٨٣

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ ﴾ ١٣٥ .... ٩٠ ، ٣٩٨

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ ... حَكِيمًا ﴾ ١٥٦ ـ ١٥٨ .... ٢٩٩

(٥) سورة المائدة

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ ﴾ ٣ .... ٩٢ ، ٤٩٤

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ٦ .... ٤١٣

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ ٨ .... ٩٠ ، ٣٨٩

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ﴾ ١٨ .... ١٨١

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ... دَٰخِلُونَ ﴾ ٢١ ـ ٢٢ .... ١٧٢

﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا ﴾ ٢٤ .... ١٧٢

﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى ﴾ ٢٥ .... ١٧٢

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ ٤٤ .... ١٢

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ ﴾ ٩٥ .... ٤٦٩

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ ﴾ ٩٦ .... ٤٦٩

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا ﴾ ٩٧ .... ٤٧٤

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ ﴾ ١١٨ .... ١٧١

(٦) سورة الأنعام

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ ﴾ ٣٢ .... ١٩٤

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ ٤٣ ..... ٢١٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ ٧٥ .... ٥٠٠

﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ ﴾ ٨٠ .... ٤٤ ، ٥٠٠

(٧) سورة الأعراف

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ٢٩ .... ٤١٤

﴿ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ٣١ .... ٤١٤

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ ﴾ ٣٨ .... ٤٣٣

﴿ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ ٥٠ .... ٣١٨

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ ٩٦ .... ٢١٥

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ... لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ ١٠٧ ـ ١٠٨ .... ٣١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾	١٣٣	٢٣٦
﴿ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾	١٥٦	١٩٥
﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾	١٥٧	٢١٤ ، ٢٣٦

(٨) سورة الأنفال

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ ﴾	٢٤	٤٤٣
﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ ﴾	٣٩	٢٧٨
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾	٦٠	١٥٥
﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	٦٣	٢٢٣
﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	٧٣	١١٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٣٢٦

(٩) سورة التوبة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ﴾	١١	٤١٨
﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾	٢٤	٢٥٨ ، ٣٢٥
﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ ﴾	٢٥	٣٨٩
﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾	٣١	٥٠٩
﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ ﴾	٣٤	٢٣٦ ، ٥١٣
﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا ﴾	٣٦	٤٦٨ ، ٤٩٧
﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾	٣٨	١٩٤
﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ ﴾	١٠١	٣٥٢
﴿ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ ﴾	١٠٩	٣٤٩
﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ ﴾	١١٨	٢١٥ ، ٣١٦ ، ٤٠٣
﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم ﴾	١٢٠	٢٥٨ ، ٣٢٥
﴿ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ ﴾	١٢٦	٣٥٧

(١٠) سورة يونس

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا . . . يَكۡسِبُونَ ﴾	٧ ـ ٨	١٩٤
﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ ﴾	٣٩	٣٩ ، ٤٤
﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾	٤٦	١٧٠
﴿ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ ﴾	٨١	٣٤٩
﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا ﴾	٨٧	٢١٦

(١١) سورة هود

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . . . يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ ـ ١٦ .... ١٩٤
﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٤٩ .... ٣٤٩
﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ ٥٢ .... ٢١٥
﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ ٦٢ .... ٢٥٥ ، ٣٢٣
﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ﴾ ٨٧ .... ٤١١
﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ . . . ٱلْمَرْفُودُ﴾ ٩٧ ـ ٩٩ .... ٣٩١

(١٢) سورة يوسف

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ ٣٦ .... ٥٩ ، ٦٠
﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ ٣٧ .... ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢
﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ ٣٩ .... ٦٣ ، ٧٨
﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ ٤٠ .... ٦٣ ، ٢٤١
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ﴾ ١١٠ .... ٣٤٨

(١٣) سورة الرعد

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ﴾ ١٧ .... ٣٤٧ ، ٣٦٢
﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ ٣٤ .... ٤٥

(١٤) سورة إبراهيم

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ٢ .... ١٩٤
﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ٣ .... ١٩٣
﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ . . . رَبِّهَا﴾ ٢٤ ـ ٢٥ .... ٥٠ ، ٤٢٦
﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ٢٦ .... ٣٤٩
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ ٣٥ .... ١٤
﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ٣٦ .... ١٤ ، ١٥
﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾ ٣٧ ... ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٤٧٢
﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾ ٣٨ .... ١٤
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ ٣٩ .... ١٤ ، ١٦
﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ ٤٠ .... ١٤
﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٤١ .... ١٤ ، ١٦

(١٥) سورة الحجر

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ٩ .... ١٢ ، ٩٢ ، ٣٥٣

(١٦) سورة النحل

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ٩٧ .... ٢٢٩
﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا . . . مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ١٢٠ ـ ١٢١ .... ٢٤ ، ١٠٥ ، ٤٨٢
﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ١٢٣ .... ١٠٥
﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ﴾ ١٢٥ ..... ٥٨ ، ١٠٤ ، ١٠٥

(١٧) سورة الإسراء

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ٢٣ .... ٥١
﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ ٣٨ .... ٥٢
﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ ٣٩ .... ٥٢
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ﴾ ٧٠ .... ٢٢٨
﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ ٨١ .... ٣٤٨

(١٨) سورة الكهف

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ ٦ .... ١٧١
﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ ٧ .... ١٩٤
﴿ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ . . . كَذِبًا ﴾ ١٣ ـ ١٥ .... ١٦٦
﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ١١٠ .... ٤٣

(١٩) سورة مريم

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ . . . وَلِيًّا ﴾ ٤١ ـ ٤٥ .... ١٩ ، ٢١

(٢٠) سورة طه

﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى ﴾ ٧٢ .... ٣٥
﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ١٢٧ .... ٤٥
﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا ﴾ ١٣١ .... ٩٩

(٢١) سورة الأنبياء

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ٥١ .... ٤٥٩
﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ٦٨ .... ١٧ ، ٤٧١
﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا . . . ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ ٦٩ ـ ٧٠ .... ١٧ ، ٤٧١

(٢٢) سورة الحج

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ ﴾ ٢٥ .... ٤٦٨

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ ٢٦ .... ٤٥٠ ، ٤٨٣
﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ ٢٧ .... ٤٥٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ ، ٤٨٣
﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ ٢٨ .... ٤٥٠ ، ٤٦٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥
﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ ٢٩ ..... ٤٥٠ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤
﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ... سَحِيقٍ﴾ ٣٠ ـ ٣١ .... ٩٦ ، ٤٨٤
﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا﴾ ٣٢ .... ٤٨٤
﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ ٣٦ .... ٤٨٤
﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ٣٧ .... ٤٨٤
﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ٤٠ .... ٣٨٣
﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟﴾ ٤١ .... ١٦٦ ، ١٦٧
﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ ٧٨ ..... ٣٣٩ ، ٤٧٣ ، ٥١١

(٢٣) سورة المؤمنون

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ ٧٦ .... ٢١٥
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ١٠١ .... ٢٢٨

(٢٤) سورة النور

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ١٢ .... ٤٣٣
﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ... وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ٣٦ ـ ٣٧ .... ٤١٣
﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ ٣٩ .... ١١٤
﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ ٤٠ .... ٥٠١
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ٥١ .... ٤٤٣
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ٥٥ .... ٢٢٥

(٢٥) سورة الفرقان

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ ٢٣ .... ٣٧٩

(٢٦) سورة الشعراء

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٦٩ .... ٢١
﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٧٠ .... ٢١ ، ٢٢
﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ ٧١ .... ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣
﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ... يَضُرُّونَ﴾ ٧٢ ـ ٧٣ . ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ٧٤ .... ٢٢
﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ .. ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ ٧٥ـ٧٦ .... ٢٢
﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ... يُحْيِينِ﴾ ٧٧ـ٨١ .... ٤، ٢٢
﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى ... ٱلنَّعِيمِ﴾ ٨٣ـ٨٥ .... ٢٤
﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ٨٦ .... ٢٤
﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ٨٧ .... ٢٤
﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ... سَلِيمٍ﴾ ٨٨ـ٨٩ .... ٢٤، ٤١٩

(٢٧) سورة النمل

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ ٣٤ .... ٣٧٩
﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ ٦٦ .... ٣٩
﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ٩١ .... ٤٦٨

(٢٨) سورة القصص

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ ٥٧ .... ١٧، ٤٧٢
﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ٦٠ .... ١٩٤
﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ﴾ ٨٣ ..... ١٠٠، ١٦٩، ١٩٣

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ ٢ ...... ١٦٦، ٢٥٨، ٣٢٦
﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ ٣ .... ١٦٧
﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ ٤١ .... ٣٤٨
﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ٤٥ .... ٤١١
﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ﴾ ٦٤ .... ١٩٤

(٣٠) سورة الروم

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ٧ .... ١٩٥
﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ٤١ .... ٤٥، ٣٧٥

(٣١) سورة لقمان

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ١٢ .... ٢٦، ٥٢
﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ ١٣ .... ٢٥، ٢٦، ٥٢
﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ﴾ ١٤ .... ٢٥، ٢٦
﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ ١٥ .... ٢٥، ٢٦، ٢٧

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ ﴾ ١٦ .... ٢٥ ، ٢٧
﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ . . . فَخُورٖ ﴾ ١٧ ـ ١٨ .... ٢٥
﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ ١٩ .... ٢٥ ، ٥٢
﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ٢٠ .... ٢٧

(٣٢) سورة السجدة

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ ﴾ ١٦ .... ٣٦٩
﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ ٢١ .... ٤٥

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ ١١ .... ٣٤٨
﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ ٢١ .... ٥٤ ، ٤٢١
﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ﴾ ٢٢ .... ١٦٧ ، ٥٠٠
﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ ﴾ ٢٣ .... ١٤٠ ، ٥١٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ﴾ ٢٨ .... ٩٩ ، ٢٥٧ ،
٣٢٥ ، ٤٢٠
﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ ٢٩ ..... ٢٥٧ ، ٣٢٥ ، ٤٢٠
﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ ﴾ ٣٦ .... ٤٤٣
﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ٣٨ .... ٤٠٦

(٣٤) سورة سبأ

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ ٤٦ .... ٤٦

(٣٥) سورة فاطر

﴿ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ ﴾ ١٠ .... ٣٤٩
﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ ٤٣ .... ٩٩ ، ٣٤٩

(٣٦) سورة يس

﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ ٦ .... ٣٩

(٣٧) سورة الصافات

﴿ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ ٩٥ ..... ٢٤١ ، ٣١٣ ، ٣٦١
﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ ﴾ ١٠٢ .... ٤٦١
﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ . . . إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ ١٠٣ ـ ١٠٩ .... ٤٦٢
﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا . . . ٱلۡمَنصُورُونَ ﴾ ١٧١ ـ ١٧٢ .... ٣٧٥

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ١٧٣ .... ٢١٤ ، ٣٧٥

(٣٩) سورة الزمر

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ١٨ .... ٢٧

(٤٠) سورة غافر

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ٤ .... ٣٤٨
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ﴾ ٢٦ .... ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠
﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ ٢٧ .... ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٥
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ﴾ ٢٨ .... ٢٨ ، ٣٠ ،
٣١ ، ٣٧ ، ١٠٦
﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ٢٩ .... ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢
﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ٣٠ .... ٢٨ ، ٣٢
﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ٣١ .... ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣
﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ٣٢ .... ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣
﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ٣٣ .... ٢٨ ، ٣٣
﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ٣٤ .... ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٥
﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ ٣٥ .... ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٥
﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ . . . ٱلْقَرَارِ﴾ ٣٨ ـ ٣٩ .... ٣٥
﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ٤٠ .... ٣٦
﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ . . . ٱلْغَفَّٰرِ﴾ ٤١ ـ ٤٢ .... ٣٦
﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ ٤٣ .... ٣٦
﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ ٤٤ .... ٣٦ ، ٤٦

(٤١) سورة فصلت

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ ١٦ .... ٤٥
﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ ٢٦ .... ١٥٩
﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ٤٢ .... ٤٣ ، ٥٠١

(٤٢) سورة الشورى

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ١١٥ .... ٢٣

(٤٣) سورة الزخرف

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ﴾ ٤٤ .... ٢١٤
﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ٥١ .... ٣٠

(٤٧) سورة محمد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ٧ .... ٢٠٤

(٤٨) سورة الفتح

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ ٢٦ .... ٨ ، ٢٣٠

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾ ٢٩ .... ٨

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ٧ .... ٨ ، ٥٤

﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٨ .... ٥٤

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ ١٣ .... ٢٢٨ ، ٣٥٢

(٥١) سورة الذاريات

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ١٧ .... ٣٦٩

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ ٣ .... ٣٩٢ ، ٤٣٤

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ ٤ .... ٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٣٤

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ ٢٣ .... ٦٣

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا . . . ٱهْتَدَىٰ﴾ ٢٩ ـ ٣٠ .... ١٩٥

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا . . . ٱلْأَوْفَىٰ﴾ ٣٩ ـ ٤١ .... ٢٢٩

(٥٧) سورة الحديد

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ٢٠ .... ١٩٤

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ ٢٣ .... ٣٥٥

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ ٢٧ .... ٦٦

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ ١١ .... ٢٢٩

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ ٢٢ .... ٢١٣

(٥٩) سورة الحشر

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ﴾ ١٠ .... ٣٣٨ ، ٤٣٢

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ٱلْحَكِيمُ﴾ ٢٢ ـ ٢٤ .... ٢٣

(٦٠) سورة الممتحنة

﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ٤ .... ٣٩١

(٦٢) سورة الجمعة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ . . . ٱلْحَكِيمُ ﴾ ٢ ـ ٣ .... ٥١

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ ٤ ..... ٨ ، ٥١ ، ٨٦ ، ٤٣٧

(٦٣) سورة المنافقون

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا ﴾ ٤ .... ٣٦٢ ، ٣٧٣

(٦٧) سورة الملك

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ ﴾ ٢ .... ١٩٤

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ١٤ .... ٤٤٤ ، ٥١١

(٦٨) سورة القلم

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ١ .... ١٢٤

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ٤ .... ٥٣

(٧١) سورة نوح

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ . . . وَقَارًا ﴾ ١٠ ـ ١٣ .... ٢١٥

(٧٢) سورة الجن

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم ﴾ ١٦ .... ٢١٥

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ ١٨ .... ٤١٣

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ . . . رَّسُولٍ ﴾ ٢٦ ـ ٢٧ .... ٤٦

(٧٥) سورة القيامة

﴿ بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ ٢٦ ـ ٢٧ .... ٣٩٨

(٧٦) سورة الإنسان

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ ﴾ ٢٧ .... ١٩٥

(٧٩) سورة النازعات

﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ٢٤ .... ٣٠ ، ٦٩

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . . . ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ٣٧ ـ ٣٩ .... ١٩٥

(٩٦) سورة العلق

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ١ ...... ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ . . . بِٱلْقَلَمِ ﴾ ٢ ـ ٤ . . . . ١٢٢ ، ١٢٤

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ٥ . . . . ١٢٤ ، ١٢٥

(١٠٦) سورة قريش

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ . . . خَوْفٍۭ ﴾ ٣ ـ ٤ . . . . ١٧ ، ٤٧٢

(١٠٨) سورة الكوثر

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ٣ . . . . ٣٦٠

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة
ـ أ ـ	
«إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة»	٤٤٦
«إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي»	٤١٤
«إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث»	٤٣٥
«أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز»	٤٣٤
«ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»	٢٦٠ ، ٣٢٨
«أشبع يوماً وأجوع يوماً»	٤٢٠
«أصلى الناس؟»	٤١٥
«اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم»	٤٩٥
«أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور»	٤٨١
«أفلا أكون عبداً شكوراً»	١٧١
«ألا إن القوة الرمي»	٢٦٠
«أما بعد فإنه لم يخف عليّ مكانكم»	٤٣٦
«أما لك جارله فضل ثوبين؟»	٤٢٢
«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم»	٤٩٦
«إن الدنيا خلقت لكم»	١٩٥
«إن الزمان قد استدار كهيئته»	٤٦٨
«إن في المال حقاً سوى الزكاة»	٤١٩
«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة»	٤٢٢
«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق»	٤٦٨
«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»	٨٩ ، ٣٩٢
«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»	٥٣

«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» ١٨٠
«إنما جعل الإمام ليؤتم به» ٤١٥
«إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» .... ٤٤ ، ٤٥
«إياكم ومحدثات الأمور» ٥١٢
«إيمان بالله ورسوله» ٤٦٥
«أيها الناس عليكم بالسكينة» ٤٩٤

ـ ب ـ

«بُني الإسلام على خمس» ٤٦٥

ـ ت ـ

«تابعوا بين الحج والعمرة» ٤٦٥
«تعدل بين الاثنين صدقة» ٤٣١
«تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» ٤٣١
«تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه» ٩٠
«تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» ٥٢٩
«توشك الأمم أن تداعى عليكم» ٣٧١

ـ ح ـ

«الحكمة ضالة المؤمن» .... ١٥٥ ، ٢٢٢
«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» ٤٦٥

ـ خ ـ

«الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله» ٥٢٩
«خير أمتي قرني» ٥٤
«خير الناس قرني» ٥٤
«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ٤١٩

ـ د ـ

«دعوها فإنها منتنة» ٢٣٠

ـ ذ ـ

«ذكرت شيئاً من تبر عندنا» ٤٢١

ـ ر ـ

«رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق» ٤١٦

ـ س ـ

«سلمان منا أهل البيت» ٢٢٩
«سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف» ٤١٧

- ص -

«صلوا كما رأيتموني أصلي» ٤١٥
«الصوم جنة ما لم يخرقها» ٤٣٥

- ع -

«عباد الله لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله» ٤١٧
«العجُّ والثجُّ» ٤٦٧

- ف -

«في الجنة باب يدعى الريّان» ٤٤٩

- ق -

«قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة» ١٧١
«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» ٢٣٧

- ك -

«كان خلقه القرآن» ٥٤
«كان رسول الله ﷺ أجود الناس» ٤٤٥
«كل بدعة ضلالة» .... ٨٦ ، ٥١٦
«كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشرة أمثالها» ٤٤٨
«كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ» ٤٣٥
«كنت خلفت في البيت تبراً من الصدقة» ٤٢١

- ل -

«لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً» ٤٥٣
«لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك» ٤٩٢
«لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس» ٤١٦
«لكن أفضل الجهاد حج مبرور» ٤٨١
«اللهم ارزق آل محمد قوتاً» ٤٢٠
«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي» ١٦٥
«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد» ١٦٥
«اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني» .... ١٦٥ ، ٤٩٤
«اللهم زِدْ بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً» ٤٩٣
«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ٤١٩
«لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً» ٣٩٢
«لو دخلوا فيها لم يزالوا فيها» ٩٠
«لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس» ٣٤٩

«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك» ٤١٣
«ليس منا من دعا إلى عصبية» ٢٣٠
«ليلني منكم أولو الأحلام والنهى» ٤١٥

- م -

«ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع» ٤٢٢
«ما أحدث قوم بدعة إلا رفع بها مثلها» ٥١٢
«ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر» .... ٤٥٧ ، ٤٧٧
«ما شبع آل محمد يومين من خبز البر» ٤٢٠
«ما ظن نبي الله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده» ٤٢١
«ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط» ٩٧
«مالي وللدنيا ، وما أنا والدنيا إنما أنا كراكب» ١٩٦
«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً» ٤٦٥
«ما هذه القالة التي بلغتني عنكم؟» ٤٧
«ما يبكيك يابن الخطاب؟» ٤٢٠
«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم» ٤٣٣
«المحيا محياكم ، والممات مماتكم» ٣١٩
«المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه» ٤٣٣
«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» ٥١٢
«من تقرب فيه بخصلة من الخير كان» ٤٣٥
«من حج فلم يرفث ولم يفسق» ٤٩٠
«من حج لله فلم يرفث ولم يفسق» .... ٤٦٥ ، ٤٧٠
«من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثى جهنم» ٢٣٠
«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له» .... ٤٣٤ ، ٤٤٩
«من فطَّر صائماً كان له مثل أجره» ٤٣٥
«من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث» ٤٢٢
«من كنت مولاه فعلي مولاه» ٤٩٦
«من لم يدع قول الزور والعمل به» ٤٣٥
«من ملك راحلة أو زاداً يبلغه» ٤٦٥
«منى مناخ من سبق» ٤١٥
«موضع سوط أحدكم في الجنة خير» ٢٣٧

- ن -

«الناس بنو آدم ، وآدم من تراب» ٣٥٢

- هـ -

«هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر» .... ٢٥٧ ، ٣٢٥

- و -

«وتبسمك في وجه أخيك لك صدقة» ٤٣١

«ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى بين الرجلين» ٤١٦

«ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له» ٤٢٢

- لا -

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له» .... ٤٩٣ ، ٤٩٦

«لا تجتمع أمتي على الضلالة» ٩٣

«لا طاعة في معصية الله» ٩٠

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ٩٠

«ولا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط» ١٦٩

«لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين» ٤٤٠

«لا هجرة ، ولكن جهاد ونية» ٤٦٨

«ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» .... ٨٩ ، ٣٥٧

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله» ٩٠

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ٤٢٣

- ي -

«يا أيها الناس هل تدرون في أي شهر أنتم؟» ٤٩٧

«يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب أرأيتم» ٣٨٥

«يا بني عبد المطلب ، يا بني كعب أرأيتم لو أخبرتكم» ٤٢

«يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري» ٢٠

«ويا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر» .... ٢٥٦ ، ٣٢٤

«يا معشر الأنصار أوجدتم عليّ في لعاعة من الدنيا» ٤٨

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» ١٢٧

«يعين ذا الحاجة الملهوف» ٤٣١

فهرس الأعلام

الاسم رقم الصفحة

ـ آ ـ

آدم البنوري ٥١٩

ـ أ ـ

ا. وهتني جريسولد ١٢١

إبراهيم باشا ٦٦ ، ٦٧

إبراهيم الخليل عليه السلام ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ ، ٣٩١ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣

أبرهة ٣٨٢

أبرويز ١٩١ ، ٢٠٥

ابن الأثير الجزري ٢١٣

ابن إسحاق ١٦٥

ابن تيمية ٢٣ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ٢٠٩ ، ٤٢٨ ، ٥٠٣

ابن الجوزي ٩٨

ابن حجر ٨٩

ابن خلدون ١٣٧ ، ٣٥٠ ، ٥٠١

ابن ربيعة بن الحارث ٣٢٤ ، ٤٩٧

ابن شداد ٢٥٢ ، ٤٢٨

ابن شهاب ٤٣٦

ابن عباس ٤٤٥ ، ٤٦٨ ، ٤٩٥

الاسم رقم الصفحة

ابن عربي الطائي ٨٣ ، ١٣٦

ابن عمر ٤٢٤

ابن غوريون ٢٩٤ ، ٢٩٥

ابن فضل الله العمري ٤٢٨

ابن قيم الجوزية ٤٨ ، ٩٤ ، ٥٠٣

ابن كثير ٤٦٩

أبو بكر الصديق ٥٧ ، ٦٥ ، ١٠٦ ، ١٦٥ ، ٢١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٩٢ ، ٥٠٦

أبو جهل ٥٠٨

أبو حامد الغزالي ٩٤ ، ١٣٧ ، ٣٥٠ ، ٤٣٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٥٠١

أبو داود ١٤٩

أبو سفيان ٤٧ ، ٢٢٩

أبو طالب ٢٠

أبو عبيدة ٤٣٥

أبو الفرج الأصبهاني ٢٦٥

أبو الفضل ٢٥٣

أبو الكلام آزاد ٢٥٣

أبو المعالي عبد الملك الجويني ٣٥٠

أبو نواس ٢٥٤

أبو هريرة ٦٥ ، ٤١٦ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٦٥

أحمد البرزنجي ١٤٩

أحمد بن حنبل ٩٩ ، ١٢٨ ، ٣٤٩

أحمد بن عبد الأحد السرهندي ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ٤٤٥ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩
أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ٩٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ٤١٢ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٨ ، ٥٢٧
أحمد بن عرفان الشهيد ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
أحمد التهانيسري ٥٢٧
أحمد خان ٥١٩
أحمد دحلان ١٤٩
أحمد رضا خان ١٥٩
أحمد الله ١٥٢
أختر شيراني ٢٥٢ ، ٢٥٤
الأخنائي ١٣٥
أرسطاطاليس ٥٠٢
أرسطو ٢٥٣
أرناط ٢٥٢
أسامة بن زيد ٤٩٤
أسد الله خان ٢٥٣
إسماعيل ٢٦٣
إسماعيل الشهيد ١٣٩ ، ١٥٩ ، ٥٢٢
إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ٤٦٢ ، ٤٨٣
الأسود العنسي ٣٦٠
أشرف علي التهانوي ١٤٦
أغسطس ٣٩١
أفلاطون ٢٥٣
إقبال = محمد إقبال
إقبال خادم الدهلوي ٤٢٧
أكبر = جلال الدين أكبر
ألطاف حسين حالي ٢٠٨
إمداد الله التهانوي ١٥٢
إمداد الله المهاجر المكي ٥١٨
امرؤ القيس ٢٥٩ ، ٣٢٧
أميكالي ٢٨٣
أمين الحسيني ٣٦٧
أنس بن مالك ٤١٤ ، ٤١٧
أنور باشا ١٥٢
أنور شاه الكشميري ١٤٤ ، ١٤٧
أورنك زيب عالمكير ٦٩، ٧٩، ٨٢، ١٣٦
أوسكارليفي ٣٤٥
إيدن ٣١٥

- ب -

بائيل دايان ٢٩٤
البتّاني ٢٧٧
بتهورا ٣٩٣
البخاري ٤٨ ، ١٥٠ ، ٤١٥ ، ٤٨١
بشار بن برد ٢٥٤
البكري ١٣٥
بلال الحبشي ٢٢٩
بهاء الله إيراني ٣٦٠
بهيك ٥٢٨
بولس الراهب ٢٩٨

- ت -

الترمذي ١٥٠ ، ٤٦٥
تشرشل ٢٩٤
تيبو ١٥١

- ث -

ثيودر شرويدر ١٢١

- ج -

جابر بن حبان ٢٧٦
جاتيلان ٢٥١

جار الله الزمخشري ٣٠٩
جلال الدين أكبر ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠
جلفر ٣٨٦
جهانكير ٧٨ ، ٨٤ ، ٥١٤
جود ١٨٣

- ح -

الحارث بن هشام ٢٢٩
الحسن البصري ٩٨ ، ٤٢٥
حسن بن الصباح ١١٣ ، ٣٦٠
الحسن بن علي ٤٢٥
حسين أحمد المدني ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢
حنين ٣١٥

- خ -

خالد بن الوليد ٣١٤
خالد الشهرزوري ٥١٨
خضرخان ٥٢٨
الخطابي ٩٤
خليل أحمد الأنبيتهوري السهارنفوري ١٤٨
خليل أحد بن مجيد علي الأنصاري ١٤٨
الخوارزمي ٢٧٧

- د -

درابر ١١٩

- ذ -

ذو القرنين ١٩٣

- ر -

ربعي بن عامر ١٨٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
ربيعة بن الحارث ٢٥٦
رستم ١٨٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
رشيد أحمد الكنكوهي ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٥٢٧
رشيد رضا ١٤٤
ركن الدين ٥٢٠
رودر ماثيوز ٢٩٥
روشن الدولة ٤٢٧ ، ٥٢٨
ريجي نالد ٢٥١

- ز -

الزجاج ٣٥٠
زيد بن خالد الجهني ٤٣٥

- س -

سالم مولى أبي حذيفة ٢٢٩
ستيلي لين بول ٢١٢ ، ٣٩٩
سجاح ٣٦٠
سراج الدين الأردهي ٥٢٧
السرهندي = أحمد بن عبد الأحد السرهندي
سعاد ١١٦
سعادة علي ١٤٣
سعد ٣٧٤
سعد بن أبي وقاص ١٧٠ ، ٢٣٤ ، ٢٩٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٤
سعيد الحلبي ٦٦ ، ٦٧
سقراط ٢٥٣
سلمان الفارسي ٢٢٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
سليمان ٥٢٥
سليمان بن داود ١٩٣
سليمان الندوي ١٥٣
سندباد البحري ٣٨٦
سهل بن سعد ٤٤٩
سهيل بن عمرو ٢٢٩
سيبويه ٣٥٠
سيد قطب ١٥٧

سيف الدين السرهندي ٥٢٨
سيف الدين قطز ٤٠٠
السيوطي ٤٠٠

- ش -

شازر ٢٩٤ ، ٢٩٥
شاه عالم ٥٢٤
شاهجان ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٥١٩
شبير أحمد العثماني ١٥٤
شبير حسن جوش ٢٥٣
شرحبيل بن مسلم ٤٢٤
الشريف حسين ١٥٢
شعيب ٩٨
شمس الدين حبيب ، ميرزا جانجانان الدهلوي ٥٢٥
شمعون ٣٠١
شهاب الدين محمد بن سام الغوري ٣٩٣
شورس الكشميري ٢٥٢
شيرين ١٩١ ، ٢٠٥

- ص -

صالح ٢٥٥ ، ٣٢٣
صدام حسين ٣٧٩ ، ٣٨٠
صديق حسن القنوجي ١٣٩
الصعب بن جثامة ٤٨٨
صلاح الدين الأيوبي ٧٩ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ، ٢٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٢٨

- ض -

ضرار بن ضمرة ٤٢٤
ضياء الدين البرني ٥٢٠

- ط -

طارق بن زياد ٣١٤
الطبري ٣٠٧
طليحة الأسدي ٣٦٠

- ظ -

الظاهر بيبرس ٤٠١

- ع -

عائشة أم المؤمنين ٥٤ ، ١٥٤ ، ١٧١ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٦ ، ٤٦٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٨
عباس بن عبد المطلب ٢٥٦ ، ٣٢٤ ، ٤٦٨ ، ٤٩٧
عبد الباري الفرنكي ١٥٢
عبد الحي الحسني ١٤٢
عبد الرحمن بن خلدون = ابن خلدون
عبد العزيز الدهلوي ١٣٨
عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ١٤٤
عبد الغني بن أبي سعيد المجددي المهاجري ١٤٩
عبد القادر الجيلي ٤٢٦
عبد القادر الكيلاني ٩٨
عبد القيوم البرهانوي ١٤٩
عبد الكبير اليمني ٨٣ ، ١٣٦
عبد الله بن جعفر ٤٢٥
عبد الله بن عمر ٣٩٤
عبد الله بن عمرو بن العاص ٤٣٤
عبد الله بن مسعود ٤١٦ ، ٤٦٥
عبد الله خان ٤٢٨ ، ٥٢٨
عبد المقتدر الكندي ٥٢٧
عبيد بن ميمون القداح ٣٦٠
عثمان بن طلحة ٢٥٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥
عثمان بن عفان ٤٢٤ ، ٥٠٦
عروة ٤٣٦
عروة بن الزبير ٢١٢
عز الدين بن عبد السلام ٩٤

عزيز كل ١٥٢
عقبة بن الحارث ٤٢١
عقبة بن نافع ٣١٤
عكرمة بن أبي جهل ٤٧ ، ٢٢٩
علاء الدين ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٩
علي بن أبي طالب ٢٥٧ ، ٣٢٤ ، ٤٠٢ ، ٤٢٤ ، ٤٦٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦
علي بن حسين بن علي ٤٢٥
علي الطنطاوي ١٥٧
عمر بن أبي ربيعة ٢٥٤
عمر بن الخطاب ٥٧ ، ١٠٦ ، ١٦٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ ، ٣٢٨ ، ٣٥١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٩٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٨١ ، ٥٠٦
عمر بن عبد العزيز ٣٥١ ، ٣٦٨
عوض وجيه ٨١
عيسى ابن مريم = المسيح

- غ -

الغزالي = أبو حامد الغزالي
غلام أحمد القادياني ٣٦٠
غلام علي الدهلوي ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٦

- ف -

الفارسي ٣٥٠
الفاضل ٤٢٩
فاطمة ٣٢٥
فخر الدين الرازي ٥٢٤
فرخ سير ٤٢٧ ، ٥٢٨
فرعون ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٩ ، ٢٨٤
فريد الدين كنج شكر ٥٢١
الفضل بن عباس ٤٩٥
فضل الرحمن الكنج مراد آبادي ٥٢٦
فيض أحمد فيض ٢٥٣
فيض الحسن السهارنفوري ١٤٨

- ق -

قطب الدين منور ٧٢ ، ٧٣ ، ٥٢٣
قيصر ١٦٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٣٣١ ، ٤٢٠

- ك -

كائي ٢٥١ ، ٢٥٢
كسرى ١٠ ، ١٦٩ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٣٣١ ، ٤٢٠
كسرى يزدجرد ٢٣٨
كلب علي خان ٥٢٦
كمال أتاتورك ٢٨٠

- ل -

لطف الله الكوروي ٥٢٧
لقمان ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٢
لوثر ٢٣٠
لياقت علي ١٥٢

- م -

مالك ١٥٠ ، ١٥٤
متى عقراوي ٢٩٥
مجد الدين الفيروز آبادي ٣٠٩
محب الله ٥٢٦
محسن بن يحيى الترهتي ١٣٩
محمد ٥٢٧
محمد أسد ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦
محمد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١
محمد إقبال ١١٩ ، ١٣٢ ، ١٥٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢٤٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،

٣٦٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨
محمد إلياس ١٥٧
محمد إلياس بن إسماعيل الكاندهلوي ١٤٩
محمد بن إسماعيل البخاري ٣٥٠
محمد بن قاسم ٣١٤
محمد بن القاسم الثقفي ٣٥١
محمد تغلق ٧٢ ، ٥٢٣
محمد الحسني ١٥٦
محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي ١٤٩ ، ١٥٠
محمد سعيد الأنبالوي ٤٢٧ ، ٥٢٨
محمد شاه ٣٦٦
محمد ضامن الشهيد ١٥٢
محمد عبد الله ٨٤ ، ٥١٦
محمد عبده ١٤٤
محمد علي ٢٨٥
محمد علي المونكيري ١٥٣
محمد الفاتح ٢٠٣
محمد فرج سير ٤٢٧ ، ٥٢٨
محمد قاسم النانوتوي ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٢
محمد مظهر النانوتوي ١٤٨
محمد معصوم السرهندي ٧٩ ، ٥١٨ ، ٥١٩
محمود حسن ١٥١
محمود حسن الديوبندي ١٤٧
محيي الدين بن عربي = ابن عربي
المرتضى الزبيدي الهندي ٣٠٩
مسلم ٤٦٨
المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ٢٤٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٤٨٩
مسيلمة الكذاب ٣١٦
مظهر النانوتوي ١٤٨
معين الدين الأجميري ٥١٨
المغيرة بن شعبة ١٧١
مناظر أحسن الكيلاني ٥٢٨
موسى عليه السلام ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ١٠٥ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٧٢ ، ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٩
ميرخان ٥٢٦
ميردرد ٥٢٤

- ن -

نادر شاه ٣٦٦ ، ٣٦٧
نجيب خان ١٥٢
نذير حسين الدهلوي ١٤٢
نصرت حسين ١٥٢
نظام الدين ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
نظام الدين الأنصاري الفرنكي محلي ١٤٤
نظام الدين الدهلوي ٤٢٦
النعمان بن بشير ٤١٧
نمرود ٢٨٥
نوبل ٢٩٥
نوح ٢١٥
نور الدين ٧٣ ، ٥٢٣
نور الدين جهانكير ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٩
نور الدين زنكي ٧٩ ، ٣٩٩

- هـ -

هرقل ١٦٩
الهرمزان ٢٤٠
هود ٢١٥

- و -
وحيد أحمد ١٥٢
ورقة بن نوفل ١٢٤
ولايت علي العظيم آبادي ١٤٢
ولي الله الدهلوي = أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي

- ي -
يزدجرد ٢٣٩ ، ٢٩٢
يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي ١٤٨
يوسف عليه السلام ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٥
Don Adams ١٨٥
F.W Gard Ford ١١٦
Prrey Neinn ١١٦
Vernon Mallinson ١٨٧

فهرس الأبيات الشعرية

القافية	الشاعر	رقم الصفحة
	- ب -	
أصابا	أبو فراس الحمداني	٥٥
مطايا	أبو فراس الحمداني	٥٥
	- د -	
أرشدِ	-	٣٩٥
	- ر -	
المهاجرة	-	١٧٠
	- ص -	
توصيه	-	١٠٣
	- ع -	
المجامعُ	-	٣١٤
مسمعِ	-	١١٦
	- ل -	
الإبلُ	-	٣٧٤
أمثالي	امرؤ القيس	٢٥٩ ، ٣٢٧
المالِ	امرؤ القيس	٢٥٩ ، ٣٢٧
	- ن -	
إحسانا	-	٣١٥
إنسانا	-	٣١٥

فهرس الأماكن والبقاع والبلدان

اسم المكان رقم الصفحة

- آ -

آسيا ٦٦ ، ١٥٨ ، ٣١٨

- أ -

الأبواء ٤٨٨ ، ٤٩٣
أجمير ٣٩٣
أُحد ٢٠٠ ، ٣٦٤
الأزهر = جامع الأزهر
إسبانيا ٧٩ ، ١٦٠
أستراليا ١٥٨
إسرائيل ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٠ ، ٣٨٠
الإسكندرية ٣٩٩
إفريقية ١٥٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٨
أفغانستان ٨٦ ، ١٥١ ، ٢٦٢ ، ٥١٦ ، ٥١٨
البرانس ٣٣٧
ألمانيا ٢٣١
أمريكا ٤٠ ، ١٥٨ ، ٢٠٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣٢ ، ٤٨١
أناؤ ١٤٧
أنبالة ٥٢٨

اسم المكان رقم الصفحة

إنجلترا ٢٠٤ ، ٢٣١
الأندلس ١٦٠ ، ٢٠٨
أندونيسيا ٢٣٣ ، ٢٨٦
الأهواز ٢٤٠
أوربة ١٢٢ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٨١
إيران ٢٢١ ، ٢٣٩ ، ٢٩٢ ، ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٥١٨

- ب -

باكستان ٨٨ ، ٩١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٣١٠ ، ٣١٨
بالاكوت ٢٦٣
بانكرمئو ١٤٧
باني بت ٥٢٨
بخارى ٥١٨
بدر ١٦٥ ، ٢٣٦ ، ٥٠٦
بريطانيا ١٨٧ ، ٣١٥ ، ٣٨١
بشاور ٢٦٣

بغداد ٩٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٦ ، ٤٠٧
البقيع ١٥٠ ، ٥١٩
بلاد الرافدين ٣٢٠
البلاد العربية ١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٢
بلوجستان ٢٦٢
بنارس ٥١٩
بنجاب ٢٦٣
بنغلاديش ١٥٩
البيت الحرام ٣١٧ ، ٤٠٨ ، ٤٥٨ ، ٤٨٢ ، ٥١٠

- ت -

تاندة ١٤٧
تبوك ٣١٦
تركستان ٨٦ ، ٢٢١ ، ٣٣٧ ، ٥١٦ ، ٥١٨
تركية ٨٦ ، ٢٣٣ ، ٢٨٦ ، ٥١٦ ، ٥١٨
تهانيسر ٥٢٨
تولك ٥٢٦

- ج -

جامع الأزهر ١١٨ ، ١٣٣ ، ٢٥٤
جامعة كامبردج ٤٠
جامعة لندن ١٨٣
جبال الألب ٣٣٧
الجزائر ٨٨
الجزيرة ٨٩ ، ٢١٢ ، ٣١٦ ، ٣٤١
الجزيرة العربية ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٨٧
جزيرة مالطا ١٥٢
الجعرانة ٤٧
جمرة العقبة ٤٩٥
جنين ٢٥١
جؤاثى ٤٦٦
جونيور ٥٢٧

- ح -

الحبشة ٥١٨
الحجاز ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٣٨٢ ، ٤٠٨ ، ٥١٨ ، ٥١٩
الحجر الأسود ٤٥٨ ، ٤٩٣
الحرم ١٩١ ، ٢٠٥ ، ٢٨٣ ، ٤٠٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨١
الحرمان الشريفان ١٤٨ ، ٢٢٠ ، ٢٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٥١٩
حطين ٣٧٤
حمراء الأسد ٣٦٤
حنين ٤٧
حومة الجندل ١١٦

- خ -

خراسان ٣٩٣
الخندق ٢٠٠

- د -

دا بهيل ١٤٧
دار العلوم ديوبند ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٢٠٩
دجلة ١٧٠ ، ٣٠٦
دلهي ٣٧٦
دمشق ٦٦ ، ٣٣٠
دمياط ٣٩٩
دهلي ٦٦ ، ٧٢ ، ١٥٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠
ديوبند ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١

- ذ -
ذو الحليفة ٤٩٦
ذو طوى ٤٨٨ ، ٤٩٣

- ر -
رامبور ٥٢٦
روسيا ٣٣٢
رومة ١٠

- س -
سبأ ٣٧٩
سرف ٤٩٣
سرهند ٧٧ ، ٥٢٨
سمرقند ٣٥١ ، ٥١٨
السند ٣٣٧ ، ٣٥١
سهارنفور ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٠
سورية ٦٦ ، ٨٦ ، ١٥٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٥١٦
السويس ٣١٥
سيناء ١٧٢ ، ٢٩٥

- ش -
الشام ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٦٩ ، ٢٢١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٥١٨
شبه جزيرة سيناء ٣٤٠
شبه القارة الهندية ٦٧ ، ٨٦ ، ١٤٠ ، ٢١٩ ، ٢٥٢ ، ٢٩٣ ، ٣٥١ ، ٣٩٧ ، ٥١٦
الشرق الأقصى ٣٢٠
الشرق الأوسط ٦٧ ، ٢٩٥

- ص -
صحراء العرب ٢٩٠
صحراء النوبة ٤٢٩
الصفا ٣٨ ، ٤٢ ، ٣٨٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٤٩٣
الصين ٣٣٧ ، ٥١٨

- ض -
الضفة الغربية ٣٤٠

- ط -
الطائف ٤٦٦
طوس ٣٠٩

- ع -
عبادان ٤٨٠
العراق ٨٦ ، ١٤٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٥١٦ ، ٥١٨
العرج ٤٩٢
عرفات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦
عسفان ٤٩٣
عليكرة ٥١٩
عين جالوت ٤٠٠ ، ٤٠١

- غ -
غار حراء ١٢٢ ، ١٢٤
غرلة ٣٩٣

- ف -
فارس ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٣٥٠
الفرات ٣٣٧
فرنسا ٢٣١
فلسطين ٢٢٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٤٠٠

- ق -

القاهرة ٢٦٤ ، ٣٣٠
القدس ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٨٠ ، ٣٩٩
قراقورم ٣٦٦
قرطبة ٤٨٠
قسطنطينية ٢٠٠ ، ٢٠٣
قلعة كواليار ٧٧ ، ٧٨
قناة السويس ٣٤٠

- ك -

كاشغر ٣٨٣
كراتشي ٦٥ ، ١٥٤
كرك ٢٥١
الكعبة الشريفة ٢٥٧ ، ٣٢٤
كلكتا ١٣٩ ، ٥١٩ ، ٥٢٢
كنكوة ٥٢٧
الكويت ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٧
كيرالا ٣١٠

- ل -

لاهور ١٤٨ ، ٢٥٢ ، ٣٩٣ ، ٥١٩
لبنان ٣٣٧
لكهنؤ ١٥٣ ، ٣٧٦ ، ٥٢٧

- م -

المجر ٢٣١
المدائن ٢٤٠ ، ٣٠٦
مدرسة دار العلوم ١٥٣ ، ١٥٦
مدرسة صادق نور ١٤٢
المدينة المنورة ٩٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٨ ، ٤٢١ ، ٤٦٦ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦
مراد آباد ٥٢٦
المسجد الأقصى ٢١٢
مرزابور ٥٢١
المروة ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٨
المزدلفة ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٩٥
مسجد الخليل ٢٩٥
المسجد النبوي ٦٥
مصر ٦١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ٢١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٥١٨
معهد ديوبند ١٤٣ ، ١٤٦
المغرب ٤٨٠
مكة المكرمة ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ١٢٤ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٠ ، ٢٥٧ ، ٢٧٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٤٥٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٢٢
الملتان ٣٥١
ملك ٤٨٨
المملكة العربية السعودية ٣٨٠ ، ٣٨١
مِنى ٤١٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥
ميوان ١٥٨

- ن -

نانوتا ١٤٤
نجد بيرخم ٤٩٦
نميرة ٤٩٣
النمسا ٢٣١
نهر الكنج ٥٢١
النيل ٣٢٠ ، ٣٣٧ ، ٣٨٣ ، ٣٩٩

- هـ -

هملايا ٣٣٧

الهنـــد ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٢٧ ، ٥٠٣ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠

- و -

الوطن العربي ٣٢٠

الولايات المتحدة ٣٨١

- ي -

يثرب ٩٣ ، ٢٠٠

اليرموك ٣٧٤

اليمامة ٤٦٦

اليونان ٢٣ ، ٢٦١ ، ٣٢٩ ، ٥٠٣

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

الاسم رقم الصفحة

ـ آ ـ

آل فرعون ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ١٠٦

ـ أ ـ

الأتراك ٢١٤ ، ٣١٨

الأكراد ٢٣٢ ، ٢٩٧

الإنجليز ١٣٩ ، ١٥١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣١٥ ، ٥٢٢

الأنصار ٤٧ ، ٤٨ ، ١١٤ ، ١٧٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ ، ٣٢٥

الأوربيون ١٣٠ ، ٢٠٠ ، ٢٤١ ، ٢٨٣ ، ٣٧٢

الإيرانيون ٢٤٠

ـ ب ـ

البرابرة ٢٨٢

بنو أسد ٢٢٨

بنو إسرائيل ١٧٢ ، ٣٤٦

بنو إسماعيل ٢٦٠ ، ٣٢٨

بنو أمية ٤٨٩

بنو تغلب ٢٢٨

بنو تميم ٢٢٧

بنو ذؤيب ٢٢٨

بنو ربيعة ٢٢٨

بنو سعد ٤٩٧

بنو طيء ٢٢٧

بنو العباس ٤٨٩

بنو عبد الدار ٢٢٧

بنو عبد شمس ٢٢٧

بنو عبد المطلب ٣٨٥

بنو فهر ٣٨٥

بنو كعب ٣٨٥

بنو لاوي ٣٤٩

بنو ليث ٤٩٧

بنو مخزوم ٢٢٧

بنو هاشم ٢٥٧ ، ٣٢٤ ، ٤٢٥

ـ ت ـ

التتار (التتر) ٦٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٧

ـ ث ـ

ثمود ٣٢ ، ٣٣

ـ د ـ

الديوبنديون ١٥٠

- ر -

الروم (الرومان) ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٨٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٦٧ ، ٣٩١

- س -

السودانيون ٢٣٢

السوريون ٢٣٢

- ع -

عاد ٣٢ ، ٣٣

العرب ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٤٠٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٧٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٨

- غ -

غزيّة ٣٩٥

- ف -

الفرس ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٦٧

الفرنسيون ٨٨ ، ٣١٥

- ق -

قريش ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ١٦٧ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٦٤ ، ٣٨٦ ، ٤٨٠ ، ٥١٣

- م

المصريون ٢٣٢

مُضر ٢٢٩ ، ٤٦٨

المغول ٣٧٢

المهاجرون ١١٤ ، ١٧٠ ، ٢٣٠

- هـ -

هذيل ٤٩٧

الهنود ٧٣ ، ٢١٥ ، ٣١٨ ، ٣٤٩

- ي -

اليهود ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٤٤٠ ، ٥٠٩

اليونانيون ٥٠٢

فهرس الموضوعات

مقالات في الفكر والدعوة ٥
طبيعة الرسالات السماوية ومعجزة صناعة الإنسان ٧
لابد من أن تثمر الدعوة في حياة الرسول نفسه ٩
ميّزة الرسول عن مؤسسي الحكومات والقادة الماديين ٩
الصحيفة السماوية المنزلة على الرسول يجب أن تكون محفوظة ١١
يجب أن يكون النبي بذاته مركز الهداية الوحيدة ، والشارع المطاع ١٢
أعظم مأثرة نبوية للإصلاح والتربية وقلب الماهية ١٣
أجمل صورة في مجموع الصور الإنساني العالمي ١٣
نموذج رائع من الإيمان النبوي والحنان الأبوي ١٤
نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ١٩
دعوة الولد للوالد ١٩
إثارة للحنان الأبوي ١٩
حسن اختيار سيدنا إبراهيم للدلائل ٢٠
الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه ٢١
استفادة ثروة الذكاء والبيان وطاقة الدفاع عن النفس من المخاطب ٢٢
المنهج القرآني ، إثبات مفصَّل ونفي مجمل ٢٢
الانطلاق والتدفق في الحديث عن الله تعالى ٢٣
مناسبات لطيفة ٢٤
حكمة لقمان ، وموعظة الإيمان ٢٥
دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه نموذج لدعوة غير نبي ٢٨
يقول الله تبارك وتعالى حكاية عن فرعون ٢٨
حوار في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفة مداخل النفس ٢٩
الاستراتيجية الحاكمية الملكية ٢٩

كلمة رقيقة رفيقة تثير الشرارة الأخيرة من العدل وقوة المقارنة ٣٠
الاحتجاج بالمشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشود ٣١
الاحتجاج بسنة الله التي لا تتغيّر ٣١
الاعتبار بالتاريخ ومصير الأمم البائدة ٣٢
التحذير من الآخرة ٣٢
إثارة نقطة جديدة حكيمة ٣٣
سمة فرعون الرئيسية التي حالت بينه وبين الخالق ٣٤
النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ومؤمن آل فرعون ٣٥
الضرب على الوتر الحساس ٣٥
الدعوة إلى معرفة المخلص النافع من الغاش الخادع ٣٦
الخط الذي ينتهي إليه كل داع مخلص ٣٦
نموذجان من دعوة خاتم الرسل وحكمته ٣٨
النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصفا ٣٨
النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحس وعالم الغيب ٣٨
متى يؤدي العقل دوره؟ ٣٩
بعد أهل الغرب عن النبوات شكّل مشكلة كبرى ٣٩
المشكلة أن رسول الله ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا ٤٠
الأنبياء يكونون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود ٤٠
كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب ٤١
العدو الذي يعيش في «الداخل» أضر وأفتك من كل عدو في الخارج ٤١
أصدق صوت في أصدق مناسبة ٤٢
كان العرب عقلاء منصفين ، شجعان صادقين ٤٢
الأنبياء يقفون على قمة جبل من النبوة يطلون منها على دنيا الحس ٤٣
مكابرة الفلاسفة والحكماء ٤٤
القضية هو الإيمان بوجود عالم لا يرى ٤٤
الخطر الحقيقي الذي تناساه أهل مكة وأهل العصر ٤٥
تفرد الأنبياء بمعرفة خواص العقائد والأعمال والأخلاق والعادات ٤٥
سبيل الأنبياء والمرسلين وسبيل الفاحصين والمكتشفين ٤٦
جواب الأنبياء الأخير ٤٦
مثال بليغ للحكمة النبوية والبلاغة العقلية ٤٦
لله ولرسوله المنّ والفضل ٤٧
إثارة الإيمان واليقين والحب الدفين ٤٧
أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا؟ ٤٨

الأنصار شعار والناس دثار ٤٨
أروع نموذج في الآداب البشرية والآداب الإنسانية ٤٨
تزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوة النبوية ٥٠
حكمة الدعوة وصفة الدعاة ٥٦
منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء ٧١
الدعوة إلى الله ـ حماية المجتمع من الجاهلية وصيانة الدين من التحريف ٨٧
حكمة الدعوة ومرونتها ومجاراتها لكل بيئة وعصر ١٠٢
الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومة وتتقيد بها ١٠٢
الدعوة لها مساحة زمانية ومساحة مكانية ١٠٣
الإيجاز والإعجاز في آية الدعوة سعتها وعمقها ١٠٤
الأمثلة والنماذج عنصر هام استخدمه القرآن فيما يتعلق بالدعوة ١٠٥
نموذج من دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه ١٠٦
الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر جبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية ١٠٧
دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة ١١٥
الغاية الأولى والأساسية من التعليم ١١٦
أمة محمد ﷺ ممتازة في خصائصها ومزاياها ، وصياغتها وعناصر تركيبها ١١٧
قضية البلاد الإسلامية أهم وأكبر خطراً ١١٨
المسؤولية الأولية للجامعات في بلد إسلامي ١١٩
لابد من اطمئنان القلب والعقل معاً ١١٩
درس من تجارب الماضي ١٢٠
مصير العلم مرتبط بالقلم ١٢٢
هذا الدين لن يفارق العلم ١٢٤
عصارة كل علم وثقافة : ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ١٢٥
حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف ١٢٦
العناية بتربية السيرة ١٢٨
من عوامل التأثير في المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات ١٢٨
روح التضحية والفداء ١٢٩
تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة في الدراسة والتحقيق ١٢٩
الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفخ روح الإيمان واليقين ١٣١
دور مصر الإسلامية القيادي في العالم الإسلامي ١٣٢
الأضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ١٣٤
دور الجاهلية العقائدية في بعض الأقطار الإسلامية بتأثير مواطنيها ١٣٤
الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد «العمري السرهندي» ١٣٥

الإمام ولي الله الدهلوي ـ رحمه الله ـ ١٣٦
خطته في الإصلاح ١٣٧
نجاحه في عمله ١٣٨
الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ورفقته وتأثيرهم في الحياة ١٣٨
الشيخ إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ ١٣٩
مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة والعاملين بالحديث ١٤١
مراكز الدعوة والتربية الهادئة المنشئة للدعاة والعلماء الصالحين ١٤٢
معهد ديوبند ومدرسة مظاهر العلوم وخدمتهما للدين ١٤٣
الشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي ١٤٤
الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ـ رحمه الله ـ ١٤٥
الشيخ أشرف علي التهانوي ـ رحمه الله ـ ١٤٦
الشيخ حسين أحمد المدني ـ رحمه الله ـ ١٤٦
الشيخ العلامة خليل أحمد السهارنفوري ١٤٨
العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا بن الشيخ يحيى الكاندهلوي ١٥٠
هدف المكفرين والمبتدعين ١٥٠
سر نجاح هذه المدارس ١٥١
قيادة حركة النضال ضد الحكم الإنجليزي ١٥١
ندوة العلماء ومعهدها ١٥٣
الشيخ العلامة السيد سليمان الندوي ـ رحمه الله ـ ١٥٣
منهج ندوة العلماء ١٥٤
الاتصال والعناية بالعالم العربي المسلم ١٥٥
الدعوة الدينية العالمية المعروفة بحركة التبليغ ١٥٧
يجب التركيز على مقاومة التحديات والأخطار للكيان الإسلامي ١٥٩
نحو تكوين إسلامي جديد ١٦١
مخطط عملي للانتفاضة الإسلامية ١٧٥
الأمة الإسلامية ، وحدتها ، ووسطيتها وآفاق المستقبل ١٨٠
مركز **الأمة الإسلامية ، ورسالتها** ١٩٢
المؤمن القوي العليم الصالح المصلح ١٩٣
الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة ١٩٤
حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية ١٩٦
سيطرة المادية على قادة التجديد في الشرق الإسلامي ١٩٧
دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها ١٩٩
التشخيص الديني حاجة أكيدة للأمة ٢٠٧

انتفاضة الأمة الإسلامية ووجود قيادة مؤمنة ٢١٢
الأقطار الإسلامية والعربية بين الانقياد لشرع الله أو التبعية للغرب ٢١٧
نتائج إغفال تنفيذ الشريعة ٢١٩
الآثار التدميرية للغزو الفكري أخطر من الغزو العسكري ٢٢٠
بين منهجين ٢٢٢
من يحارب الفكرة الإسلامية يقدم أكبر خدمة لأعداء الأمة ٢٢٣
الأخوة الإسلامية فوق العصبيات ٢٢٦
نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ٢٣٤
ارتباط مسير الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم، ودورهم ٢٤٦
مثالان للغيرة الإيمانية من تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً ٢٥١
دور الشباب المسلم في إسعاد البشرية ٢٥٥
العناية بالفروسية والحياة العسكرية ٢٥٩
رياح الإيمان تهب في القرن الثالث عشر الهجري ـ قصة الهجرة والجهاد في الهند ... ٢٦٢
لا سعادة حقيقية إلا بالدين ٢٦٨
أوربة أخفقت في إسعاد الإنسان بعلومها ووسائلها المادية ٢٦٨
الإسلام هو الدين ٢٧١
جوانب الاستفادة والاقتباس من الغرب ٢٧٣
محنة ذكاء وقوة إرادة ٢٧٤
نعومة حرير وصلابة حديد ٢٧٥
الاستفادة من الغرب ومجالها ٢٧٥
الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب ٢٧٧
عبودية الغرب الفكرية أسبابها وعلاجها ٢٨٠
واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ودورها البلاغي والنموذجي ٢٨٩
الدعوة إلى نبذ الدين خداع، واليهود والمسيحيون أكثر تعصباً مما يظهرون ... ٢٩٤
بحث وثائقي تاريخي واكتشاف علمي مهم إثبات الوثائق التاريخية العتيقة وتصديق الباحثين المسيحيين المعاصرين ٢٩٨
تبرئة المسيح عليه السلام من الصلب والقتل ٢٩٨
مقالات حول قضايا العرب ومعالجتها ٣٠٣
إلى القيادة العالمية من جديد أيها العرب ٣٠٥
زعامة العالم العربي ٣٢٠
أهمية العالم العربي ٣٢٠
محمد رسول الله ﷺ روح العالم العربي ٣٢١
الإيمان هو قوة العالم العربي ٣٢٢

تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية ٣٢٣
محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغني والصعلوك ٣٢٩
التخلص من أنواع الأثرة ٣٢٩
إيجاد الوعي في الأمة ٣٣٣
استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها ٣٣٤
تقدم مصر في ميدان التجارة والصناعة والعلم ٣٣٥
رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي ٣٣٦
إلى قمة القبلة العالمية ٣٣٦
الفتح للعرب المسلمين ٣٤٠
ثلاثة دروس من الحوادث الأخيرة ٣٥٦
عوامل النصر ٣٦٨
التربية والأخلاق التي مهّدت للتخاذل في فلسطين ٣٧١
المأساة الأخيرة في العالم العربي دراستها من الناحية الدينية، والخلقية، والمبدئية، والدعوية ٣٧٦
تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا ٣٨٤
مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج دروس وعبر يجب أن يُنتفع بها، وفجوات وثغرات يجب أن تسد ٣٩٦
مقالات متنوعة في الأركان الأربعة، وفي التوحيد ٤٠٩
الصلاة، دورها العظيم في تكوين مجتمع مثالي أفضل ٤١١
تأثير الصلاة في الأخلاق والميول ٤١١
التشريعات الحكيمة لتفخيم شأن الصلاة، وخلق الجو المناسب لها ٤١٢
الأذان نداء للصلاة، ودعوة للإسلام ٤١٢
التطهر وما يورثه من اهتمام ٤١٣
المساجد: فضلها، ومركزها في حياة المسلمين ٤١٣
الآداب المشروعة لتقوية الجو الإيماني الروحاني ٤١٤
الجماعة، أهميتها وفضلها ٤١٥
بعض حكم الجماعة، ومصالحها وبعض آدابها ٤١٥
مواساة طوعية شاملة أم مساواة إجبارية محدودة؟ ٤١٨
الصيام جمع بين «السلب» و«الإيجاب» ٤٣٤
تفريط المسلمين في مقاصد الصوم، وجناية العادات على العباد ٤٣٧
الصيانة من التحريف والغلو ٤٣٨
تشريع الصوم وأسراره كما ذكرها القرآن ٤٤٢
خصائص التشريع في الصوم وفضله وأحكامه ٤٤٤

لماذا خصَّ رمضان بالصوم ٤٤٥
موسم عالمي ومهرجان عام للعبادات والخيرات ٤٤٦
الجو العالمي ، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع ٤٤٦
الفضائل ومالها من تأثر وقوة ٤٤٧
ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض ٤٥٠
تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيمانه ٤٥٠
طفرة أو قفزة واسعة من سجن ضيق إلى عالم فسيح ٤٥١
تحدّ لعبّاد العقل والمادة ، ودعـوة إلى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرَّد ٤٥٢
«الحاج» طوع إشارة ، ورهين أمر ٤٥٥
فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان ٤٥٥
قصة إبراهيم ، وتمثيلها في الحج ٤٥٨
قصة إبراهيم في القرآن ، وصلتها بالبلد الأمين ٤٥٩
التشريعات الحكيمة في الحج وتأثيرها في النفس والحياة ٤٦٤
العالم في العصر الإبراهيمي والحج تخليد لعقيدة التوحيد ٤٧١
الحج تخليد لخصائص إبراهيم ومآثره ، وتجريد لدعوته وتعاليمه ٤٧٢
عنوان جديد وخط فاصل في كتاب الإنسانية ٤٧٣
عماد الإنسانية ، وقيام للناس ٤٧٣
مركز دائم للهداية والإرشاد والإصلاح والجهاد ٤٧٤
إلى مدينة الرسول ﷺ ومسجده العظيم ٤٧٤
عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها ، وتعصم الدين ٤٧٥
مركز الإشعاع العالمي الخالد ٤٧٧
مظهر الجامعة الإنسانية الإسلامية ٤٧٨
ليشهدوا منافع لهم ٤٧٨
يجب أن يمثل البلد الأمين الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ٤٧٩
يجب أن يبقـى «البلـد الأمين» محتفظـاً بطراز خاص ، والحج بروح الجهاد ٤٨٠
إبراهيم عليه السلام وبيت الله الحرام ٤٨٢
حجّة الوداع آية بينة ومعجزة خالدة ٤٨٥
حجّة الوداع وقيمتها البلاغية والتربوية ٤٩١
حجّة الوداع وأوانها ٤٩١
قيمتها البلاغية والتربوية ٤٩١
تسجيل دقائق حجّة النبي ٤٩٢
سياق حجته ﷺ إجمالياً ٤٩٢
كيف حجَّ النبي ﷺ ٤٩٢

خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع ٤٩٦
العقيدة الإسلامية السُّنِّيَّة ٤٩٩
مصادر تلقي العقيدة الصحيحة والعمدة فيها ٤٩٩
العقائد الإسلامية الأساسية ٥٠٤
حقيقة التوحيد والدين الخالص وحقيقة الشرك ٥٠٨
مظاهر الشرك وأعماله والعادات الجاهلية ٥١٠
هدف النبوة الأساسي وأهم مقاصد البعثة: القضاء على الجاهلية ٥١١
جهاد ورثة النبي ﷺ وحملة التشريع ضد البدع والمحدثات ٥١٢
الدعوة إلى التوحيد الخالص ومحاربة الشرك ومظاهره في رسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ٥١٤
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع ٥١٧
صلة الجمهور بالصوفية والتصوف وإقبالهم عليه ٥١٨
كلمة حق عند سلطان جائر ٥٢٣
الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الحياة ٥٢٥
نشر العلم ٥٢٧
الكفالة والمواساة ٥٢٧
ملاجيء الإنسانية ٥٢٩
الفهارس العلمية ٥٣١
١ ـ فهرس الآيات القرآنية ٥٢٣
٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية ٥٤٦
٣ ـ فهرس الأعلام ٥٥١
٤ ـ فهرس الأبيات الشعرية ٥٥٨
٥ ـ فهرس الأماكن والبقاع والبلدان ٥٥٩
٦ ـ فهرس الأمم والقبائل والجماعات ٥٦٤
٧ ـ فهرس الموضوعات ٥٦٦